القسم الثاني
النص المحقق

محققة عن نسختين كاملتين وأكثر من عشرة نسخ أخرى يستوعب مجموعها التفسير كله

تفسير القرآن العظيم

للحافظ

أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي

(٧٠٠ - ٧٧٤هـ)

تحقيق

سامي بن محمد السلامة

الجزء الأول

الفاتحة - البقرة

مقدمة ابن كثير[١]

قال الشيخ الإمام الأوحد، البارع الحافظ المتقن، عماد الدين أبو الفداء[٢] إسماعيل بن الخطيب أبى حفص عمر بن كَثير البصروى الشافعى، رحمه الله تعالى، ورضى عنه:

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ـ٤]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا . وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١ـ٥]، وافتتح خَلْقه بالحمد، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتمه بالحمد، فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]؛ ولهذا قال [الله][٣] تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

فله الحمد فى الأولى والآخرة، أى فى جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود فى ذلك كله، كما يقول المصلى: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شىء بعد»[٤]؛ ولهذا يُلْهَم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يُلْهمون النَّفَس، أى يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم؛ لما يرون من عظيم نعمه عليهم، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، وتوالى مِنَنه ودوام إحسانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

والحمد لله الذى أرسل رسله ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وختمهم بالنبى الأمى العربى المكى الهادى لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

(١) بعدها فى جـ: «رب يسر ولا تعسر» وفى ط: «رب يسر وأعن يا كريم».

(٢) فى جـ: «قال الشيخ العالم العلامة الأوحد الحافظ، المجتهد القدوة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، بركة الإسلام، حجة الأعلام، محيى السنة، ومن عظم الله به علينا المنة عماد الدين أبو الفضل».

(٣) زيادة من جـ.

(٤) هذا اقتباس من حديث رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٧١) من حديث البراء بن عازب، رضى الله عنه.

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿ **لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾** [الأنعام: ١٩].

فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعَجَم، وأسودَ وأحمرَ، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾** [هود: ١٧]. فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا [(١)] فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: ﴿**فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ .وَأُمْلِي لَهُمْ﴾** [القلم: ٤٤، ٤٥].

وقال رسول الله ﷺ: «بُعثتُ إلى الأحمر والأسود»[(٢)]. قال مجاهد: يعني: الإنس والجن. فهو، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مُبَلِّغاً لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذى ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾** [فصلت: ٤٢].

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نَدَبهم إلى تَفَهُّمه، فقال تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾** [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾** [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾** [محمد: ٢٤].

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتَعلُّم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾** [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [آل عمران: ٧٧].

فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا ـ أيها المسلمون ـ أن ننتهى عما ذمَّهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تَعَلُّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه، قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** [الحديد: ١٦، ١٧]. ففى ذكره تعالى لهذه الآية بعد التى قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيى الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصى، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه

(١) فى جـ: «ذكرناه».

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) من حديث جابر ،رضى الله عنه.

جواد كريم.

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق فى ذلك أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِل فى مكان فإنه قد فُسِّر فى موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى، رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [النحل: ٦٤].

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه»(١) يعنى: السنة. والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحى، كما ينزل(٢) القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، وقد استدل الإمام الشافعى، رحمه الله(٣)، وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسيرَ القرآن منه، فإن لم تجدْه فمن السنة، كما قال رسولُ الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟». قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد برأيى. قال: فضرب رسول الله ﷺ فى صدره، وقال: «الحمد لله الذى وفَّق رَسُولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله»(٤). وهذا الحديث فى المساند(٥) والسنن بإسناد جيد، كما هو مقرر فى موضعه.

وحينئذ، إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة، رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنه(٦).

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير(٧): حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش، عن أبى الضُّحَى، عن مسروق، قال: قال عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ: والذى لا إله غيره، ما نزلت آية من(٨) كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم

---

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٤/ ١٣١) وأبو داود فى السنن برقم (٤٦٠٤) من حديث المقدام بن معدى كرب، رضى الله عنه.

(٢) فى ب: «كما ينزله عليه». (٣) فى ب: «رحمة الله عليه».

(٤) رواه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٢٣٠) وأبو داود فى السنن برقم (٣٥٩٢) والترمذى فى السنن برقم (١٣٢٨) من طرق عن شعبة عن أبى عون عن الحارث بن عمرو عن ناس من أصحاب معاذ عن معاذ به، وقال الترمذى: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندى بمتصل، وأبو عون الثقفى اسمه محمد بن عبيد الله». وللشيخ ناصر الألبانى مبحث ماتع بين فيه كلام العلماء فى نقد الحديث. انظر: السلسلة الضعيفة برقم (٨٨١).

(٥) فى جـ: «المسانيد».

(٦) فى ب: «عنهم». (٧) فى ب: «جرير الطبرى». (٨) فى ب: «فى».

بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته[١]. وقال الأعمش أيضاً، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن[٢].

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا[٣].

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن وببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»[٤].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا وَكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مُسْلم قال[٥]: قال عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ: نعْم ترجمانَ القرآن ابنُ عباس[٦]. ثم رواه عن يحيى بن داود، عن إسحاق الأزرق، عن سفيانَ، عن الأعمش، عن مسلم بن صُبَيْح أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس[٧]. ثم رواه عن بُنْدَار، عن جعفر ابن عَوْن، عن الأعمش[٨]، به كذلك.

فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود: أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود، رضي الله عنه، في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعُمِّر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟.

وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف عليّ عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية: سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا[٩].

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره، عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بَلِّغوا عني ولو آية، وحَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج، ومن كذب عَلَيَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري عن عبد الله[١٠]؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٨٠) وجابر بن نوح ضعيف لكنه توبع، فرواه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٠٢) عن عمر بن حفص عن أبيه عن الأعمش به.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٨٠) من طريق الحسين بن واقد عن الأعمش به.

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٨٠) من طريق جرير عن عطاء عن أبي عبد الرحمن السلمي.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٢٧، ٢٦٦، ٣١٤) وأصله في صحيح البخاري برقم (٧٥).

(٥) في ب: «كذا قال».

(٦) تفسير الطبري (١/ ٩٠).

(٧) تفسير الطبري (١/ ٩٠) ورواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٣٧) من طريق سفيان به.

(٨) تفسير الطبري (١/ ٩٠) ورواه أبو خيثمة في العلم برقم (٤٨) من طريق جعفر بن عون به.

(٩) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٨١) والفسوي في تاريخه (١/ ٤٩٥) من طريق الأعمش به.

(١٠) صحيح البخاري برقم (٣٤٦١).

من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح (١).

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدّتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نَقْلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: ﴿**قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم**﴾، فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿**فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا**﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه. أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً. فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور، والله الموفق للصواب.

[قال سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد: كان ابن عباس إذا سئل عن الآية في القرآن قال به، فإن لم يكن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به، فإن لم يكن فعن أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، فإن لم يكن اجتهد برأيه](٢).

---

(١) في جـ: «صحيح للاعتقاد».

(٢) زيادة من ط، ب.

فصل

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جَبْر[١]، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: عَرَضْتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا طَلْق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مُلَيْكَة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله[٣]. ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به[٤].

وكسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق ابن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مُزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالا، وليس كذلك، فإن منهم من يعبّر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير، رحمه الله، حيث قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سفيان، حدثني عبد الأعلى، هو ابن عامر الثعلبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار»[٥].

وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي، من طرق، عن سفيان الثوري، به. ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي عَوَانة، عن عبد الأعلى، به[٦]. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

---

(١) في جـ، ط: «جبير».

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٩٠).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٩٠).

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٩١) من طريق أبي بكر الحنفي سمعت سفيان فذكره.

(٥) تفسير الطبري (١/ ٧٧).

(٦) سنن الترمذي برقم (٢٩٥٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٨٤) وسنن أبي داود برقم (٣٦٥٢)، والحديث مداره على عبد الأعلى ابن عامر قال أبو زرعة: ضعيف، وتركه ابن مهدي.

وهكذا رواه ابن جرير ـ أيضاً ـ عن يحيى بن طلحة اليربوعى، عن شريك، عن عبد الأعلى، به مرفوعا[١]. ولكن رواه محمد بن حميد، عن الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس المُلائِى، عن عبد الأعلى، عن سعيد، عن ابن عباس، فوقفه[٢]. وعن محمد بن حميد، عن جرير، عن ليث، عن بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس من قوله[٣]، فالله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا العباس بن عبد العظيم العَنْبَرِى، حدثنا حَبَّان بن هلال، حدثنا سهيل أخو حزم، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن جُنْدب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال فى القرآن برأيه فقد أخطأ»[٤].

وقد روى هذا الحديث أبو داود، والترمذى، والنسائى من حديث سهيل بن أبى حزم القُطعى، وقال الترمذى: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم فى سهيل[٥].

وفى لفظ لهم: «من قال فى كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ» أى: لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى فى نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو فى النار، وإن وافق حكمه الصواب فى نفس الأمر، لكن يكون أخف جُرْماً ممن أخطأ، والله أعلم، وهكذا سمى الله القَذَفة كاذبين، فقال: ﴿**فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾ [النور: ١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى فى نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا علم له به، والله أعلم.

ولهذا تَحَرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مرة، عن أبى مَعْمَر، قال: قال أبو بكر الصديق، رضى الله عنه: أىّ أرض تقلّنى؟ وأى سماء تظلنى؟ إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم[٦].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد[٧] بن يزيد، عن العَوَّام بن حَوْشَب، عن إبراهيم التَّيْمِى؛ أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أى سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى؟ إذا أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم. منقطع[٨].

وقال أبو عبيد أيضاً: حدثنا يزيد، عن حميد، عن أنس؛ أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر:

---

(١) تفسير الطبرى (١/ ٧٧).

(٢) تفسير الطبرى (١/ ٧٨) ورواه وكيع عن عبد الأعلى فوقفه، رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٥١٢).

(٣) تفسير الطبرى (١/ ٧٨).

(٤) تفسير الطبرى (١/ ٧٩).

(٥) سنن أبى داود برقم (٣٦٥٢) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٨٦).

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٧٨).

(٧) فى ب: «محمود».

(٨) فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٥١٣) عن محمد بن عبيد عن العوام بن حوشب به.

﴿وفَاكِهَةً وأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر[١].

وقال عَبْد بن حُمَيْد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: كنا عند عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وفى ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿وفَاكِهَةً وأَبًّا﴾ فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف[٢]، فما عليك ألا تدريه[٣].

وهذا كله محمول على أنهما، رضى الله عنهما، إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وعِنَبًا﴾ الآية [عبس: ٢٧، ٢٨].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن أيوب، عن ابن أبى مُلَيْكَة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها[٤]. إسناده[٥] صحيح.

وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبى مليكة، قال: سأل رجل ابن عباس عن ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فقال له ابن عباس: فما ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثنى. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله تعالى فى كتابه، الله أعلم بهما. فكره أن يقول فى كتاب الله ما لا يعلم[٦].

وقال ـ أيضاً ـ ابن جرير: حدثنى يعقوب ـ يعنى ابن إبراهيم ـ حدثنا ابن عُلَيَّة، عن مَهْدى بن ميمون، عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طَلْق بن حبيب إلى جُنْدُب بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال: أحرِّج عليك إن كنت مسلماً إلا ما قمتَ عنى، أو قال: أن تجالسنى[٧].

وقال مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول فى القرآن شيئاً[٨].

وقال الليث، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان لا يتكلم إلا فى المعلوم من القرآن[٩].

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، قال: سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال: لا

---

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٥١٢) عن يزيد به، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥١٤) من طريق يزيد عن حميد به، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٢) فى جـ: «التكلف يا عمر».

(٣) ورواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٣٢٧)، ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٩٣) عن سليمان بن حرب به مختصراً ولفظه: «نهينا عن التكلف».

(٤) تفسير الطبرى (١/ ٨٦).

(٥) فى ب: «إسناد».

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٢٨).

(٧) تفسير الطبرى (١/ ٨٦).

(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨٥) من طريق ابن وهب عن مالك به.

(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨٦) من طريق ابن وهب عن مالك به.

تسألنى عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شىء، يعنى: عكرمة(١).

وقال ابن شَوْذَب: حدثنى يزيد بن أبى يزيد، قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع(٢).

وقال ابن جرير: حدثنى أحمد بن عبدة الضَّبِّىُّ، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن عمر، قال: لقد أدركتُ فقهاء المدينة، وإنهم ليعظِّمون القول فى التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم ابن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع(٣).

وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن هشام بن عُرْوَة، قال: ما سمعت أبى تَأَوَّل آية من كتاب الله قط(٤).

وقال أيوب، وابن عَوْن، وهشام الدَّسْتوائى، عن محمد بن سيرين: سألت عبَيدة السلمانى، عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمونَ فيم أنزل(٥) القرآن؟ فاتَّق الله، وعليك بالسداد(٦).

وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ، عن ابن عون، عن عبد الله بن مسلم بن يسار، عن أبيه، قال: إذا حدثت عن الله فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده(٧).

حدثنا هُشَيْم، عن مُغيرة، عن إبراهيم، قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه(٨).

وقال شعبة عن عبد الله بن أبى السَّفَر، قال: قال الشعبى: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله عز وجل(٩).

وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم، حدثنا عمر بن أبى زائدة، عن الشعبى، عن مسروق، قال: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله(١٠).

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨٧) وابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٥١١) من طريق محمد بن جعفر عن شعبة به.
(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨٦) عن العباس بن الوليد عن أبيه عن ابن شوذب به.
(٣) تفسير الطبرى (١/ ٨٥).
(٤) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).
(٥) فى جـ: «نزل».
(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨٦) من طريق ابن علية عن أيوب وابن عون به.
(٧) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).
(٨) فضائل القرآن (ص ٢٢٩) ورواه أبو نعيم (٤/ ٢٢٢) من طريق جرير عن المغيرة به.
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨٧) من طريق سعيد بن عامر عن شعبة به.
(١٠) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).

سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء فى الحديث المروى من طرق: «من سئل عن علم فكتمه، أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار»[١].

فأما الحديث الذى رواه أبو جعفر بن جرير:

حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا محمد بن خالد بن عَثْمة، حدثنا جعفر بن محمد بن الزبيرى، حدثنى هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: ما كان النبى ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آيا تُعد، علمهن إيَّاه جبريل، عليه السلام. ثم رواه عن أبى بكر محمد بن يزيد الطرسوسى، عن مَعْن بن عيسى، عن جعفر بن خالد، عن هشام، به.[٢]

فإنه حديث منكر غريب، وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشى الزبيرى، قال البخارى: لا يتابع فى حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى: منكر الحديث.

وتكلَّم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى، مما وقفه عليها جبريل. وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد فى جهله، كما صرح بذلك ابن عباس، فيما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيان، عن أبى الزناد [عن الأعرج][٣]، قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله[٤].

قال ابن جرير: وقد روى نحوه فى حديث فى إسناده نظر:

حدثنى يونس بن عبد الأعلى الصدفى، أنبأنا ابن وهب قال: سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبى، عن أبى صالح، مولى أم هانئ، عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على أربعة[٥] أحرف: حلال وحرام، لا يعذر أحد بالجهالة به. وتفسير تفسره [العرب، وتفسير

---

(١) جاء من حديث أبى هريرة، ومن حديث أنس، وأبى سعيد الخدرى، رضى الله عنهم. أما حديث أبى هريرة، فرواه أحمد فى المسند (٢/٢٦٣) وأبو داود فى السنن برقم (٣٦٥٨) والترمذى فى السنن برقم (٢٦٤٩) وابن ماجة فى السنن برقم (٢٦١) من طريق على ابن الحكم عن عطاء عن أبى هريرة، وقال الترمذى: «حديث حسن». وأما حديث أنس، فرواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٦٤) من طريق يوسف بن إبراهيم عن أنس، وقال البوصيرى فى الزوائد (١/١١٧): «هذا إسناد ضعيف». وأما حديث أبى سعيد، فرواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٦٥) من طريق محمد بن داب عن صفوان بن سليم عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبى سعيد، وقال البوصيرى فى الزوائد (١/١١٨): «هذا إسناد ضعيف».

(٢) تفسير الطبرى (١/ ٨٤) ورواه أبو يعلى فى مسنده (٨/ ٢٣) من طريق معن القزاز عن فلان بن محمد بن خالد، عن هشام بن عروة به، ورواه البزار فى مسنده برقم (٢١٨٥) «كشف الأستار» عن محمد بن المثنى، عن محمد بن خالد بن عثمة، عن حفص - أظنه ابن عبد الله - عن هشام عن أبيه به.

(٣) زيادة من نسخة مساعدة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٤) تفسير الطبرى (١/ ٧٥).

(٥) فى هـ، ب: «سبعة» والمثبت من جـ، والطبرى.

تفسره][١] العلماء. ومتشابه لا يعلمه إلا الله، عز وجل، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب»[٢].

والنظر الذى أشار إليه فى إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبى؛ فإنه متروك الحديث؛ لكن قد يكون إنما وهم فى رفعه. ولعله من كلام ابن عباس، كما تقدم، والله أعلم بالصواب.

---

(١) زيادة من جـ، والطبرى.
(٢) تفسير الطبرى (١/ ٧٦).

كتاب فضائل القرآن

قال البخارى، رحمه الله:

كيف نزول الوحى وأول ما نزل:

قال ابن عباس: المهيمن الأمين القرآن، أمين على كل كتاب قبله: حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن يحيى عن أبى سلمة قال: أخبرتنى عائشة وابن عباس قالا: لبث النبى ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشرا[(١)].

ذكر البخارى، رحمه الله، كتاب «فضائل القرآن» بعد كتاب التفسير؛ لأن التفسير أهم ولهذا بدأ به، [ونحن قدمنا الفضائل قبل التفسير وذكرنا فضل كل سورة قبل تفسيرها ليكون ذلك باعثا على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه والله المستعان][(٢)].

وقول ابن عباس فى تفسير المهيمن إنما يريد به البخارى قوله تعالى فى المائدة بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله:

حدثنا المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى معاوية عن على ـ يعنى ابن أبى طلحة ـ عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: المهيمن: الأمين. قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله[(٣)]. وفى رواية: شهيدا عليه[(٤)]. وقال سفيان الثورى وغير واحد من الأئمة عن أبى إسحاق السبيعى، عن التميمى، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: مؤتمنا[(٥)]. وبنحو ذلك قال مجاهد والسدى وقتادة وابن جريج والحسن البصرى وغير واحد من أئمة السلف. وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رَقَب الرجل الشىء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن، وفى أسماء الله تعالى: المهيمن، وهو الشهيد على كل شىء، والرقيب: الحفيظ بكل شىء.

وأما الحديث الذى أسنده البخارى: أنه، عليه السلام، أقام بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشرا، فهو مما انفرد به البخارى دون مسلم، وإنما رواه النسائى من حديث شيبان وهو ابن عبد الرحمن، عن يحيى وهو ابن أبى كثير، عن أبى سلمة عنها[(٦)].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يزيد عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة، ثم

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٨، ٤٩٧٩).

(٢) جاء فى م: «فجرينا على منواله وسننه مقتدين به» وما أثبته من ط، جـ.

(٣) تفسير الطبرى (١٠/ ٣٧٩) ط. المعارف.

(٤) تفسير الطبرى (١٠/ ٣٧٧) ط. المعارف.

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٠/ ٣٧٨) ط. المعارف.

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٧٧).

قرأ ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦]. هذا إسناد صحيح[(١)].
أما إقامته بالمدينة عشرا فهذا ما لا خلاف فيه، وأما إقامته بمكة بعد النبوة فالمشهور ثلاث عشرة سنة؛ لأنه، عليه الصلاة والسلام، أوحى إليه وهو ابن أربعين سنة، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح، ويحتمل أنه حذف ما زاد على العشرة اختصارا فى الكلام؛ لأن العرب كثيرا ما يحذفون الكسور فى كلامهم، أو أنهما إنما اعتبرا قرن جبريل، عليه السلام، به عليه السلام. فإنه[(٢)] قد روى الإمام أحمد أنه قرن به، عليه السلام، ميكائيل فى ابتداء الأمر، يلقى إليه الكلمة والشىء، ثم قرن به جبريل.

ووجه مناسبة هذا الحديث بفضائل القرآن: أنه ابتدئ بنزوله فى مكان شريف، وهو البلد الحرام، كما أنه كان فى زمن شريف وهو شهر رمضان، فاجتمع له شرف الزمان والمكان؛ ولهذا يستحب إكثار تلاوة القرآن فى شهر رمضان؛ لأنه ابتدئ نزوله فيه؛ ولهذا كان جبريل يعارض به رسول الله ﷺ فى كل سنة فى شهر رمضان، فلما كان فى السنة التى توفى فيها عارضه به مرتين تأكيدا وتثبيتاً.

وأيضا فى هذا الحديث بيان أنه من القرآن مكّى ومنه مدنى، فالمكى: ما نزل قبل الهجرة، والمدنى: ما نزل بعد الهجرة، سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أى البلاد كان، حتى ولو كان بمكة أو عرفة. وقد أجمعوا على سور أنها من المكى وأخر أنها من المدنى، واختلفوا فى أخر، وأراد بعضهم ضبط ذلك بضوابط فى تقييدها عسر ونظر، ولكن قال بعضهم: كل سورة فى أولها شىء من الحروف المقطعة فهى مكية إلا البقرة وآل عمران، كما أن كل سورة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهى مدنية وما فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. فيحتمل أن يكون من هذا ومن هذا، والغالب أنه مكى. وقد يكون مدنيا كما فى البقرة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا[(٣)] رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢٠]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا من سمع الأعمش يحدث عن إبراهيم بن علقمة: كل شىء فى القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه أنزل بالمدينة، وما كان﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فإنه أنزل بمكة[(٤)]. ثم قال: حدثنا على بن معبد، عن أبى المليح، عن ميمون بن مهران، قال: ما كان فى القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ و﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ فإنه مكى، وما كان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه مدنى[(٥)].

ومنهم من يقول: إن بعض السور نزل مرتين، مرة بالمدينة ومرة بمكة، والله أعلم. ومنهم من يستثنى من المكى آيات يدعى أنها من المدنى، كما فى سورة الحج وغيرها.

والحق فى ذلك ما دل عليه الدليل الصحيح، فالله أعلم. وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن

---

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢٢) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٢٢) من طريق يزيد بن هارون به، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) فى ط: «فكأنه».

(٣) فى م: «اتقوا» وهو خطأ.

(٤، ٥) فضائل القرآن (ص ٢٢٢).

صالح، عن معاوية بن صالح بن على بن أبى طلحة، قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، والذين كفروا، والفتح، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والحواريون، والتغابن، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ والفجر، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ و﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ و ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ وسائر ذلك بمكة(١).

وهذا إسناد صحيح عن ابن أبى طلحة مشهور، وهو أحد أصحاب ابن عباس الذين رووا عنه التفسير، وقد ذكر فى المدنى سورا فى كونها مدنية نظر، وفاته الحجرات والمعوذات.

الحديث الثانى: وقال البخارى: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا معتمر قال: سمعت أبى عن أبى عثمان قال: أنبئت أن جبريل، عليه السلام، أتى النبى ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، فقال النبى ﷺ: «من هذا؟» أو كما قال، قالت: هذا دحية الكلبى، فلما قام قلت: والله ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبى ﷺ يُخبر خَبر جبريل. أو كما قال، قال أبى: فقلت لأبى عثمان: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أسامة بن زيد. وهكذا رواه أيضا فى علامات النبوة عن عباس بن الوليد النرسى، ومسلم فى فضائل أم سلمة عن عبد الأعلى بن حماد [ومحمد بن عبد الأعلى](٢) كلهم عن معتمر بن سليمان به(٣).

والغرض من إيراد هذا الحديث هاهنا أن السفير بين الله وبين محمد ﷺ جبريل عليه السلام وهو ملك كريم ذو وجاهة وجلالة ومكانة كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ الآيات [التكوير: ١٩ ـ ٢٢]. فمدح الرب تبارك وتعالى عبديه ورسوليه جبريل ومحمداً ﷺ وسنستقصى الكلام على تفسير هذا الكتاب(٤) فى موضعه إذا وصلنا إليه إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وفى الحديث فضيلة عظيمة لأم سلمة، رضى الله عنها ـ كما بينه مسلم رحمه الله ـ لرؤيتها لهذا الملك العظيم، وفضيلة أيضا لدحية بن خليفة الكلبى، وذلك أن جبريل، عليه السلام، كان كثيرا ما يأتى رسول الله ﷺ على صورة دحية وكان جميل الصورة، رضى الله عنه، وكان من قبيلة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبى، كلهم ينسبون إلى كلب بن وبرة وهم قبيلة من قضاعة، وقضاعة قيل: إنهم من عدنان، وقيل: من قحطان، وقيل: بطن مستقل بنفسه، والله أعلم.

---

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢١).
(٢) زيادة من جـ، م.
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٠)، (٣٦٣٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٤٥١).
(٤) فى جـ. «المكان».

الحديث الثالث: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث بن سعيد المقبرى، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال النبى (١) ﷺ: «ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»(٢).

ورواه أيضا فى [كتاب] (٣) الاعتصام عن عبد العزيز بن عبد الله ومسلم والنسائى عن قتيبة جميعا، عن الليث بن سعد، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبيه ـ واسمه كيسان المقبرى ـ به.

وفى هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أعطيها نبى من الأنبياء، وعلى كل كتاب أنزله، وذلك أن معنى الحديث: ما من نبى إلا أعطى من المعجزات ما آمن عليه البشر، أى: ما كان دليلا على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من اتبعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم يبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهده فى زمانه، فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ فإنما كان معظم ما آتاه الله وحيا منه إليه منقولا إلى الناس بالتواتر، ففى كل حين هو كما أنزل، فلهذا قال: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا»، وكذلك وقع، فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته؛ ولهذا قال الله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣] ثم تحداهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، وقصر التحدى على هذا المقام فى السور (٤) المكية كما ذكرنا وفى المدنية أيضا كما فى سورة البقرة، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] فأخبرهم بأنهم عاجزون عن معارضته بمثله، وأنهم لايفعلون ذلك فى المستقبل أيضا، وهذا وهم أفصح الخلق وأعلمهم بالبلاغة والشعر وقريض الكلام وضروبه، لكن جاءهم من الله مالا قبل لأحد من البشرية من الكلام الفصيح البليغ، الوجيز، المحتوى على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة، والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآتية، والأحكام العادلة والمحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبى، حدثنا محمد بن إسحاق قال: ذكر محمد بن كعب القرظى عن الحارث بن عبد الله الأعور قال: قلت: لآتين أمير المؤمنين، فلأسألنه عما سمعت العشية [قال] (٥): فجئته بعد العشاء، فدخلت عليه، فذكر الحديث. قال: ثم

(١) فى جـ: «رسول الله».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١)، (٧٢٧٤).
(٣) زيادة من جـ.
(٤) فى جـ، ط: «السورة».
(٥) زيادة من جـ، ط.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أتانى جبريل فقال: يامحمد، أمتك مختلفة بعدك». قال: «فقلت له: فأين المَخْرَج ياجبريل؟» قال: فقال:«كتاب الله به يَقْصِم الله كلَّ جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك، مرتين، قول فَصْل وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن، ولاتفنى عجائبه، فيه نبأ من كان قبلكم، وفصل ما بينكم، وخبر ما هو كائن بعدكم» هكذا رواه الإمام أحمد(١). وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا حسين بن على الجعفى، حدثنا حمزة الزيات، عن أبى المختار الطائى، عن ابن أخى الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، قال: مررت فى المسجد فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث فدخلت علَى علىّ فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى الناس قد خاضوا فى الأحاديث؟ قال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة» فقلت: ما المَخْرج منها يارسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكْم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهَزْل، من تركه من جبار قَصَمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تَلْتَبِس به الألسنة، ولايشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق عن كثرة الرد، ولاتنقضى عجائبه، هو الذى لم تنته الجن إذْ سمعته حتى قالوا: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ**﴾ [الجن: ١، ٢]، من قال به صَدَق، ومن عمل به أجِر، ومن حكم به عَدَل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم». خذها إليك يا أعور، ثم قال: هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول وفى حديث الحارث مقال(٢).

قلت: لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظى، عن الحارث الأعور، فبرئ حمزة من عهدته، على أنه وإن كان ضعيف الحديث إلا أنه إمام فى القراءة والحديث، مشهور من رواية الحارث الأعور وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما إنه تعمد الكذب فى الحديث فلا، والله أعلم.

وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين على، رضى الله عنه، وقد وَهِم بعضهم فى رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ.

قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتابه فضائل القرآن: حدثنا أبو اليقظان، حدثنا عمار بن محمد الثورى أو غيره عن أبى إسحاق الهجرى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله عز وجل، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمَة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يعوج فيقوم، لا يزيغ فيستعتب، ولاتنقضى عجائبه، ولا يَخْلَق عن كثرة الرد، فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إنى لا أقول لكم الـم حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر» (٣). وهذا غريب من هذا الوجه، وقد رواه محمد بن فضيل عن أبى إسحاق

(١) المسند (١/ ٩١).

(٢) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٦).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢١) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٥٥) من طريق الهجرى به.

الهجرى، واسمه إبراهيم بن مسلم، وهو أحد التابعين، ولكن تكلموا فيه كثيرا.

وقال أبو حاتم الرازى: لين ليس بالقوى. وقال أبو الفتح الأزدى: رفَّاع كثير الوهم. قلت: فيحتمل، والله أعلم، أن يكون وهم فى رفع هذا الحديث، وإنما هو من كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد من وجه آخر، والله أعلم.

وقال أبو عبيد أيضا: حدثنا حجاج عن إسرائيل عن أبى إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود قال: لا يسأل عبد عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله[(١)].

الحديث الرابع: قال البخارى: حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبى، عن صالح بن كيسان، عن ابن [(٢)]شهاب، قال: أخبرنى أنس بن مالك أن الله تابع الوحى على رسوله ﷺ قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحى، ثم توفى رسول الله ﷺ بعد. وهكذا رواه مسلم عن عمرو بن محمد هذا ـ وهو الناقد ـ وحسن الحلوانى وعبد بن حميد والنسائى عن إسحاق ابن منصور الكوسج، أربعتهم عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهرى به[(٣)].

ومعناه: أن الله تعالى تابع نزول الوحى على رسول الله ﷺ شيئاً بعد شىء كل وقت بما يحتاج إليه، ولم تقع فترة بعد الفترة الأولى التى كانت بعد نزول الملك أول مرة بقوله: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾[العلق: ١] فإنه استلبث الوحى بعدها حينا يقال: قريبا من سنتين أو أكثر، ثم حمى الوحى وتتابع، وكان أول شىء نزل بعد تلك الفترة ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ [المدثر: ١، ٢].

الحديث الخامس: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن الأسود بن قيس قال: سمعت جندبا يقول: اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله تعالى: ﴿**والضحى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**﴾ [الضحى: ١ـ٣][(٤)].

وقد رواه البخارى فى غير موضع أيضا، ومسلم والترمذى والنسائى من طرق أخر[(٥)]، عن سفيان ـ وهو الثورى ـ وشعبة بن الحجاج كلاهما عن الأسود بن قيس العبدى، عن جندب بن عبد الله البجلى، به. وسيأتى الكلام على هذا الحديث فى تفسير سورة الضحى إن شاء الله تعالى.

والمناسبة فى ذكر هذا الحديث والذى قبله فى فضائل القرآن: أن الله تعالى له برسوله عناية

---

(١) فضائل القرآن (ص ٢١).

(٢) فى ط، جـ: «أبى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٢) وصحيح مسلم برقم (٣٠١٦).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٣).

(٥) صحيح البخارى برقم (١١٢٥، ٤٩٥٠، ٤٩٥١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٧) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨١).

عظيمة ومحبة شديدة، حيث جعل الوحى متتابعا عليه ولم يقطعه عنه؛ ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مفرقا ليكون ذلك فى أبلغ العناية والإكرام.

قال البخارى، رحمه الله: نزل القرآن بلسان قريش والعرب، قرآنا عربيا، بلسان عربى مبين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب(١)، عن الزهرى: أخبرنى أنس بن مالك قال: فأمر عثمان بن عفان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها فى المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد فى عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم، ففعلوا (٢).

هذا الحديث قطعة من حديث سيأتى قريبا والكلام عليه ومقصود البخارى منه ظاهر، وهو أن القرآن نزل بلغة قريش، وقريش خلاصة العرب؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد، حدثنا يزيد، حدثنا شيبان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لا يملى فى مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش أو غلمان ثقيف. وهذا إسناد صحيح (٣). وقال أيضا: حدثنا إسماعيل بن أسد، حدثنا هوذة، حدثنا عوف، عن عبد الله بن فضالة، قال: لما أراد عمر أن يكتب الإمام أقعد له نفرا من أصحابه وقال: إذا اختلفتم فى اللغة فاكتبوها بلغة مضر، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر ﷺ(٤)، وقد قال الله تعالى: ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ الآية [فصلت:٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم ذكر البخارى، رحمه الله، حديث يعلى بن أمية أنه كان يقول: ليتنى أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحى. فذكر الحديث الذى سأل عمن أحرم بعمرة وهو متمطخ بطيب وعليه جبة، وقال: فنظر رسول الله ﷺ ساعة ثم فجاءه الوحى، فأشار عمر إلى يعلى أى: تعال، فجاء يعلى، فأدخل رأسه فإذا هو محمر الوجه يغط كذلك ساعة، ثم سرى عنه، فقال: «أين الذى سألنى عن العمرة آنفا؟» فذكر أمره بنزع الجبة وغسل الطيب.

وهذا الحديث رواه جماعة (٥) من طرق عديدة(٦)، والكلام عليه فى كتاب الحج، ولا تظهر مناسبة ما بينه وبين هذه الترجمة، ولا يكاد، ولو ذكر فى الترجمة التى قبلها لكان أظهر وأبين، والله أعلم.

---

(١) فى جـ: «سفيان».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٤).
(٣) المصاحف (ص ١٧).
(٤) المصاحف (ص١٧).
(٥) ط، جـ: «الجماعة».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٥)، وبرقم (١٨٤٧، ١٧٨٩) وصحيح مسلم برقم (١١٨٠) وسنن أبى داود برقم (١٨١٩، ١٨٢٠) وسنن الترمذى برقم (٨٣٦) وسنن النسائى (٥/ ١٣٠).

جمع القرآن

قال المؤلف، رحمه الله[١] :فائدة جليلة حسنة: ثبت فى الصحيحين عن أنس قال: جمع القرآن على عهد النبى ﷺ أربعة، كلهم من الأنصار؛ أبى بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. فقيل له: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتى. وفى لفظ للبخارى عن أنس قال: مات النبى ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة؛ أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ونحن ورثناه.

قلت: أبو زيد هذا ليس بمشهور؛ لأنه مات قديما، وقد ذكروه فى أهل بدر، وقال بعضهم:سعيد ابن عبيد. ومعنى قول أنس: «ولم يجمع القرآن». يعنى من الأنصار سوى هؤلاء، وإلا فمن المهاجرين جماعة كانوا يجمعون القرآن كالصديق، وابن مسعود، وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم.

قال الشيخ أبو الحسن الأشعرى، رحمه الله: قد علم بالاضطرار أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر فى مرض الموت ليصلى بالناس، وقد ثبت فى الخبر المتواتر أن رسول الله ﷺ قال: «ليؤم القوم أقرؤهم»[٢]، فلو لو لم يكن الصديق أقرأ القوم لما قدمه عليهم. نقله أبو بكر بن زنجويه فى كتاب فضائل الصديق عن الأشعرى.

وحكى القرطبى فى أوائل تفسيره عن القاضى أبى بكر الباقلانى أنه قال ـ بعد ذكره حديث أنس ابن مالك هذا ـ: فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان، وعلى، وتميم الدارى، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن العاص. فقول أنس: «لم يجمعه غير أربعة» يحتمل لم يأخذه تلقيا من فِىّ رسول الله ﷺ غير هؤلاء الأربعة، وأن بعضهم تلقى بعضه عن بعض. قال: وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبى ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول لهم[٣].

قال القرطبى: لم يذكر القاضى ابن مسعود وسالما مولى أبى حذيفة، وهما ممن جمع القرآن[٤].[نقلت هذه من على ظهر الجزء الأول من أجزاء المؤلف][٥] . ا. هـ.

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت قال: أرسل إلى أبو بكر ـ مقتل أهل اليمامة ـ فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر بن الخطاب أتانى، فقال: إن القتل قد استَحَرّ بقُرَّاء القرآن، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لانتهمك، وقد

---

(١) فى م: «قال المؤلف، رحمه الله، فيما وجد على ظهر الجزء الأول من تفسيره» وسيأتى هذا فى ط فى آخر الفائدة.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٦٧٢) من حديث عقبة بن عمرو، رضى الله عنه.

(٣، ٤) تفسير القرطبى (١/ ٥٧).

(٥) زيادة من ط.

كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما. فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخَاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾ [التوبة:١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر، رضى الله عنهم[(١)].

وقد روى البخارى هذا [الحديث] [(٢)] فى غير موضع من كتابه، ورواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى من طرق عن الزهرى به[(٣)].

وهذا من أحسن وأجل وأعظم ما فعله الصديق، رضى الله عنه، فإنه أقامه الله بعد النبى ﷺ مقاما لا ينبغى لأحد بعده، قاتل الأعداء من مانعى الزكاة، والمرتدين، والفرس والروم، ونفذ الجيوش، وبعث البعوث والسرايا، ورد الأمر إلى نصابه بعد الخوف من تفرقه وذهابه، وجمع القرآن العظيم من أماكنه المتفرقة حتى تمكن القارئ من حفظه كله، وكان هذا من سر قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فجمع الصديق الخير وكف الشرور، رضى الله عنه وأرضاه. ولهذا روى غير واحد من الأئمة منهم وَكيع وابن زيد وقبيصة عن سفيان الثورى عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير عن عبد خير، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، أنه قال: أعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين[(٤)]. إسناده صحيح.

وقال أبو بكر بن أبى داود فى كتاب المصاحف: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا عبدة، عن هشام، عن أبيه، أن أبا بكر هو الذى جمع القرآن بعد النبى ﷺ، يقول: ختمه[(٥)]. صحيح أيضا. وكان عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، هو الذى تنبه لذلك لما استحر القتل بالقراء، أى اشتد القتل وكثر فى قراء القرآن يوم اليمامة، يعنى يوم اليمامة، يعنى يوم قتال مسيلمة الكذاب وأصحابه ومن بنى حنيفة بأرض اليمامة فى حديقة الموت، وذلك أن مسيلمة التف معه من المرتدين قريب من مائة ألف، فجهز الصديق لقتاله خالد بن الوليد فى قريب من ثلاثة عشر ألفاً، فالتقوا معهم[(٦)]، فانكشف الجيش الإسلامى لكثرة من فيه من الأعراب، فنادى القراء من كبار الصحابة: يا خالد، يقولون: ميزنا من هؤلاء الأعراب فتميزوا [(٧)] منهم، وانفردوا، فكانوا قريبا من ثلاثة آلاف، ثم صدقوا الحملة، وقاتلوا قتالا شديدا، وجعلوا يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، فلم يزل ذلك دأبهم حتى فتح الله

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٦).

(٢) زيادة من جـ.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٧٩، ٤٩٨٩) والمسند (١/ ١٠) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٩٥).

(٤) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص ١٥٦) وابن أبى داود فى المصاحف (ص١١).

(٥) المصاحف (ص ١٢). (٦) فى جـ: «بهم». (٧) فى جـ: «فميزوا».

عليهم وولّى جيش الكفار [١] فارا، وأتبعتهم السيوف المسلمة فى [أقفيتهم] [٢] قتلا وأسرا، وقتل الله مسيلمة، وفرق شمل أصحابه، ثم رجعوا إلى الإسلام، ولكن قتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة، رضى الله عنهم، فلهذا أشار عمر على الصِّديق بأن يجمع القرآن؛ لئلا يذهب منه شىء بسبب موت من يكون يحفظه من الصحابة بعد ذلك فى مواطن القتال، فإذا كتب وحفظ صار ذلك محفوظا فلا فرق بين حياة من بلغه أو موته، فراجعه الصديق قليلا ليثبت فى الأمر، ثم وافقه، وكذلك راجعهما زيد بن ثابت فى ذلك ثم صارا [٣] إلى ما رأياه، رضى الله عنهم أجمعين، وهذا المقام من أعظم فضائل زيد بن ثابت الأنصارى؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خَلاّد، حدثنا يزيد، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن؛ أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله فقيل: كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة، فقال: إنا لله، فأمر بالقرآن فجمع فكان أول من جمعه فى المصحف[٤].

هذا منقطع، فإن الحسن لم يدرك عمر، ومعناه: أشار بجمعه فجمع؛ ولهذا كان مهيمنا على حفظه وجمعه كما رواه ابن أبى داود حيث قال: حدثنا أبو الطاهر [٥]، حدثنا ابن وهب، حدثنا عمر ابن طلحة الليثى، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، أن عمر لما جمع القرآن كان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان[٦].

وذلك عن أمر الصديق له فى ذلك، كما قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرنى ابن أبى الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرق أبو بكر، رضى الله عنه، أن يضيع، فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت: فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه [٧]. منقطع حسن.

ولهذا قال زيد بن ثابت: وجدت آخر سورة التوبة، يعنى قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ إلى آخر الآيتين [التوبة:١٢٨، ١٢٩] مع أبى خزيمة الأنصارى، وفى رواية: مع خزيمة بن ثابت الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين لم أجدها مع غيره فكتبوها عنه لأنه جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين فى قصة الفرس التى ابتاعها رسول الله ﷺ من الأعرابى، فأنكر الأعرابى البيع، فشهد خزيمة هذا بتصديق رسول الله ﷺ، فأمضى شهادته وقبض الفرس من الأعرابى. والحديث رواه أهل السنن [٨] وهو مشهور، وروى أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية أن أبىّ ابن كعب أملاها عليهم مع خزيمة بن ثابت[٩].

وقد روى ابن وهب عن عمرو [١٠] بن طلحة الليثى، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى

---

(١) فى جـ: «الكفر». (٢) فى ط: «أخفيتهم». (٣) فى ط: «صاروا».
(٤) المصاحف (ص١٦).
(٥) فى جـ: «الظاهر».
(٦) المصاحف (ص١٧).
(٧) المصاحف (ص١٢).
(٨) سنن أبى داود برقم (٣٦٠٧) وسنن النسائى (٧/ ٣٠٢).
(٩) رواه أحمد فى المسند (٥/ ١٣٤) من طريق عمر بن شقيق عن أبى جعفر به.
(١٠) فى ط: «عمر».

ابن عبد الرحمن بن حاطب؛ أن عثمان شهد بذلك أيضاً [١].

وأما قول زيد[بن ثابت] [٢]: «فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال» وفى رواية: «من العسب والرِّقَاع والأضلاع»، وفى رواية: «من الأكتاف والأقتاب وصدور الرجال».

أما العُسُب فجمع عسيب. قال أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهرى: وهو من السعف فويق الكَرَب لم ينبت عليه الخوص، وما نبت عليه الخوص فهو السعف.

واللِّخاف: جمع لَخْفَة وهى القطعة من الحجارة مستدقة، كانوا يكتبون عليها وعلى العسب وغير ذلك، مما يمكنهم الكتابة عليه مما يناسب ما يسمعونه من القرآن من رسول الله ﷺ.

ومنهم من لم يكن يحسن الكتابة أو يثق بحفظه، فكان يحفظه، فتلقاه زيد بن ثابت من هذا من عسيبه، ومن هذا من لخافه، ومن صدر هذا، أى من حفظه وكانوا أحرص شىء على أداء الأمانات وهذا من أعظم الأمانة؛ لأن رسول الله ﷺ أودعهم ذلك ليبلغوه إلى من بعده كما قال [الله] [٣] تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة:٦٧]، ففعل، صلوات الله وسلامه عليه، ما أمر به؛ ولهذا سألهم فى حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد والصحابة أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال: «إنكم مسؤولون عنى فما أنتم قائلون[٤]؟». فقالوا: نشهد أنك قد بَلَّغت وأدَّيت ونصحت، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء، وينكبها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد». رواه مسلم عن جابر [٥]. وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب وقال: «بَلِّغوا عنى ولو آية» [٦] يعنى: ولو لم يكن مع أحدكم سوى آية واحدة فليؤدها إلى من وراءه، فبلَّغوا عنه ما أمرهم به، فأدوا القرآن قرآنا، والسنة سنة، لم يلبسوا هذا بهذا؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من كتب عنى سوى القرآن فليمحه» [٧] أى: لئلا يختلط بالقرآن، وليس معناه: ألا يحفظوا السنة ويرووها، والله أعلم.

فلهذا نعلم بالضرورة أنه لم يبق من القرآن مما أداه الرسول ﷺ إليهم إلا وقد بلغوه إلينا، ولله الحمد والمنة، فكان الذى فعله الشيخان أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما، من أكبر المصالح الدينية وأعظمها، من حفظهما كتاب الله فى الصحف؛ لئلا يذهب منه شىء بموت من تلقاه عن رسول الله ﷺ، ثم كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته، ثم أخذها عمر بعده محروسة معظمة مكرمة، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين، رضى الله عنها، حتى أخذها منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قال البخارى، رحمه الله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن

(١) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص١٧). (٢، ٣) زيادة من م.
(٤) فى ط، جـ: «مجيبون».
(٥) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).
(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما.
(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٩٩) من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه.

أنس بن مالك، حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان رضى الله عنهما وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة. فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم. ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى محل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال ابن شهاب الزهرى: فأخبرنى خارجة ابن زيد بن ثابت: سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، التمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فألحقناها فى سورتها فى المصحف(١).

وهذا ـ أيضا ـ من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شىء وهو جمع الناس على قراءة واحدة؛ لئلا يختلفوا فى القرآن، ووافقه على ذلك جميع الصحابة، وإنما روى عن عبد الله (٢) بن مسعود شىء من التغضب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف وأمر أصحابه بغل مصاحفهم لما أمر عثمان بحرقه ماعدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق حتى قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: لولم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا. فاتفق الأئمة (٣) أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، رضى الله عنهم، على أن ذلك من مصالح الدين، وهم الخلفاء الذين قال رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى»(٤). وكان السبب فى هذا حذيفة بن اليمان، رضى الله عنه لما (٥) كان غازيا فى فتح أرمينية وأذربيجان، وكان قد اجتمع هناك أهل الشام والعراق وجعل حذيفة يسمع منهم قراءات على حروف شتى، ورأى منهم اختلافا وافتراقا، فلما رجع إلى عثمان أعلمه وقال لعثمان: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

وذلك أن اليهود والنصارى مختلفون فيما بأيديهم من الكتب، فاليهود بأيديهم نسخة من التوراة، والسامرة يخالفونهم فى ألفاظ كثيرة ومعان أيضا، وليس فى توراة السامرة حرف الهمزة ولا حرف الياء، والنصارى ـ أيضا ـ بأيديهم توراة يسمونها العتيقة وهى مخالفة لنسختى اليهود والسامرة، وأما

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٧، ٤٩٨٨).

(٢) فى ط، جـ: «عبد الرحمن».

(٣) فى ط، جـ: «الأربعة».

(٤) رواه أحمد فى المسند (٤/١٢٦) وأبو داود فى السنن برقم (٤٦٠٧) والترمذى فى السنن برقم (٢٦٧٦) وقال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

(٥) فى ط، جـ: «فإنه».

الأناجيل التى بأيدى النصارى فأربعة: إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا وإنجيل متى، وإنجيل يوحنا، وهى مختلفة ـ أيضا ـ اختلافا كثيرا، وهذه الأناجيل الأربعة كل منها لطيف الحجم منها ما هو قريب من أربع عشرة ورقة بخط متوسط، ومنها ما هو أكثر من ذلك إما بالنصف أو بالضعف، ومضمونها سيرة عيسى وأيامه وأحكامه وكلامه وفيه شيء قليل مما يدعون أنه كلام الله، وهى مع هذا مختلفة، كما قلنا، وكذلك التوراة مع ما فيها من التبديل والتحريف، ثم هما منسوخان بعد ذلك بهذه الشريعة المحمدية المطهرة.

فلما قال حذيفة لعثمان ذلك أفزعه وأرسل إلى حفصة أم المؤمنين أن ترسل إليه بالصحف التى عندها مما جمعه الشيخان ليكتب ذلك فى مصحف واحد، وينفذه إلى الآفاق، ويجمع الناس على القراءة به وترك ما سواه، ففعلت حفصة وأمر عثمان هؤلاء الأربعة وهم زيد بن ثابت الأنصارى، أحد كتاب الوحى لرسول الله ﷺ، وعبد الله بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى، أحد فقهاء الصحابة ونجبائهم علما وعملا وأصلا وفضلا، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشى الأموى، وكان كريما جوادا ممدحا، وكان أشبه الناس لهجة برسول الله ﷺ وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشى المخزومى، فجلس هؤلاء النفر يكتبون القرآن نسخا، وإذا اختلفوا فى وضع الكتابة على أى لغة رجعوا إلى عثمان، كما اختلفوا فى التابوت أيكتبونه بالتاء والهاء، فقال زيد بن ثابت: إنما هو التابوه. وقال الثلاثة القرشيون: إنما هو التابوت فتراجعوا [١] إلى عثمان فقال: اكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم.

وكان عثمان ـ والله أعلم ـ رتب السور فى المصحف، وقدم السبع الطوال وثنى بالمئين؛ ولهذا روى ابن جرير وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث غير واحد من الأئمة الكبار، عن عوف الأعرابى، عن يزيد الفارسى، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ماحملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين، فقرنتم بينها ولم تكتبوا بينها سطر «بسم الله الرحمن الرحيم»، ووضعتموها فى السبع الطوال؟ ماحملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، فإذا أنزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وحسبت أنها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» فوضعتها فى السبع الطوال[٢].

---

(١) فى ط: «فترافعوا».

(٢) تفسير الطبرى (١/١٠٢) وسنن أبى داود برقم (٧٨٦) وسنن الترمذى برقم (٣٠٨٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٠٧) ويزيد الفارسى مجهول وقد انفرد بهذا الحديث.

ففهم من هذا الحديث أن ترتيب الآيات والسور أمر توقيفى متلقى عن الرسول ﷺ، وأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه؛ ولهذا ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلا مرتبا؛ فإن نكسه أخطأ خطأ كبيرا. وأما ترتيب السور فمستحب اقتداء بعثمان، رضى الله عنه، والأولى إذا قرأ أن يقرأ متواليا كما قرأ عليه، الصلاة والسلام، فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين وتارة بسبح وهل أتاك حديث الغاشية، فإن فرق جاز، كما صح أن رسول الله ﷺ قرأ فى العيد بقاف واقتربت الساعة، رواه مسلم عن أبى واقد [١] فى الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة: الم ٓالسجدة، وهل أتى على الإنسان[٢].

وإن قدم بعض السور على بعض جاز أيضا، فقد روى حذيفة أن رسول الله ﷺ قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران. أخرجه مسلم[٣].

وقرأ عمر فى الفجر بسورة النحل ثم بيوسف. ثم إن عثمان رد المصحف إلى حفصة، فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم يطلبها فلم تعطه حتى ماتت، فأخذها من عبد الله بن عمر فحرقها لئلا يكون فيها شىء يخالف المصاحف التى نفذها عثمان إلى الآفاق، مصحفا إلى أهل مكة، ومصحفا إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وترك عند أهل المدينة مصحفا، رواه أبو بكر بن أبى داود عن أبى حاتم السجستانى، سمعه يقوله[٤]. وصحح القرطبى أنه إنما نفذ إلى الآفاق أربعة مصاحف. وهذا غريب، وأمر بما عدا ذلك من مصاحف الناس أن يحرق لئلا تختلف قراءات الناس فى الآفاق، وقد وافقه الصحابة فى عصره على ذلك ولم ينكره أحد منهم، وإنما نقم عليه ذلك أولئك الرهط الذين تمالؤوا عليه وقتلوه، قاتلهم الله، وفى ذلك جملة ما أنكروه مما لا أصل له، وأما سادات المسلمين من الصحابة، ومن نشأ فى عصرهم ذلك من التابعين، فكلهم وافقوه.

قال أبو داود الطيالسى وابن مهدى وغُنْدَر عن شعبة، عن عَلْقَمة بن مَرْثَد، عن رجل، عن سُوَيد ابن غفلة، قال علىّ حين حرق عثمان المصاحف: لو لم يصنعه هو لصنعته[٥].

وقال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق[٦]، عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص، قال: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد[٧]. وهذا إسناد صحيح.

وقال أيضا: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف، حدثنا يحيى بن كثير، حدثنا ثابت بن عمارة

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨٩١).
(٢) صحيح البخارى برقم (٨٩١) وصحيح مسلم برقم (٨٨٠).
(٣) صحيح مسلم برقم (٧٧٢).
(٤) المصاحف لابن أبى داود (ص٤٣).
(٥) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص١٩).
(٦) فى جـ: «أبى مصعب».
(٧) المصاحف (ص١٩).

الحنفى، قال: سمعت غنيم بن قيس المازنى قال: قرأت القرآن على الحرفين جميعا، والله ما يسرنى أن عثمان لم يكتب المصحف، وأنه ولد لكل مسلم كلما أصبح غلام، فأصبح له مثل ماله. قال: قلنا له: يا أبا العنبر، ولم؟ قال: لو لم يكتب عثمان المصحف لطفق الناس يقرؤون الشعر[١].

حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنى عمران بن حدير، عن أبى مِجْلَز قال: لولا أن عثمان كتب القرآن لألفيت الناس يقرؤون الشعر. حدثنا أحمد بن سنان قال: سمعت ابن مهدى يقول: خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبى بكر ولا لعمر: صبره نفسه حتى قتل مظلوماً، وجمعه الناس على المصحف[٢].

وأما عبد الله بن مسعود فقد قال إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن حميد [٣] بن مالك قال: لما أمر عثمان بالمصاحف ـ يعنى بتحريقها ـ ساء ذلك عبد الله بن مسعود وقال: من استطاع منكم أن يغلّ مصحفاً فليغلل، فإنه من غلّ شيئاً جاء بما غل يوم القيامة.

ثم قال عبد الله: لقد قرأت القرآن من فِىّ رسول الله ﷺ سبعين سورة وزيد صبى، أفأترك ما أخذت من فِىّ رسول الله ﷺ[٤].

وقال أبو بكر: حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا سعيد بن سليمان[٥]، حدثنا ابن [٦] شهاب، عن الأعمش، عن أبى وائل، قال: خطبنا ابن مسعود على المنبر فقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، غلوا مصاحفكم، وكيف تأمرونى أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت القرآن من فِىّ رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتى مع الغلمان له ذؤابتان، والله ما نزل من القرآن شىء إلا وأنا أعلم فى أى شىء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله منى، وما أنا بخيركم، ولو أعلم مكانا تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله منى لأتيته. قال أبو وائل: فلما نزل عن [٧] المنبر جلست فى الحلق، فما أحد ينكر ما قال[٨]. أصل هذا مخرج فى الصحيحين [٩] وعندهما: ولقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله. وقول أبى وائل: : «فما أحد ينكر ما قال»، يعنى: من فضله وعلمه وحفظه، والله أعلم.

وأما أمره بغَلّ المصاحف وكتمانها، فقد أنكره عليه غير واحد. قال الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، قال: قدمت الشام فلقيت أبا الدرداء، فقال: كنا نعد عبد الله جبانا[١٠]، فما باله يواثب الأمراء[١١]. وقال أبو بكر بن أبى داود: باب رضا عبد الله بن مسعود بجمع عثمان المصاحف بعد ذلك: حدثنا عبد الله بن سعيد ومحمد بن عثمان العجلى قالا: حدثنا أبو أسامة ، حدثنى الوليد بن قيس، عن عثمان بن حسان العامرى، عن فُلفُلة الجعفى قال: فزعت فيمن فزع إلى عبد الله فى

(١، ٢) المصاحف (ص ١٩).
(٣) فى جـ: «عمير».
(٤) المصاحف (ص٢١).
(٥) فى جـ: «سلمان». (٦) فى ط، جـ: «أبو». (٧) فى جـ: «من».
(٨) المصاحف (ص٢٣).
(٩) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٢).
(١٠) فى المصاحف: «حناناً». (١١) المصاحف (ص٢٥).

المصاحف، فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنا لم نأتك زائرين، ولكنا جئنا حين راعنا هذا الخبر، فقال: إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب، على سبعة أحرف ـ أو حروف ـ وإن الكتاب قبلكم كان ينزل ـ أو نزل ـ من باب واحد على حرف واحد[(١)]. وهذا الذى استدل به أبو بكر، رحمه الله، على رجوع ابن مسعود فيه نظر، من جهة أنه لا يظهر من هذا اللفظ رجوع عما كان يذهب إليه، والله أعلم.

وقال أبو بكر أيضا: حدثنا عمى، حدثنا أبو رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس فقال: [يا] [(٢)] أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون فى القرآن، وتقولون: قراءة أبى وقراءة عبد الله، يقول الرجل: والله ما تقيم قراءتك وأعزم على كل رجل منكم ماكان معه من كتاب الله لما جاء به، فكان الرجل يجىء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم: لسمعت رسول الله ﷺ أمله عليك فيقول: نعم، فلما فرغ من ذلك عثمان قال: من أكتبُ الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت. قال: فأى الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال عثمان: فليمل سعيد، وليكتب زيد. فكتب زيد مصاحف ففرقها فى الناس، فسمعت بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقولون[(٣)]: قد أحسن[(٤)]. إسناده [(٥)] صحيح.

وقال أيضا: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن كثير بن أفلح قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثنى عشر رجلا من قريش والأنصار، فيهم أبىّ بن كعب وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلى الربعة التى فى بيت عمر فجىء بها، قال: وكان عثمان يتعاهدهم، وكانوا إذا تدارؤوا فى شىء أخروه. قال محمد: فقلت لكثير ـ وكان فيهم فيمن يكتب ـ: هل تدرون لم كانوا يؤخرونه؟ قال: لا. قال محمد: فظننت ظنا إنما كانوا يؤخرونها لينظروا أحدثهم عهدا بالعرضة الأخيرة فيكتبونها على قوله[(٦)]. صحيح أيضا.

قلت: الربعة هى الكتب المجتمعة، وكانت عند حفصة، رضى الله عنها، فلما جمعها عثمان، رضى الله عنه، فى المصحف، ردها إليها، ولم يحرقها فى جملة ما حرقه مما سواها، إلا أنها هى بعينها الذى كتبه، وإنما رتبه، ثم إنه كان قد عاهدها على أن يردها إليها، فما زالت عندها حتى ماتت، ثم أخذها مروان بن الحكم فحرقها وتأول فى ذلك ما تأول [(٧)] عثمان، كما رواه أبو بكر بن أبى داود:

حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهرى، أخبرنى سالم بن عبد الله:

---

(١) المصاحف (ص ٢٥).
(٢) زيادة من جـ، ط.
(٣) فى ط، جـ: «يقول».
(٤) المصاحف (ص ٣١).
(٥) فى جـ، ط: «إسناد».
(٦) المصاحف (ص٣٣).
(٧) فى ط: «أول».

أن مروان كان يرسل إلى حفصة يسألها الصحف التى كتب منها القرآن، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها. قال سالم: فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن إليه بتلك الصحف، فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر فأمر بها مروان فشققت، وقال مروان: إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف، فخشيت إن طال بالناس زمان [١] أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب أو يقول: إنه كان شيء منها لم يكتب [٢]. إسناد صحيح.

وأما ما رواه الزهرى [٣] عن خارجة عن أبيه فى شأن آية الأحزاب وإلحاقهم إياها فى سورتها، فذكره [٤] لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر، وإنما هذا كان حال جمع الصديق الصحف كما جاء مصرحاً به فى غير هذه الرواية عن الزهرى، عن عبيد بن السباق، عن زيد بن ثابت، والدليل على ذلك أنه قال: «فألحقناها [٥] فى سورتها من المصحف» وليست هذه الآية ملحقة فى الحاشية فى المصاحف العثمانية. فهذه الأفعال [٦] من أكبر القربات التى بادر إليها الأئمة الراشدون أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما، حفظا على الناس القرآن، جمعاه لئلا يذهب منه شيء وعثمان، رضى الله عنه، جمع قراءات الناس على مصحف واحد ووضعه على العرضة الأخيرة التى عارض بها جبريل رسول الله ﷺ فى آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، فإنه عارضه به عامئذ مرتين؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ لفاطمة ابنته لما مرض: «وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلى». أخرجاه فى الصحيحين[٧].

وقد روى أن علياً، رضى الله عنه، أراد أن يجمع القرآن بعد رسول الله ﷺ مرتبا بحسب نزوله أولاً فأولاً، كما رواه [٨] ابن أبى داود حيث قال: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى، حدثنا ابن فضيل، عن أشعث، عن محمد بن سيرين قال: لما توفى النبى ﷺ أقسم على ألا يرتدى برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن فى مصحف ففعل، فأرسل، إليه أبو بكر، رضى الله عنه، بعد أيام: أكرهت إمارتى يا أبا الحسن؟ فقال: لا والله إلا أنى أقسمت ألا أرتدى برداء إلا لجمعة. فبايعه ثم رجع[٩]. هكذا رواه وفيه انقطاع، ثم قال: لم يذكر المصحف أحد إلا أشعث[١٠]، وهو لين الحديث[١١]، وإنما رووا[١٢]: حتى أجمع القرآن، يعنى أتم حفظه، فإنه يقال للذى يحفظ القرآن: قد جمع القرآن.

قلت: وهذا الذى قاله أبو بكر أظهر، والله أعلم، فإن عليا لم ينقل عنه مصحف على ما قيل ولا غير ذلك، ولكن قد توجد مصاحف على الوضع العثمانى، يقال: إنها بخط على، رضى الله عنه، وفى ذلك نظر، فإنه فى بعضها: كتبه على بن أبى طالب، وهذا لحن من الكلام[١٣]؛ وعلى،

(١) فى جـ: «الزمان».
(٢) المصاحف (ص٣٢).
(٣) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص٣٧) عن الزهرى.
(٤) فى جـ: «فذكر».
(٥) فى ط، جـ: «وألحقناها».
(٦) فى جـ: «الآيات».
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٢٨٥، ٦٢٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٤٥٠).
(٨) فى جـ: «روى».
(٩) المصاحف (ص١٦).
(١٠) فى جـ: «الأشعث».
(١١) فى جـ، ط: «وهو ابن الحرث».
(١٢) فى جـ، ط: «رواه».
(١٣) وقد ذكر «كوركيس عواد» فى كتابه «أقدم مخطوطات فى العالم» بعض هذه المصاحف وأماكنها وأرقامها فى إيران وطاشقند، ولايشك عاقل أنها ليست من خط على، رضى الله عنه.

رضى الله عنه، من أبعد الناس عن ذلك فإنه كما هو المشهور عنه هو أول من وضع علم النحو، فيما رواه عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى، وأنه قسم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، وذكر أشياء أخر تممها أبو الأسود بعده، ثم أخذه الناس عن أبى الأسود فوسعوه ووضحوه، وصار علما مستقلا.

وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذى فى الشام بجامع دمشق عند الركن شرقى المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كانت قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها إلى دمشق فى حدود ثمان عشرة وخمسمائة، وقد رأيته كتابا عزيزا جليلا عظيما ضخما بخط حسن مبين قوى بحبر محكم فى رق أظنه من جلود الإبل، والله أعلم، زاده الله تشريفا وتكريما وتعظيما(١).

فأما عثمان، رضى الله عنه، فما يعرف أنه كتب بخطه هذه المصاحف، وإنما كتبها زيد بن ثابت فى أيامه، ربما وغيره، فنسبت إلى عثمان لأنها بأمره وإشارته، ثم قرئت على الصحابة بين يدى عثمان، ثم نفذت إلى الآفاق، رضى الله عنه، وقد قال أبو بكر بن أبى داود:

حدثنا على بن حرب الطائى، حدثنا قريش (٢) بن أنس، حدثنا سليمان التيمى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد مولى بنى (٣) أسيد، قال: لما دخل المصريون على عثمان ضربوه بالسيف على يده فوقعت على: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فمد يده فوقعت: والله إنها لأول يد خطت المفصل(٤).

وقال أيضا: حدثنا أبو طاهر، حدثنا ابن وهب قال:سألت مالكا عن مصحف عثمان، فقال لى: ذَهَب. يحتمل أنه سأله عن المصحف الذى كتبه بيده، ويحتمل أن يكون سأله عن المصحف الذى تركه فى المدينة، والله أعلم.

قلت: وقد كانت الكتابة فى العرب قليلة جداً، وإنما أول ما تعلموا ذلك ما (٥) ذكره هشام بن محمد بن السائب الكلبى وغيره: أن بشر بن عبد الملك أكيدر دومة تعلم الخط من الأنبار، ثم قدم مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية فعلمه حرب بن أمية وابنه سفيان، وتعلمه عمر بن الخطاب من حرب بن أمية، وتعلمه معاوية من عمه سفيان بن حرب، وقيل: إن أول من تعلمه من الأنبار قوم من طيئ من قرية هناك يقال لها: بقة، ثم هذبوه ونشروه فى جزيرة العرب فتعلمه الناس. ولهذا قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا عبد الله بن محمد الزهرى، حدثنا سفيان عن مجاهد عن الشعبى قال: سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الحيرة. وسألنا أهل الحيرة: من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الأنبار(٦).

قلت: والذى كان يغلب على زمان السلف الكتابة المكتوفة ثم هذبها أبو على مقلة الوزير، وصار

(١) ذكر «كوركيس عواد» فى كتابه المتقدم ذكره (ص٣٤) أن مصحفاً فى متحف الآثار الإسلامية بتركيا مكتوب على الرق كتب فى آخره أنه مصحف، عثمان،رضى الله عنه، وهو فى هذا المتحف برقم (٤٥٧).

(٢) فى جـ: «يونس». (٣) فى ط. جـ: «أبى».

(٤) لم أجد هذا الأثر والذى بعده فى المصاحف.

(٥) فى ط، جـ: «كما».

(٦) المصاحف (ص٩).

له فى ذلك منهج وأسلوب فى الكتابة، ثم قربها على بن هلال البغدادى المعروف بابن البواب وسلك الناس وراءه. وطريقته فى ذلك واضحة جيدة. والغرض أن الكتابه لما كانت فى ذلك الزمان لم تحكم جيدا، وقع فى كتابة المصاحف اختلاف فى وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنى، وصنف الناس فى ذلك، واعتنى بذلك الإمام الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، فى كتابه فضائل القرآن[١]، والحافظ أبو بكر بن أبى داود، رحمه الله، فبوبا على ذلك[٢]، وذكر قطعة صالحة هى من صناعة القرآن، ليست مقصدنا ههنا؛ ولهذا نص الإمام مالك، رحمه الله، على أنه لاتوضع المصاحف إلا على وضع كتابة الإمام، ورخص فى ذلك غيره، واختلفوا فى الشكل والنقط فمن مرخص ومن مانع، فأما كتابة السور وآياتها والتعشير والأجزاء والأحزاب فكثير [٣] فى مصاحف زماننا، والأولى اتباع السلف الصالح.

ثم قال البخارى: ذكر كُتَّاب النبى ﷺ. وأورد فيه من حديث الزهرى، عن ابن السباق، عن زيد ابن ثابت، أن أبا بكر الصديق قال له: وكنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ وذكر نحو ما تقدم فى[٤] جمعه للقرآن[٥]، وقد تقدم، وأورد حديث زيد بن ثابت فى نزول: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥] [٦]، وسيأتى الكلام عليه فى سورة النساء إن شاء الله تعالى، ولم يذكر البخارى أحداً من الكتّاب فى هذا الباب سوى زيد بن ثابت، وهذا عجب، وكأنه لم يقع له حديث يورده سوى هذا، والله أعلم.

وموضع هذا فى كتاب السيرة عند ذكر كتّابه عليه السلام.

ثم قال البخارى، رحمه الله:

أنزل القرآن على سبعة أحرف

حـدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حـدثنى عقيل عن ابن شهاب قال: حدثنى عبيد الله بن عبد الله؛ أن عبد الله بن عباس حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأنى جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[٧].

وقد رواه ـ أيضاً ـ فى بدء الخلق، ومسلم من حديث يونس، ومسلم ـ أيضا ـ من حديث معمر، كلاهما عن الزهرى بنحوه[٨]، ورواه ابن جرير من حديث الزهرى به[٩]، ثم قال الزهرى: بلغنى أن تلك السبعة الأحرف إنما هى فى الأمر الذى يكون واحدا لا تختلف فى حلال ولا فى حرام.

---

(١) فضائل القرآن (ص٢٣٧ ـ ٢٤٣).
(٢) المصاحف (ص١٤٥ ـ ١٧٦).
(٣) فى ط، جـ: «فكثر».
(٤) فى جـ: «من».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٩).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٠).
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩٩١).
(٨) فى جـ: «نحوه».
(٩) صحيح البخارى برقم (٣٢١٩) وصحيح مسلم برقم (٨١٩) وتفسير الطبرى (١/ ٢٩).

وهذا مبسوط فى الحديث الذى رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام حيث قال:

حدثنا يزيد ويحيى بن سعيد كلاهما عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، عن أبىّ بن كعب قال: ما حاك فى صدرى شىء منذ أسلمت، إلا أننى قرأت آية وقرأها آخر غير قراءتى فقلت: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فأمن رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أقرأتنى آية كذا وكذا؟ قال: «نعم»، وقال الآخر: أليس تقرأنى آية كذا وكذا؟ قال: «نعم». فقال: «إن جبريل وميكائيل أتيانى فقعد جبريل عن يمينى وميكائيل عن يسارى، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف وكل حرف شاف كاف»(١).

وقد رواه النسائى من حديث يزيد ـ وهو ابن هارون ـ ويحيى بن سعيد القطان كلاهما عن حميد الطويل، عن أنس، عن أبىّ بن كعب بنحوه(٢). وكذا رواه ابن أبى عدى ومحمود (٣) بن ميمون الزعفرانى ويحيى بن أيوب كلهم عن حميد به(٤). وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن أنس، عن عبادة بن الصامت، عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» فأدخل بينهما عبادة بن الصامت(٥).

وقال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل بن أبى خالد، حدثنى عبد الله بن عيسى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أبىّ بن كعب، قال: كنت فى المسجد فدخل رجل فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فقمنا جميعا، فدخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل هذا فقرأ قراءة غير قراءة صاحبه، فقال لهما النبى ﷺ: «اقرآ»، فقرآ، فقال: «أصبتما». فلما قال لهما النبى ﷺ الذى قال كبُر علىّ ولا إذا كنت فى الجاهلية، فلما رأى الذى غشينى ضرب فى صدرى ففضضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى [رسول](٦) الله فرقاً فقال: «يا أبىّ، إن ربى أرسل إلىّ أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هون على أمتى، فأرسل إلىّ أن اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هوّن على أمتى، فأرسل إلىّ أن اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة تسألنيها». قال: «قلت: اللهم اغفر لأمتى، اللهم اغفر لأمتى، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلىّ فيه الخلق حتى إبراهيم عليه السلام». وهكذا رواه مسلم من حديث إسماعيل بن أبى خالد به(٧).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا محمد بن فضيل، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أبيه، عن جده، عن أبىّ بن كعب، قال: قال

---

(١) فضائل القرآن (ص ٢٠١).
(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٨٦).
(٣) فى ط، جـ: «محمد».
(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٣٣).
(٥) تفسير الطبرى (١/ ٣٤).
(٦) زيادة من جـ.
(٧) المسند (٥/ ١٢٧) وصحيح مسلم برقم (٨٢٠).

رسول الله ﷺ: «إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: خفف عن أمتى، فقال[١]: اقرأه على حرفين، فقلت: اللهم ربّ خفف عن أمتى، فأمرنى أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة كلها شافٍ كافٍ»[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا يونس عن ابن وهب: أخبرنى هشام بن سعد، عن عبيد الله بن عمر، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أبىّ بن كعب، أنه قال: سمعت رجلا يقرأ فى سورة النحل قراءة تخالف قراءتى، ثم سمعت آخر يقرؤها بخلاف ذلك، فانطلقت بهما إلى رسول الله ﷺ فقلت: إنى سمعت هذين يقرآن فى سورة النحل فسألتهما: من أقرأكما[٣]؟ فقالا: رسول الله ﷺ، فقلت: لأذهبن بكما إلى رسول الله ﷺ إذ خالفتما ما أقرأنى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأحدهما: «اقرأ». فقرأ، فقال: «أحسنت» ثم قال للآخر: «اقرأ». فقرأ، فقال: «أحسنت». قال أبىّ: فوجدت فى نفسى وسوسة الشيطان حتى احمر وجهى، فعرف ذلك رسول الله ﷺ فى وجهى، فضرب يده فى صدرى ثم قال: «اللهم أخسئ[٤] الشيطان عنه، يا أبىّ، أتانى آت من ربى فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: رب، خفف عنى، ثم أتانى الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين[٥] فقلت: رب، خفف عن أمتى، ثم أتانى الثالثة، فقال: مثل ذلك وقلت له مثل ذلك، ثم أتانى الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة، فقلت: يارب، اللهم اغفرلأمتى، يارب، اغفر لأمتى، واختبأت الثالثة شفاعة لأمتى يوم القيامة»[٦]. إسناده صحيح.

قلت: وهذا الشك الذى حصل لأبىّ فى تلك الساعة هو، والله أعلم، السبب الذى لأجله قرأ عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وإعلام ودواء لما كان حصل له سورة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخرها لاشتمالها على قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً. فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢، ٣]، وهذا نظير تلاوته سورة الفتح حين أنزلت مرجعه، عليه السلام، من الحديبية على عمر بن الخطاب، وذلك لما كان تقدم له من الأسئلة لرسول الله ﷺ ولأبى[٧] بكر الصديق، رضى الله عنهما، فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن أبى ليلى، عن أبىّ بن كعب أن رسول الله ﷺ كان عند أضاة بنى غفار، فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتى لا تطيق ذلك». ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين. قال:

(١) فى ط، جـ: «قال».
(٢) تفسير الطبرى (١/ ٣٧).
(٣) فى ط، جـ: «أقرأهما».
(٤) فى جـ: «أذهب».
(٥) فى ط، جـ: «حرف واحد».
(٦) تفسير الطبرى (١/ ٤١).
(٧) فى ط، جـ: «ثم لأبى».

«أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتى لا تطيق ذلك». ثم جاءه الثالثة قال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتى لا تطيق ذلك». ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا[(١)].

وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائى من رواية شعبة به، وفى لفظ لأبى داود عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبىّ، إنى أقرئت القرآن فقيل لى: على حرف أو حرفين؟ فقال الملك الذى معى: قال على حرفين. قلت: على حرفين. فقيل لى: على حرفين أو ثلاثة؟ فقال الملك الذى معى: قل على ثلاثة. قلت: على ثلاثة. حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال: ليس منها إلا شاف كاف إن قلت: سميعا عليما، عزيزا حكيما، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب»[(٢)].

وقد روى ثابت بن قاسم نحوا من هذا عن أبى هريرة عن النبى ﷺ[(٣)] ومن كلام ابن مسعود، رضى الله عنه، نحو ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن على الجعفى، عن زائدة، عن عاصم، عن زر، عن أبى قال: لقى رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المراء، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «إنى بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ العاسى، والعجوز الكبيرة، والغلام، فقال: مرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف»[(٤)].

وأخرجه الترمذى من حديث عاصم بن أبى النَّجُود، عن زر، عن أبىّ بن كعب، به[(٥)]، وقال: حسن صحيح.

وقد رواه أبو عبيد عن أبى النضر، عن شيبان، عن عاصم بن أبى النجود، عن زر، عن حذيفة أن رسول الله ﷺ لقى جبريل عند أحجار المراء، فذكر الحديث[(٦)]، والله أعلم.

وهكذا رواه الإمام أحمد عن عفان، عن حماد، عن عاصم، عن زر، عن حذيفة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لقيت جبريل عند أحجار المراء، فقلت: يا جبريل، إنى أرسلت إلى أمة أمية؛ الرجل، والمرأة، والغلام، والجارية، والشيخ الفانى، الذى لم يقرأ كتاب قط فقال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»[(٧)].

وقال أحمد أيضا: حدثنا وَكِيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن رِبْعى ابن حِراش: حدثنى من لم يكذبنى ـ يعنى حذيفة ـ قال: لقى النبى ﷺ جبريل عند أحجار المراء

---

(١) تفسير الطبرى (١/ ٤٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٢٠) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٨) وسنن النسائى (٢/ ١٥٣).

(٣) ورواه أحمد فى المسند (٢/ ٣٣٢، ٤٤٠) من طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٤) المسند (٥/ ١٣٢) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٧٣٩) «موارد» من طريق زائدة به مثله.

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٩٤٤).

(٦) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص ٢٠٢).

(٧) المسند (٥/ ٣٩١، ٤٠٠).

فقال: إن أمتك يقرؤون القرآن على سبعة أحرف، فمن قرأ منهم على حرف فليقرأ كما علم، ولا يرجع عنه. وقال عبد الرحمن: إن فى أمتك الضعيف، فمن قرأ على حرف فلا يتحول منه إلى غيره رغبة عنه[١]. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

حديث آخر فى معناه عن سليمان بن صرد: قال ابن جرير: حدثنا إسماعيل بن موسى السدىّ، حدثنا شريك عن أبى إسحاق، عن سليمان بن صرد ـ يرفعه ـ قال: «أتانى ملكان، فقال أحدهما: اقرأ. قال: على كم؟ قال: على حرف. قال: زده، حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[٢]. ورواه النسائى فى اليوم والليلة عن عبد الرحمن بن محمد بن سلام عن إسحاق الأزرق عن العوَّام بن حَوْشَب، عن أبى إسحاق، عن سليمان بن صرد قال: أتى أبىّ بن كعب رسول الله ﷺ برجلين اختلفا فى القراءة، فذكر الحديث[٣].

وهكذا رواه أحمد بن مَنِيع عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب به، ورواه أبو عبيد عن يزيد بن هارون، عن العوام، عن أبى إسحاق، عن سليمان بن صرد، عن أبىّ أنه أتى النبى ﷺ برجلين، فذكره[٤].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق، عن فلان العبدى ـ قال ابن جرير: ذهب عنى اسمه ـ عن سليمان بن صرد، عن أبىّ بن كعب قال: رحت إلى المسجد، فسمعت رجلا يقرأ فقلت: من أقرأك؟ قال: رسول الله ﷺ، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: استقرئ هذا. قال: فقرأ، فقال: «أحسنت». قال: قلت: إنك أقرأتنى كذا وكذا! فقال: «وأنت قد أحسنت». فقلت: قد أحسنت قد أحسنت. قال: فضرب بيده على صدرى ثم قال: «اللهم أذهب عن أبىٍّ الشك». قال: ففضت عرقا، وامتلأ جوفى فرقا. قال: ثم قال: «إن الملكين أتيانى، فقال أحدهما: اقرأ القرآن على حرف، وقال الآخر: زده. قال: قلت: زدنى. فقال[٥]: اقرأه على حرفين، حتى بلغ سبعة أحرف فقال: اقرأه على سبعة أحرف»[٦].

وقد رواه أبو عبيد عن حجاج، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن شتير[٧] العبدى، عن سليمان بن صرد[٨] عن أبىّ، عن النبى ﷺ بنحو ذلك[٩]، ورواه أبو داود عن أبى داود الطيالسى، عن همام، عن قتادة، عن يحيى بن يَعْمَر، عن سليمان بن صرد، عن أبى بن كعب بنحوه[١٠].

---

(١) المسند (٥/ ٣٨٥، ٤٠١).

(٢) تفسير الطبرى (١/ ٣٠).

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٠٦).

(٤) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص ٢٠١).

(٥) فى ط، جـ: «قال».

(٦) تفسير الطبرى (١/ ٣٢).

(٧) فى فضائل أبى عبيد: «صقير».

(٨) فى ط، جـ:«حدد».

(٩) فضائل القرآن (ص ٢٠٢).

(١٠) سنن أبى داود برقم (١٤٧٧).

فهذا الحديث محفوظ من حيث الجملة عن أبىّ بن كعب، والظاهر أن سليمان بن صرد الخزاعى شاهد على ذلك، والله أعلم.

حديث آخر عن أبى بكرة: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة، عن أبيه، عن النبى ﷺ قال: «أتانى جبريل وميكائيل، عليهما السلام، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف واحد، فقال ميكائيل: استزده، فقال: اقرأ على سبعة أحرف، كلها شاف كاف، ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب[(١)] أو آية عذاب برحمة»[(٢)].

وهكذا رواه ابن جرير عن أبى كُرَيب، عن زيد بن الحباب، عن حماد بن سلمة به، وزاد فى آخره كقولك: هلم وتعال[(٣)].

حديث آخر عن سمرة: قال الإمام أحمد: حدثنا بَهْز وعفان كلاهما عن حماد بن سلمة، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف». إسناد صحيح، ولم يخرجوه[(٤)].

حديث آخر عن أبى هريرة: قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنى أبو حازم، عن أبى سلمة ـ لا أعلمه إلا عن أبى هريرة ـ أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، مراء فى القرآن كفر ـ ثلاث مرات ـ فما علمتم منه فاعملوا وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». ورواه النسائى عن قتيبة عن أبى ضمرة أنس بن عياض به[(٥)].

حديث آخر عن أم أيوب: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عبيد الله وهو ابن أبى يزيد ـ عن أبيه، عن أم أيوب ـ يعنى امرأة أبى أيوب الأنصارية ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، أيها قرأت جزاك[(٦)]»[(٧)]. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

حديث آخر عن أبى جهيم: قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن يزيد بن خصيفة، عن مسلم بن سعيد مولى الحضرمى[(٨)]، وقال غيره: عن بسر بن سعيد، عن أبى جهيم الأنصارى؛ أن رجلين اختلفا فى آية من القرآن، كلاهما يزعم أنه تلاقاها من رسول الله ﷺ، فمشيا جميعا حتى أتيا رسول الله ﷺ، فذكر أبو جهيم أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فلا

(١) فى ط، جـ: «ما لم تختم آية رحمة بعذاب».
(٢) المسند (٥/ ٤١).
(٣) تفسير الطبرى (١/ ٤٢).
(٤) المسند (٥/ ١٦).
(٥) المسند (٢/ ٣٠٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٩٣).
(٦) فى ط: «أجزأه».
(٧) المسند (٦/ ٤٣٣، ٤٦٢).
(٨) فى فضائل أبى عبيد: «مولى ابن الحضرمى».

تماروا، فإن مراء فيه كفر»[1]. هكذا رواه أبو عبيد على الشك[2]، وقد رواه الإمام أحمد على الصواب، فقال: حدثنا أبو سلمة الخزاعى، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنى يزيد بن خصيفة، أخبرنى بسر بن سعيد، حدثنى أبو جهيم؛ أن رجلين اختلفا فى آية من القرآن فقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ وقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ فسألا النبى ﷺ فقال: «القرآن يقرأ على سبعة أحرف، فلا تماروا فى القرآن، فإن مراءً فى القرآن كفر»[3]. وهذا إسناد صحيح ـ أيضا ـ ولم يخرجوه.

ثم قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث، عن يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن بسر[4] بن سعيد، عن أبى قيس ـ مولى عمرو بن العاص ـ أن رجلا قرأ آية من القرآن، فقال له عمرو ـ يعنى ابن العاص ـ: إنما هى كذا وكذا، بغير ما قرأ الرجل، فقال الرجل: هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ [فخرجا إلى رسول الله ﷺ][5] حتى أتياه، فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فأىّ ذلك قرأتم أصبتم، فلا تماروا فى القرآن، فإن مراء فيه كفر»[6]. ورواه الإمام أحمد عن أبى سلمة الخزاعى، عن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن بسر[7] بن سعيد، عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص به نحوه، وفيه: «فإن المراء فيه كفر أو إنه الكفر به[8]» . وهذا ـ أيضا ـ حديث جيد[9].

حديث آخر عن ابن مسعود: قال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى حيوة بن شريح، عن عقيل بن خالد، عن سلمة بن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ أنه قال: «كان الكتاب الأول نزل من باب واحد وعلى حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فأحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا»[10]. ثم رواه عن أبى كُرَيْب عن المحاربى، عن ضمرة بن حبيب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن ابن مسعود من كلامه[11] وهو أشبه[12]. والله أعلم.

---

(1) فضائل القرآن (ص ٢٠٢).

(2) قال الشيخ أحمد شاكر فى حاشيته على الطبرى (١/ ٤٤): «قوله: على الشك، إنما للحديث طريقان: الأول: إسماعيل بن جعفر يرويه عن يزيد عن مسلم بن سعيد، وسليمان يرويه عن يزيد عن بسر ـ أخو مسلم، فأشار أبو عبيد أثناء الإسناد إلى الرواية الأخرى دون أن يذكر إسنادهما».

(3) المسند (٤/ ١٧٠).

(4) فى جـ: «بشر».

(5) زيادة من جـ، ط.

(6) فضائل القرآن (ص ٢٠٢).

(7) فى جـ: «بشر».

(8) فى ط: «آية الكفر».

(9) المسند (٤/ ٢٠٤).

(10) تفسير الطبرى (١/ ٦٨).

(11) تفسير الطبرى (١/ ٦٩).

(12) قال الشيخ أحمد شاكر: «وهو الصحيح، حيث صرح بذلك الطبرى بقوله: وروى عن ابن مسعود من قبله، أما الإسناد السابق فقد قال ابن عبد البر: حديث لا يثبت؛ لأنه من رواية أبى سلمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود، ولم يلق ابن مسعود».

فصل

قال أبو عبيد: قد تواترت[١] هذه الأحاديث كلها عن الأحرف السبعة إلا ما حدثنى عفان، عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبى ﷺ قال: «نزل القرآن على ثلاثة أحرف»[٢].

قال أبو عبيد: ولا نرى المحفوظ إلا السبعة لأنها المشهورة، وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه، وهذا شىء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل سبع لغات متفرقة فى جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف الواحد منها بلغة قبيلة والثانى بلغة أخرى سوى الأولى، والثالث بلغة أخرى سواهما، كذلك إلى السبعة، وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض، وذلك بين فى أحاديث تترى، قال: وقد روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزل القرآن على سبع لغات، منها خمس بلغة العجز من هوازن[٣].

قال أبو عبيد: والعجز هم بنو أسعد[٤] بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف هم عليا[٥] هوازن الذين قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم يعنى دارم. ولهذا قال عمر: لا يملى فى مصاحفنا إلا غلمان قريش أو ثقيف[٦].

قال ابن جرير: واللغتان الأخريان: قريش وخزاعة رواه قتادة عن ابن عباس، ولكن لم يلقه[٧].

قال أبو عبيد: وحدثنا هُشَيْم عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس؛ أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر. قال أبو عبيد: يعنى: أنه كان يستشهد به على التفسير[٨]. حدثنا هُشَيْم عن أبى بشر، عن سعيد أو مجاهد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧]، قال: ما جمع وأنشد:

قد اتسقن لو يجدن سائقا[٩]

حدثنا هُشَيْم، أنبأنا[١٠] حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]، قال: الأرض، قال: وقال ابن عباس: قال أمية بن أبى الصلت:

عندهم لحم بحرٍ ولحم ساهرة[١١]

---

(١) فى جـ: «تواردت».
(٢) فضائل القرآن (ص ٢٠٣) ورواه من طريق البيهقى فى السنن الكبرى (٢/ ٣٨٥).
(٣) فضائل القرآن (ص ٢٠٤).
(٤) فى ط: «سعد».
(٥) فى ط: «علياء».
(٦) فضائل القرآن (ص ٢٠٤).
(٧) تفسير الطبرى (١/ ٦٦).
(٨) فضائل القرآن (ص ٢٠٥).
(٩) فضائل القرآن (ص ٢٠٦).
(١٠) فى ط، جـ: «عن».
(١١) فضائل القرآن (ص ٢٠٦)، وكتب بين قوسين:
وفيها لحم ساهر وبحر وما فاهوا به لهم مقيم

حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كنت لا أدرى ما ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها[١]. إسناد جيد أيضا.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبرى، رحمه الله، بعد ما أورد طرفا مما تقدم: وصح وثبت أن الذى نزل به القرآن من ألسن العرب البعض منها دون الجمع[٢]، إذا كان معلوما أن ألسنتها ولغاتها أكثر من سبع بما يعجز عن إحصائه ثم قال: وما برهانك على ما قلته دون أن يكون معناه ما قاله مخالفوك، من أنه نزل بأمر وزجر، وترغيب وترهيب، وقصص ومثل، ونحو ذلك من الأقوال فقد علمت قائل ذلك من سلف الأمة وخيار الأئمة؟ قيل له: إن الذين قالوا ذلك لم يدعوا أن تأويل الأخبار التى تقدم ذكرها، هو ما زعمت أنهم قالوه فى الأحرف السبعة، التى نزل بها القرآن دون غيره فيكون ذلك لقولنا مخالفا، وإنما أخبروا أن القرآن نزل على سبعة أحرف، يعنون بذلك أنه نزل على[٣] سبعة أوجه، والذى قالوا من ذلك كما قالوا، وقد روينا بمثل الذى قالوا من ذلك عن رسول الله ﷺ وعن جماعة من الصحابة، من أنه نزل من سبعة أبواب الجنة، كما تقدم. يعنى كما تقدم فى رواية عن أبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود: أن القرآن نزل من سبعة أبواب الجنة[٤].

قال ابن جرير: والأبواب السبعة من الجنة هى المعانى التى فيها من الأمر والنهى، والترغيب والترهيب، والقصص والمثل، التى إذا عمل بها العامل وانتهى إلى حدودها المنتهى، استوجب بها الجنة.

ثم بسط القول فى هذا بما حاصله: أن الشارع رخص للأمة التلاوة على سبعة أحرف، ثم لما رأى الإمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، اختلاف الناس فى القراءة، وخاف من تفرق كلمتهم ـ جمعهم على حرف واحد، وهو هذا المصحف الإمام، قال: واستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما فعله من ذلك الرشد والهداية، وتركت القراءة الأحرف الستة التى عزم عليها إمامها العادل فى تركها طاعة منها له، ونظر منها لأنفسها وعن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى درست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة بها لدثورها وعفو آثارها. إلى أن قال: فإن قال من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءة اقرأهموها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءتها؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة؛ لأن القراءة بها لو كانت فرضا عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من يقوم بنقله الحجة، ويقطع خبره العذر، ويزيل الشك من قراءة الأمة، وفى تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا فى القراءة بها مخيرين. إلى أن قال: فأما ما كان من اختلاف القراءة فى رفع حرف ونصبه وجره وتسكين حرف وتحريكه، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق

---

(١) فضائل القرآن (ص ٢٠٦).
(٢) فى ط: «الجميع».
(٣) فى ط، جـ: «من».
(٤) تفسير الطبرى (١/ ٤٧).

الصورة فى معنى قول النبى ﷺ: «أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف» بعزل؛ لأن المراء فى مثل هذا ليس بكفر، فى قول أحد من علماء الأمة، وقد أوجب ﷺ بالمراء فى الأحرف السبعة الكفر، كما تقدم[١].

الحديث الثانى: قال البخارى، رحمه الله: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرنى عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القارئ حدثاه[٢] أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره فى الصلاة، فتبصرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها! فقال رسول الله ﷺ: «أرسله، اقرأ يا هشام»، فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت»، ثم قال: «اقرأ يا عمر»، فقرأت القراءة التى أقرأنى، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت. إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»[٣].

وقد رواه الإمام أحمد والبخارى ـ أيضا ـ ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى من طرق عن الزهرى[٤]، ورواه الإمام أحمد ـ أيضا ـ عن ابن مهدى، عن مالك، عن الزهرى، عن عروة، عن عبد الرحمن بن عبدٍ، عن عمر، فذكر الحديث بنحوه[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب بن ثابت، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة، عن أبيه، عن جده قال: قرأ رجل عند عمر فغير عليه فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فلم يغير علىّ قال: فاجتمعا عند النبى ﷺ، فقرأ الرجل على النبى ﷺ فقال له: «قد أحسنت». قال: فكأن عمر وجد من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، إن القرآن كله صواب، ما لم يجعل عذاب مغفرة أو مغفرة عذابا»[٦].

وهذا إسناد حسن. وحرب بن ثابت هذا يكنى بأبى ثابت، لا نعرف أحداً جرحه.

وقد اختلف العلماء فى معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال: قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى القرطبى المالكى فى مقدمات تفسيره: وقد اختلف العلماء فى المراء بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا، ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان البستى، ونحن نذكر منها خمسة أقوال.

---

(١) تفسير الطبرى (١/ ٤٩).

(٢) فى ط، جـ: «أخبراه».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٢).

(٤) المسند (١/ ٢٤) وصحيح البخارى برقم (٢٤١٩) وصحيح مسلم برقم (٨١٨) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٥) وسنن النسائى (٢/ ١٥٠) وسنن الترمذى برقم (٢٩٤٣).

(٥) المسند (١/ ٤٠).

(٦) المسند (٤/ ٣٠).

قلت: ثم سردها القرطبى، وحاصلها ما أنا مورده ملخصا:

فالأول ـ وهو قول أكثر أهل العلم، منهم سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وأبو جعفر بن جرير، والطحاوى ـ: أن المراد سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة نحو: أقبل وتعال وهلم. وقال الطحاوى: وأبين ما ذكر فى ذلك حديث أبى بكرة قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: اقرأ على حرف، فقال ميكائيل: استزده فقال: اقرأ على حرفين، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف، فقال: اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب واسرع وعجل.

وروى عن ورقاء عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبىّ بن كعب: أنه كان يقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]: «للذين آمنوا أمهلونا» «للذين آمنوا أخرونا» «للذين آمنوا ارقبونا»، وكان يقرأ: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠]: «مروا فيه» «سعوا فيه». قال الطحاوى وغيره: وإنما كان ذلك رخصة أن يقرأ الناس القرآن على سبع لغات، وذلك لما كان يتعسر على كثير من الناس التلاوة على لغة قريش، وقرأه رسول الله ﷺ لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ وقد ادّعى الطحاوى والقاضى الباقلانى والشيخ أبو عمرو بن عبد البر أن ذلك كان رخصة فى أول الأمر، ثم نسخ بزوال العذر وتيسير الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة.

قلت: وقال بعضهم: إنما كان الذى جمعهم على قراءة واحدة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أحد الخلفاء الراشدين المهديين المأمور باتباعهم، وإنما جمعهم عليها لما رأى من اختلافهم فى القراءة المفضية إلى تفرق الأمة وتكفير بعضهم بعضاً، فرتب لهم المصاحف الأئمة على العرضة الأخيرة التى عارض بها جبريل رسول الله ﷺ فى آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، وعزم عليهم ألا يقرؤوا بغيرها، وألا يتعاطا الرخصة التى كانت لهم فيها سعة، ولكنها أفضت إلى الفرقة والاختلاف، كما ألزم عمر بن الخطاب الناس بالطلاق الثلاثة المجموعة حين تتابعوا فيها وأكثروا منها، قال: فلو أنا أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم. وكان كذلك ينهى عن المتعة فى أشهر الحج لئلا ينقطع زيارة البيت فى غير أشهر الحج. وقد كان أبو موسى يفتى بالتمتع فترك فتياه اتباعا لأمير المؤمنين وسمعا وطاعة لأئمة المهديين.

القول الثانى: أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وليس المراد أن جميعه يقرأ على سبعة أحرف، ولكن بعضه على حرف وبعضه على حرف آخر. قال الخطابى: وقد يقرأ بعضه بالسبع لغات كما فى قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠] و﴿يرْتَعْ ويَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]. قال القرطبى: ذهب إلى هذا القول أبو عبيد، واختاره ابن عطية. قال أبو عبيد: وبعض اللغات أسعدُ به من بعض، وقال القاضى الباقلانى: ومعنى قول عثمان: إنه نزل بلسان قريش، أى: معظمه، ولم يقم دليل على أن جميعه بلغة قريش كله، قال الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، ولم يقل: قرشيا. قال: واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولا واحدا، يعنى حجازها ويمنها، وكذلك قال الشيخ أبو عمر بن

عبدالبر، قال: لأن غير لغة قريش موجودة فى صحيح القراءات بتحقيق الهمزات، فإن قريشا لا تهمز. وقال ابن عطية: قال ابن عباس: ما كنت أدرى ما معنى: ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [فاطر: ١]، حتى سمعت أعربيا يقول لبئر ابتدأ حفرها: أنا فطرتها.

القول الثالث: أن لغات القرآن السبع منحصرة فى مضر على اختلاف قبائلها خاصة؛ لقول عثمان: إن القرآن نزل بلغة[١] قريش، وقريش هم بنو النضر بن الحارث على الصحيح من أقوال أهل النسب، كما نطق به الحديث فى سنن ابن ماجه وغيره.

القول الرابع ـ وحكاه الباقلانى عن بعض العلماء ـ: أن وجوه القراءات ترجع إلى سبعة أشياء، منها ما تتغير حركته ولا تتغير صورته ولا معناه مثل: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ [الشعراء: ١٣] و «يضيقَ»، ومنها ما لا تتغير صورته ويختلف معناه مثل: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ [سبأ: ١٩] و «باعَدَ بين أسفارنا»، وقد يكون الاختلاف فى الصورة والمعنى بالحرف مثل: ﴿ نُنشِزُهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، و«نَنشُرُها»[٢]، أو بالكلمة مع بقاء المعنى [مثل][٣]: ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥]، أو «كالصوف المنفوش» أو باختلاف الكلمة بالتقدم والتأخر مثل: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ [ق: ١٩]، أو «سكرة الحق بالموت»، أو بالزيادة مثل «تسع وتسعون نعجة أنثى»، «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين»[٤]. «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور».

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة معانى القرآن وهى: أمر، ونهى، ووعد، ووعيد، وقصص، ومجادلة، وأمثال. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن هذه لا تسمى حروفا، وأيضا فالإجماع أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال[٥]، ولا فى تغيير شىء من المعانى، وقد أورد القاضى الباقلانى فى هذا حديثاً، ثم قال: وليست هذه هى التى أجاز لهم القراء[٦] بها[٧].

فصل

قال القرطبى: قال كثير من علمائنا كالداودى وابن أبى صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هى الأحرف السبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها، وإنما هى راجعة إلى حرف واحد من السبعة وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف. ذكره ابن النحاس وغيره.

قال القرطبى: وقد سوغ كل واحد من القراء السبعة قراءة الآخر وأجازها، وإنما اختار القراءة المنسوبة إليه لأنه رآها أحسن والأولى[٨] عنده. قال: وقد أجمع المسلمون فى هذه الأمصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة فيما رووه ورأوه من القراءات، وكتبوا فى ذلك مصنفات واستمر الإجماع على الصواب وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب[٩].

قال البخارى، رحمه الله:

---

(١) فى جـ: «بلسان».
(٢) فى جـ: «ينشرها».
(٣) زيادة من ط.
(٤) كذا فى جـ، ط.
(٥) فى جـ: «حرام».
(٦) فى جـ: «القراءة».
(٧) تفسير القرطبى (١/ ٤٢ ـ ٤٧).
(٨) فى م: «وأولى».
(٩) تفسير القرطبى (١/ ٤٦).

تأليف القرآن

حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف: أن ابن جريج أخبرهم قال: وأخبرنى يوسف ابن ماهك قال: إنى لعند عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، إذ جاءها عراقى فقال: أى الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك، قال: يا أم المؤمنين، أرينى مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلى أؤلف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل، إنما أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شىء: ولا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإنى لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف فأملت عليه آى السور[(١)]. وهكذا رواه النسائى من حديث ابن جريج به[(٢)]، والمراد من التأليف ههنا ترتيب سوره. وهذا العراقى سأل أولا عن أى الكفن خير، أى: أفضل، فأخبرته عائشة، رضى الله عنها، أن هذا لا ينبغى أن يعتنى بالسؤال عنه ولا القصد له ولا الاستعداد، فإن فى هذا تكلفا لا طائل تحته، وكانوا فى ذلك الزمان يصفون أهل العراق بالتعنت فى الأسئلة، كما سأل بعضهم عبد الله بن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب فقال عبد الله بن عمر: انظروا أهل العراق، يسألون عن دم البعوضة، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ ![(٣)]. ولهذا لم تبالغ معه عائشة، رضى الله عنها، فى الكلام لئلا يظن أن ذلك أمر مهم، وإلا فقد روى أحمد وأهل السنن من حديث سمرة وابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «البسوا من ثيابكم البياض، وكفنوا فيها موتاكم، فإنها أطهر وأطيب»[(٤)] وصححه الترمذى من الوجهين.

وفى الصحيحين عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: كفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض سحولية، ليس فيها قميص ولا عمامة[(٥)]. وهذا محرر فى باب الكفن من كتاب الجنائز.

ثم سألها عن ترتيب القرآن فانتقل إلى سؤال كبير، وأخبرها أنه يقرأ غير مؤلف، أى: غير مرتب السور. وكأن هذا قبل أن يبعث أمير المؤمنين عثمان، رضى الله عنه، إلى الآفاق بالمصاحف الأئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم.

ولهذا أخبرته: أنك لا يضرك بأى سورة بدأت، وأن أول سورة نزلت فيها ذكر الجنة والنار،

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٩٩٣).

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٨٧).

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٧٥٣).

(٤) حديث ابن عباس فى المسند (١/ ٢٣١، ٢٤٧) وسنن أبى داود برقم (٣٨٧٨) وسنن النسائى (٨/ ١٤٩) وسنن الترمذى برقم (٩٩٤) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٧٢)، وحديث سمرة فى المسند (٥/ ٢٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨١١) وسنن النسائى (٨/ ٢٠٥).

(٥) صحيح البخارى برقم (١٢٦٤) وصحيح مسلم برقم (٩٤١).

وهذه إن لم تكن «اقرأ» فقد يحتمل أنها أرادت اسم جنس لسور المفصل التى فيها الوعد والوعيد، ثم لما انقاد الناس إلى التصديق أمروا ونهوا بالتدريج أولا فأولا، وهذا من حكمة الله ورحمته. ومعنى هذا الكلام: أن هذه السورة أو السور التى فيها ذكر الجنة والنار ليس البداءة بها فى أوائل المصاحف، مع أنها من أول ما نزل، وهذه البقرة والنساء من أوائل ما فى المصحف، وقد نزلت عليه فى المدينة وأنا عنده.

فأما ترتيب الآيات فى السور فليس فى ذلك رخصة، بل هو أمر توقيفى عن رسول الله ﷺ، كما تقدم تقرير ذلك؛ ولهذا لم ترخص له فى ذلك، بل أخرجت له مصحفها، فأملت عليه آى السور، والله أعلم. وقول عائشة: لا يضرك بأى سورة بدأت، يدل على أنه لو قدم بعض السور أو أخر، كما دل عليه حديث حذيفة وابن مسعود، وهو فى الصحيح أنه، عليه السلام، قرأ فى قيام الليل بالبقرة ثم النساء[١] ثم آل عمران[٢]. وقد حكى القرطبى عن أبى بكر بن الأنبارى فى كتاب الرد أنه قال: فمن أخرّ سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والآيات[٣]، وكان مستنده اتباع مصحف عثمان، رضى الله عنه، فإنه مرتب على هذا النحو المشهور، والظاهر أن ترتيب السور فيه منه ما هو رجع إلى رأى عثمان، وذلك ظاهر فى سؤال ابن عباس له فى ترك البسملة فى أول براءة، وذكره الأنفال من الطول، والحديث فى الترمذى وغيره بإسناد جيد وقوى. وقد ذكرنا عن على أنه كان قد عزم على ترتيب القرآن بحسب نزوله.

ولقد حكى القاضى الباقلانى: أن أول مصحفه كان: «اقرأ باسم ربك الأكرم» وأول مصحف ابن مسعود: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ثم البقرة، ثم النساء على ترتب مختلف، وأول مصحف أبىّ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم المائدة، ثم كذا على اختلاف شديد، ثم قال القاضى: ويحتمل أن ترتيب السور فى المصحف على ما هو عليه اليوم من اجتهاد الصحابة، رضى الله عنهم ، وكذا ذكره مكى فى تفسير سورة براءة قال: فأما ترتيب الآيات والبسملة فى الأوائل فهو من النبى ﷺ.

وقال ابن وهب فى جامعه: سمعت سليمان بن بلال يقول: سئل ربيعة: لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة؟ فقال: قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه، وقد أجمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ينتهى إليه ولا يسأل عنه. قال ابن وهب: وسمعت مالكا يقول: إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبى ﷺ[٤].

قال أبو الحسن بن بطال: إنا نجد[٥] تأليف سوره فى الرسم والخط خاصة ولا يعلم أن أحداً منهم

(١) فى جـ: «بالنساء».
(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٧٢).
(٣) تفسير القرطبى (١/ ٦٠).
(٤) ذكره القرطبى فى تفسيره (١/ ٥٩، ٦٠).
(٥) فى ط، جـ: «إنما يجب».

قال: إن ترتيب ذلك واجب فى الصلاة وفى قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يقرأ الكهف قبل البقرة، ولا الحج قبل[١] الكهف، ألا ترى إلى قول عائشة: ولا يضرك أيه قرأت قبل. وقد كان النبى ﷺ يقرأ فى الصلاة السورة فى ركعة، ثم يقرأ فى الركعة الأخرى بغير السورة التى تليها.

وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا[٢]. وقالا: إنما ذلك منكوس القلب، فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسةً فيبتدئ بآخرها إلى أولها، فإن ذلك حرام محذور.

ثم قال البخارى: حدثنا آدم، عن شعبة، عن أبى إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد قال: سمعت ابن مسعود يقول فى بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادى[٣]. انفرد البخارى بإخراجه والمراد منه ذكر ترتيب هذه السور فى مصحف ابن مسعود كالمصاحف العثمانية، وقوله: «من العتاق الأول» أى: من قديم ما نزل، وقوله: «وهن من تلادى» أى: من قديم ما قنيت وحفظت. والتالد فى لغتهم: قديم المال والمتاع، والطارف حديثه وجديده، والله أعلم.

وحدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إسحاق: سمع البراء بن عازب يقول: تعلمت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قبل أن يقدم النبى ﷺ[٤]. وهذا متفق عليه، وهو قطعة من حديث الهجرة، والمراد منه أن ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ مكية نزلت قبل الهجرة، والله أعلم.

ثم قال: حدثنا عبْدَان، عن أبى حمزة، عن الأعمش، عن شقيق قال: قال عبد الله: لقد علمت النظائر التى[٥] كان النبى ﷺ يقرأهن اثنين اثنين فى كل ركعة، فقام عبد الله ودخل معه علقمة، وخرج علقمة فسألناه فقال: عشرون سورة من أول المفصل على تأليف ابن مسعود، آخرهن من الحواميم حم الدخان وعمّ يتساءلون.

وهذا التأليف الذى عن ابن مسعود غريب مخالف لتأليف عثمان، رضى الله عنه، فإن المفصل فى مصحف عثمان، رضى الله عنه، من سورة الحجرات إلى آخره وسورة الدخان، لا تدخل فيه بوجه، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الطائفى، عن عثمان بن عبد الله ابن أوس الثقفى عن جده أوس بن حذيفة قال: كنت فى الوفد الذين أتوا النبى ﷺ فذكر حديثا فيه: أن رسول الله ﷺ كان يسمر معهم بعد العشاء فمكث عنا ليلة لم يأتنا، حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: «طرأ على حزب من القرآن، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه». قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟

---

(١) فى ط، جـ: «بعد».

(٢) فى جـ: «مقلوباً».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٥).

(٥) فى ط: «الذى».

قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم[١].

ورواه أبو داود وابن ماجة من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الطائفى به[٢]، وهذا إسناد حسن.

فصل

فأما نقط المصحف وشكله، فيقال: إن أول من أمر به عبد الملك بن مروان، فتصدى لذلك الحجاج وهو بواسط، فأمر الحسن البصرى ويحيى بن يعمر ففعلا ذلك، ويقال: إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى، وذكروا أنه كان لمحمد بن سيرين مصحف قد نقطه له يحيى بن يعمر[٣]، والله أعلم.

وأما كتابة الأعشار على الحواشى فينسب إلى الحجاج أيضا، وقيل: بل أول من فعله المأمون، وحكى أبو عمرو الدانى عن ابن مسعود أنه كره التعشير فى المصحف، وكان يحكه[٤]، وكره مجاهد ذلك أيضا.

وقال مالك: لا بأس به بالحبر، فأما بالألوان المصبغة فلا. وأكره تعداد آى السور فى أولها فى المصاحف الأمهات، فأما ما يتعلم فيه الغلمان فلا أرى به بأسا.

وقال قتادة: بدؤوا فنقطوا، ثم خمسوا، ثم عشروا. وقال يحيى بن أبى كثير: أول ما أحدثوا النقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، أحدثوا نقطاً عند آخر الآى، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم.

ورأى إبراهيم النخعى فاتحة سورة كذا، فأمر بمحوها وقال: قال ابن مسعود: لا تخلطوا بكتاب الله ما ليس فيه. قال أبو عمرو الدانى: ثم قد أطبق المسلمون فى ذلك فى سائر الآفاق على جواز ذلك فى الأمهات وغيرها.

ثم قال البخارى، رحمه الله:

كان جبريل يعرض القرآن على النبى ﷺ

قال مسروق عن عائشة، عن فاطمة، رضى الله عنها، أسر إلىّ رسول الله ﷺ: أن جبريل كان يعارضنى بالقرآن كل سنة وأنه عارضنى العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلى. هكذا ذكره معلقا وقد أسنده فى موضع آخر[٥].

ثم قال: حدثنا يحيى بن قزعة، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن الزهرى، عن عبد الله بن عبيد الله،

---

(١) المسند (٤/٩).

(٢) سنن أبى داود برقم (١٣٩٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٤٥).

(٣) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص ١٦٠).

(٤) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص ٢٤٠).

(٥) صحيح البخارى (٩/٤٣) «فتح».

عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون فى شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه فى كل ليلة فى شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وهذا الحديث متفق عليه[(١)]، وقد تقدم الكلام عليه فى أول الصحيح وما فيه من الحكم والفوائد، والله أعلم.

ثم قال: حدثنا خالد بن يزيد، حدثنا أبو بكر، عن أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: كان يعرض على النبى ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين فى العام الذى قبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشرا فاعتكف عشرين فى العام الذى قبض.

ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجة من غير وجه عن أبى بكر ـ وهو ابن عياش ـ عن أبى حصين، واسمه عثمان بن عاصم، به[(٢)]. والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة: مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى، ليبقى ما بقى، ويذهب ما نسخ توكيداً، أو استثباتاً وحفظاً؛ ولهذا عرضه فى السنة الأخيرة من عمره، عليه السلام، على جبريل مرتين، وعارضه به جبريل كذلك؛ ولهذا فهم، عليه السلام، اقتراب أجله وعثمان، رضى الله عنه، جمع المصحف الإمام على العرضة الأخيرة، وخصّ بذلك رمضان من بين الشهور؛ لأن ابتداء الإيحاء كان فيه؛ ولهذا يستحب دراسة القرآن وتكراره فيه، ومن ثم اجتهاد الأئمة فيه فى تلاوة القرآن، كما تقدم ذكرنا لذلك.

القراء من أصحاب النبى ﷺ

حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن إبراهيم، عن مسروق: ذكر عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود، فقال: لا أزال أحبه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبى بن كعب»، رضى الله عنهم[(٣)].

وقد أخرجه البخارى فى المناقب فى غير موضع، ومسلم والنسائى من حديث شعبة، عن عمرو ابن مرة به[(٤)].

وأخرجاه والترمذى والنسائى ـ أيضا ـ من حديث الأعمش عن أبى وائل، عن مسروق به[(٥)]. فهؤلاء الأربعة اثنان من المهاجرين الأولين عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة، وقد كان سالم هذا من سادات المسلمين وكان يؤم الناس قبل مقدم النبى ﷺ فى المدينة، واثنان من الأنصار معاذ بن جبل، وأبىّ بن كعب، وهما سيدان كبيران، رضى الله عنهم أجمعين.

ثم قال: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، حدثنا شقيق بن سلمة قال: خطبنا

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٧) وصحيح مسلم برقم (٢٣٠٨).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٨) وسنن أبى داود برقم (٢٤٦٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٩٢) وسنن ابن ماجة برقم (١٧٦٩).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٩٩).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٨٠٦، ٣٧٥٨) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٩٦).

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣٨١٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٩٧).

عبد الله فقال: والله لقد أخذت من فى رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبى ﷺ أنى من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست فى الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت راداً يقول غير ذلك(١).

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنا بحمص، فقرأ ابن مسعود سورة يوسف فقال رجل: ما هكذا أنزلت، فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فقال: «أحسنت» ووجد منه ريح الخمر، فقال: أتجترئ أن تكذب بكتاب الله وتشرب الخمر؟! فجلده الحد(٢).

حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، حدثنا مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: والله الذى لا إله غيره، ما أنزلت (٣) سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحدا أعلم منى تبلغه الإبل لركبت إليه(٤).

وهذا كله حق وصدق، وهو من إخبار الرجل بما يعلم عن نفسه ما قد يجهله غيره، فيجوز ذلك للحاجة، كما قال تعالى إخبارا عن يوسف لما قال لصاحب مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، ويكفيه مدحا وثناء قول رسول الله ﷺ: «استقرئوا القرآن من أربعة»، فبدأ به.

وقال أبو عبيد: حدثنا مصعب بن المقدام عن سفيان عن الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، عن عمر عن النبى ﷺ قال: «من أحب أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل فليقرأه على حرف ابن أم عبد»(٥). وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبى معاوية، عن الأعمش به مطولا، وفيه قصة(٦)، وأخرجه الترمذى والنسائى من حديث أبى معاوية وصححه الدارقطنى(٧)، وقد ذكرته فى مسند عمر(٨)، وفى مسند الإمام أحمد ـ أيضا ـ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ومن أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»(٩)، وابن أم عبد هو عبد الله بن مسعود، وكان يعرف بذلك.

ثم قال البخارى: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا همام، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبىّ بن كعب، ومعاذ بن

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٠).
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٠١).
(٣) فى جـ: «ما نزلت».
(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٢).
(٥) فضائل القرآن (ص٢٢٥).
(٦) المسند (١/ ٢٥، ٢٦).
(٧) سنن الترمذى برقم (١٦٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٢٥٦).
(٨) مسند عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ للمؤلف (ص١٧١ ـ ١٧٣) وقال: «وهذا الحديث لا يشك أنه محفوظ، وهذا الاضطراب لا يضر صحته، والله أعلم».
(٩) المسند (٢/ ٤٤٦).

جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. ورواه مسلم من حديث همام[(١)].

ثم قال البخارى: تابعه الفضل، عن حسين بن واقد، عن ثمامة، عن أنس [(٢)].

حدثنا معلى بن أسد، حدثنا عبد الله بن المثنى قال: حدثنى ثابت البنانى وثمامة عن أنس بن مالك قال: مات النبى ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قال: ونحن ورثناه[(٣)].

فهذا الحديث ظاهره أنه لم يجمع القرآن من الصحابة سوى هؤلاء الأربعة فقط، وليس هذا هكذا، بل الذى لاشك فيه أنه جمعه غير واحد من المهاجرين أيضا، ولعل مراده: لم يجمع القرآن من الأنصار؛ ولهذا ذكر الأربعة من الأنصار، وهم أبى بن كعب فى الرواية الأولى المتفق عليها وفى الثانية من أفراد البخارى: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، وكلهم مشهورون إلا أبا زيد هذا، فإنه غير معروف إلا فى هذا الحديث، وقد اختلف فى اسمه فقال الواقدى: اسمه قيس بن السكن بن قيس بن زعواء بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار[(٤)].

وقال ابن نمير: اسمه سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد بن أمية من الأوس. وقيل: هما اثنان جمعا القرآن، حكاه أبو عمر بن عبد البر، وهذا بعيد وقول الواقدى أصح لأنه خزرجى؛ لأن أنساً قال: ونحن ورثناه، وهم من الخزرج، وفى بعض ألفاظه[(٥)]: وكان أحد عمومتى. وقال قتادة عن أنس: افتخر الحيان الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة حنظلة بن أبى عامر، ومنا الذى حمته الدبُرُ عاصم بن ثابت، ومنا الذى اهتز لموته العرش سعد بن معاذ، ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت.

فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ: أبىّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد.

فهذا كله يدل على صحة قول الواقدى، وقد شهد أبو زيد هذا بدرا، فيما ذكره غير واحد. وقال موسى بن عقبة عن الزهرى: قتل أبو زيد قيس بن السكن يوم جسر [(٦)] أبى عبيدة على رأس خمس عشرة [(٧)] من الهجرة، والدليل على أن [(٨)] من المهاجرين من جمع القرآن أن الصديق، رضى الله عنه، قدّمه رسول الله ﷺ فى مرضه [(٩)] إماما على المهاجرين والأنصار، مع أنه ﷺ قال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله» [(١٠)]، فلولا أنه كان أقرؤهم لكتاب الله لما قدّمه عليهم. هذا مضمون ما قرره

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٥).

(٢) فى جـ: «أنس بن مالك».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٤).

(٤) انظر: الإصابة (٣/ ٢٤٠).

(٥) فى ط: «الألفاظ».

(٦) فى ط: «خيبر». (٧) فى ط: «عشرة سنة». (٨) فى ط: «أنه».

(٩) فى جـ، ط: «زمنه».

(١٠) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٦٧٢) من حديث أبى مسعود الأنصارى.

الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى، وهذا التقرير لا يُدفع ولاشك [(١)] فيه، وقد جمع الحافظ ابن السمعانى فى ذلك جزءاً، وقد بسطت تقرير ذلك فى كتاب مسند الشيخين، رضى الله عنهما. ومنهم عثمان بن عفان وقد قرأه فى ركعة ـ كما سنذكره ـ وعلى بن أبى طالب يقال: إنه جمعه على ترتيب ما أنزل، وقد قدمنا هذا. ومنهم عبد الله بن مسعود، وقد تقدم عنه أنه قال: ما من آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت[(٢)]؟ وفيم نزلت؟ ولو علمت أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه المطى لذهبت إليه. ومنهم سالم مولى أبى حذيفة، كان من السادات النجباء والأئمة الأتقياء وقد قتل يوم اليمامة شهيدا. ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله[(٣)] ﷺ وترجمان القرآن، وقد تقدم عن مجاهد أنه قال: قرأت القرآن على ابن عباس مرتين، أقفه عند كل آية وأسأله عنها. ومنهم عبد الله بن عمرو، كما رواه النسائى وابن ماجة من حديث ابن جريج عن عبد الله بن أبى مُلَيْكة، عن يحيى بن حكيم بن صفوان، عن عبد الله بن عمرو قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «اقرأه فى شهر». وذكر تمام الحديث[(٤)].

ثم قال البخارى: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا يحيى، عن سفيان، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال عمر: علىٌّ أقضانا، وأُبىّ أقرأنا، وإنا لَنَدع من لحن أُبىٍّ، وأُبىّ يقول: أخذته من فى رسول الله ﷺ، فلا أتركه لشىء قال الله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦][(٥)].

وهذا يدل على أن الرجل الكبير قد يقول الشىء يظنه صوابا وهو خطأ فى نفس الأمر؛ ولهذا قال الإمام مالك: ما من أحد إلا يؤخذ من قوله ويرد إلا قول صاحب هذا القبر، أى: فكله مقبول، صلوات الله وسلامه عليه. ثم ذكر البخارى فضل فاتحة الكتاب وغيرها، وسنذكر فضل كل سورة عندها ليكون ذلك أنسب. ثم قال:

نزول السكينة والملائكة عند القراءة

وقال الليث: حدثنى يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أسيد بن الحضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت[(٦)]، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبا منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبى ﷺ فقال: «اقرأ يا بن حضير، اقرأ يا بن حضير». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريبا، فرفعت رأسى وانصرفت إليه، فرفعت رأسى إلى السماء فإذا مثل الظُّلَّة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها قال: « أو تدرى[(٧)] ما ذاك؟». قال: لا، قال: «الملائكة دَنَتْ لصوتك، ولو قرأت لأصبحت

(١) فى ط: «ولا يشك». (٢) فى ط: «أنزلت». (٣) فى ط: «الرسول».
(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٦٤) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٤٦).
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٥).
(٦) فى جـ، ط: «فجالت الفرس». (٧) فى ط: «وتدرى».

ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». قال ابن الهاد: وحدثنى هذا الحديث عبد الله بن خباب عن أبى سعيد الخدرى عن أسيد بن الحضير[(١)].

هكذا أورد البخارى هذا الحديث معلقا، وفيه انقطاع فى الرواية الأولى، فإن محمد بن إبراهيم ابن الحارث التيمى المدنى تابعى صغير لم يدرك أسيدا لأنه مات سنة عشرين، وصلى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما. ثم فيه غرابة من حيث إنه قال: وقال الليث: حدثنى يزيد بن الهاد ولم أره بسند متصل عن الليث بذلك، إلا ما ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى الأطراف أن يحيى بن عبد الله بن بكير رواه عن الليث كذلك[(٢)].

وقد رواه الإمام أبو عبيد فى فضائل القرآن فقال: حدثنا عبد الله بن صالح ويحيى بن بُكيْر، عن الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى، عن أسيد ابن حضير، فذكر الحديث إلى آخره، ثم قال: [قال][(٣)] ابن الهاد: وحدثنى عبد الله بن خباب، عن أبى سعيد، عن أسيد بن حضير بهذا[(٤)].

وقد رواه النسائى فى فضائل القرآن، عن محمد بن عبد الله بن [عبد][(٥)] الحكم عن شعيب بن الليث، وعن على بن محمد بن على، عن داود بن منصور، كلاهما عن الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبى هلال، عن يزيد بن عبد الله، وهو ابن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبى سعيد، عن أسيد، به[(٦)]. ورواه يحيى بن بكير، عن الليث كذلك أيضا، فجمع بين الإسنادين. ورواه فى المناقب عن أحمد بن سعيد الرباطى، عن يعقوب بن إبراهيم، عن أبيه، عن يزيد بن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبى سعيد، أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ فى مربده، الحديث. ولم يقل: عن أسيد، ولكن ظاهره أنه عنه، والله أعلم[(٧)].

وقال أبو عبيد: حدثنى عبد الله بن صالح، عن الليث، عن ابن شهاب، عن ابن كعب بن مالك، عن أسيد بن حضير: أنه كان على ظهر بيته يقرأ القرآن وهو حسن الصوت، ثم ذكر مثل هذا الحديث أو نحوه[(٨)]:

حدثنا قبيصة، عن حماد بن سلمة، عن ثابت البنانى، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أسيد ابن حضير قال: قلت: يا رسول الله، بينما أنا أقرأ البارحة بسورة، فلما انتهيت إلى آخرها سمعت

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠١٨).
(٢) انظر: تحفة الأشراف للمزى (١/ ٧٢).
(٣) زيادة من ط.
(٤) فضائل القرآن (ص ٢٦).
(٥) زيادة من ط.
(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٧٤).
(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٢٤٤).
(٨) فضائل القرآن (ص ٢٧) .

وجبة من خلفى، حتى ظننت أن فرسى تطلق، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك» [مرتين][(١)] قال: فالتفت إلى أمثال المصابيح ملء بين السماء والأرض، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك». فقال: والله ما استطعت أن أمضى فقال: «تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن، أما إنك لو مضيت لرأيت الأعاجيب»[(٢)].

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق سمع البراء يقول: بينما رجل يقرأ سورة الكهف ليلة إذ رأى دابته تركض، أو قال: فرسه يركض، فنظر فإذا مثل الضبابة أو مثل الغمامة، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «تلك السكينة نزلت للقرآن، أو تنزلت على القرآن»[(٣)]. وقد أخرجه صاحبا الصحيح من حديث شعبة[(٤)]. والظاهر أن هذا هو أسيد بن الحضير، رضى الله عنه، فهذا ما يتعلق بصناعة الإسناد، وهذا من أغرب تعليقات البخارى، رحمه الله، ثم سياق ظاهر فيما ترجم عليه من نزول السكينة والملائكة عند القراءة.

وقد اتفق نحو هذا الذى وقع لأسيد بن الحضير لثابت بن قيس بن شماس كما قال أبو عبيد:

حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن زيد[(٥)]، أن أشياخ أهل المدينة حدثوه: أن رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح؟ قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: فسئل ثابت فقال: قرأت سورة البقرة[(٦)].

وفى الحديث المشهور الصحيح: «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحَفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» رواه مسلم عن أبى هريرة[(٧)].

ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وجاء فى بعض التفاسير: أن الملائكة تشهده. وقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر، فيعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»[(٨)].

---

(١) زيادة من ط.

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٢٧).

(٣) مسند الطيالسى برقم (٧١٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٦١٤) وصحيح مسلم برقم (٧٩٥).

(٥) فى ط، م: «يزيد».

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٧).

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).

من قال: لم يترك النبى ﷺ إلا ما بين الدفتين

حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا سفيان، عن عبد العزيز بن رفيع قال: دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس، فقال له شداد بن معقل: أترك النبى ﷺ من شىء؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. قال: ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين.

تفرد به البخارى(١)، ومعناه: أنه، عليه السلام، ما ترك مالا ولا شيئا يورث عنه، كما قال عمرو ابن الحارث أخو جويرية بنت الحارث: ما ترك رسول الله ﷺ دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا(٢). وفى حديث أبى الدرداء: «إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(٣). ولهذا قال ابن عباس: وإنما ترك ما بين الدفتين يعنى: القرآن، والسنة مفسرة له ومبينة وموضحة له، فهى تابعة له، والمقصود الأعظم كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، فالأنبياء، عليهم السلام، لم يخلقوا للدنيا يجمعونها ويورثونها، إنما خلقوا للآخرة يدعون إليها ويرغبون فيها؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»(٤)، وكان أول من أظهر هذه المحاسن من هذا الوجه أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، لما سئل عن ميراث النبى ﷺ، فأخبر عنه بذلك، ووافقه على نقله عنه، عليه السلام، غير واحد من الصحابة؛ منهم عمر وعثمان وعلى والعباس وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو هريرة وعائشة وغيرهم، وهذا ابن عباس يقول ـ أيضا ـ عنه عليه السلام، رضى الله عنهم أجمعين.

فضل القرآن على سائر الكلام

حدثنا هُدْبَة بن خالد أبو خالد، حدثنا همام، حدثنا قتادة، حدثنا أنس بن مالك، عن أبى موسى، رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ: «مثل الذى يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجة، طعمها طيب وريحها طيب. والذى لا يقرأ القرآن كالتمرة، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها»(٥). وهكذا رواه فى مواضع أخر مع بقية الجماعة من طرق عن قتادة به(٦).

ووجه مناسبة الباب لهذا الحديث: أن طيب الرائحة دار مع القرآن وجودا وعدما، فدل على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البر والفاجر. ثم قال: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنى عبد الله بن دينار، قال: سمعت ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «إنما أجلكم فى أجل من خلا

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠١٩).

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٧٣٩، ٤٤٦١).

(٣) رواه أبو داود فى السنن برقم (٣٦٤١) وابن ماجة فى السنن برقم (٢٢٣) وابن حبان فى صحيحه برقم (٨٠) «موارد».

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٠٩٣) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٥٨).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٠).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٤٢٧، ٥٠٥٩) وصحيح مسلم برقم (٧٩٧) وسنن أبى داود برقم (٤٨٣٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٦٥) وسنن النسائى (٨/ ١٢٤، ١٢٥) وسنن ابن ماجة برقم (٢١٤).

من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا، فقال: من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود فقال: من يعمل لى من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاءً! قال: هل ظلمتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلى أوتيه من شئت»[١].

تفرد به من هذا الوجه، ومناسبته للترجمة: أن هذه الأمة مع قصر مدتها فضلَتْ الأمم الماضية مع طول مدتها، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفى المسند والسنن عن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»[٢]. وإنما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم الذى شرفه الله تعالى على كل كتاب أنزله، جعله مهيمنا عليه، وناسخا له، وخاتما له؛ لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة، وهذا القرآن نزل منجما بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به وبمن أنزله عليه، فكل مرة كنزول كتاب من الكتب المتقدمة، وأعظم الأمم المتقدمة هم اليهود والنصارى، فاليهود استعملهم الله من لدن موسى إلى زمان عيسى، والنصارى من ثمّ إلى أن بعث محمد ﷺ، ثم استعمل أمته إلى قيام الساعة، وهو المشبه بآخر النهار، وأعطى الله المتقدمين قيراطا قيراطا، وأعطى هؤلاء قيراطين قيراطين، ضعفى ما أعطى أولئك، فقالوا: أى ربنا، ما لنا أكثر عملا وأقل أجرا؟ فقال: هل ظلمتكم شيئا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلى أى: الزائد على ما أعطيتكم أؤتيه من أشاء كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩].

الوصايا بكتاب الله

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا مالك بن مِغْول، حدثنا طلحة بن مُصَرِّف قال: سألت عبد الله ابن أبى أوفى: أوصى النبى ﷺ؟ قال: لا. فقلت: كيف كتب على الناس الوصية، أمروا بها ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله، عز وجل[٣].

وقد رواه فى مواضع أخر مع بقية الجماعة، إلا أبا داود من طرق عن مالك بن مغول به[٤]، وهذا نظير ما تقدم عن ابن عباس: «ما ترك إلا ما بين الدفتين»، وذلك أن الناس كتب عليهم الوصية فى أموالهم كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وأما هو ﷺ فلم يترك شيئا يورث عنه، وإنما ترك ماله صدقة جارية من

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٢١).
(٢) المسند (٣/٥) وسنن الترمذى برقم (٣٠٠١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٨٧، ٤٢٨٨) وقال الترمذى: «حديث حسن».
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٢).
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٧٤٠، ٤٤٦٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٣٤) وسنن الترمذى برقم (٢١١٩) وسنن النسائى (٦/ ٢٤٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٦٩٦).

بعده، فلم يحتج إلى وصية فى ذلك ولم يوصِ إلى خليفة يكون بعده على التنصيص؛ لأن الأمر كان ظاهرا من إشارته وإيمائه إلى الصديق؛ ولهذا لما هم بالوصية إلى أبى بكر ثم عدل عن ذلك فقال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»(١)، وكان كذلك، وإنما أوصى الناس باتباع كتاب الله تعالى.

من لم يتغنَّ بالقرآن وقول الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لم يأذن الله لشىء، ما أذن لنبى أن يتغنى بالقرآن»، وقال صاحب له: يريد يجهر به فرد من هذا الوجه. ثم رواه عن على بن عبد الله بن المدينى، عن سفيان بن عيينة، عن الزهرى به(٢). قال سفيان: تفسيره: يستغنى به، وقد أخرجه مسلم والنسائى من حديث سفيان بن عيينة(٣)، ومعناه: أن الله ما استمع لشىء كاستماعه لقراءة نبى يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع فى قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية فى ذلك.

وهو، سبحانه وتعالى، يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة، رضى الله عنها: سبحان الله الذى وسع سمعه الأصوات(٤). ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس: ٦١]، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم، ومنهم من فسر الأذن ههنا بالأمر، والأول أولى لقوله: «ما أذن الله لشىء ما أذن لنبى أن يتغنى بالقرآن» أى: يجهر به، والأذن: الاستماع؛ لدلالة السياق عليه، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ. وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ. وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٥] أى: وحق لها أن تستمع أمره وتطيعه، فالأذن هو الاستماع؛ ولهذا جاء فى حديث رواه ابن ماجة بسند جيد عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد أذنا إلى الرجل(٥) الحسن الصوت بالقرآن [يجهر به](٦) من صاحب القينة إلى قينته»(٧).

وقال سفيان بن عيينة: إن المراد بالتغنى: يستغنى به، فإن أراد: أنه يستغنى عن الدنيا، وهو الظاهر من كلامه الذى تابعه عليه أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره، فخلاف الظاهر من مراد الحديث؛ لأنه قد فسره بعض رواته بالجهر، وهو تحسين القراءة والتحزين بها(٨).

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢١٧) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٨٧) من حديث عائشة، رضى الله عنها.
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٣)، (٥٠٢٤).
(٣) صحيح مسلم برقم (٧٩٢) وسنن النسائى (٢/ ١٨٠).
(٤) رواه النسائى فى السنن (٦/ ١٦٨) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٣٨٥) معلقاً.
(٥) فى ط، جـ: «أذنا الرجل».
(٦) زيادة من ابن ماجه.
(٧) سنن ابن ماجة برقم (١٣٤٠).
(٨) نقل الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩/ ٧٠) عن ابن الجوزى أربعة أقوال فى معنى يتغنى: تحسين الصوت، الاستغناء، التحزن كما قال الشافعى، التشاغل به. قال: وحكى ابن الأنبارى قولاً خامساً وهو التلذذ والاستحلاء.

قال حرملة: سمعت ابن عيينة يقول: معناه: يستغنى به، فقال لى الشافعى: ليس هو هكذا، ولو كان هكذا لكان يتغانى به، وإنما هو يتحزن ويترنم به، ثم قال حرملة: وسمعت ابن وهب يقول: يترنم به، وهكذا نقل المزنى والربيع عن الشافعى، رحمه الله.

وعلى هذا فتصدير البخارى الباب بقوله تعالى: **﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** [العنكبوت: ٥١]، فيه نظر؛ لأن هذه الآية الكريمة ذكرت ردا على الذين سألوا عن آيات تدل على صدقه، حيث قال: **﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾** الآية [العنكبوت: ٥٠، ٥١]. ومعنى ذلك: أو لم يكفهم آية دالة على صدقك إنزالنا القرآن عليك وأنت رجل أمى **﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾** [العنكبوت: ٤٨] أى: وقد جئت فيه بخبر الأولين والآخرين فأين هذا من التغنى بالقرآن وهو تحسين الصوت به أو الاستغناء به عما عداه من أمور الدنيا، فعلى كل تقدير تصدير الباب بهذه الآية الكريمة فيه نظر(١).

فصل

فى إيراد أحاديث فى معنى الباب وذكر

أحكام التلاوة بالأصوات

قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن قباث بن رزين، عن على بن رباح اللخمى، عن عقبة بن عامر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما ونحن فى المسجد نتدارس القرآن، فقال: «تعلموا كتاب الله واقتنوه». قال: وحسبت أنه قال: «وتغنوا به، فوالذى نفسى بيده، لهو أشد تفلتا من المخاض من العقل»(٢).

وحدثنا عبد الله بن صالح، عن موسى بن على، عن أبيه، عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ مثل ذلك إلا أنه قال: «واقتنوه وتغنوا به»(٣) ولم يشك، وهكذا رواه أحمد والنسائى فى فضائل

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩/ ٦٨): «أشار بهذه الآية إلى ترجيح تفسير ابن عيينة: يتغنى: يستغنى، كما سيأتى فى هذا الباب عنه، وأخرجه أبو داود عن ابن عيينة ووكيع جميعاً، وقد بين إسحاق بن راهويه عن ابن عيينة أنه استغناء خاص، وكذا قال أحمد عن وكيع: يستغنى به عن أخبار الأمم الماضية، وقد أخرج الطبرى وغيره من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: جاء ناس من المسلمين بكتب وقد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبى ﷺ: «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزل: **﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾**. وقد خفى وجه مناسبة تلاوة هذه الآية على كثير من الناس كابن كثير، فنفى أن يكون لذكرها وجه، على أن ابن بطال مع تقدمه قد أشار إلى المناسبة فقال: قال أهل التأويل فى هذه الآية، فذكر أثر يحيى بن جعدة مختصراً قال: فالمراد بالآية: الاستغناء عن أخبار الأمم الماضية، وليس المراد الاستغناء الذى هو ضد الفقر، قال: وإتباع البخارى الترجمة بالآية يدل على أنه يذهب إلى ذلك. وقال ابن التين: يفهم من الترجمة: أن المراد بالتغنى الاستغناء؛ لكونه أتبعه الآية التى تضمن الإنكار على من لم يستغن بالقرآن على غيره، فحمله على الاكتفاء به وعدم الافتقار إلى غيره، وحمله على ضد الفقر من جملة ذلك».

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٩).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢٩).

القرآن، من حديث موسى بن على، عن أبيه به[١]، ومن حديث عبد الله بن المبارك، عن قباث بن رزين، عن على بن رباح، عن عقبة، وفى بعض ألفاظه: خرج علينا ونحن نقرأ القرآن فسلم علينا، وذكر الحديث. ففيه دلالة على السلام على القارئ.

ثم قال أبو عبيد: حدثنا أبو اليمان، عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم، عن المهاصر بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار، وتغنوه واقتنوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون»[٢] وهذا مرسل.

ثم قال أبو عبيد: قوله: «تغنوه»: يعنى: اجعلوه غناءكم من الفقر، ولا تعدوا الإقلال منه فقرا. وقوله: «واقتنوه»، يقول: اقتنوه، كما تقتنون الأموال اجعلوه مالكم.

وقال أبو عبيد: حدثنى هشام بن عمار، عن يحيى بن حمزة، عن الأوزاعى، حدثنى إسماعيل ابن عبيد الله بن أبى المهاجر، عن فضالة بن عبيد، عن النبى ﷺ قال: «لله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»[٣].

قال أبو عبيد: هذا الحديث بعضهم يزيد فى إسناده يقول: عن إسماعيل بن عبيد الله عن مولى فضالة عن فضالة، وهكذا رواه ابن ماجة، عن راشد بن سعيد بن أبى راشد، عن الوليد، عن الأوزاعى عن إسماعيل بن عبيد الله عن ميسرة مولى فضالة عن فضالة عن النبى ﷺ: «لله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن [يجهر به][٤] من صاحب القينة إلى قينته»[٥]. قال أبو عبيد: يعنى: الاستماع. وقوله فى الحديث الآخر: «ما أذن الله لشىء» أى: ما استمع.

وقال أبو القاسم البغوى: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن، عن ابن أبى مُلَيْكة، حدثنا القاسم بن محمد، حدثنا السائب قال: قال لى سعد: يا بن أخى، هل قرأت القرآن؟ قلت: نعم. قال: غن به، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «غنوا بالقرآن، ليس منا من لم يغن بالقرآن، وابكوا، فإن لم تقدروا على البكاء فتباكوا»[٦].

وقد روى أبو داود من حديث الليث وعمرو بن دينار كلاهما عن عبد الله بن أبى مُلَيْكة، عن عبيد الله بن أبى نَهِيك، عن سعد بن أبى وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[٧].

ورواه ابن ماجة من حديث ابن أبى مليكة، عن عبد الرحمن بن السائب، عن سعد بن أبى

---

(١) المسند (٤/١٤٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٣٤).
(٢) فضائل القرآن (ص ٢٩).
(٣) فضائل القرآن (ص ٧٧، ٧٨).
(٤) زيادة من ابن ماجه.
(٥) سنن ابن ماجه برقم (١٣٤٠).
(٦) وفى إسناده محمد بن حميد الرازى وهو متروك.
(٧) سنن أبى داود برقم (١٤٦٩، ١٤٧٠).

وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل بحرف، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا»(١).

وقال أحمد: حدثنا وَكيع، حدثنا سعيد(٢) بن حسان المخزومي، عن ابن أبي مُلَيْكة، عن عبد الله بن أبي نهيك، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»(٣). [قال وكيع: يعني: يستغني به](٤).

ورواه (٥) أيضا عن الحجاج وأبي النضر، كلاهما عن الليث بن سعد، وعن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، كلاهما عن عبد الله بن أبي مليكة به(٦). وفي هذا الحديث كلام طويل يتعلق بسنده ليس هذا موضعه، والله أعلم.

وقال أبو داود: حدثنا عبد الأعلى بن حماد، حدثنا عبد الجبار بن الورد، سمعت ابن أبي مُلَيْكة، يقول عبيد الله بن أبي يزيد: مرّ بنا أبو لُبَابة فاتَّبعناه حتى دخل بيته فدخلنا عليه، فإذا رجل رَثُّ البيت، رَثّ الهيئة، فانتسبنا له، فقال: تجار كسبة، فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت قال: يحسنه ما استطاع. تفرد به أبو داود(٧).

فقد فهم من هذا أن السلف، رضى الله عنهم، إنما فهموا من التغني بالقرآن: إنما هو تحسين الصوت به، وتحزينه، كما قاله الأئمة، رحمهم الله، ويدل على ذلك ـ أيضا ـ ما رواه أبو داود حيث قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن طلحة، عن عبد الرحمن بن عَوْسَجة، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»(٨).

وأخرجه النسائي وابن ماجة من حديث شعبة، عن طلحة وهو ابن مصرف به(٩).

وأخرجه النسائي من طرق أخر عن طلحة(١٠)، وهذا إسناد جيد.

وقد وثق النسائي، وابن حبان عبد الرحمن بن عوسجة هذا، ونقل الأزدي عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: سألت عنه بالمدينة، فلم أرهم يحمدونه(١١).

---

(١) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٧) وقال البوصيري في الزوائد (١/ ٤٣٤): «هذا إسناد فيه أبو رافع واسمه إسماعيل بن رافع، ضعيف متروك».

(٢) في ط، م: «سفيان».

(٣) المسند (٥/ ١٧٢).

(٤) زيادة من جـ، ط.

(٥) في ط: «ورواه أحمد».

(٦) المسند (١/ ١٧٥، ١٧٩).

(٧) سنن أبي داود برقم (١٤٧١).

(٨) سنن أبي داود برقم (١٤٦٨).

(٩) سنن النسائي (٢/ ١٧٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٤٢).

(١٠) سنن النسائي (٢/ ١٧٩).

(١١) وانظر: تهذيب الكمال للمزي (١٧/ ٣٢٢) وابن حجر ـ رحمه الله ـ اختار توثيقه في التقريب.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة قال: نهانى أيوب أن أحدث بهذا الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم». قال أبو عبيد: وإنما كره أيوب فيما نرى، أن يتأول الناس بهذا الحديث الرخصة من رسول الله ﷺ فى الألحان المبتدعة، فلهذا أنهاه أن يحدث به(١).

قلت: ثم إن شعبة روى الحديث متوكلا على الله، كما رُوى له، ولو ترك كل حديث يتأول مبطل لترك من السنة شيء كثير، بل قد تطرقوا إلى تأويل آيات كثيرة وحملوها على غير محاملها الشرعية المرادة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتحزينه والتخشع به، كما رواه الحافظ الكبير بَقِىّ بن مَخْلَد، حيث قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى، حدثنا طلحة بن يحيى ابن طلحة، عن أبى بردة بن أبى موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رأيتنى وأنا أستمع قراءتك البارحة». قلت: أما والله لو علمت أنك تستمع قراءتى لحبرتها لك تحبيرا. ورواه مسلم من حديث طلحة به وزاد: «لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود»(٢). وسيأتى هذا فى بابه حيث يذكره البخارى، والغرض أن أبا موسى قال: لو أعلم أنك تستمع لحبّرته لك تحبيرا، فدل على جواز تعاطى ذلك وتكلفه، وقد كان أبو موسى كما قال، عليه السلام، قد أعطى صوتا حسنا كما سنذكره إن شاء الله، مع خشية تامة ورقة أهل اليمن الموصوفة، فدل على أن هذا من الأمور الشرعية.

قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أبى سلمة قال: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده(٣).

وقال أبو عبيد: وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا سليمان التيمى، أنبئت عنه، حدثنا أبو عثمان النهدى قال: كان أبو موسى يصلى بنا، فلو قلت: إنى لم أسمع صوت صنجٍ قط، ولا بربطٍ قط، ولا شيئاً قط أحسن من صوته(٤).

وقال ابن ماجة: حدثنا العباس بن عبد الرحمن(٥) الدمشقى، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنى حنظلة بن أبى سفيان أنه سمع عبد الرحمن بن سابط الجمحى يحدث عن عائشة قالت: أبطأت على رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جئت فقال: «أين كنت؟». قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام فقمت معه حتى استمع له، ثم التفت إلىّ فقال: «هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا»(٦). إسناد جيد.

وفى الصحيحين عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فما

---

(١) فضائل القرآن (ص ٨١).

(٢) صحيح مسلم برقم (٧٩٣).

(٣) فضائل القرآن (ص ٧٩).

(٤) فضائل القرآن (ص ٧٩). وقال الحافظ ابن حجر: «سنده صحيح».

(٥) فى جـ: «عثمان».

(٦) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٨).

سمعت أحدا أحسن صوتاً أو قال: قراءة منه. وفى بعض ألفاظه: فلما سمعته قرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، خلت أن فؤادى قد انصدع[(١)]. وكان جبير لما سمع هذا بعدُ مشركا على دين قومه، وإنما قدم فى فداء الأسارى بعد بدر، وناهيك بمن تؤثر قراءته فى المشرك المصر على الكفر! وكان هذا سبب هدايته ولهذا كان أحسن القراءة ما كان عن خشوع القلب، كما قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن ليث، عن طاوس قال: أحسن الناس صوتا بالقرآن أخشاهم لله[(٢)].

حدثنا قبيصة، عن سفيان، عن ابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه، وعن الحسن بن مسلم، عن طاوس قال: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أحسن صوتاً بالقرآن؟ فقال: «الذى إذا سمعته رأيته يخشى الله»[(٣)].

وقد روى هذا متصلا من وجه آخر، فقال ابن ماجة: حدثنا بشر بن معاذ الضرير، حدثنا عبد الله بن جعفر المدينى، حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، عن أبى الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعتوه يقرأ حسبتموه يخشى الله»[(٤)]، ولكن عبد الله بن جعفر هذا، وهو والد على بن المدينى، وشيخه ضعيفان، والله أعلم.

والغرض أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائى، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل ويعظم أن يسلك فى أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك، كما قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله:

حدثنا نعيم بن حماد، عن بَقِيَّة بن الوليد، عن حصين بن مالك الفزارى: سمعت شيخاً يكنى أبا محمد يحدث عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابيين، ويجىء قوم من بعدى يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم»[(٥)].

حدثنا يزيد، عن شريك، عن أبى اليقظان عثمان بن عمير، عن زاذان أبى عمر، عن عليم قال: كنا على سطح ومعنا رجل من أصحاب النبى ﷺ. قال يزيد: لا أعلمه إلا قال: عابس الغفارى، فرأى الناس يخرجون فى الطاعون فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يفرون من الطاعون، فقال: يا طاعون خذنى، فقالوا: تتمنى الموت وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يتمنين أحدكم الموت»؟ فقال: إنى أبادر خصالا سمعت رسول الله ﷺ يتخوفهن على أمته: «بيع الحكم، والاستخفاف بالدم، وقطيعة الرحم، وقوم يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليس بأفقههم ولا أفضلهم إلا ليغنيهم

(١) صحيح البخارى برقم (٧٦٥، ٤٨٥٤) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).
(٢، ٣) فضائل القرآن (ص ٨٠).
(٤) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٩).
(٥) فضائل القرآن (ص ٨٠) وقال الذهبى فى ترجمة حصين بن مالك فى الميزان (١/ ٥٥٣): «تفرد عنه بقية، ليس بمعتمد، والخبر منكر».

[به][(١)] غناءً» وذكر خصلتين أخريين[(٢)].

وحدثنا إبراهيم بن يعقوب، عن ليث بن أبى سليم، عن عثمان بن عمير، عن زاذان، عن عابس الغفارى، عن النبى ﷺ مثل ذلك أو نحوه. وحدثنا يعقوب بن إبراهيم، عن الأعمش، عن رجل، عن أنس بن مالك: أنه سمع رجلا يقرأ القرآن بهذه الألحان التى أحدث الناس، فأنكر ذلك ونهى عنه[(٣)].

هذه طرق حسنة فى باب الترهيب، وهذا يدل على أنه محذور كبير، وهو قراءة القرآن بالألحان التى يسلك بها مذاهب الغناء، وقد نص الأئمة، رحمهم الله، على النهى عنه، فأما إن خرج به إلى التمطيط الفاحش الذى يزيد بسببه حرفا أو ينقص حرفا، فقد اتفق العلماء على تحريمه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا روح، حدثنا عبيد الله بن الأخنس، عن ابن أبى مُلَيْكة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن»[(٤)].

ثم قال: وإنما ذكرناه لأنهم اختلفوا على ابن أبى مليكة فيه، فرواه ابن عبد الجبار بن الورد عنه عن أبى لبابة، ورواه عمرو بن دينار والليث عنه عن أبى نَهِيك عن سعد، ورواه عَسْل بن سفيان عنه، عن عائشة[(٥)]، ورواه نافع مولى ابن عمر عنه، عن ابن الزبير[(٦)].

اغتباط صاحب القرآن

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهرى، حدثنى سالم بن عبد الله: أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا فى[(٧)] اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب فقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل والنهار»[(٨)].

انفرد به البخارى من هذا الوجه، واتفقا على إخراجه من رواية سفيان عن الزهرى[(٩)]، ثم قال البخارى: حدثنا على بن إبراهيم، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن سليمان: سمعت ذَكْوان، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار»، فسمعه جار له فقال: ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل، «ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق»، فقال رجل: ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل[(١٠)].

ومضمون هذين الحديثين: أن صاحب القرآن فى غبطة وهو حسن الحال، فينبغى أن يكون شديد

---

(١) زيادة من ط.
(٢) فضائل القرآن (ص ٨١) والخصلتين هما: إمرة السفهاء، وكثرة الشرط.
(٣) فضائل القرآن (ص ٨١).
(٤) مسند البزار برقم (٢٣٣٢) «كشف الأستار».
(٥) رواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٣٤) «كشف الأستار» والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٧٠) وقال الحاكم: «إسناده شاذ».
(٦) رواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٣٥) «كشف الأستار».
(٧) فى جـ، ط: «على».
(٨) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٥).
(٩) صحيح البخارى برقم (٧٥٢٩) وصحيح مسلم برقم (٨١٥).
(١٠) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٦).

الاغتباط بما هو فيه، ويستحب تغبيطه بذلك، يقال: غبطه يغبِطه غبطاً: إذا تمنى ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم وهو تمنى زوال نعمة المحسود عنه، سواء حصلت لذلك الحاسد أو لا وهذا مذموم شرعاً، مهلكٌ، وهو أول معاصى إبليس حين حسد آدم، عليه السلام، على ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام. والحسد الشرعى الممدوح هو تمنى مثل حال ذلك الذى هو على حالة سارة؛ ولهذا قال عليه السلام: «لا حسد إلا فى اثنتين»، فذكر النعمة القاصرة وهى تلاوة القرآن آناء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهى إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقد روى نحو هذا من وجه آخر، فقال عبد الله بن الإمام أحمد: وجدت فى كتاب أبى بخط يده: كتب إلىّ أبو توبة الربيع بن نافع، فكان فى كتابه: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة، عن يزيد بن الأخنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنافس بينكم إلا فى اثنتين: رجل أعطاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ويتبع ما فيه، فيقول رجل: لو أن الله أعطانى مثل ما أعطى فلانا فأقوم[1] كما يقوم به، ورجل أعطاه الله مالا فهو ينفقه ويتصدق، فيقول رجل: لو أن الله أعطانى مثل ما أعطى فلانا فأتصدق به»[2]. وقريب من هذا ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبادة بن مسلم، حدثنى يونس بن خباب، عن أبى سعيد البخترى الطائى، عن أبى كبشة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن، وأحدثكم حديثا فاحفظوه، فأما الثلاث التى أقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذى أحدثكم حديثا فاحفظوه، فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فيه ربه ويصل رحمه، ويعمل لله فيه حقه»، قال: «فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو يقول: لو كان لى مال عملت بعمل فلان» قال: «فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقه، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول: لو كان لى مال لفعلت بعمل فلان». قال: «هى نيته فوزرهما فيه سواء»[3].

وقال أيضا: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن سالم بن أبى الجعد، عن أبى كبشة الأنمارى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل به فى ماله ينفقه فى حقه، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول: لو كان لى مثل مال هذا عملت فيه مثل الذى يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما فى الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط فيه ينفقه فى غير حقه، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما فهو يقول: لو كان لى مثل

(١) فى ط، م: «فيقوم به».
(٢) المسند (٤/١٠٥).
(٣) المسند (٤/٢٣١).

هذا غملت فيه مثل الذى يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما فى الوزر سواء». إسناد صحيح[(١)].

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

حدثنا حجاج بن منْهال، حدثنا شعبة، أخبرنى علقمة بن مَرْثَد، سمعت سعد بن عبيدة، عن أبى عبد الرحمن، عن عثمان بن عفان، عن النبى ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وأقرأ أبو عبد الرحمن فى إمرة عثمان، رضى الله عنه، حتى كان الحجاج قال:

وذاك الذى أقعدنى مقعدى هذا[(٢)].

وقد أخرج الجماعة هذا الحديث سوى مسلم من رواية شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن وهو عبد الله بن حبيب السلمى ـ رحمه الله[(٣)].

وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن عَلْقَمة بن مرثد، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن عثمان ابن عفان قال: قال النبى ﷺ: «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه»[(٤)].

وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة من طرق عن سفيان، عن علقمة، عن أبى عبدالرحمن، من غير ذكر سعد بن عبيدة[(٥)]، كما رواه شعبةً ولم يختلف عليه فيه، وهذا المقام مما حكم لسفيان الثورى فيه على شعبة، وخطأ بُنْدَار يحيى بن سعيد فى روايته ذلك عن سفيان، عن علقمة، عن سعد بن عبيدة، عن أبى عبد الرحمن وقال: رواه الجماعة من أصحاب سفيان عنه، بإسقاط سعد بن عبيدة، ورواية سفيان أصحُ فى هذا المقام المتعلق بصناعة الإسناد، وفى ذكره طول لولا الملالة لذكرناه، وفيما ذكر كفاية وإرشاد إلى ما ترك، والله أعلم.

والغرض أنه، عليه الصلاة والسلام، قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسل، وهم الكُمل فى أنفسهم، المكملون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدى، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا ينفعون، ولا يتركون أحدا ممن أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، فى أصح قولى[(٦)] المفسرين فى هذا، وهو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم عنه، فجمعوا بين التكذيب والصد، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]، فهذا شأن[(٧)] الكفار، كما أن شأن خيار الأبرار أن يكمل فى نفسه وأن يسعى فى تكميل غيره كما قال عليه السلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وكما قال [الله][(٨)] تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن

---

(١) المسند (٤/ ٢٣٠).
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٧).
(٣) سنن أبى داود برقم (١٤٥٢) وسنن الترمذى برقم (٢٩٠٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٣٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣١١).
(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٨).
(٥) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٣٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٢).
(٦) فى جـ: «قول». (٧) فى ط، جـ: «شأن شرار». (٨) زيادة من ط.

دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فجمع بين الدعوة إلى الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، مما يُبتغى به وجه الله، وعمل هو فى نفسه صالحا، وقال قولا صالحا، فلا أحد أحسن حالا من هذا. وقد كان أبو عبد الرحمن السلمى الكوفى ـ أحد أئمة الإسلام ومشايخهم ـ من رغب فى هذا المقام، فقعد يعلم الناس فى[1] إمارة عثمان إلى أيام الحجاج قالوا: وكان مقدار ذلك الذى مكث فيه يعلم القرآن سبعين سنة، رحمه الله، وآتاه الله ما طلبه ودامه. آمين.

قال[2] البخارى، رحمه الله: حدثنا عمرو بن عون، حدثنا حماد عن أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: أتت النبى ﷺ امرأة فقالت: إنها قد وهبت نفسها لله ورسوله، فقال: « ما لى فى النساء من حاجة». فقال رجل: زوّجنيها قال: [«أعطها ثوباً»، قال: لا أجد، قال: «أعطها ولو خاتما من حديد»، فاعتل له، فقال][3] :«ما معك من القرآن». قال: كذا وكذا. فقال: «قد زوجتكها بما معك من القرآن»[4].

وهذا الحديث متفق على إخراجه من طرق عديدة، والغرض منه أن الذى قصده البخارى أن هذا الرجل تعلم[5] الذى تعلمه من القرآن، وأمره النبى ﷺ أن يعلمه تلك المرأة، ويكون ذلك صداقا لها على ذلك، وهذا فيه نزاع بين العلماء، وهل يجوز أن يجعل مثل هذا صداقاً؟ أو هل يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؟ وهل هذا كان خاصًا بذلك الرجل؟ وما معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «زوجتكها بما معك من القرآن»؟ أبسبب ما معك من القرآن؟ كما قاله أحمد بن حنبل: نكرمك بذلك أو بعوض ما معك، وهذا أقوى، لقوله فى صحيح مسلم: «فعلمها»[6]، وهذا هو الذى أراده البخارى ههنا وتحرير باقى الخلاف مذكور فى كتاب النكاح والإجارة، والله المستعان.

القراءة عن ظهر قلب

إنما أفرد البخارى فى هذه الترجمة[7] حديث أبى حازم عن سهل بن سعد، الحديث الذى تقدم الآن، وفيه أنه، عليه السلام، قال لرجل: «فما معك من القرآن؟». قال: معى سورة كذا وكذا، لسور عددها. قال: «أتقرؤهن[8] عن ظهر قلبك؟». قال: نعم. قال: «اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن»[9].

وهذه الترجمة من البخارى، رحمه الله، مشعرة بأن قراءة القرآن عن ظهر قلب أفضل، والله أعلم. ولكن الذى صرح به كثيرون من العلماء أن قراءة القرآن من المصحف أفضل؛ لأنه يشتمل على التلاوة والنظر فى المصحف وهو عبادة، كما صرح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضى على الرجل يوم لا ينظر فى مصحفه، واستدلوا على فضيلة التلاوة فى المصحف بما رواه الإمام العلم[10]

---

(١) فى جـ: «من». (٢) فى جـ: «ثم قال». (٣) زيادة من جـ.
(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٩).
(٥) فى جـ: «يعلمها». (٦) فى جـ: «فتعلمها». (٧) فى جـ: «هذا الوجه».
(٨) فى جـ: «أتقرأ».
(٩) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٠).
(١٠) فى جـ: «العالم».

أبو عبيد فى كتاب[١] فضائل القرآن حيث قال:

حدثنا نعيم بن حماد، عن بقية بن الوليد، عن معاوية بن يحيى، عن سليم بن مسلم، عن عبد الله بن عبد الرحمن، عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال: قال النبى ﷺ: «فضل قراءة القرآن نظرا على من يقرأه ظهرا، كفضل الفريضة على النافلة»[٢] وهذا الإسناد ضعيف[٣]، فإن معاوية بن يحيى هو الصدفى أو الأطرابلسى، وأيهما كان فهو ضعيف.

وقال الثورى عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال: أديموا النظر فى المصحف[٤].

وقال حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عباس، عن عمر: أنه كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فيه[٥].

وقال حماد أيضا: عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن ابن مسعود: أنه كان إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف، فقرؤوا، وفسر لهم[٦]. إسناد صحيح.

وقال حماد بن سلمة: عن حجاج بن أرطاة، عن ثوير بن أبى فاختة، عن ابن عمر قال: إذا رجع أحدكم من سوقه فلينشر المصحف وليقرأ[٧]. وقال الأعمش عن خَيْثَمة: دخلت على ابن عمر وهو يقرأ فى المصحف فقال: هذا جزئى الذى أقرأ به الليلة[٨].

فهذه الآثار تدل على أن هذا أمر مطلوب لئلا يعطل المصحف فلا يقرأ منه، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكر منه، أو تحريف كلمة أو آية أو تقديم أو تأخير، فالاستثبات أولى، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال، فأما تلقين القرآن فمن فم الملقن أحسن؛ لأن الكتابة لا تدل على كمال الأداء، كما أن المشاهد من كثير ممن يحفظ من الكتابة فقط يكثر تصحيفه وغلطه، وإذا أدى الحال إلى هذا منع منه إذا وجد شيخا يوقفه على لفظ[٩] القرآن، فأما عند العجز عمن يلقن فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فيجوز عند الضرورة ما لا يجوز عند الرفاهية، فإذا قرأ فى المصحف ـ والحالة هذه ـ فلا حرج عليه، ولو فرض أنه قد يحرف بعض الكلمات عن لفظها على لغته ولفظه، فقد قال الإمام أبو عبيد:

حدثنى هشام بن إسماعيل الدمشقى، عن محمد بن شعيب، عن الأوزاعى؛ أن رجلا صحبهم فى سفر قال: فحدثنا حديثا ما أعلمه إلا رفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا قرأ فحرف أو أخطأ كتبه الملك كما أنزل»[١٠].

---

(١) فى ط: «كتابه».

(٢) فضائل القرآن (ص ٤٦).

(٣) فى ط: «وهذا الإسناد فيه ضعف».

(٤) فضائل القرآن (ص ٤٦) وقال ابن حجر: «إسناده صحيح».

(٥) فضائل القرآن (ص ٤٦).

(٦) فضائل القرآن (ص ٤٧).

(٧) فضائل القرآن (ص ٤٦).

(٨) فضائل القرآن (ص ٤٧)

(٩) فى ط: «ألفاظ».

(١٠) فضائل القرآن (ص ٤٧)

وحدثنا حفص بن غياث، عن الشيبانى[١]، عن بكير[٢] بن الأخنس قال: كان يقال: إذا قرأ الأعجمى والذى لا يقيم القرآن كتبه الملك كما أنزل. وقال بعض العلماء: المدار فى هذه المسألة على الخشوع فى القراءة، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر القلب فهو أفضل، وإن كان عند النظر فى المصحف [٣] فهو أفضل فإن استويا فالقراءة نظرا أولى؛ لأنها أثبت وتمتاز بالنظر فى المصحف قال الشيخ أبو زكريا النووى[٤]، رحمه الله، فى التبيان: والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل.

تنبيه:

إن كان البخارى، رحمه الله، أراد بذكر[٥] حديث سهل للدلالة على أن تلاوة القرآن عن ظهر قلب أفضل منها فى المصحف، ففيه نظر؛ لأنها قضية عين، فيحتمل أن ذلك الرجل كان لا يحسن الكتابة ويعلم ذلك رسول الله ﷺ منه، فلا يدل على أن التلاوة عن ظهر قلب أفضل مطلقا فى حق من يحسن ومن لا يحسن، إذ لو دل هذا لكان ذكر حال رسول الله ﷺ وتلاوته عن ظهر قلب ـ لأنه أمى لا يدرى الكتابة ـ أولى من ذكر هذا الحديث بمفرده.

الثانى: أن سياق الحديث إنما هو لأجل استثبات أنه يحفظ تلك السور عن ظهر قلب؛ ليمكنه تعليمها لزوجته، وليس المراد ههنا: أن هذا أفضل من التلاوة نظرا، ولا عدمه[٦]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استذكار القرآن وتعاهده

حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت» هكذا رواه مسلم والنسائى من حديث مالك [به][٧]. وقال الإمام أحمد[٨]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا[٩] معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القرآن إذا عاهد عليه صاحبه فقرأه بالليل والنهار، كمثل رجل له إبل، فإن عقلها حفظها، وإن أطلق عقالها ذهبت، فكذلك صاحب القرآن». أخرجاه، قاله[١٠] ابن الجوزى فى جامع المسانيد، وإنما هو من أفراد مسلم من حديث عبد الرزاق به[١١]، وحدثنا محمد بن عرعرة، حدثنا شعبة، عن منصور، عن أبى وائل،

---

(١) فى جـ: «النسائى». (٢) فى جـ: «بكر».

(٣) فى ط: «المصحف أكثر». (٤) فى ط: «النواوى». (٥) فى ط: «بذكره».

(٦) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩/ ٧٨) بعد أن ذكر كلام الحافظ ابن كثير هنا: «ولا يرد على البخارى شىء مما ذكر؛ لأن المراد بقوله: باب القراءة عن ظهر قلب، مشروعيتها أو استحبابها، والحديث مطابق لما ترجم به، ولم يتعرض لكونها أفضل من القراءة نظراً، وقد صرح كثير من العلماء أن القراءة من المصحف نظراً أفضل من القراءة عن ظهر قلب».

(٧) صحيح البخارى برقم (٥٠٣١) وصحيح مسلم برقم (٧٨٩) وسنن النسائى (٢/ ١٥٤).

(٨) المسند (٢/ ٣٥).

(٩) فى ط: «أخبرنا». (١٠) فى جـ: «قال».

(١١) صحيح مسلم برقم (٧٨٩).

عن عبد الله قال: قال النبى ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل نُسِّىَ، واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصيًا من صدور الرجال من النَّعم»[(١)].

تابعه بشر. هو ابن محمد السختيانى، عن ابن المبارك، عن شعبة.

وقد رواه الترمذى عن محمود بن غيلان، عن أبى داود الطيالسى، عن شعبة به[(٢)]، وقال: حسن صحيح. وأخرجه النسائى من رواية شعبة[(٣)].

وحدثنا عثمان، حدثنا جرير، عن منصور مثله. وتابعه ابن جريج عن عبدة، عن شقيق: سمعت عبد الله قال: سمعت النبى ﷺ[(٤)]،وهكذا أسنده مسلم من حديث ابن جريج به[(٥)]، ورواه النسائى فى اليوم والليلة من حديث محمد بن جحادة، عن عبدة [(٦)] وهو ابن أبى لُبَابة به[(٧)]. وهكذا رواه مسلم عن عثمان وزهير بن حرب وإسحاق بن إبراهيم عن جرير به[(٨)]، وستأتى رواية البخارى له عن أبى نعيم، عن سفيان الثورى، عن منصور به، والنسائى من رواية ابن عيينة عن منصور به، فقد رواه هؤلاء عن منصور به مرفوعا فى رواية هؤلاء كلهم [(٩)] ،وقد رواه النسائى عن قتيبة، عن حماد بن زيد، عن منصور، عن أبى وائل، عن عبد الله موقوفا[(١٠)]، وهذا غريب وفى مسند أبى يعلى[(١١)]، فإنما هو نَسِى بالتخفيف[(١٢)].

حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن بريد، عن أبى بردة، عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: «تعاهدوا القرآن، فوالذى نفسى بيده، لهو أشد تَفَصِّيا من الإبل فى عقلها». وهكذا رواه مسلم عن أبى كريب محمد بن العلاء وعبد الله بن برادٍ [(١٣)] الأشعرى، كلاهما عن أبى أسامة حماد ابن أسامة به[(١٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا موسى بن على:

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٢).
(٢) سنن الترمذى برقم (٢٩٢٤).
(٣) سنن النسائى (٢/ ١٥٤).
(٤) صحيح البخارى (٩/ ٧٩) «فتح».
(٥) صحيح مسلم برقم (٧٩٠).
(٦) فى جـ: «عبيدة».
(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٦٠).
(٨) صحيح مسلم برقم (٧٩٠).
(٩) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٤٢).
(١٠) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٥٦٤).
(١١) مسند أبى يعلى (٩/ ٦٩).
(١٢) قال القرطبى: معنى التثقيل: أنه عوقب بوقوع النسيان عليه التفريط فى معاهدته واستذكاره. ومعنى التخفيف: أن الرجل ترك غير ملتفت إليه، وهو كقوله تعالى: ﴿**نسوا الله فنسيهم**﴾ [التوبة: ٦٧] أى: تركهم فى العذاب أو تركهم من الرحمة.
(١٣) فى جـ: «بردة».
(١٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٣) وصحيح مسلم برقم (٧٩١).

سمعت أبى يقول: سمعت عقبة بن عامر يقول: [قال رسول الله ﷺ][١]: «تعلموا كتاب الله، وتعاهدوه وتغنوا به، فوالذى نفسى بيده، لهو أشد تفلتا من المخاض فى العقل»[٢].

ومضمون هذه الأحاديث الترغيب فى كثرة تلاوة القرآن واستذكاره وتعاهده؛ لئلا يعرضه حافظه للنسيان[٣]، فإن ذلك خطر كبير، نسأل الله العافية منه، فإنه قال الإمام أحمد:

حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عبادة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا ويؤتى به يوم القيامة مغلولا لايفكه عن ذلك الغل إلا العدل، وما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقى الله يوم القيامة يلقاه وهو أجذم»[٤].

هكذا رواه جرير بن عبد الحميد، ومحمد بن فضيل، عن يزيد بن أبى زياد، كما رواه خالد بن عبد الله[٥]. وقد أخرجه أبو داود عن محمد بن العلاء عن ابن إدريس، عن يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن سعد بن عبادة عن النبى ﷺ بقصة نسيان القرآن، ولم يذكر الرجل المبهم[٦].

وكذا رواه أبو بكر بن عياش، عن يزيد بن أبى زياد، وقد رواه شعبة عن يزيد فوهم فى إسناده، ورواه وَكِيع عن أصحابه، عن يزيد، عن عيسى بن فائد، عن النبى ﷺ مرسلاً. وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبادة بن الصامت فقال:

حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا لايفكه منها إلا عدله، وما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقى الله يوم القيامة أجذم»[٧].

وكذا رواه أبو عوانة، عن يزيد بن أبى زياد، ففيه اختلاف، لكن هذا فى باب الترهيب مقبول ـ والله أعلم ـ لاسيما إذا كان له شاهد من وجه آخر، كما قال أبو عبيد.

حدثنا حجاج، عن ابن جريج قال: حُدثت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت على أجور أمتى حتى القذاة والبعرة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علىّ ذنوب أمتى فلم أر ذنباً أكبر من آية أو سورة من كتاب الله أوتيها رجل فنسيها». قال ابن جريج: وحُدِّثت عن سلمان الفارسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكبر ذنب توافى به أمتى يوم القيامة سورة من كتاب الله أوتيها رجل فنسيها»[٨].

---

(١) زيادة من ط، والمسند.
(٢) المسند (٤/ ١٤٦).
(٣) فى ط: «إلى النسيان».
(٤) المسند (٥/ ٣٨٥).
(٥) رواه أبو عبيد فى الفضائل (ص١٠٣) من طريق جرير، ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٤٧٨) من طريق ابن فضيل.
(٦) سنن أبى داود برقم (١٤٧٤).
(٧) المسند (٥/ ٣٢٣).
(٨) فضائل القرآن (ص١٠٣).

وقد روى أبو داود والترمذى وأبو يعلى والبزار وغيرهم من حديث ابن أبى رواد، عن ابن جريج، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت علىّ أجور أمتى حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علىّ ذنوب أمتى، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»(١).

قال الترمذى: غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وذاكرت به البخارى فاستغربه، وحكى البخارى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى أنه أنكر سماع المطلب من أنس بن مالك.

قلت: وقد رواه محمد بن يزيد الآدمى(٢)، عن ابن أبى رواد، عن ابن جريج عن الزهرى، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ به. والله أعلم.

وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ**﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦]، وهذا الذى قاله هذا ـ وإن لم يكن هو المراد جميعه ـ فهو بعضه، فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعريضه للنسيان وعدم الاعتناء به فيه تهاون كثير وتفريط شديد، نعوذ بالله منه؛ ولهذا قال عليه السلام: «تعاهدوا القرآن»، وفى لفظ: «استذكروا القرآن، فإنه أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم».

التَّفَصِّى: التخلص يقال: تَفَصَّى فلان من البلية: إذا تخلص منها، ومنه: تفصى النوى من التمرة: إذا تخلص منها، أى: إن القرآن أشد تفلتا من الصدور من النعم إذا أرسلت من غير عقال.

وقال أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: قال عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ: إنى لأمقت القارئ أن أراه سمينا نسيا للقرآن(٣).

حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد العزيز بن أبى رواد قال: سمعت الضحاك بن مزاحم يقول: ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب يحدثه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ [الشورى: ٣٠]، وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب(٤).

ولهذا قال إسحاق بن راهويه وغيره: يُكره لرجل أن يمر عليه أربعون يوما لا يقرأ فيها القرآن، كما أنه يُكره له أن يقرأ فى أقل من ثلاثة أيام، كما سيأتى هذا، حيث يذكره البخارى بعد هذا، وكان الأليق أن يتبعه هذا الباب، ولكن ذكر بعد هذا قوله:

القراءة على الدابة

حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، أخبرنى أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل، رضى الله عنه،

---

(١) سنن أبى داود برقم (٤٦١) وسنن الترمذى برقم (٢٩١٦) ومسند أبى يعلى (٧/ ٢٥٣).

(٢) فى جـ: «الأموى».

(٣) فضائل القرآن (ص١٠٤) وفيه انقطاع بين النخعى وابن مسعود.

(٤) فضائل القرآن (ص١٠٤).

قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح [(١)].

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة سوى ابن ماجة من طرق، عن شعبة، عن أبى إياس، وهو معاوية بن قرة به[(٢)]، وهذا ـ أيضا ـ له تعلق بما تقدم من تعاهد القرآن وتلاوته سفرا وحضرا، ولا يكره ذلك عند أكثر العلماء إذا لم يتله القارئ فى الطريق، وقد نقله ابن أبى داود عن أبى الدرداء أنه كان يقرأ فى الطريق، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه أذن فى ذلك، وعن الإمام مالك أنه كره ذلك، كما قال ابن أبى داود: وحدثنى أبو الربيع، أخبرنا ابن وهب [قال][(٣)]: سألت مالكا عن الرجل يصلى فى آخر الليل، فيخرج إلى المسجد، وقد بقى من السورة التى كان يقرأ فيها شىء، فقال: ما أعلم القراءة تكون فى الطريق.

وقال الشعبى: تكره قراءة القرآن فى ثلاثة مواطن: فى الحمام، وفى الحشوش، وفى الرحى وهى تدور. وخالفه فى القراءة فى الحمام كثير من السلف: أنها لا تكره، وهو مذهب مالك والشافعى وإبراهيم النخعى وغيرهم، وروى ابن أبى داود عن على بن أبى طالب: أنه كره ذلك، ونقله ابن المنذر عن أبى وائل شقيق بن سلمة، والشعبى والحسن البصرى ومكحول وقبيصة بن ذؤيب، وهو رواية عن إبراهيم النخعى، ومحكىّ عن أبى حنيفة، رحمهم الله،، أن القراءة فى الحمام تكره وأما القراءة فى الحشوش فكراهتها ظاهرة، ولو قيل بتحريم ذلك صيانة لشرف القرآن لكان مذهبا، وأما القراءة فى بيت الرحى وهى تدور فلئلا يعلو غير القرآن عليه، والحق يعلو ولا يُعلى، والله أعلم.

تعليم الصبيان القرآن

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير قال: إن الذى تدعونه المفصل هو المحكم، قال: وقال ابن عباس: توفى رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم[(٤)].

حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جمعت المحكم فى عهد النبى ﷺ فقلت له: وما المحكم؟ قال: «المفصل»[(٥)].

انفرد بإخراجه البخارى، وفيه دلالة على جواز تعلم الصبيان القرآن؛ لأن ابن عباس أخبر عن سنه حين موت الرسول ﷺ، وقد كان جمع المفصل، وهو من الحجرات، كما تقدم ذلك، وعمره آنذاك عشر سنين. وقد روى البخارى أنه قال: توفى رسول الله ﷺ وأنا مختون [(٦)]. وكانوا لا يختنون الغلام حتى يحتلم، فيحتمل أنه تجوز فى هذه الرواية بذكر العشر، وترك ما زاد عليها من

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٤).
(٢) صحيح مسلم برقم (٧٩٤) وسنن أبى داود برقم (١٤٦٧) والشمائل للترمذى برقم (٣٠٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٦٢).
(٣) زيادة من ط.
(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٥).
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٦).
(٦) صحيح البخارى برقم (٦٢٩٩).

الكسر، والله أعلم.

وعلى كل تقدير، ففيه دلالة على جواز تعليمهم القرآن فى الصبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مستحبا أو واجبا؛ لأن الصبى إذا تعلم القرآن بلغ وهو يعرف ما يصلى به، وحفظه فى الصغر أولى من حفظه كبيرا، وأشد علوقا بخاطره وأرسخ وأثبت، كما هو المعهود من حال الناس، وقد استحب بعض السلف أن يترك الصبى فى ابتداء عمره قليلا للعب، ثم توفر همته على القراءة، لئلا يلزم أولا بالقراءة فيملها ويعدل عنها إلى اللعب، وكره بعضهم تعليمهم القرآن وهو لا يعقل ما يقال له، ولكن يترك حتى إذا عقل وميز علم قليلا قليلا، بحسب همته ونهمته وحفظه وجودة ذهنه، واستحب عمر ابن الخطاب، رضى الله عنه، أن يلقن خمس آيات خمس آيات، رويناه عنه بسند جيد[(١)].

نسيان القرآن

وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا، وقول الله تعالى:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى. إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى:٦، ٧]

حدثنا الربيع بن يحيى، حدثنا زائدة، حدثنا هشام، عن عروة، عن عائشة قالت: لقد سمع النبى ﷺ رجلا يقرأ فى المسجد فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرنى كذا وكذا من سورة كذا».

وحدثنى محمد بن عبيد بن ميمون، حدثنا عيسى بن يونس، عن هشام وقال: أسقطتهن من سورة كذا وكذا. انفرد به أيضا. تابعه على بن مسهر وعبدة عن هشام[(٢)].

وقد أسندهما البخارى فى موضع آخر، ومسلم معه فى عبدة[(٣)].

وحدثنا أحمد بن أبى رجاء، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلا يقرأ فى سورة بالليل فقال: «يرحمه الله، فقد[(٤)] أذكرنى آية كذا وكذا كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا». ورواه مسلم من حديث أبى أسامة حماد بن أسامة[(٥)].

الحديث الثانى: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن منصور، عن أبى وائل، عن عبد الله، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّى» ورواه مسلم والنسائى، من حديث منصور به[(٦)]. وقد تقدم. وفى مسند أبى يعلى: «فإنما هو نُسِىَ»، بالتخفيف، هذا لفظه.

وفى هذا الحديث ـ والذى قبله ـ دليل على أن حصول النسيان للشخص ليس بنقصٍ له إذا كان

(١) مسند الفاروق للمؤلف (١/ ١٧٠).
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٧).
(٣) صحيح البخارى برقم (٦٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٧٨٨).
(٤) فى جـ، ط: «قد».
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٨) وصحيح مسلم برقم (٧٨٨).
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٩) وصحيح مسلم برقم (٧٩٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٤٢).

بعد الاجتهاد والحرص، وفى حديث ابن مسعود أدب فى التعبير عن حصول ذلك، فلا يقول: نسيت آية كذا، فإن النسيان ليس من فعل العبد، وقد يصدر عنه أسبابه من التناسى والتغافل والتهاون المفضى إلى ذلك، فأما النسيان نفسه فليس بفعله؛ ولهذا قال: «بل هو نُسِّىَ»، مبنى لما لم يسم فاعله، وأدب ـ أيضا ـ فى ترك إضافة ذلك إلى الله تعالى، وقد أسند النسيان إلى العبد فى قوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] وهو، والله أعلم، من باب المجاز السائغ بذكر المسبب وإرادة السبب؛ لأن النسيان إنما يكون عن سبب قد يكون ذنبا، كما تقدم عن الضحاك بن مزاحم، فأمر الله تعالى بذكره ليذهب الشيطان عن القلب كما يذهب عند النداء بالأذان، والحسنة تذهب السيئة، فإذا زال السبب للنسيان انزاح، فحصل الذكر لشىء بسبب ذكر الله تعالى، والله أعلم.

من لم ير بأساً أن يقول:

سورة البقرة، وسورة كذا وكذا

حدثنا عمر بن حفص بن غياث(١)، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، حدثنى إبراهيم، عن علقمة وعبد الرحمن بن يزيد، عن أبى مسعود الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما فى ليلة كفتاه»(٢).

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة من حديث عبد الرحمن بن يزيد وصاحبا الصحيح والنسائى وابن ماجة من حديث علقمة، كلاهما عن أبى مسعود عقبة بن عامر الأنصارى البكرى(٣).

الحديث الثانى: ما رواه من حديث الزهرى، عن عروة، عن المسْوَر وعبد الرحمن بن عبد القارئ، كلاهما عن عمر قال: سمعت هشام بن حكيم [ابن حزام](٤) يقرأ سورة الفرقان... وذكرً الحديث بطوله، كما تقدم، وكما سيأتى(٥).

الحديث الثالث: ما رواه من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: سمع رسول الله ﷺ قارئا يقرأ من الليل فى المسجد، فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرنى كذا وكذا آية، كنت أسقطتهن من سورة كذا وكذا»(٦).

وهكذا فى الصحيحين عن ابن مسعود: أنه كان يرمى الجمرة من الوادى ويقول: هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة (٧). وكره بعض السلف ذلك، ولم يروا إلا أن يقال: السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، كما تقدم من رواية يزيد الفارسى عن ابن عباس، عن عثمان أنه قال: إذا نزل شىء من

---

(١) فى جـ: «عتاب».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٠).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٠٠٨، ٥٠٥١، ٥٠٠٨) وصحيح مسلم برقم (٨٠٧، ٨٠٨) وسنن أبى داود برقم (١٣٩٧) وسنن الترمذى برقم (٢٨٨١) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠١٨، ٨٠١٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٦٨، ١٣٦٩).

(٤) زيادة من ط، جـ.

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٤١).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٢).

(٧) صحيح البخارى برقم (١٧٤٧) وصحيح مسلم برقم (١٢٩٦).

القرآن يقول رسول الله ﷺ:«اجعلوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا»، ولا شك أن هذا أحوط وأولى، ولكن قد صحت الأحاديث بالرخصة فى الآخر، وعليه عملُ الناس اليوم فى ترجمة السور فى مصاحفهم، وبالله التوفيق.

الترتيل فى القراءة

وقول الله[١] عز وجل: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾ [المزمل: ٤]، وقوله: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ**﴾ [الإسراء: ١٠٦] أن يهذ كهذ الشعر، يفرق: يفصل، قال ابن عباس: ﴿**فَرَقْنَاهُ**﴾: فصلناه.

حدثنا أبو النعمان، حدثنا مهدى بن حدثنا واصل[وهو ابن حيان الأحدب][٢]، عن أبى وائل، عن عبد الله قال: غدونا على عبد الله. فقال رجل: قرأت المفصل البارحة، فقال: هذا كهذٍ الشعر، إنا قد سمعنا القراءة، وإنى لأحفظ القراءات التى كان يقرأ بهن النبى ﷺ ثمان عشرة سورة من المفصل، وسورتين من آل حم[٣].

ورواه مسلم عن شيبان بن فَرُّوخ، عن مهدى بن ميمون، عن واصل ـ وهو ابن حيان الأحدب ـ عن أبى وائل شقيق بن سلمة عن ابن مسعود به[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن زياد بن نعيم، عن مسلم بن مِخْراق، عن عائشة أنه ذكر لها أن ناسا يقرؤون القرآن فى الليل مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع النبى ﷺ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها تخوف إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورغب إليه[٥].

الحديث الثانى: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن موسى بن أبى عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ [القيامة: ١٦]: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحى، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه. وذكر تمام الحديث كما سيأتى، وهو متفق عليه، وفيه والذى قبله دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هَذْرَمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكر، قال الله تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**﴾ [ص: ٢٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن[٦] سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»[٧].

---

(١) فى جـ، ط: «وقوله». (٢) زيادة من جـ.

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٣).

(٤) صحيح مسلم برقم (٨٢٢).

(٥) المسند (٦/ ٩٢).

(٦) فى ط: «عن».

(٧) المسند (٢/ ١٩٢).

وقال أبو عبيد: حدثنا جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: قرأ علقمة على عبد الله، فكأنه عجل، فقال عبد الله: فداك أبى وأمى، رتل فإنه زين القرآن. قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن(١).

وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن أبى جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة وإنى أقرأ القرآن فى ثلاث فقال: لأن أقرأ البقرة (٢) فى ليلة فأدبرها وأرتلها أحب إلىَّ من أن أقرأ كما تقول(٣).

وحدثنا حجاج، عن شعبة وحماد بن سلمة، عن أبى جمرة، عن ابن عباس نحو ذلك، إلا أن فى حديث حماد: أحب إلىّ من أن أقرأ القرآن أجمع هذرمة(٤).

ثم قال البخارى، رحمه الله:

مد القراءة

حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم الأزدى، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبى ﷺ فقال: كان يمد مدا(٥).

وهكذا رواه أهل السنن، من حديث جرير بن حازم به(٦)، وحدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة قال: سئل أنس بن مالك: كيف كانت قراءة النبى ﷺ؟ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم. انفرد به البخارى من هذا الوجه(٧)، وفى معناه الحديث الذى رواه الإمام أبو عبيد: حدثنا أحمد بن عثمان، عن عبد الله بن المبارك، عن الليث بن سعد، عن ابن أبى مُلَيْكَة، عن يعلى بن مَملك، عن أم سلمة: أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ قراءة مفسرة حرفاً حرفاً (٨).

وهكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن يحيى بن إسحاق، وأبو داود عن يزيد بن خالد الرملى، والترمذى والنسائى، كلاهما عن قتيبة، كلهم عن الليث بن سعد به(٩). وقال الترمذى: حسن صحيح.

ثم قال أبو عبيد: وحدثنا يحيى بن سعيد الأموى، عن ابن جريج، عن ابن أبى مُلَيْكَة، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته؛ بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وهكذا.

---

(١) فضائل القرآن(ص٧٤).
(٢) فى جـ : «القرآن».
(٣، ٤) فضائل القرآن (ص٧٤).
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٥).
(٦) سنن أبى داود برقم (١٤٦٥) وسنن النسائى (٢/١٧٩) والشمائل للترمذى برقم (٣٠٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٥٣).
(٧) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٦).
(٨) فضائل القرآن (ص ٧٤).
(٩) المسند (٦/ ٣٠٠) وسنن أبى داود برقم (١٤٦٦) وسنن النسائى (٢/ ١٨١) وسنن الترمذى برقم (٢٩٢٣).

رواه أبو داود والترمذى من حديث ابن جريج[١]. وقال الترمذى: غريب وليس إسناده بمتصل، يعنى: أن عبد الله بن عبيد الله بن أبى مُلَيْكة لم يسمعه من أم سلمة، وإنما رواه عن يعلى بن مَمْلَك، كما تقدم، والله أعلم.

الترجيع

حدثنا آدم بن أبى إياس، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل قال: رأيت النبى ﷺ وهو على ناقته ـ أو جمله ـ وهى تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح قراءة لينة وهو يرجع[٢].

وقد تقدم هذا الحديث فى القراءة على الدابة وأنه من المتفق عليه، وفيه أن ذلك كان يوم الفتح، وأما الترجيع: فهو الترديد فى الصوت كما جاء ـ أيضا ـ فى البخارى أنه جعل يقول: (آ آ آ)، وكان ذلك صدر من حركة الدابة تحته، فدل على جواز التلاوة عليها، وإن أفضى إلى ذلك ولا يكون ذلك من باب الزيادة فى الحروف، بل ذلك مغتفر للحاجة، كما يصلى على الدابة حيث توجهت به، مع إمكان تأخير ذلك الصلاة إلى القبلة، والله أعلم.

حسن الصوت بالقراءة

حدثنا محمد بن خلف أبو بكر، حدثنا أبو يحيى الحمّانى، حدثنا بريد بن عبد الله بن أبى بردة، عن جده أبى بردة، عن أبى موسى الأشعرى، عن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا موسى، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود»[٣]، وهذا رواه الترمذى عن موسى بن عبد الرحمن الكندى، عن أبى يحيى الحمّانى[٤] ـ واسمه عبد الحميد بن عبد الرحمن ـ وقال: حسن صحيح. وقد رواه مسلم من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبى بردة، عن أبى موسى[٥]، وفيه قصة، وقد تقدم الكلام على تحسين الصوت عند قول البخارى: من لم يتغن بالقرآن، وذكرنا هنا أحكاما كافية عن إعادتها ههنا، والله أعلم.

من أحب أن يسمع القرآن من غيره

حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم بن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لى النبى ﷺ: «اقرأ علىّ القرآن». قلت: عليك أقرأ وعليك أنزل؟! قال: «إنى أحب أن أسمعه من غيرى».

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه، من طرق عن الأعمش[٦]، وله طرق يطول ذكرها وبسطها، وقد

---

(١) فضائل القرآن (ص ٧٥) وسنن أبى داود برقم (١٠٠٤) وسنن الترمذى برقم (٢٩٢٧).
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٧).
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٨).
(٤) سنن الترمذى برقم (٣٨٥٥).
(٥) صحيح مسلم برقم (٧٩٣).
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٩) وصحيح مسلم برقم (٨٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٦٦٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٧٥) وسنن الترمذى برقم (٣٠٢٥).

تقدم فيما رواه مسلم من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبى بردة، عن أبى موسى: أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا موسى، لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة». فقال: أما والله لو أعلم أنك تستمع قراءتى لحَبَّرْتها لك تحبيرا.

وقال الزهرى، عن أبى سلمة: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى. فيقرأ عنده.

وقال أبو عثمان النهدى: كان أبو موسى يصلى بنا، فلو قلت: إنى لم أسمع صوت صنج قط ولا بربط قط، ولا شيئا قط أحسن من صوته.

قول المقرئ للقارئ: حسبك

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ علىّ». فقلت: يا رسول الله، آقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «نعم»، فقرأت عليه سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حسبك الآن» [فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان](١) (٢).

أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه، من رواية الأعمش به(٣)، ووجه الدلالة ظاهر، وكذا الحديث الآخر: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا».

فى كم يقرأ القرآن

وقول الله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]

حدثنا على، حدثنا سفيان، قال: قال لى ابن شبرمة: نظرت كم يكفى الرجل من القرآن فلم أجد سورة أقل من ثلاث آيات. فقلت: لا ينبغى لأحد أن يقرأ أقل من ثلاث آيات. قال سفيان: أخبرنا منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، أخبره علقمة عن أبى مسعود، فلقيته وهو يطوف بالبيت، فذكر النبى ﷺ أن من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه(٤).

وقد تقدم أن هذا الحديث متفق عليه، وقد جمع البخارى فيما بين عبد الرحمن بن يزيد وعلقمة عن أبى مسعود وهو صحيح؛ لأن عبد الرحمن سمعه أولا من علقمة، ثم لقى أبا مسعود وهو يطوف فسمعه منه، وعلىّ هذا هو ابن المدينى وشيخه هو سفيان بن عيينة، وما قاله عبد الله بن شبرمة ـ فقيه الكوفة فى زمانه ـ استنباط حسن، وقد جاء فى حديث فى السنن: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب وثلاث آيات»(٥)، ولكن هذا الحديث ـ أعنى حديث أبى مسعود ـ أصح وأشهر وأخص، ولكن وجه مناسبته

---

(١) زيادة من ط.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٠).

(٣) صحيح مسلم برقم (٨٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٦٦٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٧٨) والشمائل للترمذى برقم (٣٠٦).

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٥١).

(٥) كذا قال الحافظ ابن كثير، ولم أقع عليه فى السنن الأربعة، وقد رواه ابن عدى فى الكامل (٥/٢٩) من طريق عمر بن يزيد المدائنى عن عطاء عن ابن عمر، رضى الله عنه، مرفوعاً بلفظ: «لا تجزئ فى المكتوبة إلا بفاتحة الكتاب وثلاث آيات فصاعدا». والمدائنى منكر الحديث كما قال ابن عدى.

للترجمة التى ذكرها البخارى فيه نظر، والله أعلم[١].

والحديث الثانى أظهر فى المناسبة وهو قوله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عَوَانة، عن مغيرة، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: أنكحنى أبى امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كَنَّتَه فيسألها عن بعلها فتقول: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشا، ولم يفتش لنا كنفا منذ أتيناه، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبى ﷺ، فقال: «ألقنى به»، فلقيته بعد، فقال: «كيف تصوم؟». قلت: كل يوم. قال: «وكيف تختم؟». قال: كل ليلة. قال: «صم كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن فى كل شهر»: قال: قلت: إنى أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم ثلاثة أيام فى الجمعة». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «أفطر يومين وصوم يوما». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ فى كل سبع ليال مرةً»، فليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ! وذلك أنى كبرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذى يقرأ يعرضه بالنهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياما وأحصى وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئا فارق عليه النبى ﷺ. وقال بعضهم: فى ثلاث وفى خمس وأكثرهم على سبع[٢].

وقد رواه فى الصوم، والنسائى ـ أيضا ـ عن بُنْدَار عن غُنْدَر، عن شعبة، عن مغيرة، والنسائى من حديث حصين، كلاهما عن مجاهد به[٣].

ثم روى البخارى ومسلم وأبو داود من حديث يحيى بن أبى كثير، عن محمد بن عبد الرحمن ـ مولى بنى زهرة[٤] ـ عن أبى سلمة: قال: وأحسبنى قال: سمعت أنا من أبى سلمة، عن عبد الله بن عمرو قال: قال لى النبى ﷺ: «اقرأ القرآن فى شهر». قلت: إنى أجد قوة. قال: «فاقرأه فى سبع ولا تزد على ذلك»[٥]. فهذا السياق ظاهره يقتضى المنع من قراءة القرآن فى أقل من سبع، وهكذا الحديث الذى رواه أبو عبيد:

حدثنا حجاج وعمر بن طارق ويحيى بن بكير، كلهم عن ابن لَهيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن قيس بن أبى صعصعة؛ أنه قال للنبى ﷺ: يا رسول الله، فى كم أقرأ القرآن؟ فقال: «فى كل خمس عشرة». قال: إنى أجد فى أقوى من ذلك، قال: «ففى كل جمعة»[٦].

وحدثنا حجاج عن شعبة، عن محمد بن ذكوان ـ رجل من أهل الكوفة ـ قال: سمعت عبدالرحمن بن عبد الله بن مسعود يقول: كان عبد الله بن مسعود يقرأ القرآن فى غير رمضان من

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩/ ٩٥): «وقد خفيت مناسبة حديث أبى مسعود بالترجمة على ابن كثير، والذى يظهر أنها من جهة أن الآية المترجم بها تناسب ما استدل به ابن عيينة من حديث أبى مسعود، والجامع بينهما أن كلاً من الآية والحديث يدل على الاكتفاء بخلاف ما قال ابن شبرمة».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٢).

(٣) صحيح البخارى برقم (١٩٧٨) وسنن النسائى (٤/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٤) فى ط: «أبى هريرة».

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٣) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) وسنن أبى داود برقم (١٣٨٨) لكنه عند أبى داود من طريق أبان العطار عن يحيى بن أبى كثير عن محمد بن إبراهيم عن أبى سلمة، والله أعلم.

(٦) فضائل القرآن (ص ٨٧).

الجمعة إلى الجمعة(١).

وعن حجاج، عن شعبة، عن أيوب: سمعت أبا قِلاَبة، عن أبى المهلب قال: كان أبىّ بن كعب يختم القرآن فى كل ثمان.

وحدثنا على بن عاصم، عن خالد، عن أبى قلابة قال: كان أبىّ بن كعب يختم القرآن فى كل ثمان.

وكان تميم الدارى يختمه فى كل سبع، وحدثنا هُشَيْم، عن الأعمش، عن إبراهيم: أنه كان يختم القرآن فى كل سبع(٢).

وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان الأسود يختم القرآن فى كل ست، وكان علقمة يختمه فى كل خمس(٣).

فلو تركنا ومجرد هذا لكان الأمر فى ذلك جليا، ولكن دلت أحاديث أخرجوها(٤) على جواز قراءته فيما دون ذلك، كما رواه الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا حبان ابن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصارى؛ أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن فى ثلاث؟ قال: «نعم». قال: فكان يقرؤه حتى توفى(٥).

وهذا إسناد جيد قوى حسن، فإن حسن بن موسى الأشيب ثقة متفق على جلالته روى له الجماعة وابن لَهِيعة، إنما يخشى من تدليسه وسوء حفظه، وقد صرح ههنا بالسماع، وهو من الأئمة العلماء بالديار المصرية فى زمانه، وشيخه حبان بن واسع بن حبان وأبوه، كلاهما من رجال مسلم، والصحابى لم يخرج له أحد من أهل الكتب الستة، وهذا على شرط كثير منهم، والله أعلم.

وقد رواه أبو عبيد، رحمه الله، عن ابن كثير(٦)، عن ابن لَهيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصارى أنه قال: يا رسول الله، أقرأ القرآن فى ثلاث؟ قال: «نعم، إن استطعت». قال: فكان يقرؤه كذلك حتى توفى(٧).

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يفقه من قرأه فى أقل من ثلاث».

وهكذا أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة به(٨). وقال الترمذى: حسن صحيح.

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يوسف بن الغرق، عن الطيب بن سليمان، حدثتنا عمرة بنت

(١) فضائل القرآن (ص ٨٧).
(٢، ٣) فضائل القرآن (ص ٨٨).
(٤) فى ط: «أخر».
(٥) لم أقع عليه فى المطبوع من المسند، وقد ذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٢/ ٤٦٥).
(٦) فى ط: «بكير».
(٧) فضائل القرآن (ص ٨٨).
(٨) فضائل القرآن (ص ٨٩) والمسند (٢/ ١٨٩، ١٦٥) وسنن أبى داود برقم (١٣٩٤) وسنن الترمذى برقم (٢٩٤٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٦٧) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٤٧).

عبد الرحمن: أنها سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ لا يختم القرآن فى أقل من ثلاث(١).

هذا حديث غريب وفيه ضعف، فإن الطيب بن سليمان هذا بصرى، ضعفه الدارقطنى، وليس هو بذاك المشهور، والله أعلم.

وقد كره غير واحد من السلف قراءة القرآن فى أقل من ثلاث، كما هو مذهب أبى عبيد وإسحاق وابن راهويه وغيرهما من الخلف ـ أيضا ـ قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن هشام بن حسان، عن حفصة، عن أبى العالية، عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن فى أقل من ثلاث(٢). صحيح.

وحدثنا يزيد، عن سفيان، عن على بن بَذِيمة، عن أبى عبيدة قال: [قال](٣) عبد الله: من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث فهو راجز. وحدثنا حجَاج، عن شعبة، عن على بن بذيمة، عن أبى عبيدة، عن عبد الله مثله سواء(٤).

وحدثنا حجاج، عن شعبة، عن محمد بن ذَكْوَان، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه؛ أنه كان يقرأ القرآن فى رمضان فى ثلاث(٥). إسناده صحيح.

وفى المسند عن عبد الرحمن بن شبل مرفوعا: «اقرؤوا القرآن، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به»(٦).

فقوله: «لا تغلوا فيه» أى: لا تبالغوا فى تلاوته بسرعة فى أقصر مدة، فإن ذلك ينافى التدبر غالبا؛ ولهذا قابله بقوله: «ولا تجفوا عنه» أى: لا تتركوا تلاوته.

فصل

وقد ترخص جماعة(٧) من السلف فى تلاوة القرآن فى أقل من ذلك؛ منهم أمير المؤمنين عثمان ابن عفان، رضى الله عنه.

قال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرنى ابن خَصيفة، عن السائب بن يزيد: أن رجلا سأل عبد الرحمن بن عثمان التيمى عن صلاة طلحة بن عبيد(٨) فقال: إن شئت أخبرتك عن صلاة عثمان، رضى الله عنه، فقال: نعم. قال: قلت: لأغلبن الليلة على الحجر، فقمت، فلما قمت إذا أنا برجل مقنع يزحمنى، فنظرت فإذا عثمان بن عفان، فتأخرت عنه، فصلى فإذا هو يسجد سجود القرآن، حتى إذا قلت: هذه هوادى الفجر، أوتر بركعة لم يصل غيرها(٩). وهذا إسناد

(١) فضائل القرآن (ص ٨٨، ٨٩).
(٢) فضائل القرآن (ص ٨٩).
(٣) زيادة من ط.
(٤) فضائل القرآن (ص ٨٩).
(٥) فضائل القرآن (ص ٩٠).
(٦) المسند (٣/٤٢٨) من طريق زيد بن سلام عن جده عن أبى راشد عن عبد الرحمن بن شبل به مرفوعا، وقال الحافظ ابن حجر: «سنده قوى».
(٧) فى ط: «جماعات».
(٨) فى ط: «عبيد الله».
(٩) فضائل القرآن (ص ٩٠).

صحيح.

قال[١]: وحدثنا هُشَيْم، عن منصور، عن ابن سيرين قال: قالت نائلة بنت الفرافصة الكلبية حيث دخلوا على عثمان ليقتلوه: إن يقتلوه أو يدعوه، فقد كان يحيى الليل كله بركعة يجمع فيها القرآن. وهذا حسن أيضا[٢].

وقال ـ أيضا ـ: حدثنا أبو معاوية، عن عاصم بن سليمان، عن ابن سيرين: إن تميما الدارى قرأ القرآن فى ركعة[٣].

حدثنا حجاج بن شعبة، عن حماد، عن سعيد بن جبير: أنه قال: قرأت القرآن فى ركعة فى البيت ـ يعنى الكعبة[٤].

وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قرأ القرآن فى ليلة، طاف بالبيت أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالطول، ثم طاف بالبيت أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالمئين، ثم طاف أسبوعا، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالمثانى، ثم طاف بالبيت أسبوعا ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بقية القرآن[٥].

وهذه كلها أسانيد صحيحة، ومن أغرب ما ههنا: ما رواه أبو عبيد: حدثنا سعيد بن عُفَيْر، عن بكر بن مضر، أن سليم بن عتر التجيبى كان يختم القرآن فى ليلة ثلاث مرات، ويجامع ثلاث مرات. قال: فلما مات قالت امرأته: رحمك الله، إن كنت لترضى ربك وترضى أهلك، قالوا: وكيف ذلك؟ قالت: كان يقوم من الليل فيختم القرآن، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم ثم يلم بأهله، ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويخرج إلى صلاة الصبح[٦].

قلت: كان سليم بن عتر تابعيا جليلا ثقة نبيلا، وكان قاضيا بمصر أيام معاوية وقاصّها، ثم قال أبو حاتم: روى عن أبى الدرداء، وعنه ابن زحر، ثم قال: حدثنى محمد بن عوف، عن أبى صالح كاتب الليث، حدثنى حرملة بن عمران، عن كعب بن علقمة قال: كان سليم بن عتر من خير التابعين[٧].

وذكره ابن يونس فى تاريخ مصر.

وقد روى ابن أبى داود عن مجاهد أنه كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء.

وعن منصور قال: كان على الأزدى يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء كل ليلة من رمضان.

وعن إبراهيم بن سعد قال: كان أبى يحتبى فما يحل حبوته حتى يختم القرآن.

قلت: وروى عن منصور بن زاذان: أنه كان يختم فيما بين الظهر والعصر، ويختم أخرى فيما

---

(١) فى ط: «ثم قال».

(٢ ـ ٦) فضائل القرآن (ص ٩١).

(٧) الجرح والتعديل (٤/ ٢١١، ٢١٢).

بين المغرب والعشاء، وكانوا يؤخرونها قليلا.

وعن الإمام الشافعى، رحمه الله: أنه كان يختم فى اليوم والليلة من شهر رمضان ختمتين، وفى غيره ختمة.

وعن أبى عبد الله البخارى ـ صاحب الصحيح ـ: أنه كان يختم فى الليلة ويومها من رمضان ختمة.

ومن غريب هذا وبديعه ما ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى الصوفى قال: سمعت الشيخ أبا عثمان المغربى يقول: كان ابن الكاتب يختم بالنهار أربع ختمات، وبالليل أربع ختمات.

وهذا نادر جدا. فهذا وأمثاله من الصحيح عن السلف محمول إما على أنه ما بلغهم فى ذلك حديث مما تقدم، أو أنهم كانوا يفهمون ويتفكرون فيما يقرؤونه مع هذه السرعة، والله أعلم.

قال الشيخ أبو زكريا النووى فى كتابه التبيان بعد ذكر طرف مما تقدم: (والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولا بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهَذْرَمة)[١].

ثم قال البخارى، رحمه الله:

البكاء عند القراءة

وأورد فيه من رواية الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ علىّ». قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى». قال: فقرأت النساء، حتى إذا بلغت: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء: ٤١]، قال لى: «كفّ أو أمسك»، فرأيت عيناه تذرفان[٢].

وهذا من المتفق عليه كما تقدم، وكما سيأتى إن شاء الله.

من راءى بقراءة القرآن
أو تأكّل به أو فجر به

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، حدثنا الأعمش، عن خَيْثَمة، عن سُوَيد بن غفلة، قال[٣] على، رضى الله عنه: سمعت النبى ﷺ يقول: «يأتى فى آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة»[٤].

---

(١) التبيان (ص ٧٦).

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٥).

(٣) فى ط: «عن».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٧).

وقد روى فى موضعين آخرين، ومسلم وأبو داود والنسائى، من طرق عن الأعمش به[(١)]: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر فى النصل[(٢)] فلا يرى شيئاً، وينظر فى القدح فلا يرى شيئا، وينظر فى الريش فلا يرى شيئاً، ويتمارى فى الفوق»[(٣)].

ورواه فى موضع آخر، ومسلم ـ أيضا ـ والنسائى من طرق عن الزهرى، عن أبى سلمة به[(٤)].

حدثنا مُسَدَّد بن مسرهد، حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبى موسى، رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القر آن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث وريحها مرّ»[(٥)].

ورواه فى موضع آخر مع بقية الجماعة من طرق، عن قتادة به[(٦)].

ومضمون هذه الأحاديث التحذير من المراءاة بتلاوة القرآن التى هى من أعظم القرب، كما جاء فى الحديث: «واعلم أنك لن تتقرب إلى الله بأعظم مما خرج منه»[(٧)] يعنى: القرآن.

والمذكورون فى حديث على وأبى سعيد هم الخوارج، وهم الذين لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وقد قال فى الرواية الأخرى: «يحقر أحدكم قراءته مع قراءتهم، وصلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم». ومع هذا أمر بقتلهم لأنهم مراؤون فى أعمالهم فى نفس الأمر، وإن كان بعضهم قد لا يقصد ذلك، إلا أنهم أسسوا أعمالهم على اعتقاد غير صالح، فكانوا فى ذلك كالمذمومين فى قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وقد اختلف العلماء فى تكفير الخوارج وتفسيقهم ورد روايتهم، كما سيأتى [تفصيله][(٨)] فى موضعه إن شاء الله.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٦١١، ٦٩٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٦) وسنن أبى داود برقم (٤٧٦٧) وسنن النسائى (٧/ ١١٩).

(٢) فى ط: «السهم».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٨).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٦١٠، ٦٩٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٥٦٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٩).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٤٢٧)، (٧٥٦٠) وصحيح مسلم برقم (٧٩٧) وسنن أبى داود برقم (٤٨٣٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٦٥) وسنن النسائى (٨/ ١٢٤) وسنن ابن ماجة برقم (٢١٤).

(٧) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٢٦٨) والترمذى فى السنن برقم (٢٩١١) من طريق ليث بن أبى سليم عن زيد بن أرطأة عن أبى أمامة به مرفوعاً، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٨) زيادة من ط.

والمنافق المشبه بالريحانة التى لها الريح ظاهر وطعمها مر هو المرائى بتلاوته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢].

ثم قال البخارى:

اقرؤوا القرآن ما ائتَلَفت عليه قلوبكم

حدثنا أبو النعمان محمد بن الفضل عارم، حدثنا حماد بن زيد، عن أبى عمران الجونى، عن جندب بن عبد الله، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا [عنه][١]»[٢].

حدثنا عمرو بن على بن بحر الفلاّس، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا سلام بن أبى مطيع، عن أبى عمران الجونى، عن جُنْدُب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا [عنه][٣]»[٤].

تابعه الحارث بن عُبَيْد وسعيد بن زيد، عن أبى عمران، ولم يرفعه حماد بن سلمة وأبان.

وقال غُنْدَر: عن شعبة، عن أبى عمران قال: سمعت جُنْدُبا. قوله: وقال ابن عون، عن أبى عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله. وجندب أصح وأكثر[٥] [٦].

وقد رواه فى موضع آخر، ومسلم كلاهما عن إسحاق بن منصور، عن عبد الصمد، عن همام، عن أبى عمران به[٧]، ومسلم ـ أيضا ـ عن يحيى بن يحيى، عن الحارث بن عبيد أبى قدامة، عن أبى عمران به، ورواه مسلم ـ أيضا ـ عن أحمد بن سعيد، عن حبان بن هلال، عن أبان العطار، عن أبى عمران به مرفوعا[٨].

وقد حكى البخارى: أن أبان وحماد بن سلمة لم يرفعاه، فالله أعلم.

ورواه النسائى والطبرانى من حديث مسلم بن إبراهيم، عن هارون بن موسى الأعور النحوى، عن أبى عمران به.

---

(١) زيادة من ط والبخارى.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٠).

(٣) زيادة من البخارى.

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٦١).

(٥) فى النسخ: «أكثر وأصح» والتصويب من البخارى.

(٦) قال الحافظ ابن حجر: «أى أصح سنداً وأكثر طرقاً وهو كما قال، فإن الجم الغفير رواه عن أبى عمران عن جندب إلا أنهم اختلفوا عليه فى رفعه ووقفه، والذين رفعوه ثقات حفاظ فالحكم لهم، وأما رواية ابن عون فشاذة لم يتابع عليها».

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٣٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٧).

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٦٦٧).

ورواه النسائى ـ أيضا ـ من طرق عن سفيان، عن حجاج بن فرافصة، عن أبى عمران به مرفوعا[١]، وفى رواية عن هارون بن زيد بن أبى الزرقاء، عن أبيه، عن سفيان عن حجاج، عن أبى عمران، عن جُنْدُب موقوفا، ورواه محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن إسحاق الأزرق، عن عبد الله بن عون، عن أبى عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله.

قال أبو بكر بن أبى داود: لم يخطئ ابن عون فى حديث قط إلا فى هذا، والصواب عن جندب. [ورواه الطبرانى عن على بن عبد العزيز عن مسلم بن ابراهيم وسعيد بن منصور قالا: حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبى عمران، عن جندب مرفوعا][٢] [٣].

فهذا مما تيسر من ذكر طرق هذا الحديث على سبيل الاختصار، والصحيح منها ما أرشد إليه شيخ هذه الصناعة[٤] أبو عبد الله البخارى، رحمه الله، من أن الأكثر والأصح: أنه عن جندب بن عبد الله مرفوعا إلى رسول الله ﷺ.

ومعنى الحديث أنه، عليه السلام، أرشد وحض أمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته، متفكرة فيه، متدبرة له، لا فى حال شغلها وملالها، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك كما ثبت فى الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: «اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا»[٥] ،وقال: «أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل»، وفى اللفظ الآخر: «أحب الأعمال إلى الله أدومها [وإن قل][٦]»[٧] .

ثم قال البخارى: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال ابن سبرة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ أنه سمع رجلا يقرأ آية سمع النبى ﷺ خلافها، فأخذت بيده فانطلقت إلى النبى ﷺ فقال: «كلاكما محسن فاقرآ» أكبر علمى قال: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم الله عز وجل».

وأخرجه النسائى من رواية شعبة به[٨]، وهذا فى معنى الحديث الذى تقدمه، وأنه ينهى عن الاختلاف فى القراءة والمنازعة فى ذلك والمراء فيه كما تقدم النهى عن ذلك، والله أعلم.

وقريب من هذا ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه: حدثنا أبو محمد سعيد بن محمد الجرمى،حدثنا يحيى بن سعيد الأموى،عن الأعمش،عن عاصم،عن زر بن حبيش قال: قال عبد الله ابن مسعود: تمارينا فى سورة من القرآن فقلنا: خمس وثلاثون آية، ست وثلاثون آية قال: فانطلقنا

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٩٦).
(٢) زيادة من ط.
(٣) المعجم الكبير (٢/١٦٣).
(٤) فى ط: «البضاعة».
(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٧٨٥) من حديث عائشة رضى الله عنها.
(٦) زيادة من ط، م.
(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٨٢) من حديث عائشة رضى الله عنها.
(٨) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٩٥).

إلى رسول الله ﷺ فوجدنا عليا بناصية فقلنا له: اختلفنا في القراءة، فاحمر وجه رسول الله ﷺ، فقال علي: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرؤوا كما قد علمتم[(١)].

وهذا آخر ما أورده البخاري، رحمه الله، في كتاب[(٢)] فضائل القرآن، جل منزله، وتعالى قائله، ولله الحمد والمنة.

كتاب الجامع
لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن
وفضائله وفضل أهله

فصل

قال أحمد: حدثنا معاوية بن هشام، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال نبي الله عليه الصلاة والسلام[(٣)]: «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه»[(٤)].

وقال أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حَيْوَة، حدثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني؛ أن الوليد بن قيس التجيبي حدثه أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف من بعد الستين سنة، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدوا تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر».

قال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يَتَأكَّل به، والمؤمن يؤمن به[(٥)].

وقال أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا الليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن أبي الخطاب، عن أبي سعيد أنه قال: إن رسول الله ﷺ عام تبوك خطب الناس وهو مسند ظهره إلى نخلة فقال: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؛ إن من خير الناس رجلا عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلا فاجرا جريئا يقرأ كتاب الله، لا يرعوي إلى شيء منه»[(٦)].

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عمر بن هياج الكوفي، حدثنا الحسين بن عبد الأول، حدثنا محمد بن الحسن الهمداني، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من شغله قراءة القرآن عن دعائي أعطيته أفضل ثواب السائلين».

---

(١) زوائد المسند (١/ ١٠٥، ١٠٦).
(٢) في ط: «كتابه».
(٣) في ط: «ﷺ».
(٤) المسند (٣/ ٤٠).
(٥) المسند (٣/ ٣٨).
(٦) المسند (٣/ ٣٧، ٥٨).

وقال رسول الله ﷺ: «إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»، ثم قال: تفرد به محمد بن الحسن ولم يتابع عليه(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنى عبد الرحمن بن بُدَيْل بن ميسرة، حدثنى أبى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهْلين من الناس». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهْل القرآن هم أهل الله وخاصته»(٢).

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمد بن على بن شعيب السمسار، حدثنا خالد بن خِدَاش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه: كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم(٣).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا محمد بن عباد المكى، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن شريك، عن الأعمش، عن يزيد بن أبان، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه»(٤).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا عبد الله بن المحرر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شىء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن»(٥) . ابن المحرر ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا بكر بن سوادة، عن وفاء الخولانى، عن أنس بن مالك قال: بينما نحن نقرأ فينا العربى والعجمى والأسود والأبيض، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أنتم فى خير تقرؤون كتاب الله وفيكم رسول الله ﷺ وسيأتى على الناس زمان يثقفونه كما يثقف القدح، يتعجلون أجورهم ولا يتأجلونها»(٦).

وقد رواه الإمام أحمد ـ أيضا ـ عن حسن، عن ابن لَهِيعة، عن بكر، عن وفاء، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ فذكره(٧).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الله بن الجهم، حدثنا عمرو بن أبى قيس، عن عبد ربه بن عبد الله، عن عمر بن نبهان، عن الحسن، عن أنس؛ أن النبى ﷺ قال: «إن البيت الذى يقرأ فيه القرآن يكثر خيره، والبيت الذى لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره»(٨).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا أبو عبيدة، عن محتسب، حدثنى يزيد

(١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٩٢٦) من طريق محمد بن الحسن الهمدانى به، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».
(٢) المسند (٣/١٢٨).
(٣) المعجم الكبير (١/ ٢٤٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٧٢): «رجاله ثقات».
(٤) المعجم الكبير (١/ ٢٥٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٥٨): «رواه أبو يعلى وفيه يزيد بن أبان الرقاشى وهو ضعيف».
(٥) مسند البزار برقم (٢٣٣٠) «كشف الأستار».
(٦) المسند (٣/ ١٤٦).
(٧) المسند (٥/ ٣٣٨).
(٨) مسند البزار برقم (٢٣٢١) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٧١): «فيه عمر بن نبهان ضعيف».

الرقاشى، عن أنس قال: قعد أبو موسى فى بيت واجتمع إليه ناس، فأنشأ يقرأ عليهم القرآن، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أفتستطيع أن تقعدنى حيث لا يرانى منهم أحد؟». قال: نعم. قال: فخرج رسول الله ﷺ فأقعده الرجل حيث لا يراه منهم أحد، فسمع قراءة أبى موسى فقال: «إنه ليقرأ على مزمار من مزامير داود، عليه السلام»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا مصعب بن سلام، حدثنا جعفر ـ هو ابن محمد بن على بن الحسين ـ عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» ثم يرفع صوته وتحمر وجنتاه، ويشتد غضبه إذا ذكر الساعة، كأنه منذر جيش. قال: ثم يقول: «أتتكم الساعة هكذا ـ وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى ـ صبحتكم الساعة ومستكم، من ترك مالا فلأهله، ومن ترك دَيْنًا أو ضياعًا فإلىّ وعلىّ»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب ـ يعنى ابن عطاء ـ أنبأنا أسامة بن زيد الليثى، عن محمد ابن المنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا قوم يقرؤون القرآن فقال: «اقرؤوا القرآن وابتغوا به وجه الله ـ عز وجل ـ من قبل أن يأتى بقوم يقيمونه إقامة القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه»(٣).

قال أحمد ـ أيضا ـ: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، حدثنا حميد الأعرج، عن محمد بن المنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا العجمى والأعرابى قال: فاستمع فقال: «اقرؤوا فكل حسن، وسيأتى قوم يقيمونه كما يقام القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه»(٤).

وقال أبو بكر البزار: حدثنا أبو كُرَيْب محمد بن العلاء، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن المعلى الكندى، عن عبد الله بن مسعود قال: إن هذا القرآن شافع مشفع، من اتبعه قاده إلى الجنة، ومن تركه أو أعرض عنه ـ أو كلمة نحوها ـ زجّ فى قفاه إلى النار»(٥). وحدثنا أبوكريب، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر، عن النبى ﷺ بنحوه(٦).

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أحمد بن عبد العزيز بن مروان أبو صخر، حدثنى بكر بن يونس، عن موسى بن على، عن أبيه، عن يحيى بن أبى كثير اليمامى، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ألف آية كتب الله له قنطارا، والقنطار مائة رطل، والرطل اثنتا عشرة أوقية،

---

(١) مسند أبى يعلى (٧/ ١٣٣ ـ ١٣٥) وفيه يزيد الرقاشى ضعيف.

(٢) المسند (٣/ ٣١٠).

(٣) المسند (٣/ ٣٥٧)

(٤) المسند (٣/ ٣٩٧).

(٥) مسند البزار برقم (١٢١) «كشف الأستار».

(٦) مسند البزار برقم (١٢٢) «كشف الأستار».

والوقية ستة دنانير، والدينار أربعة وعشرون قيراطا، والقيراط مثل أحُد، ومن قرأ ثلاثمائة آية قال الله لملائكته: نصب عبدى لى، أشهدكم يا ملائكتى أنّى قد غفرت له، ومن بلغه عن الله فضيلة فعمل بها إيمانا به ورجاء ثوابه، أعطاه الله ذلك وإن لم يكن ذلك كذلك»(١).

وقال أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب»(٢).

قال البزار: لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه.

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنى أبى قال: وجدت فى كتاب أبى بخطه عن عمران بن أبى عمران، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]»(٣).

وقال الطبرانى: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدثنا أبى، حدثنا ابن لَهيعة، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به»(٤).

وقال ـ أيضا ـ: حدثنا أبو يزيد القراطيسى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبدة بن سليمان، عن سعيد أبى سعد البقال، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحسنوا الأصوات بالقرآن»(٥).

وروى ـ أيضا ـ بسنده إلى الضحاك عن ابن عباس مرفوعا: «أشرف أمتى حملة القرآن»(٦).

وقال الطبرانى: حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا إبراهيم بن أبى سويد الذارع(٧)، حدثنا صالح المرى، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: أى الأعمال أحب إلى الله؟ فقال: «الحال المرتحل». قال: يا رسول الله، ما الحال المرتحل؟ قال: «صاحب القرآن يضرب فى أوله حتى يبلغ آخره، وفى آخره حتى يبلغ أوله»(٨).

---

(١) معجم الشيوخ لأبى يعلى (٧٤) وإسناده ضعيف لعلتين: العلة الأولى: ضعف بكر بن يونس، والعلة الثانية: الانقطاع بين يحيى ابن أبى كثير وجابر.

(٢) المسند (١/ ٢٢٣).

(٣) المعجم الكبير (١٢/ ٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٦٩): «فيه أبو شيبة وهو ضعيف جداً».

(٤) المعجم الكبير (١١/ ٧).

(٥) المعجم الكبير (١٢/ ١٨) وأبو سعد البقال ضعيف، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٦) المعجم الكبير (١٢/ ١٢٥) من طريق سعد الجرجانى عن نهشل ـ وكلاهما ضعيف ـ عن الضحاك به.

(٧) فى ط: «الزرع».

(٨) المعجم الكبير (١٢/ ١٦٨) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٦٨) من طريق صالح المرى به، وقال: «تفرد به صالح المرى، وهو من زهاد أهل البصرة». وتعقبه الذهبى فقال: «صالح متروك».

ذكر الدعاء المأثور

لحفظ القرآن وطرد النسيان

قال [الحافظ](١) أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير: حدثنا الحسين بن إسحاق التسترى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن إبراهيم القرشى، حدثنى أبو صالح وعكرمة، عن ابن عباس قال: قال على بن أبى طالب: يا رسول الله، القرآن يتفلت من صدرى، فقال النبى ﷺ: «أعلِّمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع من علمته». قال: قال: نعم بأبى وأمى، قال: «صلِّ ليلة الجمعة أربع ركعات تقرأ فى الأولى بفاتحة الكتاب ويس، وفى الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفى الثالثة بفاتحة الكتاب والـم تنزيل السجدة، وفى الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله واثن عليه، وصل على النبيين، واستغفر للمؤمنين، ثم قل: اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبدا ما أبقيتنى، وارحمنى من أن أتكلف ما لا يعنينى، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى، اللهم بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ(٢) كتابك كما علمتنى، وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى، وأسألك أن تنور بالكتاب بصرى، وتطلق به لسانى، وتفرج به عن قلبى، وتشرح به صدرى، وتستعمل به بدنى، وتقوينى على ذلك وتعيننى على ذلك(٣)، فإنه لا يعيننى على الخير غيرك، ولا يوفق له إلا أنت، فافعل ذلك ثلاث جمع أو خمسا أو سبعا تحفظه بإذن الله وما أخطأ مؤمنا قط». فأتى النبى ﷺ بعد ذلك بسبع فأخبره بحفظ القرآن والحديث، فقال النبى ﷺ: «مؤمن ورب الكعبة»، علم أبو الحسن(٤)، علم أبو الحسن(٥) » هذا سياق الطبرانى(٦).

وقال أبو عيسى الترمذى فى كتاب الدعوات: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن جريج، عن عطاء بن أبى رباح وعكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه على بن أبى طالب فقال: بأبى أنت وأمى، تفلت هذا القرآن من صدرى فما أجدنى أقدر عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا الحسن، أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، وينفع بهن من علمته، ويثبت ما تعلمت فى صدرك؟» قال: أجل يا رسول الله، فعلمنى، قال: «إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة، والدعاء فيها مستجاب، وقد قال أخى يعقوب لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف:٩٨]، يقول: حتى تأتى ليلة الجمعة، فإن لم تستطع فقم فى وسطها، فإن لم تستطع فقم فى أولها فصل أربع ركعات، تقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس، وفى الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفى الركعة الثالثة بفاتة الكتاب والـمَ تنزيل السجدة، وفى الركعة

---

(١) زيادة من ط. (٢) فى المعجم الكبير: «حب».

(٣) فى المعجم الكبير: «عليه».

(٤، ٥) فى المعجم الكبير: «أبا حسن».

(٦) المعجم الكبير (١١/٣٦٧) ورواه من طريق ابن الجوزى فى الموضوعات (٢/١٣٨) وقال: «هذا حديث لا يصح، ومحمد بن إبراهيم مجروح، وأبو صالح لا نعلمه إلا إسحاق بن نجيح وهو متروك».

الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد، فاحمد الله وأحسن الثناء على الله، وصل علىّ وأحسن وعلى سائر النبيين، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات، ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان، ثم قل فى آخر ذلك: اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبدا ما أبقيتنى، وارحمنى أن أتكلف ما لا يعنينى، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى، اللهم بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى، وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك، أن تنور بكتابك بصرى، وأن تطلق به لسانى، وأن تفرج به عن قلبى، وأن تشرح به صدرى، وأن تغسل به بدنى، فإنه لا يعيننى على الحق غيرك ولا يؤتيه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، يا أبا الحسن، تفعل ذلك ثلاث جمع أو خمسا أو سبعا تجاب بإذن الله تعالى، والذى بعثنى بالحق ما أخطأ مؤمنا قط». قال ابن عباس: فوالله ما لبث علىٌّ إلا خمسا أو سبعا حتى جاء [علىٌّ][(١)] رسول الله ﷺ فى مثل ذلك المجلس، فقال: يا رسول الله، والله إنى كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحوهن، فإذا قرأتُهن على نفسى تَفَلّتن وأنا أتعلّم اليوم أربعين آية أو نحوها، فإذا قرأتها على نفسى فكأنما كتاب الله بين عَيْنى، ولقد كنت أسمع الحديث، فإذا رَدّدتُه تَفَلّت، وأنا اليوم أسمع الأحاديث، فإذا تحدثتُ بها لم أخرِم منها حرفا، فقال له رسول الله ﷺ عند ذلك: «مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن».

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم. كذا قال، وقد تقدم من غير طريقه. ورواه الحاكم فى مستدركه من طريق الوليد، ثم قال: على شرط الشيخين حيث صرح الوليد بالسماع من ابن جريج، فالله أعلم ـ فإنه فى المتن غرابة بل نكارة[(٢)]، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكيع، حدثنا العمرى، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القرآن مثل الإبل المعقلة إن تعاهدها صاحبها أمسكها، وإن تركها ذهبت».

ورواه ـ أيضا ـ عن محمد بن عبيد ويحيى بن سعيد، عن عبيد الله العمرى به[(٣)].

ورواه ـ أيضا ـ عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً نحوه[(٤)].

وقال البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا حميد بن حماد بن أبى الحوار، حدثنا مِسْعر، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أحسن قراءة؟ قال: «من إذا سمعته يقرأ رؤيت أنه يخشى الله، عز وجل»[(٥)].

---

(١) زيادة من الترمذى.

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٥٧٠) والمستدرك (١/ ٣١٦، ٣١٧) وأعل بثلاث علل: الأولى: عنعنة ابن جريج. الثانية: تدليس بقية فإنه يدلس تدليس التسوية. الثالثة: سليمان الدمشقى تكلم فيه من جهة حفظه.

(٣) المسند (٢/ ٢٣)، (٢/ ١٧، ٣٠).

(٤) المسند (٢/ ٣٥).

(٥) مسند البزار برقم (٢٣٣٦) «كشف الأستار» وفيه حماد بن حميد ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقْرأ وارْقَ ورَتِّل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[١].

وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنى حيى بن عبد الله، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبى[٢] ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى أقرأ القرآن فلا أجد قلبى يعقل عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن قلبك حُشِىَ الإيمان، وإن العبد يعطى الإيمان قبل القرآن»[٣].

وبهذا الإسناد: أن رجلا جاء بابن له فقال: يا رسول الله، إن ابنى هذا يقرأ المصحف بالنهار ويبيت بالليل، فقال رسول الله ﷺ: «ما تنقم أن ابنك يظل ذاكرا ويبيت سالما»[٤].

وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لَهيعة، عن حيى، عن أبى عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو، أن النبى ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أى رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعنى فيه»، قال: «فيشفعان»[٥].

وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دراج، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أكثر منافقى أمتى قراؤها»[٦].

وقال أحمد: حدثنا وكِيع، حدثنى همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقه».

ورواه ـ أيضا ـ عن غُنْدَر، عن شعبة، عن قتادة به[٧]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمد بن إسحاق بن راهويه، حدثنا أبى، حدثنا عيسى بن يونس، ويحيى بن أبى الحجاج التميمى، عن إسماعيل بن رافع، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر، عن عبد الله بن عَمْرو، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فكأنما استُدْرِجَت النبوَّة بين جنبيه، غير أنه لا يُوحَى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحداً أُعْطِىَ أفضلَ مما أُعْطِىَ فقد عَظَّم ما صَغَّرَ الله، وصَغَّر ما عظَّم الله، وليس ينبغى لحامل القرآن أن يَسْفَه فيمن يَسْفَه، أو يَغْضَب فيمن يَغْضَب، أو يَحْتَدَّ فيمن يَحْتَدُّ، ولكن يعفو ويصفح، لِفضل القرآن»[٨].

(١) المسند (٢/ ١٩٢).
(٢) فى مسند أحمد: «رسول الله».
(٣) المسند (٢/ ١٧٢).
(٤) المسند (٢/ ١٧٣).
(٥) المسند (٢/ ١٧٤).
(٦) المسند (٢/ ١٧٥).
(٧) المسند (٢/ ١٦٤، ١٩٣، ١٩٥).
(٨) قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٥٩): «فيه إسماعيل بن رافع وهو متروك».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا عباد بن ميسرة، عن الحَسَن، عن أبى هُرَيرةَ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كُتِبَتْ له حسنةٌ مضاعفةٌ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»(١).

وقال البزار: حدثنا محمد بن حرب، حدثنا يحيى بن المتوكل، حدثنا عَنْبَسة بن مهْران عن الزهرى، عن سَعيد وأبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «مراءٌ فى القرآن كفرٌ». ثم قال: عنبسة: هذا ليس بالقوىّ. وعنده فيه إسناد آخر(٢).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو بكر، حدثنا ابن إدريس، حدثنا المقبرى، عن جدِّه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه(٣)»(٤).

وقال الطبرانى: حدثنا موسى بن حازم الأصبهانى، حدثنا محمد بن بكير الحضرمى، حدثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن يحيى بن الحارث الذِّمارى، عن القاسم أبى عبد الرحمن، عن فضالة بن عُبَيد، وتَميم الدارىِّ، عن النبى ﷺ قال: «من قرأ عشر آيات فى ليلة كُتِب له قنطار، والقنطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة يقول ربك، عز وجل: اقرأ وارقَ بكل آية درجة حتى ينتهى إلى آخر آية معه، يقول ربك: اقبض، فيقول العبد بيده: يارب أنت أعلم. فيقول: بهذه الخلد وبهذه النعيم»(٥).

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة معقس بن عمران بن حطان قال: قال: دخلت مع أبى على أم الدرداء، رضى الله عنها، فسألها أبى: ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأ؟ قالت: حدثتنى عائشة قالت: جُعِلت دَرَجُ الجنة على عدد آى القرآن، فمن(٦) قرأ ثلث القرآن ثم دخل الجنة كان على الثلث من دَرَجها، ومن قرأ نصف القرآن كان على النصف من درَجها، ومن قرأ كُلَّه كان فى علِّيِّينَ، لم يكن فوقه إلا نبى أو صديق أو شهيد(٧).

وقال الطبرانى: حدثنا مَسْعَدَةُ(٨) بن سَعْد العطارُ المكى، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحِزَامى، حدثنا إسحاق بن إبراهيم مولى جميع بن حارثة الأنصارى، حدثنا عبد الله بن ماهان الأزدى، حدثنى فائد مولى عُبَيد الله بن أبى رافع، حدثتنى سُكينة بنت الحُسَين بن على، عن أبيها قال: قال رسول الله ﷺ: «حملة القرآن عُرَفاء أهل الجنة يوم القيامة»(٩).

وروى الطبرانى من حديث بقيَّة، عن أبى بكر بن أبى مريم، عن المهاصر بن حبيب، عن عبيدة

(١) المسند (٢/ ٣٤١).
(٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ١٩٢) من طريق محمد بن حرب الواسطى به، وقال: «غريب من حديث مكحول، لم نكتبه إلا من حديث ابن حرب».
(٣) فى ط: «غرابته».
(٤) مسند أبى يعلى (١١/ ٤٣٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٦٣): «فيه عبد الله بن سعيد بن أبى سعيد المقبرى وهو متروك».
(٥) المعجم الكبير (٢/ ٥٠).
(٦) فى ط: «من».
(٧) تاريخ دمشق (١٧/ ١٠ «المخطوط»).
(٨) فى ط: «مسورة».
(٩) المعجم الكبير (٣/ ١٣٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٦١): «فيه إسحاق المدنى وهو ضعيف».

المليكى، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «يا أهل القرآن، لا توسَّدوا القرآن، واتلوه حَقَّ تلاوته من آناء الليل والنهار، وتغنوه وتَقَنَّوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون، ولا تستعجلوا ثوابه، فإن له ثَوابَيْن[(١)]»[(٢)].

وفى حديث عقبة بن عامر نحوه، كما تقدم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا ابن لَهِيعَة، عن مِشْرَحٍ، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن القرآن جُعِل فى إهابٍ ثم ألقى فى النار ما احترق»[(٣)].

تفرد به. قيل: معناه: أن الجسد الذى يقرأ القرآن [لاتمسه النار][(٤)].

وفى سُنَن ابن ماجه من طريق المغيرة بن نَهِيكٍ، عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «من تعلم القرآن[(٥)] ثم تركه فقد عصانى»[(٦)].

وفى حديث رواه أبو يعلى من طريق ليث، عن مجاهد، عن أبى سعيد مرفوعاً: «عليك بتقوى الله، فإنها رأس كل خير، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذِكْرِ الله وتلاوة القرآن، فإنَّه نورٌ لك فى الأرض وذكرٌ لك فى السماء، واخْزُنْ لسانَكَ إلا من خَيْرٍ، فإنَّك بذلك تَغْلِبَ الشيطان»[(٧)].

وهكذا أذكُرُ آثاراً مرويّةً عن ابن أمِّ عَبْد[(٨)] أحدِ قُرَّاء القرآن مِنَ الصَّحَابَةِ المأمورِ بالتلاوة على نحوهم[(٩)]:

روى الطبرانى، عن الدَّبَرِىّ، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن أبى إسحاق، قال ابن مسعود: كل آية فى كتاب الله خيرٌ مما فى السماء والأرض[(١٠)].

ومن طريق شعبة، عن أبى إسحاق، عن مرَّة قال ابن مسعود: من أراد العلم فلْيَتَبَوَّأْ من القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين[(١١)].

ومن طريق سُفيان وشعبة، عن ساعد[(١٢)] بن كُهَيل، عن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: إنّ هذا القرآن ليس فيه حرف إلاّ له حدٌّ، ولكلِّ حد مَطْلَعٌ[(١٣)].

ومن حديث الثورى، عن إسماعيل بن أبى خالد[(١٤)]، عن سيار أبى الحكم، عن ابن مسعودٍ أنه قال: أعربوا هذا القرآن فإنه عربىٌّ، وسيجىءُ قوم يَثْقَفُونه وليسوا بخياركم[(١٥)].

(١) فى ط: «ثوابا».
(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٢٥٢): «رواه الطبرانى فى الكبير وفيه أبو بكر بن أبى مريم وهو ضعيف».
(٣) المسند (٤/ ١٥١).
(٤) زيادة من ط.
(٥) فى سنن ابن ماجة: «الرمى».
(٦) سنن ابن ماجه برقم (٢٨١٤).
(٧) مسند أبى يعلى (٢/ ٢٨٤) وليث بن أبى سليم ضعيف.
(٨) فى ط: «عن ابن أم عبد عبد الله بن مسعود». (٩) فى ط: «حرفهم».
(١٠) المعجم الكبير (٩/ ١٤٥).
(١١) المعجم الكبير (٩/ ١٤٦).
(١٢) فى ط: «سلمة».
(١٣) المعجم الكبير (٩/ ١٤٦).
(١٤) فى ط: «إسماعيل بن خالد». (١٥) المعجم الكبير (٩/ ١٥٠).

والثورى، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن ابن مسعود قال: أديموا النظر فى المصحف، وإذا اختلفتم فى ياءٍ أو تاءٍ فاجعلوها ياءً، ذكّروا القرآن فإنه مذكّر(١).

وقال عبد الرزاق، عن إسرائيل، عن عبد العزيز بن رفيع، عن شَدَّاد (٢) بن مَعْقِل، سَمِعْتُ ابن مسعود يقول: أول ما تفقدونَ من دينكم الأمانة، وآخر ما يبقى من دينكم الصلاة، ولَيُصَلِّيَنّ قومٌ لا خلاقَ لهم، ولينزعنَّ قومٌ من بين أظهركم. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، ألسنا نقرأُ القرآن وقد أثبتناه فى مصاحفنا؟ قال: يُسْرَى على القرآن ليلاً فَيُذْهَبُ به من أجواف الرجال فلا يبقى فى الأرض منه شىء ـ وفى رواية: لا يبقى فى مصحف منه شىءٌ ـ ويصبح الناسُ فُقَراءَ كالبهائم. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٦](٣).

وقال الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثنى شعبة، عن على بن بذيمة(٤)، عن أبى عبيدة بن عبد الله، عن أبيه قال: من قرأ القرآن فى أقَلَّ من ثلاثٍ فهو راجز(٥).

قال هشام عن الحسَنِ: إنه بلغه عن ابن مسعود مثلُ ذلك.

ومن طريق الأعمش، عن أبى وائلٍ قال: كان عبد الله بن مسعود يقل الصوم، فيقال له فى ذلك، فيقول: إنى إذا صُمْتُ ضَعُفْتُ عن القراءةِ والصلاة، والقراءة والصلاة أحبُّ إلىَّ (٦).

مقدمة مفيدة

قال أبو بكر بن الأنبارى: حدثنا إسماعيل بن إسحاقَ القاضى، عن حجاج بن منْهال، عن همام، عن قتادة قال: نزل فى المدينة من القرآن البقرة، وآل عمرانَ، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنُّور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد، والرحمن، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، ويا أيها النبى لمَ تُحَرِّم، وإلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصرُ الله. هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة.

فأما عدد آيات القرآن فستة آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية، وست وعشرون آية، وقيل: ومائتا آية، وست وثلاثون آية. حكى ذلك أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان(٧).

وأما كلماته، فقال الفضل بن شاذان، عن عطاءِ بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة.

وأما حروفُه، فقال عبد الله بن كثير، عن مجاهد: هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثُمائة ألفِ

(١) المعجم الكبير (٩/ ١٥٢).
(٢) فى ط: «مقداد».
(٣) المعجم الكبير (٩/ ١٥٢) والمصنف لعبد الرزاق (٥٩٨٠).
(٤) فى ط: «على بن زيد».
(٥) المعجم الكبير (٩/ ١٥٤).
(٦) المعجم الكبير (٩/ ١٩٥).
(٧) تفسير القرطبى (١/ ٦٥).

حرفٍ وواحدٌ وعشرون ألفَ حَرْفٍ ومائَةٌ وثمانونَ حرفاً.

وقال الفضل، عن عطاء بن يسار: ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً.

وقال سَلاَّم أبو محمد الحمانيّ: إنّ الحجاج جمع القراء والحفاظ والكُتَّاب فقال: أخبرونى عن القرآن كُلِّه كم من حرف هو؟ قال: فحسبناه فأجمعوا أنه ثلاثُمائة ألف حَرْف وأربعون ألفاً وسبعمائة وأربعون حرفاً. قال: فأخبرونى عن نصفه. فإذا هو إلى الفاء من قوله فى الكهف: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف:١٩]، وثُلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة، والثانى على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء، والثالث إلى آخره. وسُبُعُه الأول إلى الدال من قوله: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٥]. والسُبُع الثاني إلى الباء من قوله فى الأعراف: ﴿ حَبِطَتْ ﴾ [الأعراف:١٤٧]، والثالث إلى الألف الثانية من : ﴿ أُكُلُهَا ﴾ فى الرعد [الرعد: ٣٥]، والرابع إلى الألف من قوله في الحج: ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ [الحج:٦٧]، والخامس إلى الهاء من قوله فى الأحزاب: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ ﴾ [الأحزاب:٣٦]، والسادس إلى الواو من قوله فى الفتح: ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ [الفتح:٦]، والسابع إلى آخر القرآن. قال سلام أبو محمد: عملنا ذلك فى أربعة أشهر.

قالوا: وكان الحجاج يقرأ فى كلِّ ليلة ربع القرآن، فالأول إلى آخر الأنعام، والثانى إلى ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ [الكهف:١٩]، والثالث إلى آخر الزمر، والرابع إلى آخر القرآن. وقد ذكر الشيخ أبو عمرو الدانى فى كتابه البيان خلافاً فى هذا كله، والله أعلم[(١)].

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما فى الربعات فى المدارس وغيرها، وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد فى تحزيب الصحابة للقرآن، والحديث فى مسند أحمدَ وسُنَنِ أبى داودَ وابن ماجَهْ وغيرهما[(٢)] عن أوس بن حُذَيفة أَنَّه سَأَلَ أصحابَ رسول الله ﷺ فى حياته: كيف يُحزِّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرةَ وثلاثَ عَشْرَةَ، وحزبُ المُفصَّل من قاف حتى يختم[(٣)].

قال القرطبى: أجمعوا أنه ليس فى القرآن شىء من التراكيب الأعجمية؟ وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كإبراهيم ونوح، ولوط، واختلفوا: هل فيه شىء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلانى والطبرى وقالا: ما وقع فيه ما يوافق الأعجمية، فهو من باب ما توافقت فيه اللغات[(٤)].

فصل

واختلفوا[(٥)] فى معنى السورة: ممَّ هى مشتقة؟ فقيل: من الإبانة والارتفاع. قال النابغة:

ألم تر أنَّ الله أعطاكَ سورةً   تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونها يتَذَبْذَبُ[(٦)]

فكأن القارئ يتنقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلد. وقيل: سميت

(١) انظر: تفسير القرطبى (١/ ٦٤).
(٢) فى ط: «غيرهما».
(٣) المسند (٤/ ٩) وسنن أبى داود برقم (١٣٩٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٨).
(٤) تفسير القرطبى (١/ ٦٨).
(٥) فى ط: «واختلف».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ١٠٥).

سُورَةً لكونها قطْعةً من القرآن وجزءًا منه، مأخوذ من أسآر الإناء وهو البقية، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً، وإنما خففت فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها. وقيل: لتمامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سُورَةً.

قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما سُمِّى سورُ البلد لإحاطته بمنازِلِه ودُورِه، والله أعلم.

وجمع السورة سُوَرٌ بفتح الواو، وقد تُجمع (١) على سُورَات وسُوْرَات.

وأما الآية فمن العلامَة على انقطاع الكلام الذى قبلها عن الذى بعدها وانفصاله، أى: هى بائنة من أختها. قال (٢) الله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾[البقرة: ٢٤٨]، وقال النابغة:

تَوَهَّمْتُ آيات لها فَعَرَفْتُها لستَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابع(٣)

وقيل: لأنها جماعةُ حروفٍ من القرآن وطائفة منه، كما يقال: خرج القوم بآيتهم، أى: بجماعتهم. قال الشاعر(٤):

خَرَجْنَا من النَّقبين لا حَىَّ مثلُنا بآيتنا نُزْجى اللقاحَ المَطَافلا

وقيل: سُمِّيت آيةً لأنها عَجَبٌ يَعْجز البَشر عن التكلّم بمثلها.

قال سيبويه: وأصلها أَيَيَة مثل أَكَمَة وشَجَرَة، تحرَّكت الياءُ وافتتح ما قبلها فقلبت ألفاً فصارت آية، بهمزة بعدها مدة. وقال الكسائى: آيِيَة على وزن آمنة، فَقُلبت ألفاً، ثم حُذفت لالتباسها.

وقال الفرَّاء: أصلها أَيَّة ـ بتشديد الياء ـ فَقُلِبَت الأولى ألفاً، كراهيةَ التشديد فصارت آية، وجمعُها: آىٌ وآياىٌ وآياتٌ.

وأما الكلمة فهى اللفظ الواحد، وقد تكون على حرفين مثل: ما ولا وله ولك، وقد يكون أكثر. وأكثر ما يكون (٥) عشرة أحرف: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، و ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: ٢٨]، ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقد تكون الكلمة آية، مثل: والفجر، والضحى، والعَصْر، وكذلك: الم، وطه، ويس، وحم ـ فى قول الكوفيين ـ و﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ عندهم كلمتان. وغيرهم لايسمى هذه آيات بل يقول: هى فواتح السُّوَر. وقال أبو عَمْرو الدانىّ: لا أعلم كلمةً هى وحدها آيةٌ إلا قوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ فى سورة الرحمن [الرحمن: ٦٤].

آخر المقدمة

---

(١) فى ط: «يجمع». (٢) فى ط: «ومنه قول».

(٣) البيت فى تفسير القرطبى (١/ ٦٦).

(٤) البيت لبرج بن مسهر الطائى، وهو فى تفسير القرطبى (١/ ٦٦).

(٥) فى ط: «تكون».

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

يقال لها: الفاتحة، أى فاتحة الكتاب خطا، وبها تفتح(١) القراءة فى الصلاة(٢)، ويقال لها أيضا: أم الكتاب عند الجمهور، وكره أنس، والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك، قال الحسن وابن سيرين: إنما ذلك اللوح المحفوظ، وقال الحسن: الآيات المحكمات: هن أم الكتاب، ولذا كرها(٣) ـ أيضا ـ أن يقال لها أم القرآن، وقد ثبت فى [الحديث](٤) الصحيح عند الترمذى وصححه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى والقرآن العظيم»، ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة؛ لقوله عليه السلام(٥) عن ربه: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدنى عبدى» الحديث. فسميت الفاتحة: صلاة؛ لأنها شرط فيها. ويقال لها: الشفاء، لما رواه الدارمى عن أبى سعيد مرفوعا: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سم(٦)». ويقال لها: الرقية، لحديث أبى سعيد فى الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله ﷺ: «وما يدريك أنها رقية؟». وروى الشعبى عن ابن عباس أنه سماها: أساس القرآن، قال: فأساسها(٧) بسم الله الرحمن الرحيم، وسماها سفيان بن عيينة: الواقية. وسماها يحيى بن أبى كثير: الكافية؛ لأنها تكفى عما عداها ولا يكفى ما سواها عنها، كما جاء فى بعض الأحاديث المرسلة: «أم القرآن عوض من غيرها، وليس غيرها عوضا عنها»(٨). ويقال لها: سورة الصلاة والكنز، ذكرهما الزمخشرى فى كشافه.

وهى مكية، قاله(٩) ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل: مدنية، قاله(١٠) أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى. ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، والله أعلم(١١). وحكى أبو الليث السمرقندى أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة، وهو غريب جدًا، نقله القرطبى عنه.

وهى سبع آيات بلا خلاف، [وقال عمرو بن عبيد: ثمان، وقال حسين الجعفى: ستة(١٢)، وهذان شاذان](١٣). وإنما اختلفوا فى البسملة: هل هى آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول الجماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف، أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء؟ على ثلاثة أقوال، سيأتى تقريره(١٤) فى موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

(١) فى أ: «يفتتح». (٢) فى أ: «الصلوات». (٣) فى أ: «كذا».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «ﷺ». (٦) فى أ: «اسم».
(٧) فى أ: «وأساسها».
(٨) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢/ ١٦٥) من طريق مكحول عن عبادة به مرسلا، ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٢٣٨) من طريق الزهرى عن محمود بن الربيع عن عبادة به مرفوعا بهذا اللفظ، وهذا غير محفوظ. وقد جاء من طرق أخرى موصولة ذكرها الفاضل محمد طرهونى فى كتابه« موسوعة فضائل القرآن» (١/ ٤٠ ـ ٤٣).
(٩، ١٠) فى أ: «قال». (١١) فى جـ: «والله تعالى أعلم». (١٢) فى أ: «ست».
(١٣) زيادة من جـ. (١٤) فى أ: «تقريرها».

قالوا: وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفًا. قال البخارى فى أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتب: أنه يبدأ بكتابتها فى المصاحف، ويبدأ بقراءتها فى الصلاة[١]، وقيل: إنما[٢] سميت بذلك لرجوع معانى القرآن كله[٣] إلى ما تضمنته. قال ابن جرير: والعرب تسمى كل جامع أمر[٤] أو مقدم لأمر ـ إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع ـ أمّا، فتقول[٥] للجلدة التى تجمع الدماغ: أم الرأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها أمّا، واستشهد[٦] بقول ذى الرمة:

على رأسه أم لنا نقتدى بها ... جماع أمور ليس[٧] نعصى لها أمرا[٨]

يعنى: الرمح. قال: وسميت مكة: أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها، وقيل: لأن الأرض دحيت منها.

ويقال لها أيضًا: الفاتحة؛ لأنها تفتتح بها القراءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام، وصح تسميتها بالسبع المثانى، قالوا: لأنها تثنى فى الصلاة، فتقرأ فى كل ركعة، وإن كان للمثانى معنى آخر غير هذا، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله[٩].

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أنا ابن أبى ذئب وهاشم بن هاشم عن ابن أبى ذئب، عن المقبرى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال لأم القرآن: «هى أم القرآن، وهى السبع المثانى، وهى القرآن العظيم[١٠]»[١١] .ثم رواه عن إسماعيل بن عمر عن ابن أبى ذئب به، وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، أنا ابن وهب، أخبرنى ابن أبى ذئب، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «هى أم القرآن، وهى فاتحة الكتاب، وهى السبع المثانى»[١٢].

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه فى تفسيره: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، ثنا محمد بن غالب بن حارث، ثنا إسحاق بن عبد الواحد الموصلى، ثنا المعافى بن عمران، عن عبد الحميد بن جعفر، عن نوح بن أبى بلال، عن المقبرى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين سبع آيات: بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهى السبع المثانى والقرآن العظيم، وهى أم الكتاب[١٣]»[١٤].

---

(١) صحيح البخارى (٨/ ١٥٥) «فتح».

(٢) فى أ: «أنها».

(٣) فى أ: « إليها».

(٤) فى أ: «كل أمر جامع أمرا»، وفى و: «كل جامع أمرا».

(٥) فى أ: «فيقول».

(٦) فى أ: «واستشهدوا».

(٧) فى أ، و : «لا».

(٨) تفسير الطبرى (١/ ١٠٧).

(٩) فى أ: «الله تعالى».

(١٠) فى جـ: «العظيم الذى أوتيته».

(١١) المسند (٢/ ٤٤٨).

(١٢) تفسير الطبرى (١/ ١٠٧).

(١٣) بعدها فى أ، جـ: «وفاتحة الكتاب».

(١٤) ورواه الثعلبى فى تفسيره (١/ ق١٨) من طريق محمد بن حسان عن المعافى بن عمران عن عبد الحميد به، ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢/ ٤٥) من طريق نوح بن أبى بلال عن المقبرى به.

وقد رواه الدارقطني ـ أيضا ـ عن أبي هريرة مرفوعا بنحوه[١] أو مثله، وقال: كلهم ثقات[٢].

وروه البيهقي عن علي[٣] وابن عباس[٤] وأبي هريرة[٥] أنهم فسروا قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾[الحجر: ٨٧] بالفاتحة، وأن البسملة هي الآية السابعة منها، وسيأتي تمام هذا عند البسملة.

وقد روى الأعمش عن إبراهيم قال: قيل لابن مسعود: لم لم تكتب الفاتحة في مصحفك؟ قال: لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة. قال أبو بكر بن أبي داود: يعني حيث يقرأ في الصلاة، قال: واكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها.

وقد قيل: إن الفاتحة أول شيء نزل من القرآن، كما ورد في حديث رواه البيهقي في دلائل النبوة[٦] ونقله الباقلاني أحد أقوال ثلاثة هذا [أحدها][٧] وقيل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. كما في حديث جابر في الصحيح[٨]. وقيل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[العلق: ١] وهذا هو الصحيح، كما سيأتي تقريره في موضعه، والله[٩] المستعان.

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

قال الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، رحمه الله، في مسنده: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثني خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المُعَلَّى، رضي الله عنه، قال: كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه حتى صلَّيت وأتيته، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟». قال: قلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي. قال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]»، ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد». قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله، إنك قلت: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن». قال: «نعم، الحمد لله رب العالمين هي: السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وهكذا رواه البخاري عن مسدد، وعلي بن المديني، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان، به[١٠].

ورواه في موضع آخر من التفسير، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه من طرق عن شعبة، به[١١].

ورواه الواقدي عن محمد بن معاذ الأنصاريّ، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المُعَلَّى، عن أبي بن كعب، فذكر نحوه.

وقد وقع في الموطأ للإمام مالك بن أنس، ما ينبغي التنبيه عليه، فإنه رواه مالك عن العلاء بن عبد

---

(١) في أ: «نحوه».

(٢) سنن الدارقطني (١/ ٣١٢) من طريق أبي بكر الحنفي عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح به مرفوعا، ثم قال أبو بكر الحنفي: «ثم لقيت نوحًا فحدثني عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة بمثله ولم يرفعه».

(٣) شعب الإيمان للبيهقي برقم (٢٣٥٣) من طريق الثوري عن السدي عن عبد خير عن علي بن أبي طالب.

(٤) شعب الإيمان برقم (٢٣٥٦) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٥) شعب الإيمان برقم (٢٣٥٤).

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٥٨)، وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية(٣/ ١٠) بعد أن أورده من طريق البيهقي: «وهو مرسل، وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما نزل».

(٧) زيادة من جـ.

(٨) صحيح البخاري برقم (٤٩٢٣، ٤٩٢٦، ٤٩٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٦١).

(٩) في أ، و: «وبالله».

(١٠) المسند (٣/ ٤٥٠) وصحيح البخاري برقم (٥٠٠٦) وبرقم (٤٤٧٤).

(١١) صحيح البخاري برقم (٤٦٤٧، ٤٧٠٣) وسنن أبي داود برقم (١٤٥٨) وسنن النسائي (٢/ ١٣٩) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٨٥).

الرحمن بن يعقوب الحُرَقى: أن أبا سعيد مولى عامر بن كريز أخبرهم، أن رسول الله ﷺ نادى أبى ابن كعب، وهو يصلى فى المسجد، فلما فرغ من صلاته لحقه، قال: فوضع النبى ﷺ يده على يدى، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد، ثم قال: «إنى لأرجو ألا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل[(١)] فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان[(٢)] مثلها». قال أبىّ: فجعلت أبطئ فى المشى رجاء ذلك، ثم قلت: يا رسول الله، ما السورة التى وعدتنى؟ قال: «كيف تقرأ إذا افتتحت[(٣)] الصلاة؟». قال: فقرأت عليه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى أتيت على[(٤)] آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «هى هذه السورة، وهى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيت»[(٥)].

فأبو سعيد هذا ليس بأبى سعيد بن المُعَلّى، كما اعتقده ابن الأثير فى جامع الأصول ومن تبعه[(٦)]، فإن ابن المُعَلى صحابى أنصارى، وهذا تابعى من موالى خزاعة، وذاك الحديث متصل صحيح، وهذا ظاهره أنه منقطع، إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبىّ بن كعب، فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم، والله أعلم. على أنه قد روى عن أبىّ بن كعب من غير وجه كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عفّان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ على أبى بن كعب، وهو يصلى، فقال: «يا أبى»، فالتفت ثم لم يجبه، ثم قال: أبى، فخفف. ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك أىْ رسول الله. قال: «وعليك السلام»، [قال][(٧)]: «ما منعك أىْ أبىّ إذ[(٨)] دعوتك أن تجيبنى؟». قال: أىْ رسول الله، كنت فى الصلاة، قال: «أو لست تجد فيما أوحى الله إلى[(٩)]: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]». قال: بلى يا رسول الله، لا أعود؟ قال: «أتحب أن أعلمك سورة لم يُنزل لا فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان[(١٠)] مثلها؟» قلت: نعم، أىْ رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «إنى لأرجو ألا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها». قال: فأخذ رسول الله ﷺ بيدى يحدثنى، وأنا أتبطأ[(١١)]، مخافة أن يبلغ قبل أن يقضى الحديث، فلما دنونا من الباب قلت: أىْ رسول الله، ما السورة التى وعدتنى[(١٢)]؟ قال: «ما تقرأ فى الصلاة؟». قال: فقرأت عليه أم القرآن، قال: «والذى نفسى بيده، ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور، ولا فى الفرقان مثلها؛ إنها السبع المثانى».

---

(١) فى أ: «ما نزل». (٢) فى و: «القرآن». (٣) فى جـ: «فتحت».
(٤) فى جـ: «إلى».
(٥) الموطأ (١/ ٨٣).
(٦) جامع الأصول (٨/ ٤٦٦).
(٧) زيادة من جـ، والمسند. (٨) فى جـ، ط: «أن».
(٩) فى هـ، أ: «أوحى إلى» والمثبت من جـ، ط، و، والمسند.
(١٠) فى أ: «القرآن». (١١) فى جـ، ط: «أتباطأ».
(١٢) فى جـ: «وعدتنى بها».

ورواه الترمذى، عن قتيبة، عن الدَّرَاوَرْدِى، عن العلاء، عن [١] أبيه، عن أبى هريرة، فذكره[٢]، وعنده: إنها من السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيته، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح.

وفى الباب، عن أنس بن مالك، ورواه عبد الله بن [الإمام] [٣] أحمد، عن إسماعيل بن أبى مَعْمَر، عن أبى أسامة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن أبى بن كعب، فذكره مطولا بنحوه أو قريبا منه[٤].

وقد رواه الترمذى والنسائى جميعاً [٥]، عن أبى عمار حسين بن حريث، عن الفضل بن موسى، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن أبىّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن، وهى السبع المثانى، وهى مقسومة بينى وبين عبدى»، هذا لفظ النسائى. وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا هاشم، يعنى ابن البريد[٦]، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن ابن جابر، قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهراق الماء، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد علىّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد علىّ، قال: فقلت: السلام عليك يارسول الله. فلم يرد علىّ. قال: فانطلق رسول الله ﷺ يمشى، وأنا خلفه حتى دخل رحله، ودخلت أنا المسجد، فجلست كئيباً حزيناً، فخرج علىّ رسول الله ﷺ قد تطهر، فقال: «عليك [٧] السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله»، ثم قال: «ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخْير سورة فى القرآن؟». قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «اقرأ: الحمد لله رب العالمين، حتى تختمها»[٨].

هذا إسناد جيد، وابن عقيل تحتج [٩] به الأئمة الكبار، وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابى، ذكر ابن الجوزى أنه هو العبدىّ، والله أعلم. ويقال: إنه عبد الله بن جابر الأنصارى البياضى، فيما ذكره الحافظ ابن عساكر[١٠].

واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض، كما هو المحكى عن كثير من العلماء، منهم: إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربى، وابن الحصار من المالكية. وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل فى ذلك؛ لأن الجميع كلام الله، ولئلا يوهم التفضيل نقص

---

(١) بداية المخطوطة ب.
(٢) المسند (٢/ ٤١٢، ٤١٣) وسنن الترمذى برقم (٢٨٧٨).
(٣) زيادة من جـ، ط، أ.
(٤) زوائد المسند (٥/ ١١٤).
(٥) سنن الترمذى برقم (٣١٢٤) وسنن النسائى (٢/ ١٣٩).
(٦) فى أ: «اليزيد».
(٧) فى جـ، ط : «وعليك».
(٨) المسند (٤/ ١٧٧).
(٩) فى ط: «يحتج».
(١٠) وهو الذى رجحه الحافظ ابن حجر فى كتابه «تعجيل المنفعة» (ص١٤٥).

المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلا، نقله القُرطُبى عن الأشعرىّ، وأبى بكر الباقلانى، وأبى حاتم ابن حبان البستى، ويحيى بن يحيى، ورواية عن الإمام مالك [أيضا](١).

حديث آخر: قال البخارى فى فضائل القرآن: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا وهب، حدثنا هشام، عن محمد، عن معبد، عن أبى سعيد الخدرى، قال: كنا فى مسير لنا، فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحى سليم، وإن نَفَرَنا غُيَّب، فهل منكم (٢) راق؟ فقام معها رجل ما كنا نَأبِنُه برقية، فرقاه، فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع (٣) قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقى؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب. قلنا: لاتُحْدِثُوا شيئاً حتى نأتى، أو نسأل رسول الله(٤) ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبى ﷺ فقال: «وما كان يُدْريه أنها رقية، أقسموا واضربوا لى بسهم».

وقال أبو معمر: حدثنا عبد الوارث، حدثنا هشام، حدثنا محمد بن سيرين، حدثنى معبد بن سيرين، عن أبى سعيد الخدرى بهذا.

وهكذا رواه مسلم، وأبو داود من رواية هشام، وهو ابن حسان، عن ابن سيرين، به(٥). وفى بعض روايات مسلم لهذا الحديث: أن أبا سعيد هو الذى رقى ذلك السليم، يعنى: اللديغ يسمونه بذلك تفاؤلا.

حديث آخر: روى مسلم فى صحيحه، والنسائى فى سننه، من حديث أبى الأحوص سلام بن سليم، عن عمار بن رُزَيق(٦)، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء، ما فتح قط. قال: فنزل منه ملك، فأتى النبى ﷺ، فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، ولن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته. وهذا لفظ النسائى(٧).

ولمسلم نحوه حديث آخر: قال مسلم: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلى، هو ابن راهويه، حدثنا سفيان بن عيينة، عن العلاء، يعنى ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحُرَقى (٨) عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم (٩) القرآن فهى خِداج ـ ثلاثاً ـ غير تمام». فقيل لأبى هريرة: إنا نكون وراء الإمام، قال: اقرأ بها فى نفسك؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قال الله: حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

---

(١) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٢) فى جـ، ط: «معكم». (٣) فى جـ: «رجعنا».
(٤) فى ط: «النبى».
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٢٠١).
(٦) فى أ، و: «زريق».
(٧) صحيح مسلم برقم (٨٠٦) وسنن النسائى (١٣٨/٢).
(٨) فى أ: «الحرمى». (٩) فى جـ، ط، ب: «بأم».

[الفاتحة: ٣]، قال الله: أثنى على عبدى، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال[١]: مجدنى عبدى» ـ وقال مرة: «فوض إلى عبدى ـ فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال: هذا بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، قال[٢]: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل».

وهكذا رواه النسائى، عن إسحاق بن راهويه[٣]. وقد روياه ـ أيضاً ـ عن قتيبة، عن مالك، عن العلاء، عن أبى السائب مولى هشام بن زهرة، عن أبى هريرة، به[٤]،وفى هذا السياق: «فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل».

وكذا رواه ابن إسحاق، عن العلاء، وقد رواه مسلم من حديث ابن جُرَيْج، عن العلاء، عن أبى السائب هكذا[٥].

ورواه ـ أيضاً ـ من حديث ابن أبى أويس، عن العلاء، عن أبيه وأبى السائب، كلاهما عن أبى هريرة[٦].

وقال الترمذى: هذا حديث حسن، وسألت أبا زُرْعَة عنه فقال: كلا الحديثين صحيح، من قال: عن العلاء، عن أبيه، وعن العلاء عن أبى السائب[٧].

وقد روى هذا الحديث عبد الله ابن الإمام أحمد، من حديث العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن أبىّ بن كعب مطولا[٨].

قال[٩] ابن جرير: حدثنا صالح بن مسمار المروزى، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا عَنْبسة بن سعيد، عن مُطَرِّف بن طريف، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، وله ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال: أثنى على عبدى. ثم قال: هذا لى وله مابقى»[١٠].

وهذا غريب من هذا الوجه.

---

(١) فى جـ، ط: «قال الله».

(٢) فى جـ، ط، ب: «آمين قال».

(٣) صحيح مسلم برقم (٣٩٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠١٣).

(٤) صحيح مسلم برقم (٣٩٥) وسنن النسائى (٢/ ١٣٥).

(٥، ٦) صحيح مسلم برقم (٣٩٥).

(٧) سنن الترمذى برقم (٢٩٥٣).

(٨) لم أقع عليه فى المطبوع من المسند، وذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (١/ ٢٣٠).

(٩) فى جـ، ط، ب: «وقال».

(١٠) تفسير الطبرى (١/ ٢٠١) ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١/ ١٧) من طريق زيد بن الحباب به، وفى إسناده انقطاع، سعد بن إسحاق لم يسمع من جابر، وقد حاول الشيخ أحمد شاكر إثبات اتصاله فى حاشيته على الطبرى ولكن لا يسلم له بما قال، والله أعلم.

ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة (١) من وجوه:

أحدها: أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا**﴾[الإسراء: ١١٠]، أى: بقراءتك، كما جاء مصرحاً به فى الصحيح، عن ابن عباس(٢)، وهكذا قال فى هذا الحديث: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل»، ثم بيَّن تفضيل هذه القسمة فى قراءة الفاتحة فدل على عظم (٣) القراءة فى الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، إذا أطلقت العبادة وأريد بها (٤) جزء واحد منها وهو القراءة؛ كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة فى قوله: ﴿**وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٨]، والمراد صلاة الفجر، كما جاء مصرحاً به فى الصحيحين: من أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لابد من القراءة فى الصلاة، وهو اتفاق من العلماء.

ولكن اختلفوا فى مسألة نذكرها فى الوجه الثانى، وذلك أنه هل يتعين للقراءة فى الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزئ هى أو غيرها؟ على قولين مشهورين، فعند أبى حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه فى الصلاة، واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾ [المزمل: ٢٠]، وبما ثبت فى الصحيحين، من حديث أبى هريرة فى قصة المسىء صلاته(٥): أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن» (٦) قالوا: فأمره بقراءة ما تيسر، ولم يعين له الفاتحة ولاغيرها، فدل على ما قلناه.

والقول الثانى: أنه تتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة، ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول بقية الأئمة: مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء؛ واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداَج» والخداج هو: الناقص كما فسَّر به فى الحديث: «غير تمام». واحتجوا ـ أيضاً ـ بما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرىّ، عن محمد بن الربيع، عن عبادة بن الصّامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»(٧). وفى صحيح ابن خزيمة وابن حبان، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن»(٨). والأحاديث فى هذا الباب كثيرة، ووجه المناظرة ههنا يطول ذكره، وقد أشرنا إلى مأخذهم فى ذلك، رحمهم الله.

ثم إن مذهب الشافعىّ وجماعة من أهل العلم: أنه تجب قراءتها فى كل ركعة. وقال آخرون: إنما تجب قراءتها فى معظم الركعات، وقال الحسن وأكثر البصريين: إنما تجب قراءتها فى ركعة واحدة من

(١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «مما يختص بحكم الفاتحة».
(٢) صحيح البخارى برقم (٧٤٩٠) وصحيح مسلم برقم (٤٤٦).
(٣) فى جـ، ط، ب: «عظمة».
(٤) فى جـ، ط، ب: «به».
(٥) فى جـ، ط: «المسىء فى صلاته».
(٦) صحيح البخارى برقم (٧٩٣) وصحيح مسلم برقم (٣٩٧).
(٧) صحيح البخارى برقم (٧٥٦) وصحيح مسلم برقم (٣٩٤).
(٨) صحيح ابن خزيمة برقم (٤٩٠) وصحيح ابن حبان برقم (٤٥٧) «موارد».

الصلوات، أخذ بمطلق الحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى: لا تتعين [١] قراءتها، بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [المزمل: ٢٠]، [كما تقدم] [٢]، والله أعلم.

وقد روى ابن ماجه من حديث أبى سفيان السعدى، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد مرفوعاً: «لا صلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة بالحمد وسورة فى فريضة أو غيرها» [٣]. وفى صحة هذا نظر، وموضح[٤] تحرير هذا كله فى كتاب الأحكام الكبير، والله أعلم.

الوجه الثالث: هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه؛ لعموم الأحاديث المتقدمة.

والثانى: لاتجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها، لا فى الصلاة الجهرية ولا السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن جابر بن عبد الله، عن النبى ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» ولكن فى إسناده ضعف[٥]. ورواه مالك، عن وهب بن كَيْسَان، عن جابر من كلامه[٦]. وقد روى هذا الحديث من طرق، ولا يصح شىء منها عن النبى ﷺ، والله أعلم.

والقول الثالث: أنه تجب القراءة على المأموم فى السرية، لما[٧] تقدم، ولا تجب[٨] فى الجهرية لما ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى موسى الأشعرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به؛ فإذا كبَّر فكبّروا، وإذا قرأ فأنصتوا» وذكر بقية الحديث[٩].

وكذا رواه أهل السنن؛ أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «وإذا قرأ فأنصتوا»[١٠]. وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضا، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعى، رحمه الله، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل[١١].

---

(١) فى جـ، ط: «لايتعين». (٢) زيادة من جـ، ط.

(٣) سنن ابن ماجة برقم (٨٣٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٢٩١): «هذا إسناد ضعيف، أبو سفيان السعدى واسمه طريف بن شهاب، وقيل: ابن سعد، قال ابن عبد البر: أجمعوا على ضعفه». وأبو سفيان قد توبع، تابعه قتادة، فرواه عن أبى نضرة عن أبى سعيد مرفوعاً بلفظ: «أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر» أخرجه أبو داود فى السنن برقم (٨١٨).

(٤) فى جـ، ط: «وموضع».

(٥) رواه أحمد فى المسند (٣/ ٣٣٩) وقد أطنب الإمام الزيلعى فى الكلام على طرق هذا الحديث فى كتابه «نصب الراية» (٢/ ٦ـ١٤) مما أغنى عن ذكره ههنا.

(٦) رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢/ ١٦٠) من طريق مالك، وقال: «هذا هو الصحيح عن جابر من قوله: غير مرفوع».

(٧) فى جـ: «كما». (٨) فى جـ، ط، ب: «ولا تجب ذلك».

(٩) صحيح مسلم برقم (٤١٤).

(١٠) سنن أبى داود برقم (٦٠٤) وسنن النسائى (٢/ ١٤١، ١٤٢) وسنن ابن ماجة برقم (٨٤٦) قال أبو داود: «وهذه الزيادة: «وإذا قرأ فأنصتوا» ليست بمحفوظة، الوهم عندنا من أبى خالد». وقد صحح هذه الزيادة مسلم فى صحيحه، وتعقبه الدارقطنى فى التتبع (ص ٢٣٩). وانظر جواب أبى مسعود الدمشقى فى: حاشية التتبع، وللشيخ ناصر الألبانى بحث حول هذه الزيادة فى الأرواء (٢/ ١٢١) وهو حسن.

(١١) فى جـ: «أحمد».

والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد(١) الجوهريّ، حدثنا غسان بن عبيد، عن أبى عمران الجَوْنى، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت فاتحة الكتاب و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، فقد أمنت من كل شيء إلا الموت»(٢).

الكلام على تفسير الاستعاذة(٣)

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ. وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨] وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦].

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة فى معناها، وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسى والإحسان إليه، ليرده عنه طبعهُ الطَّيب الأصل(٤) إلى الموادة(٥) والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطانى لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل؛ كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقد أقسم للوالد آدم إنه لمن الناصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال (٦) تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩] ؟

ـ قالت طائفة من القراء وغيرهم: نتعوذ بعد القراءة واعتمدوا على ظاهر سياق الآية، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة؛ وممن ذهب إلى ذلك حمزة فيما ذكره(٧) ابن قلوقا عنه، وأبو حاتم السجستانى، حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن على بن جُبارة الهذلى المغربى فى كتابه «الكامل». وروى عن أبى هريرة ـ أيضا ـ وهو غريب.

---

(١) فى جـ: «سعد».

(٢) مسند البزار برقم (٣١٠٩) «كشف الأستار» وفيه غسان بن عبيد، قال ابن عدى: «الضعف على أحاديثه بينٌ» .

(٣) فى ط، أ: «الكلام على تفسير أحكام الاستعاذة»، وفى جـ: «الكلام على تفسيرها».

(٤) فى جـ: «الأصيل»

(٥) فى جـ، أ، ط: «الموالاة».

(٦) فى جـ، ط : «وقال الله» .

(٧) فى جـ، ط: «فيما نقله».

[ونقله فخر الدين محمد بن عمر الرازى[١] فى تفسيره عن ابن سيرين فى رواية عنه قال: وهو قول إبراهيم النخعى وداود بن على الأصبهانى الظاهرى، وحكى القرطبى عن أبى بكر بن العربى عن المجموعة عن مالك، رحمه الله تعالى، أن القارئ يتعوذ بعد الفاتحة. واستغربه ابن العربى. وحكى قول ثالث وهو الاستعاذة أولا وآخرا جمعا بين الدليلين نقله فخر الدين[٢]][٣].

والمشهور الذى عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها، إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية عندهم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] أى: إذا أردت القراءة كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦] أى: إذا أردتم القيام. والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك؛ قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:

حدثنا محمد بن الحسن بن آتش[٤]، حدثنا جعفر بن سليمان، عن على بن على الرفاعى اليشكرى، عن أبى المتوكل الناجى، عن أبى سعيد الخدرىّ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبَّر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك». ويقول: «لا إله إلا[٥] الله» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه».

وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان، عن على بن على، وهو الرّفاعى[٦]، وقال الترمذى: هو أشهر حديث فى هذا الباب.

وقد فسِّر الهمز بالموتة وهى الخنق، والنَّفخ بالكبر، والنفث بالشعر.

كما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرّة، عن عاصم العَنَزىّ، عن نافع ابن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل فى الصلاة، قال: «الله أكبر كبيراً، ثلاثاً، الحمد لله كثيراً، ثلاثاً، سبحان الله بكرة وأصيلا، ثلاثاً؛ اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان من هَمْزه ونَفْخه ونفْثه».

قال عمرو: وهمزه الموتة، ونفخه الكِبْر، ونفثه الشعر[٧].

وقال ابن ماجه: حدثنا على بن المنذر، حدثنا ابن فُضيل، حدثنا عطاء بن السائب، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن ابن مسعود عن النبىّ ﷺ قال: «اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهَمْزه ونفخه ونفثه».

قال: همزه: الموتة، ونَفْثُه: الشعر، ونفخه: الكِبْر[٨].

(١) فى و: «الدينورى».

(٢) تفسير القرطبى (١/ ٨٨).

(٣) زيادة من ط، أ، و.

(٤) فى جميع النسخ والمسند: «أنس» والصواب ما أثبتناه.

(٥) فى جـ، ب، و: «ويقول: الله أكبر».

(٦) المسند (٣/ ٥٠) وسنن أبى داود برقم (٧٧٥) وسنن الترمذى برقم (٢٤٢) وسنن النسائى (٢/ ١٣٢) وسنن ابن ماجة برقم (٨٠٤).

(٧) سنن أبى داود برقم (٧٦٤) وسنن ابن ماجة برقم (٨٠٧) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٤٤٣) من طريق شعبة به.

(٨) سنن ابن ماجة برقم (٨٠٨) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (٤٧٢) من طريق محمد بن فضيل به، وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٢٨٥): «هذا إسناد ضعيف، عطاء بن السائب اختلط بآخره، وسمع منه محمد بن الفضيل بعد الاختلاط».

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا شريك، عن يعلى بن عطاء، عن رجل حدثه: أنه سمع أبا أمامة الباهلى يقول: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبَّر ثلاثاً، ثم قال: «لا إله إلا الله»، ثلاث مرات، «وسبحان الله وبحمده»، ثلاث مرات. ثم قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»(١).

وقال الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده: حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان الكوفى، حدثنا على بن هاشم بن البريد، عن يزيد بن زياد، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أبى بن كعب، قال: تلاحى رجلان عند النبى ﷺ، فَتَمزَّع أنف أحدهما غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إنى لأعلم شيئاً لو قاله ذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة، عن يوسف بن عيسى المروزى، عن الفضل بن موسى، عن يزيد بن زياد بن أبى الجعد(٢)، به(٣).

وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل، عن أبى سعيد، عن زائدة، وأبو داود عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، والترمذى، والنسائى فى اليوم والليلة عن بُنْدَار، عن ابن مهدى، عن الثورى، والنسائى ـ أيضاً ـ من حديث زائدة بن قدامة، ثلاثتهم عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن معاذ بن جبل، قال: استَبَ رجلان عند النبى ﷺ، فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى خُيِّل إلىّ أن أحدهما يَتَمزّع أنفه من شدة غضبه، فقال النبىّ ﷺ: «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب» قال: ما هى يا رسول الله؟، قال: «يقول: اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم». قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى [ومحك](٤)، وجعل يزداد غضباً. وهذا لفظ أبى داود(٥).

وقال الترمذى: مرسل، يعنى أن عبد الرحمن بن أبى ليلى لم يلق معاذ بن جبل، فإنه مات قبل سنة عشرين.

قلت: وقد يكون عبد الرحمن بن أبى ليلى سمعه من أبىّ بن كعب، كما تقدم وبلغه عن معاذ ابن جبل، فإن هذه القصة شهدها غير واحد من الصحابة، رضى الله عنهم.

قال البخارى: حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عدى بن ثابت، قال: قال سليمان بن صُرَد: استب رجلان عند النبى ﷺ، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضَباً قد احمر وجهه، فقال النبى ﷺ: «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد،

---

(١) المسند (٥/ ٢٥٣).

(٢) فى أ: «الجعدية».

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٢٢٣).

(٤) زيادة من جـ، ط، ب وأبى داود، وفى أ، و «ومحل».

(٥) المسند (٥/ ٢٤٤) وسنن أبى داود برقم (٤٧٨٠) وسنن الترمذى برقم (٣٤٥٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٢٢١، ١٠٢٢٢).

لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله[١] ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون[٢].

وقد رواه ـ أيضاً ـ مع مسلم، وأبي داود، والنسائي، من طرق متعددة، عن الأعمش، به[٣].

وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها ههنا، وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال، والله أعلم. وقد رُوِيَ أن جبريل، عليه السلام، أوّل ما نزل بالقرآن على رسول الله ﷺ أمره بالاستعاذة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد، استعذ. قال: «أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم»، ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد ﷺ، بلسان جبريل[٤].

وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً، والله أعلم.

مسألة: وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة يأثم تاركها، وحكى فخر الدين عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كفى في إسقاط الوجوب، واحتج فخر الدين لعطاء بظاهر الآية: ﴿فَاسْتَعِذْ﴾، وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبي ﷺ عليها، ولأنها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب. وقال بعضهم: كانت واجبة على النبي ﷺ دون أمته، وحكى عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ لقيام شهر رمضان في أول ليلة منه.

مسألة: وقال الشافعي في الإملاء: يجهر بالتعوذ، وإن أسر فلا يضر. وقال في الأم بالتخيير لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة، واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى: هل يستحب التعوذ فيها؟ على قولين، ورجح عدم الاستحباب، والله أعلم. فإذا قال المستعيذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة وزاد[٥] بعضهم: أعوذ بالله السميع العليم، وقال آخرون: بل يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إن الله هو السميع العليم،قاله الثوري والأوزاعي وحكى عن بعضهم أنه يقول: أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم لمطابقة أمر الآية ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور والأحاديث الصحيحة، كما تقدم، أولى بالاتباع من هذا، والله أعلم.

مسألة: ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة وهو قول أبي حنيفة ومحمد. وقال أبو يوسف:

---

(١) في جـ، ط: «النبي».

(٢) صحيح البخاري برقم (٦١١٥).

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦١٠) وسنن أبي داود برقم (٤٧٨١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٢٢٤، ١٠٢٢٥).

(٤) تفسير الطبري (١/١١٣).

(٥) في أ: «وقرأ».

بل للصلاة، فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ، ويتعوذ فى العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد، والجمهور بعدها قبل القراءة.

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطييب له وتهيؤ لتلاوة كلام الله وهى استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطنى الذى لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذى خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات القرآن فى ثلاث من المثانى، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشرى يوم بدر، ومن قتله العدو البشرى كان شهيداً، ومن قتله العدو الباطنى كان طريداً، ومن غلبه العدو الظاهر كان مأجوراً، ومن قهره العدو الباطن كان مفتونا أو موزوراً، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذى يراه ولا يراه الشيطان.

فصل: والاستعاذة هى الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر، والعياذة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبى:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره(١)

فصل
معنى الاستعاذة

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أى: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرنى فى دينى أو دنياى، أو يصدنى عن فعل ما أمرت به، أو يحثنى على فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته(٢) بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عمّا هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه، وهذا المعنى فى ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله فى الأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى فى سورة «قد أفلح المؤمنون»: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨]، وقال تعالى فى سورة «حم السجدة»: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا

---

(١) ذكر البيتين الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (١١/ ٢٧٥) وقال: «وقد بلغنى عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ رحمه الله ـ أنه كان ينكر على المتنبى هذه المبالغة فى مخلوق ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأخبرنى العلامة شمس الدين ابن القيم ـ رحمه الله ـ أنه سمع الشيخ تقى الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين فى السجود أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع».

(٢) فى جـ: «بمداراته».

السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦].

والشيطان فى لغة العرب مشتق من شَطَن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح فى المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب؛ قال أمية بن أبى الصلت فى ذكر ما أوتى سليمان، عليه[1] السلام:

أيما شاطنٍ عصاه عكاه ... ثُمّ يُلْقى فى السِّجْن والأغلال[2]

فقال: أيما شاطن، ولم يقل: أيما شائط.

وقال النابغة الذبيانى ـ وهو: زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضِباب بن يربوع بن مرة بن سعد بن ذُبْيان ـ:

نأت بسعاد عنك نَوًى شَطُونُ ... فبانت والفؤادُ بها رَهِينُ[3]

يقول: بعدت بها طريق بعيدة.

[وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فَعَلَ فِعْلَ الشيطان ولو كان من شاط لقالوا: تشيط][4].

والشيطان[5] مشتق من البعد على[6] الصحيح؛ ولهذا يسمون كل ما[7] تمرد من جنى وإنسى وحيوان شيطاناً، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفى مسند الإمام أحمد، عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن»، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم»[8].

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر ـ أيضاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود». فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر[9]؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان»[10].

وقال ابن وهب: أخبرنى هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، ركب برْذوناً، فجعل يتبختر به، فجعل لا يضربه فلا يزداد إلا تبختراً، فنزل عنه، وقال: ما حملتمونى[11] إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسى. إسناده[12] صحيح[13].

---

(١) فى جـ، ب: «عليه الصلاة والسلام».
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ١١٢) واللسان، مادة «عكا» ومادة «شطن».
(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ١١٢).
(٤) زيادة من جـ، ط.
(٥) فى جـ، ط، ب: «فالشيطان».
(٦) فى جـ، ط: «وهو».
(٧) فى جـ، ط، ب: «من».
(٨) المسند (٥/ ١٧٨).
(٩) فى جـ، ط، ب، أ، و: «من الأصفر».
(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ١١١).
(١١) فى ب: «ما حملتمون».
(١٢) فى ط، ب، أ، و: «إسناد».
(١٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ١١١).

والرّجيم: فعيل بمعنى مفعول، أى: إنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ. لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

[وقيل: رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرجم الناس بالوسواس والربائث والأول أشهر][١].

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) ﴾

افتتح بها الصحابةُ كتاب الله، واتّفق العلماء على أنها بعض آية من سورةَ النمل، ثمّ اختلفوا: هل هى آية مستقلة فى أوّل كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت فى أوّلها، أو أنها بعض آية من أوّل كل سورة، أو أنها كذلك فى الفاتحة دون غيرها، أو أنها [إنما][٢] كتبت للفصل، لا أنها[٣] آية؟ على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً، وذلك مبسوط فى غير هذا الموضع.

وفى سنن أبى داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾.

وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابورى فى مستدركه أيضاً [٤]، وروى مرسلا عن سعيد بن جُبَيْر. وفى صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة فى أول الفاتحة فى الصلاة وعدّها آية، لكنه من رواية عمر بن هارون البلخى، وفيه ضعف، عن ابن جُرَيْج، عن ابن أبى مُلَيْكَة، عنها[٥].

وروى له الدارقطنى متابعاً، عن أبى هريرة مرفوعاً [٦]. وروى مثله عن على وابن عباس وغيرهما[٧].

وممن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلىّ. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبير، ومكحول، والزهرى، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، فى رواية عنه، وإسحاق بن راَهويَه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله.

---

(١) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٢) زيادة من جـ، ط، ب. (٣) فى أ: «لأنها».

(٤) سنن أبى داود برقم (٧٨٨) والمستدرك (١/ ١٣١) من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضى الله عنه.

(٥) صحيح ابن خزيمة برقم (٤٩٣).

(٦) سنن الدارقطنى (١/ ٣٠٩، ٣١٠) من ثلاث طرق كلها معلولة.

(٧) سنن الدارقطنى (١/ ٣٠٢) عن على بن أبى طالب، وطرقه كلها ضعيفة، و(١/ ٣٠٣) عن ابن عباس من طريقين ضعيفين، وسيأتى كلام العلماء على الجهر بالبسملة وهذا مقرع عليه.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقال الشافعي فى قول، فى بعض طرق مذهبه: هى آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريبان .

وقال داود: هى آية مستقلة فى أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل. وحكاه أبو بكر الرازى، عن أبى الحسن الكرخى، وهما من أكابر أصحاب أبى حنيفة، رحمهم الله[١].

هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا .

فأمَّا ما يتعلق بالجهر بها، فمفرّع على هذا؛ فمن رأى أنها ليست منها فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من[٢] أولها، وأمَّا من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا؛ فذهب الشافعى، رحمه الله، إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً[٣]، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، وحكاه ابن عبد البر، والبيهقى عن عمر وعلىّ، ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ، وهو غريب. ومن التابعين عن سعيد بن جبير، وعِكْرِمة، وأبى قِلاَبة، والزهرى، وعلىّ بن الحسين، وابنه محمد، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وسالم، ومحمد بن كعب القرظى، وأبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وأبى وائل، وابن سيرين، ومحمد بن المُنْكَدِر، وعلى بن عبد الله بن عباس، وابنه محمد، ونافع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، وعمر بن عبد العزيز، والأزرق بن قيس، وحبيب بن أبى ثابت، وأبى الشعثاء، ومكحول، وعبد الله بن مَعْقِل بن مُقَرِّن. زاد البيهقىّ: وعبد الله بن صفوان، ومحمد بن الحنفية. زاد ابن عبد البر: وعمرو بن دينار.

والحُجَّة فى ذلك أنها بعض الفاتحة، فيجهر بها كسائر أبعاضها، وأيضاً فقد روى النسائى فى سننه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما، والحاكم فى مستدركه، عن أبى هريرة: أنه صلى فجهر فى قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إنى لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ. وصححه الدارقطنى والخطيب والبيهقى وغيرهم[٤].

وروى أبو داود والترمذى، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال الترمذى: وليس إسناده بذاك[٥].

وقد رواه الحاكم فى مستدركه، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح[٦]. وفى صحيح البخارى، عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة

---

(١) ولشيخ الإسلام ابن تيمية تفصيل فى هذه المسألة، فراجعه فى: الفتاوى (٢٢/ ٤٣٨ ـ ٤٤٣).

(٢) فى جـ، ط، ب: «فى». (٣) فى جـ، ط، ب، أ، و: «خلفًا وسلفا».

(٤) سنن النسائى (٢/ ١٣٤) وصحيح ابن خزيمة برقم (٤٩٩) وصحيح ابن حبان برقم (٤٥٠) «موارد» والمستدرك (١/ ٢٣٢).

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٤٥).

(٦) المستدرك (١/ ٢٠٨) وفى إسناده عبد الله بن عمرو بن حسان، كذبه الدارقطنى، وقال على بن المدينى: يضع الحديث؛ لذلك تعقب الذهبى الحاكم على تصحيحه فقال: «ابن حسان كذبه غير واحد، ومثل هذا لا يخفى على المصنف» ـ أى الحاكم.

رسول الله ﷺ فقال: كانت قراءته مدا، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم[١].

وفى مسند الإمام أحمد، وسنن أبى داود، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم، عن أم سلمة، قالت[٢]: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وقال الدارقطنى: إسناده صحيح[٣].

وروى الشافعى، رحمه الله، والحاكم فى مستدركه، عن أنس: أن معاوية صلى بالمدينة، فترك البسملة، فأنكر عليه من حضر من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرّة الثانية بسمل[٤].

وفى هذه الأحاديث، والآثار التى أوردناها كفاية ومقنع فى الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارضات والروايات الغريبة، وتطريقها، وتعليلها وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة فى الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبدالله ابن مغفل، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبى حنيفة، والثورى، وأحمد بن حنبل.

وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ البسملة بالكلية، لا جهراً ولا سراً، واحتجوا بما فى صحيح مسلم، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين[٥]. وبما فى الصحيحين، عن أنس بن مالك، قال: صلَّيْتُ خلف النبىّ ﷺ، وأبى بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين. ولمسلم: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم فى أوّل قراءة ولا فى آخرها[٦]. ونحوه فى السنن عن عبد الله بن مُغَفَّل، رضى الله عنه[٧].

فهذه مآخذ الأئمة، رحمهم الله، فى هذه المسألة وهى قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر، ولله الحمد والمنة[٨].

فصل
فى فضلها

قال الإمام العالم الحبر العابد أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم، رحمه الله، فى تفسيره:

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٦).
(٢) فى جـ، ط، ب: «أنها قالت».
(٣) المسند (٦/ ٣٠٢) وسنن أبى داود برقم (١٤٦٦) والمستدرك (٢/ ١٣١).
(٤) المستدرك (١/ ٢٣٣).
(٥) صحيح مسلم برقم (٤٩٨).
(٦) صحيح البخارى برقم (٧٤٣) وصحيح مسلم برقم (٣٩٩).
(٧) سنن الترمذى برقم (٢٤٤) وسنن النسائى (٢/ ١٣٥) وسنن ابن ماجة برقم (١٨٥).
(٨) لشيخ الإسلام ابن تيمية كلام متين فى هذه المسألة راجعه فى: الفتاوى (٢٢/ ٤١٠ ـ ٤٣٧)، وانظر الكلام على أحاديث الباب موسعاً فى: نصب الراية للزيلعى (١/ ٣٢٣ ـ ٣٦٢).

حدثنا أبى، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا زيد بن المبارك الصنعانى، حدثنا سلام بن وهب الجَنَدىّ، حدثنا أبى، عن طاوس، عن ابن عباس؛ أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم. فقال: «هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر، إلا كما بين سواد العينين وبياضهما[١] من القرب».

وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْدُوْيه، عن سليمان بن أحمد، عن علىّ بن المبارك، عن زيد بن المبارك، به[٢].

وقد روى الحافظ ابن مَرْدُوْيه من طريقين، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن مسْعَر، عن عطية، عن أبى سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتَّاب ليعلمه، فقال المعلم: اكتب، قال[٣]: ما أكتب؟ قال: بسم الله، قال له عيسى: وما باسم الله؟ قال المعلم: ما أدرى[٤]. قال له عيسى: الباء بَهاءُ الله، والسين سناؤه، والميم مملكته، والله إله الآلهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة».

وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن العلاء، الملقب: زِبْرِيق، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن أبى مُلَيْكة، عمن حدثه، عن ابن مسعود، ومسعر، عن عطية، عن أبى سعيد، عن النبىّ ﷺ، فذكره[٥]. وهذا غريب جداً، وقد يكون صحيحاً إلى من دون رسول الله ﷺ، ويكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات، والله أعلم.

وقد روى جُوَيبر[٦]، عن الضحَّاك، نحوه من قبله.

وقد روى ابن مَرْدُوْيه، من حديث يزيد بن خالد، عن سليمان بن بريدة، وفى رواية عن عبد الكريم أبى[٧] أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه؛ أن رسول الله[٨] ﷺ قال: «أنزلت علىّ آية لم تنزل على نبى غير سليمان بن داود وغيرى، وهى بسم الله الرحمن الرحيم»[٩].

وروى بإسناده عن عبد الكبير[١٠] بن المعافى بن عمران، عن أبيه، عن عمر بن ذَرّ، عن عطاء ابن أبى رباح، عن جابر بن عبد الله، قال: لما نزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هرب الغيم إلى المشرق، وسكنت الرياح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بآذانها، ورُجِمت الشياطين من السماء،

(١) فى جـ: «سواد العين وبياضها».
(٢) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٢) ورواه الخطيب فى تاريخه (٧/ ٣١٣)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٥٢) من طريق زيد بن المبارك به. وقال الذهبى فى ترجمة سلام بن وهب فى الميزان (٢/ ١٨٢): «أتى بخبر منكر، بل كذب» ثم ساق هذا الخبر.
(٣) فى جـ: «فقال». (٤) فى جـ: «لا أدرى».
(٥) تفسير الطبرى (١/ ١٢١) ورواه ابن عدى فى الكامل (١/ ٣٠٣) بمثل طريق الطبرى وقال: «هذا حديث باطل الإسناد لا يرويه غير إسماعيل». أ. هـ. وانظر: حاشية الشيخ أحمد شاكر على تفسير الطبرى.
(٦) فى جـ: «جبير». (٧) فى جـ: «بن». (٨) فى جـ: «النبى».
(٩) ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره من طريق عبد الكريم بن أبى أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه به مرفوعاً، ورواه الدارقطنى فى السنن (١/ ٣١٠) من طريق عبد الكريم بن أبى أمية به، قال الحافظ ابن كثير: «هذا حديث غريب، وإسناده ضعيف» وسيأتى عند تفسير الآية: ٣٠ من سورة النمل.
(١٠) فى هـ: «عبد الكريم»، والتصويب من جـ، ط، ب، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم.

وحلف الله تعالى بعزته وجلاله[(١)] ألا يسمى اسمه على شىء إلا بارك فيه[(٢)].

[وقال وكيع عن الأعمش عن أبى وائل عن ابن مسعود قال: من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، ليجعل الله له من كل حرف منها جنة من كل واحد، ذكره ابن عطية والقرطبى[(٣)] ووجهه ابن عطية ونظره بحديث: «فقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها»[(٤)] لقول الرجل: ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفا وغير ذلك][(٥)].

وقال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم، قال: سمعت أبا تميمة يحدث، عن رديف النبى ﷺ قال: عثر بالنبى ﷺ، فقلت: تَعس الشيطان. فقال النبى ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان. فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم، وقال: بقوتى صرعته، وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب».

هكذا وقع فى رواية الإمام أحمد[(٦)]، وقد روى[(٧)] النسائى فى اليوم والليلة، وابن مَرْدُويه فى تفسيره، من حديث خالد الحذاء، عن أبى تميمة وهو الهجيمى، عن أبى المَليح بن أسامة بن عمير، عن أبيه، قال: كنت رديف النبى ﷺ، فذكره، وقال: «لا تقل هكذا، فإنه يتعاظم حتى يكون كالبيت، ولكن قل: بسم الله، فإنه يصغر حتى يكون كالذبابة»[(٨)].

فهذا من تأثير بركة باسم الله؛ ولهذا تستحب فى أوّل كل عمل وقول. فتستحب فى أوّل الخطبة لما جاء: «كل أمر[(٩)] لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجذم»[(١٠)]، [وتستحب البسملة عند دخول الخلاء ولما ورد من الحديث فى ذلك[(١١)]][(١٢)]، وتستحب فى أوّل الوضوء لما جاء فى مسند الإمام أحمد والسنن، من رواية أبى هريرة، وسعيد بن زيد، وأبى سعيد مرفوعاً: «لا وضوء لمن لم

(١) فى جـ: «وبجلاله».
(٢) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/٢٦) للثعلبى فى تفسيره.
(٣) المحرر الوجيز لابن عطية (١/٥٤).
(٤) الحديث رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٩٩) من حديث رفاعة بن رافع رضى الله عنه.
(٥) زيادة من ط، ب، أ، و.
(٦) المسند (٥/٥٩).
(٧) فى جـ، ط، ب: «رواه».
(٨) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٣٨٩) ورواه من طريق ابن المبارك عن خالد الحذاء، عن أبى تميمة، عن أبى المليح، عن ردف رسول الله ﷺ، وقال النسائى: «وهو الصواب».
(٩) فى و: «خطبة».
(١٠) رواه بهذا اللفظ الخطيب فى «الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع» (٢/١٢٨) من طريق مبشر بن إسماعيل، عن الأوزاعى، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، وللشيخ أحمد الغمارى رسالة سماها: «الاستعاذة والحسبلة ممن صحح حديث البسملة» بين فيها ضعف هذا الحديث، بعد أن جمع طرقه، وهى رسالة قيمة فلتراجع.
(١١) جاء من حديث على، وأنس، رضى الله عنهما، أما حديث على، فقد رواه الترمذى فى السنن برقم (٦٠٦) من طريق خلاد الصفار عن الحكم، عن أبى إسحاق، عن أبى جحيفة، عن على، رضى الله عنه، مرفوعاً بلفظ: «ستر ما بين أعين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل أحدهم الخلاء أن يقول: بسم الله». وأما حديث أنس، فيرويه العمرى عن عبد العزيز بن المختار بن صهيب عن أنس مرفوعاً بلفظ: «إذا دخلتم الخلاء فقولوا: بسم الله، أعوذ بالله من الخبث والخبائث» والحديث فى الصحيحين من دون هذه الزيادة.
(١٢) زيادة من جـ، ط، أ، و.

يذكر اسم الله عليه»(١)، وهو حديث حسن. ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا، ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً، وكذا تستحب عند الذبيحة فى مذهب الشافعى وجماعة، وأوجبها آخرون عند الذكر، ومطلقاً فى قول بعضهم، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله، وقد ذكر الرازى فى تفسيره فى فضل البسملة أحاديث منها: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أتيت أهلك فسم الله؛ فإنه إن وجد لك ولد كتب لك بعدد أنفاسه وأنفاس ذريته حسنات». وهذا لا أصل له، ولا رأيته فى شيء من الكتب المعتمد عليها ولا غيرها.

وهكذا تستحب عند الأكل لما فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبه عمر بن أبى سلمة: «قل: باسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»(٢). ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه، وكذلك تستحب عند الجماع لما فى الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً»(٣).

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة فى تقدير المتعلق بالباء فى قولك: باسم الله، هل هو اسم أو فعل متقاربان وكل قد ورد به القرآن؛ أما من قدره باسم، تقديره: باسم الله ابتدائي، فلقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، ومن قدره بالفعل [أمراً وخبراً نحو: ابدأ ببسم الله أو ابتدأت ببسم الله](٤)، فلقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لابُدّ له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذى سميت قبله، إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءة أو وضوءاً أو صلاة، فالمشروع ذكر [اسم](٥) الله فى الشروع فى ذلك كله، تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل، والله أعلم؛ ولهذا روى ابن جرير وابن أبى حاتم، من حديث بشر بن عُمَارة، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: إن أول ما نزل به جبريل على محمد(٦) ﷺ قال: يا محمد قل: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾». قال: قال له جبريل: قل: باسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بذكر الله ربك، وقم، واقعد بذكرِ الله. [هذا](٧) لفظ ابن جرير(٨).

وأما مسألة الاسم: هل هو المسمى أو غيره؟ ففيها للناس ثلاثة أقوال:

[أحدها: أن الاسم هو المسمى، وهو قول أبى عبيدة وسيبويه، واختاره الباقلانى وابن فورك، وقال فخر الدين الرازى ـ وهو محمد بن عمر المعروف بابن خطيب الرى ـ فى مقدمات تفسيره:

---

(١) أما حديث أبى هريرة، فرواه أحمد فى المسند (٤١٨/٢) وأبو داود فى السنن برقم (١٠١) وابن ماجة فى السنن برقم (٣٩٩)، وأما حديث سعيد بن زيد، فرواه الترمذى فى السنن برقم (٢٥)، وأما حديث أبى سعيد، فرواه أحمد فى المسند (٤١/٣) وابن ماجة فى السنن برقم (٣٩٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٠٢٢) وهو فى صحيح البخارى برقم (٥٣٧٦).

(٣) صحيح البخارى برقم (١٤١) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٤).

(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٥) زيادة من جـ، ط، ب.

(٦) فى جـ: «على رسوله».

(٧) زيادة من جـ.

(٨) تفسير الطبرى (١١٧/١) وفى إسناده ضعفاً وانقطاعاً تقدم بيانه.

قالت الحشوية والكرامية والأشعرية: الاسم نفس المسمى وغير التسمية، وقالت المعتزلة: الاسم غير المسمى ونفس التسمية، والمختار عندنا: أن الاسم غير المسمى وغير التسمية، ثم نقول: إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذى هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة، فالعلم الضرورى حاصل أنه غير المسمى وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى، فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات وهو عبث، فثبت أن الخوض فى هذا البحث على جميع التقديرات يجرى مجرى العبث.

ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى، بأنه قد يكون الاسم موجوداً والمسمى مفقوداً كلفظة المعدوم وبأنه قد يكون للشىء أسماء متعددة كالمترادفة وقد يكون الاسم واحداً والمسميات متعددة كالمشترك، وذلك دال على تغاير الاسم والمسمى، وأيضاً فالاسم لفظ وهو عرض والمسمى قد يكون ذاتاً ممكنة أو واجبة بذاتها، وأيضاً فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد اللافظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك، ولا يقوله عاقل، وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال النبى ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً»[1]، فهذه أسماء كثيرة والمسمى واحد وهو الله تعالى، وأيضاً فقوله: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ أضافها إليه، كما قال: ﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦]، ونحو ذلك. والإضافة تقتضى المغايرة وقوله: ﴿**فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ أى: فادعوا الله بأسمائه، وذلك دليل على أنها غيره، واحتج من قال: الاسم هو المسمى، بقوله تعالى: ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ**﴾ [الرحمن: ٧٨] والمتبارك هو الله. والجواب: أن الاسم معظم لتعظيم الذات المقدسة، وأيضا فإذا قال الرجل: زينب طالق، يعنى امرأته طالق، طلقت، ولو كان الاسم غير المسمى لما وقع الطلاق. والجواب: أن المراد أن الذات المسماة بهذا الاسم طالق. قال الرازى: وأما التسمية فإنها جعل الاسم معيناً لهذه الذات فهى غير الاسم أيضاً، والله أعلم][2].

﴿**اللَّهِ**﴾: عَلَمٌ على الرب تبارك وتعالى، يقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾، وقال تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفى الصحيحين، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»[3]، وجاء تعدادها فى رواية الترمذى، [وابن

---

(١) سيأتى تخريجه فى التخريج التالى.

(٢) زيادة من ط، أ، و.

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٣٩٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٧).

ماجه[١]، وبين[٢] الروايتين اختلاف زيادات ونقصان، وقد ذكر فخر الدين الرازى فى تفسيره عن بعضهم أن لله خمسة آلاف اسم: ألف فى الكتاب والسنة الصحيحة، وألف فى التوراة، وألف فى الإنجيل، وألف فى الزبور، وألف فى اللوح المحفوظ][٣].

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى؛ ولهذا لا يعرف فى كلام العرب له اشتقاق من فعل ويفعل، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له. وقد نقل القرطبى عن جماعة من العلماء منهم الشافعى والخطابى وإمام الحرمين والغزالى وغيرهم،وروى عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة. قال الخطابى: ألا ترى أنك تقول: يا آلله،ولا تقول: يا الرحمن، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام[٤]. وقيل: إنه مشتق، واستدلوا عليه بقول رؤبَة بن العَجّاج:

لله در الغانيات المُدّه سبحن واسترجعن من تألهى[٥]

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التأله، من أله يأله إلاهة وتألهاً، كما روى أن ابن عباس قرأ: «ويذرك وَإلا هتَك» قال: عبادتك، أى:أنه كان يُعْبَدُ ولا يَعْبُد، وكذا قال مجاهد وغيره.

وقد استدل بعضهم على كونه مشتقاً بقوله: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾ [الأنعام:٣] أى المعبود فى السموات والأرض، كما قال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَه ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ونقل سيبويه عن الخليل: أن أصله: إلاه، مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة. قال سيبويه : مثل الناس، أصله: أناس، وقيل: أصل الكلمة: لاه، فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه. قال الشاعر:

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب عنى ولا أنت ديانى فتخزونى[٦]

قال القرطبى: بالخاء المعجمة، أى: فتسوسنى، وقال الكسائى والفراء: أصله: الاله حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية، كما قال: ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ [الكهف: ٣٨] أى: لكن أنا، وقد قرأها كذلك الحسن، قال القرطبى: ثم قيل: هو مشتق من وله: إذا تحير، والوله ذهاب العقل؛ يقال: رجل واله، وامرأة ولهى، وماء موله: إذا أرسل فى الصحارى، فالله تعالى تتحير أولو الألباب والفكر فى حقائق صفاته، فعلى هذا يكون أصله: ولاه، فأبدلت الواو همزة، كما قالوا فى وشاح: أشاح، ووسادة: أسادة، وقال فخر الدين الرازى: وقيل: إنه مشتق من ألهت إلى فلان، أى: سكنت إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته؛ لأنه الكامل على الإطلاق دون

(١) سنن الترمذى برقم (٣٥٠٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣٨٦١) ورواية الترمذى متكلم فيها.
(٢) فى و: «وفى».
(٣) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٤) تفسير القرطبى (١/ ١٠٣).
(٥) البيت فى اللسان، مادة «مده» وفى تفسير الطبرى (١/ ١٢٣).
(٦) البيت لذى الإصبع العدوانى، وهو من شواهد ابن عقيل برقم (٢٠٨) على شرح الألفية، ولسان العرب، مادة «لاه».

غيره قال الله تعالى: ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨] قال: وقيل: من لاه يلوه: إذا احتجب. وقيل: اشتقاقه من أله الفصيل: إذ ولع بأمه، والمعنى: أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه فى كل الأحوال، قال: وقيل:مشتق من أله الرجل يأله: إذا فزع من أمر نزل به فألهه، أى: أجاره، فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:٨٨]، وهو المنعم لقوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وهو المطعم لقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وهو الموجد لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد اختار فخر الدين أنه اسم علم مشتق البتة، قال: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء، ثم أخذ يستدل على ذلك بوجوه:

منها: أنه لو كان مشتقاً لاشترك فى معناه كثيرون، ومنها: أن بقية الأسماء تذكر صفات له، فتقول: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس، فدل أنه ليس بمشتق، قال: فأما قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .اللَّهِ ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]،على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان، ومنها قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]،وفى الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامداً غير مشتق نظر، والله أعلم.

وحكى فخر الدين عن بعضهم أنه ذهب إلى أن اسم الله تعالى عبرانى لاعربى، ثم ضعفه، وهو حقيق بالتضعيف كما قال، وقد حكى فخر الدين هذا القول ثم قال: واعلم أن الخلق قسمان: واصلون إلى ساحل بحر المعرفة، ومحرومون قد بقوا فى ظلمات الحيرة وتيه الجهالة؛ فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم؛ وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عرصة النور وفسحة الكبرياء والجلال، فتاهوا فى ميادين الصمدية، وبادوا فى عرصة الفردانية، فثبت أن الخلق كلهم والهون فى معرفته، وروى عن الخليل بن أحمد أنه قال: لأن الخلق يألهون إليه بنصب اللام وجرها لغتان، وقيل: إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شىء مرتفع: لاها، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت.

وأصل ذلك الإله، فحذفت الهمزة التى هى فاء الكلمة، فالتقت اللام التى هى عينها مع اللام الزائدة فى أولها للتعريف فأدغمت إحداهما فى الأخرى، فصارتا فى اللفظ لاماً واحدة مشددة، وفخمت تعظيما، فقيل: الله.

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفى كلام ابن جرير ما يُفْهِم حكاية الاتفاق على هذا، وفى تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك، كما تقدم فى الأثر، عن عيسى، عليه السلام، أنه قال: والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة.

وقد زعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، وحكى ابن الأنبارى فى الزاهر عن المبرد: أن الرحمن اسم عبرانى ليس بعربى، وقال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن: وقال أحمد بن يحيى: الرحيم عربى، والرحمن عبرانى، فلهذا جمع بينهما. قال أبو إسحاق: وهذا القول مرغوب عنه (١). وقال القرطبى: والدليل على أنه مشتق ما خرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمى، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» (٢). قال: وهذا نص فى الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق.

قال: وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له، قال القرطبى: هما بمعنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيد، وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك: رجل غضبان، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو على الفارسى: الرحمن: اسم عام فى جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو فى جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أى أكثر رحمة، ثم حكى عن الخطابى وغيره: أنهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعله أرفق كما جاء فى الحديث: «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله وإنه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف» (٣). وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب، وهذا كما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى صالح الفارسى الخوزى عن أبى هريرة، رضى الله عنه،قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»(٤)، وقال بعض الشعراء:

لاتطلبن بنى آدم حاجة ... وسل الذى أبوابه لا تغلق (٥)

الله يغضب أن تركت سؤاله ... وبنى آدم حين يسأل يغضب

---

(١) فى أ: «فيه».

(٢) سنن الترمذى برقم (١٩٠٧) من طريق سفيان عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن عبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنه، وقال الترمذى: «حديث سفيان عن الزهرى حديث ضعيف».

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٩٣) من حديث عائشة، رضى الله عنها، ورواه أبو داود فى السنن برقم (٤٨٠٧) من حديث عبد الله بن مغفل، رضى الله عنه.

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٧٣) وسنن ابن ماجة برقم (٣٨٢٧). وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (١١/ ٩٥): «وهذا الخوزى ـ أى أبو صالح ـ مختلف فيه، ضعفه ابن معين، وقواه ابن معين، وظن الحافظ ابن كثير أنه أبو صالح السمان فجزم بأن أحمد تفرد بتخريجه، وليس كما قال، فقد جزم شيخه المزى فى الأطراف بما قلته». قلت: قد رأيت أن الحافظ هنا بين أنه الخوزى الفارسى، فأظن أن ما وقع منه إنما هو وهم.

(٥) ذكره القرطبى فى التفسير (١/ ١٠٦) غير منسوب.

قال[1] ابن جرير: حدثنا السرى بن يحيى التميمى، حدثنا عثمان بن زُفَر، سمعت العَرْزَمِيَّ يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين. قالوا: ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] وقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ [الأحزاب: ٤٣] فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة فى الرحمة لعمومها فى الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء فى الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يُسم به غيره كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾. ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به؛ فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يُضرب به المثل فى الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن؛ لأنه أكد به، والتأكيد[2] لا يكون إلا أقوى من المؤكَّد، والجواب أن هذا ليس من باب التوكيد[3]، وإنما هو من باب النعت [بعد النعت][4]، ولا يلزم فيه ما ذكروه، وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذى لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولا بالرحمن الذى منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة فى التسمى به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه فى الضلالة. وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره، حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كما وصف غيره بذلك من أسمائه فى قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [الإنسان: ٢].

والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولا إنما تكون بأشرف[5] الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة؛ فهلا اكتفى به عن الرحيم؟ فقد روى عن عطاء الخراسانى ما معناه: أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن، جىء بلفظ الرحيم ليقطع التوهم بذلك، فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى. كذا رواه ابن جرير عن عطاء. ووجهه بذلك، والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلى: «اكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخارى[6]، وفى بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ [الفرقان: ٦٠].

---

(١) فى ج، ط، ب: «وقال».
(٢) فى ج، ط: «والمؤكد».
(٣) فى ج، ط، ب: «التأكيد».
(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.
(٥) فى ج، ط، ب: «بأشهر».
(٦) صحيح البخارى برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنت فى كفرهم؛ فإنه قد وجد فى أشعارهم فى الجاهلية[١] تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجُهَّال[٢]:

ألا ضَرَبَتْ تلك الفتاةُ هَجِينَها ... ألا قَضَبَ الرحمنُ رَبى يمينها[٣]

وقال سلامة بن جندل الطهوى:

عَجِلتم علينا عَجْلَتَينَا عليكُمُ ... وما يَشَأ الرّحْمَن يَعقِد ويُطْلِق[٤]

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن: الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب، وقال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا حماد بن مَسْعَدة، عن عوف، عن الحسن، قال: الرحمن اسم ممنوع[٥].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد [بن][٦] يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنى أبو الأشهب، عن الحسن، قال: الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه، تسمى به تبارك وتعالى[٧].

وقد جاء فى حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقطع قرآنه حرفاً حرفاً ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[٨]، فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة من الكوفيين ومنهم من وصلها بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكسر الميم لالتقاء الساكنين وهم الجمهور. وحكى الكسائى عن بعض العرب أنها تقرأ بفتح الميم وصلة الهمزة فيقولون: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمَ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فنقلوا حركة الهمزة إلى الميم بعد تسكينها كما قرئ[٩] قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال ابن عطية: ولم ترد بهذا قراءة عن أحد فيما علمت[١٠].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾

القراء السبعة على ضم الدال من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهو مبتدأ وخبر. وروى عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج أنهما قالا: «الحمد لله» بالنصب وهو على إضمار فعل، وقرأ ابن أبى

(١) فى جـ، ط، ب: «فى أشعار الجاهلية».
(٢) فى جـ، ط: «الجهلاء».
(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ١٣١) غير منسوب.
(٤) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ١٣١).
(٥) تفسير الطبرى (١/ ١٣٤).
(٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٧) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٣).
(٨) رواه أحمد فى المسند (٦/ ٣٠٢) وأبو داود فى السنن برقم (٤٠٠١) من طريق ابن جريج عن ابن أبى مليكة، عن أم سلمة، رضى الله عنها، وصححه ابن خزيمة والدارقطنى.
(٩) فى أ: «فسر».
(١٠) المحرر الوجيز (١/ ٥٩، ٦٠).

عبلة: «الحمد لله» بضم الدال واللام اتباعاً للثانى الأول وله شواهد لكنه شاذ، وعن الحسن وزيد ابن على: «الحمد الله» بكسر الدال اتباعاً للأول الثانى.

قال أبو جعفر بن جرير: معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، فى تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق، وغذَّاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخراً.

[وقال ابن جرير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ثناء أثنى به على نفسه وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾](١).

قال: وقد قيل: إن قول القائل: الحمد لله، ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنى(٢)، وقوله: الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه، ثم شرع فى رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون(٢) كلا من الحمد والشكر مكان(٣) الآخر.

[وقد نقل السلمى هذا المذهب أنهما سواء عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية. وقال ابن عباس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلمة كل شاكر، وقد استدل القرطبى لابن جرير بصحة قول القائل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكراً(٤)](٥).

وهذا الذى ادعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة ... يدى ولسانى والضمير المحجبا

ولكنهم(٦) اختلفوا: أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حَمدته لفروسيته وحمدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث مَا يقعان عليه(٧)؛ لأنه يكون بالقول والعمل(٨) والنية، كما تقدم، وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إلىّ. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم.

وقال أبو نصر إسماعيل بن حَمَّاد الجوهرى: الحمد نقيض الذم، تقول: حَمِدت الرجل أحمده حمداً

---

(١) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٢) فى جـ، ط، أ، و: «بأسمائه الحسنى وصفاته العلى». (٣) فى جـ: «موضع».
(٤) تفسير القرطبى (١/ ١٣٤).
(٥) زيادة من جـ، ط، أ، و (٦) فى جـ، ط، ب، أ، و: «لكن». (٧) فى جـ، ط، ب، أ، و: «به».
(٨) فى ط، ب: «والفعل».

ومحمدة[١]، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر. وقال في الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له. وباللام أفصح[٢].

[وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي وللميت وللجماد ـ أيضا ـ كما يمدح الطعام والمال ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضاً فهو أعم][٣].

ذكر أقوال السلف في الحمد

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر القطيعي، حدثنا حفص، عن حجاج، عن ابن أبي مُلَيْكة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال عمر: قد عَلِمْنا سبحان الله، ولا إله إلا الله، فما الحمد لله؟ فقال علي: كلمة رضيها الله لنفسه[٤].

ورواه غير أبي مَعْمَر، عن حفص، فقال: قال عمر لعلي، وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، قد عرفناها، فما الحمد لله؟ قال[٥] علي: كلمة أحبها [الله][٦] لنفسه، ورضيها لنفسه، وأحب أن تقال[٧].

وقال علي بن زيد بن جُدْعَان، عن يوسف بن مِهْرَان، قال: قال ابن عباس: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شكرني عبدي.

رواه ابن أبي حاتم.

وروى ـ أيضاً ـ هو وابن جرير، من حديث بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: أنه قال: الحمد لله هو الشكر لله والاستخذاء له، والإقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك.

وقال كعب الأحبار: الحمد لله ثناء الله. وقال الضحاك: الحمد لله رداء الرحمن. وقد ورد الحديث بنحو ذلك.

قال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السَّكوني، حدثنا بقية بن الوليد، حدثني عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير، وكانت له صحبة قال: قال النبي ﷺ: «إذا

---

(١) في جـ: «حمداً ومجدته» وفي ط: «حمداً فهو حميد».

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة «حمد».

(٣) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٤).

(٥) في ط، ب: «فقال».

(٦) زيادة من جـ، ط.

(٧) رواه الأشج عن حفص، لكنه خالفه فيه، وصنيع الحافظ هنا يفيد أنه لا مخالفة قال ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٥): «كذا رواه أبو معمر القطيعي عن حفص، وحدثنا به الأشج فقال: ثنا حفص ـ وخالفه فيه ـ فقال فيه: قال عمر لعلي، رضي الله عنهما، وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، والحمد لله، والله أكبر قد عرفناها، فما سبحان الله؟ فقال علي: كلمة أحبها لنفسه، ورضيها لنفسه، وأحب أن تقال». وكلام الحافظ يفيد أنه لا مخالفة، فلعله اطلع عليه من رواية أخرى أو أنه سقط نظر، والله أعلم.

قلت: الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله، فزادك»(١).

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا روح، حدثنا عوف، عن الحسن، عن الأسود بن سريع، قال: قلت: يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربى، تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إن ربك يحب الحمد»(٢).

ورواه النسائى، عن على بن حجر، عن ابن علية، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن الأسود ابن سريع، به(٣).

وروى الترمذى، والنسائى وابن ماجه، من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير، عن طلحة بن خراش، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»(٤).

وقال الترمذى: حسن غريب.

وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ»(٥). قال القرطبى فى تفسيره، وفى نوادر الأصول عن أنس عن النبى ﷺ قال: «لو أن الدنيا كلها بحذافيرها فى يد رجل من أمتى ثم قال: الحمد لله، لكان الحمد لله أفضل من ذلك»(٦). قال القرطبى وغيره: أى لكان إلهامه الحمد لله أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا؛ لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى، قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦]. وفى سنن ابن ماجه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أن عبداً من عباد الله قال: يارب، لك الحمد كما ينبغى

---

(١) تفسير الطبرى (١/ ١٣٦) وفى إسناده عيسى بن إبراهيم، قال البخارى: منكر الحديث، وشيخه موسى ضعفه أبو حاتم وغيره، والحكم بن عمير قال فيه أبو حاتم: «روى عن النبى ﷺ؛ لا يذكر السماع ولا لقاء، أحاديث منكرة، من رواية ابن أخيه موسى بن أبى حبيب وهو شيخ ضعيف الحديث، ويروى عن موسى بن أبى حبيب عيسى بن إبراهيم وهو ذاهب الحديث سمعت أبى يقول ذلك» أ. هـ. مستفاداً من حاشية العلامة أحمد شاكر على تفسير الطبرى.

(٢) المسند (٣/ ٤٣٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٩٥): «رجاله رجال الصحيح» وهو منقطع، فالحسن لم يسمع من الأسود، رضى الله عنه.

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٧٤٥).

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٨٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٦٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٠٠).

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٨٠٥) من طريق أبى عاصم، عن شبيب بن بشر عن أنس به، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ١٩٢): «هذا إسناد حسن، شبيب بن بشر مختلف فيه».

(٦) قال الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢/ ٢٦٧): «موضوع»، ورواه ابن عساكر (١٥/ ٢٧٦/ ٢) عن أبى المفضل ـ محمد بن عبد الله بن محمد بن همام بن المطلب الشيبانى: حدثنى محمد بن عبد الحى بن سويد الحربى الحافظ، نا زريق، نا عمران بن موسى الجنديسابورى ـ نزيل بردعة ـ نا سورة بن زهير الغامرى ـ من أهل البصرة ـ حدثنى هشيم عن الزبير بن عدى عن أنس بن مالك مرفوعاً. وهذا موضوع آفته أبو المفضل هذا، قال الخطيب (٥/ ٤٦٦، ٤٦٧): «كان يروى غرائب الحديث وسؤالات الشيوخ، فكتب الناس عنه، بانتخاب الدارقطنى، ثم بان كذبه، فمزقوا حديثه، وأبطلوا روايته، وكان بعد يضع الأحاديث للرافضة. قال حمزة بن محمد بن طاهر الدقاق: كان يضع الحديث، وكان له سمت ووقار. وقال لى الأزهرى: كان أبو المفضل دجالاً كاذباً». ورواه ابن عساكر عنه فى ترجمة أبى المفضل هذا. ومن بينه وبين هشيم لم أعرفهم غير زريق، والظاهر أنه ابن محمد الكوفى، روى عن حماد بن زيد، قال الذهبى: «ضعفه الأمير ابن ماكولا».

لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا: يا رب، إن عبدا قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها، قال الله ـ وهو أعلم بما قال عبده ـ: ماذا قال عبدى؟ قالا: يارب إنه قد قال: يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك. فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها»[(١)]. وحكى القرطبى عن طائفة أنهم قالوا: قول العبد: الحمد لله رب العالمين، أفضل من قول: لا إله إلا الله؛ لاشتمال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد، وقال آخرون: لا إله إلا الله أفضل لأنها الفصل بين الإيمان والكفر، وعليها يقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله كما ثبت فى الحديث المتفق عليه وفى الحديث الآخر فى السنن: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[(٢)]. وقد تقدم عن جابر مرفوعاً: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». وحسنه الترمذى.

والألف واللام فى الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد، وصنوفه لله تعالى كما جاء فى الحديث: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله». الحديث[(٣)].

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والرب هو: المالك المتصرف، ويطلق فى اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح فى حق الله تعالى.

[ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة تقول: رب الدار رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم][(٤)].

والعالمين: جمع عالم، [وهو كل موجود سوى الله عز وجل][(٥)]، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات [فى السموات والأرض][(٦)] فى البر والبحر، وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً.

قال بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: [الفاتحة: ٢] الحمد لله الذى له الخلق كله، السموات والأرضون، ومن فيهن وما بينهن، مما نعلم، وما لا نعلم.

وفى رواية سعيد بن جبير، وعكرمة، عن ابن عباس: رب الجن والإنس. وكذلك قال سعيد بن

---

(١) سنن ابن ماجة برقم (٣٨٠١) من طريق صدقة بن بشير عن قدامة بن إبراهيم، عن ابن عمر رضى الله عنهما، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ١٩١): «هذا إسناد فيه مقال، قدامة بن إبراهيم ذكره ابن حبان فى الثقات، وصدقة بن بشير لم أر من جرحه ولا من وثقه، وباقى رجال الإسناد ثقات».

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٨٥) من طريق حماد بن أبى حميد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، وحماد بن أبى حميد هو محمد بن أبى حميد، وهو أبو إبراهيم الأنصارى المدينى وليس بالقوى عند أهل الحديث».

(٣) جاء من حديث أبى سعيد، وسعد بن أبى وقاص، رضى الله عنهما، أما حديث أبى سعيد، فرواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٤٠٠) من طريق خالد بن يزيد عن ابن أبى ذئب، عن زيد بن أسلم، عن عطاء، عن أبى سعيد الخدرى. وأما حديث سعد، فرواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٣٩٩) من طريق أبى بلج، عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبى وقاص.

(٤، ٥) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٦) زيادة من جـ، ط.

جبير، ومجاهد وابن جريج، وروى عن على [نحوه](١). وقال(٢) ابن أبى حاتم: بإسناد لا يعتمد عليه.

واستدل القرطبى لهذا القول بقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ١] وهم الجن والإنس. وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم: عالم، وعن زيد بن أسلم وأبى عمرو بن العلاء(٣) كل ما له روح يرتزق. وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ـ وهو آخر خلفاء بنى أمية ويعرف بالجعد ويلقب بالحمار ـ أنه قال: خلق الله سبعة عشر ألف عالم أهل السموات وأهل الأرض عالم واحد وسائر ذلك لا يعلمه(٤) إلا الله، عز وجل.

وقال قتادة: رب العالمين، كل صنف عالم.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن ابى العالية فى قوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى(٥) ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم، هو يشك، من الملائكة على الأرض، وللأرض أربع زوايا، فى كل زاوية ثلاثة آلاف عالم، وخمسمائة عالم، خلقهم [الله](٦) لعبادته. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .

[وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح](٧).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الفرات، يعنى ابن الوليد، عن معتب(٨) بن سمى، عن تُبَيع، يعنى الحميرى، فى قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين ألف أمة فستمائة فى البحر، وأربعمائة فى البر.

[وحكى مثله عن سعيد بن المسيب](٩).

وقد روى نحو هذا مرفوعاً كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى فى مسنده:

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبيد بن واقد القيسى، أبو عباد، حدثنى محمد بن عيسى بن كيسان، حدثنا محمد بن المنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله، قال: قلّ الجراد فى سنة من سنى عمر التى ولى فيها فسأل عنه، فلم يخبر بشىء، فاغتم لذلك، فأرسل راكبا يضرب إلى اليمن، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق، يسأل: هل رؤى من الجراد شىء أم لا؟ قال: فأتاه الراكب الذى من قبل اليمن بقبضة من جراد، فألقاها بين يديه، فلما رآها كبر، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و. (٢) فى ط، ب: «قاله». (٣) فى و: «أبى محيصن العالم».
(٤) فى و: «يعلمهم». (٥) فى جـ: «وما عدا». (٦) زيادة من جـ.
(٧) زيادة من جـ، ط.
(٨) كذا وقع فى النسخ وأصل تفسير ابن أبى حاتم، ووقع فى كتب الرجال «مغيث».
(٩) زيادة من جـ، ط.

«خلق الله ألف أمة، ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر، فأول شىء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلك[١] تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه»[٢].

محمد بن عيسى هذا ـ وهو الهلالى ـ ضعيف.

وحكى البغوى عن سعيد بن المسيب أنه قال: لله ألف عالَم؛ ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر. وقال وهب بن منبه: لله ثمانية عشر ألف عالَم؛ الدنيا عالم منها. وقال مقاتل: العوالم ثمانون ألفاً. وقال كعب الأحبار: لا يعلم عدد العوالم إلا الله عز وجل. نقله كله البغوى، وحكى القرطبى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: إن لله أربعين ألف عالم؛ الدنيا من شرقها إلى مغربها عالم واحد منها، وقال الزجاج: العالم كل ما خلق فى الدنيا والآخرة. قال القرطبى: وهذا هو الصحيح أنه شامل لكل العالمين؛ كقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ رَبُّ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُم مُوقِنِينَ﴾ والعالم مشتق من العلامة (قلت): لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز:

فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣﴾

وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدم الكلام عليه فى البسملة بما أغنى عن إعادته.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾

قرأ بعض القراء: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. وقرأ آخرون: ﴿مَالِكِ﴾[٣].

وكلاهما صحيح متواتر فى السبع.

[ويقال: مليك أيضاً، وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ: «ملكى يوم الدين»، وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى، وكلاهما صحيحة حسنة، ورجح الزمخشرى ملك؛ لأنها قراءة أهل الحرمين ولقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، وقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ وحكى عن أبي حنيفة أنه قرأ «ملك يوم الدين» على أنه فعل وفاعل ومفعول، وهذا غريب شاذ جدا][٤].

وقد روى أبو بكر بن أبى داود فى ذلك شيئاً غريباً حيث قال: حدثنا أبو عبد الرحمن الأَذْرَمِيُّ، حدثنا عبد الوهاب عن عدى[٥] بن الفضل، عن أبى المطرف، عن ابن شهاب: أنه بلغه أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرؤون: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وأول من حدث «ملك» مروان[٦].

قلت: مروان عنده علم بصحة ما قرأه، لم يطلع عليه ابن شهاب، والله أعلم.

وقد روى من طرق متعددة أوردها ابن مَرْدُويه أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[٧] ومالك مأخوذة من الملْك، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠] وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٢] وملك: مأخوذ من المُلْك كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَومَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ

---

(١) فى جـ، ط، ب: «هلكت».

(٢) ورواه ابن عدى فى الكامل (٦/٢٤٥)، (٥/٣٥٢) والخطيب فى تاريخه (١١/٢١٨) من طريق عبيد بن واقد به نحوه. وقال ابن عدى: «قال عمرو بن علي: محمد بن عيسى بصرى صاحب محمد بن المنكدر، ضعيف منكر الحديث، روى عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن عمر، عن النبي ﷺ فى «الجراد». وقال ابن عدى أيضاً: «عبيد بن واقد لا يتابع عليه».

(٣) فى جـ، ط، ب: قرأ بعض القراء: «مالك» وقرأ آخرون: «ملك».

(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٥) فى هـ: «عبد الوهاب بن عدى بن الفضل».

(٦) المصاحف لابن أبى داود (ص١٠٤).

(٧) ورواه أبو بكر بن أبى داود فى المصاحف (ص١٠٥) والحاكم فى المستدرك (٢/٢٣٢) من طريق ابن فضيل عن الأعمش عن أبى صالح، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قرأ: «مَلِكِ يوم الدين» زاد ابن أبى حاتم: «أو قال: «مالك». ورواه أبو بكر بن أبى داود فى المصاحف (ص١٠٥) والحاكم فى المستدرك (٢/٢٣٢) من طريق ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن أم سلمة أن النبى ﷺ كان يقرأ: «مَلِكِ يوم الدين».

﴿الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ [الفرقان: ٢٦].

وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام فى الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ [النبأ: ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾ [طه: ١٠٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقول: لا يملك أحد فى ذلك اليوم معه حكما، كملكهم فى الدنيا. قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر.

وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى أن تفسير ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: أنه القادر على إقامته، ثم شرع يضعفه.

والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم[1]، وأن كلا من القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر، ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا، كما قال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦] والقول الثانى يشبه قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، والله أعلم.

والملك فى الحقيقة هو الله عز وجل؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ﴾. وفى الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله)، وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ وفى القرآن العظيم: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فأما تسمية غيره فى الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً﴾، وفى الصحيحين: (مثل الملوك على الأسرة).

والدين: الجزاء والحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾، وقال: ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أى مجزيون محاسبون، وفى الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» أى حاسب نفسه لنفسه؛ كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾

[قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من ﴿إِيَّاكَ﴾ وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر وهى قراءة شاذة مردودة؛ لأن «إيا» ضوء الشمس. وقرأ بعضهم: «أياك» بفتح الهمزة وتشديد الياء، وقرأ بعضهم: «هياك» بالهاء بدل الهمزة، كما قال الشاعر:

فهياك والأمر الذى إن تراحبت ... موارده ضاقت عليك مصادره

و﴿نَسْتَعِينُ﴾ بفتح النون أول الكلمة فى قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش فإنهما كسراها وهى لغة بنى أسد وربيعة وبنى تميم وقيس][2].

العبادة فى اللغة من الذلة، يقال: طريق مُعَبّد، وبعير مُعَبّد، أى: مذلل، وفى الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف.

وقدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾، وكرر؛ للاهتمام والحصر، أى: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله[3] إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فالأول تبرؤ من الشرك، والثانى تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض

---

(١) فى جـ، ط: «وبين ما تقدم». (٢) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٣) فى ط: «كله يرجع».

إلى الله، عز وجل. وهذا المعنى فى غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسبة[(١)]؛ لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وفى هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده أن يثنوا عليه بذلك؛ ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك، وهو قادر عليه، كما جاء فى الصحيحين، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[(٢)]. وفى صحيح مسلم، من حديث العلاء بن عبدالرحمن، مولى الحُرَقة، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل، إذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال: حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] قال: أثنى على عبدى، فإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال الله: مجدنى عبدى، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»[(٣)].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعنى: إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها.

وقال قتادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أمركم.

وإنما قدم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هى المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم[(٤)] ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم.

فإن قيل: فما معنى النون فى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن كانت للجمع فالداعى واحد، وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام؟ وقد أجيب: بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلى فرد منهم، ولا سيما إن كان فى جماعة أو إمامهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه[(٥)] المؤمنين بالعبادة التى خلقوا لأجلها[(٦)]، وتوسط لهم بخير، ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم، كأن العبد قيل له: إذا كنت فى العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل: نحن ولا فعلنا، ولو كنت فى مائة ألف أو ألف ألف لافتقار الجميع إلى الله عز وجل. ومنهم من قال: ألطف فى التواضع من إياك أعبد، لما فى الثانى من تعظيمه نفسه

---

(١) فى جـ، ط: «مناسب». (٢) صحيح البخارى برقم (٧٥٦) وصحيح مسلم برقم (٣٩٤). (٣) صحيح مسلم برقم (٣٩٥).

(٤) فى جـ، ط، ب: «والحزم تقديم». (٥) فى أ، و: «إخوته». (٦) فى و: «من أجلها».

من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذى لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته، ولا يثنى عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم[١] يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى، كما قال بعضهم:

لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائى

وقد سمى الله رسوله بعبده فى أشرف مقاماته [فقال][٢]: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، فسماه عبداً عند إنزاله عليه وقيامه فى الدعوة وإسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة فى أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين له، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩].

وقد حكى فخر الدين فى تفسيره عن بعضهم: أن مقام العبودية أشرف من مقام الرسالة؛ لكون العبادة تصدر[٣] من الخلق إلى الحق والرسالة من الحق إلى الخلق؛ قال: ولأن الله متولى مصالح عبده، والرسول متولى مصالح أمته[٤]، وهذا القول خطأ، والتوجيه أيضاً ضعيف لا حاصل له، ولم يتعرض له فخر الدين بتضعيف ولا رده. وقال بعض الصوفية: العبادة إما لتحصيل ثواب ورد عقاب؛ قالوا: وهذا ليس بطائل إذ مقصوده تحصيل مقصوده، وإما للتشريف بتكاليف الله تعالى، وهذا ـ أيضاً ـ عندهم ضعيف، بل العالى أن يعبد الله لذاته المقدسة الموصوفة بالكمال، قالوا: ولهذا يقول المصلى: أصلى لله. ولو كان لتحصيل الثواب ودرء[٥] العذاب لبطلت صلاته. وقد رد ذلك عليهم آخرون وقالوا: كون العبادة لله، عز وجل، لا ينافى أن يطلب معها ثوابا، ولا أن يدفع عذاباً، كما قال ذلك الأعرابى: أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ إنما أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار فقال النبى ﷺ: «حولها ندندن»[٦].

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾

قراءة الجمهور بالصاد.

وقرئ: «السراط» وقرئ بالزاى، قال الفراء: وهى لغة بنى عذرة وبلقين[٧] وبنى كلب.

لما تقدم الثناء على المسؤول، تبارك وتعالى، ناسب أن يعقب بالسؤال؛ كما قال: «فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل» وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسؤوله، ثم يسأل حاجته [وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿اهْدِنَا﴾][٨]؛ لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه الأكمل، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول، كقول ذى النون: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد يكون بمجرد الثناء

---

(١) فى أ: «شريف». (٢) زيادة من و. (٣) فى أ، و: «تصرفه».
(٤) فى و: «العبد». (٥) فى أ: «ورده».
(٦) رواه أحمد فى المسند (٣/ ٤٧٤) وأبو داود فى السنن برقم (٧٩٢) وابن حبان فى صحيحه برقم (٥١٤) من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة، رضى الله عنه.
(٧) فى أ: «بلقيس».
(٨) زيادة من جـ، ط، أ، و.

على المسؤول، كقول الشاعر:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

والهداية ههنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا[١]: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فتضمن معنى ألهمنا، أو وفقنا، أو ارزقنا، أو اعطنا؛ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أى: بينا له الخير والشر، وقد تعدى بإلى، كقوله تعالى: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقد تعدى باللام، كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] أى وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا[٢].

وأما الصراط المستقيم، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن «الصراط المستقيم» هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه.

وكذلك ذلك فى لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخَطَفى:

أميرُ المؤمنين على صِراطٍ إذا اعوج المواردُ مُسْتَقيم

قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر. قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فى كل قول وعمل، وصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه.

ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف فى تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول؛ فروى أنه كتاب الله، قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنى يحيى بن يمان، عن حمزة الزيات، عن سعد، وهو أبو[٣] المختار الطائى، عن ابن أخى الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصراط المستقيم كتاب الله»[٤].

وكذلك رواه ابن جرير، من حديث حمزة بن حبيب الزيات، وقد [تقدم فى فضائل القرآن فيما][٥] رواه أحمد والترمذى من رواية الحارث الأعور، عن على مرفوعا: «وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم»[٦].

(١) فى جـ، ط، ب: «كما هاهنا».
(٢) فى ط: «وجعلنا أهلاً له».
(٣) فى أ، و: «ابن».
(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٠).
(٥) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٦).

وقد روى هذا موقوفا عن على، وهو أشبه[١]، والله أعلم.

وقال الثورى، عن منصور، عن أبى وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم. كتاب الله، وقيل: هو الإسلام. وقال الضحاك، عن ابن عباس، قال: قال جبريل لمحمد، عليهما السلام: قل: يا محمد، اهدنا الصراط المستقيم. يقول: اهدنا[٢] الطريق الهادى، وهو دين الله الذى لا عوج فيه.

وقال ميمون بن مِهْرَان، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: ذاك الإسلام.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمدانى، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قالوا: هو الإسلام.

وقال عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: الإسلام، قال: هو أوسع مما بين السماء والأرض.

وقال ابن الحنفية فى قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: قال هو دين الله، الذى لا يقبل من العباد غيره.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: اهدنا الصراط المستقيم، قال: هو الإسلام.

وفى [معنى][٣] هذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده، حيث قال: حدثنا الحسن بن سوار أبو العلاء، حدثنا ليث يعنى ابن سعد، عن معاوية بن صالح: أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، حدثه، عن أبيه، عن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلا صراطاً مستقيما، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك، لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم».

وهكذا رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير من حديث الليث بن سعد به[٤].

ورواه الترمذى والنسائى جميعا، عن على بن حجر عن بقية، عن بُجَيْر[٥] بن سعد، عن خالد ابن مَعْدَان، عن جبير بن نفير، عن النواس بن سمعان، به[٦].

---

(١) رواه موقوفاً الطبرى فى تفسيره (١/ ١٧٢) وقد سبق الكلام على هذا الحديث فى فضائل القرآن.
(٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وألهمنا».
(٣) زيادة من جـ، ط.
(٤) المسند (٤/ ١٨٢) وتفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢١) وتفسير الطبرى (١/ ١٧٦).
(٥) فى و: «يحيى».
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٨٦٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٣٣).

وهو إسناد صحيح، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: الحق. وهذا أشمل، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم.

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير، من حديث أبى النضر هاشم بن القاسم؛ حدثنا حمزة بن المغيرة، عن عاصم الأحول، عن أبى العالية: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: هو النبى ﷺ، وصاحباه من بعده، قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح.

وكل هذه الأقوال صحيحة، وهى متلازمة، فإن من اتبع النبى ﷺ، واقتدى باللذين من بعده أبى بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا، ولله الحمد.

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن الفضل السقطى، حدثنا إبراهيم بن مهدى المِصِّيصى، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، عن الأعمش، عن أبى وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم الذى تركنا عليه رسولُ الله ﷺ[١]. ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: والذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى ـ أعنى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ـ أن يكون معنياً به: وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له مَنْ أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفق لما وُفق له من أنعم الله عليهم[٢] من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقد وُفق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبىّ ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم.

فإن قيل: كيف[٣] يسأل المؤمن الهداية فى كل وقت من صلاة وغيرها، وهو متصف بذلك؟ فهل[٤] هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك؛ فإن العبد مفتقر فى كل ساعة وحالة إلى الله تعالى فى تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله فى كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعى إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس فى ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم.

وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾، وقد كان الصدِّيق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية فى الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً. فمعنى قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره.

---

(١) المعجم الكبير (١٠/٢٤٥). (٢) فى ط، ب: «عليه». (٣) فى ط، ب: «فكيف». (٤) فى جـ ب: «وهل».

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾.

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرها أن الله يقول: «هذا لعبدى ولعبدى ما سأل». وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر للصراط المستقيم. وهو بدل منه عند النحاة، ويجوز أن يكون عطف بيان، والله أعلم.

و﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ[1] عَلَيْهِمْ﴾: هم المذكورون فى سورة النساء، حيث قال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا. ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآية [النساء: ٦٩].

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: هم النبيون.

وقال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: هم المؤمنون. وكذا قال مجاهد. وقال وَكِيع: هم المسلمون. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبى ﷺ ومن معه.

والتفسير المتقدم، عن ابن عباس أعم، وأشمل، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾: [قرأ الجمهور: «غير» بالجر على النعت، قال الزمخشرى: وقرئ بالنصب على الحال، وهى قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب، ورويت عن ابن كثير، وذو الحال الضمير فى ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والعامل: ﴿أَنْعَمْتَ﴾ والمعنى][2]: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسله، وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، [وهم][3] الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون فى الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بلا، ليدل على أن ثَمّ مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى.

وقد زعم بعض النحاة أن ﴿غَيْرِ﴾ ههنا استثنائية، فيكون على هذا منقطعاً لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم، وما أوردناه أولى، لقول الشاعر[4]:

كأنَّك من جِمال بنى أُقَيْش ... يُقَعْقَعُ عند[5] رِجْلَيه بشَنِّ

أى: كأنك جمل من جمال بنى أقيش، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة[6]، وهكذا، ﴿غَيْرِ

(١) فى جـ، ط، ب: «أنعم».
(٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٤) هو النابغة الذبيانى، والبيت فى تفسير الطبرى (١/ ١٧٩).
(٥) فى جـ: «بين».
(٦) فى ط: «واكتفى بالمضاف إليه».

﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. أى: غير صراط المغضوب عليهم.

اكتفي بالمضاف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

ومنهم من زعم أن (لا) فى قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين، واستشهد ببيت العجاج:

فى بئرِ لا حُورٍ سرى[(١)] وما شَعَرْ[(٢)]

أى فى بئر حور. والصحيح ما قدمناه. ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن، عن أبى معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أنه كان يقرأ: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ». وهذا إسناد صحيح[(٣)]، [وكذا حكى عن أبى بن كعب أنه قرأ كذلك][(٤)]، وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير، فيدل على ما قلناه من أنه إنما جيء بها لتأكيد النفى، [لئلا يتوهم أنه معطوف على ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾][(٥)]، وللفرق بين الطريقتين، لتجتنب كلّ منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم. والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب [كما قال فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾][(٦)] [المائدة: ٦٠]، وأخص أوصاف النصارى الضلال [كما قال: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾][(٧)] [المائدة: ٧٧]، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار. [وذلك واضح بين][(٨)].

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، قال: سمعت سِماك بن حرب، يقول: سمعت عَبَّاد بن حُبَيش، يحدث عن عدى بن حاتم، قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ، فأخذوا عمتى وناساً، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صُفُّوا له، فقالت: يا رسول الله، ناء الوافد وانقطع الولد، وأنا عجوز كبيرة، ما بى من خدمة، فمُنّ على مَنّ الله عليك. قال: «من وافدك؟» قالت: عدى بن حاتم، قال: «الذى فر من الله ورسوله!» قالت: فمنّ علىّ، فلما رجع، ورجل إلى جنبه[(٩)]، ترى أنه على، قال: سليه حُمْلانا، فسألته، فأمر لها، قال: فأتتنى، فقالت: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان، أو صبى، وذكر قربهم من النبىّ ﷺ، قال: فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر، فقال:

(١) فى جـ، ط: «سعى».
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ١٩٠).
(٣) فضائل القرآن (ص ١٦٢).
(٤ ـ ٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٧) زيادة من جـ، ط.
(٨) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٩) فى جـ: «فلما رجع ودخل إلى ختنه».

«يا عدى، ما أفرك[١] أن يقال[٢]: لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ قال: ما أفرك[٣] أن يقال: الله أكبر، فهل شىء أكبر[٤] من الله، عز وجل؟». قال: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر، وقال: «المغضوب[٥] عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى»[٦].

وذكر الحديث، ورواه الترمذى، من حديث سماك بن حرب[٧]، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

قلت: وقد رواه حماد بن سلمة، عن سماك، عن مُرِّىّ بن قَطَرِىّ، عن عدى بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ قال: «هم اليهود» ﴿ وَلا الضَّالِّينَ﴾ قال: «النصارى هم الضالون». وهكذا رواه سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن الشعبى، عن عدى بن حاتم، به[٨].

وقد روى حديث عدى هذا من طرق، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن بُدَيْل العُقَيْلى، أخبرنى عبد الله بن شَقِيق، أنه أخبره من سمع النبى ﷺ، وهو بوادى القُرَى، وهو على فرسه، وسأله رجل من بنى القين، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: «المغضوب عليهم ـ وأشار إلى اليهود ـ والضالون هم النصارى»[٩].

وقد رواه الجُرَيرى وعروة، وخالد الحَذَّاء، عن عبد الله بن شقيق، فأرسلوه[١٠]، ولم يذكروا من سمع النبى ﷺ. ووقع فى رواية عروة تسمية عبد الله بن عمر، فالله أعلم.

وقد روى ابن مَرْدُويه، من حديث إبراهيم بن طَهْمان، عن بديل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبى ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم، قال: «اليهود»، [قال][١١]: قلت: الضالين، قال: «النصارى»[١٢].

وقال السُّدِّى، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمدانى، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: هم اليهود، ﴿ وَلا الضَّالِّينَ﴾: هم النصارى.

وقال الضحاك، وابن جُرَيْج، عن ابن عباس: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: اليهود، ﴿ وَلا الضَّالِّينَ﴾:

(١) فى أ: «ما أمرك». (٢) فى جـ: «تقول». (٣) فى أ: «ما أمرك».
(٤) فى جـ: «فهل من شىء هو أكبر».
(٥) فى جـ، ط، ب: «إن المغضوب».
(٦) المسند (٤/٣٧٨)
(٧) سنن الترمذى برقم (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٢٧٩) «موارد» من طريق محمد بن بشار عن غندر به.
(٨) رواه الحميدى فى مسنده (٢/٤٠٦) عن سفيان به.
(٩) تفسير عبد الرزاق (١/٦١).
(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (١/١٨٦، ١٨٧).
(١١) زيادة من ط، ب، أ، و.
(١٢) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/١٥٩): «أخرجه ابن مردويه بإسناد حسن عن أبى ذر».

[هم][١] النصارى.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً.

وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال في المائدة[٢]: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وفي السيرة[٣][٤]، عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قالت له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. فقال: أنا من غضب الله أفر. وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سَخَط الله فقال: لا أستطيعه. فاستمر على فطرته، وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية؛ لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل، حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي، رضي الله عنه.

(مسألة): والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما؛ وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، ولأن كلاً من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك والله أعلم. وأما حديث: «أنا أفصح من نطق بالضاد» فلا أصل له والله أعلم.

فصل

اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا[٥]، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبيده[٦] إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يُفضى بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ

---

(١) زيادة من جـ. (٢) في جـ: «وقال تعالى». (٣) في ط: «وفي السنن». (٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٤).

(٥) في جـ، ط، ب، أ، و: «العلا». (٦) في جـ: «إرشاد عبده»، وفي ط، ب: «إرشاد عبيده».

تر إلى الذين تولَّوا قوماً غضب الله عليهم﴾ الآية [المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به، وإن كان هو الذى أضلهم بقدره، كما قال تعالى: ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وقال: ﴿من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأعراف: ١٨٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقوله الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه(١)، ويحتجون على بدعتهم(٢) بمتشابه من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً فى الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغى، وقد ورد فى الحديث الصحيح: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»(٣). يعنى فى قوله تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ [آل عمران: ٧]، فليس ـ بحمد الله ـ لمبتدع فى القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله، تنزيل من حكيم حميد(٤).

فصل

يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين [مثل: يس](٥)، ويقال: أمين. بالقصر أيضاً [مثل: يمين](٦)، ومعناه: اللهم استجب، والدليل على ذلك(٧) ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، والترمذى، عن وائل بن حجر، قال: سمعت النبىَّ ﷺ قرأ: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقال: «آمين»، مد(٨) بها صوته، ولأبى داود: رفع بها صوته(٩)، وقال الترمذى: هذا حديث حسن. وروى عن على، وابن مسعود وغيرهم.

وعن أبى هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول. رواه أبو داود، وابن ماجه، وزاد: يرتج(١٠) بها المسجد(١١)، والدارقطنى وقال: هذا إسناد حسن.

وعن بلال أنه قال: يا رسول الله، لا تسبقنى بآمين. رواه أبو داود(١٢).

---

(١) فى ب: «يفعلون ذلك ويختارونه».
(٢) فى جـ، ط، ب: «على بدعهم».
(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٥٤٧) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رضى الله عنها.
(٤) فى جـ، ط، ب: «خبير».
(٥، ٦) زيادة من جـ، ط.
(٧) فى جـ، ط: «على استحباب التأمين».
(٨) فى جـ: «يمد».
(٩) المسند (٤/٣١٦) وسنن أبى داود برقم (٩٣٢) وسنن الترمذى برقم (٢٤٨).
(١٠) فى جـ، ط، ب: «فيرتج».
(١١) سنن أبى داود برقم (٩٣٤) وسنن ابن ماجة برقم (٨٥٣).
(١٢) سنن أبى داود برقم (٩٣٧).

ونقل أبو نصر القشيرى(١) عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شددا الميم من آمين مثل: ﴿آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد فى حق المصلى، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً، وفى جميع الأحوال، لما جاء فى الصحيحين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه» ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم فى الصلاة: آمين، والملائكة(٢) فى السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه»(٣).

[قيل: بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة فى الزمان، وقيل: فى الإجابة، وقيل: فى صفة الإخلاص](٤).

وفى صحيح مسلم عن أبى موسى مرفوعاً: «إذا(٥) قال، يعنى الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين. يجبكم الله»(٦).

وقال جُوَيبر، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: قلت: يا رسول الله، ما معنى آمين؟ قال: «رب افعل»(٧).

وقال الجوهرى: معنى آمين: كذلك فليكن، وقال الترمذى: معناه: لا تخيب رجاءنا، وقال الأكثرون: معناه: اللهم استجب لنا، وحكى القرطبى عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن كيسان: أن آمين اسم من أسماء الله تعالى وروى عن ابن عباس مرفوعاً ولا يصح، قاله أبو بكر بن العربى المالكى(٨).

وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن سُمَىّ، عن أبى صالح، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «وإذا قال، يعنى الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين». الحديث(٩). واستأنسوا ـ أيضاً ـ بحديث أبى موسى: «وإذا قرأ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين».

وقد قدمنا فى المتفق عليه: «إذا أمن الإمام فأمنوا» وأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤمن إذا قرأ(١٠): ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

---

(١) فى أ: «التسترى». (٢) فى جـ: «وقالت الملائكة».

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٨٠) وصحيح مسلم برقم (٤١٠).

(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٥) فى جـ، ط: «وإذا».

(٦) صحيح مسلم برقم (٤٠٤).

(٧) ورواه الثعلبى فى تفسيره كما فى الدر المنثور (١/ ٤٥) من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس مثله، وكلا الإسنادين ضعيفان.

(٨) تفسير القرطبى (١/ ١٢٨).

(٩) الموطأ (١/ ٨٧) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٩٦) ومسلم فى صحيحه برقم (٤٠٩) من طريق مالك به.

(١٠) فى جـ: «كانوا يؤمنوا خلفه إذا قرأ».

وقد اختلف أصحابنا فى الجهر بالتأمين للمأموم فى الجهرية، وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسى التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً، وإن أمَّن الإمام جهراً فالجديد أنه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبى حنيفة، ورواية عن مالك؛ لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة. والقديم أنه يجهر به، وهو مذهب أحمد بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك، لما[1] تقدم: «حتى يرتج المسجد».

ولنا قول آخر ثالث: أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم[2]؛ لأنهم يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين مَنْ فى أرجاء المسجد، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده، عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود، فقال: «إنهم لن يحسدونا[3] على شىء كما يحسدونا[4] على الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين»[5]، ورواه ابن ماجه، ولفظه: «ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على السلام والتأمين»[6]، وله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على قول: آمين، فأكْثروا من قول: آمين»[7] وفى إسناده طلحة بن عمرو، وهو ضعيف.

وروى ابن مَرْدُويه، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «آمين: خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين»[8].

وعن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت آمين فى الصلاة وعند الدعاء، لم يعط أحد قبلى إلا أن يكون موسى، كان موسى يدعو، وهارون يؤمن، فاختموا الدعاء بآمين، فإن الله يستجيبه لكم»[9].

قلت: ومن هنا نزع بعضهم فى الدلالة بهذه الآية الكريمة، وهى قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ. قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]، فذكر الدعاء عن موسى وحده، ومن سياق الكلام ما يدل على أن

---

(١) فى جـ: «كما». (٢) فى جـ: «الإمام».

(٣) فى جـ: «لم يحسدوننا»، وفى ط، ب، أ، و: «لم يحسدونا».

(٤) فى أ: «يحسدوننا».

(٥) المسند (٦/ ١٣٥).

(٦) سنن ابن ماجة برقم (٨٥٦) من طريق حماد بن سلمة، عن سهيل، عن أبى صالح، عن أبيه، عن عائشة مرفوعاً،وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٢٩٧): «هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته».

(٧) سنن ابن ماجة برقم (٨٥٧) من طريق يزيد بن صبيح، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً.

(٨) ورواه ابن عدى فى الكامل (٦/ ٤٤٠) من طريق مؤمل عن أبى أمية بن يعلى عن المقبرى عن أبى هريرة به، وقال ابن عدى: «لا يرويه عن أبى أمية بن يعلى ـ وإن كان ضعيفاً ـ غير مؤمل هذا».

(٩) ورواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده برقم (١٦٧) «بغية الباحث» من طريق ـ مولى خالد ـ عن أنس بن مالك به، وزربى بن عبد الرحمن ضعيف.

هارون أمَّن، فنزل منزلة من دعا، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، فدلّ ذلك على أن من أمَّن على دعاء فكأنما قاله؛ فلهذا قال من قال: إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها؛ ولهذا جاء في الحديث: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»، وكان بلال يقول: لا تسبقني بآمين. فدل هذا المنزع على أن المأموم لا قراءة عليه في الجهرية، والله أعلم.

ولهذا قال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا عبد الله بن محمد بن سلام، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير، عن ليث بن أبي سليم، عن كعب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ فقال: آمين، فتوافق[1] آمين أهل الأرض آمين أهل السماء، غفر الله للعبد ما تقدم من ذنبه. ومثل من لا يقول: آمين، كمثل رجل غزا مع قوم، فاقترعوا، فخرجت سهامهم، ولم يخرج سهمه، فقال: لِمَ لَمْ يخرج سهمي؟ فقيل: إنك لم تقل: آمين»[2].

---

(١) في جـ، ط، ب، و، أ: «فوافق».

(٢) ورواه أبو يعلى في مسنده (١١/٢٩٦) عن أبي خيثمة عن جرير به، وليث بن أبي سليم ضعيف.

[بسم الله الرحمن الرحيم][١]

تفسير سورة البقرة

خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، وستة آلاف ومائة وعشرون كلمة، ومائتان وستة وثمانون آية فى عدد الكوفى وعدد على بن أبى طالب رضى الله عنه.

ذكر ما ورد فى فضلها

قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يسار؛ أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سَنَام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون مَلَكاً، واستخرجت: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] من تحت العرش، فوصلت بها، أوفوصلت بسورة البقرة، ويس: قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله، والدار الآخرة إلا غفر له، واقرؤوها على موتاكم». انفرد به أحمد[٢].

وقد رواه أحمد ـ أيضاً ـ عن عارم، عن عبد الله بن المبارك، عن سليمان التيمى[٣]، عن أبى عثمان ـ وليس بالنَّهْدى ـ عن أبيه، عن مَعْقِل بن يَسَار، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوها على موتاكم» يعنى: يس[٤].

فقد بَيَّنَّا بهذا الإسناد معرفة المبهم فى الرواية الأولى. وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة فى الرواية الثانية أبو داود، والنسائى، وابن ماجه[٥].

وقد روى الترمذى من حديث حكيم بن جبير، وفيه ضعف، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شىء سنام، وإن سَنَام القرآن البقرة، وفيها آية هى سيدة آى القرآن: آية الكرسى»[٦].

وفى مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذى والنسائى، من حديث سهيل[٧] بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذى يقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان»[٨] وقال الترمذى: حسن صحيح.

---

(١) زيادة من جـ، ط.

(٢) المسند (٥/٢٦).

(٣) فى جـ: «التميمى».

(٤) المسند (٥/ ٢٦) وأبو عثمان لم يوثقه سوى ابن حبان وأبوه لا يعرف، وقد اتضح أن الحديث مضطرب، اختلف فيه على سليمان التميمى.

(٥) سنن أبى داود برقم (٣١٢١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٩١٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٤٨).

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٨٧٨) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٥٩) من طريق حكيم بن جبير به.

(٧) فى أ: «سهل».

(٨) المسند (٢/ ٢٨٤) وصحيح مسلم برقم (٧٨٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٧٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠١٥).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنى ابن أبى مريم، عن ابن[١] لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن سِنان بن سعد، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يخرج من البيت إذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه»[٢].

سنان بن سعد، ويقال بالعكس، وثقه ابن معين، واستنكر حديثه أحمد بن حنبل وغيره.

وقال أبو عبيد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن سلمة بن كُهَيْل، عن أبى الأحوص، عن عبد الله، يعنى ابن مسعود، قال: إن الشيطان يفر من البيت الذى يسمع فيه سورة البقرة.

ورواه النسائى فى اليوم والليلة، وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث شعبة[٣]، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقال ابن مَرْدُوِيه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل الترمذى، حدثنا أيوب بن سليمان ابن بلال، حدثنى أبو بكر بن أبى أويس، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن عجلان، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ألْفَيَنَّ أحَدَكم، يَضَع إحدى رجليه على الأخرى يتغنى، ويدع سورة البقرة يقرؤها؛ فإن الشيطان يفرّ من البيت تقرأ فيه سورة البقرة، وإن أصْفَر البيوت الجَوْفُ، الصِّفْر من كتاب الله».

وهكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة، عن محمد بن نصر، عن أيوب بن سليمان، به[٤].

وروى الدارمى فى مسنده عن ابن مسعود قال: ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط[٥]. وقال: إن لكل شىء سناما، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وإن لكل شىء لباباً، وإن لباب القرآن المفصل[٦]. وروى ـ أيضا ـ من طريق الشعبى قال: قال عبد الله بن مسعود: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة فى ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة أربع من أولها وآية الكرسى وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها[٧]، وفى رواية: لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شىء يكرهه ولا يقرأن على مجنون إلا أفاق.

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شىء سناما، وإن سنام القرآن البقرة، من قرأها فى بيته ليلة[٨] لم يدخله الشيطان[٩] ثلاث ليال، ومن قرأها فى بيته نهاراً لم يدخله

(١) فى جـ: «أبى».
(٢) فضائل القرآن (ص ١٢١).
(٣) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص ١٢١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٨٠٠) والمستدرك (٢/ ٢٦٠).
(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٩٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٢٩٢) «مجمع البحرين» من طريق حلو بن السرى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله به مرفوعاً وخالفهما ـ أى ابن عجلان وحلو بن السرى ـ شعبة، فرواه عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله فوقفه، أخرجه ابن الضريس فى فضائل القرآن برقم (١٧٦) وشعبة أوثق الناس فى أبى إسحاق، ورواه ابن الضريس فى فضائل القرآن برقم (١٦٥) من طريق إبراهيم، عن أبى الأحوص، عن عبد الله موقوفاً.
(٥) سنن الدارمى برقم (٣٣٧٥).
(٦) سنن الدارمى برقم (٣٣٧٧).
(٧) سنن الدارمى برقم (٣٣٨٣).
(٨) فى أ: «ليلاً».
(٩) فى ط، ب: «شيطان».

الشيطان[١] ثلاثة أيام».

رواه أبو القاسم الطبرانى، وأبو حاتم، وابن حبان فى صحيحه[٢].

وقد روى الترمذى، والنسائى، وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر، عن سعيد المقبرى، عن عطاء مولى أبى أحمد، عن أبى هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كُلّ واحد منهم، يعنى ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سناً، فقال: «ما معك يا فلان؟» قال: معى كذا وكذا وسورة البقرة، فقال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: نعم. قال: «اذهب فأنت أميرهم»، فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعنى أن أتعلم البقرة[٣] إلا أنى خشيت ألاَّ أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقرؤوه؛ فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه فى كل مكان، ومثل من تعلمه، فيرقد وهو فى جوفه، كمثل جراب أوكِى على مسك»[٤].

هذا لفظ رواية الترمذى، ثم قال: هذا حديث حسن. ثم رواه من حديث الليث، عن سعيد، عن عطاء مولى أبى أحمد مرسلا، فالله أعلم[٥].

قال[٦] البخارى: وقال الليث: حدثنى يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أسَيد بن حُضَير[٧]، قال: بينما هو يقرأ من الليل[٨] سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت، فسكَنَتْ، فقرأ[٩] فجالت الفرس، فسكت، فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها. فأشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبى ﷺ فقال: «اقرأ يا ابن حُضَير[١٠]». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسى وانصرفت إليه، فرفعت رأسى إلى السماء، فإذا مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «وتدرى ما ذاك؟». قال: لا. قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت[١١] ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم»[١٢].

وهكذا رواه الإمام العَالم أبو عبيد القاسم بن سلام، فى كتاب فضائل القرآن، عن عبد الله بن صالح، ويحيى بن بكير، عن الليث، به[١٣].

وقد روى من وجه آخر[١٤]، عن أسيد بن حضير، كما تقدم[١٥]، والله أعلم.

---

(١) فى ط، ب: «شيطان».
(٢) المعجم الكبير (٦/١٦٣) وصحيح ابن حبان برقم (١٧٢٧) «موارد».
(٣) فى أ: «سورة البقرة».
(٤) سنن الترمذى برقم (٢٨٧٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٧٤٩).
(٥) فى جـ: «فالله تبارك وتعالى أعلم».
(٦) فى ب: «وقال».
(٧) فى جـ، ط، ب، أ، و: «الحضير».
(٨) فى جـ، ط: «فى».
(٩) فى ط: «ثم قرأ».
(١٠) فى جـ، أ: «الحضير».
(١١) فى أ: «لأصبح».
(١٢) صحيح البخارى برقم (٥٠١٨).
(١٣) فضائل القرآن (ص ٢٦).
(١٤) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وجوه أخر».
(١٥) سبق تخريجه فى فضائل القرآن.

وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس[١]، رضى الله عنه، وذلك فيما رواه أبو عبيد [القاسم][٢]: حدثنا عباد بن عباد، عن جرير بن حازم، عن جرير[٣] بن يزيد: أن أشياخ أهل المدينة حدثوه: أن رسول الله ﷺ، قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس؟ لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح، قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: فسئل ثابت، فقال: قرأت سورة البقرة[٤].

وهذا إسناد جيد، إلا أن فيه إبهاما، ثم هو مرسل، والله أعلم.

[ذكر][٥] ما ورد فى فضلها مع آل عمران

قال[٦] الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا بشير بن مهاجر[٧]، حدثنى عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: كنت جالساً عند النبى ﷺ فسمعته يقول: «تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة». قال: ثم سكت ساعة، ثم قال: «تعلموا سورة البقرة، وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يُظلاّن صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو فرْقان من طير صَوافّ، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفنى؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة. فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين، لا يقوم لهما[٨] أهل الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال: اقرأ واصعد فى دَرَج الجنة وغرفها. فهو فى صعود ما دام يقرأ هَذّاً كان أو ترتيلا».

وروى ابن ماجه من حديث بشير بن المهاجر [٩] بعضه[١٠]، وهذا إسناد حسن[١١] على شرط مسلم، فإن بشيرا هذا أخرج له مسلم، ووثقه ابن معين، وقال النسائى: ليس به بأس، إلا أن الإمام أحمد قال فيه: هو منكر الحديث، قد اعتبرت أحاديثه فإذا هى تجىء بالعجب. وقال البخارى: يخالف فى بعض حديثه. وقال أبو حاتم الرازى: يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال ابن عدى: روى ما لا يتابع عليه. وقال الدارقطنى: ليس بالقوى.

قلت: ولكن لبعضه شواهد؛ فمن ذلك حديث أبى أمامة الباهلى؛ قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا هشام، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلام، عن أبى أمامة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرؤوا القرآن؛ فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ يحاجان عن أهلهما»[١٢] ثم قال: «اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة[١٣]، وتركها حسرة، ولا تستطيعها

---

(١) فى ط، ب: «الشماس». (٢) زيادة من ط. (٣) فى جـ، ب: «عن عمه جرير».
(٤) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص ٢٧) وتقدم تخريجه فى فضائل القرآن أيضاً.
(٥) زيادة من أ، و. (٦) فى جـ، ط: «وقال». (٧) فى ط، ب: «المهاجر».
(٨) فى أ، و: «عليهما». (٩) فى جـ: «المهاجر به».
(١٠) المسند (٥/٣٤٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٨١).
(١١) فى جـ: «جيد». (١٢) فى جـ: «عن أهلهما يوم القيامة». (١٣) فى أ: «حسنة».

البطلة»[١].

وقد رواه مسلم فى الصلاة من حديث معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، عن جده أبى سلام مَمْطور الحَبَشِىّ، عن أبى أمامة صُدَىّ بن عجلان [الباهلى][٢] به[٣].

الزهراوان: المنيران. والغياية: ما أظلك من فوقك. والفرْقُ: القطعة من الشىء، والصواف: المصطفة المتضامة[٤]. والبطلة السحرة، ومعنى «لا تستطيعها» أى: لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ فى قارئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث النَّوّاس[٥] بن سِمْعان. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى، عن جُبَير بن نُفَير، قال: سمعت النواس بن سمعان الكلابى، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران». وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شَرْق، أو كأنهما فرْقَان من طير صَوَاف[٦] يُحَاجَّان عن صاحبهما»[٧].

ورواه مسلم، عن إسحاق بن منصور، عن يزيد بن عبد ربه، به[٨].

والترمذى، من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجرشى، به[٩]. وقال: حسن غريب.

وقال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، قال: قال حماد: أحسبه عن أبى منيب، عن عمه؛ أن رجلا قرأ البقرة وآل عمران، فلما قضى صلاته قال له كعب: أقرأت البقرة وآل عمران؟ قال: نعم. قال : فوالذى نفسى بيده، إن فيهما اسم الله الذى إذا دعى به استجاب[١٠]. قال: فأخبرنى به. قال: لا، والله لا أخبرك به، ولو أخبرتك لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت[١١].

[قال أبو عبيد][١٢]: وحدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن سليم بن عامر: أنه سمع أبا أمامة يقول: إن أخاً لكم[١٣] أرى فى المنام أن الناس يسلكون فى صدع جبل وعر طويل، وعلى رأس الجبل شجرتان خضراوان تهتفان: هل فيكم من يقرأ سورة البقرة؟ وهل فيكم من يقرأ سورة آل عمران؟ قال: فإذا قال الرجل: نعم. دنتا منه بأعذاقهما، حتى يتعلق بهما فتُخطران به

---

(١) المسند (٥/ ٢٤٩).

(٢) زيادة من جـ، ب، أ، و.

(٣) صحيح مسلم برقم (٨٠٤).

(٤) فى جـ: «المتصلة». (٥) فى جـ: «نواس». (٦) فى جـ، ط: «من طير صاف».

(٧) فى أ: «صاحب لهما».

(٨) المسند (٤/ ١٨٣) وصحيح مسلم برقم (٨٠٥).

(٩) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٣)

(١٠) فى ط: «أجاب» .

(١١) فضائل القرآن (ص ١٢٦). (١٢) زيادة من ب.

(١٣) فى جـ: «أخاكم».

الجبل(١).

[قال أبو عبيد](٢): وحدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن أبي عمران: أنه سمع أم الدرداء تقول: إن رجلا ممن قرأ القرآن أغار على جار له، فقتله، وإنه أقيدَ به(٣)، فقتل، فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة، حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة، ثم إن آل عمران انسلت منه، وأقامت البقرة جمعة، فقيل لها: ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] قال: فخرجت كأنها السحابة العظيمة(٤).

قال أبو عبيد: أراه، يعنى: أنهما كانتا معه فى قبره تدفعان عنه وتؤنسانه، فكانتا من آخر ما بقى معه من القرآن.

وقال ـ أيضًا ـ: حدثنا أبو مُسْهِر الغسانى، عن سعيد بن عبد العزيز التنوخى: أن يزيد بن الأسود الجُرَشى كان يحدث(٥): أنه من قَرأ البقرة وآل عمران فى يوم، برئ من النفاق حتى يمسى، ومن قرأهما فى ليلة برئ من النفاق حتى يصبح، قال: فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سوى جزئه(٦).

[قال أيضاً](٧): وحدثنا يزيد، عن وقاء(٨) بن إياس، عن سعيد بن جبير، قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: من قرأ البقرة وآل عمران فى ليلة كان ـ أو كتب ـ من القانتين(٩).

فيه انقطاع، ولكن ثبت فى الصحيحين(١٠): أن رسول الله ﷺ قرأ بهما(١١) فى ركعة واحدة(١٢).

[ذكر](١٣) ما ورد فى فضل السبع الطول

قال أبو عبيد: حدثنا هشام بن إسماعيل الدمشقى، عن محمد بن شعيب، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبى المليح، عن واثلة بن الأسقع، عن النبى ﷺ، قال: «أعطيت السبع الطُّوال مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الإنجيل، وأعطيت المثانى(١٤) مكان الزبور، وفضلت بالمفصّل»(١٥).

هذا حديث غريب، وسعيد بن بشير، فيه لين.

وقد رواه أبو عبيد [أيضا](١٦)، عن عبد الله بن صالح، عن الليث، عن سعيد بن أبى هلال، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال... فذكره، والله أعلم. ثم قال(١٧): حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو(١٨) بن أبى عمرو، مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن حبيب بن هند الأسلمى،

(١) فضائل القرآن (ص ١٢٦). (٢) زيادة من و. (٣) فى جـ، ط، ب: «منه».
(٤) فضائل القرآن (ص ١٢٦، ١٢٧). (٥) فى جـ: «يحدثه».
(٦) فضائل القرآن (ص ١٢٧).
(٧) زيادة من ب، و. (٨) فى هـ: «ورقاء».
(٩) فضائل القرآن (ص ١٢٧).
(١٠) فى جـ، ط، ب، أ، و: «الصحيح». (١١) فى جـ، ط، ب، و: «قرأ بهن»، وفى أ: «قرأهن».
(١٢) الحديث وقع لى فى سنن النسائى (٢/ ١٧٧) من حديث حذيفة، رضى الله عنه. (١٣) زيادة من أ، و.
(١٤) فى أ: «وأعطيت السبع المثانى».
(١٥) فضائل القرآن (ص ١٢٠) ورواه الطبرى فى تفسيره (١/ ١٠٠) من طريق رواد بن الجراح عن سعيد بن بشير به، ورواه الطبرى فى تفسيره (١/ ١٠٠) من طريق الطيالسى عن عمران ـ أبى العوام ـ عن قتادة به، ورواه الطبرى فى تفسيره (١/ ١٠١) من طريق ليث بن أبى سليم عن أبى بردة عن أبى المليح به نحوه.
(١٦) زيادة من ب. (١٧) فى ب: «قال أيضا». (١٨) فى جـ: «عمر».

عن عروة، عن عائشة، عن النبى ﷺ قال: «من أخذ السبع فهو حَبْر»(١).

وهذا أيضاً غريب، وحبيب بن هند بن أسماء بن هند بن حارثة الأسلمى، روى عنه عمرو بن أبى عمرو وعبد الله بن أبى بكرة، وذكره أبو حاتم الرازى ولم يذكر فيه جرحا، فالله أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد، عن سليمان بن داود، وحسين، كلاهما عن إسماعيل بن جعفر، به(٢).

ورواه ـ أيضاً ـ عن أبى سعيد، عن سليمان بن بلال، عن حبيب بن هند، عن عروة، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ السبع الأوَل من القرآن فهو حَبْر»(٣).

قال أحمد: وحدثنا حسين، حدثنا ابن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ مثله(٤).

قال عبد الله بن أحمد: وهذا أرى فيه، عن أبيه، عن الأعرج، ولكن كذا كان فى الكتاب بلا «أبى»(٥)، أغفله أبى، أو كذا هو مرسل، ثم قال أبو عبيد: حدثنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد ابن جبير، فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، قال: هى السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. قال: وقال مجاهد: هى السبع الطول. وهكذا قال مكحول، وعطية بن قيس، وأبو محمد الفارسى(٦)، وشَدَّاد بن عبيد الله، ويحيى ابن الحارث الذمارى فى تفسير الآية بذلك، وفى تعدادها، وأن يونس هى السابعة.

فصل

والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، قال بعض العلماء: وهى مشتملة على ألف خبر، وألف أمر، وألف نهى.

وقال العادون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة(٧) وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، فالله أعلم.

قال ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس: نزلت بالمدينة سورة البقرة.

وقال خَصيف، عن مجاهد، عن عبد الله بن الزبير، قال: أنزل بالمدينة سورة البقرة.

وقال الواقدى: حدثنى الضحاك بن عثمان، عن أبى الزِّناد، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، قال: نزلت البقرة بالمدينة.

وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء، والمفسرين، ولا خلاف فيه.

---

(١) فضائل القرآن (ص ١٢٠).
(٢) المسند (٦/٧٣).
(٣) المسند (٦/٨٢).
(٤) المسند (٦/٧٣).
(٥) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فلا أدرى».
(٦) فى جـ، ط، ب: «القارئ».
(٧) فى جـ: «خمس».

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا الحسن بن على بن الوليد [الفارسى][(١)]، حدثنا خلف بن هشام؛ حدثنا عُبيس[(٢)] بن ميمون، عن موسى بن أنس بن مالك، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا: سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التى يذكر فيها البقرة، والتى يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله»[(٣)].

هذا حديث غريب لا يصح رفعه، وعيسى بن ميمون هذا هو أبو سلمة الخواص، وهو ضعيف الرواية، لا يحتج به. وقد ثبت فى الصحيحين[(٤)]، عن ابن مسعود: أنه رمى الجمرة من بطن الوادى، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم قال[(٥)]: هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة. أخرجاه[(٦)].

وروى ابن مَرْدُويه، من حديث شعبة، عن عقيل بن طلحة، عن عتبة بن فرقد[(٧)]، قال: رأى النبى ﷺ فى أصحابه تأخراً[(٨)]، فقال: «يا أصحاب سورة البقرة»[(٩)]. وأظن هذا كان يوم حنين، حين ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم: «يا أصحاب الشجرة»، يعنى أهل بيعة الرضوان. وفى رواية: «يا أصحاب البقرة[(١٠)]»؛ ولينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه[(١١)]. وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون لكثافة حَشْر[(١٢)] بنى حنيفة، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم[(١٣)]. رضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الٓمٓ ①﴾

قد اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور، فمنهم من قال: هى مما استأثر الله بعلمه، فردوا علمها إلى الله، ولم يفسروها [حكاه القرطبى فى تفسيره عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم به، وقاله عامر الشعبى وسفيان الثورى والربيع بن خثيم، واختاره

---

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و. (٢) فى هـ: «عيسى».

(٣) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٤٥٠) «مجمع البحرين» والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٢٥٨٢) من طريق عُبيس بن ميمون، عن موسى بن أنس به، وقال البيهقى: «عُبيس بن ميمون منكر الحديث، وهذا لا يصح، وإنما روى عن ابن عمر من قوله».

(٤) فى جـ، ط، ب، أ، و: «الصحيح». (٥) فى و: «يقول».

(٦) صحيح البخارى برقم (١٧٤٧) وصحيح مسلم برقم (١٢٩٦).

(٧) فى هـ: «مربد»، وهو خطأ. (٨) فى جـ: «تأخراً فى أصحابه».

(٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/١٣٣) من طريق على بن قتيبة عن شعبة عن عقيل بن أبى طلحة به، وجاء من حديث أنس، رواه أبو يعلى فى مسنده (٦/٢٨٩) من طريق عمرو بن عاصم عن أبى العوام عن معمر عن الزهرى عن أنس رضى الله عنه.

(١٠) فى ب: «سورة البقرة».

(١١) جاء من حديث العباس، رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٧٧٥) من طريق الزهرى، عن كثير بن عباس عن أبيه العباس رضى الله عنه.

(١٢) فى جـ، ط، ب، و: «حبيش».

(١٣) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٢/٥٠٢) من طريق هشام بن عروة، عن أبيه قال: «كان شعار أصحاب النبى ﷺ يوم مسيلمة: يا أصحاب سورة البقرة».

أبو حاتم بن حبان[١]][٢].

ومنهم من فسَّرها، واختلف هؤلاء فى معناها، فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هى أسماء السور [قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى فى تفسيره: وعليه إطباق الأكثر، ونقله عن سيبويه أنه نص عليه][٣]، ويعتضد هذا بما ورد فى الصحيحين، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة: الم السجدة، وهل أتى على الإنسان[٤].

وقال سفيان الثورى، عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: أنه قال: الٓم، وحٓم، والمٓص، وص، فواتح افتتح الله بها القرآن.

وكذا قال غيره، عن مجاهد. وقال مجاهد فى رواية أبى حذيفة موسى بن مسعود، عن شبل، عن ابن أبى نَجِيح. عنه، أنه قال: الم، اسم من أسماء القرآن.

وهكذا قال قتادة، وزيد بن أسلم. ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد: أنه اسم من أسماء السور[٥]، فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن، فإنه يبعد أن يكون «المص» اسما للقرآن كله؛ لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت «المص»، إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف، لا لمجموع القرآن. والله أعلم.

وقيل: هى اسم من أسماء الله تعالى. فقال الشعبى: فواتح السور من أسماء الله تعالى، وكذلك قال سالم بن عبد الله، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير، وقال شعبة عن السدى: بلغنى أن ابن عباس قال: الم اسم من أسماء الله الأعظم، هكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث شعبة.

ورواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن ابن مَهْدِى، عن شعبة، قال: سألت السدى عن حم وطس والم، فقال: قال ابن عباس: هى اسم الله الأعظم.

وقال ابن جرير: وحدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو النعمان، حدثنا شعبة، عن إسماعيل السدى، عن مُرَّة الهمدانى، قال: قال عبدالله: فذكر نحوه [وحكى مثله عن على وابن عباس][٦].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله تعالى.

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث ابن عُلية، عن خالد الحذاء، عن عكرمة أنه قال: الم، قسم.

ورويا[٧] ـ أيضاً ـ من حديث شريك بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن أبى الضُّحَى، عن ابن عباس: الم، قال: أنا الله أعلم.

وكذا قال سعيد بن جبير. وقال السُّدِّى عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس ـ وعن

---

(١) تفسير القرطبى (١/ ١٥٤).

(٢، ٣) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٤) صحيح البخارى برقم (٨٩١) وصحيح مسلم برقم (٨٨٠).

(٥) فى ط، ب، أ، و: «السورة». (٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و. (٧) فى جـ: «وروى».

مرّة الهمذاني عن ابن مسعود. وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: الم. قال: أما الم فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى.

وقال أبو جعفر الرّازي، عن الرّبيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾، قال: هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفاً دارت فيها الألسن كلها، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم. قال عيسى ابن مريم، عليه السلام، وعَجب، فقال: وأعْجَب أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون في رزقه، فكيف يكفرون به؛ فالألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه لطيف[١]، والميم مفتاح اسمه مجيد[٢]، فالألف آلاء الله، واللام لطف الله، والميم مجد الله، والألف[٣] سنة، واللام ثلاثون سنة، والميم أربعون [سنة][٤]. هذا لفظ ابن أبي حاتم. ونحوه رواه ابن جرير، ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها، وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر، وأن الجمع ممكن؛ فهي أسماء السور، ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السور، فكل حرف منها دَلّ على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، كما افتتح سورا كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه، قال: ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله، وعلى صفة من صفاته، وعلى مدة وغير ذلك، كما ذكره الرّبيع ابن أنس عن أبي العالية؛ لأن الكلمة الواحدة تطلق على معان كثيرة، كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد به الدين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣]. وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وتطلق ويراد بها الجماعة، كقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] وتطلق ويراد بها الحين من الدهر، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: بعد حين على أصح القولين، قال: فكذلك هذا.

هذا حاصل كلامه موجهاً، ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية، فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا، وعلى هذا، وعلى هذا معاً، ولفظة الأمة وما أشبهها[٥] من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح، إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام، فأما حمله على مجموع محامله إذا أمكن فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول، ليس هذا[٦] موضع البحث فيها، والله أعلم؛ ثم إن لفظ الأمة يدل على كل[٧] معانيه في سياق الكلام بدلالة الوضع، فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره، فهذا مما لا يفهم إلا بتوقيف، والمسألة مختلف فيها، وليس فيها إجماع حتى يحكم به.

---

(١) في جـ: «اسمه اللطيف»، وفي أ: «اسم لطيف». (٢) في جـ: «المجيد». (٣) في جـ، ط، ب، أ، و: «فالألف».
(٤) زيادة من جـ، ط، ب.
(٥) في جـ، ط، ب، أ، و: «وما أشبهه». (٦) في أ: «هنا».
(٧) في ط، ب: «كل من».

وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة، فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا، كما قال الشاعر:

قلنا قفي لنا فقالت قاف ... لا تَحْسَبِي أنا نَسينا الإيجاف[١]

تعني: وقفت. وقال الآخر:

ما للظليم عَالَ كَيْفَ لايا ... ينْقَدُ عنه جلده إذا يا [٢]

قال ابن جرير: كأنه أراد أن يقول: إذا يفعل كذا وكذا، فاكتفى بالياء من يفعل، وقال الآخر:

بالخير خيرات وإن شراً فـا ... ولا أريد الشر إلا أن تا[٣]

يقول: وإن شراً فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء، فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام، والله أعلم.

[قال القرطبي: وفي الحديث: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة»[٤] الحديث. قال شقيق: هو أن يقول في اقتل: إق][٥].

وقال خصيف، عن مجاهد؛ أنه قال: فواتح السور كلها «ق وص وحم وطسم والـر» وغير ذلك هجاء موضوع. وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها، التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما يقول القائل: ابني يكتب في: ا ب ت ث، أي: في حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغني بذكر بعضها عن مجموعها. حكاه ابن جرير.

قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهي: ا ل م ص ر ك ي ع ط س ح ق ن، يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك، وبيان ذلك من صناعة التصريف.

[قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة ومن حروف القلقلة. وقد سردها مفصلة ثم قال: فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، وهذه الأجناس المعدودة ثلاثون بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله][٦].

---

(١) البيت في تفسير الطبري (١/ ٢١٢).

(٢) البيت في تفسير الطبري (١/ ٢١٣).

(٣) البيت في تفسير الطبري (١/ ٢١٣) وينسب إلى القيم بن أوس كما ذكره المحقق الفاضل.

(٤) تفسير القرطبي (١/ ١٥٦) والحديث رواه ابن ماجة في السنن برقم (٢٦٢٠) من طريق يزيد بن أبي زياد، عن الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة رضي الله عنه به مرفوعاً، وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ٣٣٤): «هذا إسناد ضعيف، يزيد بن أبي زياد الدمشقي قال فيه البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث».

تنبيه: وقع في بعض النسخ المساعدة: قال سفيان، بدل شقيق، والذي في تفسير القرطبي موافق لما ههنا، وقد روى هذا القول عن سفيان الأصبهاني في الترغيب والترهيب برقم (٢٣٢٩).

(٥) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

ومن ههنا لحظ[١] بعضهم فى هذا المقام كلاماً، فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدى؛ ومن قال من الجهلة: إنَّه فى القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية، فقد أخطأ خطأ كبيراً، فتعين أن لها معنى فى نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شىء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

ولم يجمع العلماء فيها على شىء معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين. هذا مقام.

المقام الآخر فى الحكمة التى اقتضت إيراد هذه الحروف فى أوائل السور، ما[٢] هى؟ مع قطع النظر عن معانيها فى أنفسها. فقال بعضهم: إنما ذكرت لنعرف بها أوائل السور. حكاه ابن جرير، وهذا ضعيف؛ لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه، وفيما ذكرت فيه بالبسملة تلاوة وكتابة.

وقال آخرون: بل ابتدئ بها لتُفْتَحَ لاستماعها أسماعُ المشركين ـ إذ[٣] تواصوا بالإعراض عن القرآن ـ حتى إذا استمعوا له تُلى عليهم المؤلَّف منه. حكاه ابن جرير ـ أيضاً ـ، وهو ضعيف أيضاً؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك فى جميع السور لا [٤]يكون فى بعضها، بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك ـ أيضاً ـ لانبغى[٥] الابتداء بها فى أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك. ثم إن هذه السورة والتى تليها أعنى البقرة وآل عمران مدنيتان ليستا خطاباً للمشركين؛ فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه.

وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور التى ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه [تركب][٦] من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها.

ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿ الٓمٓ. ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ١، ٢]. ﴿ الٓمٓ. اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣]. ﴿الٓمٓصٓ. كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ١، ٢]. ﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]. ﴿الٓمٓ. تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة ١، ٢]. ﴿ حمٓ. تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢]. ﴿ حمٓ. عٓسٓقٓ. كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الشورى: ١ ـ ٣]، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن[٧] النظر، والله أعلم.

---

(١) فى ب، و: «لحص»، وفى جـ، ط: «يخص».
(٢) فى ط: «وما».
(٣) فى ط: «إذا».
(٤) فى ب: «ولا».
(٥) فى جـ، ط: «لا ينبغى».
(٦) زيادة من جـ، ط، ب.
(٧) فى ط: «أنعم».

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له، وطار فى غير مطاره، وقد ورد فى ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته. وهو ما رواه محمد بن إسحاق بن يسار، صاحب المغازى، حدثنى الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رئاب، قال: مر أبو ياسر[(١)] بن أخطب، فى رجال من يهود، برسول الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة سورة البقرة: ﴿الٓمٓ. ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ [هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ][(٢)]﴾ [البقرة: ١، ٢] فأتى أخاه حيى بن أخطب فى رجال من اليهود، فقال: تعلمون ـ والله ـ لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله عليه: ﴿الٓمٓ. ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ فقال: أنت سمعته؟ قال: نعم. قال: فمشى حيى بن أخطب فى أولئك النفر من اليهود[(٣)] إلى رسول الله ﷺ: فقالوا: يا محمد، ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك: ﴿الٓمٓ. ذَلِكَ الْكِتَابُ لا [رَيْبَ][(٤)]﴾ ؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى». فقالوا: جاءك[(٥)] بهذا جبريل من عند الله؟ فقال: «نعم». قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه[(٦)] بين لنبى منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك. فقام[(٧)] حيى بن أخطب، وأقبل على من كان معه، فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون فى دين نبى، إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟ فقال: «نعم»، قال: ما ذاك؟ قال: «المص»، قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد سبعون[(٨)]، فهذه إحدى وثلاثون[(٩)] ومائة سنة. هل مع هذا يا محمد غيره[(١٠)]؟ قال: «نعم». قال: ما ذاك[(١١)]؟ قال: «الر». قال: هذا[(١٢)] أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان. فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نعم»، قال: ماذا؟ قال: «المر». قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتان، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا. ثم قال: قوموا عنه. ثم قال أبو ياسر[(١٣)] لأخيه حيى بن أخطب، ولمن معه من الأحبار: ما يدريكم؟ لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون[(١٤)] ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع سنين[(١٥)]. فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[آل عمران: ٧][(١٦)].

---

(١) فى جـ: «أبو إياس». (٢) زيادة من جـ. (٣) فى جـ، ط: «من يهود».
(٤) زيادة من ب. (٥) فى جـ، ط: «أجاءك». (٦) فى جـ: «ما نعلمهم».
(٧) فى أ: «فقال». (٨) فى جـ: «تسعون»، وفى ط، ب، أ، و: «ستون».
(٩) فى جـ: «إحدى وستون». (١٠) فى جـ، أ، و: «هل مع هذا غيره يا محمد». (١١) فى جـ، ط، ب، و: «ماذا».
(١٢) فى جـ، ط، ب: «هذه». (١٣) فى جـ: «أبو إياس». (١٤) فى جـ: «إحدى وستون».
(١٥) فى جـ: «أربع وثلاثين سنة».
(١٦) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٢/٢٠٨) والطبرى فى تفسيره (١/٢١٧) من طريق ابن إسحاق، واطنب العلامة أحمد شاكر فى الكلام عليه فى حاشية تفسير الطبرى.

فهذا مداره على محمد بن السائب الكلبى، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به، ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التى ذكرناها، وذلك يبلغ منه جملة كثيرة، وإن حسبت مع التكرر فأتم وأعظم[١]، والله أعلم.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾

قال ابن جُرَيج: قال ابن عباس: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: هذا الكتاب. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدىّ ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، وابن جريج: أن ذلك بمعنى هذا، والعرب تقارض بين هذين الاسمين من أسماء الإشارة فيستعملون كلا منهما مكان الآخر، وهذا معروف فى كلامهم.

و ﴿الْكِتَابُ﴾: القرآن. ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل، كما حكاه ابن جرير وغيره، فقد أبعد النَّجْعَة وأغرق[٢] فى النزع، وتكلف ما لا علم له به.

والرّيب: الشك، قال السدى عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهَمْدانىّ عن ابن مسعود، وعن أناس[٣] من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فيه.

وقاله أبوالدرداء وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدى وقتادة وإسماعيل بن أبى خالد. وقال ابن أبى حاتم: لا أعلم فى هذا خلافاً.

[وقد يستعمل الريب فى التهمة قال جميل:

بثينة قالت يا جميل أربتنى ... فقلت كلانا يا بثين مريب

واستعمل ـ أيضاً ـ فى الحاجة كما قال بعضهم[٤]:

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجممنا السيوفا][٥]

ومعنى الكلام: أن هذا الكتاب ـ وهو القرآن ـ لا شك فيه أنه نزل[٦] من عند الله، كما قال تعالى فى السجدة: ﴿الم. تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة ١، ٢]. [وقال بعضهم: هذا خبر ومعناه النهى، أى: لا ترتابوا فيه][٧].

ومن القراء من يقف على قوله: ﴿لا رَيْبَ﴾. ويبتدئ بقوله: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والوقف على قوله تعالى: ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أولى للآية التى ذكرنا، ولأنه يصير قوله: ﴿هُدًى﴾ صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون: ﴿فِيهِ هُدًى﴾.

و﴿هُدًى﴾: يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على النعت، ومنصوباً على الحال.

---

(١) فى و: «أطم وأعظم»، وفى أ: «أعظم وأعظم». (٢) فى جـ: «أغرب». (٣) فى جـ، ط: «ناس».
(٤) هو كعب بن مالك، والبيت فى اللسان، مادة «ريب». (٥) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٦) فى جـ، ط، ب: «منزل». (٧) زيادة من جـ، ط.

وخصّت الهداية للمتّقين. كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو فى نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقد قال السدى عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمدانى، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعنى: نوراً [1] للمتقين.

وقال الشعبى: هدى من الضلالة. وقال سعيد بن جبير: تبيان للمتّقين. وكل ذلك صحيح.

وقال السدى: عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمدانى، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: هم المؤمنون[2].

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به.

وقال أبو رَوْق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال: المؤمنين الذين يتّقون[3] الشرك بى، ويعملون بطاعتى.

وقال سفيان الثورى، عن رجل، عن الحسن البصرى، قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال: اتّقوا ما حرّم الله عليهم، وأدوا ما افترض عليهم.

وقال أبو بكر بن عياش: سألنى الأعمش عن المتّقين، قال: فأجبته. فقال [لى][4]: سل عنها الكلبى، فسألته فقال: الذين يجتنبون كبائر الإثم. قال: فرجعت إلى الأعمش، فقال: نرى أنه كذلك. ولم ينكره.

وقال قتادة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: هم الذين نعتهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾. الآية والتى بعدها [البقرة: ٣، ٤].

واختار ابن جرير: أن الآية تَعُمّ ذلك كله، وهو كما قال.

وقد روى الترمذى وابن ماجه، من رواية أبى عقيل عبد الله بن عقيل، عن عبد الله بن يزيد، عن ربيعة بن يزيد، وعطية بن قيس، عن عطية السعدى، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس[5]». ثم قال الترمذى: حسن غريب[6].

---

(١) فى جـ، ب: «نور». (٢) فى جـ: «يعني نوراً للمؤمنين».
(٣) فى جـ: «يتعوذون».
(٤) زيادة من جـ، ط، ب. (٥) فى ب: «البأس».
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٤٥١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢١٥).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن عمران، حدثنا إسحاق بن سليمان، يعنى الرازى، عن المغيرة بن مسلم، عن ميمون أبى حمزة، قال: كنت جالساً عند أبى وائل، فدخل علينا رجل، يقال له: أبو عفيف، من أصحاب معاذ، فقال له شقيق بن سلمة: يا أبا عفيف، ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل؟ قال: بلى سمعته يقول: يحبس الناس يوم القيامة فى بقيع واحد، فينادى مناد: أين المتَّقون؟ فيقومون فى كَنَف من الرّحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر. قلت: من المتّقون؟ قال: قوم اتَّقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة، فيمرون إلى الجنة[١].

وأصل التقوى: التوقى مما يكره لأن أصلها وقوى من الوقاية. قال النابغة:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

وقال الآخر:

فألقت قناعا دونه الشمس واتقت ... بأحسن موصولين كف ومعصم

وقد قيل: إن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، سأل أبىّ بن كعب عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى. وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

وأنشد أبو الدرداء يوماً:

يريد المرء أن يؤتى مناه ... ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتى ومالى ... وتقوى الله أفضل ما استفادا

وفى سنن ابن ماجه عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة، إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله»[٢].

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ (٣)﴾

قال أبو جعفر الرازى، عن العلاء بن المسيب بن رافع، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله، قال: الإيمان التصديق.

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٣) وفى إسناده ميمون القصاب ضعيف.

(٢) سنن ابن ماجة برقم (١٨٥٧) من طريق عثمان بن أبى العاتكة عن على بن زيد عن القاسم، عن أبى أمامة رضى الله عنه، وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٧٠): «هذا إسناد فيه على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، وعثمان بن أبى العاتكة مختلف فيه».

وقال علي بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدقون.

وقال مَعْمَر عن الزهرى: الإيمان العمل.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يخشون.

قال ابن جرير وغيره: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولا واعتقاداً وعملا، قال: وقد تدخل الخشية لله فى معنى الإيمان، الذى هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعةٌ للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل. قلت: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل فى القرآن، والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال؛ كقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الإنشقاق: ٢٥، والتين: ٦]، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعى المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولا وعملا. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو عُبَيد وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أوردنا[1] الكلام فيها فى أول شرح البخارى، ولله الحمد والمنة.

ومنهم من فسره بالخشية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢]، وقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، والخشية خلاصة الإيمان والعلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد.

قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، فى قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله.

وكذا قال قتادة بن دعامة.

وقال السدى، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى[2] ﷺ: أما الغَيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة، وأمر النار، وما ذكر فى القرآن.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عِكْرِمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ قال: بما جاء منه، يعنى: مِنَ الله تعالى.

وقال سفيان الثورى، عن عاصم، عن زِرّ، قال: الْغَيْب القرآن.

---

(١) فى جـ، ط: «وأفردنا». (٢) فى جـ، ط: «رسول الله».

وقال عطاء بن أبى رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب.

وقال إسماعيل بن أبى خالد: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ قال: بغيب الإسلام.

وقال زيد بن أسلم: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ قال: بالقدر. فكل هذه متقاربة فى معنى واحد؛ لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذى يجب الإيمان به.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن عبد الرحمن ابن يزيد(١)، قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فذكرنا أصحاب رسول الله ﷺ وما سبقوا به، قال: فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه، والذى لا إله غيره ما آمن أحد قط إيمانا أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿**الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ إلى قوله: ﴿**الْمُفْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١ ـ ٥](٢).

وهكذا رواه ابن أبى حاتم، وابن مَرْدُويه، والحاكم فى مستدركه، من طرق، عن الأعمش، به(٣).

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وفى معنى هذا الحديث الذى رواه [الإمام](٤) أحمد، حدثنا أبو المغيرة، أخبرنا الأوزاعى، حدثنى أسيد(٥) بن عبد الرحمن، عن خالد بن دُرَيك، عن ابن مُحَيريز، قال: قلت لأبى جمعة: حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم، أحدثك حديثاً جيداً: تغدينا(٦) مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فقال: يا رسول الله، هل أحد(٧) خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «نعم»، قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى»(٨).

طريق أخرى: قال أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسيره: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن صالح بن جُبَير، قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصارى، صاحب رسول الله ﷺ ببيت المقدس، ليصلى فيه، ومعنا يومئذ رجاء ابن حيوة، فلما انصرف(٩) خرجنا نشيعه، فلما أراد الانصراف قال: إن لكم جائزة وحقا؛ أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، قلنا: هات رحمك الله. قال: كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ ابن جبل عاشر عشرة، فقلنا: يا رسول الله، هل من قوم أعظم أجراً منا؟ آمنا بك واتبعناك، قال:

---

(١) فى أ: «زيد».

(٢) سنن سعيد بن منصور برقم (١٨٠) تحقيق د. الحميد.

(٣) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٤) والمستدرك (٢/ ٢٦٠).

(٤) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و. (٥) فى هـ: «أسد». (٦) فى جـ: «فعدنا».

(٧) فى جـ: «أأحد».

(٨) المسند (٤/ ١٠٦) قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة (٤/ ٣٣): «واختلف فيه على الأوزاعى، فقال الأكثر: عن أسيد عن خالد بن دريك عن ابن محيريز. وقال ابن شماسة: عن الأوزاعى عن أسيد عن صالح بن محمد حدثنى أبو جمعة به» وقال فى فتح البارى (٧/ ٦): «إسناده حسن».

(٩) فى جـ: «انصرفنا».

«ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحى من السماء، بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجرا» مرتين[١].

ثم رواه من حديث ضَمْرَةَ بن ربيعة، عن مرزوق بن نافع، عن صالح بن جبير، عن أبى جمعة، بنحوه[٢].

وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوِجَادة التى اختلف فيها أهل الحديث، كما قررته فى أول شرح البخارى؛ لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجراً من هذه الحيثية لا مطلقا.

وكذا الحديث الآخر الذى رواه الحسن بن عرفة العبدى: حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصى، عن المغيرة بن قيس التميمى، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «أى الخلق أعجب إليكم إيمانا؟». قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟». قالوا: فالنبيون. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟». قالوا: فنحن. قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟». قال: فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن أعجب الخلق إلىّ إيمانا لَقَوْمٌ يكونون من بعدكم يَجدونَ صحفا فيها كتاب يؤمنون بما فيها»[٣].

قال أبو حاتم الرازى: المغيرة بن قيس البصرى منكر الحديث.

قلت: ولكن قد روى أبو يعلى فى مسنده، وابن مردويه فى تفسيره، والحاكم فى مستدركه، من حديث محمد بن أبى حميد، وفيه ضعف، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر، عن النبى ﷺ، بمثله أو نحوه. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[٤]، وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعاً[٥]، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن محمد المسندى، حدثنا إسحاق بن إدريس، أخبرنى إبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصارى، أخبرنى جعفر بن محمود، عن جدته تويلة[٦] بنت أسلم، قالت: صليت الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء[٧]، فصلينا سجدتين، ثم جاءنا من يخبرنا: أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت[٨] الحرام، فتحول النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، فصلينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلون[٩] البيت الحرام.

قال إبراهيم: فحدثنى رجال من بنى حارثة: أن رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك قال: «أولئك قوم

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/٢٣) عن بكر بن سهل عن عبد الله بن صالح به.
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/٢٣) من طريق ضمرة بن ربيعة به.
(٣) جزء الحسن بن عرفة برقم (١٩).
(٤) مسند أبى يعلى (١/١٤٧) والمستدرك (٤/٨٥) وتعقب الذهبى الحاكم فقال: «بل ضعفوه».
(٥) رواه البزار فى مسنده (٢٨٤٠) «كشف الأستار» من طريق سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أنس رضى الله عنه، وقال: «غريب من حديث أنس».
(٦) فى هـ: «نويلة». (٧) فى جـ: «المسجد الأقصى». (٨) فى جـ، ط: «بيت الله».
(٩) فى ط، ب، أ، و: «مستقبلوا».

آمنوا بالغيب»[١].

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾

قال ابن عباس: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أى: يقيمون الصلاة بفروضها.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: إقامة[٢] الصلاة إتمام[٣] الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها.

وقال قتادة: إقامة[٤] الصلاة المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها وسجودها.

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها[٥]، وتمام ركوعها وسجودها[٦] وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبى ﷺ، فهذا إقامتها.

وقال على بن أبى طلحة، وغيره عن ابن عباس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم.

وقال السدى، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس: وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله[٧] ﷺ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: هى نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة.

وقال جُوَيْبِر، عن الضحاك: كانت النفقات قربات[٨] يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصدقات: سبعُ آيات فى سورة براءة، مما يذكر فيهن الصدقات، هن الناسخات المُثْبَتَات.

وقال قتادة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عوارىّ وودائع عندك يا ابن آدم، يوشك أن تفارقها.

واختار ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة والنفقات، فإنه قال: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم: أن يكونوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم مُؤَدِّين، زكاة كان ذلك أو نفقة مَنْ لزمته نفقته، من أهل أو عيال وغيرهم، ممن تجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك؛ لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك، وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه.

قلت: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهى مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٦) وفى إسناده إسحاق بن إدريس قال البخارى: «تركه الناس». وقال ابن معين: «يضع الحديث». ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤/ ٢٠٧) من طريق إبراهيم بن حمزة الزبيرى، عن إبراهيم بن جعفر عن أبيه به نحوه.

(٢) فى جـ، ط: «إقام». (٣) فى جـ، ط، ب: «تمام». (٤) فى ط: «إقام».

(٥) فى جـ: «لها». (٦) فى جـ: «وإتمام الركوع والسجود». (٧) فى جـ: «النبى».

(٨) فى جـ، ط، ب: «قرباناً».

الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل فى قوله تعالى: ﴿وممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «بُنِىَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»[١]. والأحاديث فى هذا كثيرة.

وأصل الصلاة فى كلام العرب الدعاء، قال الأعشى:

لها حارس لا يبرحُ الدهرَ بيْتَها ... وإن ذُبحَتْ صلى عليها وزَمْزَما[٢]

وقال أيضاً[٣]:

وقابلهــا الريـح فــى دَنّهـا ... وصلــى علــى دَنّهـا وارتـسم[٤]

أنشدهما ابن جرير مستشهدا على ذلك.

وقال الآخر ـ وهو الأعشى أيضاً ـ:

تقــول بنتــى وقــد قَرَّبْتُ مرتحــلا ... يارب جنِّبْ أبى الأوصابَ والوَجَعَا

عليكِ مثلُ الذى صليتِ فاغتمضى ... نومــا فإن لِجَنْب المــرء مُضْطجعــا

يقول عليك: من الدعاء مثل الذى دعيته لى. وهذا ظاهر، ثم استعملت الصلاة فى الشرع فى ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة فى الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها [المشروعة][٥] المشهورة.

وقال ابن جرير: وأرى أن الصلاة المفروضة سميت صلاة؛ لأن المصلى يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه من[٦] حاجته[٧].

[وقيل: هى مشتقة من الصلوين إذا تحركا فى الصلاة عند[٨] الركوع، وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتنفا[٩] عجب الذنب، ومنه سمى المصلى وهو الثانى للسابق فى حلبة الخيل، وفيه نظر، وقيل: هى مشتقة من الصلى، وهو الملازمة للشىء من قوله: ﴿لا يَصْلاهَا﴾ أى: يلزمها ويدوم فيها ﴿إلاَّ الأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥] وقيل: مشتقة من تصلية الخشبة فى النار لتقوّم، كما أن المصلى يقوّم عوجه بالصلاة: ﴿إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر، والله أعلم][١٠].

وأما الزكاة فسيأتى الكلام عليها فى موضعه، إن شاء الله.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٨) وصحيح مسلم برقم (١٦).

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ٢٤٢).

(٣) فى ب: «الآخر».

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ٢٤٢).

(٥) زيادة من ط.

(٦) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فيها».

(٧) فى أ، و: «حاجاته».

(٨) فى أ: «فى».

(٩) فى أ: «يكشفا».

(١٠) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾.

قال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أى: يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به مَنْ قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يَجْحدون ما جاؤوهم به من ربهم ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أى: بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان.

وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا. وقد اختلف المفسرون فى الموصوفين هاهنا: هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] ومن هم؟ على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير:

أحدهما(١): أن الموصوفين أوّلا هم الموصوفون ثانياً، وهم كل مؤمن، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم، قاله مجاهد، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة.

والثانى: هما واحد، وهم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى. وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى. فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى: ١ ـ ٥] وكما قال الشاعر:

إلى الملك القَرْم وابن الهُمام ... وليثِ الكتيبة فى المُزْدَحَم

فعطف الصفات بعضها على بعض، والموصوف واحد.

والثالث: أن الموصوفين أولا مؤمنو العرب، والموصوفون ثانيا بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية مؤمنو(٢) أهل الكتاب، نقله السدى فى تفسيره، عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة، واختاره ابن جرير، ويستشهد لما قال بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩]، وبقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤]. وثبت فى الصحيحين، من حديث الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها»(٣).

وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة، وهى أن الله تعالى وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين، فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين: منافق وكافر، فكذلك المؤمنون صنفهم إلى عربى وكتابى.

قلت: والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثورى، عن رجل، عن مجاهد. ورواه غير واحد، عن

---

(١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «أحدها». (٢) فى جـ، ط، ب: «المؤمنى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤).

ابن أبى نَجيح، عن مجاهد أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة فى نعت المؤمنين، وآيتان فى نعت الكافرين، وثلاث عشرة فى المنافقين، فهذه الآيات الأربع عامة فى كل مؤمن اتصف بها من عربى وعجمى، وكتابى من إنسى وجنى، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وما جاء به مَنْ قبله من الرسل والإيقان بالآخرة، كما أن هذا لا يصح إلا بذاك، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذلك، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]. وقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك، فقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] وغير ذلك من الآيات الدالة على أمْر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسله وكتبه. لكن لمؤمنى أهل الكتاب خصوصية، وذلك أنهم مؤمنون بما بأيديهم(١) مفصلا، فإذا دخلوا فى الإسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان، بما تقدم مجملا، كما جاء فى الصحيح: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، ولكن قولوا: آمنا بالذى(٢) أنزل إلينا وأنزل إليكم»(٣)، ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذى بعث به محمد ﷺ أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم فى الإسلام، فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيثية، فغيرهم [قد](٤) يحصل له من التصديق ما يُنيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم، والله أعلم.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤﴾.

يقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أى: المتصفون بما تقدم: من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذى رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومَنْ قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة، وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصالحات وترك المحرمات.

﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ أى: نور وبيان وبصيرة من الله تعالى. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

---

(١) فى جـ: «بما فى أيديهم». (٢) فى ط، ب، أ، و: «بما».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٥، ٧٣٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٤) زيادة من ط، ب.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: على نور من ربهم، واستقامة على ما جاءهم، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا.

وقال ابن جرير: وأما معنى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نور من ربهم، وبرهان واستقامة وسداد، بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم وتأويل قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى المُنْجِحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله، من الفوز بالثواب، والخلود فى الجنات، والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب(١).

وقد حكى ابن جرير قولا عن بعضهم أنه أعاد اسم الإشارة فى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إلى مؤمنى أهل الكتاب الموصوفين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، على ما تقدم من الخلاف. [قال](٢) :وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ منقطعا(٣) مما قبله، وأن يكون مرفوعاً على الابتداء وخبره ﴿[أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَ](٤)أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. واختار أنه عائد إلى جميع من تقدم ذكره من مؤمنى العرب وأهل الكتاب، لما رواه السدى عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: أما الذين يؤمنون بالغيب، فهم المؤمنون من العرب، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أهل الكتاب. ثم جمع الفريقين فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقد تقدم من الترجيح أن ذلك صفة للمؤمنين عامة، والإشارة عائدة عليهم، والله أعلم. وقد نقل هذا عن مجاهد، وأبى العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، رحمهم الله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى، حدثنا أبى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنى عبيد الله بن المغيرة عن أبى الهيثم واسمه سليمان بن عبد، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ وقيل له: يا رسول الله، إنا نقرأ من القرآن فنرجو، ونقرأ من القرآن فنكاد أن نيأس، أو كما قال. قال: فقال: «أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «﴿الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾» إلى قوله تعالى: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ هؤلاء أهل الجنة». قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء. ثم قال: «﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ هؤلاء أهل النار». قالوا: لسنا هم يا رسول الله. قال: «أجل»(٥).

---

(١) تفسير الطبرى (١/٢٤٩).

(٢) زيادة من جـ، ب، أ، و.

(٣) فى جـ، ط، ب، أ، و: «مقتطعاً».

(٤) زيادة من جـ، ط، ب.

(٥) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٤٠).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾

يقول تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: غطوا الحق وستروه، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال فى حق المعاندين من أهل الكتاب: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ الآية [البقرة: ١٤٥] أى: إن من[١] كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسْعِد له، ومن أضلَّه فلا هادى له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلّغهم الرّسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يُهْمدَنَّك ذلك؛ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، و﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرصُ أن يؤمن جميع النَّاس ويُتَابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادةُ فى الذكر الأوّل، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الأوّل.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: بما أنزل إليك، وإن قالوا: إنَّا قد آمنا بما جاءنا قبلك ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق، فقد[٢] كفروا بما جاءك، وبما عندهم مما جاءهم به غيرك، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً، وقد كفروا بما عندهم من علمك؟!

وقال أبو جعفر الرّازى، عن الرّبيع بن أنس، عن أبى العالية، قال: نزلت هاتان الآيتان فى قادة الأحزاب، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

والمعنى الذى ذكرناه أوّلا، وهو المروى عن ابن عباس فى رواية ابن أبى طلحة، أظهر، ويفسر[٣] ببقية الآيات التى فى معناها، والله أعلم.

وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثاً، فقال: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى، حدثنا أبى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنى عبد الله بن المغيرة، عن أبى الهيثم[٤]، عن عبد الله ابن عمرو، قال: قيل: يا رسول الله، إنَّا نقرأ من القرآن فنرجو، ونقرأ فنكاد أن نيأس، فقال: «ألا أخبركم»، ثم قال: «﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ هؤلاء أهل النار». قالوا: لسنا هم يا رسول الله؟ قال: «أجل»[٥].

---

(١) فى جـ: «إلا أنه من». (٢) فى جـ، ط، ب: «وقد». (٣) فى جـ: «وتفسيره»، وفى ط، ب: «ويفسره».

(٤) فى جـ: «القسم».

(٥) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٤٢).

[وقوله: ﴿لا يُؤمِنُونَ﴾: محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتى قبلها: ﴿سَوَاءٌ عَلَيهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أى هم كفار فى كلا الحالين؛ فلهذا أكد ذلك بقوله: ﴿لا يُؤمِنُونَ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿لا يُؤمِنُونَ﴾ خبراً لأن تقديره: إن الذين كفروا لا يؤمنون، ويكون قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ جملة معترضة، والله أعلم][1].

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑦﴾.

قال السّدى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ أى: طبع الله. وقال قتادة فى هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون.

وقال ابن جُرَيْج: قال مجاهد: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: نبئت أن الذنوب على القلب تحف به[2] من كل نواحيه حتى تلتقى عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم، قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع.

قال ابن جريج: وحدثنى عبد الله بن كَثير، أنه سمع مجاهداً يقول: الرّانُ أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال، والأقفال أشد ذلك كله.

وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب فى مثل هذه[3] ـ يعنى: الكف ـ فإذا أذنب العبد ذنباً ضُمَّ منه. وقال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضَمّ. وقال بأصبع أخرى، فإذا أذنب ضُمّ، وقال بأصبع أخرى هكذا، حتى ضم أصابعه كلها، ثم قال[4]: يطبع عليه بطابع.

وقال مجاهد: كانوا[5] يرون أن ذلك: الرين.

ورواه ابن جرير: عن أبى كُرَيب، عن وَكيع، عن الأعمش، عن مجاهد، بنحوه.

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم، وإعراضهم عن الاستماع لما دُعُوا إليه من الحق، كما يقال: إن فلاناً لأصَمّ عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه، ورفع[6] نفسه عن تفهمه تكبراً.

قال: وهذا لا يصح؛ لأن الله قد أخبر أنه هو الذى ختم على قلوبهم وأسماعهم.

(قلت): وقد أطنب الزمخشرى فى تقرير ما رده ابن جرير ههنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً، وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده ـ تعالى الله عنه فى اعتقاده ـ ولو فهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح، فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال والله أعلم.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وذكر حديث تقليب القلوب: «ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»، وذكر حديث حذيفة الذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها

---

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و. (٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وقال: الطبع ينبت الذنوب على القلب فحفت به».
(٣) فى جـ، ط، ب، أ، و: «هذا». (٤) فى ط، ب: «قال: ثم». (٥) فى جـ، ط، ب: «وكانوا». (٦) فى جـ: «يرفع».

نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً) الحديث.

قال[١]: والحق عندى فى ذلك ما صَحّ بنظيره[٢] الخبرُ عن رسول الله ﷺ، وهو ما حدثنا به محمد ابن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا ابن عَجْلان، عن القعقاع، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نُكْتة سوداء فى قلبه، فإن تاب ونَزَعَ واستعتب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الرّان الذى قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[٣].

وهذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذى والنسائي، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم بن إسماعيل والوليد بن مسلم، ثلاثتهم عن محمد بن عجلان، به[٤].

وقال الترمذى: حسن صحيح.

ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها[٥] مخلص، فذلك[٦] هو الختم والطبع الذى ذكر[٧] فى قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التى لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض[٨] ذلك عنها ثم حلها، فكذلك[٩] لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه وحَلّه رباطه [عنها][١٠].

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة - وهى الغطاء - تكون على البصر، كما قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك، عن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرّة الهَمْدانى، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله[١١] ﷺ فى قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ يقول: فلا يعقلون ولا يسمعون، ويقول: وجعل على أبصارهم غشاوة، يقول: على أعينهم فلا يبصرون.

قال[١٢] ابن جرير: حدثنى محمد بن سعد[١٣]، حدثنا أبى، حدثنى عمى الحسين بن الحسن، عن أبيه، عن جده، عن ابن عباس: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾: والغشاوة على أبصارهم.

وقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، يعنى ابن داود، وهو سُنَيد، حدثنى حجاج، وهو ابن محمد الأعور، حدثنى ابن جريج قال: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، قال الله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ

---

(١) فى جـ، ط: «قال ابن جرير».
(٢) فى جـ: «ما صح به بنظره».
(٣) تفسير الطبرى (١/٢٦٠).
(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٣٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٨) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٤٤).
(٥) فى أ، و: «منها».
(٦) فى جـ: «فلذلك».
(٧) فى و: «ذكره الله».
(٨) فى جـ: «إلى نقض».
(٩) فى جـ: «فلذلك».
(١٠) زيادة من جـ، ط.
(١١) فى جـ، ط: «النبى».
(١٢) فى جـ، ط: «وقال».
(١٣) فى أ: «سفيان».

بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣](١).

قال(٢) ابن جرير: ومن نصب غشاوة من قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ يحتمل(٣) أنه نصبها بإضمار فعل، تقديره: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويحتمل أن يكون نصبها على الاتباع، على محل ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢]، وقول الشاعر:

عَلَفْتُها تبناً وماء بارداً ... حتى شَتَتْ هَمَّالَةً عيناها(٤)

وقال الآخر:

ورأيت زَوْجَك فى الوغى ... متقلِّداً سيفاً ورُمْحاً (٥)

تقديره: وسقيتها ماء بارداً، ومعتَقلا رمحاً.

لما تقدم وصف المؤمنين فى صدر السورة بأربع آيات، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى فى بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب فى ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل(٦) سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم فى سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجتنب، ويجتنب من تلبس(٧) بها أيضاً، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾.

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادى، وهو الذى يخلد صاحبه فى النار، وعملى وهو من أكبر الذنوب، كما سيأتى تفصيله(٨) فى موضعه، إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قَوْلُه فِعْلَهُ، وسِرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مَغيبه.

وإنما نزلت صفات المنافقين فى السّور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مُسْتكْرَهًا، وهو فى الباطن مؤمن، فلمَّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركى العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنو النَّضِير، وبنو قُرَيْظَة حلفاء الأوس، فلمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم

---

(١) تفسير الطبرى (١/ ٢٦٥).

(٢) فى جـ: «وقال».

(٣) فى جـ، ط: «فيحتمل».

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ٢٦٤).

(٥) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ٢٦٥) وهو للحارث المخزومى.

(٦) فى جـ: «كما أنزلت».

(٧) فى جـ: «يتلبس».

(٨) فى جـ: «تفسيره».

من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج، وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سَلام، رضى الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضا؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه، الصلاة والسلام، وَادَعَ اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالى المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبىّ بن سلول، وكان رأسا فى المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد تَوَجَّه فأظهر الدخول فى الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمّ وُجِد النفاق فى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرَهاً، بل يهاجر ويترك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله فى الدار الآخرة.

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عِكْرِمة، أو سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى: المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم.

وكذا فسَّرها بالمنافقين أبو العالية، والحسن، وقتادة، والسدى.

ولهذا نبَّه الله، سبحانه، على صفات المنافقين لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار فى نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خَيْر، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أى: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شىء آخر، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] أى: إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط، لا فى نفس الأمر؛ ولهذا يؤكدون فى الشهادة بإن ولام التأكيد فى خبرها؛ كما أكّدوا قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، وليس الأمر كذلك، كما أكْذبهم الله فى شهادتهم، وفى خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وبقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يَغُرُّون بصنيعهم ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

ومن القراء من قرأ: «وما يخادعون[1] إلا أنفسهم»، وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد.

---

(١) فى جـ، ط، ب: «يخدعون».

قال ابن جرير: فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعاً، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟

قيل: لا تمتنع[١] العرب من أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذى فى ضميره تقية، لينجو مما هو له خائف، مخادعاً، فكذلك المنافق، سمى مخادعاً لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر[٢] بلسانه تقية، مما تخلص به من القتل والسباء[٣] والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر، مستبطن، وذلك من فعله ـ وإن كان خداعاً للمؤمنين فى عاجل الدنيا ـ فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يُظْهِر لها بفعله ذلك بها أنَّه يعطيها أمنيّتها، ويُسقيها كأس[٤] سرورها، وهو موردها به حياض عطبها، ومُجرّعها بها كأس عذابها، ومُزيرُها[٥] من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبَلَ لها به، فذلك خديعته نفسه، ظناً منه ـ مع إساءته إليها فى أمر معادها ـ أنه إليها محسن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إعلاماً منه عبَادَه المؤمنين أنّ المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم فى إسْخَاطهم[٦] عليها ربهم بكفرهم، وشكهم وتكذيبهم، غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون[٧].

وقال ابن أبى حاتم: أنبأنا علىّ بن المبارك، فيما كتب إلىّ، حدثنا زيد بن المبارك، حدثنا محمد ابن ثور، عن ابن جُرَيج، فى قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ قال: يظهرون «لا إله إلا الله» يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفى أنفسهم غير ذلك[٨].

وقال سعيد، عن قتادة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ نعت المنافق عند كثير: خَنِعُ الأخلاق يصدّق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله، يصبح على حال ويمسى على غيره، ويمسى على حال ويصبح على غيره، يتكفأ تكفأ السفينة كلما هبّت ريح هبّ معها.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾.

قال السدى، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرّة الهمدانى عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ فى هذه الآية: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، قال: شك، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: شكاً.

وقال [محمد][٩] بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عِكْرِمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس [فى قوله][١٠]: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: شك.

---

(١) فى جـ: «لا تمنع».
(٢) فى أ، و: «ما أظهره».
(٣) فى أ: «السبى».
(٤) فى جـ: «بكأس».
(٥) فى أ: «ويزيدها».
(٦) فى جـ: «بإسخاطهم».
(٧) تفسير الطبرى (١/ ٢٧٣).
(٨) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٤٦).
(٩) زيادة من و.
(١٠) زيادة من جـ.

وكذلك قال مجاهد، وعكرمة، والحسن البصرى، وأبو العالية، والرّبيع بن أنس، وقتادة.

وعن عكرمة، وطاوس: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: يعنى: الرياء.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: نفاق ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: نفاقاً، وهذا كالأول.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: هذا مرض فى الدين، وليس مرضاً فى الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذى دخلهم فى الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم رجساً، وقرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، قال: شراً إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم.

وهذا الذى قاله عبد الرحمن، رحمه الله، حسن، وهو الجزاء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: وقرئ «يكذّبون»، وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كذبة يكذبون بالحق يجمعون بين هذا وهذا. وقد سئل القرطبى وغيره من المفسرين عن حكمة كفه، عليه السلام، عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم، وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت فى الصحيحين: أنه قال لعمر: «أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه»(١)، ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول فى الإسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمداً يقتل أصحابه، قال القرطبى: وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطى المؤلفة قلوبهم مع علمه بشر اعتقادهم. قال ابن عطية: وهى طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضى إسماعيل والأبهرى وابن الماجشون. ومنها: ما قال مالك، رحمه الله: إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه.

قال القرطبى: وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضى لا يقتل بعلمه، وإن اختلفوا فى سائر الأحكام، قال: ومنها ما قال الشافعى: إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم؛ لأن ما يظهرونه يجبّ ما قبله. ويؤيد هذا قوله، عليه السلام، فى الحديث المجمع على صحته فى الصحيحين وغيرهما: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، عز وجل»(٢). ومعنى هذا: أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً، فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك فى الدار الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه فى الآخرة جريان الحكم عليه فى الدنيا، وكونه كان

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٠٢) وصحيح مسلم برقم (٣٣١٤).
(٢) صحيح البخارى برقم (٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٢) من حديث ابن عمرو رضى الله عنهما.

خليط أهل الإيمان ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الآية [الحديد: ١٤]؛ فهم يخالطونهم فى بعض المحشر، فإذا حقت المحقوقية تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث، ومنها ما قاله بعضهم: إنه إنما لم يقتلهم لأنه كان يخاف من شرهم مع وجوده، عليه السلام، بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبينات، فأما بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون، قال مالك: المنافق فى عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم. قلت: وقد اختلف العلماء فى قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا. أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا، أو يتكرر منه ارتداده أم لا أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه؟ على أقوال موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكام.

(تنبيه) قول من قال: كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان فى تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً فى غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله ﷺ فى ظلماء الليل عند عقبة هناك؛ عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله إليه أمرهم فأطلع على ذلك حذيفة. ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم.

فأما غير هؤلاء فقد قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مردُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمهم نَحْنُ نَعلَمُهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَه الْمُنَافِقُونَ والذينَ فى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فى الْمَدِينَةِ لنغرينك بِهِم ثُمَّ لا يُجاوِرونَكَ فيها إلا قليلًا مَلْعونين أَيْنَمَا ثقفوا أُخذوا وقتلوا تَقْتيلًا﴾ ففيها دليل على أنه لم يغر بهم ولم يدرك على أعيانهم وإنما كانت تذكر له صفاتهم فيتوسمها فى بعضهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْناكهم فلعرفتهم بسيماهُم ولتعرفنَّهُم فى لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي بن سلول وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذى سبق فى صفات المنافقين ومع هذا لما مات [صلى عليه] ﷺ وشهد دفنه كما يفعل ببقية المسلمين، وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه فقال: «إنى أكره أن تتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه» وفى رواية فى الصحيح «إنى خيرت فاخترت» وفى رواية «لو أنى أعلم لو زدت على السبعين يغفر الله له لزدت».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢)﴾.

قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مُرّة الطيب الهمدانى، عن ابن مسعود، وعن أناس[1] من أصحاب رسول الله[2] ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: أما لا تفسدوا فى الأرض، قال: الفساد هو الكفر، والعمل بالمعصية.

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ﴾ قال: يعنى: لا تعصُوا فى الأرض. وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأنه من عصى الله فى الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد فى الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطّاعة.

وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة.

وقال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ﴾ قال: إذا ركبوا معصية الله، فقيل لهم: لا تفعلوا كذا وكذا، قالوا: إنما نحن على الهدى، مصلحون.

---

(١) فى ط، ب: «ناس». (٢) فى أ: «النبي».

وقد قال وَكِيع، وعيسى بن يونس، وعثّام بن على، عن الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله الأسدى، عن سلمان الفارسى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قال سلمان: لم يجىء أهل هذه الآية بعد.

وقال ابن جرير: حدثنى أحمد بن عثمان بن حَكيم، حدثنا عبد الرحمن بن شَريك، حدثنى أبى، عن الأعمش، عن زيد بن وهب وغيره، عن سلمان، فى هذه الآية، قال: ما جاء هؤلاء بَعْدُ[١].

قال ابن جرير: يحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا فى زمان النبي ﷺ، لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد[٢].

قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكّهم فى دينه الذى لا يُقْبَلُ من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والرّيب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا. فذلك إفساد المنافقين فى الأرض، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها[٣].

وهذا الذى قاله حسن، فإن من الفساد فى الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾ [النساء: ١٤٤] ثم قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء: ١٤٥] فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذى غرّ المؤمنين بقوله الذى لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمر على حالته[٤] الأولى لكن شرّه أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: نريد أن ندارى الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، كما قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أى: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: ألا إن هذا الذى يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾.

يقول [الله][٥] تعالى: وإذا قيل للمنافقين: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاس﴾ أى: كإيمان الناس بالله وملائكته

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٨٨). (٢)(٣) تفسير الطبري (١/ ٢٨٩). (٤) فى أ، و: لحاله». (٥) زيادة من (أ).

وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنَّة والنَّار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله فى امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قالوا أنؤمنُ كما آمنَ السُّفهاء﴾، يعنون ـ لعنهم الله ـ أصحابَ رسول الله ﷺ، رضى الله عنهم، قاله أبو العالية والسدى فى تفسيره، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة، وبه يقول الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء!!

والسفهاء: جمع سفيه، كما أن الحكماء جمع حكيم [والحلماء جمع حليم][1]، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرّأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار؛ ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء، فى قوله تعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥] قال عامة علماء السلف: هم النساء والصبيان.

وقد تولى الله، سبحانه، جوابهم فى هذه المواطن كلها، فقال[2]: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم.

﴿وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ يعنى: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ فى العمى، والبعد عن الهدى.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾.

يقول [الله][3] تعالى: وإذا لقى هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿آمَنَّا﴾ أى: أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقا ومصانعة وتقية، وليَشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعنى: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا[4] إلى شياطينهم. فضمن ﴿خَلَوْا﴾ معنى انصرفوا؛ لتعديته بإلى؛ ليدل على الفعل المضمر والفعل المفلوظ[5] به. ومنهم من قال: «إلى» هنا بمعنى «مع»، والأول أحسن، وعليه يدور كلام ابن جرير.

وقال السدى عن أبى مالك: ﴿خَلَوْا﴾ يعنى: مضوا، و﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعنى: سادتهم وكبراءهم ورؤساءهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين.

قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرّة عن ابن مسعود، عن ناس من أصحاب النبى ﷺ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعنى: هم رؤوسهم من الكفر.

وقال الضحاك عن ابن عباس: وإذا خلوا إلى أصحابهم، وهم شياطينهم.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عِكْرِمة، أو سعيد بن جُبَيْر، عن ابن

(١) زيادة من ط، ب، و. (٢) فى أ: «؛كما قال». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى أ، و: «أو ذهبوا أو خلصوا». (٥) فى ط، ب، أ، و: «الملفوظ».

عباس: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول.

وقال مجاهد: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾: إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين.

وقال قتادة: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال: إلى رؤوسهم، وقادتهم فى الشرك، والشر.

وبنحو ذلك فسَّره أبو مالك، وأبو العالية، والسدى، والرّبيع بن أنس.

قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مَرَدَتُه، وتكون الشياطين من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفى المسند عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن». فقلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم»(١).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾: قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أى إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: قالوا إنما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمد ﷺ.

وكذلك قال الرّبيع بن أنس، وقتادة.

وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

قال(٢) ابن جرير: أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة، فى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الآية [الحديد: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]. قال: فهذا وما أشبهه، من استهزاء الله، تعالى ذكره، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين، وأهل الشرك به عند قائل هذا القول، ومتأول هذا التأويل.

قال: وقال آخرون: بل استهزاؤه بهم توبيخه إياهم، ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه، والكفر به.

قال: وقال آخرون: هذا وأمثاله على سبيل الجواب، كقول الرّجل لمن يخدعه إذا ظفر به: أنا الذى خدعتك. ولم تكن منه خديعة، ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه، قالوا: وكذلك قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] و﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ على الجواب، والله

(١) المسند (٥/١٧٨).

(٢) فى ط، ب: «وقال».

لا يكون منه المكر ولا الهزء، والمعنى: أن المكر والهُزْء حَاق بهم.

وقال آخرون: قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ. اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾: [النساء: ١٤٢]، وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾، و[التوبة: ٧٩] و﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وما أشبه ذلك، إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم[(١)] جَزَاءَ الاستهزاء، ويعاقبهم[(٢)] عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مُخرج خبره عن فعلهم الذى عليه استحقوا العقاب فى اللفظ، وإن اختلف المعنيان، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فالأول ظلم، والثانى عدل، فهما وإن اتفق لفظاهما فقد اختلف معناهما.

قال: وإلى هذا المعنى وَجَّهوا كل ما فى القرآن من نظائر ذلك.

قال: وقال آخرون: إن معنى ذلك: أنّ الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خَلَوا إلى مَرَدَتهم قالوا: إنا معكم على دينكم، فى تكذيب محمد ﷺ وما جاء به، وإنما نحن بما يظهر لهم ـ من قولنا لهم: صدقنا بمحمد، عليه السلام، وما جاء به مستهزئون؛ فأخبر الله تعالى أنه يستهزئ بهم، فيظهر لهم من أحكامه فى الدنيا، يعنى من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذى لهم عنده فى الآخرة، يعنى من العذاب والنكال[(٣)].

ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله، عز وجل، بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك.

قال: وبنحو ما قلنا فيه روى الخبر عن ابن عباس: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان، حدثنا بشر، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، قال: يسخر بهم للنقمة منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: قال السدى، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرّة، عن ابن مسعود، وعن أناس[(٤)] من الصحابة [قالوا][(٥)]: يَمدهم: يملى لهم.

وقال مجاهد: يزيدهم.

قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم فى عُتُوّهم وتَمَرّدهم، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

---

(١) فى ط، أ، و: «مجازيهم». (٢) فى ط، ب، أ، و: «ومعاقبهم».
(٣) تفسير الطبرى (١/٣٠٣).
(٤) فى جـ، ط، ب: «ناس». (٥) زيادة من ب، و.

والطغيان: هو المجاوزة فى الشىء. كما قال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: فى كفرهم يترددون.

وكذا فسره السدى بسنده عن الصحابة، وبه يقول أبو العالية، وقتادة، والرّبيع بن أنس، ومجاهد، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد: فى كفرهم وضلالتهم.

قال ابن جرير: والعَمَه: الضلال، يقال: عمه فلان يَعْمَه عَمَهاً وعُمُوهاً: إذا ضل.

قال: وقوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: فى ضلالهم[(١)]، وكفرهم الذى غمرهم دَنَسُه، وعَلاهم رِجْسَه، يترددون [حيارى][(٢)] ضُلاَّلاً [(٣)]، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا؛ لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشْداً، ولا يهتدون سبيلا.

[وقال بعضهم: العمى فى العين، والعمه فى القلب، وقد يستعمل العمى فى القلب ـ أيضا ـ: قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ويقال: عمه الرجل يعمه عموها فهو عمه وعامه، وجمعه عمّه، وذهبت إبله العمهاء: إذا لم يدر أين ذهبت][(٤)].

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)﴾.

قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى.

وقال [محمد][(٥)] بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أى: الكفر بالإيمان.

وقال مجاهد: آمنوا ثمّ كفروا.

وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى [أى: الكفر بالإيمان][(٦)]. وهذا الذى قاله قتادة يشبهه فى المعنى قوله تعالى فى ثمود: ﴿وَأَمَّا [(٧)] ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم: أن المنافقين عَدَلُوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾: أى بذلوا الهدى ثمناً للضلالة، وسواء فى ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال

(١) فى ب، أ، و: «ضلالتهم».
(٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٣) فى جـ: «ضلال».
(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٥) زيادة من جـ.
(٦) زيادة من ط.
(٧) فى هـ: «فأما» وهو خطأ.

تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى، كما يكون[١] حال فريق آخر منهم، فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أى: ما ربحت صفقتهم فى هذه البيعة، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: أى: راشدين فى صنيعهم ذلك.

قال[٢] ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: قد ـ والله ـ رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة. وهكذا رواه ابن أبى حاتم، من حديث يزيد بن زُرَيْع، عن سعيد، عن قتادة، بمثله سواء.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾.

[يقال: مثل ومثل ومثيل ـ أيضا ـ والجمع أمثال، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾][٣] [العنكبوت: ٤٣].

وتقرير هذا المثل: أن الله، سبحانه، شبَّههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتَأَنَّس بها فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره، وصار فى ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدى، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء[٤] المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغَيّ على الرّشَد. وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى فى غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقد حكى هذا الذى قلناه فخر الدين الرازى فى تفسيره عن السدى ثم قال: والتشبيه ههنا فى غاية الصحة؛ لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولا نورا ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور فوقعوا فى حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين .

وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا فى وقت من الأوقات، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

والصواب: أن هذا إخبار عنهم فى حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفى أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سُلبوه وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير، رحمه الله، هذه الآية ههنا وهى

---

(١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «كما قد يكون». (٢) فى ط: «وقال». (٣) زيادة من جـ، ط.
(٤) فى جـ: «هم».

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]؛ فلهذا وجه [ابن جرير](١) هذا المثل بأنهم استضاؤوا بما أظهروه من كلمة الإيمان، أى فى الدنيا، ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة.

قال: وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد، كما قال: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] أى: كدوران عينى الذى يغشى عليه من الموت، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وقال بعضهم: تقدير الكلام: مثل قصتهم كقصة الذى استوقد نارا. وقال بعضهم: المستوقد واحد لجماعة معه. وقال آخرون: الذى ههنا بمعنى الذين كما قال الشاعر:

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم   هم القوم كل القوم يا أم خالد(٢)

قلت: وقد التفت فى أثناء المثل من الواحد(٣) إلى الجمع، فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وهذا أفصح فى الكلام، وأبلغ فى النظام، وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أى: أذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾: لا يهتدون إلى سبل(٤) خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون خيراً ﴿بُكْمٌ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمْيٌ﴾ فى ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة.

ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه:

قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، فى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾: زعم أن ناساً دخلوا فى الإسلام مَقْدَمَ نبىّ الله ﷺ المدينة، ثم إنهم نافقوا، فكان مثلهم كمثل رجُل كان فى ظلمة، فأوقد ناراً، فأضاءت ما حوله من قذى، أو أذى، فأبصره حتى عرف ما يتقى منه(٥)، فبينا(٦) هو كذلك إذ طفئت ناره، فأقبل لا يدرى ما يتقى من أذى، فكذلك المنافق: كان فى ظلمة الشرك فأسلم، فعرف الحلال والحرام، و [عرف](٧) الخير والشر، فبينا(٨) هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من

---

(١) زيادة من و.
(٢) البيت للأشهب بن رميلة، كما فى اللسان، مادة «فلج».
(٣) فى جـ، ط، ب، أ، و: «الوحدة».
(٤) فى ط، ب: «سبيل»
(٥) فى جـ، ط، ب: «منها».
(٦) فى أ، و: «فبينما».
(٧) زيادة من جـ.
(٨) فى أ، و: «فبينما».

الحرام، ولا الخير من الشر.

وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ[١]﴾ أما إضاءة النار فإقبالهم[٢] إلى المؤمنين، والهدى.

وقال عطاء الخراسانى فى قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل المنافق، يبصر أحياناً ويعرف أحياناً، ثم يدركه عمى القلب.

وقال ابن أبى حاتم: وروى عن عكرمة، والحسن، والسدى، والرّبيع بن أنس نحو قول عطاء الخراسانى.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فى قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى آخر الآية، قال: هذه صفة المنافقين. كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان فى قلوبهم، كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا[٣]، ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه، كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم فى ظلمات لا يبصرون.

وقال العوفى، عن ابن عباس، فى هذه الآية، قال: أما النور: فهو إيمانهم الذى كانوا يتكلمون به، وأمَّا الظلمة: فهى ضلالتهم وكفرهم الذى كانوا يتكلمون به، وهم قوم كانوا على هدى، ثمّ نزع منهم، فعتوا بعد ذلك.

وأما قول ابن جرير فيشبه ما رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالإسلام، فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العِزّ، كما سُلِب صاحب النار ضَوءه.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الرّبيع بن أنس، عن أبى العالية: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: فإنما ضوء النار ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب نورها، وكذلك المنافق، كلما تكلم بكلمة الإخلاص، بلا إله إلا الله، أضاء له، فإذا شك وقع فى الظلمة.

وقال الضحاك [فى قوله][٤]: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾: أما نورهم فهو إيمانهم الذى تكلموا به.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾: فهى[٥] لا إله إلا الله؛ أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وأمنوا فى الدنيا، ونكحوا النساء، وحقنوا دماءهم، حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون.

وقال سعيد، عن قتادة فى هذه الآية: إن المعنى: أن المنافق تكلم بلا إله إلا الله فأضاءت له الدنيا، فناكح بها المسلمين، وغازاهم بها، ووارثهم بها، وحقن بها دمه وماله، فلما كان عند الموت

---

(١) فى جـ: «ما حوله ذهب الله بنورهم». (٢) فى جـ، ط، ب: «فإقباله». (٣) فى جـ: «استوقدوا نارا».
(٤) زيادة من جـ، ط، ب. (٥) فى جـ: «فهو».

سلبها المنافق؛ لأنه[١] لم يكن لها أصل فى قلبه، ولا حقيقة فى عمله[٢].

﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ يقول: فى عذاب إذا ماتوا.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عِكْرِمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: أى يبصرون الحق ويقولون به، حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفؤوه بكفرهم[٣] ونفاقهم فيه، فتركهم الله فى ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حق.

وقال السدى فى تفسيره بسنده: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: فكانت الظلمة نفاقهم.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾، فذلك[٤] حين يموت المنافق، فيظلم عليه عمله عمل السوء، فلا يجد له عملا من خير عمل به يصدق[٥] به قول: لا إله إلا الله[٦].

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾: قال السدى بسنده ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾: فهم خرس عمى[٧].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ يقول: لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه، وكذا قال أبو العالية، وقتادة بن دعامة.

﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾: قال ابن عباس: أى لا يرجعون إلى هدى، وكذلك[٨] قال الرَّبيع بن أنس.

وقال السدى بسنده: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾: إلى الإسلام.

وقال قتادة: ﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾: أى لا يتوبون[٩]، ولا هم يذكرون.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكّون تارة أخرى، فقلوبهم فى حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿كَصَيِّبٍ﴾، والصيب: المطر؛ قاله ابن مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء،

---

(١) فى جـ: «لأنها». (٢) فى جـ: «علمه». (٣) فى جـ: «طعنوا بكفرهم به».
(٤) فى جـ: «فبذلك». (٥) فى جـ: «يصدقه». (٦) فى ط، ب، و: «إلا هو».
(٧) فى جـ: «عمى خرس». (٨) فى جـ، ط، ب، أ: «وكذا». (٩) فى جـ: «لا يؤمنون».

والحسن البصرى، وقتادة، وعطية العَوْفِى، وعطاء الخراسانى، والسُّدى، والرّبيع بن أنس.

وقال الضحاك: هو السحاب.

والأشهر هو المطر نزل من السماء، فى حال ظلمات، وهى الشكوك والكفر والنفاق. ﴿وَرَعْدٌ﴾: وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع، كما قال تعالى: **﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ [هُمُ الْعَدُوُّ]﴾**[١] [المنافقون: ٤] وقال: **﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ. لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾** [التوبة: ٥٦، ٥٧].

والبرق: هو ما يلمع فى قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين فى بعض الأحيان، من نور الإيمان؛ ولهذا قال: **﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾** أى: ولا يُجْدى عنهم حذرهم شيئاً؛ لأن الله محيط [بهم][٢] بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: **﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ. فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾** [البروج: ١٧ ـ ٢٠].

[والصواعق: جمع صاعقة، وهى نار تنزل من السماء وقت الرعد الشديد، وحكى الخليل بن أحمد عن بعضهم صاعقة، وحكى بعضهم صاعقة وصعقة وصاقعة، ونقل عن الحسن البصرى أنه: قرأ «من الصواقع حذر الموت» بتقديم القاف وأنشدوا لأبى النجم:

يحكوك بالمثقولة القواطع ... شفق البرق عن الصواقع[٣]

قال النحاس: وهى لغة بنى تميم وبعض بنى ربيعة، حكى ذلك القرطبى فى تفسيره][٤].

ثم قال: **﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾** أى: لشدته وقوته فى نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: **﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾** يقول: يكاد مُحْكَمُ القرآن يدل على عورات المنافقين.

وقال ابن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: **﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾**: أى لشدة ضوء الحق، كلما أضاء لهم مشوا فيه **﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾**: أى كلما ظهر لهم من الإيمان شىء استأنسوا[٥] به واتبعوه، وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبَهم فوقفوا حائرين.

---

(١) زيادة من جـ، ط.
(٢) زيادة من جـ، ط، ب.
(٣) البيت فى اللسان، مادة «صقع» وهو فيه:
يحكون بالمصقولة القواطع ... تشقق البرق عن الصواقع
(٤) زيادة من جـ، ط، ب، أ.
(٥) فى أ: «استضاؤوا».

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ [وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ][1]﴾ الآية [الحج: ١١].

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أى: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم فى قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه[2] إلى الكفر ﴿قَامُوا﴾ أى: متحيرين.

وهكذا قال أبو العالية، والحسن البصرى، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدى بسنده، عن الصحابة وهو أصح وأظهر. والله أعلم.

وهكذا يكونون[3] يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضىء له مسيرة فراسخ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يطْفَأ نوره تارة ويضىء له أخرى، فيمشى[4] على الصراط تارة ويقف أخرى. ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخُلَّص من المنافقين، الذين قال تعالى[5] فيهم: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] وقال فى حق المؤمنين: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ الآية [الحديد: ١٢] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

ذكر الحديث الوارد فى ذلك:

قال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية [الحديد: ١٢]: ذكر لنا أن النبى[6] ﷺ كان يقول: «من المؤمنين من يضىء نوره من المدينة إلى عدن، أو بين[7] صنعاء ودون ذلك، حتى إن من المؤمنين من لا يضىء نوره إلا موضع قدميه». رواه ابن جرير.

ورواه ابن أبى حاتم من حديث عمران بن دَاوَر[8] القطان، عن قتادة، بنحوه.

وهذا كما قال المِنْهَال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود، قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يرى[9] نوره كالنخلة، ومنهم من يرى[10] نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً على إبهامه يطفأ مرة ويَقِد[11] مرة.

---

(١) زيادة من جـ. (٢) فى أ: «فيه». (٣) فى جـ: «يكذبون»، وفى أ: «يكون».
(٤) فى أ، و: «ومنهم من يمشى». (٥) فى جـ، ط، ب، أ، و: «الله». (٦) فى جـ، ط، ب، أ، و: «أن نبى الله».
(٧) فى جـ، ط، ب: «أبين و». (٨) فى أ: «داود». (٩) فى و: «يؤتى».
(١٠) فى أ، و: «يؤتى». (١١) فى جـ: «ويتقد».

وهكذا رواه ابن جرير، عن ابن مُثَنَّى، عن ابن إدريس، عن أبيه، عن المنهال.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافسي[1]، حدثنا ابن إدريس، سمعت أبي يذكر عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود: **﴿نورهم يسعَىٰ بَيْنَ أَيْديهِم﴾** [التحريم: ٨]، قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا أبو يحيى الحمَّاني، حدثنا عُتْبَة[2] بن اليقظان، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره، فالمؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين، فهم يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا.

وقال الضحاك بن مزاحم: يعطى كل من كان يظهر الإيمان في الدنيا يوم القيامة نوراً؛ فإذا انتهى إلى الصراط طفئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا، فقالوا: **﴿ربنا أتمم لنا نورنا﴾**.

فإذا تقرر هذا صار الناس أقساماً: مؤمنون خُلَّص، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة، وكفار خلص، وهم الموصوفون بالآيتين بعدها، ومنافقون، وهم قسمان: خلص، وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يترددون، تارة يظهر لهم لُمَعٌ من الإيمان وتارة يخبو[3]، وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخف حالا من الذين قبلهم.

وهذا المقام يشبه[4] من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور، من ضرب مثل المؤمن[5] وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور، بالمصباح[6] في الزجاجة التي كأنها كوكب دُرِّي، وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله.

ثم ضرب مثل العُبَّاد من الكفار، الذين يعتقدون أنهم على شيء، وليسوا على شيء، وهم أصحاب الجهل المركب، في قوله:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ الآية [النور: ٣٩].

ثم ضرب مثل الكفار الجُهَّال الجَهْلَ البسيط، وهم الذين قال [الله][7] فيهم: **﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾** [النور: ٤٠] فقسم الكفار هنا إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما في أول سورة الحج: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ**

---

(١) في جـ: «الطيالسي». (٢) في جـ: «عتيبة». (٣) في أ: «تحير».
(٤) في جـ: «وهذا شبه». (٥) في جـ: «المؤمنين». (٦) في جـ: «بالمصباح الذي.
(٧) زيادة من جـ، ط.

مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣] وقال بعده: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨][1] وقد قسم الله[2] المؤمنين فى أول الواقعة وآخرها[3]، وفى سورة الإنسان، إلى قسمين: سابقون وهم المقربون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخص[4] من مجموع هذه الآيات الكريمات: أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين ـ أيضاً ـ صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق. كما جاء فى الصحيحين، عن عبد الله بن عَمْرو، عن النبى ﷺ: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعها: من إذا حَدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[5].

استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان، وشعبة من نفاق. إما عَمَلى لهذا الحديث، أو اعتقادى كما دلت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء، كما تقدم، وكما سيأتى، إن شاء الله. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو معاوية يعنى شيبان، عن ليث، عن عمرو بن مرة، عن أبى البخترى، عن أبى سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه مثل السراج يُزْهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصَفَّح؛ فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ومَثَل الإيمان فيه كمثل البقلة، يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يَمُدّها القيح والدم، فأى المدّتين[6] غلبت على الأخرى غلبت عليه»[7]. وهذا إسناد جيد حسن.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكْرِمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ قال: لما تركوا من الحق بعد معرفته.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قال ابن عباس[8]: أى إنّ الله على كل ما أراد بعباده من نقمة، أو عفو، قدير.

وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شىء فى هذا الموضع؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، و[أنه][9] على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير، ومعنى ﴿قَدِيرٌ﴾: قادر، كما أن معنى ﴿عَلِيمٌ﴾: عالم.

---

(١) فى جـ، ب: قدم الآية الثامنة على الآية الثالثة من سورة الحج. (٢) فى جـ، ب، أ، و: «تعالى».

(٣) فى أ: «فى أول البقرة وآخرها»، وفى جـ: «فى أول سورة الواقعة وفى آخرها». (٤) فى جـ: «فلخص».

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٤) وصحيح مسلم برقم (٥٨) ولفظه: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ـ والرابعة ـ وإذا خاصم فجر».

(٦) فى جـ: «المددين».

(٧) المسند (٣/١٧).

(٨) فى جـ، ط، ب، و: «ابن إسحاق». (٩) زيادة من جـ.

[وذهب ابن جرير الطبرى ومن تبعه من كثير من المفسرين أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون «أو» فى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أو تكون للتخيير، أى: أضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا، قاله القرطبى. أو للتساوى مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، على ما وجهه الزمخشرى: أن كلا منهما مساو للآخر فى إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم.

قلت: وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين، فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى فى سورة براءة ـ ومنهم ـ ومنهم ـ ومنهم ـ يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال، فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم، والله أعلم، كما ضرب المثلين فى سورة النور لصنفى الكفار الدعاة والمقلدين فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ إلى أن قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ الآية [النور: ٣٩، ٤٠]؛ فالأول للدعاة الذين هم فى جهل مركب، والثانى لذوى الجهل البسيط من الأتباع المقلدين، والله أعلم بالصواب][١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾.

شرع تبارك وتعالى فى بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عَبيده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعمَ الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشا، أى: مهدا كالفراش مُقَرَّرَة موطأة مثبتة بالرواسى الشامخات، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، وهو السقف، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] وأنزل لهم من السماء ماء ـ والمراد به السحاب ههنا ـ فى وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد؛ رزقاً لهم ولأنعامهم، كما قرر هذا فى غير موضع[٢] من القرآن. ومنْ أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا[٣] وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وساكنيها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْرَك به غَيره؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وفى الصحيحين عن ابن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا، وهو خلقك» الحديث[٤]. وكذا حديث معاذ:

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٢) فى جـ: «غير هذا الموضع».
(٣) فى جـ: «فراشاً» وهو خطأ.
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٦١) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

«أتدرى ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه لا[(١)] يشركوا به شيئاً» الحديث[(٢)]، وفى الحديث الآخر: «لا يقولن أحدكم: ما شاء الله وشاء فلان. ولكن ليقل[(٣)]: ما شاء الله، ثم شاء فلان»[(٤)].

وقال حماد بن سلمة: حدثنا عبد الملك بن عمير، عن رِبْعىِّ بن حِرَاش، عن الطفيل بن سَخْبَرَة، أخى عائشة أم المؤمنين لأمها، قال: رأيت فيما يرى النائم، كأنى أتيت على نفر من اليهود، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عُزَير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. قال: ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى. قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها مَنْ أخبرت، ثم أتيت النبى ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرت بها أحداً؟» فقلت: نعم. فقام، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإن طُفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده». هكذا رواه ابن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة، به[(٥)]. وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر، عن عبد الملك بن عمير به، بنحوه[(٦)].

وقال سفيان بن سعيد الثورى، عن الأجلح بن عبد الله الكندى، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس، قال: قال رجل للنبى ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلت لله ندا[(٧)]؟ قل: ما شاء الله وحده». رواه ابن مردويه، وأخرجه النسائى، وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس، عن الأجلح، به[(٨)].

وهذا كله صيانة، وحماية لجناب التوحيد، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين، أى: وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم.

وبه عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه

---

(١) فى جـ: «ولا».

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٣٧٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٣٠).

(٣) فى جـ: «ليقول».

(٤) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٩٨٠) من حديث حذيفة رضى الله عنه.

(٥) ورواه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٧٢) من طريق بهز وعفان عن حماد بن سلمة به.

(٦) رواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢١١٨) عن هشام بن عمار، عن سفيان، عن عبد الملك بن عمير به. وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١٥١): «هذا إسناد رجاله ثقات على شرط البخارى لكنه منقطع بين سفيان وبين عبد الملك بن عمير».

(٧) فى جـ: «أنداداً».

(٨) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٨٢٥) وسنن ابن ماجة برقم (٢١١٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ١٥٠): «هذا فيه الأجلح بن عبد الله، مختلف فيه».

الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذى لا شك فيه. وهكذا قال قتادة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم، حدثنا أبى عمرو، حدثنا أبى الضحاك بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس، فى قول الله، عز وجل[١]: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا [وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ][٢]﴾ قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفَاة سوداء فى ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتى، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطّ فى الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئتَ، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلان». هذا[٣] كله به شرك.

وفى الحديث: أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتنى لله ندا». وفى الحديث الآخر: «نعم القوم أنتم، لولا أنكم تنددون، تقولون: ما شاء الله، وشاء فلان».

قال[٤] أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾: أى عدلاء شركاء. وهكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة، والسُّدى، وأبو مالك: وإسماعيل بن أبى خالد.

وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل.

ذكر حديث فى معنى هذه الآية الكريمة:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو خلف موسى بن خلف، وكان يُعَد من البُدَلاء، حدثنا يحيى بن أبى كثير، عن زيد بن سلام، عن جده ممطور، عن الحارث الأشعرى: أن نبى الله ﷺ قال: «إن الله، عز وجل، أمر يحيى بن زكريا، عليه السلام، بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، وكان يبطئ بها، فقال له عيسى، عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن، وإما أن أبلغهن. فقال: يا أخى، إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى». قال: «فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن، وأولهن: أن تعبدوا الله[٥] لا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مَثَل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بورَق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدى غلته[٦] إلى غير سيده فأيكم يسره[٧] أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأمركم بالصلاة؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة، كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم عند الله أطيب[٨] من ريح المسك. وأمركم بالصدقة؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدى

---

(١) فى جـ: «تعالى». (٢) زيادة من جـ، ط. (٣) فى جـ: «لأن هذا».
(٤) فى جـ: «وقال». (٥) فى جـ: «الله وحده». (٦) فى جـ، أ: «عمله».
(٧) فى جـ: «سره». (٨) فى ب: «أطيب عند الله».

نفسي[١]؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وأمركم بذكر الله كثيراً؛ وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سِراعا في أثره، فأتى حصنا حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله؛ فإنه من خرج من الجماعة قِيدَ شِبْر فقد خلع رِبْقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جِثِيِّ جهنم». قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصلى[٢]؟ فقال: «وإن صلى وصام[٣] وزعم أنه مسلم؛ فَادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم[٤] الله، عز وجل: المسلمين المؤمنين عباد الله»[٥].

هذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية قوله: «وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً».

وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

وحكى فخر الدين عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل باختلاف اللغات والأصوات والنغمات، وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى، فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي: أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبعير والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد.

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: ههنا حصن حصين أملس، ليس له باب

---

(١) في جـ، ب، أ، و: «نفسي منكم». (٢) في جـ: «وصلى وزعم أنه مسلم». (٣) في أ: «وإن صلى وإن صام».
(٤) في جـ، ط: «بل بما سماهم».
(٥) المسند (٤/ ١٣٠).

ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح، يعنى بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة.

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

وقال آخرون: من تأمل هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار المنيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم فى كل يوم وليلة دويرة ولها فى أنفسها سير يخصها، ونظر إلى البحار الملتفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة فى الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال: **﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾** [فاطر: ٢٧، ٢٨]، وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر لمنافع العباد وما زرأ فى الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأراييح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء، علم وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات فى القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾.

ثم شرع تعالى فى تقرير النبوة بعد أن قرر أنه[1] لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: **﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾** يعنى: محمداً ﷺ **﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾** من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك.

---

(١) فى أ: «بأن».

قال ابن عباس: ﴿شُهَدَاءَكُم﴾ أعوانكم [أى: قوماً آخرين يساعدونكم على ذلك][(١)].

وقال السدى، عن أبى مالك: شركاءكم [أى استعينوا بآلهتكم فى ذلك يمدونكم وينصروكم][(٢)].

وقال مجاهد: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾ قال: ناس يشهدون به [يعنى: حكام الفصحاء][(٣)].

وقد تحداهم الله تعالى بهذا فى غير موضع من القرآن، فقال فى سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩] وقال فى سورة سبحان: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال فى سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وقال فى سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨] وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم [الله تعالى][(٤)] بذلك ـ أيضاً ـ فى المدينة، فقال فى هذه الآية: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أى: [فى][(٥)] شك ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعنى: محمداً ﷺ. ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ يعنى: من مثل [هذا][(٦)] القرآن؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير. بدليل قوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] وقوله: ﴿لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] وقال بعضهم: من مثل محمد ﷺ، يعنى: من رجل أمى مثله. والصحيح الأول؛ لأن التحدى عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم، وقد[(٧)] تحداهم بهذا فى مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ «ولن»: لنفى التأبيد[(٨)]، أى: ولن تفعلوا ذلك أبداً. وهذه ـ أيضاً ـ معجزة أخرى، وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبداً[(٩)]، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وَأَنَّى يَتَأَتَّى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شىء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: [هود: ١]، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥] أى: صدقاً فى الأخبار وعدلاً فى الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء،

(١ ـ ٣) زيادة من جـ، ط. (٤) زيادة من جـ. (٥) زيادة من جـ، ط.

(٦) زيادة من أ، و. (٧) فى أ: «وهو قد». (٨) فى جـ، ب، أ، و: «التأبيد فى المستقبل».

(٩) فى جـ، ط، أ: «أبد الآبدين ودهر الداهرين».

كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل فى الشعر: إن أعذبه أكذبه، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها فى وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو فى مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع، أو شىء من المشاهدات المتعينة التى لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعبر على التعبير على الشىء الخفى أو الدقيق أو إبرازه إلى الشىء الواضح، ثم تجد له فيها بيتاً أو بيتين أو أكثر هى بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح فى غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها فى غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يَخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ فى الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، كما قال فى الترغيب: ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة: ١٧] وقال: ﴿ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال فى الترهيب: ﴿ **أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ** ﴾ [الإسراء: ٦٨]، ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ** ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقال فى الزجر: ﴿ **فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ** ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال فى الوعظ: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ** ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧]، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهى، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهى عن كل قبيح رذيل دنىء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول فى القرآن ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ فأوعها سمعك فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه. ولهذا قال تعالى: ﴿ **يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وإن جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفى وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت؛ ودعيت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت فى الدنيا ورغبت فى الأخرى، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

ولهذا ثبت فى الصحيحين، عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ، قال: «ما من نبى من الأنبياء إلا قد أعطِىَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله

إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً [١] يوم القيامة» لفظ[٢] مسلم. وقوله: «وإنما كان الذى أوتيته وحياً» أى: الذى اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز[٣] للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنها ليست معجزة [عند كثير من العلماء][٤]، والله أعلم. وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته، وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، ولله الحمد والمنة.

[وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة فى الصوفية، فقال: إن كان هذا القرآن معجزاً فى نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا فى قواهم معارضته، فقد حصل المدعى وهو المطلوب، وإن كان فى إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له، كان ذلك دليلا على أنه من عند الله؛ لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن فى نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته، كما قررنا، إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق وبهذه الطريقة أجاب فخر الدين فى تفسيره عن سؤاله فى السور القصار كالعصر و﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾][٥].

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أما الوَقُود، بفتح الواو، فهو ما يلقى فى النار لإضرامها كالحطب ونحوه، كما قال: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

والمراد بالحجارة ههنا: هى حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، وهى أشد الأحجار حرا إذا حميت، أجارنا الله منها.

قال عبد الملك بن ميسرة الزرّاد[٦]، عن عبد الرحمن بن سابط، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن مسعود، فى قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قال: هى حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض فى السماء الدنيا، يعدها للكافرين. رواه ابن جرير، وهذا لفظه. وابن أبى حاتم، والحاكم فى مستدركه وقال: على شرط الشيخين[٧].

وقال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: أما الحجارة فهى حجارة فى النار من كبريت أسود، يعذبون به مع النار.

وقال مجاهد: حجارة من كبريت أنتن من الجيفة. وقال أبو جعفر محمد بن على: [هى][٨] حجارة من كبريت. وقال ابن جريج: حجارة من كبريت أسود فى النار، وقال لى عمرو بن دينار:

(١) فى جـ: «تبعاً».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١)، وصحيح مسلم برقم (١٥٢).

(٣) فى ط: «المفهم». (٤) زيادة من جـ، ط، ب، أ. (٥) زيادة من جـ، ط، ب.

(٦) فى جـ: «الرزاز».

(٧) تفسير الطبرى (١/ ٣٨١) وتفسير ابن أبى حاتم (١/ ٨٥) والمستدرك (٢/ ٦١).

(٨) زيادة من جـ.

أصلب من هذه الحجارة وأعظم.

[وقيل: المراد بها: حجارة الأصنام والأنداد التى كانت تعبد من دون الله كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨]؛ حكاه القرطبى وفخر الدين ورجحه على الأول؛ قال: لأن أخذ النار فى حجارة الكبريت ليس بمنكر فجعلها هذه الحجارة أولى، وهذا الذى قاله ليس بقوى؛ وذلك أن النار إذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها، ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك، ثم إن أخذ النار فى هذه الحجارة ـ أيضا ـ مشاهد، وهذا الجص يكون أحجاراً فتعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك. وكذلك سائر الأحجار تفخرها النار وتحرقها. وإنما سيق هذا فى حر هذه النار التى وعدوا بها، وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وهكذا رجح القرطبى أن المراد بها الحجارة التى تسعر بها النار لتحمى ويشتد لهبها قال: ليكون ذلك أشد عذاباً لأهلها، قال: وقد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «كل مؤذ فى النار» وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف(١)، ثم قال القرطبى: وقد فسر بمعنيين، أحدهما: أن كل من أذى الناس دخل النار(٢)، والآخر: كل ما يؤذى فهو فى النار يتأذى به أهلها من السباع والهوام وغير ذلك](٣).

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: الأظهر أنّ الضمير فى ﴿أُعِدَّتْ﴾، عائد إلى النار التى وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده إلى الحجارة، كما قال ابن مسعود، ولا منافاة بين القولين فى المعنى؛ لأنهما متلازمان.

و ﴿أُعِدَّتْ﴾ أى: أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله، كما قال [محمد](٤) بن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أى: لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر.

وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ أى: أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك منها: «تحاجت الجنة والنار»، ومنها: «استأذنت النار ربها فقالت: رب أكل بعضى بعضاً فأذن لها بنفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف»، وحديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها» وهو عند مسلم(٥)، وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة فى هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم فى هذا ووافقهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الأندلس.

---

(١) رواه الخطيب فى تاريخ بغداد (١١/ ٢٩٩) من طريق المفيد عن الأشج، عن على رضى الله عنه به مرفوعاً.

(٢) فى أ: «عذب فى النار».

(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٤) زيادة من جـ.

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٤).

تنبيه ينبغي الوقوف عليه:

قوله: ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِّثْلِهِ**﴾ وقوله في سورة يونس: ﴿**بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ**﴾ [يونس: ٣٨] يعم كل سورة فى القرآن طويلة كانت أو قصيرة؛ لأنها نكرة فى سياق الشرط فتعم كما هى فى سياق النفى عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر فى موضعه، فالإعجاز حاصل فى طوال السور وقصارها، وهذا ما أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً، وقد قال الإمام العلامة فخر الدين الرازى في تفسيره: فإن قيل: قوله: ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِّثْلِهِ** ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر، و﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾ ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن. فإن قلتم: إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدور البشر كان مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة[١] إلى الدين: قلنا: فلهذا السبب اخترنا الطريق الثانى، وقلنا: إن بلغت هذه السورة فى الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود، وإن لم يكن كذلك، كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزاً[٢]، فعلى التقديرين يحصل المعجز[٣]، هذا لفظه بحروفه. والصواب: أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة.

قال الشافعى، رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم: ﴿ **وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [سورة العصر]. وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم بمكة فى هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال: وما هى؟ فقال: ﴿**وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾، ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل علىَّ مثلها، فقال: وما هو؟ فقال: يا وبْر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر فقر، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنى لأعلم إنك تكذب[٤].

﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٢٥) ﴾.

لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به[٥] وبرسله من العذاب والنكال، عَطَف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به[٦] وبرسله، الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. وهذا معنى تسمية القرآن «مثانى» على أصح أقوال[٧] العلماء، كما سنبسطه فى موضعه، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه. وحاصله ذكر الشىء ومقابله. وأما ذكر الشىء ونظيره فذاك التشابه، كما سنوضحه إن شاء الله؛ فلهذا قال تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾، فوصفها بأنها تجرى من تحتها

(١) فى أ: «الفهم». (٢) فى أ: «معجز». (٣) فى أ: «العجز».
(٤) سيأتى الكلام على هذه القصة عند تفسير سورة العصر.
(٥، ٦) فى جـ: «بالله تعالى». (٧) فى جـ: «قولى».

الأنهار، كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة، ومعنى ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: من تحت أشجارها وغرفها، وقد جاء فى الحديث: أن أنهارها تجرى من[١] غير أخدود، وجاء فى الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينهما، وطينها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر، نسأل الله من فضله [وكرمه][٢] إنه هو البر الرحيم.

وقال ابن أبى حاتم: قرئ على الربيع بن سليمان: حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن ثوبان، عن عطاء بن قرّة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تُفَجَّر من تحت تلال ـ أو من تحت جبال ـ المسك»[٣].

وقال أيضا: حدثنا أبو سعيد، حدثنا وكِيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تفجر من جبل مسك.

وقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾: قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس وعن مُرّة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿ قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ قال: إنهم أتوا بالثمرة فى الجنة، فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذى رزقنا من قبل فى [دار][٤] الدنيا.

وهكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ونصره ابن جرير.

وقال عكرمة: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ قال: معناه: مثل الذى كان بالأمس، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال مجاهد: يقولون: ما أشبهه به.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل تأويل ذلك هذا الذى رزقنا من ثمار الجنة من قبل هذا[٥]، لشدة مشابهة بعضه بعضاً، لقوله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال سُنَيْد بن داود: حدثنا شيخ من أهل المِصِّيصة، عن الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير، قال: يؤتى أحدهم بالصحفة[٦] من الشىء، فيأكل منها ثم يؤتى[٧] بأخرى فيقول: هذا الذى أتينا به من قبل. فتقول الملائكة: كُلْ، فاللون واحد، والطعم مختلف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عامر[٨] بن يَسَاف، عن يحيى ابن أبى كثير، قال: عشب الجنة الزعفران، وكثبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها[٩]، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذى أتيتمونا آنفا به، فيقول لهم الولدان: كلوا، فإن اللون واحد، والطعم مختلف. وهو قول الله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يشبه

---

(١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فى». (٢) زيادة من جـ، ط، ب.

(٣) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٨٧) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣١٣) من طريق الربيع بن سليمان به، ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٦٢٢) «موارد» من طريق القراطيسى عن أسد بن موسى عن ابن ثوبان به.

(٤) زيادة من جـ. (٥) فى جـ: «هذه». (٦) فى جـ، ب: «بالصحيفة».

(٧) فى جـ: «يأتى». (٨) فى أ: «عباس». (٩) فى جـ: «فيأكلون».

بعضه بعضاً، ويختلف فى الطعم.

وقال ابن أبى حاتم: وروُى عن مجاهد، والربيع بن أنس، والسدى، نحو ذلك.

وقال ابن جرير بإسناده عن السدى فى تفسيره، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، فى قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ يعنى: فى اللون والمرأى، وليس يشتبه[1] فى الطعم.

وهذا اختيار ابن جرير.

وقال عكرمة: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب.

وقال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن أبى ظِبْيان، عن ابن عباس: لا يشبه شَىءٌ مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا فى الأسماء. وفى رواية: ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء. رواه ابن جرير، من رواية الثورى، وابن أبى حاتم من حديث أبى معاوية كلاهما عن الأعمش، به.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يعرفون أسماءه كما كانوا فى الدنيا: التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا فى الجنة: هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا، وأتوا به متشابها، يعرفونه وليس هو مثله فى الطعم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى.

وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمنى والولد.

وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم. وفى رواية عنه: لا حيض ولا كلف. وروى عن عطاء والحسن والضحاك وأبى صالح وعطية والسدى نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: المطهرة التى لا تحيض. قال: وكذلك خلقت حواء، عليها السلام، حتى عصت، فلما عصت قال الله تعالى: إنى خلقتك مطهرة وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة. وهذا غريب.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثنى جعفر بن محمد بن حرب، وأحمد بن محمد الجُورى[2]، قالا: حدثنا محمد بن عبيد الكندى، حدثنا عبد الرزاق بن عمر البَزيعىّ، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن شعبة، عن قتادة، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: «من الحيض والغائط والنخاعة والبزاق»[3].

هذا حديث غريب. وقد رواه الحاكم فى مستدركه، عن محمد بن يعقوب، عن الحسن بن على ابن عفان، عن محمد بن عبيد، به. وقال: صحيح على شرط الشيخين.

---

(١) فى جـ: «يشبه». (٢) فى جـ، ط، ب: «الجوارى».

(٣) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣٦٣) من طريق عبد الله بن محمد بن يعقوب عن محمد بن عبيد به.

وهذا الذى ادعاه فيه نظر؛ فإن عبد الرزاق بن عمر البزيعى[١] هذا قال فيه أبو حاتم بن حبان البُسْتى: لا يجوز الاحتجاج به[٢].

قلت: والأظهر أن هذا من كلام قتادة، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: هذا[٣] هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء، بل فى نعيم سرمدى أبدى على الدوام، والله المسؤول أن يحشرنا فى زمرتهم، إنه جواد كريم، بر رحيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾.

قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعنى قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة:١٩] الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: لما ذكر الله العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله [تعالى هذه الآية][٤]: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[٥].

وقال سعيد، عن قتادة: أى إن الله لا يستحيى من الحق أن يذكر شيئاً ما، قل أو كثر، وإن الله حين ذكر فى كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

قلت: العبارة الأولى عن قتادة فيها إشعار أن هذه الآية مكية، وليس كذلك، وعبارة رواية سعيد، عن قتادة أقرب والله أعلم. وروى ابن جُرَيج عن مجاهد نحو هذا الثانى عن قتادة.

وقال ابن أبى حاتم: روى عن الحسن وإسماعيل بن أبى خالد نحو قول السدى وقتادة.

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى هذه الآية قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا؛ إذ

(١) فى أ: «الربعى».
(٢) المجروحين (٢/ ١٦٠).
(٣) فى جـ، ط: «وهذا».
(٤) زيادة من ط.
(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٤).

البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت. وكذلك مثل هؤلاء[1] القوم الذين ضرب لهم هذا المثل فى القرآن، إذا امتلؤوا من الدنيا ريا أخذهم الله تعالى عند ذلك، ثم تلا: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

هكذا رواه ابن جرير، ورواه ابن أبى حاتم من حديث أبى جعفر، عن الربيع، عن أبى العالية، بنحوه، فالله أعلم.

فهذا اختلافهم فى سبب النزول، وقد اختار ابن جرير ما حكاه السُّدى؛ لأنه أمس بالسورة، وهو مناسب، ومعنى الآية: أنه تعالى أخبر أنه لا يستحيى، أى: لا يستنكف، وقيل: لا يخشى أن يضرب مثلا ما، أى: أىّ مثل كان، بأى شىء كان، صغيراً كان أو كبيراً.

و«ما» ههنا للتقليل[2]، وتكون ﴿ بَعُوضَةً ﴾ منصوبة على البدل، كما تقول: لأضربن ضرباً ما، فيصدق بأدنى شىء [أو تكون «ما» نكرة موصوفة ببعوضة][3]. واختار ابن جرير أن ما موصولة، و﴿ بَعُوضَةً ﴾ معربة بإعرابها، قال: وذلك سائغ[4] فى كلام العرب، أنهم يعربون صلة ما ومن بإعرابهما لأنهما يكونان معرفة تارة، ونكرة أخرى، كما قال حسان بن ثابت:

وَكَفَى[5] بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرِنَا ... حُب[6] النَّبِىِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا[7]

قال: ويجوز أن تكون ﴿ بَعُوضَةً ﴾ منصوبة بحذف الجار، وتقدير الكلام: إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بين بعوضة إلى ما فوقها.

[وهذا الذى اختاره الكسائى والفراء. وقرأ الضحاك وإبراهيم بن أبى عبلة ورويت «بعوضة» بالرفع، قال ابن جنى: وتكون صلة لما وحذف العائد كما فى قوله: ﴿ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] أى: على الذى أحسن هو أحسن، وحكى سيبويه: ما أنا بالذى قائل لك شيئا، أى: يعنى بالذى هو قائل لك شيئاً][8].

وقوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا ﴾ فيه قولان: أحدهما: فما دونها فى الصغر، والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح، فيقول السامع[9]: نعم، وهو فوق ذلك، يعنى فيما وصفت. وهذا قول الكسائى وأبى عبيدة، قال الرازى: وأكثر المحققين، وفى الحديث: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء»[10]. والثانى: فما فوقها: فما هو أكبر منها؛ لأنه ليس شىء أحقر ولا أصغر من البعوضة. وهذا [قول قتادة بن دعامة و][11] اختيار ابن جرير.

---

(١) فى أ: «هذا».
(٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «للتقليل زائدة».
(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٤) فى جـ، أ، و: «شائع».
(٥) فى جـ، ب، أ، و: «يكفى».
(٦) فى جـ: «حث».
(٧) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ٤٠٤).
(٨) زيادة من جـ، ط، ب.
(٩) فى جـ: «القابل».
(١٠) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٣٢٠) من طريق عبد الحميد بن سليمان عن أبى حازم، عن سهل بن سعد رضى الله عنه به مرفوعاً، وفيه عبد الحميد بن سليمان ضعيف.
(١١) زيادة من جـ، ط.

[ويؤيده ما رواه مسلم عن عائشة، رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة»[(١)]](٢).

فأخبر أنه لا يستصغر(٣) شيئاً يُضرب به مثلا ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة، كما [لم يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من](٤) ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ [وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا](٥)﴾ الآية [النحل: ٧٥] ثم قال: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ [هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ](٦)﴾ الآية [النحل: ٧٦]، كما قال: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ الآية [الروم: ٢٨]، وقال: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ [وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ](٧)﴾ الآية [الزمر: ٢٩]، وقد قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفى القرآن أمثال كثيرة.

قال بعض السلف: إذا سمعت المثل فى القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.

وقال مجاهد قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾: الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم، ويهديهم الله بها.

وقال قتادة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أى: يعلمون أنه كلام الرحمن، وأنه من عند الله.

وروى عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك.

وقال أبو العالية: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعنى: هذا المثل: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾، كما قال فى سورة المدثر: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٢).
(٢) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٣) فى جـ: «لا يستنكف». (٤) زيادة من جـ، ط.
(٥) زيادة من جـ، ط. (٦، ٧) زيادة من جـ.

أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وكذلك قال ههنا: **﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾**.

قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: **﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾** يعنى: المنافقين، **﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾** يعنى المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالهم[1] لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً، من المثل الذى ضربه الله بما ضربه لهم[2]، وأنه لما ضربه له موافق، فذلك[3] إضلال الله إياهم به **﴿وَيَهْدِي بِهِ﴾** يعنى بالمثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق ما[4] ضربه الله له مثلا وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به **﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾** قال: هم المنافقون[5].

وقال أبو العالية: **﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾**: قال: هم أهل النفاق. وكذا قال الربيع بن أنس.

وقال ابن جريج عن مجاهد، عن ابن عباس: **﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾** يقول: يعرفه الكافرون فيكفرون به.

وقال قتادة: **﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾**:فسقوا، فأضلهم الله على فسقهم.

وقال ابن أبى حاتم: حُدِّثتُ عن إسحاق بن سليمان، عن أبى سِنان، عن عمرو بن مرة، عن مصعب بن سعد، عن سعد **﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾**: يعنى الخوارج.

وقال شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مصعب بن سعد، قال: سألت أبى فقلت: قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾** إلى آخر الآية، فقال: هم الحرورية. وهذا الإسناد إن صح عن سعد بن أبى وقاص، رضى الله عنه، فهو تفسير على المعنى، لا أن[6] الآية أريد منها التنصيص على الخوارج، الذين خرجوا على علىٍّ بالنهروان، فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل؛ لأنهم سموا خوارج لخروجهم على[7] طاعة الإمام والقيام بشرائع الإسلام.

والفاسق فى اللغة: هو الخارج عن الطاعة أيضاً. وتقول العرب: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها[8]؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة، لخروجها عن جُحْرها للفساد. وثبت فى الصحيحين، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يُقتلن فى الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور»[9].

---

(١) فى جـ، ط، ب: «ضلالتهم».
(٢) فى جـ، ط، أ: «لما ضربه له».
(٣) فى جـ: «فوافق ذلك».
(٤) فى جـ، ط: «لما».
(٥) فى أ: «أهل النفاق».
(٦) فى جـ: «لأن»، وفى ط: «إلا أن».
(٧) فى جـ، ط، ب،أ: «عن».
(٨) فى أ: «قشرها».
(٩) صحيح البخارى برقم (٣٣١٤) وصحيح مسلم برقم (١١٩٨).

فالفاسق يشمل[١] الكافر والعاصى، ولكن فسْق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم، بدليل[٢] أنه وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى فى سورة الرعد: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ الآيات، إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٥].

وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه، وعلى لسان رسله. ونقضهم[٣] ذلك هو تركهم العمل به.

وقال آخرون: بل هى[٤] فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذى نقضوه هو ما أخذه الله عليهم فى التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك [عن][٥] الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلا. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وقول مقاتل بن حيان.

وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق. وعهده إلى جميعهم فى توحيده: ما وضع لهم[٦] من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم فى أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التى لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثلها[٧] الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك: تركهم[٨] الإقرار بما ثبتت لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق، وروى أيضاً عن مقاتل بن حيان[٩] نحو هذا، وهو حسن، [وإليه مال الزمخشرى، فإنه قال: فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز فى عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم وهو معنى قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] إذ أخذ الميثاق عليهم فى الكتب المنزلة عليهم لقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠][١٠].

وقال آخرون: العهد الذى ذكره [الله][١١] تعالى هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من

---

(١) فى جـ: «شمل».
(٢) فى ط: «الدليل».
(٣) فى جـ: «وبغضهم».
(٤) فى جـ: «هو».
(٥) زيادة من جـ، ط.
(٦) فى جـ، ط: «إليهم».
(٧) فى و: «بمثله».
(٨) فى جـ: «عدم».
(٩) فى جـ، ط، أ، و: «بن حيان أيضا».
(١٠) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(١١) زيادة من جـ.

صلب آدم الذى وصف فى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ [شَهِدْنَا] (١) ﴾ الآيتين [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] ونقضهم(٢) ذلك تركهم الوفاء به. وهكذا روى عن مقاتل بن حيان أيضاً، حكى هذه الأقوال ابن جرير فى تفسيره.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، فى قوله: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ إلى قوله: ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ قال: هى ست خصال من(٣) المنافقين إذا كانت فيهم الظَّهْرَة(٤) على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا فى الأرض، وإذا كانت الظَّهْرة(٥) عليهم أظهروا الخصال(٦) الثلاث: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا.

وكذا(٧) قال الربيع بن أنس أيضاً. وقال السدى فى تفسيره بإسناده، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قال: هو ما عهد إليهم فى القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقرابات، كما فسره قتادة كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] ورجحه ابن جرير. وقيل: المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه.

وقال مقاتل بن حيان فى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. قال(٨): فى الآخرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شىء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، فإنما يعنى به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعنى به الذنب.

وقال ابن جرير فى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الخاسرون: جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم [و](٩) حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل فى تجارته بأن يوضع من رأس ماله فى بيعه، وكذلك الكافر والمنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته التى خلقها لعباده فى القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته، يقال منه: خسر الرجل يخسر خَسْراً وخُسْراناً وخَساراً، كما قال جرير بن عطية(١٠):

إن سَلِيطًا فى الخَسَارِ إنَّه ... أولادُ قَومٍ خُلِقُوا أقِنَّه(١١)

(١) زيادة من جـ. (٢) فى جـ: «وبغضهم». (٣) فى جـ، ط: «فى».
(٤، ٥) فى جـ: «الظهيرة». (٦) فى جـ: «أخفوا هذه الخصال».
(٧) فى جـ: «وقال». (٨) فى أ: «أى». (٩) زيادة من جـ.
(١٠) فى أ: «خطيئة».
(١١) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ٤١٧).

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨)﴾.

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف فى عباده: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أى: كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره! ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أى: قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، وقال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] والآيات فى هذا كثيرة.

وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] قال: هى التى فى البقرة: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

وقال ابن جُريج[(١)]، عن عطاء، عن ابن عباس ﴿كُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾: أمواتا فى أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم، ثم يميتكم موتة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم. قال: وهى مثل قوله: ﴿[رَبَّنَا][(٢)] أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم[(٣)]، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى. فهذه ميتتان وحياتان، فهو كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

وهكذا روى عن السدى بسنده، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة، عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ـ وعن أبى العالية والحسن البصرى ومجاهد وقتادة وأبى صالح والضحاك وعطاء الخراسانى نحوُ ذلك.

وقال الثورى، عن السّدّى عن أبى صالح: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قال: يحييكم[(٤)] فى القبر[(٥)]، ثم يميتكم.

وقال ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ خلقهم فى[(٦)] ظهر آدم ثم أخذ[(٧)] عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم خلقهم فى الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة. وذلك كقول الله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾.

---

(١) فى جـ، ط: «جرير». (٢) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٣) فى جـ: «أخلقكم».
(٤) فى أ: «يحيهم». (٥) فى جـ: «القبور». (٦) فى جـ، ط: «من».
(٧) فى جـ، ط: «فأخذ».

وهذا غريب والذى قبله. والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس، وأولئك الجماعة من التابعين، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

[وعبر عن الحال قبل الوجود بالموت بجامع ما يشتركان فيه من عدم الإحساس، كما قال في الأصنام: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١]، وقال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]][١].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾.

لما ذكر تعالى دلالةً منْ خَلْقهم وما يشاهدونه فى أنفسهم، ذكر دليلا آخر مما يشاهدونه منْ خَلْق السموات والأرض، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: قصد إلى السماء، والاستواء ههنا تَضمَّن[٢] معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدى بإلى ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أى: فخلق السماء سبعاً. والسماء ههنا اسم جنس، فلهذا قال: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى: وعلمه محيط بجميع ما خلق[٣]. كما قال: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وتفصيل هذه الآية فى سورة حم السجدة وهو قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

ففى هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولا، ثم خلق السموات سبعاً، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك. وقد صرح المفسرون بذلك، كما سنذكره بعد هذا إن شاء الله. فأما قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٢] فقد قيل: إن ﴿ثُمَّ﴾ههنا إنما هى لعطف الخبر على الخبر، لا لعطف الفعل على الفعل، كما قال الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده[٤]

وقيل: إن الدَّحْىَ كان بعد خلق السموات. رواه ابن أبى طلحة، عن ابن عباس.

(١) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٢) فى جـ، ط: «مضمن».

(٣) فى جـ: «وعلمه محيط بجميع الخلق»، وفى ط: «وعلمه محيط بالأشياء بجميع ما خلق».

(٤) البيت فى مغنى اللبيب لابن هشام غير منسوب. أ.هـ. مستفاداً من حاشية الشعب.

وقد قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك ـ وعن أبى صالح عن ابن عباس ـ وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ [وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ](١)﴾ قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء فسما عليه، فسماه سماء. ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين فى الأحد والإثنين، فخلق الأرض على حوت، والحوتُ هو النون الذى ذكره الله فى القرآن: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ(٢)﴾ ، والحوت فى الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر مَلَك، والملك على صخرة، والصخرة فى الريح، وهى الصخرة التى ذكر(٣) لقمان ـ ليست فى السماء ولا فى الأرض، فتحرك الحوت فاضطرب، فتزلزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فقَرّت، فالجبال تفخر على الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ(٤)﴾ [النحل: ١٥]. وخلق الجبال فيها، وأقواتَ أهلها وشجرها وما ينبغى لها فى يومين، فى الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ٩، ١٠]. يقول: أنبت شجرها ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ يقول: أقواتها لأهلها ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت: ١٠] يقول: من سأل فهكذا الأمر. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين، فى الخميس والجمعة، وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض، ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] قال: خلق الله فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى(٥) فيها، من البحار وجبال البَرَد وما لا نعلم، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحفظاً(٦)، تُحْفَظُ من الشياطين. فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش، فذلك حين يقول: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ويقول: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى أبو معشر عن سعيد بن أبى سعيد، عن عبد الله بن سلام أنه قال: إن الله بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين فى الأحد والإثنين، وخلق الأقوات والرواسى فى الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات فى الخميس والجمعة، وفرغ فى آخر(٧) ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم على عَجَل، فتلك الساعة التى تقوم فيها الساعة.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾

---

(١) زيادة من جـ. (٢) فى جـ: «والقلم وما يسطرون». (٣) فى ب: «ذكرها».

(٤) فى جـ: «وجعل لها رواسى من فوقها أن تميد بكم»، وفى ط: «وجعل لها رواسى أن تميد بكم»، وفى ب: «وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم».

(٥) فى جـ، ط: «الذين». (٦) فى أ: «وحفظها». (٧) فى جـ: «وأخر».

﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ قال: بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين، يعنى بعضهن تحت بعض.

وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء، كما قال فى آية السجدة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢] فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة: أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف فى ذلك القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣١] قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض. وفى صحيح البخارى[١]: أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً، وقد قررنا ذلك فى تفسير سورة النازعات، وحاصل ذلك أن الدحى مفسر بقوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠ ـ ٣٢] ففسر الدحى بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد ذكر ابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسير هذه الآية الحديث الذى رواه مسلم والنسائى فى التفسير ـ أيضاً ـ من رواية ابن جُرَيج قال: أخبرنى إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله ابن رافع مولى أم سلمة، عن أبى هريرة، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»[٢].

وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه على بن المدينى والبخارى وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه[٣] مرفوعا، وقد حرر ذلك البيهقى[٤].

(١) صحيح البخارى (٨/ ٥٥٥) «فتح».
(٢) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠١٠).
(٣) فى جـ، ط، ب: «فجعله».
(٤) الأسماء والصفات (ص٢٧٦) وللعلامة عبد الرحمن المعلمى كلام متين فى تصحيح هذا الحديث ورد الشبه عنه فى كتابه «الأنوار الكاشفة» (ص ١٨٥ ـ ١٩٠) فليراجع فإنه مهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾.

يخبر(١) تعالى بامتنانه على بنى آدم، بتنويهه بذكرهم فى الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾ أى: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية [وهو أبو عبيدة](٢)، أنه زعم أن «إذ» ههنا زائدة، وأن تقدير الكلام: وقال ربك. ورده ابن جرير.

قال القرطبى: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج: هذا اجتراء(٣) من أبى عبيدة.

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أى: قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠]. وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: ٥٩]. [وقرئ فى الشاذ: «إنى جاعل في الأرض خليقة» حكاه الزمخشرى وغيره ونقلها القرطبى عن زيد بن على](٤). وليس المراد ههنا بالخليفة آدم، عليه السلام، فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبى إلى ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، وفى ذلك نظر، بل الخلاف فى ذلك كثير، حكاه فخر الدين الرازى فى تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عينًا إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فإنهم(٥) إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صَلْصَال من حمإ مسنون [أو فهموا من الخليفة أنه الذى يفصل بين الناس ويقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم، قاله القرطبى](٦)، أو أنهم قاسوهم على من سبق، كما سنذكر أقوال المفسرين فى ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبنى آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين [وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أى: لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه وههنا لما أعلمهم أنه سيخلق فى الأرض خلقاً. قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ الآية](٧)، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أى: نصلى لك كما سيأتى، أى: ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: إنى أعلم من المصلحة(٨) الراجحة فى خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها(٩) ما لا تعلمون أنتم؛ فإنى سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم

---

(١) فى جـ: «أخبر». (٢) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٣) فى أ: «إجرام».
(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٥) فى جـ، ب: «فإن الله».
(٦، ٧) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٨) فى جـ: «بالمصلحة». (٩) فى جـ: «الذى ذكروها».

الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعلماء العاملون والخاشعون، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم.

وقد ثبت فى الصحيح[١] :أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده سألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون. وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر، فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه السلام: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعملِ النهار قبل الليل» فقولهم: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾، وقيل: معنى قوله جواباً لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أن لى حكمة مفصلة فى خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، وقيل: إنه جواب لقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل: بل تضمن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ طلبًا منهم أن يسكنوا الأرض بدل بنى آدم، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ من أن بقاءكم فى السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها فخر الدين مع غيرها من الأجوبة، والله أعلم.

ذكر أقوال المفسرين ببسط ما ذكرناه:

قال ابن جرير: حدثنى القاسم بن الحسن قال: حدثنا الحسين قال: حدثنى الحجاج، عن جرير ابن حازم، ومبارك، عن الحسن وأبى بكر، عن الحسن وقتادة، قالوا: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إنى فاعل. وهذا معناه أنه أخبرهم بذلك.

وقال السدى: استشار الملائكة فى خلق آدم. رواه ابن أبى حاتم، قال[٢]: وروى عن قتادة نحوه. وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الأخبار ففيها تساهل، وعبارة الحسن وقتادة فى رواية ابن جرير أحسن، والله أعلم.

﴿فِي الأَرْضِ﴾: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد[٣]، حدثنا عطاء ابن السائب، عن عبد الرحمن بن سابط أن رسول الله[٤] ﷺ قال: «دُحيت الأرض من مكة، وأول من طاف بالبيت الملائكة، فقال الله: إنى جاعل فى الأرض خليفه، يعنى مكة»[٥].

وهذا مرسل، وفى سنده ضعف، وفيه مُدْرَج، وهو أن المراد بالأرض مكة، والله أعلم؛ فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك.

﴿خَلِيفَةً﴾: قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

---

(١) صحيح مسلم برقم(٦٣٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) فى جـ، ط: «وقال».
(٣) فى جـ: «أحمد».
(٤) فى جـ، ط، ب: «النبى».
(٥) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٠٨).

قالوا[١]: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا.

قال ابن جرير: فكان تأويل الآية على هذا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ منى، يخلفنى فى الحكم بين خلقى، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه فى طاعة الله والحكم[٢] بالعدل بين خلقه. وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقه[٣] فمن غير خلفائه.

قال ابن جرير: وإنما [كان تأويل الآية على هذا][٤] معنى الخلافة التى ذكرها الله إنما هى خلافة قرن منهم قرنا.

قال: والخليفة الفعيلة من قومك، خلف فلان فلانا فى هذا الأمر: إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]. ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة؛ لأنه خلف الذى كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خَلَفاً.

قال: وكان محمد بن إسحاق يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يقول: ساكنا وعامرا يسكنها ويعمرها خلفا ليس منكم.

قال ابن جرير: وحدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: أول من سكن الأرض الجنُّ، فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضا. قال: فبعث الله إليهم إبليس، فقتلهم إبليس ومن معه حتي ألحقهم[٥] بجزائر البحور وأطراف الجبال. ثم خلق آدم وأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٦].

وقال سفيان الثورى، عن عطاء بن السائب، عن ابن سابط: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ قال: يعنون [به][٧] بنى آدم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال الله للملائكة: إنى أريد أن أخلق فى الأرض خلقا وأجعل فيها خليفة وليس لله، عز وجل، خلق إلا الملائكة، والأرض ليس فيها خلق، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها [ويسفك الدماء][٨]؟!

وقد تقدم ما رواه السدى، عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أن الله أعلم الملائكة بما يفعل ذرّية آدم، فقالت الملائكة ذلك. وتقدم آنفا[٩] ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: أن الجن أفسدوا فى الأرض قبل بنى آدم، فقالت الملائكة ذلك، فقاسوا هؤلاء بأولئك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسى، حدثنا أبو معاوية، حدثنا

---

(١) فى جـ: «فقالوا». (٢) فى جـ: «وحكم». (٣) فى جـ، ط، أ: «حقها».
(٤) زيادة من جـ. (٥) فى جـ: «ألحقوهم».
(٦) تفسير الطبرى (١/ ٤٥٠).
(٧) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٨) زيادة من جـ. (٩) فى جـ، ط: «أيضاً».

الأعمش، عن بُكَير[١] بن الأخنس، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: كان الجن بنو الجان فى الأرض قبل أن يخلق آدم بألفى سنة، فأفسدوا فى الأرض، وسفكوا الدماء، فبعث الله جندا من الملائكة فضربوهم، حتى ألحقوهم بجزائر البحور، فقال الله للملائكة: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾. قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ قال: إنى أعلم ما لا تعلمون[٢].

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع، عن أبى العالية فى قوله: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ إلى قوله: ﴿**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[البقرة:٣٣] قال: خلق الله الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة؛ فكفر قوم من الجن، فكانت الملائكة تهبط إليهم فى الأرض فتقاتلهم، فكانت الدماء بينهم، وكان الفساد فى الأرض، فمن ثم قالوا: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**﴾ كما أفسدت الجن ﴿ **وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ كما سفكوا.

قال ابن أبى حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مبارك ابن فضالة، حدثنا الحسن، قال: قال الله للملائكة: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ قال لهم: إنى فاعل. فآمنوا بربهم[٣]، فعلمهم علماً وطوى عنهم علماً علمه ولم يعلموه، فقالوا بالعلم الذى علمهم: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾؟ ﴿ **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾.

قال الحسن: إن الجن كانوا فى الأرض يفسدون[٤] ويسفكون الدماء، ولكن جعل الله فى قلوبهم أن ذلك سيكون فقالوا بالقول الذى علَّمهم.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة فى قوله: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**﴾: كان [الله][٥] أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خَلْق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك حين قالوا: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**﴾[٦].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام الرازى، حدثنا ابن المبارك، عن معروف، يعنى ابن خَرّبوذ المكى، عمن سمع أبا جعفر محمد بن على يقول: السِّجِلّ ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له فى كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن فى أم الكتاب، فنظر نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور، فأسَرّ ذلك إلى هاروت وماروت، وكانا من أعوانه، فلما قال تعالى: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ قالا ذلك استطالة على الملائكة.

وهذا أثر غريب. وبتقدير صحته إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين الباقر، فهو نقله عن أهل الكتاب، وفيه نكارة توجب رده، والله أعلم. ومقتضاه أن الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط،

---

(١) فى أ: «بكر».
(٢) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٠٩).
(٣) فى أ، و: «أفآمنوا برأيهم». (٤) فى جـ: «يفسدون فى الأرض». (٥) زيادة من جـ، ط، ب، أ.
(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٥).

وهو خلاف السياق.

وأغرب منه ما رواه ابن أبي حاتم ـ أيضاً ـ حيث قال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن أبي عَبْد الله، حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، قال: سمعت أبي يقول: إن الملائكة الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كانوا عشرة آلاف، فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم.

وهذا ـ أيضاً ـ إسرائيلي منكر كالذي قبله، والله أعلم.

وقال ابن جريج: إنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما قالت الملائكة ما قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؛ لأن الله أذن لهم[١] في السؤال عن ذلك، بعد ما أخبرهم[٢] أن ذلك كائن من بني آدم، فسألته الملائكة، فقالت على التعجب منها: وكيف يعصونك يارب وأنت خالقهم!؟ فأجابهم ربهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أن ذلك كائن منهم. وإن لم تعلموه أنتم ومن بعض من ترونه لي طائعا.

قال: وقال بعضهم: ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك، فكأنهم قالوا: يارب خبرنا، مسألة [الملائكة][٣] استخبار منهم، لا على وجه الإنكار. واختاره ابن جرير.

وقال سعيد عن قتادة قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فاستشار الملائكة في خلق آدم، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وقد علمت الملائكة من علم الله أنه لا شيء أكره إلى الله من سفك الدماء والفساد في الأرض ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكان في علم الله أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة، قال: وذكر لنا عن ابن عباس أنه كان يقول: إن الله لما أخذ في خلق آدم قالت الملائكة: ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منا ولا أعلم منا، فابتلوا بخلق آدم، وكل خلق مبتلى كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة فقال: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: التسبيحُ: التسبيحُ، والتقديس: الصلاة[٤].

وقال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: يقولون: نصلي لك.

وقال مجاهد: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: نعظمك ونكبرك.

---

(١) في أ، و: «لها». (٢) في أ، و: «ما أخبرها».

(٣) زيادة من جـ.

(٤) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٥).

وقال الضحاك: التقديس: التطهير.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: لا نعصى ولا نأتى شيئاً تكرهه.

وقال ابن جرير: التقديس: هو التعظيم والتطهير، ومنه قولهم: سُبُّوح قُدُّوس، يعنى بقولهم: سبُوح، تنزيه له، وبقولهم: قدوس، طهارة وتعظيم له. ولذلك قيل للأرض: أرض مقدسة، يعنى بذلك المطهرة. فمعنى قول الملائكة إذاً: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهلُ الشرك بك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك.

[وفى صحيح مسلم عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ سئل: أى الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده»(١). وروى البيهقى عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به سمع تسبيحاً فى السموات العلا «سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى»(٢)](٣).

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال قتادة: فكان فى علم الله أنه سيكون فى تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة، وسيأتى عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين أقوال فى حكمة قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد استدل القرطبى وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما يختلفون فيه، ويقطع تنازعهم، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطى الفواحش، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التى لا يمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة فى أبى بكر، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو يتركه شورى فى جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور وحكى على ذلك(٤) إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم، أو بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدى ذلك إلى الشقاق والاختلاف، وقد نص عليه الشافعى.

وهل يجب الإشهاد على عقد الإمامة؟ فيه خلاف، فمنهم من قال: لا يشترط، وقيل: بلى ويكفى شاهدان، وقال الجبائى: يجب أربعة وعاقد ومعقود له، كما ترك عمر، رضى الله عنه، الأمر شورى بين ستة، فوقع الأمر على عاقد وهو عبد الرحمن بن عوف، ومعقود له وهو عثمان، واستنبط

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٧٣١).

(٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٢/ ٧) من طريق مسكين بن ميمون عن عروة بن رويم، عن عبد الرحمن بن قرط رضى الله عنه به مرفوعاً وسيأتى من رواية الطبرانى عند تفسير الآية: ٤٤ من سورة الإسراء.

(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ.

(٤) فى أ: «تلك».

وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقين وفى هذا نظر، والله أعلم.

ويجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء قرشياً على الصحيح، ولا يشترط الهاشمى ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للغلاة الروافض، ولو فسق الإمام هل ينعزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»[(١)] ، وهل له أن يعزل نفسه؟ فيه خلاف، وقد عزل الحسن ابن على نفسه وسلم الأمر إلى معاوية لكن كان هذا لعذر وقد مدح على ذلك.

فأما نصب إمامين فى الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام: «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان»[(٢)] . وهذا قول الجمهور، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين، وقالت الكرامية: يجوز نصب إمامين فأكثر كما كان على ومعاوية إمامين واجبى الطاعة، قالوا: وإذا جاز بعث نبيين فى وقت واحد وأكثر جاز ذلك فى الإمامة؛ لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف، وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبى إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما، وتردد إمام الحرمين فى ذلك، قلت: وهذا يشبه حال خلفاء بنى العباس بالعراق والفاطميين بمصر والأمويين بالمغرب.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ .

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من علم أسماء كلّ شىء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له. وإنما قدم هذا الفصل على ذاك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم [الله][(٣)] تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر تعالى[(٤)] هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم فى العلم، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

وقال السدى، عمن حدثه، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً، والدواب، فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: هى هذه الأسماء التى يتعارف

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٨٥٢) من حديث عرفجة رضى الله عنه.

(٣) زيادة من جـ. (٤) فى جـ: «ذكر تبارك وتعالى»، وفى ب: «ذكر الله تعالى».

بها الناس: إنسان، ودابة، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وجمل[١]، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير، من حديث عاصم بن كليب، عن سعيد بن معبد، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم الصحفة والقِدر، قال: نعم حتى الفسوة والفُسَيَّة[٢].

وقال مجاهد: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء.

وكذلك روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف: أنه علمه أسماء كل شيء. وقال الربيع فى رواية عنه: أسماء الملائكة. وقال حميد الشامى: أسماء النجوم. وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته كلهم.

واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عما يعقل. وهذا الذى رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفى أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب. كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

[وقد قرأ عبد الله بن مسعود: «ثم عرضهن» وقرأ أبى بن كعب: «ثم عرضها» أى: السموات][٣].

والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها: ذواتها وأفعالها؛ كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفُسَيَّة. يعنى أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر؛ ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية من كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال ـ وقال لى خليفة: حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا سعيد، عن قتادة عن أنس، عن النبى ﷺ قال ـ :«يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لَسْتُ هُناكُم: ويذكر ذنبه فيستحيى؛ ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هُنَاكُم. ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحيى. فيقول: ائتوا خليل الرحمن، فيأتونه، فيقول: لست هُنَاكم؛ فيقول: ائتوا موسى عَبْداً كَلمه الله، وأعطاه التوراة، فيأتونه، فيقول: لست هُنَاكُمْ. ويذكر قَتْلَ النفس بغير نفس، فيستحيى من ربه؛ فيقول: ائتوا عيسى عَبْدَ الله ورسولَه وكَلمةَ الله وروحه، فيأتونه، فيقول: لست هُنَاكُم؛ ائتوا محمداً عبداً غَفَرَ الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتونى، فأنطلق حتى أستأذن على ربى، فيُؤذن لى، فإذا رأيت ربى وقعتُ ساجداً، فيدعنى ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل

(١) فى جـ، ط، ب: «وجبل».
(٢) فى جـ: «الفشوة والفشية».
(٣) زيادة من جـ، ط، أ، و.

يُسْمَع، واشفع تُشَفَّع، فأرفع رأسى، فأحمده بتحميد[١] يعلمُنيه، ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه، وإذا رأيت ربى مثله[٢]، ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة[٣]، ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقى فى النار إلا مَنْ حبسه القرآن ووجب عليه الخلود»[٤].

هكذا ساق البخارى هذا الحديث ههنا. وقد رواه مسلم والنسائى من حديث هشام، وهو ابن أبى عبد الله الدَّسْتُوائى، عن قتادة، به[٥]. وأخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه من حديث سعيد، وهو ابن أبى عَرُوبَة، عن قتادة[٦] . ووجه إيراده ههنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: «فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شىء»، فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾ يعنى: المسميات؛ كما قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قال: ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس ـ وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ثم عرض الخَلْق على الملائكة.

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾:عرض أصحاب الأسماء على الملائكة.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنى الحجاج، عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة، عن الحسن ـ وأبى بكر، عن الحسن وقتادة ـ قالا: علمه اسم كل شىء، وجعل يسمى كل شىء باسمه، وعرضت عليه أمة أمة.

وبهذا الإسناد عن الحسن وقتادة فى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: إنى لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه، فأخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: إن كنتم تعلمون[٧] لم أجعل فى الأرض خليفة.

وقال السدى، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء.

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال فى ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله، ومعنى ذلك فقال: أنبئونى بأسماء من عَرَضْتُه عليكم أيها الملائكة القائلون: أتجعل فى الأرض من يفسد فيها ويسفك

---

(١) فى جـ: «تحميداً». (٢) فى جـ: «فإذا رأيته عملت مثله».
(٣) فى جـ، ط: «فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه، فإذا رأيت ربى عملت مثله، ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٦).
(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٩٨٤).
(٦) صحيح مسلم برقم (١٩٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣١٢).
(٧) فى جـ: «إن كنتم عالمين».

الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين فى قيلكم: إنى إن جعلتُ خليفتى فى الأرض من غيركم عصانى ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتمونى واتبعتم أمرى بالتعظيم لى والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التى لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين.

[وقوله][1]: ﴿ قالوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أى: العليم بكل شىء، الحكيم فى خلقك وأمرك وفى تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة فى ذلك، والعدل التام.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن حجاج، عن ابن أبى مُلَيْكَة، عن ابن عباس: سبحان الله، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء. [قال][2]: ثم قال عمر لعلى وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، قد عرفناها[3]، فما سبحان الله؟ فقال له على: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن تقال[4].

قال: وحدثنا أبى، حدثنا ابن نفيل، حدثنا النضر بن عربى قال: سأل رجل ميمون بن مِهْرَان عن «سبحان الله»، فقال: اسم يُعَظَّم الله به، ويُحَاشَى به من السوء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: قال زيد بن أسلم. قال: أنت جبريل، أنت ميكائيل، أنت إسرافيل، حتى عدد الأسماء كلها، حتى بلغ الغراب.

وقال مجاهد فى قول الله: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قال: اسم الحمامة، والغراب، واسم كل شىء.

وروى عن سعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، نحو ذلك.

فلما ظهر فضل آدم، عليه السلام، على الملائكة، عليهم السلام، فى سَرْده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أى: أَلَمْ أتقدم إليكم أنى أعلم الغيب الظاهر والخفى، كما قال [الله][5] تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وكما قال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه

---

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٣) فى جـ، ط: «عرفناه».
(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١١٧).
(٥) زيادة من أ.

قال لسليمان: ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٥، ٢٦].

وقيل فى [معنى][(١)] قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ غيرُ ما ذكرناه؛ فروى الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعنى: ما كَتَم إبليس فى نفسه من الكِبْر والاغترار.

وقال السدى، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، قال: قولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ فهذا الذى أبدوا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعنى: ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر.

وكذلك قال سعيد بن جبير، ومجاهد، والسدى، والضحاك، والثورى. واختار ذلك ابن جرير.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة: هو قولهم: لم يخلق ربّنا خلقاً إلا كُنَّا أعلم منه وأكرم عليه منه.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فكان الذى أبدوا قولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ وكان الذى كتموا بينهم قولهم: لن[(٢)] يخلق ربنا خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم. فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم فى العلم، والكرم.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فى قصة الملائكة وآدم: فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم، إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها، هذا عندى قد علمتُه؛ ولذلك[(٣)] أخفيت عنكم أنى أجعل فيها من يعصينى ومن يُطيعنى، قال: وسبَقَ من الله ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه قال: ولما[(٤)] رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا له بالفضل[(٥)].

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال فى ذلك قولُ ابن عباس، وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾: وأعلم ـ مع علمى غيب السموات والأرض ـ ما تظهرونه بألسنتكم وما كنتم تخفون[(٦)] فى أنفسكم، فلا يخفى عَلَيّ شيء، سواء عندى سرائركم، وعلانيتكم.

والذى أظهروه بألسنتهم قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، والذى كانوا يكتمون ما كان عليه منطوياً إبليس من الخلاف على الله فى أوامره[(٧)]، والتكبر عن طاعته.

---

(١) زيادة من جـ، أ، و.
(٢) فى جـ: «لم».
(٣) فى جـ، ب: «فلذلك».
(٤) فى جـ، ط: «فلما».
(٥) تفسير الطبرى (١/ ٤٩٧).
(٦) فى أ، و: «تخفونه».
(٧) فى جـ، ط، ب: «فى أمره».

قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قُتِل الجيش وهُزِموا، وإنما قتل الواحد أو البعض، وهزم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ [الحجرات: ٤] ذُكر أن الذى نادى إنما كان واحداً من بنى تميم، قال: وكذلك قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾.

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم. وقد دل على ذلك أحاديث ـ أيضاً ـ كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى، عليه السلام: «رَبِّ، أرنى آدم الذى أخرجنا ونفسَه من الجنة»، فلما اجتمع به قال: «أنت آدم الذى خلقه[1] الله بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته». قال . . . وذكر الحديث كما سيأتى.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشْر بن عُمارة، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان إبليس من حَىٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم: الجنّ، خلقوا من نار السموم، من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، قال: وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحى. قال: وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار، [وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا لهبت قال: وخلق الإنسان من طين][2]. فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضا. قال: فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة ـ وهم هذا الحى الذين يقال لهم: الجنّ ـ فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلما فعل إبليس ذلك اغترّ فى نفسه، فقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد. قال: فاطّلع الله على ذلك من قلبه، ولم يطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه، فقال الله تعالى للملائكة الذين معه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فقالت الملائكة مجيبين له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ كما أفسدت الجن وسفكت الدماء، وإنما بعثتنا عليهم[3] لذلك؟ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. يقول: إنى قد اطلعت من[4] قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره، قال: ثم أمر بتربة آدم فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب ـ واللازب: اللزج الصلب[5] ـ من حمإ مسنون منتن، وإنما كان حَمَأً مسنوناً بعد التراب. فخلق منه آدم بيده، قال: فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى. فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله، فيصلصل، أى فيصوت. قال: فهو قول الله تعالى: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] يقول: كالشىء المنفرج الذى ليس

---

(١) فى ب، أ، و: «خلقك». (٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٣) فى جـ: «إليهم». (٤) فى جـ: «على».
(٥) فى ب،أ، و: «الطيب».

بُصْمَت. قال: ثم يدخل فى فيه ويخرج من دبره، ويدخل من[(١)] دبره، ويخرج من فيه. ثم يقول: لست شيئاً ـ للصلصلة ـ ولشىء ما خلقتَ، ولئن سُلِّطْتُ عليك لأهلكنك، ولئن سُلِّطتَ على لأعصينَّك. قال: فلما نفخ الله فيه من روحه، أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجرى شىء منها فى جسده إلا صار لحماً ودماً. فلما انتهت النفخة إلى سُرَّته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ[(٢)]الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١] قال: ضَجِرَ لا صَبْر له على سراء ولا ضراء. قال: فلما تمت النفخة فى جسده عطس، فقال: «الحمد لله رب العالمين» بإلهام الله. فقال [الله][(٣)] له: «يرحمك الله يا آدم[(٤)]». قال: ثم قال [الله][(٥)] تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين فى السموات: اسجدوا لآدم. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر، لما كان حدث نفسه من الكبر والاغترار. فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه وأكبر سناً وأقوى خلقاً، خلقتنى[(٦)] من نار وخلقته من طين. يقول: إن النار أقوى من الطين. قال: فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله، أى: آيسه من الخير كله، وجعله شيطاناً رجيماً عُقُوبة لمعصيته، ثم علَّم آدم الأسماء كلها، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة، يعنى: الملائكة الذين كانوا مع إبليس، الذين خلقوا من نار السموم، وقال لهم: ﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ يقول: أخبرونى بأسماء هؤلاء ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: إن كنتم تعلمون لِمَ أجعل فى الأرض خليفة. قال: فلما علمت الملائكة موجدة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب، الذى لا يعلمه غيره، الذى ليس لهم به علم قالوا: سبحانك، تنزيهاً لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره، وتبنا إليك ﴿ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ تبريًا منهم من علم الغيب، إلا ما علمتنا كما علمت آدم، فقال: ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ يقول: أخبرهم بأسمائهم ﴿ فَلَمَّا أَنبَأَهُم ﴾ [يقول: أخبرهم][(٧)] ﴿ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ ﴾ أيها الملائكة خاصة ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولا يعلم غيرى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ يقول: ما تظهرون ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعنى: ما كتم إبليس فى نفسه من الكبر والاغترار[(٨)].

هذا سياق غريب، وفيه أشياء فيها نظر، يطول مناقشتها، وهذا الإسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور.

وقال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرَّة، عن ابن

(١) فى ب: «فى».
(٢) فى هـ: «وخلق»، والمثبت من باقى النسخ، وهو الصواب.
(٣) زيادة من أ، و.
(٤) فى جـ: «يرحمك يا آدم ربك».
(٥) زيادة من جـ.
(٦) فى جـ: «فخلقتنى».
(٧) زيادة من أ، و.
(٨) تفسير الطبرى (١/ ٤٥٥).

مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي[(١)] ﷺ: لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على مُلْك السماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن، وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع مُلْكه خازنا، فوقع فى صدره كبر وقال: ما أعطانى الله هذا إلا لمزية لى على الملائكة. فلما وقع ذلك الكبر فى نفسه[(٢)] اطلع الله على ذلك منه. فقال الله للملائكة: **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** قالوا[(٣)]: ربنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً. قالوا: ربنا، **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** يعنى: من شأن إبليس. فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: إنى أعوذ بالله منك أن تَقْبض[(٤)] منى أو تشيننى فرجع ولم يأخذ، وقال: رب منى[(٥)] عاذت بك فأعذتُها، فبعث ميكائيل، فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث مَلَك الموت فعاذت منه. فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض، وخَلَطَ ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فَصعد به فَبَلَّ التراب حتى عاد طيناً لازباً ـ واللازب: هو الذى يلتزق بعضه ببعض ـ ثم قال للملائكة: **﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾** [ص: ٧١، ٧٢] فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه، ليقول له: تتكبر عما عملت بيدى، ولم أتكبر أنا عنه. فخلقه[(٦)] بشراً، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه، وكان أشدهم فزعاً منه[(٧)] إبليس، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار وتكون له صلصلة. فذلك حين يقول: **﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾** [الرحمن: ١٤] ويقول: لأمر ما خُلقت. ودخل من فيه فخرج من دبره، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا، فإن ربكم صَمَدٌ وهذا أجوف. لئن سُلطت عليه لأهلكنه، فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له. فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه، عَطسَ، فقالت الملائكة: قل: الحمد لله. فقال: الحمد لله. فقال له الله: رحمك ربك. فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة. فلما دخل الروح فى[(٨)] جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ[(٩)] الروح رجليه عجلان[(١٠)] إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول تعالى: **﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾** [الأنبياء: ٣٧] **﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾** [الحجر: ٣٠، ٣١]، أبى واستكبر وكان من الكافرين. قال الله له: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت بيدى؟ قال: أنا خير منه، لم أكن لأسجد لمن[(١١)] خلقته من طين. قال الله له: اخرج منها فما يكون لك، يعنى: ما ينبغى لك **﴿ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾**

---

(١) فى جـ، ط، ب: «رسول الله».
(٢) فى جـ: «فى صدره».
(٣) فى ط، ب: «فقالوا».
(٤) فى أ، و: «تنقص».
(٥) فى جـ، ط، ب: «رب إنها».
(٦) فى جـ، ط: «بخلقه».
(٧) فى جـ، ب، ط: «أشدهم منه فزعاً».
(٨) فى جـ: «إلى».
(٩) فى جـ: «أن يدخل».
(١٠) فى جـ: «عجلاً».
(١١) فى جـ، ب: «لبشر».

[الأعراف: ١٣] والصغار: هو الذل. قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ثم عرض الخلق على الملائكة ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن بنى آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا[(١)]: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال الله: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا الذى أبدوا ﴿وَأَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ يعنى: ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر.

فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور فى تفسير السُّدِّى، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مُدْرَج[(٢)] ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة. والله أعلم. والحاكم يروى فى مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء، ويقول: [هو][(٣)] على شرط البخارى.

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليسُ فى خطابهم؛ لأنه ـ وإن لم يكن من عُنْصرهم ـ إلا أنه كان قد[(٤)] تَشَبَّه بهم وتوسم بأفعالهم؛ فلهذا دخل فى الخطاب لهم، وذم فى مخالفة الأمر. وسنبسط المسألة إن ـ شاء الله تعالى ـ عند قوله: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

ولهذا قال محمد بن إسحاق، عن خلاد، عن[(٥)] عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس: قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل[(٦)]، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهادا، وأكثرهم علماً؛ فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حى يسمون جنًّا.

وفى رواية عن خلاد، عن عطاء، عن طاوس ـ أو مجاهد ـ عن ابن عباس، أو غيره، بنحوه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد[(٧)] بن سليمان، حدثنا عباد ـ يعنى: ابن العوام ـ عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: كان إبليس اسمه عزازيل[(٨)]، وكان من أشراف الملائكة من ذوى الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بعد.

وقال سُنَيد[(٩)]، عن حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: كان[(١٠)] إبليس من أشراف[(١١)] الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازنا على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض.

وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس، سواء.

وقال صالح مولى التَّوْأمة، عن ابن عباس: إن من الملائكة قَبيلا يقال لهم: الجن، وكان إبليس

---

(١) فى أ، و: «فقالوا له».
(٢) فى ب: «مدرجاً».
(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٤) فى جـ: «قد كان».
(٥) فى جـ، ط، ب: «خلاد بن».
(٦) فى جـ، ط، ب: «عزرائيل».
(٧) فى ب: «سعد».
(٨) فى جـ: «عزرائيل».
(٩) فى جـ: «سعيد».
(١٠) فى جـ: «وكان».
(١١) فى جـ: «من أشرف».

منهم، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطانا رجيما. رواه ابن جرير.

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عدى بن أبى عدى، عن عوف، عن الحسن، قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَطْ، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس. وهذا إسناد صحيح عن الحسن. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء.

وقال شَهْر بن حَوْشَب: كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء، رواه ابن جرير.

وقال سُنَيْد بن داود: حدثنا هُشَيم، أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى، عن موسى بن نمير وعثمان بن سعيد بن كامل، عن سعد[١] بن مسعود، قال: كانت الملائكة تقاتل الجن، فسبى إبليس وكان صغيراً، فكان مع الملائكة، فتعبد معها، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا، فأبى إبليس. فلذلك قال تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن سنان القزاز، حدثنا أبو عاصم، عن شَرِيك، عن رجل، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: إن الله خلق خلقاً، فقال: اسجدوا لآدم. فقالوا: لا نفعل. فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم، ثم خلق خلقاً آخر، فقال: إنى خالق بشراً من طين، اسجدوا لآدم. قال: فأبوا. فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق هؤلاء، فقال: اسجدوا لآدم. قالوا: نعم. وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم[٢]. وهذا غريب، ولا يكاد يصح إسناده، فإن فيه رجلا مبهما، ومثله لا يحتج به، والله أعلم.

وقال قتادة فى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ فكانت الطاعة لله، والسجدة أكرم الله آدم بها أن أسجد له ملائكته.

وقال فى قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ حسد عدو الله إبليسُ آدمَ، عليه السلام، على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا نارى وهذا طينى. وكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم، عليه السلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا صالح بن حيان، حدثنا عبد الله بن بُرَيدة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ من الذين أبوا، فأحرقتهم النار.

وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبى العالية: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يعنى: من العاصين.

وقال السدى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: الذين لم يخلقهم الله يومئذ يكونون بعد.

---

(١) فى جـ: «سعيد».

(٢) تفسير الطبرى (١/ ٥٠٨).

وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ: ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلالة، وعمل بعمل الملائكة، فصيره إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام، كما قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] وقد كان هذا مشروعاً فى الأمم الماضية ولكنه نسخ فى ملتنا، قال معاذ[١]: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: «لا، لو كنت آمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»[٢]، ورجحه الرازى، وقال بعضهم: بل كانت السجدة لله وآدم قبلة فيها كما قال: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وفى هذا التنظير نظر، والأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لآدم إكراماً وإعظاماً واحتراماً وسلاماً، وهى طاعة لله، عز وجل؛ لأنها امتثال لأمره تعالى، وقد قواه الرازى فى تفسيره وضعف ما عداه من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبلة إذ لا يظهر فيه شرف، والآخر: أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال.

قلت: وقد ثبت فى الصحيح: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر»[٣] وقد كان فى قلب إبليس من الكبر ـ والكفر ـ والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس؛ قال بعض المعربين: وكان من الكافرين أى: وصار من الكافرين بسبب امتناعه، كما قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وقال: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال الشاعر:

بتيهاء قفر والمطى كأنها قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

أى: قد صارت، وقال ابن فورك: تقديره: وقد كان فى علم الله من الكافرين، ورجحه القرطبى، وذكر ههنا مسألة فقال: قال علماؤنا من أظهر الله على يديه ممن ليس بنبى كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة هذا لفظه. ثم استدل على ما قال: بأنا لا نقطع بهذا الذى جرى الخارق على يديه أنه يوافى الله بالإيمان، وهو لا يقطع لنفسه بذلك، يعنى والولى الذى يقطع له بذلك فى نفس الأمر.

قلت: وقد استدل بعضهم على أن الخارق قد يكون على يدى غير الولى، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر، أيضاً، بما ثبت عن ابن صياد أنه قال: هو الدخ حين خبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، وبما كان يصدر عنه أنه كان يملأ الطريق إذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر، وبما ثبتت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض

---

(١) فى و: «معاوية».

(٢) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٢٢٧).

(٣) صحيح مسلم برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

مثل اليعاسيب، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور المهولة. وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصدفى: قلت للشافعى: كان الليث بن سعد يقول: إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، فقال الشافعى: قصر الليث، رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، وقد حكى فخر الدين وغيره قولين للعلماء: هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض، أو عام فى ملائكة السموات والأرض، وقد رجح كلا من القولين طائفة، وظاهر الآية الكريمة العموم: ﴿ **فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلاَّ إِبْلِيسَ** ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١، ص: ٧٣، ٧٤] فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم، والله أعلم.

﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦)** ﴾ .

يقول الله تعالى إخبارا عما أكرم به آدم، بعد أن أمر الملائكة[١] بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس: إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء[٢]، رَغَداً، أى: هنيئاً واسعاً طيباً.

وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويَه، من حديث محمد بن عيسى الدامغانى، حدثنا سلمة بن الفضل، عن ميكائيل، عن ليث، عن إبراهيم التيمى، عن أبيه، عن أبى ذر، قال: قلت: يا رسول الله؛ أريت آدم، أنبياً كان؟ قال: «نعم، نبيا رسولا، كلمه الله قِبَلا، فقال: ﴿ **اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ﴾»[٣].

وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها آدم، أهى فى السماء أم فى الأرض؟ والأكثرون على الأول، [وحكى القرطبى عن المعتزلة والقدرية القول بأنها فى الأرض][٤]، وسيأتى تقرير ذلك فى سورة الأعراف، إن شاء الله تعالى، وسياق الآية يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم [٥] الجنة. وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق، حيث قال: لما فرغ الله من معاتبة إبليس، أقبل على آدم وقد علَّمه الأسماء كلها، فقال: ﴿ **يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ** ﴾، إلى قوله: ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**[٦] ﴾. قال: ثم ألقيت السِّنَةُ على آدم ـ فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عباس وغيره ـ ثم أخذ ضِلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، ولأم مكانه لحما، وآدم نائم لم يهب من

---

(١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «أمر ملائكته». (٢) فى جـ، ط: «ما يشاء».

(٣) ورواه ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١/ ١٠) من طريق أبى عمر الشامى، عن عبيد الخشخاش، عن أبى ذر بنحوه، ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٠١٦) من طريق جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبى أمامة، عن أبى ذر بنحوه، ورواه أحمد فى المسند (٥/ ٢٦٥) من طريق على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة مرفوعاً بنحوه.

(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٥) فى ب، و: «آدم إلى». (٦) فى أ: «وما كنتم تكتمون».

نومه، حتى خلق الله من ضِلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها. فلما كُشف عنه السِّنَة وهَبَّ من نومه، رآها إلى جنبه، فقال ـ فيما يزعمون والله أعلم ـ: لحمي ودمي وروحي[١]. فسكن إليها. فلما زوَّجَه الله، وجعل له سكنا من نفسه، قال له قِبَلاً: ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ويقال: إن خلق حواء كان بعد دخوله الجنة، كما قال السدى فى تفسيره[٢]، ذكره عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشى فيها وحْشاً ليس له زوج يسكن إليه، فنام نومة فاستيقظ، وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلى. قالت له الملائكة ـ ينظرون ما بلغ من علمه ـ: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولم سميت حواء؟ قال: إنها خلقت من شىء حى. قال الله: ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾.

وأما قوله: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم. وقد اختلف فى هذه الشجرة: ما هى؟

فقال السدى، عمن حدثه، عن ابن عباس: الشجرة التى نهى عنها آدم، عليه السلام، هى الكَرْم.

وكذا قال سعيد بن جبير، والسدى، والشعبى، وجَعْدة بن هُبَيْرة، ومحمد بن قيس.

وقال السدى ـ أيضاً ـ فى خبر ذكره، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ هى الكرم. وتزعم يهود أنها الحنطة.

وقال ابن جرير وابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمسى، حدثنا أبو يحيى الحِمَّانى، حدثنا النضر أبو عمر الخزاز، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس، قال: الشجرة التى نُهِى عنها آدم، عليه السلام، هى السنبلة.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمارة، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: هى السنبلة.

وقال محمد بن إسحاق، عن رجل من أهل العلم، عن حجاج، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: هى البر.

وقال ابن جرير: وحدثنى المثنى بن إبراهيم، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا القاسم، حدثنى

---

(١) فى جـ، ب، أ، و: «وزوجتى». (٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فى خبر».

رجل من بنى تميم، أن ابن عباس كتب إلى أبى الجلد يسأله عن الشجرة التى أكل منها آدم، والشجرة التى تاب عندها آدم. فكتب إليه أبو الجلد: سألتنى عن الشجرة التى نهى عنها آدم، وهى السنبلة، وسألتنى عن الشجرة التى تاب عندها آدم، وهى الزيتونة(١).

وكذلك فسره الحسن البصرى، ووهب بن مُنَبِّه، وعطية العَوفى، وأبو مالك، ومحارب(٢) بن دِثَار، وعبد الرحمن بن أبى ليلى.

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل اليمن، عن وهب بن منبه: أنه كان يقول: هى البُر، ولكن الحبة منها فى الجنة ككُلَى البقر، ألين من الزبد وأحلى من العسل.

وقال سفيان الثورى، عن حصين، عن أبى مالك: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: النخلة.

وقال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: تينة. وبه قال قتادة وابن جريج.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية: كانت الشجرة من أكل منها أحدث، ولا ينبغى أن يكون فى الجنة حَدَثٌ، وقال عبد الرزاق: حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مُهْرِب(٣)، قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة، ونهاه عن أكل الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها من(٤) بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم، وهى الثمرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته.

فهذه أقوال ستة فى تفسير(٥) هذه الشجرة.

قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير، رحمه الله(٦): والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه، نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها(٧)، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين؟ لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة. وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين. وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك عِلْمٌ، إذا علم ينفع العالمَ به علمُه، وإن جهله جاهلٌ لم يضرَّه جهله به، والله أعلم. [وكذلك رجح الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره وغيره وهو الصواب](٨).

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾: يصح أن يكون الضمير فى قوله: ﴿عَنْهَا﴾ عائدا إلى

---

(١) تفسير الطبرى (١/ ٥١٧).

(٢) فى جـ: «مجاهد». (٣) فى جـ: «مهدى». (٤) فى جـ، ط، ب: «فى».

(٥) فى جـ، ط، ب، أ، و: «تعيين».

(٦) تفسير الطبرى (١/ ٥٢٠، ٥٢١).

(٧) فى جـ: «سائر الأشجار».

(٨) زيادة من جـ، ط، أ، و.

الجنة، فيكون معنى الكلام كما قال[١] [حمزة و][٢] عاصم بن بَهْدلَة، وهو ابن أبى النَّجُود: فأزالهما، أى: فنجَّاهما. ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادةُ ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أى: من قَبِيل[٣] الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أى: بسببها، كما قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩] أى: يصرف بسببه من هو مأفوك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أى: من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنىء والراحة.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: قرار وأرزاق وآجال ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة.

وقد ذكر المفسرون من السلف كالسُّدِّى بأسانيده، وأبى العالية، ووهب بن مُنَبِّه وغيرهم، ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحَيَّة، وإبليس، وكيف جرى من دخول إبليس الجنة ووسوسته، وسنبسط ذلك، إن شاء الله، فى سورة الأعراف، فهناك القصة أبسط منها ههنا، والله الموفق.

وقد قال ابن أبى حاتم ههنا: حدثنا على بن الحسن بن إشكاب، حدثنا على بن عاصم، عن سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلا طُوَالا، كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سَحُوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يَشْتَد[٤] فى الجنة، فأخذت شَعْرَه شجرةٌ، فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم، منى تَفِرُّ! فلما سمع كلام الرحمن قال: يارب، لا، ولكن استحياء»[٥].

قال: وحدثنى جعفر بن أحمد بن الحكم القومشى[٦] سنة أربع وخمسين ومائتين، حدثنا سليم[٧] ابن منصور بن عمار، حدثنا على بن عاصم، عن سعيد، عن قتادة، عن أبى بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ذاق آدم من الشجرة فَرَّ هاربا؛ فتعلقت شجرة بشعره، فنودى: يا آدم، أفراراً منى؟ قال: بل حَيَاء منك، قال: يا آدم اخرج من جوارى؛ فبعزتى لا يساكننى فيها من عصانى، ولو خلقت مِثْلَك ملء الأرض خَلْقاً ثم عصونى لأسكنتهم دار العاصين»[٨].

هذا حديث غريب، وفيه انقطاع، بل إعضال بين قتادة وأبى بن كعب، رضى الله عنهما[٩].

وقال الحاكم: حدثنا أبو بكر بن بَالُويه[١٠]، عن محمد بن أحمد بن النضر، عن معاوية بن عمرو، عن زائدة، عن عَمَّار بن معاوية البَجَلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: ما أسكن

---

(١) فى جـ، ط: «كما قرأ». (٢) زيادة من جـ، ط. (٣) فى جـ، ط، ب: «من قبل».
(٤) فى جـ: «يستدير».
(٥) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٢٩).
(٦) فى هـ: «القرشى». (٧) فى هـ: «سليمان».
(٨) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٣٠).
(٩) فى جـ، ب، و: «عنه». (١٠) فى جـ: «مالويه».

آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال عبد بن حميد فى تفسيره: حدثنا رَوح، عن هشام، عن الحسن، قال: لبث آدم فى الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، قال: خرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة، فأخرج آدم معه غصناً من شجر الجنة، على رأسه تاج من شجر الجنة وهو الإكليل من ورق الجنة.

وقال السدى: قال الله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ فهبطوا فنزل آدم بالهند، ونزل معه الحجر الأسود، وقبضة[١] من ورق الجنة فبثه بالهند، فنبتت شجرة الطيب، فإنما أصل ما يجاء به من الهند من الطيب من قبضة الورق التى هبط بها آدم، وإنما قبضها آدم أسفاً على الجنة حين أخرج منها[٢].

وقال عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: أهبط آدم من الجنة بِدَحْنا، أرض بالهند.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير، عن عطاء، عن سعيد عن ابن عباس قال: أهبط آدم، عليه السلام، إلى أرض يقال لها:دَحْنا، بين مكة والطائف.

وعن الحسن البصرى، قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدَسْتُميسان[٣] من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان. رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو بن أبى قيس، عن ابن عدى[٤]، عن ابن عمر، قال: أهبط آدم بالصفا، وحواء بالمروة.

وقال رجاء بن سلمة: أهبط آدم، عليه السلام، يداه على ركبتيه مطأطئاً رأسه، وأهبط إبليس مشبكا بين أصابعه رافعاً رأسه إلى السماء.

وقال عبد الرزاق: قال مَعْمَر: أخبرنى عَوْف، عن قَسَامة بن زهير، عن أبى موسى، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض، عَلَّمه صنعة كل شىء، وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير[٥].

وقال الزهرى، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فأنزل معه بالحجر الأسود ويقبضه».

(٢) فى جـ، ط، ب: «وإنما قبضها آدم حين أخرج من الجنة أسفاً على الجنة حين أخرج منها» .

(٣) فى و: «بدسمت ميسان». (٤) فى جـ، ط، ب، أ، و: «عمرو بن أبى قيس عن الزبير عن ابن عدى».

(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٦).

«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها» رواه مسلم والنسائى[(١)].

وقال فخر الدين: اعلم أن فى هذه الآيات تهديداً عظيما عن كل المعاصى من وجوه: الأول: أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصى، قال الشاعر:

يا ناظرا يرنو بعينى راقد ... ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى ... درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدما ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

قال فخر الدين عن فتح الموصلى أنه قال: كنا قوماً من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التى أخرجنا منها. فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التى أسكنها فى السماء كما يقوله الجمهور من العلماء، فكيف يمكن إبليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طرداً قدرياً، والقدرى لا يخالف ولا يمانع؟ فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التى كان فيها آدم فى الأرض لا فى السماء، وقد بسطنا هذا فى أول كتاب البداية والنهاية، وأجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه الردع والإهانة، فلا يمتنع؛ ولهذا قال بعضهم: كما جاء فى التوراة أنه دخل فى فم الحية إلى الجنة، وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة، وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو فى الأرض، وهما فى السماء، ذكرها الزمخشرى وغيره. وقد أورد القرطبى ههنا أحاديث فى الحيات وقتلهن وبيان حكم ذلك، فأجاد وأفاد[(٢)].

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ .

قيل: إن هذه[(٣)] الكلمات مفسرة بقوله تعالى: **﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾** [الأعراف: ٢٣]؛ روى هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبى العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب القُرَظى، وخالد بن مَعْدان، وعطاء الخراسانى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال أبو إسحاق السَّبِيعى، عن رجل من بنى تميم، قال: أتيت ابن عباس، فسألته: [قلت][(٤)]: ما الكلمات التى تلقى آدم من ربه؟ قال: عُلم [آدم][(٥)] شأنَ الحج.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨٥٤) وسنن النسائى (٣/ ٨٩).
(٢) تفسير القرطبى (١/ ٣١٣ ـ ٣١٧).
(٣) فى جـ، ط: «هؤلاء».
(٤) زيادة من ط، ب، و.
(٥) زيادة من جـ.

وقال سفيان الثورى، عن عبد العزيز بن[1] رُفَيع، أخبرنى من سمع عبيد بن عُمَير، وفى رواية: [قال][2]: أخبرنى مجاهد، عن عبيد بن عمير، أنه قال: قال آدم: يارب، خطيئتى التى أخطأت شىء كتبته على قبل أن تخلقنى، أو شىء ابتدعته من قبل نفسى؟ قال: بل شىء كتبتُه عليك قبل أن أخلقك. قال: فكما كتبته على فاغفر[3] لى. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾.

وقال السدى، عمن حدثه، عن ابن عباس: فتلقى آدم من ربه كلمات، قال: قال آدم، عليه السلام: يارب، ألم تخلقنى بيدك؟ قيل[4] له: بلى. ونفخت فى من روحك؟ قيل[5] له: بلى. وعَطَستُ فقلتَ: يرحمك الله، وسبقت رحمتُك غَضَبك؟ قيل[6] له: بلى، وكتبت علىّ أن أعمل هذا؟ قيل[7] له: بلى. قال: أفرأيت إن تبتُ هل أنت راجعى إلى الجنة؟ قال: نعم.

وهكذا رواه العوفى، وسعيد بن جبير، وسعيد بن مَعْبَد، عن ابن عباس، بنحوه. ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[8] وهكذا فسره السدى وعطية العَوْفى.

وقد روى ابن أبى حاتم ههنا حديثاً شبيهاً بهذا فقال: حدثنا على بن الحسن بن إشكاب، حدثنا على بن عاصم، عن سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال آدم، عليه السلام: أرأيت يارب إن تبتُ ورجعتُ، أعائدى إلى الجنة؟ قال: نعم. فذلك قوله: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾»[9].

وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، فى قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: يارب، أرأيت إن تبت وأصلحت؟ قال الله: إذن أرجعك إلى الجنة فهى من الكلمات. ومن الكلمات أيضاً: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد أنه كان يقول فى قول الله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ قال: الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمتُ نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى، إنك[10] خير الراحمين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فتب على، إنك أنت التواب الرحيم.

---

(١) فى جـ: «عن». (٢) زيادة من جـ، ط، ب. (٣) فى جـ، ب: «فاغفره».
(٤ ـ ٧) فى جـ: «قال».
(٨) المستدرك (٢/ ٥٤٥).
(٩) تفسير ابن حاتم (١/ ١٣٥).
(١٠) فى جـ: «فاغفر لى أنت».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أى: إنه يتوب على من تاب إليه وأناب، كقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

وذكرنا فى المسند الكبير من طريق سليمان بن سليم عن ابن بريدة وهو سليمان عن أبيه عن النبى ﷺ قال: «لما أهبط الله آدم إلى الأرض طاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين، ثم قال: اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى، وتعلم ما عندى فاغفر ذنوبى، أسألك إيمانا يباشر قلبى، ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى. قال فأوحى الله إليه إنك قد دعوتنى بدعاء أستجيب لك فيه ولمن يدعونى به، وفرجت همومه وغمومه، ونزعت فقره من بين عينيه، وأجرت له من وراء كل تاجر زينة الدنيا وهى كلمات عهد وإن لم يزدها» رواه الطبرانى فى معجمه الكبير[(١)].

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حتى[(٢)] أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية: أنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسل؛ كما قال أبو العالية: الهُدَى الأنبياء والرسل والبيان. وقال مقاتل بن حيَّان: الهدى محمد ﷺ. وقال الحسن: الهدى القرآن. وهذان القولان صحيحان، وقول أبى العالية أعمّ.

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ أى: من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال فى سورة طه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] قال ابن عباس: فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] كما قال ههنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى: مخلدون فيها، لا محيد لهم عنها، ولا محيص.

وقد أورد ابن جرير، رحمه الله، ههنا حديثاً ساقه من طريقين، عن أبى مَسْلَمة سعيد بن يزيد،

(١) جامع المسانيد والسنن برقم (٧٤٢) ولم أقع عليه فى المطبوع من المعجم الكبير.
(٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «حين».

عن أبى نضرة المنذر بن مالك بن قطْعَة[(١)]، عن أبى سعيد ـ واسمه سعد بن مالك بن سِنَان الخُدْرى ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، لكن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم، أو بذنوبهم فأماتتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً أذنَ فى الشفاعة».

وقد رواه مسلم من حديث شعبة عن أبى سلمة، به[(٢)].

[وذكر هذا الإهباط الثانى لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول، وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير، كما تقول: قم قم، وقال آخرون: بل الإهباط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثانى من سماء الدنيا إلى الأرض، والصحيح الأول، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه][(٣)].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾.

يقول تعالى آمرا بنى إسرائيل بالدخول فى الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومُهَيجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبى الله يعقوب، عليه السلام، وتقديره: يا بنى العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم فى متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم، افعل كذا. يا ابن الشجاع، بارز الأبطال. يا ابن العالم، اطلب العلم ونحو ذلك.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: **﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾** [الإسراء: ٣] فإسرائيل هو يعقوب، عليه السلام، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسى: حدثنا عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حَوْشب، قال: حدثنى عبد الله بن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبى الله ﷺ، فقال لهم: «هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟». قالوا: اللهم نعم. فقال النبى ﷺ: «اللهم اشهد[(٤)]»[(٥)].

وقال الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير مولى ابن عباس، عن عبد الله بن عباس؛ أن إسرائيل كقولك: عبد الله.

وقوله تعالى: **﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾**: قال مجاهد: نعمة الله التى أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سِوَى ذلك؛ فَجَّر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأنجاهم من عبودية آل فرعون.

---

(١) فى جـ: «قصعة».

(٢) تفسير الطبرى (١/ ٥٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٥).

(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٤) فى جـ: «اللهم فاشهد».

(٥) رواه أحمد فى المسند (١/ ٢٧٣) عن حسين، عن عبد الحميد بن بهرام به.

وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب.

قلت: وهذ كقول موسى، عليه السلام، لهم: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] يعنى فى زمانهم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: بلائى عندكم وعند آبائكم لِمَا كان نجاهم به من فرعون وقومه﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: بعهدى الذى أخذت فى[(١)] أعناقكم للنبى محمد ﷺ إذا جاءكم.﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أى: أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أحداثكم.

[وقال الحسن البصرى: هو قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ الآية [المائدة: ١٢]. وقال آخرون: هو الذى أخذه الله عليهم فى التوراة أنه سيبعث من بنى إسماعيل نبياً عظيما يطيعه جميع الشعوب والمراد به محمد ﷺ فمن اتبعه غُفر له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجران. وقد أورد فخر الدين الرازى ههنا بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم السلام بمحمد ﷺ][(٢)].

وقال أبو العالية: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قال: عهده إلى عباده: دينه الإسلام أن يتبعوه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: أرْض عنكم وأدخلكم الجنة.

وكذا قال السدى، والضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أى: فاخشون؛ قاله أبو العالية، والسدى، والربيع بن أنس، وقتادة.

وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾: أى أنزل بكم ما أنْزِل[(٣)] بمن كان قبلكم من آبائكم من النَّقِمَات التى قد عرفتم من المسخ وغيره.

وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة، لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول والاتعاظ بالقرآن وزواجره، وامتثال أوامره، وتصديق أخباره، والله الهادى لمن يشاء إلى صراطه المستقيم؛ ولهذا[(٤)] قال: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [﴿مُصَدِّقًا﴾ ماضياً منصوباً على الحال من ﴿بِمَا﴾ أى: بالذى أنزلت مصدقاً أو من الضمير المحذوف من قولهم: بما أنزلته مصدقاً، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل وهو قوله: ﴿لِّمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا﴾][(٥)] يعنى به: القرآن الذى أنزله على محمد النبى الأمى العربى بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتملا على الحق من الله

---

(١) فى جـ، ط، ب: «من».
(٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٣) فى جـ، ط، ب: «ما أنزلت».
(٤) فى جـ: «فلهذا».
(٥) زيادة من جـ، ب، و.

تعالى، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل.

قال أبو العالية، رحمه الله، فى قوله: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم يقول: لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل.

وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك.

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ [قال بعض المفسرين: أول فريق كافر به ونحو ذلك][1]. قال ابن عباس: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم.

وقال أبو العالية: يقول: ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ [كَافِرٍ بِهِ ﴾: أول][2] من كفر بمحمد ﷺ [يعنى من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعهم بمحمد وبمبعثه][3].

وكذا قال الحسن، والسدى، والربيع بن أنس.

واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله: ﴿ بِهِ ﴾ عائد على القرآن، الذى تقدم ذكره فى قوله: ﴿ بِمَا أَنزَلْتُ﴾.

وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن.

وأما قوله: ﴿ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بَشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بنى إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، كما قال عبد الله بن المبارك: أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن هارون بن زيد[4]، قال: سُئِل الحسن، يعنى البصرى، عن قوله تعالى: ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ قال: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها.

وقال ابن لَهِيعة: حدثنى عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، فى قوله: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾: وإن آياته: كتابه الذى أنزله[5] إليهم، وإن الثمن القليل: الدنيا وشهواتها.

وقال السدى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يقول: لا تأخذوا طمعاً قليلا، ولا تكتموا[6] اسم

---

(١) زيادة من جـ، ب، و.
(٢) زيادة من جـ.
(٣) زيادة من جـ، ط، ب،أ، و.
(٤) فى جـ، ط، ب، أ، و: «بن يزيد».
(٥) فى جـ: «آياته التى أنزل».
(٦) فى جـ، ب: «وتكتموا».

الله لذلك الطمع وهو الثمن.

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجراً. قال: وهو مكتوب عندهم فى الكتاب الأول: يا ابن آدم، عَلِّم مَجَّانا كما عُلِّمت مَجَّانا.

وقيل: معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع فى الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم فى الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب، وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة»[(١)]، وأما تعليم العلم بأجرة، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله، فإن لم يحصل له منه شىء وقطعه التعليم عن التكسب، فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء، كما فى صحيح البخارى عن أبى سعيد فى قصة اللديغ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»[(٢)]، وقوله فى قصة المخطوبة: «زوجتكها بما معك من القرآن»[(٣)]، فأما حديث عبادة بن الصامت، أنه علم رجلاً من أهل الصفة شيئاً من القرآن فأهدى له قوساً، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال له: «إن أحببت أن تطوق بقوس من نار فاقبله» فتركه، رواه أبو داود[(٤)]، وروى مثله عن أبى بن كعب مرفوعاً[(٥)]، فإن صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم: أبو عمر بن عبد البر على أنه لما علمه الله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس، فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فإنه يصح كما فى حديث اللديغ وحديث سهل فى المخطوبة، والله أعلم.

﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عمر الدورى، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عاصم الأحول، عن أبى العالية، عن طلق بن حبيب، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله.

ومعنى قوله: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾: أنه تعالى يتوعدهم فيما يعتمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه[(٦)]، ومخالفتهم الرسول، صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) سنن أبى داود برقم (٣٦٦٤).

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٧) وهذا اللفظ هو لفظ حديث ابن عباس.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥١٤٩) من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه.

(٤) سنن أبى داود برقم (٣٤١٦).

(٥) رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٦/ ١٢٥) من طريق عبد الرحمن بن أبى مسلم، عن عطية بن قيس، عن أبى بن كعب رضى الله عنه به مرفوعاً، وهو منقطع.

(٦) فى أ: «وإظهاره الباطل».

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون (٤٢) وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين (٤٣) ﴾.

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يعتمدونه، من تلبيس [(١)] الحق بالباطل، وتمويهه به[(٢)]، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا [(٣)]الحق وأنتم تعلمون﴾؛ فنهاهم عن الشيئين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به؛ ولهذا قال الضحاك، عن ابن عباس ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾: لاتخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب.

وقال أبو العالية: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ يقول: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمر محمد ﷺ.

ويروى[(٤)] عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس، نحوه.

وقال قتادة: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ [قال][(٥)]: ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام؛ إن دين الله الإسلام، واليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله.

وروى عن الحسن البصرى نحو ذلك.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ أى: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم. وروى عن أبى العالية نحو ذلك.

وقال مجاهد، والسدى، وقتادة، والربيع بن أنس ﴿وتكتموا الحق﴾ يعنى: محمداً ﷺ.

[قلت: ﴿وتكتموا﴾ يحتمل أن يكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوباً، أى: لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. قال الزمخشرى: وفى مصحف ابن مسعود: «وتكتمون الحق» أى: فى حال كتمانكم الحق وأنتم تعلمون حال أيضاً، ومعناه: وأنتم تعلمون الحق، ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما فى ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضى بهم إلى النار إلى أن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم، والبيان الإيضاح وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل][(٦)].

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب: ﴿وأقيموا الصلاة﴾: أمرهم أن يصلوا مع النبى ﷺ ﴿وآتوا الزكاة﴾: أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أى: يدفعونها إلى النبى ﷺ ﴿واركعوا مع الراكعين﴾: أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ

---

(١) فى جـ، ط، ب: «تلبيسهم».
(٢) فى جـ، ب: «تمويههم».
(٣) فى جـ: «وتكتمون» وهو خطأ.
(٤) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وروى».
(٥) زيادة من جـ، ط، ب.
(٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

يقول: كونوا منهم ومعهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: [﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾] (١) يعنى بالزكاة: طاعة الله والإخلاص.

وقال وَكِيع، عن أبى جَنَاب، عن عِكْرِمة عن ابن عباس، فى قوله: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: ما يوجب الزكاة؟ قال: مائتان فصاعدا.

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن، فى قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: فريضة واجبة، لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير عن أبى حيان [العجمى] (٢) التيمى، عن الحارث العُكلى فى قوله: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ قال: صدقة الفطر.

وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أى: وكونوا مع المؤمنين فى أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله(٣) الصلاة.

[وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة، وبسط ذلك فى كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله، وقد تكلم القرطبى على مسائل الجماعة والإمامة فأجاد](٤).

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾.

يقول تعالى: كيف يليق بكم ـ يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير ـ أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قَصر فى أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فتنتبهوا من رَقدتكم، وتتبصروا من عمايتكم. وهذا كما قال عبد الرزاق عن مَعْمَر، عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه، وبالبر، ويخالفون، فَعَيَّرهم الله، عز وجل. وكذلك قال السدى.

وقال ابن جريج: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾: أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، ويَدَعُونَ العملَ بما يأمرون به الناس، فعيرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أى: تتركون أنفسكم ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أى: تنهون الناس عن الكفر بما

---

(١) زيادة من جـ، ط، ب.

(٢) زيادة من جـ.

(٣) فى أ، و: «وأجمله».

(٤) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

عندكم من النبوة والعَهْد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أى: وأنتم [١]تكفرون بما فيها من عَهْدى إليكم فى تصديق رسولى، وتنقضون ميثاقى، وتجحدون ما تعلمون [٢]من كتابى.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى هذه الآية، يقول: أتأمرون الناس بالدخول فى دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم[٣] به من إقام الصلاة، وتنسون أنفسكم.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى على بن الحسن، حدثنا مُسلم الجَرْمى، حدثنا مَخْلَد بن الحسين، عن أيوب السختيانى، عن أبى قِلابة فى قول الله تعالى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ**﴾ قال: قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقُت الناس فى ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى هذه الآية: هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل يسألهم عن الشىء ليس فيه حق ولا رشوة ولا شىء أمروه بالحق، فقال الله تعالى: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾.

والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم[٤] فى حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف [معروف][٥] وهو واجب على العالم، ولكن [الواجب و][٦] الأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب، عليه السلام: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: ٨٨]. فكُلٌّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولى العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصى لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه. [قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول له: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شىء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. وقال مالك: وصدق من ذا الذى ليس فيه شىء؟ قلت][٧]: ولكنه ـ والحالة هذه ـ مذموم على ترك[٨] الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث فى الوعيد على ذلك، كما قال الإمام أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقى والحسن بن على المعمرى، قالا: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا على

---

(١) فى جـ: «أى أنتم».
(٢) فى جـ: «بما تعملون».
(٣) فى جـ: «مما أمرتكم».
(٤) فى جـ: «خطاياهم».
(٥) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٦) زيادة من جـ، ط، أ.
(٧) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٨) فى جـ، ب: «على تركه».

ابن سليمان الكلبى، حدثنا الأعمش، عن أبى تَميمة الهُجَيمى، عن جندب بن[١] عبد الله، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه»[٢].

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده: حدثنا وَكِيع، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد هو ابن جدعان، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسرى بى على قوم شفاههم تُقْرَض بمقاريض[٣] من نار. قال: قلت: من هؤلاء؟» قالوا: خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟[٤].

ورواه عبد بن حميد فى مسنده، وتفسيره، عن الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة، به.

ورواه ابن مردويه فى تفسيره، من حديث يونس بن محمد المؤدب، والحجاج بن مِنْهَال، كلاهما عن حماد بن سلمة، به.

وكذا رواه يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة به.

ثم قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن إبراهيم التسترى ببلخ، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا عمر بن قيس، عن على بن زيد[٥]، عن ثمامة، عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مررت ليلة أسرى بى على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟» قال: هؤلاء خطباء أمتك، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم.

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه، وابن أبى حاتم، وابن مردويه ـ أيضاً ـ من حديث هشام الدَّستَوائىّ، عن المغيرة ـ يعنى ابن حبيب ـ ختن مالك بن دينار، عن مالك بن دينار، عن ثمامة، عن أنس بن مالك، قال: لما عرج برسول الله ﷺ مرّ بقوم تُقْرَض شفاههم[٦]، فقال: «يا جبريل، من هؤلاء؟» قال: هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم؛ أفلا يعقلون؟[٧].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبى وائل، قال: قيل لأسامة ـ وأنا رديفه ـ: ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم تُرَون أنى لا أكلمه إلا أسمعكم. إنى لا أكلمه فيما بينى وبينه ما دون أن أفتتح أمراً ـ لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل:

---

(١) فى جـ: «عن».

(٢) المعجم الكبير (٢/ ١٦٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٨٥): «رجاله موثقون».

(٣) فى جـ، ب: «تقرض شفاههم بمقاريض».

(٤) المسند (٣/ ١٢٠).

(٥) فى أ: «بن يزيد».

(٦) فى جـ، ط، ب، أ، و: «تقرض من شفاههم».

(٧) صحيح ابن حبان برقم (٣٥) «موارد» وتفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٥١).

إنك خير الناس. وإن كان علىّ أميراً ـ بعد أن[1] سمعت رسول الله ﷺ يقول، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: «يُجَاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى فى النار، فتندلق به أقتابه[2]، فيدور بها فى النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهلُ النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[3].

ورواه البخارى ومسلم، من حديث سليمان بن مِهْرَان الأعمش، به نحوه[4].

[وقال أحمد: حدثنا سيار بن حاتم، حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يعافى الأميين يوم القيامة ما لا يعافى العلماء»[5]. وقد ورد فى بعض الآثار: أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة، ليس من يعلم كمن لا يعلم. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]. وروى ابن عساكر فى ترجمة الوليد بن عقبة عن النبى ﷺ، قال: «إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون: بم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم، فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل»[6] رواه من حديث الطبرانى عن أحمد بن يحيى بن حيان[7] الرقى عن زهير بن عباد الرواسى عن أبى بكر الداهرى[8] عن عبد الله بن حكيم عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى عن الوليد بن عقبة فذكره][9].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أنه جاءه رجل، فقال: يا ابن عباس، إنى أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو. قال: إن لم تخش أن تفتَضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل. قال: وما هن؟ قال: قوله عز وجل[10]: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾. أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فالحرف الثانى. قال: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فالحرفَ الثالث. قال: قول العبد الصالح شعيب، عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابدأ بنفسك.

رواه ابن مردويه فى تفسيره .

وقال الطبرانى[11]: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا زيد بن الحريش، حدثنا عبد الله بن خرَاش، عن العوام بن حوشب، عن [سعيد بن][12] المسيب بن رافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله

---

(١) فى جـ، ب: «إذ». (٢) فى جـ: «شفتاه».

(٣) المسند (٥/ ٢٠٥).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٢٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٩٨٩).

(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٢/ ٧) من طريق الإمام أحمد وقال: «هذا حديث غريب تفرد به سيار عن جعفر، ولم نكتبه إلا من حديث أحمد بن حنبل». وقال عبد الله بن أحمد: «هذا حديث منكر حدثنى به أبى، وما حدثنى به إلا مرة».

(٦) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٦/ ٣٣٦).

(٧) فى جـ: «حماد»، والصواب ما أثبتناه.

(٨) فى جـ: «الزاهرى»، والصواب ما أثبتناه. (٩) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(١٠) فى جـ: «قوله تعالى». (١١) فى أ: «القرطبى». (١٢) زيادة من ط، أ، و.

ﷺ: «من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل فى ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال، أو دعا إليه»(١).

إسناده فيه ضعف؛ وقال إبراهيم النخعى: إنى لأكره القصص الثلاث آيات قوله تعالى: **﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾**، وقوله: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾** [الصف: ٢، ٣]، وقوله إخباراً عن شعيب: **﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾** [هود: ٨٨].

وما أحسن ما قال مسلم بن عمرو:

ما أقبح التزهيد من واعظ ... يزهد الناس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقا ... أضحى وأمسى بيته المسجد
إن رفض الناس فما باله ... يستفتح الناس ويسترقد
الرزق مقسوم على من ترى ... يسقى له الأبيض والأسود

وقال بعضهم: جلس أبو عثمان الحيرى الزاهد يوما على مجلس التذكير فأطال السكوت، ثم أنشأ يقول:

وغير تقى يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوى والطبيب مريض

قال: فضج الناس بالبكاء. وقال أبو العتاهية الشاعر:

وصفت التقى حتى كأنك ذو تقى ... وريح الخطايا من شأنك تقطع

وقال أبو الأسود الدؤلى:

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الواحد بن زيد البصرى العابد الواعظ قال: دعوت الله أن يرينى رفيقى فى الجنة، فقيل لى فى المنام: هى امرأة فى الكوفة يقال لها: ميمونة السوداء، فقصدت الكوفة لأراها. فقيل لى: هى ترعى غنما بواد هناك، فجئت إليها فإذا هى قائمة تصلى والغنم ترعى

---

(١) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٢/ ٧) من طريق الطبرانى، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٧٦): «فيه عبد الله بن خراش وثقه ابن حبان وقال: يخطئ، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات».

حولها وبينهن الذئاب لا ينفرن منه، ولا يسطوا الذئاب عليهن. فلما سلمت قالت: يا ابن زيد، ليس الموعد هنا إنما الموعد ثم، فسألتها عن شأن الذئاب والغنم. فقالت: إنى أصلحت ما بينى وبين سيدى فأصلح ما بين الذئاب والغنم. فقلت لها: عظينى. فقالت: يا عجبا من واعظ يوعظ، ثم قالت: يا ابن زيد، إنك لو وضعت موازين القسط على جوارحك لخبرتك بمكتوم مكنون ما فيها، يا ابن زيد، إنه بلغنى ما من عبد أعطى من الدنيا شيئا فابتغى إليه تائبا إلا سلبه الله حب الخلوة وبدله بعد القرب

يا واعظاً قام لا حساب … يزجر قوما عن الذنوب
تنه عنه وأنت السقيم حقا … هذا من المنكر العجيب
تنه عن الغى والتمادى … وأنت فى النهى كالمريب
لو كنت أصلحت قبل هذا … غيك أو تبت من قريب
كان لما قلت يا حبيبى … موضع صدق من القلوب[١]

البعد وبعد الأنس الوحشة ثم أنشأت تقول:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾.

يقول تعالى[٢] آمراً عبيده، فيما يؤمّلون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حيَّان فى تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، والصلاة.

فأما الصبر فقيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد.

[قال القرطبى وغيره: ولهذا سمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث][٣].

وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن جُرَىّ بن كُليب، عن رجل من بنى سليم، عن النبى ﷺ، قال: «الصوم نصف الصبر».

وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصى؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها: فعل الصلاة.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبيد الله بن حمزة بن إسماعيل، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبى سِنان، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله.

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٥/ ٢٥٣).
(٢) فى جـ: «تعالى مخبراً».
(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

[قال][(١)]: وروى عن الحسن البصرى نحو قول عمر.

وقال ابن المبارك عن ابن لَهِيعة عن مالك بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب فيه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد، لا يرى[(٢)] منه إلا الصبر.

وقال أبو العالية فى قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ على مرضاة الله، واعلموا أنها من طاعة الله.

وأما قوله: ﴿وَالصَّلاةِ﴾: فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات فى الأمر، كما قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلى، قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة، قال حذيفة، يعنى ابن اليمان: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. ورواه أبو داود [عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار كما سيأتى [(٣)]][(٤)].

وقد رواه ابن جرير، من حديث ابن جُرَيج، عن عِكْرِمة بن عمار، عن محمد بن عبيد بن أبى قدامة، عن عبد العزيز بن اليمان، عن حذيفة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[(٥)].

[ورواه بعضهم عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة؛ ويقال: أخى حذيفة مرسلاً عن النبى ﷺ؛ وقال محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة: حدثنا سهل بن عثمان أبو مسعود [(٦)] العسكرى، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة قال: قال عكرمة بن عمار: قال محمد بن عبد الله الدؤلى: قال عبد العزيز: قال حذيفة: رجعت إلى النبى ﷺ، ليلة الأحزاب وهو مشتمل فى شملة يصلى، وكان إذا حزبه أمر صلى[(٧)]. وحدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبى، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق سمع حارثة بن مضرب سمع علياً يقول: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح[(٨)]][(٩)].

---

(١) زيادة من جـ، ط، ب.

(٢) فى جـ: «فلا يرى».

(٣) المسند (٥/ ٣٨٨) وسنن أبى داود برقم (١٣١٩).

(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٥) تفسير الطبرى (٢/ ١٢).

(٦) فى ط: «ابن مسعود»، والصواب ما أثبتناه.

(٧) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢١٢).

(٨) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢١٣).

(٩) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

قال ابن جرير: وروى عنه، عليه الصلاة والسلام، أنه مر بأبى هريرة، وهو منبطح على بطنه، فقال له: «اشكنب درد» [قال: نعم][١] قال: «قم فصل فإن الصلاة شفاء»[٢] [ومعناه: أيوجعك بطنك؟ قال: نعم][٣]. قال ابن جرير: وقد حدثنا محمد بن العلاء ويعقوب بن إبراهيم، قالا: حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا عُيَينة بن عبد الرحمن، عن أبيه: أن ابن عباس نُعى إليه أخوه قُثَم وهو فى سفر، فاسترجع، ثم تنحَّى عن الطريق، فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[٤].

وقال سُنَيد، عن حجاج، عن ابن جرير: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ قال: إنهما مَعُونتان على رحمة الله.

والضمير فى قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير.

ويحتمل أن يكون عائدا على ما يدل عليه الكلام، وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى فى قصة قارون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥] أى: وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ أى: يؤتاها ويلهمها ﴿إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وعلى كل تقدير، فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أى: مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين. قال ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى المصدّقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: المؤمنين حقا. وقال أبو العالية: إلا على الخاشعين الخائفين، وقال مقاتل بن حيان: إلا على الخاشعين يعنى به المتواضعين. وقال الضحاك: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين[٥] لطاعته، الخائفين سَطَواته، المصدقين بوعده ووعيده.

وهذا يشبه ما جاء فى الحديث: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه»[٦].

وقال ابن جرير: معنى الآية: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب، بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته.

---

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٢) تفسير الطبرى (٢/ ١٣) وانظر ما كتبه المحقق الفاضل عن معنى: «اشكنب درد».
(٣) زيادة من جـ، ط، ب.
(٤) تفسير الطبرى (٢/ ١٤).
(٥) فى جـ: «الخاشعين».
(٦) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٢٣١) من حديث معاذ رضى الله عنه.

هكذا قال، والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً فى سياق إنذار بنى إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هى عامة لهم، ولغيرهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: هذا من تمام الكلام الذى قبله، أى: وإن الصلاة أو الوَصَاة[1] لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، أى: [يعلمون أنهم][2] محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون، أى: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سَهُل عليهم فعلُ الطاعات وترك المنكرات.

فأما قوله: ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ﴾: قال [3] ابن جرير، رحمه الله: العرب قد تسمى اليقين ظنا، والشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سُدْفة، والضياء سُدفة، والمغيث صارخا، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشيء وضدّه، كما قال دُرَيد بن الصِّمَّة:

فقلت لهم ظُنُّوا بألفى مُدَجَّجٍ   سَرَاتُهم فى الفَارسِىِّ المُسَرَّدِ[4]

يعنى بذلك تيقنوا بألفى مدجج يأتيكم، وقال عَميرة بن طارق:

بِأنْ يَعْتَزُوا [5]قومى وأقعُدَ فيكم   وأجعلَ منى الظنَّ غيبا مرجمّا[6]

يعنى: وأجعل منى اليقين غيبا مرجما، قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن فى معنى اليقين، أكثر من أن تحصر، وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف : ٥٣] .

ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيان، عن جابر، عن مجاهد، قال: كل ظن فى القرآن يقين، أى: ظننت وظَنوا.

وحدثنى المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا أبو داود الحَفَرِىّ، عن سفيان عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، قال: كل ظن فى القرآن فهو علم. وهذا سند صحيح.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ قال: الظن ههنا يقين.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، والسدى، والربيع بن أنس، وقتادة نحو قول أبى العالية.

---

(١) فى أ: «الوصية».

(٢) زيادة من جـ، ب، أ.

(٣) فى ط، ب: «فقال».

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ١٨).

(٥) فى جـ: «نصروا»، وفى ب، أ: «تعيروا».

(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ١٨).

وقال سُنَيد، عن حجاج، عن ابن جريج: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ علموا أنهم ملاقو ربهم، كقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] يقول: علمت.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قلت: وفى الصحيح: «أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك، ألم أكرمك، ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول الله تعالى: أفظننت أنك ملاقى؟ فيقول: لا. فيقول الله: اليوم أنساك كما نسيتنى». وسيأتى مبسوطا عند قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾.

يذكرهم تعالى سَالفَ نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فَضَّلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، فى قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان فى ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالماً.

ورُوى عن مجاهد، والربيع بن أنس، وقتادة، وإسماعيل بن أبى خالد نحوُ ذلك. ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفى المساند والسنن[(١)] عن معاوية بن حَيْدَة القُشَيرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم تُوفُونَ سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله». والأحاديث فى هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

[وقيل: المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً، حكاه فخر الدين الرازى وفيه نظر. وقيل: إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم، حكاه القرطبى فى تفسيره، وفيه نظر؛ لأن ﴿الْعَالَمِينَ﴾ عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين][(٢)].

---

(١) فى جـ، أ، و: «وفى السنن والمسانيد».

(٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾.

لما ذكرهم [الله](١) تعالى بنعمه أولا، عطف على ذلك التحذير من حُلُول نقمه بهم يوم القيامة فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يعنى: يوم القيامة ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ أى: لا يغنى أحد عن أحد كما قال: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣] فهذه(٢) أبلغ المقامات: أن كلا من الوالد وولده لا يغنى أحدهما عن الآخر شيئا، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ يعنى عن الكافرين، كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وكما قال عن أهل النار: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقوله: ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية [الحديد: ١٥]؛ فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذى جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملء الأرض ذهبا، كما قال تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ [إبراهيم: ٣١].

[وقال سنيد: حدثنى حجاج، حدثنى ابن جريج قال: قال مجاهد: قال ابن عباس: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: بدل، والبدل: الفدية، وقال السدى: أما عدل فيعدلها من العذاب يقول: لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدى به ما تقبل منها، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم،](٣) .وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، فى قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ يعنى: فداء.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن أبى مالك، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثورى، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمى، عن أبيه عن على، رضى الله عنه، فى حديث طويل، قال: والصرف والعدل: التطوع والفريضة.

وكذا قال الوليد بن مسلم، عن عثمان بن أبى العاتكة(٤)، عن عمير بن هانئ.

---

(١) زيادة من و. (٢) فى جـ، ط، ب: «فهذا». (٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و. (٤) فى جـ، أ: «العالية».

وهذا القول غريب هنا، والقول الأول أظهر فى تفسير هذه الآية، وقد ورد حديث يقويه، وهو ما قال ابن جرير: حدثنى نَجِيح بن إبراهيم، حدثنا على بن حكيم، حدثنا حميد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عَمْرو بن قيس الملائى[1]، عن رجل من بنى أمية ـ من أهل الشام أحسن عليه الثناء ـ قال: قيل: يا رسول الله، ما العدل؟ قال: «العدل الفدية»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء. هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] أى: إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدْيَة ولا شفاعة، ولا ينقذ أحدا من عذابه منقذ، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٨].

قال الضحاك عن ابن عباس فى قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ ما لكم اليوم لا تَمانَعُونَ منا؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم.

قال[3] ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعنى: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بَطَلَت هنالك[4] المحاباة واضمحلت الرُّشى والشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى عدل[5] الجبار الذى لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزى بالسيئة مثلها وبالحسنة[6] أضعافها وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤ ـ ٢٦].

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى[7]: واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أى:

(١) فى جـ: «الملا».
(٢) تفسير الطبرى (٢/ ٣٤).
(٣) فى جـ: «وقال».
(٤) فى جـ: «هنا».
(٥) فى جـ، ط، ب: «العدل».
(٦) فى جـ: «فيجزى السيئة مثلها والحسنة».
(٧) فى جـ: «يقول الله تبارك وتعالى».

خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة[(١)] موسى، عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم، أي: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب. وذلك أن فرعون ـ لعنه الله ـ كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بنى إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدى رجل من بنى إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بنى إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، وهكذا جاء فى حديث الفُتُون، كما سيأتى فى موضعه [فى سورة طه][(٢)]، إن شاء الله، فعند ذلك أمر فرعون ـ لعنه الله ـ بقتل كل [ذى][(٣)] ذكر[(٤)] يولد بعد ذلك من بنى إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاق الأعمال وأراذلها.

وههنا فسر العذاب بذبح الأبناء، وفى سورة إبراهيم عطف عليه، كما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، وسيأتى تفسير[(٥)] ذلك فى أول سورة القصص، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة والمعونة والتأييد.

ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أى: يولونكم، قاله أبو عبيدة، كما يقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفا ... أبينا أن نقر الخسف فينا

وقيل: معناه: يديمون عذابكم، كما يقال: سائمة الغنم من إدامتها الرعى، نقله القرطبى، وإنما قال ههنا: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم فى قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ثم فسره بهذا لقوله ههنا ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وأما فى سورة إبراهيم فلما قال: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] أى: بأياديه ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيادى.

وفرعون علم على كل مَنْ مَلَكَ مصر، كافراً من العماليق[(٦)] وغيرهم، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافراً، وكذلك كسرى لكل من مَلَكَ الفرس، وتُبَّع لمن ملك اليمن كافراً [والنجاشى لمن ملك الحبشة، وبطليموس لمن ملك الهند][(٧)]، ويقال: كان اسم فرعون الذى كان فى زمن موسى، عليه السلام: الوليد بن مصعب بن الريان، وقيل: مصعب بن الريان، وأيا ما كان فعليه لعنة الله، [وكان من سلالة عمليق بن داود بن إرم بن سام بن نوح، وكنيته أبو مرة، وأصله فارسى من استخر][(٨)].

---

(١) فى جـ: «بصحبة». (٢) زيادة من جـ، ط.
(٣) زيادة من جـ. (٤) ف أ: «ولد». (٥) فى جـ، ط: «تفصيل».
(٦) فى جـ: «العمالقة». (٧، ٨) زيادة من جـ، ط، أ، و.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير: وفى الذى فعلنا بكم من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم. أى: نعمة عظيمة عليكم فى ذلك[١].

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس [فى][٢] قوله: ﴿ بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة. وقال مجاهد: ﴿ بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة من ربكم عظيمة. وكذا قال أبو العالية، وأبو مالك، والسدى، وغيرهم.

وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قال ابن جرير: وأكثر ما يقال فى الشر: بلوته أبلوه بَلاءً، وفى الخير: أبليه إبلاء وبلاء، قال زهير ابن أبى سلمى:

جزَى الله بالإحسان ما فَعَلا بكُم وأبلاهما خيْرَ البلاءِ الذى يَبْلُو[٣]

قال: فجمع بين اللغتين؛ لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التى يَخْتَبر بها عباده.

[وقيل: المراد بقوله: ﴿ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ ﴾: إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء؛ قال القرطبى: وهذا قول الجمهور ولفظه بعد ما حكى القول الأول، ثم قال: وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء ههنا فى الشر، والمعنى فى الذبح مكروه وامتحان][٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى، عليه السلام، خَرَج[٥] فرعون فى طلبكم، ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلا[٦] كما سيأتى فى مواضعه[٧]، ومن أبسطها فى سورة الشعراء إن شاء الله.

﴿ فَأَنجَيْنَاكُمْ ﴾ أى: خلصناكم منهم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقناهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشفى لصدوركم، وأبلغ فى إهانة عدوكم.

قال[٨] عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمر، عن أبى إسحاق الهَمْدانى، عن عمرو بن ميمون الأودى فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قال: لما خرج موسى ببنى إسرائيل، بلغ ذلك فرعون فقال: لا تتبعوهم حتى تصيح الديكة. قال: فوالله ما صاح ليلتئذ ديك

---

(١) فى جـ: «أى نعمة عليكم عظيمة فى ذلك». (٢) زيادة من جـ، أ.
(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ٤٩).
(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٥) فى جـ: «وخرج». (٦) فى جـ: «مفصلاً عن ذلك».
(٧) فى جـ: «مفصلاً». (٨) فى جـ، ط: «وقال».

حتى أصبحوا؛ فدعا بشاة فَذُبحت، ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلىَّ ستمائة ألف من القبط. فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط ثم سار، فلما أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه، يقال له: يوشع بن نون: أين أَمَرَ ربك؟ قال: أمامك، يشير إلى البحر. فأقحم يوشع فرسَه فى البحر حتى بلغ الغَمْرَ، فذهب به الغمر، ثم رجع. فقال: أين أَمَرَ ربك يا موسى؟ فوالله ماكذبت وما كُذبت[١]. فعل ذلك ثلاث مرات، ثم أوحى الله إلى موسى: ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فضربه ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] يقول: مثل الجبل. ثم سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون فى طريقهم، حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم فلذلك قال: ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[٢].

وكذلك قال غير واحد من السلف، كما سيأتى بيانه فى موضعه[٣]. وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن عبد الله بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذى تصومون؟». قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بنى إسرائيل من عدوهم[٤]، فصامه موسى، عليه السلام. فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصومه.

وروى هذا الحديث البخارى، ومسلم، والنسائى، وابن ماجه من طرق، عن أيوب السختيانى، به[٥] نحو ما تقدم.

وقال أبو يعلى الموصلى: حدثنا أبو الربيع، حدثنا سلام ـ يعنى ابن سليم ـ عن زيد العَمِّىّ عن يزيد الرقاشى عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «فلق الله البحر لبنى إسرائيل يوم عاشوراء»[٦].

وهذا ضعيف من هذا الوجه فإن زيدا العَمِّىّ فيه ضعف، وشيخه يزيد الرقاشى أضعف منه.

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) ﴾.

---

(١) فى جـ: «ولا كذبت»، وفى ط: «وكذبت».
(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٧).
(٣) فى أ: «كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله».
(٤) فى جـ: «من الغرق»، وفى ط: «من غرقهم».
(٥) المسند (١/ ٢٩١) وصحيح البخارى برقم (٢٠٠٤) وصحيح مسلم برقم (١١٣٠).
(٦) مسند أبى يعلى (٧/ ١٣٣).

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى عفوى عنكم، لَمَّا عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه، عند انقضاء أَمَد المواعدة، وكانت أربعين يوماً، وهى المذكورة فى الأعراف، فى قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢] قيل: إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذى الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من قوم فرعون وإنجائهم من البحر.

وقوله: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعنى: التوراة ﴿ وَالْفُرْقَانَ ﴾: وهو ما يَفْرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. وكان ذلك ـ أيضاً ـ بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام فى سورة الأعراف. ولقوله[1] تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٣].

وقيل: الواو زائدة، والمعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب والفرقان وهذا غريب، وقيل: عطف عليه وإن كان المعنى واحداً، كما فى قول الشاعر:

وقدمت الأديم لراقشيه ... فألفى قولها كذباً ومينا

وقال الآخر:

ألا حبذا هند وأرض بها هند ... وهند أتى من دونها النأى والبعد

فالكذب هو المين، والنأى: هو البعد. وقال عنترة:

حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فعطف الإقفار على الإقواء وهو هو.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾.

هذه صفَةُ توبته تعالى على بنى إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصرى، رحمه الله، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ فقال: ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية [الأعراف: ١٤٩].

قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾.

وقال أبو العالية، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾: أى إلى خالقكم.

قلت: وفى قوله ههنا: ﴿ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أى: فتوبوا إلى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره.

(١) فى جـ: «وكقوله».

وروى النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم، من حديث يزيد بن هارون، عن الأصبغ بن زيد الورّاق عن القاسم بن أبى أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال[١] الله تعالى: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقى من ولد ووالد[٢]، فيقتله بالسيف، ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن. فتاب أولئك الذين كانوا خفى على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا به فغفر الله تعالى للقاتل والمقتول. وهذا[٣] قطعة من حديث الفُتون، وسيأتى فى تفسير سورة طه بكماله، إن شاء الله[٤].

وقال ابن جرير: حدثنى عبد الكريم بن الهيثم، حدثنا إبراهيم بن بَشَّار، حدثنا سفيان بن عيينة، قال: قال أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال موسى لقومه: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾. قال: أمر موسى قومه ـ من أمر ربه عز وجل ـ أن يقتلوا أنفسهم قال: واحتبى الذين عبدوا[٥] العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظُلّة[٦] شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلّة[٧] عنهم، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقى كانت له توبة.

وقال ابن جُرَيْج: أخبرنى القاسم بن أبى بَزّة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً يقولان فى قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ قالا: قام بعضهم إلى بعض بالخناجر فقتل بعضهم بعضاً، لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد، حتى ألوى موسى بثوبه، فطرحوا ما بأيديهم، فكُشِفَ عن سبعين ألف قتيل. وإن الله أوحى إلى موسى: أن حَسْبى، فقد اكتفيت، فذلك حين ألوى موسى بثوبه، [وروى عن على رضى الله عنه نحو ذلك][٨].

وقال قتادة: أمر القوم بشديد من الأمر، فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضا، حتى بلغ الله فيهم نقمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك عنهم القتل، فجعله لحيهم توبة، وللمقتول شهادة.

وقال الحسن البصرى: أصابتهم ظلمة حنْدس، فقتل بعضهم بعضا [نقمة][٩]، ثم انكشف عنهم، فجعل توبتهم فى ذلك.

وقال السدى فى قوله: ﴿فَاقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قُتِل من الفريقين شهيداً، حتى كثر القتل، حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قتل بينهم[١٠] سبعون ألفاً، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلكت بنى إسرائيل، ربنا البقيةَ البقيةَ،

---

(١) فى جـ: «فقال». (٢) فى ط: «أو والد». (٣) فى جـ: «وهذه».

(٤) وهوفى سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٢٦) وسيأتى عند الموضع الذى أشار إليه الحافظ ابن كثير.

(٥) فى جـ، ط، ب: «عكفوا». (٦) فى جـ، ط، ب، أ، و: «ظلمة».

(٧) فى جـ، ط، ب، أ، و: «الظلمة». (٨) زيادة من جـ، ط، ب، وفى أ، و: «وروى عن على رحمة الله عليه نحو ذلك».

(٩) زيادة من أ. (١٠) فى جـ، ط، ب: «منهم».

فأمرهم أن يضعوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيداً، ومن بقى مُكَفَّراً عنه؛ فذلك قوله: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال الزهرى: لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها، برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه، حتى إذا أفنوا بعضهم[1]، قالوا: يا نبى الله، ادع الله لنا. وأخذوا بعضُديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذى كان من القتل فيهم، فأوحى الله، جل ثناؤه، إلى موسى: ما يحزنك؟ أما من قتل منكم فحى عندى يرزقون، وأما من بقى فقد قبلت توبته. فسُرّ بذلك موسى، وبنو إسرائيل.

رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه.

وقال ابن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه، وأحرق العجل وذَرّاه فى اليم، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه، فأخذتهم الصاعقة، ثم بُعثوا، فسأل موسى ربه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل. فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم قال: فبلغنى أنهم قالوا لموسى: نَصبر لأمر الله. فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يَقْتُل من عبده. فجلسوا بالأفنية وأصْلَتَ عليهم القومُ السيوف، فجعلوا يقتلونهم، وبكى موسى، وبَهَش إليه النساء والصبيان، يطلبون العفو عنهم، فتاب الله عليهم، وعفا عنهم وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما رجع موسى إلى قومه، وكان[2] سبعون[3] رجلا قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه. فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم. فقالوا: يا موسى، ما من[4] توبة؟ قال: بلى، ﴿فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، فاخترطوا السيوف والجرزَة والخناجر والسكاكين. قال: وبعث عليهم ضبابة. قال: فجعلوا يتلامسون بالأيدى، ويقتل بعضهم بعضاً. قال: ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله ولا يدرى. قال: ويتنادون [فيها][5]: رحم الله عبداً صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه، قال: فقتلاهم شهداء، وتيبَ على أحيائهم، ثم قرأ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق، إذْ سألتم رؤيتى جهرة عياناً، مما لا يستطاع[6] لكم ولا لأمثالكم، كما قال ابن جريج، قال ابن عباس فى هذه الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا

---

(١) فى جـ، أ: «بعضهم بعضاً».
(٢) فى جـ: «وكانوا».
(٣) فى أ: «سبعين».
(٤) فى أ: «هل من».
(٥) زيادة من جـ، ط، ب، أ.
(٦) فى جـ: «يتطلع».

موسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: علانية.

وكذا قال إبراهيم بن طَهْمان عن عباد بن إسحاق، عن أبى الحويرث، عن ابن عباس، أنه قال فى قول الله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾: أى علانية، أى حتى نرى الله.

وقال قتادة، والربيع بن أنس:﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾: أى عياناً.

وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول: ماتوا.

وقال مروان بن الحكم، فيما خطب به على منبر مكة: الصاعقة: صيحة من السماء.

وقال السدى فى قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ الصاعقة: نار.

وقال عروة بن رُوَيْم فى قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قال: فصعق بعضهم وبعض ينظرون(١)، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء.

وقال السدى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فماتوا، فقام موسى يبكى ويدعو الله، ويقول: رب، ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا(٢) رجلٌ رجلٌ، ينظر(٣) بعضهم إلى بعض: كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

وقال الربيع بن أنس: كان موتُهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وكذا قال قتادة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، قال: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامرى ما قال، وحرّق العجل وذراه فى اليم، اختار موسى منهم سبعين(٤) رجلا الخَيِّرَ فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء(٥) لميقات وقّتَه له ربّه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلْم، فقال له السبعون، فيما ذكر لى، حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا للقاء الله، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله(٦) وقع على جبهته نور ساطع،

---

(١) فى جـ: «ينظر».
(٢) فى جـ، ط، ب: «وعاش».
(٣) فى جـ، ط، ب: «فنظر».
(٤) فى جـ: «سبعون» وهو خطأ.
(٥) فى جـ: «الطور سينين».
(٦) فى جـ: «كلمه ربه».

لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه[١] بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا[٢] فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة[٣]، وهى الصاعقة، فماتوا جميعاً. وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ [وَإِيَّايَ][٤]﴾ [الأعراف: ١٥٥] قد سفهوا، أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أى: إن هذا لهم هلاك. اخترتُ منهم سبعين رجلا، الخَيِّر فالخير، أرجع إليهم وليس معى منهم رجل واحد! فما الذى يصدقونى به ويأمنونى عليه بعد هذا؟ ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فلم يزل موسى يناشد ربه، عز وجل، ويطلب إليه، حتى ردّ إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا؛ إلا أن يقتلوا أنفسهم[٥].

هذا سياق محمد بن إسحاق.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير: لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضاً كما أمرهم به، أمر الله موسى أن يأتيه فى كل أناس من بنى إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موسى، فاختار موسى قومه سبعين رجلا على عَينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. وساق البقية.

[وهذا السياق يقتضى أن الخطاب توجه إلى بنى إسرائيل فى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ والمراد السبعون المختارون منهم، ولم يحك كثير من المفسرين سواه، وقد أغرب فخر الدين الرازى فى تفسيره حين حكى فى قصة هؤلاء السبعين: أنهم بعد إحيائهم قالوا: يا موسى، إنك لا تطلب من الله شيئاً إلا أعطاك، فادعه أن يجعلنا أنبياء، فدعا بذلك فأجاب الله دعوته، وهذا غريب جداً، إذ لا يعرف فى زمان موسى نبى سوى هارون ثم يوشع بن نون، وقد غلط أهل الكتاب أيضاً فى دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل، فإن موسى الكليم، عليه السلام، قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون؟

القول الثانى فى الآية][٦]: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير هذه الآية: قال لهم موسى ـ لما رجع من عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه[٧] أمركم الذى أمركم به ونهيكم الذى نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى

(١) فى جـ: «دونهما».
(٢) فى جـ: «سجداً».
(٣) فى ط: «الصاعقة».
(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٥) تفسير الطبرى (٢/ ٧٧).
(٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٧) فى جـ: «فيها كتاب الله الذى».

يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابى فخذوه، فماله لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى! وقرأ قول الله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾. قال: فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة، فصَعَقتهم فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله. فقالوا: لا، فقال: أى شىء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم حَيِينا. قال[1]: خذوا كتاب الله. قالوا: لا. فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم.

[وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا. وقد حكى الماوردى فى ذلك قولين: أحدهما: أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق؛ والثانى: أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف، قال القرطبى: وهذا هو الصحيح لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم؛ لأن بنى إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظاما من خوارق العادات، وهم فى ذلك مكلفون وهذا واضح، والله أعلم][2].

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾.

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم ـ أيضا ـ بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سمى بذلك لأنه يَغُمّ السماء، أى: يواريها ويسترها. وهو السحاب الأبيض، ظُلّلوا به فى التيه ليقيهم حر الشمس. كما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس فى حديث الفُتُون، قال: ثم ظلل عليهم فى التيه بالغمام.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن عمر، والرّبيع بن أنس، وأبى مِجْلَز، والضحاك، والسدى، نحو قول ابن عباس.

وقال الحسن وقتادة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [قال][3]: كان هذا فى البرية[4]، ظلل عليهم الغمام من الشمس.

وقال ابن جرير[5]: قال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا، وأطيب.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ[6] الْغَمَامَ﴾ قال: ليس بالسحاب، هو الغمام الذى يأتى الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلا لهم.

وهكذا رواه ابن جرير، عن المثنى بن إبراهيم، عن أبى حذيفة.

---

(١) فى جـ: «فقال».
(٢) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٣) زيادة من جـ، ط.
(٤) فى أ: «فى التية».
(٥) فى جـ، ط: «ابن جريج».
(٦) فى جـ، ط: «عليهم» وهو خطأ.

وكذا رواه الثورى، وغيره، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد. وكأنه يريد، والله أعلم، أنه ليس من زِيّ هذا السحاب، بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظراً، كما قال سنيد فى تفسيره عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج قال: قال ابن عباس: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال: غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذى يأتى الله فيه فى قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وهو الذى جاءت فيه الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس: وكان معهم فى التّيه.

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾: اختلفت عبارات المفسرين فى المن: ما هو؟ فقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا.

وقال مجاهد: المن: صمغة. وقال عكرمة: المن: شىء أنزله الله عليهم مثل الطل، شبه الرُّبِ الغليظ.

وقال السدى: قالوا: يا موسى، كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على شجر(١) الزنجبيل.

وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم فى محلتهم(٢) سُقُوطَ الثلج، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك؛ فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه، ليوم جمعته، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عيد لا يشخَص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشىء، وهذا كله فى البرية.

وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه.

وقال وهب بن منبه ـ وسئل عن المن ـ فقال: خُبز الرّقاق مثل الذرة أو مثل النَّقِيّ.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن جابر، عن عامر وهو الشعبى، قال: عسلكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المن.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه العسل.

ووقع فى شعر أمية بن أبى الصلت، حيث قال:

فرأى الله أنهمْ بِمَضِيع ... لا بذى مَزْرَعٍ ولا مَثْمُورا
فسناها عليهم غاديات ... وترى مُزْنَهم خلايا وخورا
عَسَلا ناطفاً وماء فراتاً ... وحليباً ذا بهجة مرمورا(٣)

---

(١) فى ط: «الشجرة»، وفى ب: «الشجر».
(٢) فى أ: «فى نخلتهم».
(٣) الأبيات فى تفسير الطبرى (٢/ ٩٤، ٩٥).

فالناطف: هو السائل، والحليب المرمور: الصافى منه.

والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة فى شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب والظاهر، والله أعلم، أنه[(١)] كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب[(٢)] وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك قول البخارى:

حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن عبد الملك، عن عمرو بن حُرَيث[(٣)]، عن سعيد[(٤)] بن زيد، رضى الله عنه، قال: قال النبى ﷺ: «الكَمْأة من المَنّ، وماؤها شفاء للعين».

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الملك، وهو ابن عمير، به[(٥)].

وأخرجه الجماعة فى كتبهم، إلا أبا داود، من طرق عن عبد الملك، وهو ابن عمير، به[(٦)]. وقال الترمذى: حسن صحيح. ورواه البخارى ومسلم والنسائى من رواية الحكم، عن الحسن العُرَنى، عن عَمْرو بن حريث، به[(٧)].

وقال الترمذى: حدثنا أبو عبيدة بن أبى السفر ومحمود بن غيلان، قالا: حدثنا سعيد بن عامر، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «العجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم، والكمأة من المن وماؤها شفاء للعين»[(٨)].

تفرد بإخراجه الترمذى، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن عمرو، وإلا من حديث سعيد[(٩)] بن عامر، عنه، وفى الباب عن سعيد بن زيد، وأبى سعيد وجابر.

كذا قال، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوية فى تفسيره، من طريق آخر، عن أبى هريرة، فقال: حدثنا أحمد بن الحسن[(١٠)] بن أحمد البصرى، حدثنا أسلم بن سهل، حدثنا القاسم بن عيسى، حدثنا طلحة بن عبد الرحمن، عن قتادة[(١١)]، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين».

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وطلحة بن عبد الرحمن هذا سلمى واسطى، يكنى بأبى

---

(١) فى جـ: «أن».
(٢) فى جـ: «أو شراب».
(٣) فى جـ: «حوشب».
(٤) فى جـ: «سفيان».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٨) والمسند (١/ ١٨٧).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٦٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٠٤٩) وسنن الترمذى برقم (٢٠٦٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (٦٦٦٧).
(٧) صحيح البخارى برقم (٥٧٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٠٤٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٩٨٨).
(٨) سنن الترمذى برقم (٣٠١٣).
(٩) فى جـ: «محمد».
(١٠) فى جـ، أ، و: «الحسين».
(١١) فى جـ: «عبادة».

محمد، وقيل: أبو سليمان المؤدب قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى: روى عن قتادة أشياء لايتابع عليها[١].

ثم قال [الترمذى][٢]: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن أبى هريرة: أن ناساً من أصحاب النبى ﷺ قالوا: الكَمْأة جُدَرى الأرض، فقال نبى الله ﷺ: «الكمْأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة وهى شفاء من السم».

وهذا الحديث قد رواه النسائى، عن محمد بن بشار، به[٣]. وعنه، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن أبى بشر جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن أبى هريرة، به[٤]. وعن محمد بن بشار، عن عبد الأعلى، عن خالد الحذاء، عن شهر بن حوشب. بقصة الكمأة فقط[٥].

وروى النسائى ـ أيضاً ـ وابن ماجه من حديث محمد بن بشار، عن أبى عبد الصمد عبد العزيز ابن عبد الصمد، عن مطر الوراق، عن شهر: بقصة العجوة عند النسائى، وبالقصتين عند ابن ماجه[٦].

وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبى هريرة فإنه لم يسمعه[٧] منه، بدليل ما رواه النسائى فى الوليمة من سننه، عن على بن الحسين الدرهمى[٨]، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غَنْم، عن أبى هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ وهم يذكرون الكمْأة، وبعضهم يقول[٩]: جدرى الأرض، فقال: «الكمْأة من المن، وماؤها شفاء للعين»[١٠].

وروى عن شهر بن حوشب عن أبى سعيد وجابر، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن جابر ابن عبد الله وأبى سعيد الخدرى، قالا: قال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهى شفاء من السم»[١١].

قال[١٢] النسائى فى الوليمة أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبى بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب، عن أبى سعيد وجابر، رضى الله عنهما، أن

---

(١) الكامل لابن عدى (٤/ ١١٤).

(٢) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٣) هو فى سنن النسائى الكبرى برقم (٦٦٧١) عن نصير بن الفرج، عن معاذ بن هشام به، ولم أقع عليه عن محمد بن بشار، وقد ذكره المزى عن محمد بن بشار فى تحفة الأشراف (١٠/ ١١٢).

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (٦٦٧٣).

(٥) سنن النسائى الكبرى برقم (٦٦٧٢).

(٦) سنن ابن ماجة برقم (٣٤٠٠).

(٧) فى جـ: «لم يسمع». (٨) فى جـ: «الدهرمى». (٩) فى جـ: «وبعضهم يذكرون».

(١٠) سنن النسائى الكبرى برقم (٦٦٧٠).

(١١) المسند (٣/ ٤٨).

(١٢) فى جـ، ط: «وقال».

رسول الله ﷺ قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»[١]. ثم رواه ـ أيضاً ـ، وابن ماجه من طرق، عن الأعمش، عن أبى بشر، عن شهر عنهما، به[٢].

وقد رويا[٣] ـ أعنى النسائى[٤]، وابن ماجه ـ من حديث سعيد بن مسلم[٥]، كلاهما عن الأعمش، عن جعفر بن إياس عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، زاد النسائى: [وحديث][٦] جابر، عن النبى ﷺ قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»[٧].

ورواه ابن مَرْدُويه، عن أحمد بن عثمان، عن عباس الدورى، عن لاحق بن صواب[٨]، عن عمار بن رُزَيق[٩]، عن الأعمش، كابن ماجه.

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا أحمد بن عثمان، حدثنا عباس الدورى، حدثنا الحسن[١٠] بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن المِنْهال بن عمرو، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أبى سعيد الخدرى، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كمآت، فقال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين».

وأخرجه النسائى، عن عمرو بن منصور، عن الحسن بن الربيع[١١]، ثم [رواه][١٢] ابن مردويه. رواه أيضاً عن عبد الله بن إسحاق عن الحسن بن سلام، عن عبيد الله بن موسى، عن شيبان[١٣]، عن الأعمش به، وكذا رواه النسائى عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن عبيد الله بن موسى [به][١٤][١٥].

وقد روى من حديث أنس بن مالك، رضى الله عنه، كما قال ابن مردويه:

حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا حمدون بن أحمد، حدثنا حوثرة بن أشرس، حدثنا حماد، عن شعيب بن الحبحاب[١٦]، عن أنس: أن أصحاب رسول الله[١٧] ﷺ تداروؤا[١٨] فى الشجرة التى اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فقال بعضهم: نحسبه الكمأة. فقال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم»[١٩].

---

(١) لم أقع عليه فى المطبوع من سنن النسائى الكبرى.
(٢) سنن ابن ماجة برقم (٣٤٥٣) ولم أقع عليه فى سنن النسائى الكبرى المطبوعة.
(٣) فى جـ: «وقد روياه». (٤) فى من جـ، و: «النسائى من حديث جرير».
(٥) فى جـ: «مسلمة». (٦) زيادة من جـ، و.
(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (٦٦٧٦، ٦٦٧٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٤٥٣) لكن وقع فى سنن النسائى عن جرير عن الأعمش والله أعلم.
(٨) فى جـ: «صوان». (٩) فى جـ: «زريق». (١٠) فى جـ: «الحسين».
(١١) لم أقع عليه فى المطبوع من سنن النسائى الكبرى. (١٢) زيادة من جـ، ط، أ، و. (١٣) فى جـ: «سفيان».
(١٤) زيادة من جـ، ط، أ.
(١٥) سنن النسائى الكبرى برقم (٦٦٧٨).
(١٦) فى جـ: «ابن الحجاب»، وفى أ: «ابن الحجاج». (١٧) فى جـ: «أصحاب النبى».
(١٨) فى جـ: «تذاكروا».
(١٩) ورواه ابن عدى فى الكامل (٢/ ٣٧٠) من طريق حسان بن سياه عن ثابت عن أنس بنحوه.

وهذا الحديث محفوظ أصله من رواية حماد بن سلمة. وقد روى الترمذى والنسائى من طريقه شيئاً من هذا والله أعلم[١] [٢].

[وقد][٣] روى عن شهر، عن ابن عباس، كما رواه النسائى ـ أيضاً ـ فى الوليمة، عن أبى بكر أحمد بن على بن سعيد، عن عبد الله بن عون الخَرّاز، عن أبى عبيدة الحداد، عن عبد الجليل بن عطية، عن شهر، عن عبد الله بن عباس، عن النبىّ ﷺ، قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»[٤].

فقد اختلف ـ كما ترى فيه ـ على شهر بن حوشب، ويحتمل عندى أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها، وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم، فإن الأسانيد إليه جيدة، وهو لا يتعمد الكذب، وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله ﷺ، كما تقدم من رواية سعيد بن زيد.

وأما السلوى فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسُّمَّانى، كانوا يأكلون منه.

وقال السدى فى خَبَر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وعن ناس[٥] من الصحابة: السلوى: طائر يشبه السُّمَّانَى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا قرّة بن خالد، عن جهضم، عن ابن عباس، قال: السلوى: هو السمَّانى.

وكذا قال مجاهد، والشعبى، والضحاك، والحسن، وعكرمة، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

وعن عكرمة: أما السلوى فطير[٦] كطير يكون بالجنة[٧]، أكبر من العصفور، أو نحو ذلك.

وقال قتادة: السلوى من طير إلى الحمرة، تحشُرها عليهم الريحُ الجَنوبُ. وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته[٨] أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشىء ولا يطلبه.

وقال وهب بن منبه: السلوى: طير سمين مثل الحمام، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت. وفى رواية عن وهب، قال: سألَت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، اللحم، فقال الله: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم فى الأرض، فأرسل عليهم ريحاً، فأذرت عند مساكنهم السلوى، وهو السمانى[٩]، مثل ميل فى ميل قيدَ رمح إلى[١٠] السماء فخبَّؤوا للغد فنتن اللحم وخنز الخبز.

---

(١) فى جـ: «والله تبارك أعلم».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١١٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٦٢).

(٣) زيادة من ط.

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (٦٦٦٩).

(٥) فى جـ. ط: «وعن أناس».

(٦) فى جـ: «فيطير».

(٧) فى و: «فى الجنة».

(٨) فى جـ: «جمعة».

(٩) فى جـ: «السمان».

(١٠) فى جـ: «فى».

وقال السدى: لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى، عليه السلام: كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المَنّ فكان يسقط على الشجر[١] الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه، فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأُمِر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت[٢] منه اثنتا عشرة عيناً، فشرب كل سِبْط من عين، فقالوا: هذا الشراب، فأين الظل؟ فَظَلَّل عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم[٣] تطول معهم كما يطول الصبيان، ولا يَنْخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿ **وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ** ﴾، وقوله: ﴿ **وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ** ﴾ [البقرة: ٦٠].

وروى عن وهب بن منبه، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدى.

وقال سُنَيْد، عن حجاج، عن ابن جُرَيْج، قال: قال ابن عباس: خُلق لهم فى التيه ثياب لا تخرق[٤] ولا تدرن، قال ابن جريج: فكان الرجل إذا أخذ من المن والسلوى فوق طعام يوم فسد، إلا أنهم كانوا يأخذون فى يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسداً.

[قال ابن عطية: السلوى: طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهذلى فى قوله: إنه العسل، وأنشد فى ذلك مستشهداً:

وقاسمها بالله جهداً لأنتم ... ألذ من السلوى إذا ما أشورها

قال: فظن أن السلوى عسلا[٥] قال القرطبى: دعوى الإجماع لا تصح؛ لأن المؤرخ أحد علماء اللغة والتفسير قال: إنه العسل، واستدل ببيت الهذلى هذا، وذكر أنه كذلك فى لغة كنانة؛ لأنه يسلى به ومنه عين سلوان، وقال الجوهرى: السلوى العسل، واستشهد ببيت الهذلى ـ أيضاً ـ، والسلوانة بالضم خرزة، كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربها العاشق سلا، قال الشاعر:

شربت على سلوانة ماء مزنة ... فلا وجديد العيش يا مى ما أسلو

واسم ذلك الماء السلوان، وقال بعضهم: السلوان دواء يشفى الحزين فيسلو والأطباء يسمونه (مفرج)، قالوا: والسلوى جمع بلفظ ـ الواحد ـ أيضاً، كما يقال: سمانى للمفرد والجمع وويلى كذلك، وقال الخليل واحده سلواة، وأنشد:

وإنى لتعرونى لذكراك هزة ... كما انتفض السلواة من بلل القطر

---

(١) فى جـ: «على شجر». (٢) فى جـ، ب: «فانفجر».
(٣) فى جـ: «لباسهم».
(٤) فى جـ: «لا تخلق».
(٥) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٢٢٩).

وقال الكسائى: السلوى واحدة وجمعه سلاوى، نقله كله القرطبى[(١)]][(٢)].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: أمر إباحة وإرشاد وامتنان. وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧]، أى: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥] فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ[(٣)] ورضى عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه فى أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجادُ أمر، مع أن ذلك كان سهلا على الرسول ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مَبْرك الشاة، فدعا [الله][(٤)] فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم. وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فجاءت سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هى لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل فى الاتباع: المشى مع قدر الله، مع متابعة الرسول ﷺ.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ﴾.

يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول[(٥)] الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى، عليه السلام، فأمروا بدخول الأرض المقدسة التى هى ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله فى التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى فى سورة المائدة؛ ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هى بيت المقدس، كما نص على ذلك السدى، والرّبيع بن أنس، وقتادة، [وأبو مسلم الأصبهانى وغير واحد وقد قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآيات][(٦)] [المائدة: ٢١ـ ٢٤].

وقال آخرون: هى أريحا [ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد][(٧)]، وهذا بعيد؛ لأنها ليست على طريقهم، وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا [وأبعد من ذلك قول من ذهب أنها مصر، حكاه فخر الدين فى تفسيره، والصحيح هو الأول؛ لأنها بيت المقدس][(٨)]. وهذا كان لما خرجوا من

---

(١) تفسير القرطبى (١/ ٤٠٨).

(٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٣) فى ط: «صلوات الله وسلامه عليه».

(٤) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٥) فى ب: «عن دخولهم».

(٦ـ ٨) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون، عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح، وأما أريحا فقرية ليست مقصودة لبنى إسرائيل، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب ـ باب البلد ـ ﴿ سُجَّدًا ﴾ أى: شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم(١) إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال.

قال العوفى فى تفسيره، عن ابن عباس أنه كان يقول فى قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: أى ركعا.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال: ركعا(٢) من باب صغير.

ورواه الحاكم من حديث سفيان، به. ورواه ابن أبى حاتم من حديث سفيان، وهو الثورى، به(٣). وزاد: فدخلوا من قبل استاههم.

[وقال الحسن البصرى: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، واستبعده الرازى، وحكى عن بعضهم: أن المراد بالسجود ههنا الخضوع لتعذر حمله على حقيقته](٤).

وقال خصيف: قال عكرمة، قال ابن عباس: كان الباب قبل القبلة.

وقال [ابن عباس و](٥) مجاهد، والسدى، وقتادة، والضحاك: هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس، [وحكى الرازى عن بعضهم أنه عن باب جهة من جهات القرية](٦).

وقال خَصِيف: قال عكرمة: قال ابن عباس: فدخلوا على شق. وقال السدى، عن أبى سعيد الأزدى، عن أبى الكنُود، عن عبد الله بن مسعود: وقيل لهم ادخلوا الباب سجدا، فدخلوا مقنعى رؤوسهم، أى: رافعى رؤوسهم خلاف ما أمروا.

وقوله: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: قال الثورى عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: قال: مغفرة، استغفروا.

وروى عن عطاء، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: قال: قولوا: هذا الأمر حق، كما قيل لكم.

وقال عكرمة: قولوا: لا إله إلا الله.

وقال الأوزاعى: كتب ابن عباس إلى رجل قد سماه يسأله عن قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾،

---

(١) فى جـ: «بلادهم». (٢) فى جـ: «أى ركعاً».

(٣) تفسير الطبرى (٢/ ١١٣) والمستدرك (٢/ ٢٦٢) وتفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٨٢).

(٤ - ٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

فكتب إليه: أن أقروا بالذنب.

وقال الحسن وقتادة: أى احطط عنا خطايانا.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: هذا جواب الأمر، أى: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات.

وحاصل الأمر: أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر] فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نُعى إلى رسول الله ﷺ أجله فيها، وأقره على ذلك عمر [بن الخطاب][١]، رضى الله عنه. ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك، ونعى إليه روحه الكريمة أيضاً، ولهذا كان عليه السلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روى أنه كان يوم الفتح ـ فتح مكة ـ داخلا إليها من الثنية العليا، وإنَّه الخاضع لربه حتى إن عُثْنونه ليمس مَوْرك رَحله، يشكر الله على ذلك. ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثمانى ركعات وذلك ضُحى، فقال بعضهم: هى صلاة الضحى، وقال آخرون: بل هى صلاة الفتح، فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلداً أن يصلى فيه ثمانى ركعات عند أول دخوله، كما فعل سعد بن أبى وقاص، رضى الله عنه، لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثمانى ركعات، والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم؛ وقيل: يصليها كلها بتسليم واحد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: قال البخارى: حدثنى محمد، حدثنا [٢]عبد الرحمن بن مَهْدى، عن ابن المبارك، عن مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبِّه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، قال: «قيل لبنى إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فدخلوا يزحفون على استاههم، فبدّلوا وقالوا: حطة: حبة فى شعرة»[٣].

ورواه النسائى، عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن[٤] عبد الرحمن بن مهدى به موقوفا[٥]. وعن محمد بن عبيد بن محمد، عن ابن المبارك ببعضه مسنداً، فى قوله تعالى: ﴿حِطَّةٌ﴾ قال: فبدلوا. فقالوا: حبة[٦] [٧].

(١) زيادة من جـ.
(٢) فى جـ: «حدثنى محمد بن».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٩).
(٤) فى جـ، ط: «بن».
(٥) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٩٨٩).
(٦) فى جـ: «فقال حنطة».
(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٩٩٠).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن همَّام بن مُنَبه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لبنى إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فبدلوا، ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم، فقالوا: حبة فى شعرة[(١)]».

وهذا حديث صحيح، رواه البخارى عن إسحاق بن نصر، ومسلم عن محمد بن رافع. والترمذى عن عبد بن حميد، كلهم عن عبد الرزاق، به[(٢)]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم[(٣)] كما حدثنى صالح بن كيسان، عن صالح مولى التوأمة، عن أبى هريرة، وعمن لا أتهم، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «دخلوا الباب ـ الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجداً ـ يزحفون على استاههم، وهم يقولون: حنطة فى شعيرة»[(٤)].

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، وحدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: «قال الله لبنى إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾». ثم قال أبو داود: حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا ابن أبى فديك، عن هشام بن سعد، مثله[(٥)] [(٦)].

هكذا رواه منفرداً به فى كتاب الحروف مختصراً.

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إبراهيم بن مهدى، حدثنا أحمد بن محمد بن المنذر القزّاز، حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبى فديك، عن[(٧)] هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد الخدرى، قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان من آخر الليل، أجزْنا فى ثنية[(٨)] يقال لها: ذات الحنظل، فقال رسول الله ﷺ: «ما مثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذى قال الله لبنى إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾»[(٩)].

وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن البراء: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] قال اليهود: قيل لهم: ادخلوا الباب سجداً، قال: ركعاً، وقولوا: حطة: أى مغفرة، فدخلوا على

(١) فى جـ، ط: «شعيرة».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٤١) وصحيح مسلم برقم (٣٠١٥) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٦).
(٣) فى جـ، ط: «يتذيلهم».
(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢/ ١١٢) عن محمد بن إسحاق، عن صالح بن كيسان، عن أبى هريرة، عن محمد بن أبى محمد، عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس.
(٥) فى جـ: «بمثله».
(٦) سنن أبى داود برقم (٤٠٠٦).
(٧) فى جـ: «حدثنا». (٨) فى جـ: «ضربة».
(٩) ورواه البزار فى منسده برقم (١٨١٢) عن إسحاق بن بهلول، عن محمد بن إسماعيل بن أبى فديك به نحوه، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٤٤): «رجاله ثقات».

استاههم، وجعلوا يقولون: حنطة حمراء فيها شعيرة[١]، فذلك قول الله تعالى: ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ** ﴾.

وقال الثورى، عن السدى، عن أبى سعد الأزدى، عن أبى الكَنود، عن ابن مسعود: ﴿ **وَقُولُوا حِطَّةٌ** ﴾ فقالوا: حنطة حبة حمراء فيها شعيرة[٢]، فأنزل الله: ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ** ﴾.

وقال أسباط، عن السدى، عن مرة، عن ابن مسعود أنه قال: إنهم قالوا: «هُطّى سمعاتا أزبة مزبا» فهى بالعربية: حبة حنطة حمراء مثقوبة[٣] فيها شعرة سوداء، فذلك قوله: ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ** ﴾.

وقال الثورى، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا** ﴾: ركعاً من باب صغير، فدخلوا[٤] من قبل استاههم، وقالوا: حنطة، فهو قوله تعالى: ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ** ﴾.

وهكذا روى عن عطاء، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن رافع.

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق من الحديث أنهم بدلوا أمر[٥] الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجداً، فدخلوا يزحفون على استاههم من قبل أستاههم رافعى رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أى: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا: حنطة فى شعرة[٦]. وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهـذا قال: ﴿ **فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾.

وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شىء فى كتاب الله من «الرِّجْز» يعنى به العذاب.

وهكذا روى عن مجاهد، وأبى مالك، والسدى، والحسن، وقتادة، أنه العذاب. وقال أبو العالية: الرجز الغضب. وقال الشعبى: الرجز: إما الطاعون، وإما البرد. وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وَكِيع، عن[٧] سفيان، عن حبيب بن أبى ثابت، عن إبراهيم بن سعد ـ يعنى ابن أبى وقاص ـ عن سعد بن مالك، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت، رضى الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذاب عُذِّب[٨] به من كان

(١، ٢) فى جـ: «شعرة». (٣) فى جـ: «منقوشة».
(٤) فى جـ: «يدخلون». (٥) فى جـ: «بدلوا ما أمر».
(٦) فى جـ، أ: «شعيرة». (٧) فى جـ: «حدثنا». (٨) فى أ: «عذب الله».

قبلكم»[١].

وهكذا رواه النسائى من حديث سفيان الثورى به[٢]. وأصل الحديث فى الصحيحين من حديث حبيب بن أبى ثابت: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها» الحديث[٣].

قال[٤] ابن جرير: أخبرنى يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن يونس، عن الزهرى، قال: أخبرنى عامر بن سعد بن أبى وقاص، عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ، قال: «إن هذا الوجع والسقم رجز عُذِّب به بعض الأمم قبلكم»[٥]. وهذا الحديث أصله مخرَّج فى الصحيحين، من حديث الزهرى، ومن حديث مالك، عن محمد بن المنكدِر، وسالم أبى النضر، عن عامر بن سعد، بنحوه[٦].

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى إجابتى لنبيكم موسى، عليه السلام، حين استسقانى لكم، وتيسيرى لكم الماء، وإخراجه لكم من حَجَر يُحمل معكم، وتفجيرى الماء لكم منه من ثنتى عشرة عيناً لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذى أنبعته لكم بلا سعى منكم ولا كد، واعبدوا الذى سخر لكم ذلك. **﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾**: ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها. وقد بسطه المفسرون فى كلامهم، كما قال ابن عباس: وجُعل بين ظهرانيهم حجر مربَّع وأمر موسى، عليه السلام، فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فى كل ناحية منه ثلاث[٧] عيون، وأعلم كل سبط عينهم، يشربون منها لا يرتحلون من مَنْقَلَة إلا وجدوا ذلك معهم[٨] بالمكان الذى كان منهم بالمنزل الأول.

وهذا قطعة من الحديث الذى رواه النسائى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وهو حديث الفتون الطويل[٩].

وقال عطية العوفى: وجُعل لهم حجر مثل رأس الثور يحمل على ثور، فإذا نزلوا منزلا وضعوه فضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فإذا ساروا حملوه على ثور، فاستمسك الماء.

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٨٦).
(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٥٢٣).
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٧٢٨) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٨).
(٤) فى جـ: «وقال».
(٥) تفسير الطبرى (٢/ ١١٦).
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٤٧٣، ٦٩٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٨).
(٧) فى جـ: «ثلاثة». (٨) فى جـ: «ذلك منهم».
(٩) سيأتى بطوله فى تفسير سورة طه.

وقال عثمان بن عطاء الخراسانى، عن أبيه: كان لبنى إسرائيل حجر، فكان يضعه هارون ويضربه موسى بالعصا.

وقال قتادة: كان حجراً طورياً، من الطور، يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه.

[وقال الزمخشرى: وقيل: كان من رخام وكان ذراعاً فى ذراع، وقيل: مثل رأس الإنسان، وقيل: كان من أسس الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى. وله شعبتان تتقدان فى الظلمة وكان يحمل على حمار، قال: وقيل: أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه، حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذى وضع عليه ثوبه حين اغتسل، فقال له جبريل: ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة ولك فيه معجزة، فحمله فى مخلاته. قال الزمخشرى: ويحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد، أى اضرب الشىء الذى يقال له الحجر، وعن الحسن لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، قال: وهذا أظهر فى المعجزة وأبين فى القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييبس، فقالوا: إن فقد موسى هذا الحجر عطشنا، فأوحى الله إليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسها بالعصا لعلهم يقرون][(١)].

وقال يحيى بن النضر: قلت لجويبر: كيف علم كل أناس مشربهم؟ قال: كان موسى يضع الحجر، ويقوم من كل سبط رجل، ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً فينتضح من كل عين على رجل، فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين.

وقال الضحاك: قال ابن عباس: لما كان بنو إسرائيل فى التيه شق لهم من الحجر أنهاراً.

وقال سفيان الثورى، عن أبى سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ذلك فى التيه، ضرب لهم موسى الحجر فصار فيه[(٢)] اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكل سِبْط منهم عين يشربون منها.

وقال مجاهد نحو قول ابن عباس.

وهذه القصة شبيهة بالقصة المذكورة فى سورة الأعراف، ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقص ذلك[(٣)] على رسوله ﷺ عما فعل بهم. وأما فى هذه السورة، وهى البقرة فهى[(٤)] مدنية؛ فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم. وأخبر هناك بقوله: ﴿فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وهو أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الأمر[(٥)] آخراً وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار[(٦)] ههنا، وذاك هناك، والله أعلم.

وبين السياقين تباين من عشرة أوجه لفظية ومعنوية قد سأل عنها الرازى فى تفسيره وأجاب عنها بما عنده، والأمر فى ذلك قريب والله تبارك وتعالى أعلم بأسرار كتابه.

---

(١) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٢) فى جـ: «منه».
(٣) فى جـ: «نص هنالك».
(٤) فى و: «فإنها».
(٥) فى جـ، و: «الحال».
(٦) فى جـ: «ذكر هذا».

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى إنزالى عليكم المن والسلوى، طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً، واذكروا دَبَرَكم وضجركم مما رزقتكم[١] وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيّة من البقول ونحوها مما سألتم. وقال الحسن البصرى رحمه الله: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم[٢] الذى كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقول وفوم، فقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [وهم يأكلون المن والسلوى؛ لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو كأكل واحد][٣]. فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة. وأما «الفوم» فقد اختلف السلف فى معناه فوقع فى قراءة ابن مسعود «وثومها» بالثاء، وكذلك فسره مجاهد فى رواية ليث بن أبى سليم، عنه، بالثوم. وكذا الربيع ابن أنس، وسعيد بن جبير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحاق البصرى، عن يونس، عن الحسن، فى قوله: ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: قال ابن عباس: الثوم.

قالوا: وفى اللغة القديمة: فَوِّمُوا لنا بمعنى: اختبزوا. وقال ابن جرير: فإن كان ذلك صحيحاً، فإنه من الحروف المبدلة كقولهم: وقعوا فى «عاثُور شَرّ، وعافور شر، وأثافى وأثاثى، ومغافير ومغاثير». وأشباه[٤] ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما، والله أعلم.

وقال آخرون: الفوم الحنطة، وهو البر الذى يعمل منه الخبز.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنبأنا ابن وهب قراءة، حدثنى نافع بن أبى نعيم: أن ابن عباس سئل عن قول الله: ﴿وَفُومِهَا﴾: ما فومها؟ قال: الحنطة. قال ابن عباس: أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح وهو يقول:

قد كنتُ أغنى الناس شخصاً واحداً وَرَدَ المدينة عن زراعة فُوم[٥]

وقال ابن جرير: حدثنا على بن الحسن، حدثنا مسلم الجرمى، حدثنا عيسى بن يونس، عن رشدين بن كُرَيب، عن أبيه، عن ابن عباس، فى قول الله تعالى: ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: الفوم الحنطة بلسان بنى هاشم.

(١) فى جـ: «مما رزقناكم». (٢) فى جـ: «شيمهم».
(٣) زيادة من جـ. (٤) فى و: «وما أشبه».
(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ١٢٩).

وكذا قال على بن أبى طلحة، والضحاك[١]، وعكرمة عن ابن عباس أن الفوم: الحنطة.

وقال سفيان الثورى، عن ابن جُرَيْج، عن مجاهد وعطاء: ﴿ وَفُومِهَا﴾ قالا: خبزها.

وقال هُشَيْم عن يونس، عن الحسن، وحصين، عن أبى مالك: ﴿ وَفُومِهَا﴾ قال: الحنطة.

وهو قول عكرمة، والسدى، والحسن البصرى، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم، والله أعلم[٢].

[وقال الجوهرى: الفوم: الحنطة. وقال ابن دريد: الفوم: السنبلة، وحكى القرطبى عن عطاء وقتادة أن الفوم كل حب يختبز. قال: وقال بعضهم: هو الحمص لغة شامية، ومنه يقال لبائعه: فامى مغير عن فومى][٣].

وقال البخارى: وقال بعضهم: الحبوب التى تؤكل كلها فوم.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ فيه تقريع لهم وتوبيخ[٤] على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيّة مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهنىء الطيب النافع.

وقوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصرف.

قال ابن جرير: ولا أستجيز[٥] القراءة بغير ذلك؛ لإجماع المصاحف على ذلك.

وقال ابن عباس: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ قال: مصراً من الأمصار، رواه ابن أبى حاتم، من حديث أبى سعيد[٦] البقال سعيد بن المرزبان، عن عكرمة، عنه.

قال: وروى عن السدى، وقتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقع فى قراءة أبى بن كعب وابن مسعود: «اهبطوا مصر»، من غير إجراء يعنى من غير صرف. ثم روى عن أبى العالية، والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون.

وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى العالية، وعن الأعمش أيضاً.

وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضاً. ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف، كما فى قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَا . قَوَارِيرَا﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. ثم توقف فى المراد ما هو؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟

وهذا الذى قاله فيه نظر، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روى عن ابن عباس وغيره،

(١) فى ط: «عن الضحاك».
(٢) فى جـ، ط، أ، و: «فالله أعلم».
(٣) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٤) فى جـ: «وتوبيخ لهم».
(٥) فى أ: «ولا أستحسن».
(٦) فى جـ: «أبى سعد».

والمعنى على ذلك لأن موسى، عليه السلام، يقول لهم: هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير فى أى بلد دخلتموه وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه؛ ولهذا قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أى: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم[١] هذا من باب البطر والأشر ولاضرورة فيه، لم يجابوا إليه، والله أعلم[٢].

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أى: وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدراً، أى: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك فى أنفسهم أذلاء متمسكنون[٣].

قال الضحاك عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ قال: هم أصحاب النيالات[٤]، يعنى أصحاب الجزية.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الحسن وقتادة، فى قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ قال: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون[٥]، وقال الضحاك: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ قال: الذل. وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين. ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدى: المسكنة الفاقة. وقال عطية العوفى: الخراج. وقال الضحاك: الجزية.

وقوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله، وقال الربيع ابن أنس: فحدَثَ عليهم غضب من الله. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، يقول: استوجبوا سخطاً، وقال ابن جرير: يعنى بقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: انصرفوا ورجعوا، ولا يقال: باؤوا إلا موصولاً: إما بخير وإما بشر، يقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به بَوْءاً وبواء. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩] يعنى: تنصرف متحملهما وترجع بهما، قد صارا عليك دونى. فمعنى الكلام إذاً: فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يقول تعالى:

(١) فى جـ، ط: «كان سألهم».
(٢) فى جـ: «والله تبارك وتعالى أعلم».
(٣) فى جـ: «مستذلين»، وفى ط، أ، و: «مستكينين».
(٤) فى جـ، ط، و: «القبالات»، وفى أ: «السالات».
(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٩).

هذا الذى جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم[١] بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلى[٢] أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كِبْر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق؛ ولهذا جاء فى الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال: «الكبر بَطَر الحق، وغَمْط الناس»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، عن ابن عون، عن عمرو بن سعيد، عن حميد بن عبدالرحمن، قال: قال ابن مسعود: كنت لا أحجب عن النَّجْوى، ولا عن كذا ولا عن كذا قال: فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوى، فأدركته[٤] من آخر حديثه، وهو يقول: يا رسول الله، قد قَسم لى من الجمال ما ترى، فما أحب أن أحداً من الناس فَضَلنى بشراكين فما فوقهما أفليس ذلك هو البغى؟ فقال: «لا، ليس ذلك من البغى، ولكن البغى مَنْ بطر ـ أو قال: سفه ـ الحق وغَمط الناس». يعنى: رد الحق وانتقاص الناس، والازدراء بهم والتعاظم عليهم. ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم، أحل الله بهم بأسه الذى لا يرد، وكساهم ذلا فى الدنيا موصولا بذل الآخرة جزاء وفاقاً[٥].

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى معمر، عن عبد الله ابن مسعود، قال: كانت بنو إسرائيل فى اليوم تقتل ثلاثمائة نبى، ثم يقيمون سوق بقلهم فى آخر النهار.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبان، حدثنا عاصم، عن أبى وائل، عن عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبى، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة وممثل من الممثلين»[٦].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: وهذه علة أخرى فى مجازاتهم بما جوزوا به، أنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان فعل المناهى، والاعتداء المجاوزة فى حد المأذون فيه أو المأمور به. والله أعلم.

---

(١) فى جـ: «عليهم».
(٢) فى جـ، ط، أ، و: «حتى».
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.
(٤) فى جـ، ط: «قال فأدركت».
(٥) المسند (١/ ٣٨٥).
(٦) المسند (١/ ٤٠٧).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾.

لما بين [الله][(١)] تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره، وتعدى فى فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم، وما أحلّ بهم من النكال، نبه تعالى على أن مَنْ أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاء الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة؛ كُلّ من اتبع الرسول النبى الأمى فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هُمْ يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه، كما قال تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

قال[(٢)] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر العَدنى، حدثنا سفيان، عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، قال: قال سلمان: سألت النبى ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكرتُ من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى آخر الآية.

وقال السدى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية: نزلت فى أصحاب سلمان الفارسى، بينا هو يحدث النبى ﷺ إذْ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون[(٣)] أنك ستبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له نبى الله ﷺ: «يا سلمان، هم من أهل النار». فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية، فكان إيمان اليهود: أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى، عليه السلام؛ حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى، فلم يدعها ولم يتبع عيسى، كان هالكاً. وإيمان النصارى أن[(٤)] من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولا منه حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبعْ محمداً ﷺ منهم ويَدَعْ[(٥)] ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل ـ كان هالكاً.

وقال ابن أبى حاتم: وروى عن سعيد بن جبير نحو هذا.

قلت: وهذا لا ينافى ما روى عَلىّ بن[(٦)] أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ

(١) زيادة من أ. (٢) فى جـ: «وقال».
(٣) فى جـ: «ويشهدوا». (٤) فى أ: «أنه».
(٥) فى أ: «ولم يدع». (٦) فى جـ: «عن ابن».

الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فإن هذا الذى قاله [ابن عباس](١) إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملا، إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه [الله](٢) بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول فى زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى، عليه السلام، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة فى زمانهم.

واليهود من الهوادة وهى المودة أو التهود وهو التوبة؛ كقول موسى، عليه السلام: **﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾** [الأعراف: ١٥٦] أى: تبنا، فكأنهم سموا بذلك فى الأصل لتوبتهم ومودتهم فى بعضهم لبعض.

[وقيل: لنسبتهم إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب عليه السلام، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهودون، أى: يتحركون عند قراءة التوراة](٣).

فلما بعث عيسى ﷺ(٤) وجب على بنى إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم: أنصار أيضاً، كما قال عيسى، عليه السلام: **﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾** [آل عمران: ٥٢] وقيل: إنهم إنما سُمّوا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة، قاله قتادة وابن جُرَيج، وروى عن ابن عباس أيضاً، والله أعلم.

والنصارى: جمع نصران(٥) كنشاوى جمع نشوان، وسكارى جمع سكران، ويقال للمرأة: نصرانة، قال الشاعر:

نصرانة لم تَحَنَّفِ(٦)

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بنى آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقُه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون [حقا](٧). وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية. وأما الصابئون فقد اختلف فيهم؛ فقال سفيان الثورى، عن ليث بن أبى سليم، عن

(١) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٢) زيادة من أ.
(٣) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٤) فى جـ: «عليه السلام».
(٥) فى جـ: «نصرانى».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ١٤٤) وهو لأبى الأخزر الحمانى، وهذا جزء منه وهو بتمامه:

فكلتاهما خرَّت وأسجد رأسها ... كما سجدت نصرانة لم تحنفِ

(٧) زيادة من جـ، ط، أ، و.

مجاهد، قال: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين. وكذا رواه ابن أبى نَجِيح، عنه وروى عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس، والسدى، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك [وإسحاق بن راهويه][(١)]: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور.

[ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم][(٢)].

وقال هُشَيْم عن مطرف: كنا عند الحكم بن عُتَيبة[(٣)] فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول فى الصابئين: إنهم كالمجوس، فقال الحكم: ألم أخبركم بذلك.

وقال عبد الرحمن بن مهدى، عن معاوية بن عبد الكريم: سمعت الحسن ذكر الصابئين، فقال: هم قوم يعبدون الملائكة.

[وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا معتمر بن سليمان عن أبيه، عن الحسن قال: أخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة ويصلون الخمس. قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية. قال: فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة][(٤)].

وقال أبو جعفر الرازى: بلغنى أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور، ويصلون إلى القبلة.

وكذا قال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى ابن أبى الزناد، عن أبيه، قال: الصابئون قوم مما يلى العراق، وهم بكُوثَى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون من كل سنة ثلاثين يوما ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات.

وسئل وهب بن منبه عن الصابئين، فقال: الذى يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً.

وقال عبد الله بن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله. وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبى إلا قول: لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبى ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم، يعنى فى قول: لا إله إلا الله.

وقال الخليل[(٥)]: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون

(١، ٢) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٣) فى جـ: «عيينة».
(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٥) فى أ: «الخدرى».

أنهم على دين نوح، عليه السلام. وحكى القرطبى عن مجاهد والحسن وابن أبى نَجيح: أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تؤكل ذبائحهم، قال ابن عباس: ولا تنكح نساؤهم. قال القرطبى: والذى تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنها فاعلة؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الأصطخرى بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم، واختار فخر الدين الرازى أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب؛ بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال: وهذا القول هو المنسوب إلى الكشرانيين الذين جاءهم إبراهيم الخليل، عليه السلام، راداً عليهم ومبطلا لقولهم.

وأظهر الأقوال، والله أعلم، قولُ مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئى، أى: إنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.

وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبى، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)﴾.

يقول تعالى مذكراً بنى إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه، ويأخذوه[(١)] بقوة وحزم وهمَّة وامتثال[(٢)]، كما قال تعالى: **﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** [الأعراف: ١٧١] فالطور هو الجبل، كما فسر بآية[(٣)] الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس، ومجاهد، وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس، وغير واحد، وهذا ظاهر[(٤)].

وفى رواية عن ابن عباس: الطور ما أنبت من الجبال، وما لم يُنْبتْ فليس بطور.

وفى حديث الفتون: عن ابن عباس: أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا [فسجدوا][(٥)].

وقال السدى: فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم،

(١) فى جـ، ط: «فأخذوه».
(٢) فى أ: «امتثال أمر».
(٣) فى جـ، ط: «فسرنا به آية».
(٤) فى ط: «وهذا الظاهر».
(٥) زيادة من جـ.

فسقطوا سُجَّداً [فسجدوا][(١)] على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم، فقالوا[(٢)]: والله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم، فهم يسجدون كذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ[(٣)] الطُّورَ﴾.

وقال الحسن فى قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾: يعنى التوراة.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى بطاعة. وقال مجاهد: بقوة: بعمل بما فيه. وقال قتادة ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ القوة: الجد وإلا قذفته[(٤)] عليكم.

قال: فأقروا بذلك: أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة. ومعنى قوله: وإلا قذفته عليكم، أى[(٥)]: أسقطته عليكم، يعنى الجبل.

وقال أبو العالية والربيع: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ يقول: اقرؤوا ما فى التوراة واعملوا به.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يقول تعالي: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه ﴿فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أى: توبته[(٦)] عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق فى الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود، ما حَلّ من البأس بأهل القرية التى عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيَّلُوا على اصطياد الحيتان فى يوم السبت، بما وضعوه لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يومَ السبت على عادتها فى الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهى أشبه شيء بالأناسى فى الشكل[(٧)] الظاهر وليست بإنسان حقيقة. فكذلك أعمال هؤلاء وحيَلهم لما كانت مشابهة للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم. وهذه القصة مبسوطة فى سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] القصة بكمالها.

---

(١) زيادة من جـ، ب، أ، و.

(٢) فى جـ: «فقال».

(٣) فى جـ: «فوقهم» وهو خطأ.

(٤) فى جـ، ب، أ، و: «دفنته».

(٥) فى جـ، ب، أ، و: «دفنته إلا».

(٦) فى جـ، ط، أ، و: «أى بتوبته».

(٧) فى جـ: «بالأناسى والشكل».

وقال السدى: أهل هذه القرية هم أهل «أيلة». وكذا قال قتادة، وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسوطة إن شاء الله وبه الثقة[١].

وقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

ورواه ابن جرير، عن المثنى، عن أبى[٢] حذيفة. وعن محمد بن عمرو[٣] الباهلى، عن أبى عاصم، عن عيسى، عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، به.

وهذا سند جيد عن مجاهد، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق فى هذا المقام وفى غيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآية [المائدة: ٦٠].

وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: فجعل [الله][٤] منهم القردة والخنازير. فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير.

وقال شيبان النحوى، عن قتادة: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: فصار القوم قروداً تَعَاوَى لها أذناب بعد ما كانوا رجالاً ونساء.

وقال عطاء الخراسانى: نودوا: يا أهل القرية، ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم، أى بلى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين[٥]، حدثنا عبد الله بن محمد بن ربيعة بالمصيصة، حدثنا محمد بن مسلم ـ يعنى الطائفى ـ عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: إنما كان الذين اعتدوا فى السبت فجعلوا قردة فُواقا ثم هلكوا. ما كان للمسخ[٦] نسل[٧].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذ لا يحيون فى الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخَلْق فى الستة الأيام التى ذكرها الله[٨] فى كتابه، فمسخ [الله][٩] هؤلاء القوم فى صورة القِرَدة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء. ويحوله كما يشاء.

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع، عن أبى العالية فى قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: يعنى

---

(١) فى أ: «وبه الثقة والإعانة».
(٢) فى جـ: «عن أبو» وهو خطأ.
(٣) فى جـ، ب: « بن عمر».
(٤) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٥) فى جـ، ط، ب: «الحسن».
(٦) فى جـ: «للمسيخ».
(٧) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٠٩).
(٨) فى جـ، ط، ب: «التى ذكر الله».
(٩) زيادة من أ.

أذلة صاغرين. وروى عن مجاهد، وقتادة والربيع، وأبى مالك، نحوه.

وقال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: إن الله إنما افترضَ على بنى إسرائيل اليوم الذى افترض عليكم فى عيدكم ـ يوم الجمعة ـ فخالفوا إلى [١] السبت فعظموه، وتركوا ما أمروا به. فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحرم عليهم ما أحل لهم فى غيره. وكانوا فى قرية بين أيلة والطّور، يقال لها: «مدين»؛ فحرم الله عليهم فى السبت الحيتانَ: صيدَها وأكلها. وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شُرَّعاً إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت ذهبن، فلم يروا حُوتاً صغيراً ولا كبيراً. حتى إذا كان يومُ السبت أتين شُرَّعاً، حتى إذا ذهب السبت ذهبنَ، فكانوا كذلك، حتى إذا طال عليهم الأمد وقَرِموا إلى الحيتان، عمد رجل [٢] منهم فأخذ حوتاً سراً يوم السبت، فخزمه بخيط، ثم أرسله فى الماء، وأوتد له وَتَداً فى الساحل فأوثقه، ثم تركه. حتى إذا كان الغد جاء فأخذه، أى: إنى لم آخذه فى يوم السبت ثم انطلق به فأكله. حتى إذا كان يوم السبت الآخر، عاد لمثل ذلك، ووجد الناسُ ريح الحيتان، فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان، ثم عثروا على صنيع [٣] ذلك الرجل. قال: ففعلوا كما فعل، وصنعوا [٤] سراً زماناً طويلا، لم يعجل الله عليهم العقوبة [٥] حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق [٦]. فقالت طائفة منهم من أهل البقية: ويحكم، اتقوا الله. ونهوهم عما يصنعون. فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان، ولم تنه القوم عما صنعوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ لسخطنا أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

قال ابن عباس: فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية فى أنديتهم ومساجدهم وفقدوا الناس فلا يرونهم قال: فقال بعضهم لبعض: إن للناس لشأناً! فانظروا ما هو. فذهبوا ينظرون فى دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوها ليلاً فغلقوها على أنفسهم، كما يغلق الناس على أنفسهم فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة، والصبى بعينه وإنه لقرد. قال: يقول ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنه أنجى الذين نهوا عن السوء لقلنا [٧] :أهلك الجميع منهم، قال: وهى القرية التى قال الله جل ثناؤه لمحمد ﷺ: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣]. وروى الضحاك عن ابن عباس نحواً من هذا.

قال [٨] السدى فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: فهم أهل «أيلة»، وهى القرية التى كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت ـ وَقَدْ حرم الله على اليهود أن يعملوا [٩] فى السبت شيئاً ـ لم يبق فى البحر حُوتٌ إلا خرج،

---

(١) فى جـ، ط: «إلى يوم». (٢) فى جـ: «عمد رجلاً» وهو خطأ.
(٣) فى جـ: «على صنع». (٤) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وأكلوا». (٥) فى جـ، ط، ب، أ، و: «بعقوبة».
(٦) فى جـ: «فى الأسواق». (٧) فى جـ، ط، ب، أ، و: «لقد».
(٨) فى جـ، ط، ب: «وقال». (٩) فى جـ، ط: «أن تعمل».

حتى يخرجن خراطيمهن من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن مَقْل البحر، فلم يُرَ منهن شيء[١] حتى يكون يوم السبت، فذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ [كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ[٢]]﴾ [الأعراف: ١٦٣]. فاشتهى بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفيرة، ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها فى الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوى السمك فيجد جاره ريحه فيسأله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جارُه، حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماؤهم: ويحكم! إنما تصطادون يوم السبت، وهو لا يحل لكم، فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه. فقال العلماء[٣]: لا ولكنكم صدتموه يوم فتحكم[٤] الماء فدخل، قال: وغلبوا أن ينتهوا. فقال بعض[٥] الذين نهوهم لبعض: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، يقول: لم تعظوهم، وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [لأعراف: ١٦٤] فلما أبوا قال المسلمون: والله لا نُساكنكم فى قرية واحدة. فقسموا القرية بجدار، ففتح المسلمون باباً والمعتدون فى السبت باباً، ولعنهم داود، عليه السلام، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم، ولم يفتح الكفار بابهم، فلما أبطؤوا عليهم تسوّر المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم، فذهبوا فى الأرض، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦] وذلك حين يقول: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨] فهم القردة.

قلت: والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد، رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً بل الصحيح أنه معنوى صورى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: قال بعضهم: الضمير فى ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد على القردة، وقيل: على الحيتان، وقيل: على العقوبة، وقيل: على القرية؛ حكاها ابن جرير.

والصحيح أن الضمير عائد على القرية، أى: فجعل الله هذه القرية، والمراد أهلها بسبب اعتدائهم فى سبتهم ﴿نَكَالًا﴾ أى: عاقبناهم عقوبة، فجعلناها[٦] عبرة كما قال الله عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ

---

(١) فى جـ: «شيئاً» وهو خطأ.
(٢) زيادة من جـ.
(٣) فى جـ، ط، ب، أ، و: «الفقهاء».
(٤) فى أ، و: «فتحتم له».
(٥) فى أ: «فقال بعضهم».
(٦) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فجعلناهم».

﴿نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥]، وقوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أى من القرى. قال[1] ابن عباس: يعنى جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الآية [الرعد: ٤١] على أحد الأقوال، فالمراد: لما بين يديها وما خلفها فى المكان، كما قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى. وكذا قال سعيد بن جبير ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [قال][2]: من بحضرتها من الناس يومئذ.

وروى عن إسماعيل بن أبى خالد، وقتادة، وعطية العوفى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا [وَمَا خَلْفَهَا][3]﴾ قال: ما [كان][4] قبلها من الماضين فى شأن السبت.

وقال أبو العالية والربيع وعطية: ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: لما[5] بقى بعدهم من الناس من بنى إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم.

وكان هؤلاء يقولون: المراد بما بين يديها وما خلفها فى الزمان.

وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتى بعدهم من الناس أن يكون أهل تلك القرية عبرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن تكون عبرة لمن سبقهم؟ هذا لعل أحداً من الناس لا يقوله بعد تصوره، فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها فى المكان، وهو ما حولها من القرى؛ كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير، والله أعلم.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع عن أبى العالية: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أى: عقوبة لما خلا من ذنوبهم.

وقال ابن أبى حاتم[6]: وروى عن عكرمة، ومجاهد، والسدى، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك.

وحكى القرطبى، عن ابن عباس والسدىّ، والفراء، وابن عطية ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ بين ذنوب القوم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب، وحكى فخر الدين ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المراد بما بين يديها وما خلفها: من تقدمها من القرى، بما عندهم من العلم بخبرها، بالكتب المتقدمة ومن بعدها.

الثانى: المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم.

---

(١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «قاله».
(٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٣) زيادة من جـ.
(٤) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٥) فى جـ، ط، ب، أ، و: «لمن».
(٦) فى أ: «وقال ابن أبى جرير».

والثالث: أنه جعلها تعالى عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل وما بعده، قال: وهذا قول الحسن. قلت: وأرجح الأقوال أن المراد بما بين يديها وما خلفها: من بحضرتها من القرى التي يبلغهم خبرها، وما حل بها، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف:٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١]، وقال ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٤]، فجعلها عبرة ونكالاً لمن فى زمانهم، وعبرة لمن يأتى بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: الذين من بعدهم إلى يوم القيامة.

وقال الحسن وقتادة: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: بعدهم، فيتقون نقمة الله، ويحذرونها.

وقال السدى، وعطية العوفى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: أمة محمد ﷺ.

قلت: المراد بالموعظة ههنا الزاجر، أى: جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما قال الإمام أبو عبد الله بن بطة: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو [عن أبى سلمة](١)، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكب(٢) اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»(٣).

وهذا إسناد جيد، وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثّقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى، وباقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح. والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)﴾.

يقول تعالى: واذكروا ـ يا بنى إسرائيل ـ نعمتى عليكم فى خرق العادة لكم فى شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتولَ، ونصه على من قتله منهم. [مسألة الإبل تنحر والغنم تذبح واختلفوا فى البقر فقيل: تذبح، وقيل: تنحر، والذبح أولى لنص القرآن ولقرب منحرها من مذبحها. قال ابن المنذر: ولا أعلم خلافا صحيحاً بين ما ينحر أو نحر ما يذبح، غير أن مالكا كره ذلك. وقد يكره الإنسان ما لا يحرم، وقال أبو عبد الله: أعلم أن نزول قصة البقرة على موسى،

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و. (٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «ما ارتكبت».
(٣) جزء الخلع وإبطال الحيل لابن بطة (ص٢٤).

عليه السلام، فى أمر القتيل قبل نزول القسامة فى التوراة.

بسط القصة](١)ـ كما قال ابن أبى حاتم ـ:

حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حَسَّان، عن محمد ابن سيرين، عن(٢)عبيدة السلماني، قال: كان رجل من بنى إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان(٣) ابنُ أخيه وارثَه، فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبحَ يَدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم إلى(٤) بعض، فقال ذوو الرأى منهم والنّهَى: علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى، عليه السلام، فذكروا ذلك له، فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾. قال: فلو لم يعترضوا [البقر](٥) لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم(٦) شددوا فشدّد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من مِلء جلدها ذهبا، فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوها، فضربوه ببعضها فقام فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا، لابن أخيه. ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً، فلم يُورَّث قاتل بعد.

ورواه ابن جرير من حديث أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة(٧)، بنحو من ذلك(٨)، والله أعلم.

ورواه عبد بن حميد فى تفسيره: أنبأنا يزيد بن هارون، به.

ورواه آدم بن أبى إياس فى تفسيره، عن أبى جعفر ـ هو الرازى ـ عن هشام بن حسان، به. وقال آدم بن أبى إياس فى تفسيره: أنبأنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع، عن أبى العالية، فى قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾ قال: كان رجل من بنى إسرائيل، وكان غنياً، ولم يكن له ولد، وكان له قريب وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق، وأتى موسى، عليه السلام، فقال له: إن قريبى قتل وإنى إلى أمر عظيم، وإنى لا أجد أحداً يبين [لى](٩) من قتله غيرك يا نبى الله. قال: فنادى موسى فى الناس، فقال: أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا بَيَّنه لنا، [قال](١٠): فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى عليه السلام، فقال له: أنت نبى الله فاسأل لنا ربك أن يبين لنا، فسأل ربه فأوحى الله إليه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾ فعجبوا من

(١) زيادة من جـ، ط، ب، و.
(٢) فى جـ: «بن».
(٣) فى ط، ب: «وكان له».
(٤) فى جـ: «على».
(٥) زيادة من ب.
(٦) فى جـ: «ولكن».
(٧) فى جـ: «عبدة».
(٨) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢١٤) وتفسير الطبرى (١/ ٣٣٧).
(٩) زيادة من ط، ب، أ، و.
(١٠) زيادة من أ.

ذلك، فقالوا: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ﴾ يعنى: لاهرمة ﴿وَلا بِكْرٌ ﴾ يعنى: ولا صغيرة ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أى: نَصف بين البكر والهرمة ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ أى: صاف لونها ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ أى: تعجب الناظرين ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ﴾ أى: لم يذللها[١] العمل ﴿ تُثِيرُ الأَرْضَ ﴾ يعنى: وليست بذلول تثير الأرض ﴿ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ يقول: ولا تعمل فى الحرث ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ يعنى: مسلمة من العيوب ﴿ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ﴾ يقول: لا بياض فيها ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ قال: ولو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها، لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشُدِّد عليهم، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، لما هدوا إليها أبداً. فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التى نعتت لهم إلا عند عجوز عندها يتامى، وهى القَيِّمة عليهم، فلما علمت أنه لا يزكو لهم[٢] غيرها، أضعفت عليهم الثمن. فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة، وأنها سألتهم أضعاف ثمنها. فقال لهم موسى: إن الله قد كان خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها. ففعلوا، واشتروها[٣] فذبحوها، فأمرهم موسى، عليه السلام، أن يأخذوا عظماً[٤] منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان، فأخذ قاتله ـ وهو الذى كان أتى موسى فشكا إليه [مقتله][٥] ـ فقتله الله على أسوأ[٦] عمله.

وقال محمد بن جرير: حدثنى ابن سعد[٧]، حدثنى أبى، حدثنى عمى، حدثنى أبى، عن أبيه [عن جده][٨]، عن ابن عباس، فى قوله فى شأن البقرة: وذلك أن شيخاً من بنى إسرائيل على عهد موسى، عليه السلام، كان مكثراً من المال، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم، وكان الشيخ لا ولد له وبنو أخيه ورثته فقالوا: ليت[٩] عمنا قد مات فورثنا ماله، وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم، أتاهم الشيطان فقال لهم: هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم، فترثوا ماله، وتُغرِموا أهل المدينة التى لستم بها دِيَتَه، وذلك أنهما كانتا مدينتين، كانوا فى إحداهما وكان القتيل إذا قتل فطرح بين المدينتين[١٠]، قيس ما بين القتيل والقريتين فأيهما[١١] كانت أقرب إليه غَرِمت الدية، وأنهم لما سَوَّل لهم الشيطان ذلك، وتطاول عليهم ألا يموت عَمّهم عَمَدوا إليه فقتلوه، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التى ليسوا فيها. فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخى الشيخ، فقالوا: عمنا قتل على باب مدينتكم، فوالله

(١) فى ب، أ، و: «لم يذلها».
(٢) فى أ: «أنهم لا يتركوا».
(٣) فى ط: «واشتروا».
(٤) فى جـ: «عظمها».
(٥) زيادة من و.
(٦) فى جـ: «أشر»، وفى أ: «سوء».
(٧) فى جـ، ط، ب، أ، و: «ابن أبى سعيد».
(٨) زيادة من أ، و.
(٩) فى جـ: «يا ليت».
(١٠) فى ب: «القريتين».
(١١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فأيتهما».

لتغرمن لنا دية عمنا. قال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا[١] قاتلاً، ولافتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا. وإنهم عمَدوا إلى موسى، عليه السلام، فلما أتوه قال بنو أخى الشيخ: عمنا وجدناه مقتولا على باب مدينتهم. وقال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا، وإنه جبريل[٢] جاء بأمر[٣] السميع العليم إلى موسى، عليه السلام، فقال: قل لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فتضربوه ببعضها.

وقال السدى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قال: كان رجل من بنى إسرائيل مكثراً من المال وكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج، فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبى أن يزوجه، فغضب الفتى، وقال: والله لأقتلن عمى، ولآخذن ماله، ولأنكحن ابنته، ولآكلن ديته. فأتاه الفتى وقد قدم تجار فى بعض أسباط بنى إسرائيل، فقال: يا عم[٤]، انطلق معى فخذ لى من تجارة هؤلاء القوم، لعلى أن أصيب منها[٥]، فإنهم إذا رأوك معى أعطونى. فخرج العم مع الفتى ليلا، فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى، ثم رجع إلى أهله. فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه، كأنه لا يدرى أين هو، فلم يجده. فانطلق نحوه، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه، فأخذهم وقال: قتلتم عمى، فأدوا إلىّ ديته فجعل يبكى ويحثو التراب على رأسه، وينادى: واعماه. فرفعهم إلى موسى، فقضى عليهم بالدية، فقالوا له: يا رسول الله، ادع الله لنا[٦] حتى يبين لنا من صاحبه، فيؤخذ صاحب الجريمة[٧]، فوالله إن ديته علينا لهينة، ولكنا نستحيى أن نعير به فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فقال لهم موسى، عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قالوا: نسألك عن القتيل وعمن قتله، وتقول: اذبحوا بقرة. أتهزأ بنا! ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قال ابن عباس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا [على][٨] موسى فشدد الله عليهم. فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾. والفارض: الهرمة التى لا تلد والبكر التي لم تلد إلا ولداً واحداً. والعوان: النَّصَفُ التى بين ذلك، التى قد ولدت وولد ولدها ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال: نَقى لونها ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ قال: تعجب الناظرين ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ من بياض ولا سواد ولا حمرة ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ فطلبوها فلم يقدروا عليها.

---

(١) فى جـ: «ما قتلناه ولا علمناه».
(٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وإن جبريل».
(٣) فى جـ، ط، ب، أ، و: «بأمر ربه».
(٤) فى جـ: «يا عمى».
(٥) فى جـ: «فيها».
(٦) فى ب، أ، و: «ادع لنا الله».
(٧) فى جـ، ط، ب، أ، و: «الفرصة».
(٨) زيادة من جـ، أ.

وكان رجل فى[1] بنى إسرائيل، من أبر الناس بأبيه، وإن رجلا مَرّ به معه لؤلؤ يبيعه، وكان أبوه نائماً تحت رأسه المفتاح، فقال له الرجل: تشترى[2] منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفاً؟ فقال له الفتى: كما أنت حتى يستيقظ أبى فآخذه منك بثمانين ألفاً. فقال الآخر: أيقظ أباك وهو لك بستين ألفاً، فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفاً، وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف، فلما أكثر عليه قال: والله لا أشتريه منك بشىء أبداً، وأبى أن يوقظ أباه، فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده، فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة، فأبى، فأعطوه ثنتين فأبى، فزادوه حتى بلغوا عشرا، فأبى، فقالوا: والله لا نتركك حتى نأخذها منك. فانطلقوا به إلى موسى، عليه السلام، فقالوا: يا نبى الله، إنا وجدناها عند هذا فأبى أن يعطيناها وقد أعطيناه ثمناً فقال له موسى: أعطهم بقرتك. فقال: يا رسول الله، أنا أحق بمالى. فقال: صدقت. وقال للقوم: أرضوا صاحبكم، فأعطوه وزنها ذهباً، فأبى، فأضعفوا[3] له مثل ما أعطوه وزنها، حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً، فباعهم إياها وأخذ ثمنها، فذبحوها. قال: اضربوه ببعضها، فضربوه بالبَضْعة التى بين الكتفين، فعاش، فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أخى، قال: أقتله، فآخذ ماله، وأنكح ابنته. فأخذوا الغلام فقتلوه[4].

وقال سُنَيْد: حدثنا حجاج، هو ابن محمد، عن ابن جُرَيْج، عن مجاهد، وحجاج، عن أبى معشر، عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس ـ دخل حديث بعضهم فى حديث بعض ـ قالوا: إن سبطاً من بنى إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس، بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس، فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحداً منهم خارجاً إلا أدخلوه، وإذا افتتحوا[5] قام رئيسهم فنظر وأشرف، فإذا لم ير شيئاً فتح المدينة، فكانوا مع الناس حتى يمسوا. قال: وكان رجل من بنى إسرائيل له مال كثير، ولم يكن له وارث غير أخيه، فطال عليه حياته فقتله ليرثه، ثم حمله فوضعه على باب المدينة، ثم كمن فى مكان هو وأصحابه. قال: فأشرف[6] رئيس المدينة على باب المدينة فنظر، فلم ير شيئاً ففتح الباب، فلما رأى القتيل رد الباب، فناداه أخو المقتول وأصحابه: هيهات! قتلتموه ثم تردون الباب. وكان موسى لما رأى القتل كثيراً فى أصحابه بنى إسرائيل، كان إذا رأى القتيل بين ظهرانى القوم أخذهم، فكاد يكون بين أخى المقتول وبين أهل المدينة قتال، حتى لبس الفريقان السلاح، ثم كف بعضهم عن بعض، فأتوا موسى فذكروا له شأنهم. قالوا: يا رسول الله، إن هؤلاء قتلوا قتيلا ثم ردوا الباب، وقال أهل المدينة: يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور[7]، وبنينا مدينة، كما رأيت، نعتزل شرور الناس، والله ما قتلنا ولا علمنا قاتلا. فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة فقال لهم موسى:

(١) فى جـ: «من». (٢) فى أ: «اشترى».
(٣) فى جـ، ط، ب: «فأضعفوه».
(٤) تفسير الطبرى (٢/ ١٨٥).
(٥) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وإذا أصبحوا». (٦) فى و: «فتشرف».
(٧) فى جـ: «اعتزالنا عن الناس الشرور».

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[١].

وهذه السياقات [كلها][٢] عن عبيدة[٣] وأبى العالية والسدى وغيرهم، فيها اختلاف ما، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل وهى مما يجوز نقلها[٤]، ولكن لا نصدق ولا نُكَذِّب[٥]، فلهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)﴾.

أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم. ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيِّق عليهم، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقعَ عنهم، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد، ولكنهم شددوا فشدِّد عليهم، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ ما هذه البقرة؟ وأى شىء صفتها؟

قال[٦] ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا عَثَّام[٧] بن على، عن الأعمش، عن المِنْهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم[٨].

إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس. وكذا قال عبيدة، والسدى، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية وغير واحد.

وقال ابن جريج: قال [لى][٩] عطاء: لو أخذوا أدنى بقرة كفتهم. قال ابن جريج: قال رسول الله ﷺ: «إنما أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم؛ وايْم الله لو أنهم لم يستثنوا ما بينت لهم آخر الأبد»[١٠].

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أى: لا كبيرة هَرِمة ولا صغيرة لم يلحقها[١١]

---

(١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢/ ١٨٨) من طريق سنيد.
(٢) زيادة من جـ.
(٣) فى أ: «أبى عبيدة».
(٤) فى أ: «فعله».
(٥) فى ط، ب: «لا تصدق ولا تكذب».
(٦) فى ط: «وقال».
(٧) فى جـ: «هشام».
(٨) تفسير الطبرى (٢/ ٢٠٤).
(٩) زيادة من جـ، ط، ب، و.
(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (٢/ ٢٠٥).
(١١) فى جـ، ط: «يلقحها»، وفى أ: «ينكحها».

الفحل، كما قاله أبو العالية، والسدى، ومجاهد، وعكرمة، وعطية العوفى، وعطاء الخراسانى [(١)]، ووهب بن منبه، والضحاك، والحسن، وقتادة، وقاله ابن عباس أيضاً.

وقال الضحاك، عن ابن عباس ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [يقول: نصف][(٢)] بين الكبيرة والصغيرة، وهى أقوى ما يكون من الدواب والبقر وأحسن ما تكون. وروى عن عكرمة، ومجاهد، وأبى العالية، والربيع بن أنس، وعطاء الخراسانى، والضحاك نحو ذلك.

وقال السدى: العوان: النَّصَف التى بين ذلك التى ولدت، وولد ولدها.

وقال هشيم، عن جويبر، عن كثير بن زياد، عن الحسن فى البقرة: كانت بقرة وحشية.

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس: من لبس نعلا صفراء لم يزل فى سرور ما دام لابسها، وذلك قوله[(٣)] تعالى: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾. وكذا قال مجاهد، ووهب بن منبه أنها كانت صفراء.

وعن ابن عمر: كانت صفراء الظِّلْف. وعن سعيد بن جبير: كانت صفراء القرن والظلف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نصر بن على، حدثنا نوح بن قيس، أنبأنا أبو رجاء، عن الحسن فى قوله: ﴿ بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال: سوداء شديدة السواد.

وهذا غريب، والصحيح الأول، ولهذا أكد صفرتها بأنه ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾.

وقال عطية العوفى: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾: تكاد تسود من صفرتها.

وقال سعيد بن جبير: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال: صافية اللون. وروى عن أبى العالية، والربيع بن أنس، والسدى، والحسن، وقتادة نحوه.

وقال شريك، عن مَغْراء[(٤)]، عن ابن عمر: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال: صاف[(٥)].

وقال العوفى فى تفسيره، عن ابن عباس: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾: شديد الصفرة، تكاد من صفرتها تبيض.

وقال السدى: ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أى: تعجب الناظرين[(٦)]. وكذا قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس.

[وفى التوراة: أنها كانت حمراء، فلعل هذا خطأ فى التعريب أو كما قال الأُوَل: إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد، والله أعلم][(٧)].

---

(١) فى جـ: «الخراسانى وسيأتى».
(٢) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٣) فى جـ، ب: «قول الله تعالى»، وفى ط: «قول الله».
(٤) فى أ: «عن ابن عباس».
(٥) فى جـ، ط، ب: «صافى».
(٦) فى جـ: «أى تعجبهم».
(٧) زيادة من جـ، ط، ب، و.

وقال وهب بن منبه: إذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.

وقوله: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أى: لكثرتها، فميز لنا هذه البقرة وصفها وحِلّها لنا ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ إذا بينتها لنا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن يحيى الأودى[1] الصوفى، حدثنا أبو سعيد أحمد بن داود الحداد، حدثنا سرور بن المغيرة الواسطى، ابن أخى منصور بن زاذان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن أبى رافع، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن بنى إسرائيل قالوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ما أعطوا، ولكن استثنوا»[2].

ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من وجه آخر، عن سرور بن المغيرة، عن[3] زاذان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن حديث أبى رافع، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن بنى إسرائيل قالوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ما أعطوا أبداً، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا، فشدد الله عليهم»[4].

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة، كما تقدم مثله[5] عن السدى، والله أعلم.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أى: إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقى فى السانية، بل هى مكرمة حسنة صبيحة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ صحيحة لا عيب فيها ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أى: ليس فيها لون غير لونها.

وقال عبد الرزاق، عن معْمَر، عن قتادة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يقول: لا عيب فيها، وكذا قال أبو العالية والربيع، وقال مجاهد ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من الشية.

وقال عطاء الخراسانى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ القوائم والخلق ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾. قال مجاهد: لا بياض ولا سواد. وقال أبو العالية والربيع، والحسن وقتادة: ليس فيها بياض. وقال عطاء الخراسانى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ قال: لونها واحد بهيم. وروى عن عطية العوفى، ووهب بن منبه، وإسماعيل بن أبى خالد، نحو ذلك. وقال السدى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ من بياض ولا سواد ولا حمرة، وكل هذه الأقوال متقاربة [فى المعنى، وقد زعم بعضهم أن المعنى فى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ ليست بمذللة بالعمل ثم استأنف فقال: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ أى: يعمل عليها بالحراثة لكنها لا تسقى الحرث، وهذا ضعيف؛ لأنه فسر الذلول التى لم تذلل بالعمل بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث كذا قرره القرطبى وغيره][6].

---

(١) فى جـ، ط: «الأزدى».

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٢٣).

(٣) فى جـ، ط، ب: « بن ».

(٤) قال الحافظ ابن حجر: «فيه عباد بن منصور وهو ضعيف».

(٥) فى جـ، ط: «نقله». (٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ.

﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِ﴾: قال قتادة: الآن بيّنتَ لنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وقبل ذلك ـ والله[١] ـ قد جاءهم الحق.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: قال الضحاك، عن ابن عباس: كادوا ألاّ يفعلوا، ولم يكن ذلك الذى أرادوا، لأنهم أرادوا ألاّ يذبحوها.

يعنى أنَّهم مع هذا البيان[٢]، وهذه الأسئلة، والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفى هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها.

وقال محمد بن كعب، ومحمد بن قيس: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لكثرة ثمنها.

وفى هذا نظر؛ لأن كثرة ثمنها لم يثبت إلا من نقل بنى إسرائيل، كما تقدم من حكاية أبى العالية والسدى، ورواه العوفى عن ابن عباس. وقال عبيدة، ومجاهد، ووهب بن منبه، وأبو العالية، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنهم اشتروها بمال كثير[٣]، وفيه اختلاف، ثم قد قيل فى ثمنها غير ذلك. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة، أخبرنى محمد بن سوقة، عن عكرمة، قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير[٤]. وهذا إسناد جيد عن عكرمة، والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضاً.

قال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن اطلع الله على قاتل القتيل الذى اختصموا فيه.

ولم يسنده عن أحد، ثم اختار أن الصواب فى ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها، وللفضيحة. وفى هذا نظر، بل الصواب ـ والله أعلم ـ ما تقدم من رواية الضحاك، عن ابن عباس، على ما وجهناه. وبالله التوفيق.

مسألة: استدل بهذه الآية فى حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق على صحة السلم فى الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعى والليث والشافعى وأحمد وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً بدليل ما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ: «لا تنعت المرأةُ المرأةَ لزوجها كأنه ينظر إليها»[٥]. وكما وصف النبى ﷺ إبل الدية فى قتل خطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث، وقال أبو حنيفة والثورى والكوفيون: لا يصح السلم فى الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله، وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم.

---

(١) فى جـ، ط: «والله أعلم».
(٢) فى جـ: «الشأن».
(٣) فى ب: «بثمن كثير».
(٤) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧١).
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٢٤١).

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ﴾.

قال البخارى: ﴿ **فَادَّارَأْتُمْ** ﴾: اختلفتم. وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أبى حذيفة، عن شبْل عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، أنه قال فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا** ﴾: اختلفتم.

وقال عطاء الخراسانى، والضحاك: اختصمتم فيها. وقال ابن جريج ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا** ﴾. قال: قال بعضهم أنتم قتلتموه.

وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

﴿ **وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾: قال مجاهد: ما تُغَيِّبُون. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن مسلم البصرى، حدثنا محمد بن الطفيل العبدى، حدثنا صدقة بن رستم، سمعت المسيب بن رافع يقول: ما عمل رجل حسنة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك فى كلام الله: ﴿ **وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا** ﴾. هذا البعض أىُّ شىء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به.

وخرق العادة به كائن، وقد كان معينا فى نفس الأمر، فلو كان فى تعيينه لنا فائدة تعود علينا فى أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا، ولكن أبهمه، ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه[(١)]، فنحن نبهمه كما أبهمه الله.

ولهذا قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عفَّان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: إن أصحاب بقرة بنى إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل فى بقر له، وكانت بقرة تعجبه، قال: فجعلوا يعطونه بها فيأبى، حتى أعطوه ملء مَسْكها دنانير، فذبحوها، فضربوه ـ يعنى القتيل ـ بعضو منها، فقام تَشْخُبُ أوداجه دماً [فسألوه][(٢)]، فقالوا له: من قتلك؟ قال[(٣)]: قتلنى فلان[(٤)].

وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه ضرب ببعضها.

وفى رواية عن ابن عباس: إنهم ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، قال: قال أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة: ضربوا القتيل ببعض لحمها. وقال معمر: قال قتادة: فضربوه بلحم فخذها فعاش، فقال: قتلنى فلان.

وقال أبو أسامة، عن النضر بن عربى، عن عكرمة: ﴿ **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا** ﴾ [قال][(٥)]: فضرب

---

(١) فى جـ: «عن معصوم حدثنا به». (٢) زيادة من جـ. (٣) فى جـ: «فقال».
(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٢٩).
(٥) زيادة من جـ، أ، و.

بفخذها فقام، فقال: قتلنى فلان.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، وقتادة، نحو ذلك.

وقال السدى: فضربوه بالبَضْعة التى بين الكتفين فعاش، فسألوه، فقال: قتلنى ابن أخى.

وقال أبو العالية: أمرهم موسى، عليه السلام، أن يأخذوا عظماً من عظامها، فيضربوا به القتيل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتا كما كان.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فضربوه ببعض آرابها [وقيل: بلسانها، وقيل: بعجب ذنبها][(١)].

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ ﴾ أى: فضربوه فحيى. ونَبَّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل: جعل تبارك وتعالى ذلك الصنع حجة لهم على المعاد، وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والفساد [(٢)] والله تعالى قد ذكر فى هذه السورة ما خلقه فى [(٣)] إحياء الموتى، فى خمسة مواضع: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٦]. وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم والطيور الأربعة.

ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيررتها [(٤)] رميما، كما قال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، أخبرنى يعلى بن عطاء، قال: سمعت وَكيع بن عُدُس، يحدث عن أبى رزَين العُقَيلى، قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى؟ قال: «أما مررت بواد مُمْحِل، ثم مررت به خَضِراً؟» قال: بلى. قال: «كذلك النشور». أو قال: «كذلك يحيى الله الموتى»[(٥)]. وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

مسألة: استدل لمذهب مالك فى كون قول الجريح: فلان قتلنى لوثاً بهذه القصة؛ لأن القتيل لما حيى سئل عن قتله فقال: قتلنى فلان، فكان ذلك مقبولاً منه؛ لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق، ولا يتهم والحالة هذه، ورجحوا ذلك بحديث أنس: أن يهودياً قتل جارية على أوضاح لها، فرضخ رأسها بين حجرين فقيل: من فعل بك هذا؟ أفلان؟ أفلان؟ حتى ذكر اليهودى، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودى، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر رسول الله ﷺ أن يرد رأسه بين حجرين[(٦)]، وعند مالك: إذا كان لوثاً حلف أولياء القتيل قسامة، وخالف الجمهور فى ذلك ولم يجعلوا قول القتيل فى

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «والعناد».
(٣) فى جـ، ط، ب، أ، و: «من».
(٤) فى جـ، ط، ب، أ، و: «بعد صيرورتها».
(٥) مسند الطيالسى برقم (١٠٨٩).
(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٨٨٥).

ذلك لوثاً.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾.

يقول تعالى توبيخاً لبنى إسرائيل، وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى، وإحيائه الموتى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ كله ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ التى لا تلين أبداً. ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال العوفى، فى تفسيره، عن ابن عباس: لما ضُرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟ فقال: بنو أخى قتلونى. ثم قبض. فقال بنو أخيه حين قبض: والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد إذا رأوا[1]. فقال[2] الله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعنى: بنى[3] أخى الشيخ ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فصارت قلوب بنى[4] إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات فهى فى قسوتها كالحجارة التى لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما تتفجر منها العيون الجارية بالأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، وإن لم يكن جاريا، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد أنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء، أو يتشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، لمن خشية الله، نزل بذلك القرآن.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: أى وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عمَّا تدعون إليه من الحق ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

[وقال أبو على الجبائى فى تفسيره: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: هو سقوط البرد من

(١) فى أ، و: «إذ رأوه».
(٢) فى جـ: «ثم قال». (٣) فى أ، و: «يعنى ابن».
(٤) فى جـ: «قلوب بنوا» وهو خطأ.

السحاب. قال القاضى الباقلانى: وهذا تأويل بعيد وتبعه فى استبعاده فخر الدين الرازى وهو كما قالا؛ فإن هذا خروج عن ظاهر اللفظ بلا دليل، والله أعلم][1].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الحكم بن هشام الثقفى، حدثنى يحيى بن أبى طالب ـ يعنى يحيى بن يعقوب ـ فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ قال: هو كثرة البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ قال: قليل البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ قال: بكاء القلب، من غير دموع العين.

(وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز؛ وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار فى قوله: ﴿يريدُ أنْ ينقض﴾. قال الرازى والقرطبى وغيرهما من الأئمة: ولا حاجة إلى هذا فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما فى قوله تعالى: ﴿إنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السمواتِ وَالأرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وأَشْفَقْنَ مِنها﴾ الآية، وقال: ﴿والنَّجْمُ والشجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ و﴿أَوَلَم يَروا إلى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شيْءٍ يتفيؤ ظِلاله﴾ الآية، ﴿قَالَتَا أتَينا طائِعين﴾، ﴿لَوْ أنزَلْنا هَذَا القرآنَ عَلَى جبلٍ﴾ الآية، ﴿وَقَالوا لِجُلودِهِم لِمَ شَهِدْتُم عَلَيْنَا قالوا أنطقَنَا اللَّهُ﴾ الآية، وفى الصحيح: «هذا جبل يحبنا ونحبه»، وكحنين الجذع المتواتر خبره، وفى صحيح مسلم: «إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أُبعث إنى لأعرفه الآن»، وفى صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة، وغير ذلك مما فى معناه. وحكى القرطبى قولًا أنها للتخيير؛ أى مثلًا لهذا وهذا وهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين. . وكذا حكاه الرازى فى تفسيره وزاد قولًا آخر: إنها للإبهام بالنسبة إلى المخاطب كقول القائل أكلت خبزاً أو تمراً، وهو يعلم أيهما أكل، وقال آخر: إنها بمعنى قول القائل كلوا حلواً أو حامضاً؛ أى لا يخرج عن واحد منهما؛ أى وقلوبكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها لا تخرج عن واحد من هذين الشيئين. والله أعلم.

تنبيه:

اختلف علماء العربية فى معنى قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: «أو» ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهىء كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٢٤]، وكما قال النابغة الذبياني:

قالت ألا ليتما هذا الحمامُ لنا ... إلى حَمامتنا أو نِصفُه فقدِ[2]

تريد: ونصفه، قاله ابن جرير. وقال جرير بن عطية:

نال الخِلافةَ أو كانت له قدراً ... كما أتى ربَّه مُوسى على قَدَرِ[3]

قال ابن جرير: يعنى نال الخلافة، وكانت له قدراً.

وحكى القرطبى قولا: أنها للتخيير فى مفهومها بهذا أو بهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، وكذا حكاه فخر الدين فى تفسيره وزاد قولا آخر وهو: أنها للإبهام وبالنسبة إلى المخاطب، كقول القائل: أكلت خبزاً أو تمرا وهو يعلم أيهما أكل، وقولا آخر وهو أنها بمعنى قول القائل: أكلى حلو أو حامض، أى: لا يخرج عن واحد منهما، أى: وقلوبكم صارت فى قسوتها كالحجارة أو أشد قسوة منها لا يخرج عن واحد من هذين الشيئين والله أعلم.

وقال آخرون: «أو» ههنا بمعنى بل، تقديره[4]: فهى كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] وقال آخرون: معنى[5] ذلك ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عندكم. حكاه ابن جرير.

وقال آخرون: المراد بذلك الإبهام على المخاطب، كما قال أبو الأسود:

---

(١) زيادة من جـ ط، ب، أ، و. (٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢/٢٣٦). (٣) البيت فى تفسير الطبرى (٢/٢٣٦).

(٤) فى جـ، ط، ب: «فتقديره». (٥) فى جـ: «بمعنى».

أحبّ محمـداً حُبا شديداً وعبَّاسـا وحمـزةَ والوصيا[(١)]

فإن يك حُبّهم رشدا أصبه ولست [(٢)] بمخطئٍ إن كان غيّا[(٣)]

قال ابن جرير: قالوا: ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكاً فى أن حُبّ من سَمَّى رَشَدٌ، ولكنه أبهم على من خاطبه، قال: وقد ذكر عن أبى الأسود أنه لما قال هذه الأبيات قيل له: شككت؟ فقال: كلا والله. ثم انتزع بقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤]. فقال: أوَ كان شاكاً من أخبر بهذا فى الهادى منهم من الضلال[(٤)]؟

وقال بعضهم: معنى ذلك: فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين، إما أن تكون مثل الحجارة فى القسوة وإما أن تكون أشد منها قسوة.

قال ابن جرير: ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة. وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره.

قلت: وهذا القول الأخير يبقى شبيها بقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ [البقرة: ١٧] مع قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٩] وكقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور: ٣٩] مع قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ الآية [النور: ٤٠]، أى: إن منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم.

قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيوب، حدثنا محمد بن عبد الله بن أبى الثلج، حدثنا على بن حفص، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطب، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى».

رواه الترمذى فى كتاب الزهد من جامعه، عن محمد بن عبد الله بن أبى الثلج، صاحب الإمام أحمد، به. ومن وجه آخر عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب، به، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم[(٥)].

[وروى البزار عن أنس مرفوعا: «أربع من الشقاء: جمود العين، وقسى القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا»[(٦)]][(٧)].

(١) فى جـ، ط، ب: «أو عليا».

(٢) فى جـ، ط، ب: «وليس».

(٣) البيتان فى تفسير الطبرى (٢/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٤) فى جـ، ط، ب، و: «من الضال».

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٤١١) وأورده الإمام مالك فى الموطأ (٢/ ٩٨٦) بلاغاً عن عيسى عليه السلام.

(٦) مسند البزار برقم (٣٢٣٠) من طريق هانئ بن المتوكل، عن عبد الله بن سليمان وأبان عن أنس به مرفوعاً، وقال البزار: «عبد الله ابن سليمان حدث بأحاديث لم يتابع عليها»، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢٦): «وفيه هانئ بن المتوكل، وهو ضعيف».

(٧) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أى: ينقاد(١) لكم بالطاعة، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد آباؤهم(٢) من الآيات البينات ما شاهدوه(٣)، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ أى: يتأولونه على غير تأويله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أى: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن(٤) مَّوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: ١٣].

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ، ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ وليس قوله: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ﴾: يسمعون التوراة. كلهم قد سمعها. ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها.

قال محمد بن إسحاق: فيما حدثنى بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية الله تعالى، فأسمعنا كلامه حين يكلمك. فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى فقال: نعم، مُرْهم فليتطهروا، وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا، ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجوداً، وكلمه ربه تعالى، فسمعوا(٥) كلامه يأمرهم وينهاهم، حتى عقلوا عنه ما سمعوا. ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل، فلما جاؤوهم حَرَّف فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبنى إسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا. قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله: إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عز وجل لهم، فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ.

وقال السدى: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ قال: هى التوراة، حرفوها.

وهذا الذى ذكره السدى أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحاق، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق. فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه(٦)، كما سمعه الكليم موسى بن

---

(١) فى جـ، ط: «ينقادوا».
(٢) فى جـ: «ما آتاهم».
(٣) فى ط: «مما شاهدوه».
(٤) فى أ: «من بعد» وهو خطأ.
(٥) فى جـ، ط، ب: «فلما سمعوا».
(٦) فى جـ: «لمن يكون منه»، وفى ط: «لمن تكون منه».

عمران، عليه الصلاة والسلام[١]، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أي: مبلَّغاً إليه؛ ولهذا قال قتادة فى قوله: ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه.

وقال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم.

وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله فى كتابهم، من نعت[٢] محمد ﷺ، فحرفوه عن مواضعه.

وقال السدى: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾: أى أنهم أذنبوا. وقال ابن وهب: قال ابن زيد فى قوله: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ قال: التوراة التى أنزلها الله عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً؛ إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل[٣] برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإن جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق، ولا رشوة، ولا شىء، أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ الآية.

قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾: أى بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة. ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا﴾: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ أى: تقرون بأنه نبى، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبى الذى كنا ننتظر، ونجد فى كتابنا. اجحدوه ولا تقروا به. يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: يعنى المنافقين من اليهود. كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا: آمنا.

وقال السدى: هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا. وكذا قال الربيع بن أنس، وقتادة وغير واحد من السلف والخلف، حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فيما رواه ابن وهب عنه: كان رسول الله ﷺ قد قال: «لا يدخلن[٤] علينا قصبة المدينة إلا مؤمن». فقال رؤساؤهم[٥] من أهل الكفر والنفاق: اذهبوا فقولوا: آمنا، واكفروا إذا رجعتم إلينا، فكانوا يأتون المدينة بالبُكَر، ويرجعون إليهم بعد العصر. وقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ

---

(١) فى جـ: «كما سمعه الكليم عليه السلام»، وفى ط: «كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام».

(٢) فى جـ، ط: «من نص». (٣) فى جـ: «الباطل».

(٤) فى جـ: «لا يدخل».

(٥) فى جـ: «فقال رؤسائهم» وهوخطأ.

آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ [آل عمران: ٧٢] وكانوا يقولون، إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون. ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره. فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر. فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون. وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون[١]، فيقولون: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون: بلى. فإذا رجعوا إلى قومهم [يعنى الرؤساء][٢] قالوا: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ الآية[٣].

وقال أبو العالية: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى: بما أنزل عليكم فى كتابكم من نعت[٤] محمد ﷺ.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ قال: كانوا يقولون: سيكون نبى. فخلا بعضهم إلى بعض[٥]، فقالوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾[٦].

قول آخر فى المراد بالفتح: قال ابن جُرَيج: حدثنى القاسم بن أبى بَزَّة، عن مجاهد، فى قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: قام النبى ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: «يا إخوان[٧] القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت»، فقالوا: من أخبر بهذا [٨] الأمر محمداً؟ ما خرج هذا القول[٩] إلا منكم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما حكم الله، للفتح، ليكون لهم حجة عليكم. قال ابن جريج، عن مجاهد: هذا حين أرسل إليهم عليا[١٠]، فآذوا محمداً ﷺ.

وقال السدى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾من العذاب﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عُذِّبوا به. فقال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾من العذاب، ليقولوا: نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم.

وقال عطاء الخراسانى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى: بما قضى [الله] [١١] لكم وعليكم.

وقال الحسن البصرى: هؤلاء اليهود، كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض، قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما فى كتابكم، فيحاجوكم[١٢] به عند ربكم، فيخصموكم.

---

(١) فى جـ: «أنهم يؤمنون». (٢) زيادة من جـ، ب، أ، و.
(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٢/ ٢٥٤) عن يونس عن ابن وهب به.
(٤) فى أ: «من بعث». (٥) فى جـ، ط، ب: «فخلا بعضهم ببعض».
(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧١).
(٧) فى جـ: «أيا إخوان». (٨) فى جـ، ط، ب: «من أخبر هذا».
(٩) فى أ، و: «هذا الأمر». (١٠) فى جـ: «حين أرسل علياً إليهم».
(١١) زيادة من جـ، أ. (١٢) فى جـ، ط، ب: «ليحاجوكم».

وقوله: ﴿أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: قال أبو العالية: يعنى ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، وهو[1] يجدونه مكتوباً عندهم. وكذا قال قتادة.

وقال الحسن: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد[2] منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما فى كتابهم، خشيةَ أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما فى كتابهم عند[3] ربهم. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعنى: حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: آمنا. وكذا قال أبو العالية، والربيع، وقتادة.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أى: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد: والأميون جمع أمى، وهو: الرجل الذى لا يحسن الكتابة، قاله أبو العالية، والربيع، وقتادة، وإبراهيم النَّخَعى، وغير واحد[4]، وهو ظاهر فى قوله تعالى: ﴿لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ [إِلا أَمَانِيَّ][5]﴾ أى: لا يدرون ما فيه. ولهذا فى صفات النبى ﷺ أنه أمى؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال عليه الصلاة والسلام: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا» الحديث. أى: لا نفتقر فى عياداتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا حساب وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يَخُط من الرجال إلى أمِّه فى جهله بالكتاب دون أبيه، قال: وقد روى عن ابن عباس، رضى الله عنهما[6]، قول خلاف هذا، وهو ما حدثنا به أبو كُرَيب: حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ قال: الأميون قوم لم يصدِّقوا رسولا أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سَفِلة جُهَّال: ﴿هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾. وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أميين، لجحودهم كتب الله ورسله. ثم قال ابن جرير: وهذ التأويل[7] على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم. وذلك أن الأمى عند العرب: الذى لا يكتب[8].

قلت: ثم فى صحة هذا عن ابن عباس، بهذا الإسناد، نظر. والله أعلم.

---

(١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وهم». (٢) فى جـ: «يخبروا واحداً»، وفى أ: «يخبروا أحد».
(٣) فى جـ: «وعند». (٤) فى أ: «وإبراهيم النخعى وغيرهم».
(٥) زيادة من جـ، ط، ب. (٦) فى ط: «رضى الله عنه».
(٧) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وهذا التأويل تأويل».
(٨) تفسير الطبرى (٢/ ٢٥٩).

قوله[١] تعالى: ﴿إِلا أَمَانِيَ﴾: قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿إِلا أَمَانِيَ﴾: إلا أحاديث.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿إِلا أَمَانِيَ﴾ يقول: إلا قولا يقولونه بأفواههم كذباً. وقال مجاهد: إلا كذباً. وقال سنيد، عن حجاج، عن ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَ﴾ قال: أناس من يهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظن[٢] بغير ما فى كتاب الله، ويقولون: هو من الكتاب، أمانىّ يتمنونها. وعن الحسن البصرى، نحوه.

وقال أبو العالية، والربيع وقتادة: ﴿إِلا أَمَانِيَ﴾ يتمنون على الله ما ليس لهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِلا أَمَانِيَ﴾، قال: تمنوا فقالوا: نحن من أهل الكتاب. وليسوا منهم.

قال ابن جرير: والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس، وقول مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله أنهم لا يفقهون من الكتاب ـ الذى أنزل[٣] الله على موسى ـ شيئاً، ولكنهم يَتَخَرَّصُون الكذب ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً. والتمنى فى هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه. ومنه الخبر المروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه: «ما تغنيت ولا تمنيت». يعنى ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب[٤].

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ ولا يدرون ما فيه، وهم يجحدون[٥] نبوتك بالظن.

وقال مجاهد: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾: يكذبون.

وقال قتادة: وأبو العالية، والربيع: يظنون الظنون بغير الحق.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ الآية: هؤلاء صنف[٦] آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل.

والويل: الهلاك والدمار، وهى كلمة مشهورة فى اللغة. وقال سفيان الثورى، عن زياد بن فياض: سمعت أبا عياض يقول: ويل: صديد فى أصل جهنم.

وقال عطاء بن يسار. الويل: واد فى جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت.

---

(١) فى جـ، ط: «وقوله». (٢) فى جـ: «يتكلمون الظن».

(٣) فى جـ، ط، ب: «الذى أنزله».

(٤) تفسير الطبرى (٢/ ٢٦٢).

(٥) فى أ، و: «وهم يجدون». (٦) فى جـ: «هو صنف».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن درَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ، قال: «ويل واد فى جهنم، يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره».

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد، عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة، عن دراج، به(١). وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

قلت: لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى، ولكن الآفة ممن بعده، وهذا الحديث بهذا الإسناد ـ مرفوعاً ـ منكر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح العشيرى(٢)، حدثنا على ابن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوى، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله ﷺ: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾. قال: «الويل جبل فى النار. وهو الذى أنزل فى اليهود؛ لأنهم حرَّفوا التوراة، زادوا فيها ما أحبوا، ومحوا منها ما يكرهون، ومحوا اسم محمد ﷺ من التوراة. ولذلك غضب الله عليهم، فرفع بعض التوراة، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾»(٣).

وهذا غريب أيضا جداً.

[وعن ابن عباس: الويل: السعير من العذاب، وقال الخليل بن أحمد: الويل: شدة الشر، وقال سيبويه: ويل: لمن وقع فى الهلكة، وويح لمن أشرف عليها، وقال الأصمعى: الويل: تفجع والويل ترحم، وقال غيره: الويل الحزن(٤). وقال الخليل: وفى معنى ويل: ويح وويش وويه وويك وويب، ومنهم من فرق بينها، وقال بعض النحاة: إنما جاز الابتداء بها وهى نكره؛ لأن فيها معنى الدعاء، ومنهم من جوز نصبها، بمعنى: الزمهم ويلاً. قلت: لكن لم يقرأ بذلك أحد](٥).

وعن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال: هم أحبار اليهود. وكذا قال سعيد، عن قتادة: هم اليهود.

وقال سفيان الثورى، عن عبد الرحمن بن علقمة: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال: نزلت فى المشركين وأهل الكتاب.

وقال السدى: كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله، ليأخذوا(٦) به ثمناً قليلا.

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٤٣) وسنن الترمذى برقم (٣١٦٤).
(٢) فى جـ: «العيرى».
(٣) تفسير الطبرى (٢/ ٢٦٨).
(٤) فى أ: «الخوف». (٥) زيادة من جـ، ط، ب. (٦) فى جـ، ط، ب: «فيأخذوا».

وقال الزهرى: أخبرنى عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذى أنزل الله على نبيه، أحدث أخبار الله تقرؤونه[١] محضاً[٢] لم يشب؟ وقد حدَّثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا؛ أفلا[٣] ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذى أنزل إليكم. رواه البخارى[٤] من طرق عن الزهرى.

وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها.

وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أى: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب[٥] والبهتان، والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ يقول: فالعذاب عليهم، من الذى كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم.

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾.

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا[٦]﴾ أى: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهد فهو لا يُخْلِف عهده[٧].

ولكن هذا ما جرى ولا كان. ولهذا أتى بـ «أم» التى بمعنى: بل، أى: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه.

قال[٨] محمد بن إسحاق، عن سيف بن سليمان[٩]، عن مجاهد، عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون: هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعَذَّب بكل ألف سنة يوماً فى النار، وإنما هى سبعة أيام معدودة[١٠]. فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

ثم رواه عن محمد، عن سعيد ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس، بنحوه.

وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾: اليهود قالوا[١١]: لن

---

(١) فى ط: «يعرفونه»، وفى و: «تعرفونه». (٢) فى جـ، ط، و: «غضاً».
(٣) فى جـ: «أفلم».
(٤) صحيح البخارى برقم (٧٣٦٣، ٧٥٢٣، ٢٦٨٥).
(٥) فى جـ: «من الكتب». (٦) بعدها فى جـ: «فلن يخلف الله عهده».
(٧) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وعده». (٨) فى جـ، ط: «وقال».
(٩) فى جـ: «سلمان». (١٠) فى جـ، ط، ب، أ، و: «أيام معدودات». (١١) فى جـ: «وقالوا».

تمسنا النار إلا أربعين ليلة، [زاد غيره: هى مدة عبادتهم العجل، وحكاه القرطبى عن ابن عباس وقتادة][١].

وقال الضحاك: قال ابن عباس: زعمت اليهود أنهم وجدوا فى التوراة مكتوباً: أن ما بين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، التى هى نابتة فى أصل الجحيم. وقال أعداء الله: إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك. فذلك قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿**وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ يعنى: الأيام التى عبدنا فيها العجل[٢].

وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله ﷺ[٣]، فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا إليها[٤] قوم آخرون، يعنون[٥] محمداً ﷺ وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم: «بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم إليها أحد». فأنزل الله: ﴿**وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ الآية.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا محمد بن محمد بن صخر، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا ليث بن سعد، حدثنى سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سُم، فقال[٦] رسول الله ﷺ: «اجمعوا لى من كان من اليهود ههنا» فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان[٧]. قال: «كذبتم، بل أبوكم فلان». فقالوا: صدقت وبَرِرْت، ثم قال لهم: «هل أنتم صادقىّ عن شىء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته فى أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً». ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هل أنتم صادقىّ عن شىء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: «هل جعلتم فى هذه الشاة سمّاً؟». فقالوا: نعم. قال[٨]: «فما حملكم على ذلك؟». فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك.

ورواه أحمد، والبخارى، والنسائى، من حديث الليث بن سعد، بنحوه[٩].

---

(١) زيادة من جـ، ط، ب، و.
(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧١، ٧٢).
(٣) فى جـ: «رسول الله ﷺ وأصحابه».
(٤) فى جـ: «فيها».
(٥) فى جـ، ط، أ، و: «يعنى»، وفى ب: «تعنى».
(٦) فى ط، ب: «فقال لهم».
(٧) فى جـ: «قالوا: أبونا فلان».
(٨) فى جـ، ط، ب: «فقال».
(٩) المسند (٢/ ٤٥١) وصحيح البخارى برقم (٣١٦١، ٤٢٤٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥٥).

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾.

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسوله[١]، وعملوا الصالحات ـ من العمل الموافق للشريعة ـ فهم[٢] من أهل الجنة. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن سعيد ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أى: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره[٣]، فماله من حسنة.

وفى رواية عن ابن عباس، قال: الشرك.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن أبى وائل، وأبى العالية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه[٤].

وقال الحسن ـ أيضاً ـ والسدى: السيئة: الكبيرة من الكبائر.

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قال: بقلبه.

وقال أبو هريرة، وأبو وائل، وعطاء، والحسن: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قالوا: أحاط به شركه.

وقال الأعمش، عن أبى رزين، عن الربيع بن خثيم: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، قال: الذى يموت على خطايا[٥] من قبل أن يتوب. وعن السدى، وأبى رزين، نحوه.

وقال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، فى رواية عنهما، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾: الكبيرة الموجبة.

وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى، والله أعلم. ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمرو بن قتادة[٦]، عن عبد ربه، عن أبى عياض، عن عبد الله

---

(١) فى أ: «ورسله».
(٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فهو».
(٣) فى جـ: «فمتى يحيط عمله».
(٤) فى جـ: «بنحوه».
(٥) فى أ، و: «على خطاياه».
(٦) فى أ: «عن عمر بن صادق».

ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إيَّاكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه». وإن رسول الله ﷺ ضرب لهُنَّ مثلا، كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعُود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً [١]، وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها[٢].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد، عن سعيد ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: أى من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. يخبرهم أن الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله، لا انقطاع له أبداً [٣].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣)﴾.

يُذكّر تبارك وتعالى بنى إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية إلى أن قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٦]. وفى الصحيحين، عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله، أى العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أىّ؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله»[٤]. ولهذا جاء فى الحديث الصحيح: أن رجلا قال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: «أمك». قال: ثم من[٥]؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أباك. ثم أدناك أدناك»[٦].

---

(١) فى جـ: «جمعوا أعواداً».

(٢) المسند (١/ ٤٠٢).

(٣) فى جـ، ط، ب: «أبداً لا انقطاع له».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٧، ٥٩٧٠، ٧٥٣٤) وصحيح مسلم برقم (٨٥).

(٥) فى ط: «ثم قال من».

(٦) جاء من حديث معاوية بن حيدة، رواه أبو داود فى السنن برقم (٥١٣٩)، ومن حديث كليب بن منفعة عن أبيه عن جده، رواه =

[وقوله: ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾: قال الزمخشرى: خبر بمعنى الطلب، وهو آكد. وقيل: كان أصله: ألاّ تعبدوا كما قرأها بعض السلف[١]، فحذفت أن فارتفع، وحكى عن أبى وابن مسعود، رضى الله عنهما، أنهما قرآها: «لا تعبدوا إلا الله». وقيل: ﴿لا تَعْبُدُونَ﴾ مرفوع على أنه قسم، أى: والله لا تعبدون إلا الله، ونقل هذا التوجيه القرطبى فى تفسيره عن سيبويه. وقال: اختاره المبرد والكسائى والفراء][٢].

قال: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وهم: الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء. [وقال أهل اللغة: اليتيم فى بنى آدم من الآباء، وفى البهائم من الأم، وحكى الماوردى أن اليتيم أطلق فى بنى آدم من الأم أيضا][٣]. ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، وسيأتى الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء، التى أمرنا الله تعالى بها صريحاً فى قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [النساء: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أى: كلموهم طيباً، ولينُوا لهم جانباً، ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: فالحُسْن من القول: يأمُر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خُلُق حسن رضيه الله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا أبو عامر الخَزَّاز، عن أبى عمران الجَوْنى، عن عبد الله ابن الصامت، عن أبى ذر، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، وإن لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق[٤]».

وأخرجه مسلم فى صحيحه، والترمذى [وصححه][٥]، من حديث أبى عامر الخزّاز، واسمه صالح بن رستم، به[٦].

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفى الإحسان الفعلى والقولى. ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمُعيّن[٧] من ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أى: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به، إلا القليل منهم، وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك فى سورة النساء، بقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا

= أبو داود فى السنن برقم (٥١٤٠).

(١) فى أ: «كما قرأها من قرأها من السلف».
(٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ.
(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ.
(٤) فى ط: «بوجه طلق».
(٥) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٦) المسند (٥/ ١٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٢٦) وسنن الترمذى برقم (١٨٣٣).
(٧) فى جـ، ط، ب، أ، و: «بالمتعين».

مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [النساء: ٣٦] فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، ولله الحمد والمنة.

ومن النقول الغريبة ههنا ما ذكره ابن أبى حاتم فى تفسيره:

حدثنا أبى، حدثنا محمد بن خلف العسقلانى، حدثنا عبد الله بن يوسف ـ يعنى التِّنِّيسى ـ حدثنا خالد بن صَبِيح، عن حميد بن عقبة، عن أسد بن وَدَاعة: أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهودياً ولا نصرانياً إلا سلم عليه، فقيل له: ما شأنك؟ تسلم على اليهودى والنصرانى. فقال: إن الله يقول: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً**﴾ وهو: السلام. قال: وروى عن عطاء الخراسانى، نحوه.

قلت: وقد ثبت فى السنة أنهم لا يبدؤون بالسلام، والله أعلم[1].

﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ** (٨٤) **ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** (٨٥) **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ** (٨٦) ﴾.

يقول، تبارك وتعالى، منكراً على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانوا فى الجاهلية عُبَّاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاثَ قبائل: بنو قينقاع. وبنو النضير حلفاء الخزرج. وبنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت[2] بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودى أعداءه، وقد يقتل اليهودىّ الآخرُ من الفريق الآخر، وذلك حرام عليه فى دينه ونص كتابه. ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملا بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ**﴾ أى: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرجه من منزله، ولا يظاهر عليه، كما قال تعالى: ﴿ **فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ**

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه برقم (٢١٦٦) عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه».

(٢) فى أ: «نشئت».

بَارِئِكُمْ﴾،[البقرة: ٥٤] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

[وقوله][١]: ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أى: ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به.

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ ، قال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن سعيد بن جبير ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، قال: أنبهم الله[٢] من فعلهم، وقد حرّم عليهم فى التوراة سفك دمائهم[٣]، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وإنهم[٤] حلفاء الخزرج، والنضير، وقريظة وإنهم [٥]حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر [٦]كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى يتسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم. والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنة ولا ناراً، ولا بعثاً ولا قيامة، ولا كتاباً، ولا حلالا ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم، تصديقاً لما فى التوراة، وأخذاً به؛ بعضهم من بعض، يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم فى أيدى [٧]الأوس، ويفتدى النضير وقريظة ما كان فى أيدى[٨] الخزرج منهم، ويطلون[٩] ما أصابوا من دمائهم[١٠]، وقتلى من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهرة لأهل الشرك عليهم. يقول الله تعالى ذكره حيث أنّبهم[١١] بذلك: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أى: يفاديه بحكم التوراة ويقتله، وفى حكم التوراة ألاّ يفعل، ولا يُخرج[١٢] من داره، ولا يُظَاهَر عليه من يُشْرك بالله، ويعبد الأوثان من دونه، ابتغاء عرض الدنيا. ففى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج ـ فيما بلغنى ـ نزلت هذه القصة[١٣].

وقال أسباط عن السدى: كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون فى حرب سُمَير، فيقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضيرَ وحلفاءهم، وكانت النضير تقاتل قريظة

(١) زيادة من جـ، ط، أ.
(٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «أنبأهم الله بذلك».
(٣) فى جـ: «سفك الدماء».
(٤، ٥) فى جـ: «وهم».
(٦) فى جـ، ط، ب: «فظاهر».
(٧، ٨) فى جـ: «يدى».
(٩) فى جـ، ط، أ: «يطلبون».
(١٠) فى جـ، ط، ب، أ، و: «من الدماء وقتلوا».
(١١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «حين أنبأهم».
(١٢) فى جـ، ط، ب: «ويخرجه».
(١٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٤٠) وتفسير الطبرى (٢/ ٣٠٥).

وحلفاءها، ويغلبونهم، فيخربون ديارهم، ويخرجونهم منها، فإذا أسر رجل من الفريقين كليهما، جمعوا له حتى يفدوه. فتعيرهم العرب بذلك، ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم، وحرّم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنَّا نستحيى أن تُستَذلّ حلفاؤنا[1]. فذلك حين عيَّرهم الله، فقال: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾.

وقال شعبة، عن السدى: نزلت هذه الآية فى قيس بن الخَطيم: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

وقال أسباط، عن السدى، عن عبد خير، قال: غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلى بَلَنْجَرَ[2]، فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة، فلما مرّ برأس الجالوت نزل به، فقال له عبد الله: يا رأس الجالوت، هل لك فى عجوز ههنا من أهل دينك، تشتريها منى؟ قال: نعم. قال: أخذتها بسبعمائة درهم. قال: فإنى أُرْبحُك سبعمائة أخرى. قال: فإنى قد حلفت ألاّ أنقصها من أربعة آلاف. قال: لا حاجة لى فيها، قال: والله لتشترينها منى، أو لتكفرن بدينك الذى أنت عليه. قال: أدن منى، فدنا منه، فقرأ فى أذنه التى فى التوراة: إنك لا تجد مملوكاً من بنى إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾، قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم. قال: فجاء بأربعة آلاف، فأخذ عبد الله ألفين، ورد عليه ألفين.

وقال آدم بن أبى إياس فى تفسيره: حدثنا أبو جعفر يعنى الرازى، حدثنا الربيع بن أنس، أخبرنا أبو العالية: أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة، وهو يفادى من النساء من لم يقع عليها العرب، ولا يفادى من وقع عليها العرب، فقال[3] عبد الله بن سلام: أما إنه مكتوب عندك فى كتابك أن تفاديهن كلهن.

والذى أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق، ذم اليهود فى قيامهم بأمر التوراة التى يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما يكتمونه من صفة رسول الله[4] ﷺ ونعته، ومبعثه ومخرجه، ومهاجره، وغير ذلك من شئونه، التى قد أخبرت بها الأنبياء قبله. واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ جزاء على ما كتموه من كتاب الله الذى بأيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ أى: استحبوها على الآخرة واختاروها ﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ أى: لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلا

---

(١) فى أ، و: «نستذل بحلفاتنا».
(٢) فى جـ: «بكنجر».
(٣) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فقال له».
(٤) فى جـ: «صفة محمد».

هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدى، ولا يجيرهم منه.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) ﴾.

ينعت، تبارك وتعالى، بنى إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب ـ وهو التوراة ـ فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها. وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالى: **﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾** الآية [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال: **﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾** قال السدى، عن أبى مالك: أتبعنا. وقال غيره: أردفنا. والكل قريب، كما قال تعالى: **﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾** [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة فى بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات، وهى: المعجزات. قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام ـ ما يدلهم[١] على صدقه فيما جاءهم به. فاشتد تكذيب بنى إسرائيل له وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة فى البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: **﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾** الآية [آل عمران: ٥٠]. فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام[٢] أسوأ المعاملة، ففريقاً يكذبونه. وفريقاً يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبإلزامهم بأحكام التوراة التى قد تصرفوا فى مخالفتها، فلهذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: **﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾**.

والدليل على أن روح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك [ابن عباس و][٣] محمد بن كعب القرظى، وإسماعيل بن أبى خالد، والسدى، والربيع بن أنس، وعطية العوفى، وقتادة مع قوله تعالى: **﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . [بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ][٤] ﴾** [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥] ما قال البخارى: وقال ابن أبى الزناد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة: إن رسول الله ﷺ وضع لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك»[٥]. وهذا من

---

(١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «يدلهم به».

(٢) فى جـ: «عليهم الصلاة والسلام».

(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٤) زيادة من جـ.

(٥) فى جـ، ط، ب، أ، و: «عن نبيه».

البخارى تعليق[١].

وقد رواه أبو داود فى سننه، عن لُوَين، والترمذى، عن على بن حجر، وإسماعيل بن موسى الفزارى، ثلاثتهم عن عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه وهشام بن عروة، كلاهما عن عروة، عن عائشة به[٢]. وقال الترمذى: حسن صحيح، وهو حديث أبى الزناد[٣].

وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة: أن عمر مر بحسان، وهو ينشد الشعر فى المسجد[٤]، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبى هريرة، فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: أجب عنى، اللهم أيده بروح القدس؟». فقال: اللَّهُمَّ نعم[٥].

وفى بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «أهجهم ـ أو: هاجهم ـ وجبريل معك».

[وفى شعر حسان قوله:

وجبريل رسول الله ينادى وروح القدس ليس به خفاء][٦]

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين المكى، عن شهر بن حوشب الأشعرى: أن نفراً من اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنا عن الروح. فقال: «أنشدكم بالله وبأيامه[٧] عند بنى إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل؟ وهو الذى يأتينى؟» قالوا: نعم[٨].

[وفى صحيح ابن حبان أظنه عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفخ[٩] فى روعى: إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»[١٠]][١١].

أقوال أخر:

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا مِنْجاب بن الحارث، حدثنا بشر، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: هو الاسم الأعظم الذى كان عيسى يُحيى به

---

(١) وكذا عزاه المزى فى تحفة الأشراف (١٢/ ١٠) للبخارى، وقال الحافظ ابن حجر فى «النكت الظراف»: «لم أر هذا الموضع فى صحيح البخارى، وقد وصله أحمد والطبرانى وصححه الحاكم».

(٢) سنن أبى داود برقم (٥٠١٥) وسنن الترمذى برقم (٢٨٤٦).

(٣) فى ط، ب، أ، و: «وهو حديث ابن أبى الزناد».

(٤) فى جـ: «وهو فى المسجد ينشد».

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٢١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٥).

(٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ.

(٧) فى جـ، أ: «وبآياته».

(٨) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢/ ٣٢٠) من طريق سلمة عن ابن إسحاق به.

(٩) فى و: «نفث».

(١٠) ورواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٠٤) من طريق أبى عبيد عن هشيم عن إسماعيل بن أبى خالد عن زبيد اليامى، عمن أخبره، عن ابن مسعود به مرفوعاً.

(١١) زيادة من جـ، ط، ب، و.

الموتى. وقال ابن جرير: حُدثت عن المنجاب. فذكره. قال ابن أبى حاتم: وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك. [ونقله القرطبى عن عبيد بن عمير ـ أيضا ـ قال: وهو الاسم الأعظم](١).

وقال ابن أبى نَجيح: الروح هو حفظة على الملائكة.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس: القدس هو الرب تبارك وتعالى. وهو قول كعب. وقال السدى: القدس: البركة. وقال العوفى، عن ابن عباس: القدس: الطهر.

[وحكى القرطبى عن مجاهد والحسن البصرى أنهما قالا: القدس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل، فعلى هذا يكون القول الأول](٢).

وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد(٣) فى قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً، كلاهما روح من الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ثم قال ابن جرير: وأولى التأويلات فى ذلك بالصواب قولُ من قال: الروح فى هذا الموضع جبريل، لأن الله، عز وجل، أخبر أنه أيد عيسى به، كما أخبر فى قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ الآية [المائدة: ١١٠]. فذكر أنه أيده به، فلو كان الروح الذى أيده به هو الإنجيل، لكان قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ تكرير قول لا معنى له، والله أعز أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به.

قلت: ومن الدليل على أنه جبريل ما تقدم فى أول السياق؛ ولله الحمد(٤).

وقال الزمخشرى ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: بالروح المقدسة، كما يقول: حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فوصفه بالاختصاص والتقريب تكرمة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل، كما قال فى القرآن: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل باسم الله الأعظم الذى كان يحيى الموتى بذكره، وتضمن كلامه قولاً آخر وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة.

وقال الزمخشرى فى قوله: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾: إنما لم يقل: وفريقاً قتلتم؛ لأنه أراد بذلك وصفهم فى المستقبل ـ أيضاً ـ لأنهم حاولوا قتل النبى ﷺ بالسم والسحر، وقد قال، عليه السلام، فى مرض موته: «ما زالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان انقطاع أبهرى»، وهذا الحديث فى صحيح البخارى وغيره(٥).

---

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و. (٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٣) فى جـ: «قال ابن أبى زيد». (٤) فى جـ، ط: «ولله الحمد والمنة».
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٦١٧) وصحيح مسلم برقم (٢١٩٠).

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أى: فى أكنة.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أى: لا تفقه.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [قال][١] : هى القلوب المطبوع عليها.

وقال مجاهد: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾: عليها غشاوة.

وقال عكرمة: عليها طابع. وقال أبو العالية: أى لا تفقه. وقال السدى: يقولون: عليها غلاف، وهو الغطاء.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ هو كقوله: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ [فصلت: ٥].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فى قوله: ﴿ غُلْفٌ ﴾ قال: يقول: قلبى فى غلاف فلا يَخْلُص إليه ما تقول، قرأ[٢]: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ .

وهذا هو الذى رجحه ابن جرير، واستشهد مما روى من حديث عمرو بن مُرّة الجملى، عن أبى البخترى، عن حذيفة، قال: القلوب أربعة. فذكر منها: وقلب أغلف مَغْضُوب عليه، وذاك قلب الكافر.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن العَرْزَمى، أنبأنا أبى، عن جدى، عن قتادة، عن الحسن فى قوله: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال: لم تختن.

هذا [٣]القول يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم، وأنها بعيدة من الخير.

قول آخر:

قال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ قال قالوا: قلوبنا مملوءة علماً لا تحتاج إلى علم محمد، ولا غيره.

وقال عطية العوفى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أى: أوعية للعلم.

وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار[٤]، فيما حكاه ابن جرير: « وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ » بضم اللام، أى: جمع غلاف، أى: أوعية، بمعنى أنهم ادعوا[٥] أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر. كما كانوا يَمُنُّون[٦] بعلم التوراة.

ولهذا قال تعالى: ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾، أى: ليس الأمر كما ادعوا بل

(١) زيادة من جـ، ط. (٢) فى جـ، ط، ب: «وقرأ». (٣) فى جـ، ط، ب: «وهذا».
(٤) فى أ، و: «بعض الأمصار». (٥) فى جـ: «أنهم زعموا». (٦) فى أ: «كما كانوا يكتمون».

قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال فى سورة النساء: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلا ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقد اختلفوا فى معنى قوله: ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله: ﴿ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلا ﴾، فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم [واختاره فخر الدين الرازى وحكاه عن قتادة والأصم وأبى مسلم الأصبهانى](١) وقيل: فقليل إيمانهم. بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم، لأنه مغمور بما كفروا به من الذى جاءهم به محمد ﷺ.

وقال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشىء، وإنما قال: ﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط. تريد: ما رأيت مثل هذا قط. [وقال الكسائى: تقول العرب: من زنى بأرض قلما تنبت، أى: لا تنبت شيئاً](٢).

حكاه(٣) ابن جرير، والله أعلم.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعنى اليهود ﴿ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ وهو: القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعنى: من التوراة، وقوله: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: وقد كانوا من قبل مجىء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبى فى آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، كما قال محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة الأنصارى، عن أشياخ منهم قال: قالوا: فينا والله وفيهم ـ يعنى فى الأنصار ـ وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم، نزلت هذه القصة يعنى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ قالوا(٤): كنا قد علوناهم دهراً فى الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبياً من [الأنبياء](٥) يبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما بعث الله رسوله من قريش [واتبعناه](٦) كفروا به. يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، قال: يستظهرون يقولون: نحن نعين محمداً عليهم، وليسوا كذلك، يكذبون.

(١، ٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٣) فى جـ، ط، ب: «حكاها».

(٤) فى جـ، ط، ب: «قال».

(٥) زيادة من جـ.

(٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

وقال محمد بن إسحاق: أخبرنى محمد بن أبى محمد، أخبرنى عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن يَهود[1] كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن مَعْرُور، أخو بنى سلمة[2]: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفُونه لنا بصفته. فقال سَلاَم بن مِشْكم أخو بنى النضير: ما جاءنا بشىء نعرفه، وما هو بالذى كنا نذكر لكم فأنزل الله فى ذلك من قولهم: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[3].

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يقول: يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركى العرب ـ يعنى بذلك أهل الكتاب ـ فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه.

وقال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركى العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوباً عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمداً ﷺ، ورأوا أنه[4] من غيرهم، كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ؛ فقال الله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾.

وقال قتادة: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال: كانوا يقولون: إنه سيأتى نبى. ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾.

وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ قال: هم اليهود.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، حدثنى صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد، أخى بنى عبد الأشهل عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان من أهل بدر قال: كان لنا جار يهودى فى بنى عبد الأشهل قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث رسول الله ﷺ بيسير، حتى وقف على مجلس بنى عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيهم سناً على بردة مضطجعاً فيها بفناء أصلى. فذكر البعث والقيامة والحسنات والميزان والجنة والنار. قال ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان لا يرون بعثاً كائناً بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم؟ فقال: نعم، والذى يحلف به، لود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبى

(١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «أن يهوداً». (٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وداود بن سلمة».
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٤٧) وتفسير الطبرى (٢/ ٢٣٣).
(٤) فى جـ: «ورأوه».

يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إلىَّ وأنا من أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو بين أظهرنا، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً.

فقلنا: ويلك يا فلان، ألست بالذى قلت لنا؟ قال: بلى وليس به. تفرد به أحمد[١].

وحكى القرطبى وغيره عن ابن عباس، رضى الله عنهما: أن يهود خيبر اقتتلوا فى زمان الجاهلية مع غطفان فهزمتهم غطفان، فدعى اليهود عند ذلك، فقالوا: اللهم إنا نسألك بحق النبى الأمى الذى وعدتنا بإخراجه فى آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم. قال: فنصروا عليهم. قال: وكذلك كانوا يصنعون يدعون الله فينصرون على أعدائهم ومن نازلهم. قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا ﴾ أى من الحق وصفة محمد ﷺ كفروا به فلعنة الله على الكافرين.

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) ﴾.

قال مجاهد: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾: يهودُ شَرَوُا الحقَّ بالباطل، وكتمانَ مَا جاءَ به مُحَمَّد ﷺ بأن يبينوه.

وقال السدى: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يعنى: بئسما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به [وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ إلى تصديقه ومؤازرته ونصرته][٢].

وإنما حملهم على ذلك البغى والحسد والكراهية ﴿ أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ولا حسد أعظم من هذا.

قال ابن إسحاق عن محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عباس: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى: أن الله جعله من غيرهم ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ قال ابن عباس: فالغضب على الغضب، فغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبى الذى أحدث الله إليهم.

قلت: ومعنى ﴿ بَاءُوا ﴾: استوجبوا، واستحقوا، واستقروا بغضب على غضب. وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب عليهم بكفرهم بمحمد، وبالقرآن[٣]، عليهما السلام، [وعن عكرمة وقتادة مثله][٤].

---

(١) المسند (٣/ ٤٦٧).

(٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٣) فى جـ، ط، ب، أ، و: «بكفرهم بمحمد والقرآن».

(٤) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

وقال السدى: أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم فى العِجْل، وأما الغضب الثانى فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ [وعن ابن عباس مثله][(١)].

وقوله: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾: لما كان كفرهم سببه البغى والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، [أى صاغرين حقيرين ذليلين راغمين][(٢)].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا ابن عَجْلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شىء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً فى جهنم، يقال له: بُولَس فيعلوهم نار الأنيار يسقون[(٣)] من طينة الخبال: عصارة أهل النار»[(٤)].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أى: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [أى][(٥)]: على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ أى: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك، ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ يعنى: بما بعده ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ أى: وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق[(٦)] ﴿ مُصَدِّقًا [(٧)]﴾ منصوب على الحال، أى: فى حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦] ثم قال تعالى: ﴿[قُلْ][(٨)] فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى: إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التى بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغياً [وحسداً][(٩)] وعناداً واستكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء، والآراء والتشهى[(١٠)]، كما قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]

(١، ٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٣) فى جـ، ط: «ويسقون».
(٤) المسند (٢/ ١٧٩).
(٥) زيادة من ط، ب، و.
(٦) فى و: «هو الحق».
(٧) فى جـ: «مصدقا لما معهم».
(٨) زيادة من جـ، ط، ب، و.
(٩) زيادة من جـ.
(١٠) فى جـ: «والشهوة».

وقال السدى: فى هذه الآية يعيرهم الله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقال أبو جعفر بن جرير: قل يا محمد، ليهود بنى إسرائيل ـ [الذين][(١)] إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ ـ: لم تقتلون[(٢)] ـ إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم ـ أنبياءه وقد حرم الله فى الكتاب الذى أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيب لهم فى قولهم: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾، وتعيير لهم.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: بالآيات الواضحات[(٣)] والدلائل القاطعة[(٤)] على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله. والبينات هى: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفَلْق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن والسلوى، والحجر، وغير ذلك من الآيات التى شاهدوها ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ أى: معبوداً من دون الله فى زمان موسى وآياته. وقوله: ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى: من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ﴿ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [أى: وأنتم ظالمون][(٥)] فى هذا الصنيع الذى صنعتموه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣) ﴾.

يعدد، تبارك وتعالى، عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه؛ ولهذا قال: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾. وقد تقدم تفسير ذلك.

﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ [بِكُفْرِهِمْ][(٦)]﴾ قال: أشربوا [فى قلوبهم][(٧)] حبه، حتى خلص ذلك إلى قلوبهم. وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عصام بن خالد، حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى، عن خالد بن محمد الثقفى، عن بلال بن أبى الدرداء، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «حُبك

(١) زيادة من ب.
(٢) فى جـ، ط: «تقتلون أنبياء الله من قبل».
(٣) فى جـ، ط، ب: «الواضحة».
(٤) فى أ: «القاطعات».
(٥) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٦، ٧) زيادة من جـ، ط، ب، و.

الشيء يُعْمِي ويُصم».

ورواه أبو داود عن حيوة بن شريح عن بَقِيَّة، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به[١]، وقال السدى: أخذ موسى، عليه السلام، العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في البحر، فلم يبق بحر يجرى يومئذ إلا وقع فيه شيء منه، ثم قال لهم موسى: اشربوا منه. فشربوا، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب. فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل[٢]، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد[٣] وأبي عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي طالب، قال: عمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبرده بها، وهو على شاطئ نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب[٤].

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ قال: لما أحرق العجل بُرِدَ ثم نسف، فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعفران.

وحكى القرطبي عن كتاب القشيرى: أنه ما شرب منه أحد ممن عبد العجل إلاّ جنَّ [ثم قال القرطبي][٥]: وهذا شيء غير ما ههنا؛ لأن المقصود من هذا السياق، أنه ظهر النقير على شفاههم ووجوههم، والمذكور ههنا: أنهم أشربوا في قلوبهم حب العجل، يعنى: في حال عبادتهم له، ثم أنشد قول النابغة في زوجته عثمة:

تغلغل حب عثمة في فؤادى ... فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ... ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها ... أطير لو أن إنساناً يطير

وقوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه، من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ ـ وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمور عليكم ـ إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة، من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتكم العجل؟!

(١) المسند (٥/ ١٩٤) وسنن أبي داود برقم (٥١٣٠).
(٢) في أ: «حدثنا إسماعيل». (٣) في هـ: «عبد الله» وهو خطأ.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٨٢).
(٥) زيادة من أ، و.

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يقول الله لنبيه ﷺ: **﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** أي: ادعوا بالموت علي أي الفريقين أكذب. فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ **﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾** أي: بعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقى على الأرض يهودى إلا مات.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: **﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾**: فسلوا الموت.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجزرى، عن عكرمة، قوله: **﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** قال: قال ابن عباس: لو تمنى اليهود الموت لماتوا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنافسى، حدثنا عثام، سمعت الأعمش ـ قال: لا أظنه إلا عن المِنْهال، عن سعيد بن جبير ـ عن ابن عباس، قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه.

وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس.

وقال ابن جرير فى تفسيره: وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا. ولرأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون[(١)] أهلاً، ولا مالاً». حدثنا بذلك أبو كُرَيْب، حدثنا زكريا بن عدى، حدثنا عبيد الله[(٢)] بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ.

ورواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن زيد[(٣)] الرقى [أبى يزيد][(٤)]، حدثنا فرات، عن عبد الكريم، به[(٥)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أحمد [قال][(٦)]: حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار،

---

(١) فى جـ: «ولا يجدون». (٢) فى أ: «عبد الله».
(٣) فى جـ: «عن إسماعيل عن زيد»، وفى أ، و: «عن إسماعيل بن يزيد».
(٤) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٥) تفسير الطبرى (٢/ ٣٦٢) والمسند (١/ ٢٤٨).
(٦) زيادة من جـ.

حدثنا سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن، قال: قول الله ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم. قلت: أرأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم: تمنوا، أتراهم كانوا ميتين؟ قال: لا، والله ما كانوا ليموتوا لو تمنوا الموت، وما كانوا ليتمنوه، وقد قال الله ما سمعت: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

وهذا غريب عن الحسن. ثم هذا الذى فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله[1] ابن جرير عن قتادة، وأبى العالية، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦ ـ ٨] فهم ـ عليهم لعائن الله ـ لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم، أو من المسلمين. فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد[2] أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم. وهذا[3] كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة، وعتوّهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبىّ لا يبقى منكم عين تطرف. فعند ذلك جنحوا إلى السلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم. وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، رضى الله عنه، أميناً. ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، أى: من كان فى الضلالة منا أو منكم، فزاده الله مما هو فيه ومدّ له، واستدرجه، كما سيأتى تقريره فى موضعه، إن شاء الله[4].

فأما من فسر الآية على معنى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن كنتم صادقين فى دعواكم، فتمنوا الآن الموت. ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول؛ فإنه قال: القول فى تفسير[5] قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه الآية مما احتج الله به لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا

---

(١) فى جـ: «ونقل». (٢) فى أ: «واحد».
(٣) فى جـ: «وهكذا». (٤) فى جـ: «إن شاء الله وبه الثقة».
(٥) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فى تأويله».

بين ظهرانى مُهَاجَره، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم؛ وذلك أن الله أمر نبيه ﷺ إلى قضية عادلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه فى عيسى ابن مريم، عليه السلام، وجادلوه فيه، إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة. فقال لفريق [من][١] اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت، فإن ذلك غير ضار بكم[٢]، إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل أعطيكم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله فى جناته[٣]، إن كان الأمر كما تزعمون: من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا. وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون فى دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك لعلمها[٤] أنها إن تمنت الموت هلكت، فذهبت دنياها وصارت إلى خزى الأبد فى آخرتها، كما امتنع فريق [من][٥] النصارى.

فهذا الكلام منه أوله حسن، وأما آخره ففيه نظر؛ وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون فى دعواهم أن يتمنوا الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت، وَكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترتفع درجته فى الجنة، كما جاء فى الحديث: «خيركم من طال عمره وحسن عمله»[٦] .[وجاء فى الصحيح النهى عن تمنى الموت، وفى بعض ألفاظه: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فلعله أن يزداد، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب»[٧]][٨]. ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فها أنتم تعتقدون ـ أيها المسلمون ـ أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تتمنون فى حال الصحة الموت؛ فكيف تلزمونا بما لا نُلزمكم؟

وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم شيء من ذلك، بل قيل لهم كلام نَصَف: إن كنتم تعتقدون أنكم[٩] أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحبّاؤه، وأنكم أهل الجنة ومن عداكم [من][١٠] أهل النار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فلما تيقَّنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه. فعلم كل أحد باطلهم، وخزيهم، وضلالهم وعنادهم ـ

---

(١) زيادة من جـ.
(٢) فى أ، و: «غير ضايركم».
(٣) فى جـ: «وجنانه».
(٤) فى جـ، ط، ب، أ، و: «لعلمهم».
(٥) زيادة من جـ.
(٦) جاء من حديث عبد الله بن بسر، وأبى بكرة، وأبى هريرة رضى الله عنهم، فأما حديث عبد الله بن بسر، فرواه الترمذى فى السنن برقم (٢٣٢٩) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وأما حديث أبى بكرة، فرواه الترمذى فى السنن برقم (٢٣٣٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأما حديث أبى هريرة، فرواه أحمد فى المسند (٢/ ٢٣٥).
(٧) صحيح البخارى برقم (٥٦٧١) وصحيح مسلم برقم (٢٦٨٠) من حديث أنس رضى الله عنه.
(٨) زيادة من جـ، ب، أ، و.
(٩) فى و: «أنهم».
(١٠) زيادة من أ.

عليهم لعائن الله المتتابعة[١] إلى يوم القيامة.

[وسميت هذه المباهلة تمنياً؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما إذا كان فى ذلك حجة له فيها بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عظيمة عزيزة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت][٢].

ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ** ﴾ أى: [أحرص الخلق على حياة أى][٣]: على طول عُمْر، لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم. وما يحذرون[٤] واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص [الناس][٥] من المشركين الذين لا كتاب لهم. وهذا من باب عطف الخاص على العام.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ قال: الأعاجم.

ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث الثورى، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه. قال: وقد اتفقا على سند تفسير الصحابى[٦].

وقال الحسن البصرى: ﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ** ﴾ قال: المنافق أحرص الناس على حياة، وهو أحرص على الحياة من المشرك ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ** ﴾ أى: أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق.

وقال أبو العالية: ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ** ﴾: يعنى المجوس، وهو يرجع إلى الأول.

﴿ **لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾: قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ قال: هو كقول الفارسى: «زه هزارسال» يقول: عشرة آلاف سنة. وكذا روى عن سعيد بن جبير نفسه أيضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق قال: سمعت أبى يقول: حدثنا أبوحمزة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ قال: هو قول الأعاجم: «هزارسال نوروز مهرجان».

وقال مجاهد: ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ قال: حببت إليهم الخطيئة طول العمر.

---

(١) فى جـ، ط، ب: «التابعة»، وفى أ: «البالغة».
(٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٣) زيادة من جـ، ب، أ، و.
(٤) فى أ: «وما يجدون».
(٥) زيادة من ط.
(٦) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٨٦) والمستدرك (٢/ ٢٦٣).

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أى: ما هو بمنجيه من العذاب. وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة[١] وأن اليهودى قد عرف ما له فى الآخرة من الخزى بما صنع[٢] بما عنده من العلم.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ قال: هم الذين عادوا جبريل.

وقال أبو العالية وابن عمر[٣]: فما ذاك بمغيثه[٤] من العذاب ولا منجيه منه.

وقال عبد الرحمن بن زيد[٥] بن أسلم [فى هذه الآية][٦]: يهود أحرص على [هذه][٧] الحياة من هؤلاء، وقد ود هؤلاء أن[٨] يعمر أحدهم ألف سنة، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عمر، كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى: خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازى كل عامل بعمله.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبرى رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً [على][٩] أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولى لهم، ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك. فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ فى[١٠] أمر نبوته.

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يونس بن بُكَيْر، عن عبد الحميد بن بَهرام، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبى، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لى

---

(١) فى أ: «طول العمر».
(٢) فى ب: «بما ضيع».
(٣) فى جـ، ط، ب: «وإن عمر».
(٤) فى جـ: «لا ذاك بمغنيه».
(٥) فى جـ: «بن يزيد».
(٦) زيادة من جـ، ط، ب، و.
(٧) زيادة من جـ.
(٨) فى ط، ب، أ، و: «هؤلاء لو».
(٩) زيادة من جـ، ط.
(١٠) فى جـ، ط، ب، أ: «من».

ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابِعُنِّى على الإسلام». فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله ﷺ: «سلونى عما شئتم». فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أىّ الطعام حرم(١) إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء(٢) المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى النوم(٣) ووليه من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: «عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنِّى؟» فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. فقال: «نشدتكم(٤) بالذى أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرّمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم(٥) الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها؟». فقالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد(٦) عليهم وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو، الذى أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قال: «وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قالوا: أنت الآن، فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: «فإن وليى جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليُّه». قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليّك سواه من الملائكة تابعناك(٧) وصدقناك. قال: «فما منعكم أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣] فعندها باؤوا بغضب على غضب(٨).

وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده، عن أبى النضر هاشم بن القاسم وعبد بن حميد فى تفسيره، عن أحمد بن يونس، كلاهما عن عبد الحميد بن بَهرام، به(٩).

ورواه الإمام أحمد ـ أيضاً ـ عن الحسين بن محمد المروزى، عن عبد الحميد، بنحوه [به](١٠)(١١).

وقد رواه محمد بن إسحاق بن يسار: حدثنى عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين، عن شهر ابن حوشب، فذكره مرسلا، وزاد فيه: قالوا: فأخبرنا عن الروح. قال: «أنشدكم بالله وبآياته(١٢)

---

(١) فى جـ، ط: «الذى حرم».
(٢) فى جـ: «كيف يكون ماء».
(٣) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فى التوراة».
(٤) فى جـ: «أنشدكم».
(٥) فى جـ: «لحم»، وفى ط، ب، أ، و: «لحمان».
(٦) فى جـ: «اللهم أشهدك».
(٧) فى جـ: «لتابعناك» وفى ط: «بايعناك».
(٨) تفسير الطبرى (٢/ ٣٧٧).
(٩) المسند (١/ ٢٧٨).
(١٠) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(١١) المسند (١/ ٢٧٣).
(١٢) فى ط، ب: «وبأيامه».

عند بنى إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل، وهو الذى يأتينى؟» قالوا: نعم، ولكنه لنا عدو، وهو ملك إنما يأتى بالشدة وسفك الدماء، فلولا ذلك اتبعناك[1]. فأنزل الله فيهم: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد[2]، حدثنا عبد الله بن الوليد العجلى، عن بكير بن شهاب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبى واتبعناك. فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف: ٦٦] قال: «هاتوا». قالوا: أخبرنا عن علامة النبى. قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه». قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف يذكر الرجل؟ قال: «يلتقى الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت»، قالوا: أخبرنا ما[3] حرّم إسرائيل على نفسه. قال: «كان يشتكى عِرْق النَّسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا وكذا» ـ قال أحمد: قال بعضهم: يعنى الإبل، فحرم لحومها ـ قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة الله، عز وجل، موكل بالسحاب بيديه ـ أو فى يده ـ مِخْراق من نار يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمره الله عز وجل». قالوا: فما هذا الصوت الذى نسمعه؟ قال: «صوته». قالوا: صدقت. إنما بقيت واحدة وهى التى نتابعك إن أخبرتنا[4]: إنه ليس من نبى إلا له مَلَك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام»، قالوا: جبريل ذاك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان[5]. فأنزل الله عز وجل: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ إلى آخر الآية.

ورواه الترمذى، والنسائى من حديث عبد الله بن الوليد، به[6]. وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال سُنَيْد فى تفسيره، عن حجاج بن محمد، عن ابن جُرَيْج: أخبرنى القاسم بن أبى بَزَّة أن يهود سألوا النبى ﷺ عن صاحبه الذى ينزل[7] عليه بالوحى. قال: «جبريل». قالوا: فإنه لنا عدو، ولا يأتى إلا بالشدة والحرب والقتال. فنزل: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ الآية. قال ابن جريج: وقال مجاهد: قالت يهود: يا محمد، ما ينزل[8] جبريل إلا بشدة وحرب وقتال، وإنه لنا عدو. فنزل: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ الآية.

وقال البخارى: قوله: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ قال عكرمة: جبر، وميك، وإسراف: عبد. وإيل: الله. حدثنا عبد الله بن منير[9] سمع عبد الله بن بكر[10]، حدثنا حُمَيد، عن أنس بن مالك،

---

(١) فى جـ: «لتبعناك». (٢) فى جـ: «أبو عمر». (٣) فى جـ، ط: «أخبرنا عما».
(٤) فى ب «أخبرتنا بها». (٥) فى جـ: «لكنا تابعناك».
(٦) المسند (١/ ٢٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣١١٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (٩٠٧٢).
(٧) فى أ: «نزل». (٨) فى جـ، ط، أ: «ما نزل».
(٩) فى جـ، ط، ب، أ، و: «ابن نمير». (١٠) فى أ: «ابن بكير».

قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ، وهو فى أرض يخترف. فأتى النبى ﷺ، فقال: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن[1] إلا نبى: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرنى بهن جبريل آنفاً». قال: جبريل؟ قال: «نعم». قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾. «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة [ماء الرجل][2] نزعت». قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك[3] رسول الله. يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهُت، وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتونى[4]. فجاءت اليهود، فقال النبى ﷺ: «أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام». فقالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا. فانتقصوه.

قال[5]: هذا الذى كنت أخاف يا رسول الله.

انفرد به البخارى من هذا الوجه[6]، وقد أخرجاه من وجه آخر، عن أنس بنحوه[7]. وفى صحيح مسلم، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قريب من هذا السياق[8]، كما سيأتى فى موضعه[9].

وحكاية البخارى عن عكرمة ما تقدم هو المشهور أن «إيل» هو الله. وقد رواه سفيان الثورى، عن خَصِيف، عن عكرمة.

ورواه عبد بن حميد، عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة، ورواه ابن جرير، عن الحسين بن يزيد الطحان، عن إسحاق بن منصور، عن قيس، عن عاصم، عن عكرمة، أنه قال: جبريل اسمه عبد الله وميكائيل: عبيد الله. إيل: الله.

ورواه يزيد النحوى، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله سواء. وكذا قال غير واحد من السلف، كما سيأتى قريبا.

---

(١) فى أ: «لا يعرفهن».
(٢) زيادة من جـ.
(٣) فى جـ، ط: «وأن محمداً».
(٤) فى جـ: «بهتونى».
(٥) فى جـ: «فقال».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٠).
(٧) صحيح البخارى برقم (٣٣٢٩) من طريق مروان بن معاوية عن حميد، عن أنس، وصحيح البخارى برقم (٣٩٣٨) من طريق بشر ابن المفضل، عن حميد، عن أنس.
(٨) صحيح مسلم برقم (٣١٥).
(٩) فى جـ: «كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله».

[وقال الإمام أحمد فى أثناء حديث سمرة بن جندب: حدثنا محمد بن سلمة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال: قال لى على بن الحسين: اسم جبريل عبد الله، واسم ميكائيل: عبيد الله](١).

ومن الناس من يقول: «إيل» عبارة عن عبد، والكلمة الأخرى هى اسم الله؛ لأن كلمة «إيل» لا تتغير فى الجميع، فوزانه: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافى، عبد الجليل. فعبد موجودة فى هذا كله، واختلفت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ونحو ذلك، وفى كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف، والله أعلم.

ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب وبينهم فى أمر النبى ﷺ.

ذكر من قال ذلك

حدثنى محمد بن المثنى، حدثنى ربعى بن عُلَيَّة، عن داود بن أبى هند، عن الشعبى، قال: نزل عمر الروحاء، فرأى رجالا يبتدرون أحجاراً يصلون إليها، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا. قال: فكره ذلك. وقال: إنما رسول الله ﷺ أدركته الصلاة بواد فصلاها ثم ارتحل، فتركه. ثم أنشأ يحدثهم، فقال: كنت أشهد اليهود يوم مِدْرَاسهم(٢)، فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان ومن الفرقان كيف يصدق التوراة؟ فبينما أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطاب، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك. قلت: ولم ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا. قلت: إنى آتيكم فأعجب من الفرقان(٣) كيف يصدق التوراة، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان. قال: ومر رسول الله ﷺ فقالوا: يا ابن الخطاب، ذاك صاحبكم فالحق به، قال: فقلت لهم عند ذلك: نشدتكم(٤) بالله الذى لا إله إلا هو، وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه: أتعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا. فقال لهم عالمهم وكبيرهم: إنه قد غَلَّظ عليكم فأجيبوه. فقالوا: فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت. قال: أما إذ نشدتنا بما نشدتنا به فإنا نعلم أنه رسول الله، قال: قلت: ويحكم فأنَّى هلكتم؟! قالوا(٥): إنا لم نهلك(٦). [قال](٧): قلت: كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله [ثم](٨) لا تتبعونه ولا تصدقونه؟ قالوا: إن لنا عدوا من الملائكة وسِلْماً من الملائكة، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة. قال: قلت: ومن عدوكم ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل. قال: قلت: وفيم عاديتم جبريل، وفيم سالمتم ميكائيل؟ قالوا: إن جبريل مَلَك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا.

---

(١) زيادة من جـ، ط. (٢) فى جـ، أ: «يوم مدارستهم». (٣) فى أ، و: «القرآن».
(٤) فى أ: «أنشدكم». (٥) فى جـ: «فقالوا». (٦) فى جـ، ط: «إياكم بهلك».
(٧) زيادة من أ. (٨) زيادة من ط.

قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما عز وجل؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال: قلت: فو [الله][١] الذى لا إله إلا هو، إنهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما ما ينبغى لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدو جبريل. قال: ثم قمت فاتبعت النبى ﷺ فلحقته وهو خارج من خوْخة لبنى فلان، فقال: يا ابن الخطاب، ألا أقرئك آيات نزلن[٢] قبل؟» فقرأ علىّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حتى قرأ هذه الآيات. قال: قلت: بأبى وأمى يا رسول الله، والذى بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر[٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، أنبأنا عامر، قال: انطلق عمر إلى اليهود، فقال: أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى: هل تجدون محمداً فى كتبكم؟ قالوا: نعم. قال: فما يمنعكم أن تتبعوه؟ قالوا: إن الله لم يبعث رسولا[٤] إلا جعل له من الملائكة كفْلا وإن جبريل كَفَل محمدًّا، وهو الذى يأتيه، وهو عدونا من الملائكة، وميكائيل سلمنا؛ لو كان ميكائيل هو الذى يأتيه أسلمنا. قال: فإنى أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى: ما منزلتهما من رب العالمين؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله. قال عمر. وإنى أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله، وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبريل، وما كان جبريل ليسالم عدو ميكائيل. فبينما هو عندهم إذ مر النبى ﷺ فقالوا: هذا صاحبك يا ابن الخطاب: فقام إليه عمر، فأتاه، وقد أنزل الله، عز وجل، عليه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾[٥].

وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعبى حدث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر، فإنه لم يدرك وفاته[٦]، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا بشر[٧]، حدثنا يزيد بن زُرَيع، عن سعيد، عن قتادة، قال: ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود. فلما أبصروه[٨] رحبوا به، فقال لهم عمر: أما والله ما جئت لحبكم ولا للرغبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم. فسألهم وسألوه. فقالوا: من صاحب صاحبك[٩]؟ فقال لهم: جبريل. فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء، يُطلع محمداً على سرنا، وإذا جاء جاء الحرب والسَّنة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء الخصب والسلم. فقال لهم عمر: هل تعرفون جبريل وتنكرون محمداً ﷺ؟ ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبى ﷺ،

---

(١) زيادة من جـ، ب، أ، و.
(٢) فى جـ: «نزلت».
(٣) تفسير الطبرى (٢/ ٣٨٢).
(٤) فى جـ: «نبيا رسولا».
(٥) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٩٠).
(٦) فى جـ، ط، ب، أ، و: «زمانه».
(٧) فى أ: «محمد بن بشر».
(٨) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فلما انصرف».
(٩) فى أ، و: «صاحبكم».

ليحدثه حديثهم، فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية: ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾[١].

ثم قال: حدثنى المثنى، حدثنا آدم، حدثنا أبو جعفر عن قتادة، قال: بلغنا أن عمر أقبل إلى اليهود يوماً، فذكر نحوه. وهذا ـ أيضاً ـ منقطع، وكذلك رواه أسباط، عن السدى، عن عمر مثل هذا أو نحوه، وهو[٢] منقطع أيضاً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن ـ يعنى الدَّشْتكى ـ حدثنا أبو جعفر، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن يهوديا أتى[٣] عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذى يذكر صاحبكم عدو لنا. فقال عمر: ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ** ﴾، قال: فنزلت على لسان عمر، رضى الله عنه[٤].

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حصين بن عبد الرحمن، عن ابن أبى ليلى فى قوله: ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ** ﴾ قال: قالت اليهود للمسلمين: لو أن ميكائيل كان الذى ينزل عليكم لتبعناكم، فإنه ينزل بالرحمة والغيث، وإن جبريل ينزل بالعذاب والنقمة، فإنه لنا عدو[٥]. قال: فنزلت هذه الآية.

حدثنى يعقوب قال: حدثنا هُشَيْم، أخبرنا عبد الملك، عن عطاء، بنحوه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة فى قوله: ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ** ﴾ قال: قالت اليهود: إن جبريل عدونا، لأنه ينزل بالشدة والسَّنَة، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب، فجبريل عدونا. فقال الله تعالى: ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ** ﴾ [الآية][٦].

وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ أى: من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك، فهو رسول من رسل الله مَلَكى [عليه وعلى سائر إخوانه من الملائكة السلام][٧] ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً. أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] فحكم عليهم بالكفر المحقّق، إذْ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم[٨]، وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله؛

---

(١) تفسير الطبرى (٢/ ٣٨٣).

(٢) فى أ: «وهذا». (٣) فى جـ، ط، ب، أ، و: «لقى».

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٩١) وهذا منقطع، ابن أبى ليلى لم يدرك عمر.

(٥) فى جـ: «فإنه عدونا». (٦، ٧) زيادة من جـ.

(٨) فى أ: «وكفروا ببعض».

لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه كما قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤]. وقد روى البخارى فى صحيحه، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب»[1]. ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه، فقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: منَ الكتب المتقدمة ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين. كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾، يقول تعالى: من عادانى وملائكتى ورسلى ـ ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ[2]﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا فى الملائكة، ثم[3] عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق فى الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل فى اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم أنه من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً؛ لأنه ـ أيضاً ـ ينزل على الأنبياء بعض الأحيان، كما قُرن[4] برسول الله ﷺ فى ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهى وظيفته، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، هذاك بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالصور للنفخ للبعث يوم[5] القيامة؛ ولهذا جاء فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول[6]: «اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل[7] فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم»[8]. وقد تقدم ما حكاه البخارى، ورواه ابن جرير[9] عن عكرمة أنه قال: جبر، وميك، وإسراف: عُبَيد. وإيل: الله.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٠٢).

(٢) فى جـ، ط، ب: «وميكائيل».
(٣) فى أ: «فى».

(٤) فى أ: «كما مر».
(٥) فى ط، ب: «ليوم».

(٦) فى جـ، ط: «قال».
(٧) فى جـ، ط، ب: «رب جبريل وميكائيل وإسرافيل».

(٨) صحيح مسلم برقم (٧٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٩) فى ب: «وغيره».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن سفيان، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير[١] مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: إنما قوله: «جبريل» كقوله: «عبد الله» و «عبد الرحمن». وقيل[٢]: جبر: عبد. وإيل: الله.

وقال محمد بن إسحاق، عن الزهرى، عن على بن الحسين، قال: أتدرون[٣] ما اسم جبرائيل[٤] من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبد الله، قال: فتدرون ما اسم ميكائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبيد الله[٥]. وكل اسم مرجعه إلى «يل»[٦] فهو إلى الله.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد وعكرمة والضحاك ويحيى بن يعمر نحو ذلك. ثم قال: حدثنى أبى، حدثنا أحمد بن أبى الحَوَارِى، حدثنى عبد العزيز بن عمير قال: اسم جبريل فى الملائكة خادم الله. قال: فحدثت[٧] به أبا سليمان الدارانى، فانتفض وقال: لهذا الحديث أحبّ إلىَّ من كل شىء [وكتبه] [٨]فى دفتر كان بين يديه.

وفى جبريل وميكائيل لغات وقراءات، تذكر فى كتب اللغة والقراءات، ولم نطوّل كتابنا هذا بسَرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه، أو يرجع الحكم فى ذلك إليه، وبالله الثقة، وهو المستعان.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾: فيه إيقاع المظهر مكان المضمر حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين. بل قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾، كما قال الشاعر:

لا أرى الموتَ يسبق[٩] الموتَ شىء نَغَّص[١٠] الموتُ ذا الغنى والفقيرا

وقال آخر:

ليتَ الغرابَ غداة ينعَبُ[١١] دائبا كان الغرابُ مقطَّع الأوداج[١٢]

وإنما أظهر الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى أولياء الله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما تقدم الحديث: «من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالحرب». وفى الحديث الآخر: «إنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب». وفى الحديث الصحيح: «وَمَن كنتُ خَصمَه خَصَمتُه».

---

(١) فى أ: «عمر».
(٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وقال».
(٣) فى جـ، ط، ب، أ، و: «تدرون».
(٤) فى جـ، ط، ب: «جبريل».
(٥) فى جـ: «عبد الله».
(٦) فى أ، و: «إيل».
(٧) فى جـ: «فحدث».
(٨) زيادة من جـ.
(٩) فى جـ: «سوى».
(١٠) فى جـ، ط، ب: «سبق»، وفى أ: «مسبق» وفى و: «يسبق».
(١١) فى جـ: «ينعق».
(١٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ٣٩٦) وهو لجرير بن عطية.

﴿ولَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات [دلالات][1] على نبوتك، وتلك الآيات هى ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أحبارُهم وعلماؤهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم، التى كانت فى التوراة. فأطلع الله فى كتابه الذى أنزله إلى نبيه محمد ﷺ؛ فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يَدْعُه إلى هلاكها الحسد[2] والبغى، إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديقُ من أتى بمثل[3] ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التى وَصَفَ، من غير تعلم تعلمه من بَشَرِىٍّ[4] ولا أخذ شيئاً[5] منه عن آدمى. كما قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمى لا تقرأ[6] كتاباً، وأنت تخبرهم بما فى أيديهم على وجهه. يقول الله: فى ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال ابن صُوريا الفطْيُونى لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشىء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك. فأنزل الله فى ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٢) فى جـ: «هلاكه بالحسد».
(٣) فى جـ: «تصديق ذلك من أن يمثل».
(٤) فى جـ: «من بشر».
(٥) فى جـ، ط، ب: «شىء» وهو خطأ.
(٦) فى جـ، ط، ب: «لم تقرأ».

بهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾. وقال مالك بن الصيف ـ حين بُعث رسولُ الله ﷺ وذكرهم[١] ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ[٢]: والله ما عَهد إلينا في محمد ﷺ ولا أخذ [له][٣] علينا ميثاقاً. فأنزل الله: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾.

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: نَعَم، ليس في الأرض عَهْدٌ يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم ،وينقضون غداً.

وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ. وقال قتادة: ﴿نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: نقضه فريق منهم.

وقال ابن جرير: أصل النبذ: الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط: منبوذاً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء. قال أبو الأسود الدؤلي:

نظرتَ إلى عنوانه فنبذتَه   كنبذك نَعْلا أخْلقَتْ من نعَالكا[٤]

قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم اللهُ إليهم في التمسك بها والقيام بحقها. ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعتُه وصفتُه وأخبارُه، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ومناصرته، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وقال ههنا: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي: اطَّرَحَ طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم، مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أي: تركوها، كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه. ولهذا أرادوا كيْداً برسول الله ﷺ وسَحَروه في مُشْط ومُشَاقة وجُفّ طَلْعَة ذَكر، تحت راعوثة بئر ذي أروان. وكان الذي تولى ذلك منهم رجل، يقال له: لبيد بن الأعصم، لعنه الله؛ فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ، وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، كما سيأتي بيانه[٥].

قال[٦] السدي: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قال: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال قتادة في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم، وكتموه وجحدوا به.

---

(١) في أ: «وما ذكر لهم».

(٢) في أ: «وما عهد الله إليهم فيه».   (٣) زيادة من أ.

(٤) البيت في تفسير الطبري (٢/ ٤٠١).

(٥) في جـ: «كما سيأتي بيانه إن شاء الله وبه الثقة»، وفي أ: «كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى».

(٦) في جـ، ط: «وقال».

وقال العوفى فى تفسيره، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**﴾: وكان حين ذهبَ مُلْكُ سليمان ارتد فِئَامٌ من الجن والإنس واتبعوا الشهوات، فلما رجع[١] اللهُ إلى سليمان ملكَه، وقام الناس على الدين كما كان أوان سليمان، ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه، وتوفى سليمان، عليه السلام، حدثان ذلك، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل[٢] على سليمان وأخفاه عنا فأخذوا به فجعلوه ديناً. فأنزل الله: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ واتبعوا الشهوات، [أى][٣]: التى كانت [تتلو الشياطين][٤]، وهى المعازف واللعب وكل شىء يصد عن ذكر الله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم «الأعظم»، وكان يكتب كل شىء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجه[٥] الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذى كان سليمان يعمل بها[٦]. قال: فأكفره جُهَّالُ الناس وسبّوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونه، حتى أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**﴾[٧].

وقال ابن جرير: حدثنى أبو السائب سلم[٨] بن جنادة السوائى، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كان سليمان، عليه السلام، إذا أراد أن يدخل الخلاء، أو يأتى شيئاً من نسائه، أعطى الجرادة ـ وهى امرأة ـ خاتمه. فلما أراد الله أن يبتلى سليمان، عليه السلام، بالذى ابتلاه به، أعطى الجرادة ذات يوم خاتَمه، فجاء[٩] الشيطان فى صورة سليمان فقال لها: هاتى خاتمى. فأخذه فلبسه. فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس. قال: فجاءها سليمان، فقال: هاتى خاتمى فقالت: كذبت، لست سليمان. قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتلى به. قال: فانطلقت الشياطين فكتبت فى تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر، ثم دفنوها تحت كرسى سليمان، ثم أخرجوها وقرؤوها[١٠] على الناس، وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب. قال: فبرئَ الناس من سليمان، عليه السلام، وأكفروه حتى بعث الله محمداً ﷺ وأنزل عليه: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**﴾.

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمران،

---

(١) فى جـ: «فلما أرجع».
(٢) فى جـ: «أنزل».
(٣) زيادة من جـ.
(٤) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٥) فى جـ، ط، أ، و: «أخرجته».
(٦) فى هـ: «به»، والصواب ما أثبتناه من جـ، ط، ب، أ، و.
(٧) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٩٧).
(٨) فى جـ، ط، ب: «مسلم».
(٩) فى جـ: «فجاءها».
(١٠) فى جـ، ط، ب، أ: «فقرؤوها».

وهو ابن الحارث قال: بينا نحن عند ابن عباس ـ رضى الله عنهما[١] ـ إذ جاء[٢] رجل فقال له: مِنْ أين جئت؟ قال: من العراق. قال: من أيه؟ قال: من الكوفة. قال: فما الخبر؟ قال: تركتهم يتحدثون أن عليا خارج إليهم. ففزع ثم قال: ما تقول؟ لا أبا لك! لو شعرنا ما نكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه، أما إنى سأحدثكم[٣] عن ذلك: إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء، فيجيء أحدهم بكلمة حق قد سمعها، فإذا جُرِّبَ منه صدق كذب معها سبعين كذْبة، قال: فَتَشْرَبُهَا قلوب الناس. فأطلع الله عليها سليمان، عليه السلام، فدفنها تحت كرسيه. فلما توفى سليمان، عليه السلام، قام شيطانُ الطريق، فقال: أفلا أدلكم على كنزه المُمَنَّع[٤] الذى لا كنز له مثله؟ تحت الكرسى. فأخرجوه، فقالوا: هذا سحره[٥] فتناسخها الأمم ـ حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق ـ وأنزل الله عز وجل[٦]: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**﴾.

ورواه الحاكم فى مستدركه، عن أبى زكريا العَنْبرى، عن محمد بن عبد السلام، عن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير، به[٧].

وقال السدى فى قوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ أى: على عهد سليمان. قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتقعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون فى الأرض من موت أو غيب[٨] أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم. فتحدِّث الكهنة الناسَ فيجدونه كما قالوا. حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم. وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتتب الناسُ ذلك الحديثَ فى الكتب، وفشا فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب. فبُعث سليمانُ فى الناس فجمع تلك الكتب فجعلها فى صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه. ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى إلا احترق. وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه. فلما مات سليمان، عليه السلام، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف بعد ذلك خَلْف تمثل شيطان فى صورة إنسان، ثم أتى نفراً من بنى إسرائيل، فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسى. وذهب معهم وأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: فَادْنُ. قال[٩]: لا ولكننى هاهنا فى أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلونى. فحفروا فوجدوا تلك الكتب. فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين[١٠] والطير بهذا السحر. ثم طار وذهب. وفشا فى الناس أن سليمان كان

---

(١) فى ط: «عنه».
(٢) فى ط، ب، أ، و: «إذ جاءه».
(٣) فى جـ، ط: «سأحدثك».
(٤) فى جـ: «الممتنع».
(٥) فى ب، أ، و: «هذا سحر».
(٦) فى جـ: «الله تعالى».
(٧) تفسير الطبرى (٢/ ٤١٥) والمستدرك (٢/ ٢٦٥).
(٨) فى جـ: «أو عبس».
(٩) فى جـ: «فقال».
(١٠) فى جـ: «والجن».

ساحراً. واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها[١]؛ فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**﴾.

وقال الربيع بن أنس: إن اليهود سألوا محمداً ﷺ زماناً عن أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله تعالى عليه ما سألوه عنه، فيخصمهم[٢]، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا. وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾. وإن الشياطين عَمَدوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك، فدفنوه تحت مجلس سليمان، وكان [سليمان][٣]، عليه السلام، لا يعلم الغيب. فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس، وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد[٤] الناس عليه. فأخبرهم النبى ﷺ بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد حزنوا، وأدحض الله حجتهم.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ قال: كانت الشياطين تستمع[٥] الوحى فما سمعوا من كلمة [إلا][٦] زادوا فيها مائتين مثلها. فأرسل سليمان، عليه السلام، إلى ما كتبوا من ذلك. فلما توفى سليمان وجدته الشياطين فعلمته الناس [به][٧]، وهو السحر.

وقال سعيد بن جبير: كان سليمان، عليه السلام، يتتبع ما فى أيدى الشياطين من السحر فيأخذه منهم، فيدفنه تحت كرسيه فى بيت خزانته، فلم يقدر الشياطين أن يصلوا إليه، فدبَّت[٨] إلى الإنس، فقالوا لهم: أتدرون ما العلم[٩] الذى كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم. قالوا: فإنه فى بيت خزانته وتحت كرسيه. فاستثار به[١٠] الإنسُ واستخرجوه فعملوا[١١] بها. فقال أهل الحجا: كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر. فأنزل الله تعالى على [لسان][١٢] نبيه محمد ﷺ براءة سليمان، عليه السلام، فقال: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**﴾.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار[١٣]: عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود، عليه السلام[١٤]، فكتبوا أصناف السحر: «من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليقل كذا وكذا». حتى إذا صنفوا أصناف السحر جعلوه فى كتاب. ثم ختموا بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا فى

(١) فى جـ: «بهذا».
(٢) فى جـ: «فيخصهم».
(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٤) فى جـ: «ويحشر»، وفى ط: «ففسد».
(٥) فى جـ، ط، أ، و: «تسمع».
(٦) زيادة من أ.
(٧) زيادة من ط.
(٨) فى جـ، ب، أ، و: «فدنت».
(٩) فى جـ: «أن العلم».
(١٠) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فاستثارته».
(١) فى جـ: «فعلموا».
(١٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(١٣) فى جـ، ط: «بشار».
(١٤) فى جـ، ب: «عليهما السلام».

عُنْوانه: «هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود، عليهما السلام[١] ،من ذخائر كنوز العلم». ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته[٢] بعد ذلك بقايا بنى إسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا. فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان سليمان بن داود إلا بهذا. فأفشوا السحر فى الناس [وتعلموه وعلموه][٣]. وليس هو فى أحد أكثر[٤] منه فى اليهود لعنهم الله. فلما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله، سليمان بن داود، وعده فيمن عَدَّه من المرسلين، قال من كان بالمدينة من يهود: ألا تعجبون من محمد! يزعم أن ابن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحراً. وأنزل الله [فى][٥] ذلك من قولهم: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا** ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثنا الحجاج[٦]، عن أبى بكر، عن شَهْر بن حَوشب، قال: لما سلب سليمان، عليه السلام، ملكه، كانت الشياطين تكتب السحر فى غيبة سليمان. فكتبت: «من أراد أن يأتى كذا وكذا فليستقبل الشمس، وليقل كذا كذا[٧]، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا. فكتبته وجعلت عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان [بن داود][٨] من ذخائر كنوز العلم». ثم دفنته تحت كرسيه. فلما مات سليمان، عليه السلام، قام إبليس، لعنه الله، خطيباً، [ثم][٩] قال: يا أيها الناس، إن سليمان لم يكن نَبيّا، إنما كان ساحراً، فالتمسوا سحره فى متاعه وبيوته. ثم دلهم على المكان الذى دفن فيه. فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحراً! هذا[١٠] سحره، بهذا تَعبدنا، وبهذا قهرنا. وقال المؤمنون: بل كان نبياً مؤمناً. فلما بعث الله النبى ﷺ جعل يذكر الأنبياء حتى ذكر داود وسليمان. فقالت اليهود [لعنهم الله][١١]: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل. يذكر سليمان مع الأنبياء. إنما كان ساحراً يركب الريح، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ** ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعانى، قال: حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت عمران بن حُدَير، عن أبى مِجْلَز، قال: أخذ سليمان، عليه السلام، من كل دابة عهداً، فإذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد، خلى عنه. فزاد الناس السجع والسحر، وقالوا: هذا يعمل به

(١) فى ط: «عليه السلام».
(٢) فى ط: «واستخرجه».
(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٤) فى جـ: «أكبر».
(٥) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٦) فى جـ، ط، ب، أ، و: «حجاج».
(٧) فى جـ، ط، ب، أ، و: «كذا وكذا».
(٨) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٩) زيادة من جـ.
(١٠) فى جـ: «وهذا».
(١١) زيادة من جـ.

سليمان. فقال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[1].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عصام بن روّاد، حدثنا آدم، حدثنا المسعودى، عن زياد مولى ابن مصعب، عن الحسن: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾ قال: ثلث الشعر، وثلث السحر، وثلث الكهانة.

وقال: حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار الواسطى، حدثنى سُرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾: واتبعته اليهود على ملكه. وكان السحر قبل ذلك فى الأرض لم يزل بها، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان.

فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف فى هذا المقام، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها، وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفَهِم، والله الهادى. وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أى: واتبعت اليهود ـ الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذى بأيديهم ومخالفتهم الرسول محمدا ﷺ ـ ما تتلو[2] الشياطين، أى: ما ترويه وتخبر به وتُحدثه الشياطين على ملك سليمان. وعداه بعلى؛ لأنه ضمن تتلو: تكذب. وقال ابن جرير: «على»[3] ههنا بمعنى «فى»، أى: تتلو فى ملك سليمان. ونقله عن ابن جُريج، وابن إسحاق.

قلت: والتضمين أحسن وأولى، والله أعلم.

وقول الحسن البصرى، رحمه الله: «قد كان السحر قبل زمان[4] سليمان بن داود» صحيح لا شك فيه؛ لأن السحرة كانوا فى زمان[5] موسى، عليه السلام، وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٦]، ثم ذكر القصة بعدها، وفيها: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال قوم صالح ـ وهم قبل إبراهيم الخليل،عليه السلام ،لنبيهم صالح: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أى: [من][6] المسحورين على المشهور.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾: اختلف الناس فى هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن « ما » نافية، أعنى التى فى قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾.قال القرطبى: « ما » نافية ومعطوفة على قوله: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾، ثم قال: ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ﴾ أى: السحر ﴿ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ وذلك أن اليهود ـ لعنهم الله ـ كانوا يزعمون أنه نزل

(١) تفسير الطبرى (٢/ ٤١٤).
(٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «ما تتلوه». (٣) فى جـ، ط: «وعلى».
(٤) فى جـ، ط، ب، أ، و: «قبل زمن».
(٥) فى جـ: «زمن».
(٦) زيادة من جـ، ط.

به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله في ذلك وجعل قوله: ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ بدلاً من: ﴿ الشَّيَاطِينَ﴾ قال: وصح ذلك، إما لأن الجمع قد يطلق على الاثنين كما في قوله: ﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ [النساء: ١١]، أو يكون لهما اتباع أو ذكراً من بينهم لتمردهما، فتقدير الكلام عنده: تعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت، ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه.

وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفى، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ يقول: لم ينزل الله السحر. وبإسناده، عن الربيع بن أنس، في قوله: ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ قال: ما أنزل الله عليهما السحر.

قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروتَ. فيكون قوله: ﴿ بِبَابِلَ هَارُوتَ [وَمَارُوتَ](١)﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم. قال: فإن قال لنا قائل: وكيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ «من السحر» ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ وما أنزل الله «السحر» على الملكين، ﴿ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ ببابل هاروت وماروت فيكون معنيا بالملكين: جبريل وميكائيل، عليهما السلام؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان، عليه السلام، مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان، اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس، ورداً عليهم.

هذا لفظه بحروفه(٢).

وقد قال ابن أبي حاتم: حُدِّثت عن عُبَيد الله بن موسى، أخبرنا فضيل بن مرزوق، عن عطية ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ قال: ما أنزل الله على جبريل وميكائيل السحر.

حدثنا(٣) الفضل بن شاذان، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا يعلى ـ يعني ابن أسد ـ حدثنا بكر(٤) ـ يعني ابن مصعب ـ حدثنا الحسن بن أبي جعفر: أن عبد الرحمن بن أبزى كان يقرؤها: «وما أنزل على الملكين داود وسليمان».

وقال أبو العالية: لم ينزل عليهما السحر، يقول: عَلِما الإيمان والكفر، فالسحر من الكفر، فهما ينهيان عنه أشد النهي. رواه ابن أبي حاتم.

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٢) تفسير الطبري (٢/ ٤١٩، ٤٢٠).
(٣) في و: «وقال ابن أبي حاتم: حدثنا».
(٤) في جـ، ط، ب: «بكير».

ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول، وأن «ما» بمعنى الذى، وأطال القول فى ذلك، وادعى(١) أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض، وأذن لهما فى تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً، بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان فى تعليم ذلك؛ لأنهما امتثلا ما أمرا به.

وهذا الذى سلكه غريب جداً! وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن [كما زعمه ابن حزم](٢)!

وروى ابن أبى حاتم بإسناده. عن الضحاك بن مزاحم: أنه كان يقرؤها: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ ويقول: هما علجان من أهل بابل.

وَوَجَّه أصحابُ هذا القول الإنزال بمعنى الخَلْق، لا بمعنى الإيحاء، فى قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣]. وفى الحديث: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء». وكما يقال: أنزل الله الخير والشر.

[وحكى القرطبى عن ابن عباس وابن أبزى والضحاك والحسن البصرى: أنهم قرؤوا: «وما أنزل على الملكين» بكسر اللام. قال ابن أبزى: وهما داود وسليمان. قال القرطبى: فعلى هذا تكون «ما» نافيه أيضاً](٣).

وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [و«ما» نافية](٤)، قال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا الليث، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، وسأله رجل عن قول الله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ قال الرجل: يعلمان الناس السحر، ما أنزل عليهما(٥)، أو يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أبالى أيتهما كانت.

ثم روى عن يونس، عن أنس بن عياض، عن بعض أصحابه: أن القاسم قال فى هذه القصة: لا أبالى أىّ ذلك كان، إنى آمنت به.

وذهب كثيرون من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان. وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد فى مسنده كما سنورده إن شاء الله تعالى. وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ثبت من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق فى علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصاً لهما، فلا تعارض حينئذ، كما سبق فى علمه من أمر إبليس

---

(١) فى جـ: «وادعى على». (٢، ٣) زيادة من جـ، ط.
(٤) زيادة من جـ، ط، ب، و.
(٥) فى جـ: «إليهما».

ما سبق، وفي قول: إنه كان من الملائكة، لقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ** ﴾ [طه: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. مع أن شأن هاروت وماروت ـ على ما ذكر ـ أخف مما وقع من إبليس لعنه الله.

[وقد حكاه القرطبي عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وكعب الأحبار، والسدي، والكلبي](١).

ذكر الحديث الوارد في ذلك ـ إن صح سنده ورفعه ـ وبيان الكلام عليه:

قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، في مسنده: حدثنا يحيى بن [أبي](٢) بُكَير، حدثنا زهير ابن محمد، عن موسى بن جبير، عن نافع، عن عبد الله بن عمر: أنه سمع نبي الله ﷺ يقول: «إن آدم ـ عليه السلام ـ لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة: أي رب(٣)، ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٣٠]، قالوا: ربَّنا، نحن أطوع لك من بني آدم. قال الله تعالى للملائكة: هَلُموا مَلَكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض، فننظر كيف يعملان؟ قالوا: بربِّنا، هاروتَ وماروتَ. فأهبطا إلى الأرض ومُثلت لهما(٤) الزُّهَرَة امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك. فقالا: والله(٥) لا نشرك بالله شيئاً أبداً. فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي. فقالا: لا، والله لا نقتله أبداً. ثم ذهبت فرجعت(٦) بقَدَح خَمْر تحمله، فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر. فشربا فسكرا، فوقعا عليها، وقتلا الصبي. فلما أفاقا قالت المرأة: والله ما تركتما شيئاً أبيتماه عليَّ إلا قد(٧) فعلتماه حين سكرتما. فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا».

وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه، عن الحسن بن سفيان، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يحيى بن أبي بكير، به(٨).

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين، إلا موسى بن جبير هذا، وهو الأنصاري السلمي مولاهم المديني الحذاء، رَوَى عن ابن عباس وأبي أمامة بن سهل ابن حنيف، ونافع، وعبد الله بن كعب بن مالك. وروى عنه ابنه عبد السلام، وبكر بن مضر، وزهير بن محمد، وسعيد بن سلمة، وعبد الله بن لَهِيعة، وعمرو بن الحارث، ويحيى بن أيوب. وروى له أبو داود، وابن ماجه، وذكره ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل، ولم يحك فيه شيئاً

---

(١) زيادة من جـ، ط. (٢) زيادة من ط.
(٣) في جـ: «يارب». (٤) في جـ: «لهم».
(٥) في جـ، ط: «لا والله». (٦) في جـ، ط. ب: «فذهبت ثم رجعت».
(٧) في جـ: «وقد».
(٨) المسند (٢/ ١٣٤) وصحيح ابن حبان برقم (١٧١٧) «موارد» وقال أبو حاتم في العلل (٢/ ٦٩): «هذا حديث منكر».

من هذا ولا هذا، فهو مستور الحال[١]، وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر، عن ابن عمر عن النبى ﷺ. وروى له متابع من وجه آخر عن نافع، كما قال ابن مردويه: حدثنا دَعْلَجُ بن أحمد، حدثنا هشَام [ابن على بن هشام][٢]، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثنا موسى بن سَرْجِس، عن نافع، عن ابن عمر: سمع النبى ﷺ يقول. فذكره بطوله.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين ـ وهو سُنَيْد بن داود صاحب التفسير ـ حدثنا الفرج بن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن نافع، قال: سافرت مع ابن عمر، فلما كان من آخر الليل قال: يا نافع، انظر، طلعت الحمراء؟ قلت: لا ـ مرتين أو ثلاثاً ـ ثم قلت: قد طلعت. قال: لا مرحباً بها ولا أهلا؟ قلت: سبحان الله! نجم مسَخَّر سامع مطيع. قال: ما قُلت لك إلا ما سمعتُ من رسول الله ﷺ ـ أو قال: قال لى رسول الله ﷺ ـ: «إن الملائكة قالت: يارب، كيف صبرك على بنى آدم فى الخطايا[٣] والذنوب؟ قال: إنى ابتليتهم وعافيتكم. قالوا: لو كنا مكانهم ما عصيناك. قال: فاختاروا ملكين منكم. قال: فلم يألوا جهداً أن يختاروا، فاختاروا هاروت وماروت»[٤].

وهذان ـ أيضاً ـ غريبان جداً. وأقرب ما فى هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر، عن كعب الأحبار، لا عن النبى[٥] ﷺ، كما قال عبد الرزاق فى تفسيره، عن الثورى، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن ابن عمر، عن كعب، قال[٦]: ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم، وما يأتون من الذنوب، فقيل لهم: اختاروا منكم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت. فقال[٧] لهما: إنى أرسل إلى بنى آدم رسلا، وليس بينى وبينكم رسول، أنزلا لا تشركا بى شيئاً ولا تزنيا ولا تشربا الخمر. قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذى أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه.

ورواه ابن جرير من طريقين، عن عبد الرزاق، به[٨].

ورواه ابن أبى حاتم، عن أحمد بن عصام، عن مُؤَمَّل، عن سفيان الثورى، به[٩].

ورواه ابن جربر أيضاً: حدثنى المثنى، حدثنا المعلى ـ وهو ابن أسد ـ حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن موسى بن عقبة، حدثنى سالم أنه سمع عبد الله يحدث، عن كعب الأحبار، فذكره[١٠].

فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت فى أبيه من مولاه

---

(١) الجرح والتعديل (٨/ ١٣٩) وذكره ابن حبان فى الثقات (٧/ ٤٥١) وقال: «يخطئ ويخالف».

(٢) زيادة من جـ، ط، و. (٣) فى ط، ب: «الخطأ».

(٤) تفسير الطبرى (٢/ ٤٣٣).

(٥) فى جـ: «رسول الله». (٦) فى ط: «وقال».

(٧) فى جـ، ط، ب، و: «فقيل».

(٨) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧٣، ٧٤) وتفسير الطبرى (٢/ ٤٢٩).

(٩) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٠٦).

(١٠) تفسير الطبرى (٢/ ٤٣٠).

نافع. فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار، عن كتب بنى إسرائيل، والله أعلم.

ذكر الآثار الواردة فى ذلك عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين:

قال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا الحجاج[١]، حدثنا حماد، عن خالد الحذاء، عن عمير بن سعيد، قال: سمعت علياً، رضى الله عنه، يقول: كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس، وإنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت، فراوداها[٢] عن نفسها، فأبت عليهما إلا أن يعلماها الكلام الذى إذا تكلَّم [المتكلم] [٣]به يُعْرج به إلى السماء. فعلماها فتكلمت به فعرجت إلى السماء. فمسخت كوكباً!

وهذا الإسناد [جيد و] [٤]رجاله ثقات، وهو غريب جداً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا أبو معاوية، عن [ابن أبى][٥] خالد، عن عمير بن سعيد، عن على قال: هما ملكان من ملائكة السماء. يعنى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾[٦].

ورواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسيره بسنده، عن مغيث، عن مولاه جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن على ـ مرفوعاً. وهذا لا يثبت من هذا الوجه.

ثم رواه من طريقين آخرين، عن جابر، عن أبى الطفيل، عن على، قال: قال رسول الله ﷺ: لعن الله الزهرة، فإنها هى التى فتنت الملكين هاروت وماروت». وهذا أيضاً لا يصح[٧]، وهو منكر جداً. والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى بن إبراهيم، حدثنا الحجاج بن مِنْهال، حدثنا حماد، عن على بن زيد، عن أبى عثمان النَّهدى، عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا جميعاً: لما كثر[٨] بنو آدم وعصوا، دعت الملائكة عليهم والأرض والجبال ربنا لا تهلكهم[٩] فأوحى الله إلى الملائكة: إنى أزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم، ولو نزلتم لفعلتم أيضاً. قال: فحدثوا أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا، فأوحى الله إليهم أن اختارُوا ملكين من أفضلكم. فاختاروا هاروت وماروت. فأهبطا إلى الأرض، وأنزلت الزّهرَة إليهما فى صورة[١٠] امرأة من أهل فارس يسمونها بيذخت. قال: فوقعا بالخطيَّة[١١]. فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:

---

(١) فى جـ: «المثنى بن الحجاج». (٢) فى جـ: «فراودوها».
(٣) زيادة من جـ، ط. (٤) زيادة من جـ.
(٥) زيادة من ط، ب، و.
(٦) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٠٣).
(٧) ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٦٥٤) من طريق عيسى بن يونس عن أخيه إسرائيل عن جابر عن أبى الطفيل عن على به.
(٨) فى جـ: «كثر سواد». (٩) فى جـ، ط: «تمهلهم».
(١٠) فى جـ: «فى أحسن صورة». (١١) فى جـ: «بالخطيئة».

٧]، فلما وقعا بالخطيَّة استغفروا لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم. فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختاروا[١] عذاب الدنيا[٢].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن جعفر الرقى، أخبرنا عبيد الله ـ يعنى ابن عمرو ـ عن زيد بن أبى أنيسة، عن المنهال بن عمرو ويونس بن خباب، عن مجاهد، قال: كنت نازلا على عبد الله بن عمر فى سفر، فلما كان[٣] ذات ليلة قال لغلامه: انظر، طلعت الحمراء، لا مرحباً بها ولا أهلا، ولا حياها الله، هى صاحبة الملكين. قالت الملائكة: يارب، كيف تدع عصاة بنى آدم وهم يسفكون الدم الحرام وينتهكون محارمك ويفسدون فى الأرض! قال: إنى قد ابتليتهم، فعلَّ[٤] إن أبليتكم بمثل الذى ابتليتهم به فعلتم كالذى يفعلون. قالوا: لا. قال: فاختاروا من خياركم اثنين. فاختاروا هاروت وماروت. فقال لهما: إنى مهبطكما إلى الأرض، وعاهدٌ إليكما ألاّ تشركا ولا تزنيا ولا تخونا. فأهبطا إلى الأرض وألقى عليهما الشَّبَق، وأهبطت لهما الزُّهَرة فى أحسن صورة امرأة، فتعرضت لهما، فراوداها[٥] عن نفسها. فقالت: إنى على دين لايصح[٦] لأحد أن يأتينى إلا من كان على مثله. قالا: وما دينك؟ قالت: المجوسية. قالا: الشرك! هذا شىء لا نقر به. فمكثت عنهما ما شاء الله. ثم تعرضت لهما فأراداها عن نفسها. فقالت: ما شئتما، غير أن لى زوجاً، وأنا أكره أن يطلع على هذا منى فأفتضح، فإن أقررتما لى بدينى، وشرطتما لى أن تصعدا بى إلى السماء فعلتُ. فأقرا لها بدينها وأتياها فيما يريان، ثم صعدا بها إلى السماء. فلما انتهيا بها إلى السماء اختطفت منهما، وقطعت أجنحتهما[٧]، فوقعا خائفين نادمين يبكيان، وفى الأرض نبى يدعو بين الجمعتين، فإذا كان يوم الجمعة أجيب. فقالا: لو أتينا فلاناً فسألناه فطلب[٨] لنا التوبة! فأتياه، فقال: رحمكما الله[٩]، كيف يطلب أهل الأرض لأهل السماء! قالا: إنا قد ابتلينا. قال: ائتيانى[١٠] يوم الجمعة. فأتياه، فقال: ما أجبت فيكما بشىء، ائتيانى فى الجمعة الثانية. فأتياه، فقال: اختارا، فقد خيرتما، إن أحببتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة، وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله. فقال أحدهما: إن الدُّنيا لم يمض منها إلا القليل. وقال الآخر: ويحك؟ إنى قد أطعتك فى الأمر الأول فأطعنى الآن، إن عذابا يفنى ليس كعذاب يبقى، وإننا يوم القيامة على حكم الله، فأخاف أن يعذبنا. قال: لا، إنى أرجو إن علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة ألا يجمعهما علينا. قال: فاختارا عذاب الدنيا، فجعلا فى بكرات من حديد فى قَلِيب مملوءة من نار، عَالِيهُمَا

---

(١) فى جـ، ط، ب: «فاختارا».
(٢) تفسير الطبرى (٢/ ٤٢٨).
(٣) فى جـ: «فلما كانت».
(٤) فى جـ: «بفعل».
(٥) فى جـ: «فأراداها».
(٦) فى جـ، ط،ب: «لا يصلح».
(٧) فى جـ: «أجنحتها».
(٨) فى جـ، ط، ب: «يطلب».
(٩) فى جـ: «ما رحمكم الله».
(١٠) فى جـ: «فأتيانى».

سافلَهما[١].

وهذا إسناد جيد إلى عبد الله بن عمر. وقد تقدم فى رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح، عن نافع، عنه رفعه. وهذا أثبت وأصح إسناداً. ثم هو ـ والله أعلم ـ من رواية ابن عمر عن كعب، كما تقدم بيانه من رواية سالم عن أبيه. وقوله: إن الزهرة نزلت فى صورة امرأة حسناء، وكذا فى المروى عن على، فيه غرابة جداً.

وأقرب ما ورد فى ذلك ما قال ابن أبى حاتم: حدثنا عصام بن روّاد، حدثنا آدم، حدثنا أبو جعفر، حدثنا الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس، رضى الله عنهما[٢]، قال: لما وقع الناس من بعد آدم، عليه السلام، فيما وقعوا فيه من المعاصى والكفر بالله، قالت الملائكة فى السماء: يارب، هذا العالم الذى إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك، قد وقعوا فيما وقعوا فيه وركبوا الكفر وقتل النفس وأكل المال الحرام، والزنا والسرقة وشرب الخمر. فجعلوا يدعون عليهم، ولا يعذرونهم، فقيل: إنهم فى غَيْب. فلم يعذروهم. فقيل لهم: اختاروا منكم من أفضلكم ملكين، آمرهما وأنهاهما. فاختاروا هاروت وماروت. فأهبطا إلى الأرض، وجعل لهما شهوات بنى آدم، وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئاً، ونهيا عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام، وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر. فلبثا فى الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق وذلك فى زمان إدريس عليه السلام. وفى ذلك الزمان امرأة حسنها فى النساء كحسن الزّهَرَة فى سائر الكواكب، وإنهما أتيا عليها فخضعا لها فى القول، وأراداها على نفسها فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها، فسألاها[٣] عن دينها، فأخرجت لهما صنماً فقالت: هذا أعبده. فقالا: لا حاجة لنا فى عبادة هذا. فذهبا فَغَبَرَا ما شاء الله. ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها، ففعلت مثل ذلك. فذهبا، ثم أتيا عليها فراوداها[٤] على نفسها، فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما: اختارا إحدى الخلال الثلاث: إما أن تعبدا هذا الصنم، وإما أن تقتلا هذه النفس، وإما أن تشربا هذا الخمر. فقالا: كل هذا لا ينبغى، وأهون هذا شرب الخمر. فشربا الخمر فأخذت فيهما فواقعا[٥] المرأة، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه[٦]، فلما ذهب عنهما السكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء، فلم يستطيعا، وحيل بينهما وبين ذلك، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه، فعجبوا كلّ العجب، وعَرَفوا أنه من كان فى غَيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن فى الأرض، فنزل فى ذلك: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] فقيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة. فقالا: أما عذابُ الدنيا فإنه ينقطع

(١) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٠٦، ٣٠٧).
(٢) فى جـ، ط: «عنه».
(٣) فى جـ، ط، ب: «فسألا».
(٤) فى جـ، ط، ب: «فأراداها».
(٥) فى جـ: «فوقعا».
(٦) فى جـ: «فقتلاها».

ويذهب، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له. فاختارا عذاب الدنيا، فجعلا ببابل، فهما يعذبان(١).

وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولا عن أبي زكريا العنبري، عن محمد بن عبد السلام، عن إسحاق بن راهويه، عن حكام بن سلم(٢) الرازي، وكان ثقة، عن أبي جعفر الرازي، به. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. فهذا أقرب ما روى في شأن الزهرة، والله أعلم(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي،حدثنا مسلم، حدثنا القاسم بن الفضل الحُدَّاني(٤)، حدثنا يزيد ـ يعني الفارسي ـ عن ابن عباس [قال](٥): إن أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فرأوهم يعملون المعاصي(٦)، فقالوا: يا رب، أهل الأرض كانوا يعملون بالمعاصي! فقال الله: أنتم معي، وهم غُيَّب عني. فقيل لهم: اختاروا منكم ثلاثة، فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا إلى الأرض، على أن يحكموا بين أهل الأرض، وجعل فيهم شهوة الآدميين، فأمروا ألا يشربوا خمراً ولا يقتلوا نفسا، ولا يزنوا، ولا يسجدوا لوثن. فاستقال منهم واحد، فأقيل. فأهبط اثنان إلى الأرض، فأتتهما امرأة من أحسن الناس(٧) يقال لها: مناهية(٨). فَهَوِيَاها جميعاً، ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها، فأراداها فقالت لهما: لا، حتى تشربا خمري، وتقتلا ابن جاري، وتسجدا لوثني. فقالا: لا نسجد. ثم شربا من الخمر، ثم قتلا، ثم سجدا. فأشرف أهل السماء عليهما. فقالت(٩) لهما: أخبراني بالكلمة التي إذا قلتماها طرتما. فأخبراها فطارت فمسخت جَمْرة. وهي هذه الزهَرة. وأما هما فأرسل إليهما سليمانُ بن داود، فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا. فهما مناطان بين السماء والأرض(١٠).

وهذا السياق فيه زيادات كثيرة وإغراب ونكارة، والله أعلم بالصواب.

وقال عبد الرزاق: قال مَعْمَر: قال قتادة والزهري، عن عبيد الله بن عبد الله: ﴿ **وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ** ﴾: كانا مَلَكين من الملائكة، فأهبطا ليحكما بين الناس. وذلك أن الملائكة سخروا من حكام بني آدم، فحاكمت إليهما امرأة، فحافا لها. ثم ذهبا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك، وخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا. وقال معمر: قال قتادة: فكانا يعلمان الناس السحر، فأخِذ عليهما ألا يعلما أحدا حتى يقولا: ﴿ **إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ** ﴾(١١).

وقال أسباط عن السدي أنه قال: كان من أمر هاروت وماروت أنهما طعنا على أهل الأرض في

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٠٥).
(٢) في و: «ابن سالم».
(٣) وقد أبطل الإمام ابن حزم قصة هاروت وماروت ورد على من ادعى شربهما الخمر وارتكابهما الزنا والقتل في كتابه الفصل (٣/ ٣٠٣ ـ ٣٠٨، ٤/ ٦١ ـ ٦٥).
(٤) في جـ: «الحراني».
(٥) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٦) في جـ، ط، أ، و: «بالمعاصي».
(٧) في جـ: «النساء».
(٨) في أ: «أناهيد».
(٩) في جـ، ط، ب: «وقالت».
(١٠) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٠٨).
(١١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧٣).

أحكامهم، فقيل لهما: إنى أعطيت بنى آدم عشراً من الشهوات، فبها[١] يعصوننى. قال هاروت وماروت: ربنا، لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكَمْنا بالعدل. فقال لهما: انزلا، فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر، فاحكما بين الناس. فنزلا ببابل دُنْباوَند، فكانا يحكمان، حتى إذا أمسيا عَرَجا، فإذا أصبحا هبطا، فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها، فأعجبهما[٢] حُسْنُها ـ واسمها بالعربية «الزُّهَرة»، وبالنَّبطية «بيذخت»، وبالفارسية «أناهيد» ـ فقال أحدهما لصاحبه: إنها لتعجبنى. قال الآخر: قد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك. فقال الآخر: هل لك أن أذكرها لنفسها؟ قال: نعم ولكن كيف لنا بعذاب الله؟ قال الآخر: إنا لنرجو رحمة الله. فلما جاءت تخاصم زوجها ذكر إليها نفسها، فقالت: لا، حتى تقضيا لى على زوجى. فقضيا لها على زوجها، ثم واعدتهما خَرِبة من الخَرِب يأتيانها فيها، فأتياها لذلك. فلما أراد الذى يواقعها قالت: ما أنا بالذى أفعل حتى تخبرانى بأىّ كلام تصعدان إلى السماء، وبأى كلام تنزلان منها؟ فأخبراها، فتكلمت فصعدت، فأنساها الله ما تنزل به، فبقيت[٣] مكانها، وجعلها[٤] الله كوكباً. فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها، فقال: هذه التى فتنت هاروت وماروت، فلما كان الليل أرادا أن يصعدا فلم يطيقا، فعرفا الهلكة فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا، فعلقا ببابل، وجعلا يكلمان الناس كلامهما وهو السحر.

وقال ابن أبى نَجِيح[٥]، عن مجاهد: أما شأن هاروت وماروت، فإن الملائكة عجبت من ظلم بنى آدم، وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات، فقال لهم ربهم تعالى: اختاروا منكم مَلَكين أنزلهما يحكمان فى الأرض بين بنى آدم فاختاروا فلم يألوا [إلا][٦] هاروت وماروت، فقال لهما حين أنزلهما: أعجبتما[٧] من بنى آدم من ظلمهم ومن معصيتهم، وإنما تأتيهم الرسل والكتب [والبينات][٨] من وَرَاء وَرَاء، وأنتما ليس بينى وبينكما رسول، فافعلا كذا وكذا، ودعا كذا كذا، فأمرهما بأمر ونهاهما، ثم نزلا على ذلك ليس أحد أطوع لله منهما، فحكما فعدلا. فكانا يحكمان النهار بين بنى آدم، فإذا أمسيا عَرَجا فكانا مع الملائكة، وينزلان حين يصبحان فيحكمان فيعدلان، حتى أنزلت عليهما الزهرة فى أحسن صورة امرأة تُخاصم، فقضيا عليها. فلما قامت وجد كل واحد منهما فى نفسه، فقال أحدهما لصاحبه: وجدتَ مثل الذى وجدتُ؟ قال: نعم. فبعثا إليها أن ائتينا نقض لك. فلما رجعت قالا وقضيا لها، فأتتهما فتكشفا لها عن عورتهما، وإنما كانت شهوتهما[٩] فى أنفسهما، ولم يكونا كبنى آدم فى شهوة النساء ولذتها. فلما بلغا ذلك واستحلا افتُتنا، فطارت الزهرة فرجعت حيث كانت. فلما أمسيا عَرَجا فزُجرا فلم يؤذن لهما، ولم تحملهما أجنحتهما. فاستغاثا برجل من بنى آدم

(١) فى ط، ب: «فما».
(٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فأعجبهما من».
(٣) فى ب، أ، و: «فثبتت».
(٤) فى أ: «وخلقها».
(٥) فى ط: «جريج».
(٦) زيادة من جـ.
(٧) فى جـ، ط، ب: «أعجبتم».
(٨) زيادة من جـ.
(٩) فى أ، و: «سوآتهما».

فأتياه، فقالا: ادع لنا ربك. فقال: كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء؟ قالا: سمعنا ربك يذكرك بخير فى السماء. فوعدهما يوماً، وغدا يدعو لهما فدعا لهما، فاستجيب له، فخيراً بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فنظر أحدهما إلى صاحبه، فقال: ألا تعلم أن أفواج عذاب الله فى الآخرة كذا وكذا فى الخلد، وفى الدنيا تسع مرات مثلها؟ فأمرا أن ينزلا ببابل، فثَمَّ عذابهما. وزعم أنهما معلقان فى الحديد مطويان، يصفقان بأجنحتهما.

وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسدى والحسن [البصرى][(١)] وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال.

وقد ورد أثر غريب وسياق عجيب فى ذلك أحببنا أن ننبه عليه، قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا الربيع بن سليمان، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى ابن أبى الزناد، حدثنى هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة زوج النبى ﷺ [رضى الله عنها وعن أبيها][(٢)] أنها قالت: قدمت امرأة علىَّ من أهل دومة الجندل، جاءت تبتغى رسول الله ﷺ بعد موته حَدَاثة ذلك، تسأله عن شىء[(٣)] دخلت فيه من أمر السحر، ولم تعمل به. قالت عائشة، رضى الله عنها، لعروة: يا ابن أختى، فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفيها كانت تبكى حتى إنى لأرحمها، وتقول: إنى أخاف أن أكون قد هلكت. كان لى زوج فغاب عنى، فدخلت علىَّ عجوز فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك. فلما كان الليل جاءتنى بكلبين أسودين، فركبتُ أحدهما[(٤)] وركَبَت الآخر، فلم يكن كشىء حتى وقفنا ببابل، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما. فقالا: ما جاء بك؟ فقلتُ: أتعلم[(٥)] السحر. فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفرى، فارجعى. فأبيت وقلت: لا. قالا: فاذهبى[(٦)] إلى ذلك التنُّور، فبولى فيه. فذهبت ففزعتُ ولم أفعل، فرجعت إليهما، فقالا: أفعلت؟ فقلت: نعم. فقالا: هل رأيت شيئاً؟ فقلت: لم أر شيئا. فقالا: لم تفعلى، ارجعى إلى بلادك ولا تكفرى [فإنك على رأس أمرى][(٧)]. فأرْبَبْتُ وأبيت[(٨)]. فقالا: اذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه. فذهبت فاقشعررت [وخفت][(٩)]، ثم رجعت إليهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ فقلت: لم

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٢) زيادة من جـ.
(٣) فى أ، و: «عن أشياء».
(٤) فى جـ: «فركبت إحداهما».
(٥) فى جـ، ب، أ، و: «فقلنا نتعلم».
(٦) فى أ: «فقالا فاذهبا».
(٧) زيادة من جـ.
(٨) فى جـ: «فابت وأبيت».
(٩) زيادة من جـ، ب، أ، و.

أر شيئاً. فقالا: كذبت، لم تفعلى، ارجعى إلى بلادك ولا تكفرى[(١)]؛ فإنك على رأس أمرك. فأربَبتُ وأبيتُ. فقالا: اذهبى إلى ذلك التنور، فبولى فيه. فذهبت إليه فبلت فيه، فرأيت فارساً مقنعاً[(٢)] بحديد خَرَج منى، فذهب فى السماء وغاب [عنى][(٣)] حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت. فقالا: فما رأيت؟ قلت: رأيت فارساً مقنعاً خرج منى فذهب فى السماء، حتى ما أراه. فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك، اذهبى. فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئاً وما قالا لى شيئاً. فقالت: بلى، لم تريدى شيئاً إلا كان، خذى هذا القمح فابذرى، فبذرت، وقلت: أطْلعى[(٤)]. فأطلعت[(٥)] وقلت: أحقلى فأحقلت[(٦)]، ثم قلت: أفْركى فأفركَتْ. ثم قلت: أيبسى فأيبست[(٧)]. ثم قلت: أطحنى فأطحنت[(٨)]. ثم قلت: أخبزى فأخبزت[(٩)]. فلما رأيتُ أنى لا أريد شيئاً إلا كان، سُقِط فى يدى وندمت ـ والله ـ يا أم المؤمنين والله ما فعلت شيئاً قط ولا أفعله أبداً[(١٠)].

ورواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن سليمان، به مطولا، كما تقدم[(١١)]. وزاد بعد قولها: ولا أفعله أبداً: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ حَدَاثَة وفاة رسول الله ﷺ، وهم يومئذ متوافرون، فما دَرَوا ما يقولون لها، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه، إلا أنه قد قال لها ابن عباس ـ أو بعض من كان عنده ـ: لو كان أبواك حيين أو أحدهما [لكان يكفيانك][(١٢)].

قال هشام: فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان [قال][(١٣)]: قال ابن أبى الزناد: وكان هشام يقول: إنهم كانوا من أهل الورع والخشية[(١٤)] من الله. ثم يقول هشام: لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكى أهل حمق وتكلف بغير علم.

فهذا إسناد جيد إلى عائشة، رضى الله عنها.

وقد استدل بهذا الأثر من ذهب إلى أن[(١٥)] الساحر له تمكن فى قلب الأعيان؛ لأن هذه المرأة بَذَرت واستغلت فى الحال.

وقال آخرون: بل ليس له قدرة إلا على التخييل، كما قال [الله][(١٦)] تعالى: ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا

---

(١) فى جـ: «ولم تكفرى».
(٢) فى جـ: «معلقا».
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى جـ، ط: «اطلع فطلع».
(٥) فى جـ: «احقل فأحقل»، وفى أ، و: «فطلعت».
(٦) فى ط: «احقلى فأجعلت».
(٧) فى جـ: «أيبس فيبس».
(٨) فى جـ: «اطحن فطحن».
(٩) فى جـ: «اختبز فاختبز».
(١٠) تفسير الطبرى (٢/ ٤٣٩ ـ ٤٤١).
(١١) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣١٢) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٨/ ١٣٧) من طريق الربيع بن سليمان به مطولاً، وهذه الزيادة لم ترد فى المطبوع من تفسير ابن أبى حاتم، وقد نبه إلى ذلك المحقق الفاضل، جزاه الله خيراً.
(١٢، ١٣) زيادة من أ.
(١٤) فى جـ: «وأهل خشية».
(١٥) فى أ: «من ذهب بأن».
(١٦) زيادة من أ.

﴿تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] واستدل به على أن بابل المذكورة فى القرآن هى بابل العراق، لا بابل دُنْباوَنْد[١] كما قاله السدى وغيره. ثم الدليل على أنها بابل العراق ما قال[٢] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنى ابن وهب، حدثنى ابن لَهيعة ويحيى بن أزهر، عن عمار بن سعد المرادى، عن أبى صالح الغفارى أن على بن أبى طالب، رضى الله عنه [مر ببابل وهو يسير، فجاء المؤذن يُؤْذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ] قال: إن حبيبى ﷺ نهانى أن أصلى [بأرض المقبرة، ونهانى أن أصلى] ببابل فإنها ملعونة[٣].

وقال أبو داود: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا ابن وهب، حدثنى ابن لِهَيعة ويحيى بن أزهر، عن عمار بن سعد المرادى، عن أبى صالح الغفارى: أن عليا مر ببابل، وهو يسير، فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبى ﷺ نهانى أن أصلى فى المقبرة، ونهانى أن أصلى بأرض بابل، فإنها ملعونة.

حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا ابن وهب، أخبرنى يحيى بن أزهر وابن لهيعة، عن الحجاج بن شداد، عن أبى صالح الغفارى، عن على، بمعنى حديث سليمان بن داود، قال: فلما «خرج» مكان «برز»[٤].

وهذا الحديث حسن عند الإمام أبى داود؛ لأنه رواه وسكت عنه[٥]؛ ففيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل، كما تكره بديار ثمود الذين نهى رسول الله ﷺ عن الدخول إلى منازلهم، إلا أن يكونوا باكين.

قال أصحاب الهيئة: وبُعْدُ ما بين بابل، وهى من إقليم العراق، عن البحر المحيط الغربى، ويقال له: أوْقيانُوس[٦] سبعون درجة، ويسمون هذا طولا، وأما عرضها وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب، وهو المسامت لخط الاستواء، اثنان[٧] وثلاثون درجة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾: قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن قيس[٨] بن عباد، عن ابن عباس، قال: فإذا أتاهما الآتى يريد السحر نهياه أشد النهى، وقالا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما عَلما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر[٩]. [قال][١٠]: فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتى مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فَعلمه، فإذا تعلم خرج منه النور، فنظر[١١] إليه ساطعاً فى السماء، فيقول: يا حسرتاه!

---

(١) فى ط، ب، أ، و: «ديناوند».
(٢) فى أ: «ما قاله».
(٣) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٠٤)، وما بين المعقوفين ليس فى تفسير ابن أبى حاتم.
(٤) سنن أبى داود برقم (٤٩٠، ٤٩١).
(٥) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وسكت عليه».
(٦) فى ب: «أوليانوس».
(٧) فى ب، أ، و: «ثنتان».
(٨) فى أ: «عن بشر».
(٩) فى ب: «أن الكفر من السحر».
(١٠) زيادة من جـ، أ، و.
(١١) فى أ: «فينظر».

ياويله! ماذا أصنع[(١)]؟

وعن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هذه الآية: نَعَم، أنزل الملكان بالسحر، ليعلما[(٢)] الناس البلاء الذى أراد الله أن يبتلى به الناس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾. رواه ابن أبى حاتم، وقال قتادة: كان أخذ عليهما ألايعلما أحداً حتى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ ـ أى: بلاء ابتلينا به ـ ﴿فَلا تَكْفُرْ﴾.

وقال [قتادة و][(٣)] السدى: إذا أتاهما إنسان يريد السحر، وعظاه، وقالا له: لا تكفر، إنما نحن فتنة. فإذا أبى قالا له: ائت هذا الرماد، فبُلْ عليه. فإذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء، وذلك الإيمان. وأقبل شىء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل فى مسامعه وكلِّ شىء [منه][(٤)]. وذلك غضب الله. فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ الآية.

وقال سُنَيْد، عن حجاج، عن ابن جريج فى هذه الآية: لا يجترئ على السحر إلا كافر.

وأما الفتنة فهى المحنة والاختبار، ومنه قول الشاعر:

وقد فتَن النَّاسُ فى دينهم وخَلَّى ابنُ عفان شراً طويلا[(٥)]

وكذلك[(٦)] قولُه تعالى إخباراً عن موسى، عليه السلام، حيث قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ أى: ابتلاؤك واختيارك وامتحانك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ[(٧)]﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، ويُستشهد له بالحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام، عن عبد الله، قال: من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.

وهذا إسناد جيد[(٨)]، وله شواهد أخر.

وقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أى: فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفَرِّقُون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف. وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم فى صحيحه، من حديث الأعمش، عن أبى سفيان طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله، رضى الله

---

(١) فى أ، و: «ماذا صنع». (٢) فى أ، و: «ليعلموا» وهو خطأ.
(٣) زيادة من و. (٤) زيادة من أ، و.
(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ٤٤٤) وانظر هناك الاختلاف فى قائله.
(٦) فى ط، ب، أ، و: «وكذا». (٧) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وتهدى من تشاء الآية».
(٨) فى جـ، ط، ب، أ، و: «إسناد صحيح».

عنه[١]، عن النبى ﷺ، قال: «إن الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه فى الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً. ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله[٢]، قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه، ويقول: نِعْم أنت[٣].

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر: ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوءِ منظر، أو خَلْق أو نحو ذلك أو عَقد أو بَغْضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة.

والمرء عبارة عن الرجل، وتأنيثه امرأة، ويثنى كل منهما ولا يجمعان، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: قال سفيان الثورى: إلا بقضاء الله. وقال محمد بن إسحاق إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد. وقال الحسن البصرى: ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، قال: نَعَم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى، وفى رواية عن الحسن أنه قال: لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ﴾ أى: يضرهم فى دينهم، وليس له نفع يوازى ضرره.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ أى: ولقد علم اليهود الذى استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول[٤] ﷺ لَمَنْ فعل فعلهم ذلك ، أنه ماله فى الآخرة من خلاق.

قال ابن عباس ومجاهد والسدى: من نصيب. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ماله فى الآخرة من جهة عند الله[٥]، وقال: وقال الحسن: ليس له دين.

وقال سعد[٦] عن قتادة: ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ قال: ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له فى الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: يقول تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ﴾ البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان، ومتابعة الرسل[٧] ،لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أى: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا

---

(١) فى ب: «عنهما». (٢) فى جـ: «وبين زوجه».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨١٣).
(٤) فى أ: «متابعة الرسل». (٥) فى أ: «ماله فى الآخرة من خلاق».
(٦) فى ط، ب، و: «سعيد». (٧) فى أ: «الرسول».

يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وقد يَسْتَدِلّ بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ من ذَهَب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف. وقيل: بل لا يكفر، ولكن حَده ضَرْبُ عنقه، لما رواه الشافعى وأحمد بن حنبل، رحمهما الله: أخبرنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أنه سمع بجالة بن عَبَدَةَ يقول: كتب [أمير المؤمنين][١] عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر[٢]. وقد أخرجه البخارى فى صحيحة أيضاً[٣]. وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها فقتلت[٤]. قال أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ [أذنوا][٥] فى قتل الساحر.

وروى الترمذى من حديث إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن جُنْدَب الأزدى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حد الساحر ضَرْبُه بالسيف»[٦].

ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. وإسماعيل بن مسلم يُضَعَّف فى الحديث، والصحيح: عن الحسن عن جندب موقوفاً.

قلت: قد رواه الطبرانى من وجه آخر، عن الحسن، عن جُنْدُب، مرفوعاً[٧]. والله أعلم.

وقد روى من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله! يحيى الموتى! ورآه رجل من صالحى المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه، وذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب[٨] عنق الساحر، وقال: إن كان صادقاً[٩] فليحى نفسه. وتلا قوله تعالى: ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ .[الأنبياء: ٣] فغضب الوليد إذ لم يستأذنه فى ذلك فسجنه ثم أطلقه،[١٠] والله أعلم.

وقال[١١] أبو بكر الخلال: أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنى أبى، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنى أبو إسحاق، عن حارثة قال: كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملا

(١) زيادة من جـ.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد فى مسائل أبيه، ط. المكتب الإسلامى برقم (١٥٤٢) عن أبيه عن سفيان به.

(٣) صحيح البخارى برقم (٣١٥٦).

(٤) رواه عبد الله بن أحمد فى مسائل أبيه، ط. المكتب الإسلامى برقم (١٥٤٣) عن أبيه عن يحيى بن سعيد، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر: أن حفصة سحرتها جاريتها، فذكره.

(٥) زيادة من جـ.

(٦) سنن الترمذى برقم (١٤٦٠).

(٧) المعجم الكبير (٢/ ١٦١) من طريق محمد بن الحسن بن سيار، عن خالد العبد عن الحسن عن سمرة به.

(٨) فى جـ: «وضرب». (٩) فى أ، و: «إن كان ساحراً».

(١٠) الرجل الذى قتله هو جندب بن كعب، انظر القصة فى: أسد الغابة لابن الأثير فى ترجمة جندب بن كعب (١/ ٣٦١) وفى الإصابة للحافظ ابن حجر (١/ ٢٥١).

(١١) فى و : «وقال الإمام» .

على سيفه فقتله، فقال: أراه كان ساحراً، وحمل الشافعى، رحمه الله، قصة عمر، وحفصة[١] على سِحْرٍ يكون شركا. والله أعلم.

فصل

حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر، قال: وربما كفروا من اعتقد وجوده. قال: وأما أهل السنة فقد جَوَّزُوا أن يقدر الساحر أن يطير فى الهواء، ويقلب الإنسان حماراً، والحمار إنساناً، إلا أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقى و[تلك][٢] الكلمات المُعَيَّنة، فأما أن يكون المؤثر فى ذلك هو الفلك والنجوم فلا، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصابئة، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى، بقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سُحِر، وأن السحر عَمِل فيه، وبقصة تلك المرأة مع عائشة، رضى الله عنها، وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلمها السحر، قال: وبما يذكر[٣] فى هذا الباب من الحكايات الكثيرة، ثم قال بعد هذا:

المسألة الخامسة فى أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور: اتفق المحققون على ذلك؛ لأن[٤] العلم لذاته شريف، وأيضاً لعموم قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]؛ ولأن السحر لو لم يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة، والعلم بكون المعجز مُعْجِزًا واجب، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب؛ فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً، وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقبيحاً؟!

هذا لفظه بحروفه فى هذه المسألة، وهذا الكلام فيه نظر من وجوه، أحدها: قولُهُ: «العلم بالسحر ليس بقبيح». إن عنى به ليس بقبيح عقلا، فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا[٥]، وإن عنى أنه ليس بقبيح شرعاً، ففى هذه الآية الكريمة تبشيع[٦] لتعلم السحر، وفى الصحيح: «من أتى عرَّافاً أو كاهناً، فقد كفر بما أنزل على محمد»[٧]. وفى السنن: «من عَقَدَ عُقْدَة ونفث فيها فقد سحر»[٨]. وقوله: «ولا محظور اتفق المحققون على ذلك». كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث؟! واتفاق المحققين[٩] يقتضى أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم، وأين نصوصهم على ذلك؟ ثم إدخاله [علم][١٠] السحر فى عموم قوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ فيه نظر؛ لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين بالعلم الشرعى، ولِم

---

(١) فى جـ: «فى قصة حفصة وعمر». (٢) زيادة من جـ.
(٣) فى جـ: «وما يذكر». (٤) فى جـ، ط: «فإن».
(٥) فى جـ: «ذلك». (٦) فى أ: «متسع».
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٢٣٠) من حديث بعض أزواج النبى ﷺ وليس فيه: «كاهناً» والعراف من جملة أنواع الكهان.
(٨) رواه النسائى فى السنن (٧/ ١١٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٩) فى أ: «المحدثين».
(١٠) زيادة من جـ، ب، أ، و. وفى ط: «تعلم».

قلتَ إن هذا منه؟ ثم تَرَقِّيه[١] إلى وجوب تَعَلّمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به، ضعيف بل فاسد؛ لأن معظم[٢] معجزات رسولنا، عليه الصلاة والسلام[٣]، هى القرآن العظيم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلا، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرّقُون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه، والله أعلم.

ثم قد ذكر أبو عبد الله الرازى أن أنواع السحر ثمانية:

الأول: سحر الكَلْدانيين والكُشْدانيين، الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة، وهى السيارة، وكانوا يعتقدون أنها مُدَبّرة العالم[٤]، وأنها تأتى بالخير والشر، وهم الذين بَعث [٥] إليهم إبراهيم الخليل ﷺ، مُبْطلا لمقالتهم ورادا لمذهبهم[٦]، وقد استقصى فى «كتاب السر المكتوم، فى مخاطبة الشمس والنجوم» المنسوب إليه فيما[٧] ذكره القاضى ابن خلكان وغيره[٨]، ويقال: إنه تاب منه. وقيل[٩]: إنه[١٠] صنفه على وجه إظهار الفضيلة لا على سبيل الاعتقاد. وهذا هو المظنون به، إلا أنه ذكر فيه طرائقهم فى مخاطبة كُلّ من هذه الكواكب السبعة، وكيفية ما يفعلون وما يلبسونه، وما يتنسكون به.

قال: **والنوع الثانى**: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، ثم استدلّ على أن الوهم له تأثير، بأن الإنسان يمكنه أن يمشى على الجسر الموضوع على وجه الأرض، ولا يمكنه المشى عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه. قال: وكما أجمعت الأطباء على نهى المَرْعُوف[١١] عن النظر إلى الأشياء الحُمْر، والمصروع إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مُطِيعة[١٢] للأوهام.

قال: وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق.

وله أن يستدل على ذلك بما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ، قال: «العين حَقّ، ولو كان شىء سَابَقَ القدر لسبقته العين»[١٣].

قال: فإذا عرفت هذا، فنقول: النفس التى تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً، فتستغنى فى هذه الأفاعيل[١٤] عن الاستعانة بالآلات والأدوات، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه

(١) فى أ: «فرقته».
(٢) فى جـ، ب، أ، و: «لأن أعظم».
(٣) فى جـ: «ﷺ».
(٤) فى جـ: «مدبرة للعالم».
(٥) فى من جـ، ب، أ: «بعث الله».
(٦) فى جـ، ط، ب، أ، و: «لمذاهبهم».
(٧) فى ب: «كما».
(٨) وفيات الأعيان (٣/ ٣٨١).
(٩) فى جـ، ط: «ويقال».
(١٠) فى جـ، ط، ب: «بل».
(١١) فى جـ: «المرفوع»، وفى ط: «الموضوع».
(١٢) فى جـ، ط، ب، و: «منطبعة»، وفى أ: «منطبقة».
(١٣) صحيح مسلم برقم (٢١٨٨) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنه.
(١٤) فى جـ، ط، ب، أ، و: «هذه الأفعال».

الآلات. وتحقيقه أن النفس إذا كانت مستعلية[(١)] على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات، صارت كأنها رُوح من الأرواح السماوية، فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم. وإذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات[(٢)] البدنية، فحينئذ لا يكون لها تصرف البتة إلا فى هذا البدن. ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء، والانقطاع عن الناس والرياء[(٣)].

قلت: وهذا الذى يشير إليه هو التصرف بالحال، وهو على قسمين: تارة يكون حالا صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ، ويترك ما نهى الله عنه ورسوله، وهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الأمة، ولا يسمى هذا سحراً فى الشرع. وتارة تكون الحال فاسدة لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ ولا يتصرف بها فى ذلك. فهذه[(٤)] حال الأشقياء المخالفين للشريعة، ولا يدل إعطاء الله[(٥)] إيَّاهم هذه الأحوال على محبته لهم، كما أن الدجَّال ـ لعنه الله ـ له من الخوارق للعادات[(٦)] ما دلَّت عليه الأحاديث الكثيرة، مع أنه مذموم شرعاً لعنه الله. وكذلك من شابهه من مخالفى الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وبسط هذا يطول جداً، وليس هذا موضعه.

قال: **النوع الثالث من السحر**: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم الجن، خلافاً للفلاسفة والمعتزلة: وهم على قسمين: مؤمنون، وكفار، وهم الشياطينْ. قال: واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية، لما بينهما من المناسبة[(٧)] والقرب، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخل[(٨)] والتجريد. وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير[(٩)].

النوع الرابع من السحر: التخيلات، والأخذ بالعيون والشعبذة، ومناه [على][(١٠)] أن البصر قد يخطئ ويشتغل بالشىء المعين دون غيره، ألا ترى أن المشعبذ الحاذق يظهر عمل شىء يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استفرغهم[(١١)] الشغل بذلك الشىء بالتحديق ونحوه، عمل شيئاً آخر عَمَلا بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شىء آخر غير ما انتظروه. فيتعجبُّون منه جداً، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما[(١٢)] يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفطن الناظرون لكل ما يفعله.

قال: وكلما كانت الأحوال التى تفيد حسن البصر نوعاً من أنواع الخلل[(١٣)] أشدّ، كان العمل

---

(١) فى جـ، ط، ب، و: «مشتغلة»، وفى أ: «مستقبلة».
(٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «اللذات».
(٣) فى جـ، ط، ب، و: «والرياضة».
(٤) فى جـ: «فهذا».
(٥) فى جـ: «أعطاهم الله»، وفى أ: «على عطاء الله».
(٦) فى جـ: «والعادات».
(٧) فى جـ: «من المناسب».
(٨) فى جـ، ط، ب، أ، و: «والدخن»
(٩) فى ط، ب، أ، و: «وعمل تسخير»
(١٠) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(١١) فى جـ: «إذا استقر».
(١٢) فى ط: «مما».
(١٣) فى جـ: «الخلال».

أحسنَ، مثل أن يجلس المشعبذ فى موضع مضىء جداً، أو مظلم، فلا تقف القوة الناظرة[١] على أحوالها بكلالها[٢]، والحالة هذه.

قلت: وقد قال بعض المفسرين: إن سحر السحرة بين يدى فرعون إنما كان من باب الشعبذة، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ [طه: ٦٦] قالوا: ولم تكن تسعى فى نفس الأمر. والله أعلم.

النوع الخامس من السحر: الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية، كفارس على فرس فى يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب[٣] بالبوق، من غير أن يمسه أحد. ومنها الصور التى تُصَوِّرها الروم والهند، حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصورونها ضاحكة وباكية.

إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور المخاييل. قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل.

قلت: يعنى ما قاله بعض المفسرين: إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصى، فحشوها زئبقاً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق، فيخيل إلى الرائى أنها تسعى باختيارها.

قال الرازى: ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، ويندرج فى هذا الباب علم جَرِّ الأثقال بالآلات الخفيفة.

قال: وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يعد من باب السحر؛ لأن لها أسباباً[٤] معلومة يقينية[٥]، من اطلع عليه قدر عليها.

قلت: ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم، بما يُرُونَهم إياه من الأنوار، كقضية قُمَامة الكنيسة التى لهم ببلد[٦] المقدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام[٧] [منهم][٨]، وأما الخواص فهم يعترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم، فيرون ذلك سائغاً لهم. وفيه شبه[٩] للجهلة الأغبياء من متعبدى[١٠] الكَرّامية، الذين يرون جواز وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب، فيدخلون فى عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم[١١]: «من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من

(١) فى جـ، ط، ب: «الباصرة».
(٢) فى جـ، ط، ب: «لكلالها»، وفى أ: «بكمالها».
(٣) فى جـ، ط: «ضرب مرة».
(٤) فى أ: «أنساباً».
(٥) فى ط، أ: «متيقنة».
(٦) فى جـ: «ببيت» وفى و: «بالبلد».
(٧) فى جـ، ط، ب: «الطعام».
(٨) زيادة من جـ، ط، ب.
(٩) فى جـ: «وفيه شبهة»، فى أ: «وفيهم شبه».
(١٠) فى أ: «متعدى».
(١١) فى جـ: «من قال فيهم رسول الله ﷺ».

النار[(١)]». وقوله: «حدثوا عنى ولا تكذبوا عَلَيّ فإنه من يكذب عليّ يلج النار»[(٢)].

ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان، وهو أنه سمع صوت طائر حزين[(٣)] الصوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطيور تَرِقّ له فتذهب فتلقى فى وَكْره من ثمر الزيتون، ليتبلغ[(٤)] به، فعَمَد هذا الراهبُ إلى صنعة طائر على شكله، وتوصل إلى أن جعله أجوف، فإذا دخلته الريح يسمع له[(٥)] صوت كصوت ذلك الطائر، وانقطع فى صومعة ابتناها، وزعم أنها على قبر بعض صالحيهم، وعلق ذلك الطائر فى مكان منها، فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحية، فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة، فيُسْمَعُ صوتها كذلك الطائر فى شكله أيضاً، فتأتى الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون فى هذه الصومعة، ولا يدرون ما سببه؟ ففتنهم بذلك، وأوهم[(٦)] أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتابعة[(٧)] إلى يوم القيامة.

قال الرازى: **النوع السادس من السحر**: الاستعانة بخواص الأدوية يعنى فى الأطعمة والدهانات[(٨)]. قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد.

قلت: يدخل فى هذا القبيل كثير ممن يَدّعى الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعياً أنها أحوال له[(٩)]، من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات.

قال: **النوع السابع من السحر**: تعليق[(١٠)] القلب، وهو أن يدعى الساحرُ أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل[(١١)] قليل التمييز اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك وحصل فى نفسه نوع من الرهب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة[(١٢)]، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء.

قلت: هذا النمط يقال له التنبلة، وإنما يروج على الضعفاء العقول من بنى آدم. وفى علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المُتَنْبِلُ حاذقاً فى علم الفراسة عرف من ينقاد له مِنَ الناس مِنْ غيره.

قال: **النوع الثامن من السحر**: السعىُ بالنميمة والتضريب[(١٣)] من وجوه خفيفة لطيفة، وذلك شائع فى الناس.

---

(١) هذا الحديث رواه جمع من الصحابة عن النبى ﷺ عدهم الإمام الطبرانى فى جزء له فأوصلهم فوق الستين، وانظره فى: صحيح البخارى برقم (١٠٧) من حديث الزبير رضى الله عنه، وفى مقدمة صحيح مسلم برقم (٢ ـ ٤) من حديث أنس وأبى هريرة والمغيرة رضى الله عنهم.

(٢) رواه مسلم فى مقدمة صحيحه برقم (١) من حديث على رضى الله عنه.

(٣) فى أ، و: «حنين».

(٤) فى جـ، أ: «ليبتلع».

(٥) فى جـ، ط، ب، أ، و: «يسمع منه».

(٦) فى جـ: «وأوهمهم».

(٧) فى جـ، ط، ب: «التابعة»، وفى أ: «البالغة».

(٨) فى جـ: «فى الأطعمة والدهان».

(٩) فى جـ: «أنها أحواله».

(١٠) فى جـ: «تعلق».

(١١) فى ب، أ، و: «القلب».

(١٢) فى جـ: «القوى الحسية».

(١٣) فى ب: «التضرب».

قلت: النميمة على قسمين، تارة تكون على وجه التحريش [بين الناس][١] وتفريق قلوب المؤمنين، فهذا حرام متفق عليه. فأما إذا[٢] كانت على وجه الإصلاح [بين الناس][٣] وائتلاف كلمة المسلمين، كما جاء فى الحديث: «ليس بالكَذّاب من يَنمّ خيراً، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة»، فهذا أمر مطلوب، كما جاء فى الحديث: «الحرب خُدْعة». وكما فعل نُعَيم بن مسعود[٤] فى تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين[٥] قريظة، وجاء إلى هؤلاء فنمى إليهم عن هؤلاء كلاماً، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئاً آخر، ثم لأم بين ذلك، فتناكرت النفوس وافترقت. وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء والبصيرة النافذة. والله المستعان.

ثم قال الرازى: فهذه جملة الكلام فى أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه.

قلت: وإنما أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة فى فَنّ السحر، للطافة مداركها؛ لأن السحر فى اللغة: عبارة عما لطُف وخفى سببه. ولهذا جاء فى الحديث: «إن من البيان لسحراً[٦]». وسمى السحور لكونه يقع خفياً آخر الليل[٧]. والسَّحْر: الرئة، وهى محل الغذاء، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه، كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة: انتفخ سَحْرك[٨]. أى: انتفخت رئته من الخوف. وقالت عائشة، رضى الله عنها: توفى رسول الله ﷺ بين سَحْرى ونَحْرى. وقال: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ[٩]﴾ [الأعراف: ١١٦]، أى: أخفوا عنهم عملهم، والله أعلم[١٠].

[فصل][١١]: وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن هبيرة بن محمد بن هُبيرة فى كتابه: «الإشراف على مذاهب الأشراف» باباً فى السحر، فقال: أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة، فإنه قال: لا حقيقة له عنده. واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: يكفر بذلك. ومن أصحاب أبى حنيفة من قال: إنْ تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر، ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه ينفعه كفَر. وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر. وقال الشافعى، رحمه الله: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك. فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهلُ بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها، فهو كافر. وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر.

قال ابن هَبيرة: وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله؟ فقال مالك وأحمد: نعم. وقال الشافعى وأبو حنيفة: لا. فأما إن قتل بسحره إنسانا فإنه يُقْتل عند مالك والشافعى وأحمد. وقال أبو حنيفة: لا

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٢) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فأما إن».
(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٤) فى جـ: «ابن الأسود».
(٥) فى جـ، ط، ب، أ، و: «وبنى».
(٦) فى جـ، ط، ب، أ، و: «سحراً».
(٧) فى جـ: «الليلة».
(٨) فى جـ، ب، أ، و: «سحره».
(٩) فى جـ: «الناس واسترهبوهم».
(١٠) فى جـ: «والله تبارك وتعالى أعلم».
(١١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

يقتل حتى يتكرر منه ذلك[١]، أو يقر بذلك فى حَقّ شخص[٢] معين. وإذا قُتل فإنه يُقْتَل حداً عندهم إلا الشافعى، فإنه قال: يقتل ـ والحالة هذه ـ قصاصاً.

قال: وهل إذا تاب الساحر تُقْبَل توبته؟ فقال مالك، وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنهما: لا تقبل. وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى: تقبل. وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبى حنيفة أنه يقتل، كما يقتل الساحر المسلم. وقال مالك والشافعى وأحمد: لا يقتل. يعنى لقصة لبيد بن أعصم[٣].

واختلفوا فى المسلمة الساحرة، فعند أبى حنيفة[٤] :لا تقتل، ولكن تحبس. وقال الثلاثة: حكمها حكم الرجل، والله أعلم.

وقال أبو بكر الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزى، قال: قرَأ على أبى عبد الله ـ يعنى أحمد بن حنبل ـ عُمَرُ بن هارون، حدثنا يونس، عن الزهرى، قال: يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين؛ لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها.

وقد نقل القرطبى عن مالك، رحمه الله، أنه قال فى الذمى إذا سحر يقتل إن قتل سحره، وحكى بن خويز منداد عن مالك روايتين فى الذمى إذا سحر: إحداهما: أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل، والثانية: أنه يقتل وإن أسلم، وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفراً كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. لكن قال مالك: إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق، فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائباً قبلناه ولم نقتله، فإن قتل سحره قتل. قال الشافعى: فإن قال: لم أتعمد القتل فهو مخطئ تجب عليه الدية.

مسألة: وهل يسأل الساحر حل سحره؟ فأجازه سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخارى، وقال عامر الشعبى: لا بأس بالنشرة، وكره ذلك الحسن البصرى، وفى الصحيح عن عائشة: أنها قالت: يا رسول الله، هلا تنشرت، فقال: «أما الله فقد شفانى، وخشيت أن أفتح على الناس شراً»[٥]. وحكى القرطبى عن وهب: أنه قال: يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسى ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فإنه يذهب ما به، وهو جيد للرجل الذى يؤخذ عن امرأته.

قلت: أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله ﷺ فى إذهاب ذلك وهما المعوذتان، وفى الحديث: «لم يتعوذ المتعوذون بمثلهما»[٦]، وكذلك قراءة آية الكرسى فإنها مطردة للشيطان. وقال أبو عبد الله القرطبى: وعندنا أن السحر حق، وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء

(١) فى جـ: «منه الفعل». (٢) فى أ: «فى حق رجل».
(٣) فى أ: «لقضية لبيد بن الأعصم». (٤) فى جـ، ط، ب، أ، و: «فعند أبى حنيفة أنها».
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٧٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٩).
(٦) رواه النسائى فى السنن (٨/ ٢٥١) من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه.

خلافاً للمعتزلة وأبى إسحاق الإسفراينى من الشافعية حيث قالوا: إنه تمويه وتخيل. قال: ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة والشعوذى البريد؛ لخفة سيره. قال ابن فارس: هذه الكلمة من كلام أهل البادية. قال القرطبى: ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى، وقد يكون من عهود الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك. قال: وقوله، عليه السلام: «إن من البيان لسحرا»[(١)] يحتمل أن يكون مدحًا كما تقوله طائفة، ويحتمل أن يكون ذماً للبلاغة. قال: وهذا الأصح. قال: لأنها تصوب الباطل حين يوهم السامع أنه حق كما قال: «فلعل بعضكم أن يكون ألحن لحجته من بعض» فاقتضى له الحديث.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾ .

نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يُعَانُون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقص ـ عليهم لعائن الله ـ فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا. يقولون: راعنا. يورون[(٢)] بالرعونة، كما قال تعالى: **﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾**[النساء: ٤٦] وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سلَّموا إنما يقولون: السامٌ عليكم. والسام هو: الموت. ولهذا[(٣)] أمرنا أن نرد عليهم بـ «وعليكم». وإنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا.

والغرض: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت، حدثنا حسَّان بن عطية، عن أبى منُيب الجُرَشى، عن ابن عمر، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بين يدى الساعة بالسيف، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له. وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعلت الذلة والصَّغارُ على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

وروى أبو داود، عن عثمان بن أبى شيبة، عن أبى النضر هاشم بن القاسم، به[(٤)]: «من تشبه بقوم فهو منهم».

---

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥٠١١) والترمذى فى السنن برقم (٢٨٤٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنه، ورواه أبو داود فى السنن برقم (٥٠١٢) من حديث بريدة رضى الله عنه.

(٢) فى جـ، ط، ب: «ويورون»، وفى أ: «ويرون».

(٣) فى جـ: «ولقد».

(٤) المسند (٢/ ٩٢) وسنن أبى داود برقم (٤٠٣١).

ففيه دلالة على النهى الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار فى أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعبادتهم وغير ذلك من أمورهم التى لم تشرع لنا ولم نُقَرر عليها.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا مِسْعَر، عن مَعْن وعَوْن ـ أو أحدهما ـ أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود، فقال: اعهد إلى. فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سَمْعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه[١].

وقال الأعمش، عن خَيْثَمة، قال: ما تقرؤون فى القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه فى التوراة: «يأيها المساكين».

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿رَاعِنَا﴾ أى: أرعنا[٢] سمعك.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ قال: كانوا يقولون للنبى ﷺ: أرْعنا سمعك. وإنما ﴿رَاعِنَا﴾ كقولك: عاطنا.

وقال ابن أبى حاتم: وروى أبى العالية، وأبى مالك، والربيع بن أنس، وعطية العوفى، وقتادة، نحو ذلك.

وقال مجاهد: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾: لا تقولوا خلافاً. وفى رواية: لا تقولوا: اسمع منا ونسمع منك.

وقال عطاء: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾: كانت لُغة يقولها الأنصار فنهى الله عنها.

وقال الحسن: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، قال: الراعن من القول السخرى منه. نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوهم إليه من الإسلام. وكذا روى عن ابن جُرَيج أنه قال مثله.

وقال أبو صخر: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين، فيقول: أرعنا[٣] سمعك. فأعظم الله رسوله ﷺ أن يقال ذلك له[٤].

وقال السدى: كان رجل من اليهود من بنى قينقاع، يدعى رفاعة بن زيد[٥]، يأتى النبى ﷺ، فإذا لقيه فكلمه قال: أرعنى سمعك واسمع غير مُسْمع. وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تُفَخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع: غَيْرَ صاغر. وهى كالتى[٦] فى سورة النساء. فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا: راعنا.

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣١٧).
(٢) فى أ: «أى راعنا».
(٣) فى أ: «فيقول راعنا».
(٤) فى جـ: «أن يقال له ذلك».
(٥) فى جـ: «بن يزيد».
(٦) فى جـ: «هى التى».

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، بنحو من هذا.

قال ابن جرير: والصواب من القول فى ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ: راعنا؛ لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه ﷺ، نظير الذى ذكر عن النبى أنه قال: «لا تقولوا للعنب الكرم، ولكن قولوا: الحَبَلَة. ولا تقولوا: عبدى، ولكن قولوا: فتاى». وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يبين تعالى بذلك شدة عداوة[1] الكافرين من الكتاب والمشركين، الذين حذر تعالى من مشابهتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم. وينبِّه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذى شرعه لنبيهم محمد ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) ﴾.

قال ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾: ما نبدل من آية.

وقال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أى: ما نَمحُ من آية.

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ قال: نثبت خطها ونبدل حكمها. حَدَّث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن أبى العالية، ومحمد بن كعب القرظى، نحو ذلك.

وقال الضحاك: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾: ما نُنْسِكَ. وقال عطاء: أما ﴿مَا نَنسَخْ﴾: فما نترك[2] من القرآن. قال ابن أبى حاتم: يعنى: تُرِكَ فلم ينزل على محمد ﷺ.

وقال السدى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ نسخها: قبضها. قال ابن أبى حاتم: يعنى: قبضها: رفعها، مثل قوله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. وقوله: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً».

وقال ابن جرير: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾: ما ننقل من حُكْم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يُحوِّلَ الحلالُ حراماً، والحرام حلالا، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً. ولا يكون ذلك إلا فى الأمر والنهى والحظر والإطلاق والمنع والإباحة. فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره،

---

(١) فى أ: «شدة عداوته».

(٢) فى أ: «فما ترك».

إنما هو تحويله ونقل عبَادَة إلى غيرها. وسواء نسخ حكمها أو خطها، وهى فى كلتا حالتيها منسوخة. وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم فى حد النسخ، والأمر فى ذلك قريب؛ لأن معنى النسخ الشرعى معلوم عند العلماء ولخَّص [(١)] بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعى متأخر. فاندرج فى ذلك نسخ الأخف بالأثقل، وعكسه، والنسخ لا إلى بدل. وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوط فى فَنِّ أصول الفقه.

وقال الطبرانى: حدثنا أبو شبيل[(٢)] عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدثنا أبى، حدثنا العباس ابن الفضل، عن سليمان بن أرقم، عن الزهرى، عن سالم، عن أبيه، قال: قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله ﷺ، فكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلة يصليان، فلم يقدرا منها على حرف، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «إنها مما نسخ وأنسى، فالهوا عنها». فكان الزهرى يقرؤها: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا[(٣)] ﴾ بضم النون خفيفة[(٤)]. سليمان بن أرقم ضعيف.

[وقد روى أبو بكر بن الأنبارى، عن أبيه، عن نصر بن داود، عن أبى عبيد، عن عبد الله ابن صالح، عن الليث، عن يونس وعبيد وعقيل، عن ابن شهاب، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف مثله مرفوعا، ذكره القرطبى[(٥)]][(٦)].

قوله تعالى: ﴿ أَوْ نُنسِهَا[(٧)] ﴾: فقرئ على وجهين: «ننسأها ونُنْسها». فأما من قرأها: «نَنْسأها» ـ بفتح النون والهمزة بعد السين ـ فمعناه: نؤخرها. قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسأهَا﴾ يقول: ما نبدل من آية، أو نتركها لا نبدلها.

وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: ﴿ أَوْ نُنسأهَا ﴾: نثبت خطها ونبدل حكمها. وقال[(٨)] عُبَيْد ابن عُمير، ومجاهد، وعطاء: ﴿ أَوْ نُنسأهَا ﴾: نؤخرها ونرجئها. وقال عطية العوفى: ﴿ أَوْ نُنسأهَا ﴾: نؤخرها فلا ننسخها. وقال السدى مثله أيضاً، وكذا [قال][(٩)] الربيع بن أنس. وقال الضحاك: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسأهَا﴾ يعنى: الناسخ من المنسوخ. وقال أبو العالية: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسأهَا ﴾ أى: نؤخرها عندنا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عبيد الله بن إسماعيل البغدادى، حدثنا خلف، حدثنا الخفاف، عن إسماعيل ـ يعنى ابن مسلم ـ عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال:

---

(١) فى ط: «ويحض». (٢) فى هـ: «أبو سنبل» وهو خطأ. (٣) فى ط: «أو ننسيها».

(٤) المعجم الكبير (١٢/ ٢٨٨).

(٥) ورواه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٢٠٣٤) من طريق ابن وهب، عن يونس عن ابن شهاب، عن أبى أمامة به، وبرقم (٢٠٣٥) من طريق شعيب بن أبى حمزة عن الزهرى عن أبى أمامة به.

(٦) زيادة من جـ، ط. (٧) فى ط، ب، أ: «أو ننساها».

(٨) فى جـ، ط، أ: «وكما قال». (٩) زيادة من أ.

خطبنا عمر، رضى الله عنه، فقال: يقول الله عز وجل: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أى: نؤخرها.

وأما على قراءة: ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة فى قوله: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ قال: وكان الله تعالى ينسى نبيه ما يشاء، وينسخ ما يشاء.

وقال ابن جرير: حدثنا سواد[1] بن عبد الله، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا عوف، عن الحسن أنه قال فى قوله: ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾[2] قال: إن نبيكم ﷺ أقرئ قرآناً ثم نسيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن نُفَيل، حدثنا محمد بن الزبير الحرانى، عن الحجاج ـ يعنى الجزرى[3] ـ عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان مما ينزل على النبى ﷺ الوحى بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.

قال أبو حاتم: قال لى أبو جعفر بن نفيل: ليس هو الحجاج بن أرطأة، هو شيخ لنا جَزَرى.

وقال عبيد بن عمير: ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾: نرفعها من عندكم.

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، عن يعلى بن عطاء، عن القاسم بن ربيعة قال: سمعت سعد بن أبى وقاص يقرأ: « ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو تَنْسَهَا» قال: قلت له: فإن سعيد بن المسيَّب يقرأ: « أَوْ تُنْسَها ». قال: فقال[4] سعد: إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب، قال الله، جل ثناؤه: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى: ٦] ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤][5].

وكذا رواه عبد الرزاق، عن هشيم[6]. وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى حاتم الرازى، عن آدم، عن شعبة، عن يعلى بن عطاء، به. وقال: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن محمد بن كعب، وقتادة، وعكرمة، نحو قول سعيد.

وقال الإمام أحمد: أخبرنا يحيى، حدثنا سفيان الثورى، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال عمر: علىٌّ أقضانا، وأُبىٌّ أقرؤنا، وإنا لندع بعض ما يقول أُبىٌّ، وأبىّ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فلن أدعه لشىء. والله يقول: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِأْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[7].

وقال البخارى: حدثنا عمرو بن على، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال عمر: أقرؤنا أُبىٌّ، وأقضانا على، وإنا لندع من قول أبىّ، وذلك أن

---

(١) فى جـ، ط، ب، أ، و: «حدثنا سوار».
(٢) فى جـ، ب، أ: «أو ننسنها».
(٣) فى جـ: «الجوزى».
(٤) فى جـ: «فقال قال».
(٥) تفسير الطبرى (٢/ ٤٧٥).
(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧٥).
(٧) المسند (٥/ ١١٣).

أبيا يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ. وقد قال الله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾[١].

وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ أى: فى الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ يقول: خير لكم فى المنفعة، وأرفق بكم.

وقال أبو العالية: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ فلا نعمل بها، ﴿أَوْ نُنسأهَا﴾ أى: نرجئها[٢] عندنا، نأت بها أو نظيرها.

وقال السدى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ يقول: نأت بخير من الذى نسخناه، أو مثل الذى تركناه.

وقال قتادة: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهى.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما يخلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقى من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم فى عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذى يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشىء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى. فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا. وامتثال ما أمروا. وترك ما عنه زجروا. وفى هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ، لكفر[٣] اليهود وتزييف شبهتهم ـ لعنهم الله[٤] ـ فى دعوى استحالة النسخ إما عقلا، كما زعمه بعضهم جهلا وكفراً، وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لى ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدِّل وأغير من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى ما أشاء إذا أشاء، وأقرُّ فيهما ما أشاء.

ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نَسْخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، عليهما الصلاة

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٤٨١).

(٢) فى جـ: «نؤخرها»، وفى أ: «نركتها».

(٣) فى أ: «لكفار».

(٤) فى أ: «لعنة الله عليهم».

والسلام، لمجيئهما[(١)] بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غَير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

[وأمر إبراهيم، عليه السلام، بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بنى إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل][(٢)].

قلت: الذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حِلُّ بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها. وأشياء كثيرة يطول ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه. وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا تصرف الدلالة فى المعنى، إذ هو المقصود، كما فى كتبهم مشهورا من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعته، عليه السلام، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته. وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مُغيَّاة إلى بعثته، عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً كقوله: ﴿ **ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ** ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب اتباعه معين[(٣)] لأنه جاء بكتاب هو آخر[(٤)] الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى.

ففى هذا المقام بين تعالى تقدير جواز النسخ، رداً على اليهود، عليهم لعائن الله، حيث قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴾ الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ** ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقرئ فى سورة آل عمران، التى نزل فى صدرها خطاباً مع أهل الكتاب، وقوع النسخ عند اليهود فى قوله تعالى: ﴿ **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ** ﴾ الآية [آل عمران: ٩٣] كما سيأتى تفسيرها، والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ فى أحكام الله تعالى، لما له فى ذلك من الحكم البالغة، وكلهم قال بوقوعه. وقال أبو مسلم الأصبهانى المفسر: لم يقع شىء من ذلك فى القرآن، وقوله هذا ضعيف مردود مرذول. وقد تعسف فى الأجوبة عما وقع من النسخ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يجب عن ذلك بكلام مقبول، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة، عن بيت المقدس لم يجب

---

(١) فى جـ، ط: «بمجيئها».

(٢) زيادة من جـ، ط.

(٣) فى ط، ب: «متعين».

(٤) فى ط: «هو أحدث».

بشيء، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثنين، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك، والله أعلم.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾.

نهى الله تعالى فى هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبى ﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] أى: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشىء قبل كونه؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء فى الصحيح: «أعظم المسلمين جُرْماً من سأل عن شىء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته»(١). ولما سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلا، فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكتَ سكتَ عن مثل ذلك؛ فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها. ثم أنزل الله تعالى حكم الملاعنة(٢). ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال(٣). وفى صحيح مسلم: «ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن(٤) نهيتكم عن شىء فاجتنبوه»(٥). وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج. فقال رجل: أكُل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثاً. ثم قال، عليه السلام: «لا، ولو قلت: نعم لوجَبَتْ، ولو وجَبَتْ لما استطعتم». ثم قال: «ذرونى ما تركتكم» الحديث. وهكذا قال أنس بن مالك: نُهينا أن نسأل رسولَ الله ﷺ عن شىء، فكان يعجبنا أن يأتى(٦) الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع(٧).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبى سنان، عن أبى إسحاق، عن البراء بن عازب، قال: إن كان ليأتى علىَّ السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شىء فأتهيب منه، وإن كنا لنتمنى الإعراب.

وقال البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ؛ ما سألوه إلا عن ثِنْتَى

(١) صحيح البخارى برقم (٧٢٨٩) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٨) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٣٠٨، ٥٢٥٩) ومسلم فى صحيحه برقم (١٤٩٢) من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه.
(٣) صحيح البخارى برقم (١٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٥٩٣).
(٤) فى ط، ب، أ، و: «وإذا».
(٥) صحيح مسلم برقم (١٣٣٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٦) فى جـ: «أن يجىء».
(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢).

عشرة مسألة، كلها فى القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، و ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠] يعنى: هذا وأشباهه[(١)].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أى: بل تريدون. أو هى[(٢)] على بابها فى الاستفهام، وهو إنكارى، وهو يعم المؤمنين والكافرين، فإنه، عليه السلام، رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد [بن جبير][(٣)]، عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حُرَيْمِلَة ـ أو وهب بن زيد ـ: يا محمد، ائتنا بكتاب تُنَزِّلُه علينا من السماء نقرؤه، وفَجِّرْ لنا أنهاراً نتَّبِعْك ونُصدِّقْك. فأنزل الله من قولهم: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ [وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ][(٤)]﴾، قال: قال رجل: يا رسول الله، لو كانت كَفَّاراتنا كفَّارات[(٥)] بنى إسرائيل! فقال النبى ﷺ: «اللهم لا نبغيها ـ ثلاثاً ـ ما أعطاكم الله خَيْر مما أعطى بنى إسرائيل، كانت[(٦)] بنو إسرائيل إذا أصاب أحدُهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفَّارتها، فإن كفرها كانت له خزياً فى الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزياً فى الآخرة. فما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل». قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال: «الصلوات الخمس من الجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن». وقال: «من هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت سيئة واحدة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك». فأنزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

وقال مجاهد: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾: أن يريهم الله جهرة، قال: سألت قريش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصَّفَا ذهباً. قال: «نعم وهو لكم كالمائدة لبنى إسرائيل إن كفرتم»، فأبوا ورجعوا.

وعن السدى وقتادة نحو هذا، والله أعلم.

والمراد أن الله ذمَّ من سأل الرسولَ ﷺ عن شَىء، على وجه التعنُّت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، تعنتاً وتكذيباً وعناداً، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أى:

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٤٥٤) من طريق عبد الله بن عمر بن أبان، عن محمد بن فضيل به مطولاً.
(٢) فى جـ: «وقيل بل هى».
(٣) زيادة من جـ.
(٤) زيادة من جـ، ط.
(٥) فى أ، و: «ككفارات».
(٦) فى جـ: «قال: كانت».

ومن يَشْتَرِ الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى: فقد خرج عن[1] الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التى لا يحتاجون إليها، على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)﴾ .

يحذر تعالى[2] عباده المؤمنين عن سلوك طَرَائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم فى الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم. ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتى أمر الله من النصر والفتح. ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه، كما قال محمد بن إسحاق:

حدثنى محمد بن أبى محمد، عن سعيد بن جبير، أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان حُيَيُّ ابن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهودَ للعرب حسداً، إذْ خَصهم الله برسوله ﷺ، وكانا جَاهدَين فى ردِّ الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ الآية.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، فى قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال: هو كعب بن الأشرف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهرى، أخبرنى عبدالرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه: أن كعب بن الأشرف اليهودى كان شاعراً، وكان يهجو النبى ﷺ. وفيه[3] أنزل الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ .

وقال الضحاك، عن ابن عباس: إن رسولا أميا يخبرهم بما فى أيديهم من الكتب والرسل[4] والآيات، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفراً وحسداً وبغياً؛ ولذلك قال

(١) فى أ: «من».
(٢) فى جـ: «يحذر تبارك وتعالى».
(٣) فى ط، ب: «وفيهم».
(٤) فى جـ، ط، ب: «من الرسل والكتب».

الله تعالى: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يقول: من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئا، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فعيَّرهم ووبخهم ولامهم أشدَّ الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل [١] عليهم وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم.

وقال الربيع بن أنس: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾: من قِبل أنفسهم. وقال أبو العالية: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾: من بعد ما تبين [لهم][٢] أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً؛ إذ كان من غيرهم. وكذا قال قتادة والربيع والسدى.

وقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ نَسَخَ ذلك قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] فَنَسَخَ هذا عفوه عن المشركين. وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدى: إنها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان[٣]، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عروة بن الزبير: أن أسامة بن زيد أخبره، قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكان رسول الله ﷺ يتأوَّل من العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش[٤].

وهذا إسناده[٥] صحيح، ولم أره في شيء من الكتب الستة [ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما][٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ يَحُثُّ [٧] تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتَعُودُ عليهم عاقبتُه يوم القيامة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة،

(١) في جـ، ط، ب، أ، و: «أنزل الله».
(٢) زيادة من ب، أ، و.
(٣) في أ: «أبو الوليد».
(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٣٣).
(٥) في ط، ب: «وهذا إسناد».
(٦) زيادة من جـ، ط.
(٧) في جـ، ط، ب، أ، و: «يحثهم».

حتى يمكن لهم الله[1] النصر فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يعنى: أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه، سواء كان خيراً أو شراً، فإنه سيجازى كل عامل بعمله.

وقال أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾: وهذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنهم مهما فعلوا من خير أو شر، سرا أو علانية، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شىء، فيجزيهم بالإحسان خيراً، وبالإساءة مثلها. وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً. وذلك أنه أعْلَم القومَ أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا فى طاعته إذ كان ذلك مُدَّخراً[2] لهم عنده، حتى يثيبهم عليه، كما قال: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾، وليحذروا معصيته.

قال: وأما قوله: ﴿ بَصِيرٌ ﴾ فإنه مبصر صرف إلى «بصير»، كما صرف مبدع إلى «بديع»، ومؤلم إلى «أليم»، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا ابن بُكَير، حدثنى ابن لَهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن أبى الخير، عن عقبة بن عامر، قال: رأيت رسول الله ﷺ يفسر[3] فى هذه الآية ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يقول: بكل شىء بصير[4].

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) ﴾.

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم فى سورة المائدة أنهم قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨]. فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من[5] دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة. وردَّ عليهم تعالى فى ذلك، وهكذا قال لهم فى هذه الدعوى التى ادعوها بلا دليل ولا حجة

(١) فى جـ، ط، ب: «يمكن الله لهم».
(٢) فى ب، أ، و: «مذخوراً».
(٣) فى جـ، ط، ب، أ: «يقرأ»، وفى و: «يقترئ».
(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٣٦).
(٥) فى جـ، ط: «فى».

ولا بينة، فقال: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾.

وقال أبو العالية: أماني تمنوها على الله بغير حق. وكذا قال قتادة والربيع بن أنس.

ثم قال: ﴿ قُلْ ﴾ أي: يا محمد، ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾.

وقال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس: حجتكم. وقال قتادة: بينتكم على ذلك. ﴿ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ كما تدعونه[1].

ثم قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ الآية: [آل عمران: ٢٠].

وقال أبو العالية والربيع: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ يقول: من أخلص لله.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ ﴾: أخلص، ﴿ وَجْهَهُ ﴾ قال: دينه، ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: متبع فيه الرسول ﷺ. فإن للعمل[2] المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة. فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل؛ ولهذا قال ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ». رواه مسلم من حديث عائشة، عنه، عليه السلام.

فعمل الرهبان ومن شابههم ـ وإن فرض أنهم يخلصون فيه لله ـ فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول [محمد][3] ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم، قال الله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور: ٣٩].

روى عن أمير المؤمنين عمر أنه تأولها في الرهبان كما سيأتي.

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضاً مردود على فاعله وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧]، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾.

وقوله: ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾: ضَمِن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم مما يخافونه من المحذور فـ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير: فـ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني: في الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ

---

(١) في جـ، ط، ب، و: «أي فيما تدعونه»، وفي أ: «أي مما تدعونه».
(٢) في أ: «في العمل».
(٣) زيادة من جـ، ط، ب.

يَحْزَنُونَ﴾ [يعنى: لا يحزنون][1] للموت.

وقوله تعالى: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾**: يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم. كما قال محمد بن إسحاق:

حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع ابن حُرَيْملة[2]: ما أنتم على شىء، وكفر بعيسى وبالإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شىء. وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة. فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهما[3]: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾**. قال: إن كلا يتلو فى كتابه تصديق من كفر به، أى: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفى الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء [4] من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما فى يد[5] صاحبه.

وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شىء.

وقال قتادة: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾** قال: بلى، قد كانت أوائل النصارى على شىء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا. **﴿وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾** قال: بلى، قد كانت أوائل اليهود على شىء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا.

وعنه رواية أخرى كقول أبى العالية، والربيع بن أنس فى تفسيره[6] هذه الآية: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾**: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

وهذا القول يقتضى أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى. ولكن ظاهر سياق الآية يقتضى ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾** أى: وهم يعلمون أن شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة فى وقت، ولكن تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً[7] ومقابلة للفاسد بالفاسد، كما تقدم عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة فى الرواية الأولى عنه فى تفسيرها، والله أعلم.

وقوله تعالى: **﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾**: يُبيِّن بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة. وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى: **﴿الَّذِينَ لَا**

---

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٢) فى أ: «بن خزيمة».
(٣) فى جـ: «من قوله».
(٤) فى أ، و: «جاء به».
(٥) فى جـ، ط، ب: «بما فى يدى».
(٦) فى أ، و: «فى تفسير».
(٧) فى جـ: «كفراً وعناداً».

يعلمون﴾ فقال الربيع بن أنس وقتادة: ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ قالا: قالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم. وقال ابن جُريج: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل. وقال السدى: ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ فهم: العرب، قالوا: ليس محمد على شيء.

واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثمّ دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى: إنه تعالى يجمع[(١)] بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة. وهذا كقوله تعالى فى سورة الحج: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وكما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) ﴾.

اختلف المفسرون فى المراد من الذين منعوا مساجد الله[(٢)] وسعَوا فى خرابها على قولين:

أحدهما: ما رواه العوفى فى تفسيره، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قال: هم النصارى. وقال مجاهد: هم النصارى، كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معْمَر، عن قتادة فى قوله: ﴿ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾: هو بُخْتَنَصَّر وأصحابه، خَرَّب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النصارى.

وقال سعيد، عن قتادة: قال: أولئك أعداء الله النصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بخْتَنَصَّر البابلى المجوسى على تخريب بيت المقدس.

وقال السدى: كانوا ظاهروا بُخْتَنَصَّر على خراب بيت المقدس حتى خربه، وأمر به أن تطرح فيه الجيف، وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بنى إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا. وروى نحوه عن الحسن البصرى.

القول الثانى: ما رواه ابن جرير: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب قال: قال ابن

---

(١) فى أ: «يحكم».

(٢) فى جـ: «مساجد الله أن يذكر فيها اسمه».

زيد فى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ قال: هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخل مكة حتى نحر هديه بذى طُوَى وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحد يَصُد عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده. فقالوا: لا يدخل علينا مَنْ قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق.

وفى قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ قال: إذ قطعوا من يَعْمُرُها بذكره ويأتيها للحج والعمرة.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر عن سلمة قال: قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن قُرَيشاً منعوا النبى ﷺ الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.

ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشاً لم تسع فى خراب الكعبة. وأما الروم فسعوا فى تخريب بيت المقدس.

قلت: الذى[1] يظهر ـ والله أعلم ـ القول الثانى، كما قاله ابن زيد، وروى عن ابن عباس؛ لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة فى البيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا إذ ذاك؛ لأنهم لُعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. وأيضاً فإنه تعالى لما وَجه الذم فى حق اليهود والنصارى، شَرَع فى ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة فى المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع فى خراب الكعبة، فأى خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأىّ خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك.

---

(١) فى ط، ب: «قلت والذى».

وقوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ**﴾: هذا خبر معناه الطلب، أى: لا تُمكِّنوا هؤلاء ـ إذا قَدَرتُم عليهم ـ من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية. ولهذا لما فتح رسولُ الله ﷺ مكة أمر من العام القابل فى سنة تسع أن ينادى برحاب منى: «ألا لا يَحُجَّن(١) بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عُريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته». وهذا كان تصديقاً وعملا بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا**﴾ الآية [التوبة:٢٨]، وقال بعضهم: ما كان ينبغى لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خَائفين على حال التهيب، وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلا أن يستولوا عليها أو يمنعوا(٢) المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق والواجب إلا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم.

وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيُظْهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يَبْقى بجزيرة العرب دينان، وأن تُجْلَىَ اليهود والنصارى منها، ولله الحمد والمنة. وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام وتَطْهير البقعة [المباركة](٣) التى بعث [الله](٤) فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله عليه(٥). وهذا هو الخزى لهم فى الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل. فكما صدوا المؤمنين(٦) عن المسجد الحرام، صُدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة، أجلُوا منها. ﴿**وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، والدعاء إلى غير الله عنده والطواف به عرياً، وغير ذلك من أفاعيلهم التى يكرهها الله ورسوله.

وأما من فَسَّر بيت(٧) المقدس، فقال كعب الأحبار: إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خرَّبوه(٨)، فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ**﴾ الآية، فليس فى الأرض نصرانى يدخل بيت المقدس إلا خائفاً.

وقال السدى: فليس فى الأرض رومى يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يُضْرَب(٩) عُنُقُه، أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها.

---

(١) فى ب، و: «ألا لا يحج»، وفى أ: «أن لا يحج».
(٢) فى جـ، ط، ب: «ويمنعوا».
(٣) زيادة من جـ.
(٤) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٥) فى جـ، ب، و: «صلوات الله وسلامه عليه».
(٦) فى أ: «المسلمين».
(٧) فى ط، ب: «ببيت».
(٨) فى أ: «حرقوه».
(٩) فى جـ، ط، ب: «أن تضرب».

وقال قتادة: لا يدخلون المساجد إلا مسارقة.

قلت: وهذا لا ينفى أن يكون داخلا فى معنى عموم الآية فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس، بامتهان الصخرة التى كانت يصلى[١] إليها اليهود، عُوقبوا شرعاً وقَدَرا بالذلة فيه، إلا فى أحيان من الدهر امتحن[٢] بهم بيت المقدس وكذلك اليهودُ لما عَصَوا الله فيه أيضاً أعظم من عصْيان النصارى كانت عقوبتهم أعظم، والله أعلم.

وفسر هؤلاء الخزى فى الدنيا، بخروج المهدى عند السدى، وعكرمة، ووائل بن داود. وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون.

والصحيح أن الخزى فى الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة كما قال الإمام أحمد: حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حَلبس[٣]: سمعت أبى يحدث، عن بُسْر[٤] بن أرطاة، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزى الدنيا ومن عذاب الآخرة»[٥].

وهذا حديث حسن، وليس هو فى شىء من الكتب الستة، وليس لصحابيه وهو بُسر[٦] بن أرطاة ـ ويقال: ابن أبى أرطاة ـ حديث سواه، وسوى [حديث][٧]: «لا تقطع الأيدى فى الغزو».

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾.

وهذا ـ والله أعلم ـ فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا[٨] من مكة وفارقوا مسجدهم ومُصَلاهم، وقد كان رسول الله ﷺ يصلى بمكةَ إلى بيت المقدس والكعبةُ بين يديه. فلما قدم المدينة وُجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعدُ، ولهذا يقول[٩] تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام، فى كتاب الناسخ والمنسوخ: حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا ـ والله أعلم ـ شأنُ القبلة: قال[١٠] تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، فاستقبل

(١) فى جـ، ب، و: «كانت تصلى»، وفى أ: «كانت تصل».
(٢) فى أ: «سخر».
(٣) فى جـ، ط، ب: «ابن حابس».
(٤) فى أ: «عن بشر».
(٥) المسند (٤/ ١٨١).
(٦) فى أ: «وهو بشر».
(٧) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.
(٨) فى أ: «الذين خرجوا».
(٩) فى جـ: «يقول الله».
(١٠) فى جـ، ب، و: «قال الله».

رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى بيته[١] العتيق ونسخها، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[٢].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة. وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة ـ وكان أهلُها اليهودَ ـ أمره الله أن يستقبل بيت المقدس. ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعةَ عشَرَ شهراً، وكان رسول الله ﷺ يُحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ [فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا][٣]﴾ إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ [يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ][٤]﴾، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً. وقال مجاهد: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [قال: قبلة الله][٥]: حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها: الكعبة.

وقال ابن أبى حاتم بعد روايته الأثر المتقدم، عن ابن عباس، فى نسخ القبلة، عن عطاء، عنه: وروى عن أبى العالية، والحسن، وعطاء الخراسانى، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وزيد بن أسلم، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها[٧] تعالى ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة، حيث شاؤوا من نواحى المشرق والمغرب؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه فى ذلك الوجه[٨] وتلك الناحية؛ لأن له تعالى المشارق والمغارب، وأنه لا يخلو منه مكان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فَرَضَ عليهم التوجُّهَ إلى المسجد الحرام.

هكذا قال، وفى قوله: «وإنه تعالى لا يخلو منه مكان»: إن أراد علمه تعالى فصحيح؛ فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة فى شىء من خلقه، تعالى الله

---

(١) فى جـ، أ، و: «البيت».

(٢) ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١/ ٣٤٦) من طريق حجاج بن محمد به، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٦٧) من طريق ابن جريج عن عطاء به وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا السياق».

(٣) زيادة من جـ.

(٤) زيادة من جـ، ط.

(٥) زيادة من جـ.

(٦) فى ط: «ثم».

(٧) فى جـ: «أنزلها الله».

(٨) فى أ: «التوجيه».

عن ذلك علواً كبيراً.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذناً من الله أن يصلى التطوع حيث توجه من شرق أو غرب، فى مسيره فى سفره، وفى حال المسايفة وشدة الخوف.

حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن إدريس، حدثنا عبد الملك ـ هو ابن أبى سليمان ـ عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر: أنه كان يصلى حيث توجهت به راحلته. ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، ويتأول هذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

ورواه مسلم والترمذى والنسائى وابن أبى حاتم وابن مَرْدُوَيه، من طرق، عن عبد الملك بن أبى سليمان، به[١]. وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة، من غير ذكر الآية.

وفى صحيح البخارى من حديث نافع، عن ابن عمر: أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وَصفها. ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا قياماً على أقدامهم، وركبانا مستقبلى القبلة وغير مستقبليها.

قال نافع: ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبى ﷺ[٢].

مسألة: ولم يفرق الشافعى فى المشهور عنه، بين سفر المسافة وسفر العدوى، فالجميع عنه يجوز التطوع فيه على الراحلة، وهو قول أبى حنيفة خلافا لمالك وجماعته، واختار أبو يوسف وأبو سعيد الأصطخرى، التطوع على الدابة فى المصر، وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، واختاره أبو جعفر الطبرى، حتى للماشى أيضاً.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية فى قوم عُمِّيَتْ عليهم القبلة، فلم يعرفوا شَطرها، فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله[٣]: لى المشارق والمغارب فأين وليتم وجوهكم فهنالك وجهى، وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية.

حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازى، حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا أبو الربيع السمان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى ليلة سوداء مظلمة، فنزلنا منزلا فجعل الرجلُ يأخذُ الأحجارَ فيعمل مسجداً يصلى فيه. فلما [أن][٤] أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة. فقلنا: يا رسول الله، لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الآية.

---

(١) تفسير الطبرى (٢/ ٥٣٠) وصحيح مسلم برقم (٧٠٠) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٨) وسنن النسائى (١/ ٢٤٤) وتفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٤٤).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٥).

(٣) فى أ: «فقال الله لهم».

(٤) زيادة من ط.

ثم رواه عن سفيان بن وكِيع، عن أبيه، عن أبي الربيع السمان، بنحوه[١].

ورواه الترمذى، عن محمود بن غيلان، عن وكيع. وابن ماجة، عن يحيى بن حكيم، عن أبى داود، عن أبى الربيع السمان[٢].

ورواه ابن أبى حاتم، عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن سعيد[٣] بن سليمان، عن أبى الربيع السمان[٤] ـ واسمه أشعث بن سعيد البصرى ـ وهو ضعيف الحديث.

وقال الترمذى: هذا حديث حسن. ليس إسناده بذاك، ولا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان، وأشعث يُضَعَّف فى الحديث.

قلت: وشيخه عاصم أيضاً ضعيف [٥].

قال البخارى: منكر الحديث. وقال ابن معين: ضعيف لا يحتج به. وقال ابن حبان: متروك، والله أعلم.

وقد روى من طرق أخرى، عن جابر.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية: حدثنا إسماعيل بن على بن إسماعيل، حدثنا الحسن بن على بن شبيب، حدثنى أحمد بن عبيد الله[٦] بن الحسن؛ قال: وجدت فى كتاب أبى: حدثنا عبد الملك العرزمى، عن عطاء،عن جابر، قال: بَعَثَ رسولُ الله ﷺ سَرِيَّة كنت فيها، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة، هى ههنا قِبَل السماك[٧]. فصلَّوا وخطُّوا خطوطاً، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة. فلما قفلنا من سفرنا[٨] سألنا النبى ﷺ، فسكت، وأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

ثم رواه من حديث محمد بن عبيد الله العَرْزَمى، عن عطاء، عن جابر، به[٩].

وقال الدارقطنى: قرئ على عبد الله بن عبد العزيز ـ وأنا أسمع ـ حدثكم داود بن عمرو، حدثنا محمد بن يزيد[١٠] الواسطى، عن محمد بن سالم، عن عطاء، عن جابر، قال: كنا مع رسول الله

---

(١) تفسير الطبرى (٢/ ٥٣١، ٥٣٢).

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٤٥) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٢٠).

(٣) فى و: «عن سعد».

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٤٤).

(٥) فى أ: «ضعيف الحديث».

(٦) فى هـ:«عبد الله».

(٧) فى جـ، ط، ب، أ، و: «قبل الشمال».

(٨) فى أ: «سيرنا».

(٩) ورواه الدارقطنى فى السنن (١/ ٢٧١) من طريق إسماعيل بن على عن الحسن بن على بن شبيب به، ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢/ ١٢) من طريق محمد بن الحارث عن أحمد بن عبيد الله قال: وجدت فى كتاب أبى فذكر مثله، ورواه أيضا (٢/ ١٠) من طريق محمد بن يزيد الواسطى، عن محمد بن عبيد الله العرزمى عن عطاء به.

(١٠) فى جـ: «بن زيد».

ﷺ في مسير فأصابنا غيم، فتحيرنا فاختلفنا في القبلة، فصلى كل [(١)] منا على حدة. وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة، وقال: «قد أجزأت صلاتكم».

ثم قال الدارقطني: كذا قال: عن محمد بن سالم، وقال غيره: عن محمد بن عبيد الله العَرزمي، عن عطاء، وهما ضعيفان[(٢)].

ثم رواه ابن مردويه أيضاً من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث سريَّة فأخذتهم ضبابة، فلم يهتدوا إلى القبلة، فصلوا لغير القبلة. ثم استبان لهم بعد طلوع[(٣)] الشمس أنهم صلَّوا لغير القبلة. فلما جاؤوا إلى رسول الله ﷺ حدَّثوه، فأنزل الله، عز وجل، هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

وهذه الأسانيد فيها ضَعْف، ولعله يشد بعضها بعضا. وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء، وهذه دلائل على عدم القضاء، والله أعلم.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي، كما حدثنا محمد بن بشار، حدثنا هشام بن معاذ[(٤)]، حدثني أبي، عن قتادة: أن النبي ﷺ قال: «إن أخاً لكم قد مات فصلوا عليه». قالوا: نصلي على رجل ليس بمسلم؟ قال: فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، قال قتادة: فقالوا: فإنه كان لا يصلي إلى القبلة. فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[(٥)].

وهذا غريب، والله أعلم.

وقد قيل: إنه كان يصلي إلى بيت المقدس قبل أن يبلغه الناسخ إلى الكعبة، كما حكاه القرطبي عن قتادة، وذكر القرطبي أنه لما مات صلى عليه رسول الله ﷺ فأخذ بذلك من ذهب إلى الصلاة على الغائب، قال: وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنه عليه السلام، شاهده حين صلى عليه طويت له الأرض. **الثاني**: أنه لما لم يكن عنده من يصلي عليه صلى عليه، واختاره ابن العربي، قال القرطبي: ويبعد أن يكون ملك مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه، وقد أجاب ابن العربي عن هذا لعلهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت. وهذا جواب جيد. **الثالث**: أنه عليه الصلاة والسلام إنما صلى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك، والله أعلم.

---

(١) في جـ، ط، ب، أ، و: «كل رجل».

(٢) سنن الدارقطني (١/ ٢٧١) ورواه الحاكم في المستدرك (١/ ٢٠٦) من طريق داود بن عمرو به، وقال: «هذا حديث صحيح رواته كلهم ثقات غير محمد بن سالم فإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح». قال الذهبي: قلت: «هو أبو سهل واه».

(٣) في جـ، ط، ب، أ، و: «بعدما طلعت».

(٤) في جـ، ط، ب، أ: «معاذ بن هشام».

(٥) تفسير الطبري (٢/ ٥٣٢).

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث أبى معشر، عن محمد بن عَمرو بن علقمة، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين المشرق والمغرب قِبْلَة لأهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق».

وله مناسبة هاهنا، وقد أخرجه الترمذى وابن ماجة من حديث أبى معشر، واسمه[1] نَجيح بن عبد الرحمن السِّندى المدنى، به[2]: «ما بين المشرق والمغرب قبلة».

وقال الترمذى: وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة. وتكلم بعض أهل العلم فى أبى معشر من قبل حفظه، ثم قال الترمذى: حدثنى الحسن بن [أبى][3] بكر المروزى، حدثنا المعلى بن منصور، حدثنا عبدالله بن جعفر المخرمى، عن عثمان بن محمد الأخنسى، عن سعيد[4] المقبرى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة»[5].

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

وحكى عن البخارى أنه قال: هذا أقوى من حديث أبى معشر وأصح. قال الترمذى: وقد روى عن غير واحد من الصحابة: ما بين المشرق والمغرب قبلة ـ منهم عمر بن الخطاب، وعلى، وابن عباس.

وقال ابن عمر: إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك، فما بينهما قبلة، إذا استقبلت القبلة.

ثم قال ابن مردويه: حدثنا على بن أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا يعقوب بن يونس مولى بنى هاشم، حدثنا شعيب بن أيوب، حدثنا ابن نمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ، قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة».

وقد رواه الدارقطنى والبيهقى[6]، وقال المشهور: عن ابن عمر، عن عمر، قوله.

قال ابن جرير: ويحتمل: فأينما تولوا وجوهكم فى دعائكم لى فهنالك وجهى أستجيب لكم دعاءكم، كما حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنى حجاج، قال: قال ابن جريج: قال مجاهد: لما نزلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

---

(١) فى و: «وابن».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٤٢) وسنن ابن ماجة برقم (١٠١١).

(٣) زيادة من جـ.

(٤) فى أ: «عن شعبة».

(٥) سنن الترمذى برقم (٣٤٤).

(٦) سنن الدارقطنى (١/ ٢٧٠) وسنن البيهقى (٢/ ٩) وهو معلول والصواب وقفه. قال ابن أبى حاتم فى العلل (١/ ١٨٤): «سئل أبو زرعة عن حديث رواه يزيد بن هارون، عن محمد بن عبد الرحمن، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ: «ما بين المشرق والمغرب قبلة» قال أبو زرعة: «هذا وهم، الحديث حديث ابن عمر موقوف».

قال ابن جرير: ويعنى بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾: يسع خلقه كلهم بالكفاية، والإفضال والجود[١].

وأما قوله: ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فإنه يعنى: عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة، والتى تليها على الرد على النصارى ـ عليهم لعائن الله ـ وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركى العرب، ممن[٢] جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم فى دعواهم وقولهم: إن لله ولدا. فقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومُقَدِّرهم ومسخرهم، ومسيرهم ومصرفهم، كما يشاء. والجميع عبيد[٣] له وملك له، فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك فى عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد! كما قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنعام: ١٠١] وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص].

فقرر[٤] تعالى فى هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم، الذى لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد! ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية من البقرة: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن عبد الله بن أبى حُسَين، حدثنا نافع بن جبير ـ هو ابن مطعم ـ عن ابن عباس، عن النبى ﷺ، قال: «قال الله تعالى: كَذَّبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيَّاى فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياى فقوله: لى ولد. فسبحانى[٥] أن أتخذ صاحبة أو ولداً».

---

(١) فى ط: «بالكفاية والجود والإفضال»، وفى ب: «بالكفاية والإفضال والجود والإفضال».

(٢) فى ب، أ: «من». (٣) فى ط: «والجميع عبد».

(٤) فى أ، و: «يقرر». (٥) فى ط: «سبحانى».

انفرد به البخارى من هذا الوجه(١).

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا محمد بن إسماعيل الترمذى، حدثنا إسحق بن محمد الفَرْوى، حدثنا مالك، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: كذبنى ابن آدم ولم ينبغى له أن يكذبنى، وشتمنى ولم ينبغ له أن يشتمنى، أما تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى. وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته(٢). وأما شتمه إياى فقوله: اتخذ الله ولداً. وأنا الله الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»(٣).

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبَر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم»(٤).

وقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أسباط، عن مطرِّف، عن عطية، عن ابن عباس، قال: ﴿قَانِتِينَ﴾ مصلين.

وقال عكرمة وأبو مالك: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾: مُقرُّون له بالعبودية. وقال سعيد بن جبير: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ يقول: الإخلاص. وقال الربيع بن أنس: يقول كل له قائم يوم القيامة. وقال السدى: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ يقول: له مطيعون يوم القيامة.

وقال خَصِيف، عن مجاهد: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال: مطيعون، كن إنساناً فكان، وقال: كن حماراً فكان.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾: مطيعون. يقول: طاعة الكافر فى سجود ظله وهو كاره.

وهذا القول عن مجاهد ـ وهو اختيار ابن جرير ـ يجمع الأقوال كلها، وهو أن القنوت: هو الطاعة والاستكانة إلى الله، وذلك شرعى وقدرى، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقد وَرَد حديث فيه بيان القنوت فى القرآن ما هو المراد به، كما قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونُس ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث: أن دَرّاجاً أبا السمح حدثه، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ، قال: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو

(١) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٢).
(٢) فى أ: «بإعادته».
(٣) الحديث رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩٧٤) من طريق شعيب عن أبى الزناد به، وفيه: «ولم يكن لى كفواً أحد».
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

الطاعة».

وكذا رواه الإمام أحمد، عن حسن بن موسى، عن ابن لَهِيعة، عن دَرّاج بإسناده، مثله[١].

ولكن هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه. ورفع هذا الحديث منكر، وقد يكون من كلام الصحابى أو مَنْ دونه، والله أعلم. وكثيراً ما يأتى بهذا الإسناد تفاسير فيها نكَارَة، فلا يغتر بها، فإن السند ضعيف، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: خالقهما على غير مثال سبق، قال مجاهد والسدى: وهو مقتضى اللغة. ومنه يقال للشىء المحدث: بدعة. كما جاء فى الصحيح لمسلم: «فإن كل محدثه بدعة [وكل بدعة ضلالة][٢]»[٣]. والبدعة على قسمين، تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة. وتارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، عن جَمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نعمَت البدعةُ هذه.

وقال ابن جرير: وبديع السموات والأرض: مبدعهما. وإنما هو مُفْعِل فصرف إلى فَعيل، كما صرف المؤلم إلى الأليم، والمسمع إلى السميع. ومعنى المبدع: المنشئ والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء[٤] مثله وإحداثه أحد.

قال: ولذلك سمى المبتدع فى الدين مبتدعاً؛ لإحداثه فيه ما لم يسبق[٥] إليه غيره، وكذلك كل محدث فعلا أو قولا لم يتقدمه فيه متقدم، فإن العرب تسميه مبتدعاً. ومن ذلك قول أعشى[٦] ثعلبة، فى مدح هوذة بن على الحَنفِى:

يُرعى إلى قَوْل سادات الرّجال إذا ... أبدَوْا له الحزْمَ أو ما شاءه ابتدَعا[٧]

أى: يحدث ما شاء.

قال ابن جرير: فمعنى الكلام: فسبحان الله أنى يكون لله ولد، وهو مالك ما فى السموات والأرض، تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوَحْدانيّة، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه. وهذا إعلام من الله عباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح، الذى أضافوا إلى الله بُنُوّته؛ وإخبار منه لهم أن الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال، هو الذى ابتدع المسيح من غير والد بقدرته.

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٤٨) والمسند (٣/ ٧٥).

(٢) زيادة من ط.

(٣) فى صحيح مسلم برقم (٨٦٧) من حديث جابر رضى الله عنه بلفظ: «وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

(٤) فى أ: «إلى أشباه». (٥) فى أ: «ما لم يسبقه». (٦) فى و: «بن».

(٧) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ٥٤٠).

وهذا من ابن جرير ، رحمه الله ، كلام جيد وعبارة صحيحة.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾: يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدَّر أمراً وأراد كونه، فإنما يقول له: كن. أى: مرة واحدة، فيكون، أى: فيوجد على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فإنَّما يقول له كن قولة فيكونُ

ونبَّه تعالى بذلك أيضاً على أنه خلق عيسى بكلمة: كُنْ، فكان كما أمره الله تعالى، قال [الله](١) تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) ﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حُرَيملة لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فليُكلمنا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله فى ذلك من قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.

وقال مجاهد[فى قوله](٢): ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ قال: النصارى تقوله.

وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهم. وفى ذلك نظر.

[وحكى القرطبى ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ أى: لو يخاطبنا بنبوتك يا محمد. قلت: وظاهر السياق أعم، والله أعلم](٣).

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدى فى تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم [مِّثْلَ قَوْلِهِمْ](٤)﴾، قالوا: هم اليهود والنصارى. ويؤيد هذا القول، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

---

(١) زيادة من أ، و.
(٢) زيادة من أ.
(٣) زيادة من جـ، ط.
(٤) زيادة من جـ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركى العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

وقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: أشبهت قلوب مشركى العرب قُلوبَ من تقدمهم فى الكفر والعناد والعتوّ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى: قد وَضَّحْنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن(١) وصدّق واتبع الرسل، وفهم ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالى. وأما من ختم الله على قلبه وجعل عل بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

[قوله تعالى](٢):

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الفَزَارى عن شيبان النحوى، أخبرنى قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «أنزلت عَلَيّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ قال: «بشيراً بالجنة، ونذيراً من النار»(٣).

وقوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾: قراءة أكثرهم(٤): ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ بضم التاء على الخبر. وفى قراءة أبى بن كعب: «وما تسأل» وفى قراءة ابن مسعود: «ولن تسأل عن أصحاب الجحيم»

---

(١) فى أ: «لمن اتقى».
(٢) زيادة من ط.
(٣) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٥٤).
(٤) فى ب، أ، و: «قراءة بعضهم».

نقلها[1] ابن جرير، أي: لا نسألك عن كفر من كفر بك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وكقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ الآية [الغاشية: ٢١، ٢٢] وكقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] وأشباه ذلك من الآيات.

وقرأ آخرون[2]: «ولا تَسْأَلْ عن أصحاب الجحيم» بفتح التاء على النهى، أى: لا تسأل عن حالهم، كما قال عبد الرزاق:

أخبرنا الثورى، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شعرى ما فعل أبواى، ليت شعرى ما فعل أبواى، ليت شعرى ما فعل أبواى؟». فنزلت: ﴿وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، فما ذكرهما[3] حتى توفاه الله، عز وجل.

ورواه ابن جرير، عن أبى كُرَيب، عن وَكِيع، عن موسى بن عبيدة، [وقد تكلموا فيه عن محمد بن كعب][4] بمثله[5] وقد حكاه القرطبى عن ابن عباس ومحمد بن كعب قال القرطبى: وهذا كما يقال لا تسأل عن فلان؛ أي: قد بلغ فوق ما تحسب، وقد ذكرنا فى التذكرة أن الله أحيا له أبويه حتى آمنا، وأجبنا عن قوله: (إن أبى وأباك فى النار). (قلت): والحديث المروى فى حياة أبويه عليه السلام ليس فى شيء من الكتب الستة ولا غيرها وإسناده ضعيف والله أعلم.

ثم قال [ابن جرير][6]: وحدثنى القاسم، حدثنا الحسين، حدثنى حجاج، عن ابن جُرَيج، أخبرنى داود بن أبى عاصم: أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «أين أبواى؟». فنزلت: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾[7].

وهذا مرسل كالذى قبله. وقد رد ابن جرير هذا القول المروى عن محمد بن كعب [القرظى][8] وغيره فى ذلك، لاستحالة الشك من الرسول ﷺ فى أمر أبويه. واختار القراءة الأولى. وهذا الذى سلكه هاهنا فيه نظر، لاحتمال أن هذا كان فى حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما، فلما علم ذلك تبرأ منهما، وأخبر عنهما أنهما من أهل النار [كما ثبت ذلك فى الصحيح][9] ولهذا أشباه كثيرة ونظائر، ولا يلزم ما ذكر[10] ابن جرير. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا فُلَيح بن سليمان، عن هلال بن على، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عَمرو بن العاص، فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة. فقال: أجل، والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن: يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميّين، وأنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، لا فظٌ ولا غليظ ولا

---

(١) فى ب، ط: «نقلهما». (٢) فى أ: «وقرأ البصريون». (٣) فى أ: «فما ذكره».
(٤) تفسير عبدالرزاق (٧٨/٥) وتفسير الطبرى (٥٥٨/٢) وموسى بن عبيدة ضعيف جداً.
(٥)(٦) زيادة من ط، أ. (٧) تفسير الطبرى (٥٥٩/٢).
(٨) زيادة من ط.
(٩) زيادة من أ.
(١٠) فى أ، و: «ما ذكره».

سَخَّاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله. فيفتح به أعينا عُمْياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً.

انفرد بإخراجه البخارى، فرواه فى البيوع عن محمد بن سنان، عن فُلَيح، به[١]. وقال: تابعه عبد العزيز بن أبى سلمة، عن هلال. وقال سعيد: عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام. ورواه فى التفسير عن عبد الله، عن عبد العزيز بن أبى سلمة، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، به[٢]. فذكر نحوه، فعبد الله هذا هو ابن صالح، كما صرح به فى كتاب الأدب. وزعم أبو مسعود الدمشقى أنه عبد الله بن رجاء.

وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسير هذه الآية من البقرة، عن أحمد بن الحسن بن أيوب، عن محمد بن أحمد بن البراء، عن المعافَى بن سليمان، عن فليح، به. وزاد: قال عطاء: ثم لقيت كعب الأحبار، فسألته فما اختلفا فى حرف، إلا أن كعباً قال بلُغَتِه: أعيناً عمومى، وآذاناً صمومى، وقلوباً غلوفاً[٣].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)﴾.

قال ابن جرير: يعنى بقوله[٤] جل ثناؤه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾: وليست اليهود ـ يا محمد ـ ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله فى دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أى: قل يا محمد: إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى، يعنى: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل.

قال قتادة فى قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ قال: خصومة عَلَّمها الله محمداً ﷺ وأصحابه، يخاصمون بها أهل الضلالة. قال قتادة: وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تزال طائفة من أمتى يقتتلون على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتى أمر الله».

قلت: هذا الحديث مُخرَّج فى الصحيح[٥] عن عبد الله بن عمرو[٦].

---

(١) المسند (٢/ ١٧٤) وصحيح البخارى برقم (٢١٢٥).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٣٨).

(٣) فى ط: «وقلوباً غلفى».

(٤) فى ط: «فى قوله».

(٥) فى ط: «فى الصحيحين».

(٦) صحيح مسلم برقم (١٩٢٤).

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾: فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما علموا من القرآن والسنة، عياذاً بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمته.

[وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار، وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا؛ لأنهم كلهم ملة واحدة، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه. وقال في الرواية الأخرى كقول مالك: إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى، كما جاء في الحديث، والله أعلم][١].

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾: قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: هم اليهود والنصارى. وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

وقال سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، وعبد الله بن عمران الأصبهاني، قالا: حدثنا يحيى بن يمان حدثنا أسامة بن زيد، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ قال: إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار[٢].

وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يُحِلَّ حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله.

وكذا رواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة ومنصور بن المعتمر، عن ابن مسعود.

وقال السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: يُحِلُّون حلاله ويُحَرِّمُون حرامه، ولا يُحَرِّفُونه عن مواضعه.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن مسعود نحو ذلك.

وقال الحسن البصري: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، يَكِلُونَ ما أشكل عليهم إلى عالمه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا ابن أبي زائدة، أخبرنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ [الشمس: ٢]، يقول: اتَّبَعها. قال: ورُوِيَ عن عكرمة، وعطاء، ومجاهد، وأبي رزين، وإبراهيم النخعي نحوُ ذلك.

وقال سفيان الثوري: حدثنا زُبَيد، عن مُرَّة، عن عبد الله بن مسعود، في قوله: ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ

---

(١) زيادة من ط، أ.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١/٣٥٧).

تلاوته﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه.

قال القرطبى: وروى نصر بن عيسى، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه﴾ قال: «يتبعونه حق اتباعه»، ثم قال: فى إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكره الخطيب إلا أن معناه صحيح. وقال أبو موسى الأشعرى: من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة. وعن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها، قال: وقد روى هذا المعنى عن النبى ﷺ أنه كان إذا مرَّ بآية رحمة سأل، وإذا مرَّ بآية عذاب تعوذ.

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ خبَر عن ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ أى: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ الآية [المائدة: ٦٦]. وقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، أى: إذا أقمتموها حق الإقامة، وآمنتم بها حقَّ الإيمان، وصدَّقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونَعْته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أى: إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعاً. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. وفى الصحيح: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة: يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى، إلا دخل النار»[١].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾.

قد تقدم نظير هذه الآية فى صدر السورة، وكررت هاهنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبى

(١) صحيح مسلم برقم (١٥٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

الأمي الذى يجدون صفته فى كتبهم ونعتَه واسمه وأمره وأمته. يحذرهم[(١)] من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بنى عَمِّهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم. ولا يحملهم ذلك الحسدُ على مخالفته وتكذيبه، والحيدة عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾.

يقول تعالى مُنَبِّهاً على شرف إبراهيم خليله، عليه السلام[(٢)]، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به فى التوحيد، حتى[(٣)] قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهى؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أى: واذكر ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملَّة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذى هو عليها مستقيم فأنت والذين[(٤)] معك من المؤمنين ، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أى: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهى ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أى: قام[(٥)] بهن كلهن، كما قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم: ٣٧]، أى: وَفَّى جميعَ ما شرع له، فعمل به صلوات الله عليه، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أى: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدرية، كقوله تعالى عن مريم، عليها السلام: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]. وتطلق ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا[لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ][(٦)]﴾ [الأنعام: ١١٥]، أى: كلماته الشرعية. وهى إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أى: قام بهن. قال: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أى: جزاء على ما فَعَل، كما قام بالأوامر وتَرَكَ الزواجر، جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به، ويحتذى حذوه.

---

(١) فى جـ، ط، أ، و: «فحذرهم».
(٢) فى جـ: «عليه الصلاة والسلام».
(٣) فى أ، و: «حين».
(٤) فى جـ: «فأنت والذى».
(٥) فى جـ: «أى أقام».
(٦) زيادة من ط.

وقد اختلف [العلماء](١) فى تفسير(٢) الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم الخليل، عليه السلام. فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات:

فقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال ابن عباس: ابتلاه الله بالمناسك. وكذا رواه أبو إسحاق السَّبِيعى، عن التميمى، عن ابن عباس.

وقال عبد الرزاق ـ أيضاً ـ: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس فى الرأس، وخمس فى الجسد؛ فى الرأس: قَص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفَرْق الرأس. وفى الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونَتْف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء(٣).

قال ابن أبى حاتم: ورُوِى عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبى، والنَّخَعى، وأبى صالح، وأبى الجلد، نحو ذلك.

قلت: وقريب من هذا ما ثبت فى صحيح مسلم، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَشرٌ من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البرَاجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء» [قال مصعب](٤): ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة.

قال وكِيع: انتقاص الماء، يعنى: الاستنجاء(٥).

وفى الصحيحين، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط». ولفظه لمسلم(٦).

وقال ابن أبى حاتم: أنبأنا يونس بن عبد الأعلى، قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى ابن لهيعة، عن ابن هبُيرة، عن حَنَش(٧) بن عبد الله الصنعانى، عن ابن عباس: أنه كان يقول فى هذه الآية: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، قال: عَشْرٌ، ست فى الإنسان، وأربع فى المشاعر. فأما التى فى الإنسان: حلق العانة، ونتف الإبط، والختان. وكان ابن هبيرة يقول: هؤلاء الثلاثة واحدة. وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والسواك، وغسل يوم الجمعة. والأربعة التى فى المشاعر: الطواف، والسعى بين الصفا والمروة، ورمى الجمار، والإفاضة.

وقال داود ابن أبى هند، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى و: «تعيين».
(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧٦).
(٤) زيادة من جـ، ط.
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦١).
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٨٨٩) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧).
(٧) فى جـ، ط: «حنيش»، وفى أ: «حسين».

كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ قلت له: وما الكلماتُ التى ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً، منها عشر آيات فى براءة: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ [الْحَامِدُونَ](١) ﴾ إلى آخر الآية(٢) [التوبة: ١١٢]، وعشر آيات فى أول سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ و ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ وعشر آيات فى الأحزاب: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ [الآية: ٣٥] إلى آخر الآية، فأتمهن كلهن، فكتبت له براءة. قال الله: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم: ٣٧].

هكذا رواه الحاكم، وأبو جعفر بن جرير، وأبو محمد بن أبى حاتم، بأسانيدهم إلى داود بن أبى هند، به (٣). وهذا لفظ ابن أبى حاتم.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن: فراق قومه ـ فى الله ـ حين أمر بمفارقتهم. ومحاجتَّه نمروذ(٤) ـ فى الله ـ حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافه. وصبره على قذفه إياه فى النار ليحرقوه ـ فى الله ـ على هول ذلك من أمرهم. والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده ـ فى الله ـ حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله، وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء(٥)، قال الله له: ﴿ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ على ما كان من خلاف الناس وفراقهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة، عن أبى رجاء، عن الحسن ـ يعنى البصرى ـ: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ [فَأَتَمَّهُنَّ](٦) ﴾ قال: ابتلاه بالكوكب فرضى عنه، وابتلاه بالقمر فرضى عنه، وابتلاه بالشمس فرضى عنه، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه، وابتلاه بالختان فرضى عنه، وابتلاه بابنه فرضى عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: إى والله، ابتلاه بأمر فصبر عليه: ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن فى ذلك، وعرف أن ربه(٧) دائم لا يزول، فوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما كان من المشركين. ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك. وابتلاه الله بذبح ابنه(٨) والختان فصبر على ذلك.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عمن سمع الحسن يقول فى قوله: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ

---

(١) زيادة من جـ.

(٢) فى و: «إلى آخر الآيات».

(٣) تفسير الطبرى (٣/ ٨) وتفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٦٠).

(٤) فى جـ: «ومحاجته بنمروذ».

(٥) فى جـ: «ذلك من البلاء كله وأخلصه للبلاء».

(٦) زيادة من أ.

(٧) فى جـ: «أن الله ربه».

(٨) فى ط: «بذبح ولده».

بِكَلِمَاتٍ [فَأَتَمَّهُن][١]﴾ قال: ابتلاه الله بذبح ولده، وبالنار، والكواكب[٢]، والشمس، والقمر.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا سَلْم بن قتيبة، حدثنا أبو هلال، عن الحسن ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: ابتلاه بالكوكب، وبالشمس، والقمر، فوجده صابراً.

وقال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فمنهن: ﴿إِنِّي[٣] جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ومنهن: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، ومنهن: الآيات في شأن المنسك والمقام الذي جعل لإبراهيم، والرزق الذي رزق ساكنو البيت، ومحمد بعث في دينهما.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا شبابة، عن ورقاء، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال الله لإبراهيم: إني مبتليك بأمر فما هو؟ قال: تجعلني للناس إماماً. قال: نعم. قال: ومن ذريتي؟ ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. قال: تجعل البيت مثابة للناس؟ قال: نعم. قال: وأمناً. قال: نعم. قال: وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك؟ قال: نعم. قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله؟ قال: نعم.

قال ابن أبي نَجيح: سمعته عن عكرمة، فعرضته على مجاهد، فلم ينكره.

وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد.

وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، قال: ابتلى بالآيات التي بعدها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ [فَأَتَمَّهُنَّ][٤]﴾ قال: الكلمات: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ الآية، قال: فذلك كله من الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم.

وقال السدي: الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم ربُّه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ [يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ][٥]﴾.

---

(١) زيادة من جـ.
(٢) في أ، و: «والكوكب».
(٣) في جـ، ط: «قال إني».
(٤، ٥) زيادة من أ.

[وقال القرطبى: وفى الموطأ وغيره، عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إبراهيم، عليه السلام، أول من اختتن وأول من ضاف الضيف، وأول من استحد، وأول من قَلَّم أظفاره، وأول من قص الشارب، وأول من شاب فلما رأى الشيب، قال: ما هذا؟ قال: وقار، قال: يا رب، زدنى وقاراً. وذكر ابن أبى شيبة، عن سعد بن إبرهيم، عن أبيه، قال: أول من خطب على المنابر إبراهيم، عليه السلام، قال غيره: وأول من بَرَّد البريد، وأول من ضرب بالسيف، وأول من استاك، وأول من استنجى بالماء، وأول من لبس السراويل، وروى معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أتخذ المنبر فقد اتخذه أبى إبراهيم، وإن أتخذ العصا فقد اتخذها أبى إبراهيم» قلت: هذا حديث لا يثبت، والله أعلم. ثم شرع القرطبى يتكلم على ما يتعلق بهذه الأشياء من الأحكام الشرعية](١).

قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميعُ ما ذكر، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزمُ بشىء منها أنه المرادُ على التعيين إلا بحديث أو إجماع. قال: ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له.

قال: غَيْرَ أنه قد روى عن النبى ﷺ فى نظير معنى ذلك خبران، أحدهما: ما حدثنا به أبو كُرَيْب، حدثنا رشدين بن سعد، حدثنى زبان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، قال: كان النبى ﷺ يقول: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله ﴿الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] حتى يختم الآية»(٢).

قال: والآخر منهما: حدثنا به أبو كريب، أخبرنا الحسن، عن عطية، أخبرنا إسرائيل، عن جعفر ابن الزبير، عن القاسم، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: « ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾: أتدرون ما وفى؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «وَفَّى عمل يومه، أربع ركعات فى النهار».

ورواه آدم فى تفسيره، عن حماد بن سلمة. وعبد بن حميد، عن يونس بن محمد، عن حماد ابن سلمة، عن جعفر بن الزبير، به(٣).

ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين، وهو كما قال؛ فإنه لا تجوز روايتهما إلا ببيان ضعفهما، وضعفهما من وجوه عديدة، فإن كلا من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء، مع ما فى متن الحديث مما يدل على ضعفه [والله أعلم](٤).

ثم قال ابن جرير: ولو قال قائل: إن الذى قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى

---

(١) زيادة من جـ، ط، أ.
(٢) تفسير الطبرى (٣/ ١٥).
(٣) تفسير الطبرى (٣/ ١٦).
(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.

بالصواب من القول الذى قاله غيرهم كـان مذهبـاً، فإن قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ وسائر الآيات التى هى نظير ذلك، كالبيان عن الكلمات التى ذكر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم.

قلت: والذى قاله أولاً من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر، أقوى من هذا الذى جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله؛ لأن السياق يعطى غير ما قالوه، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: لما جعل الله إبراهيم إماماً، سأل الله أن تكون الأئمةُ من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم. والدليل على أنه أجيب إلى طَلِبَته قولُ الله[١] تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكل نبى أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففى ذريته صلوات الله وسلامه عليه[٢].

وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فقد اختلفوا فى ذلك، فقال خَصِيف، عن مجاهد فى قوله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: إنه سيكون فى ذريتك ظالمون.

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون لى إمام ظالم [يقتدى به][٣]. وفى رواية: لا[٤] أجعل إماماً ظالماً يقْتَدَى به. وقال سفيان، عن[٥] منصور، عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا يكون إمام ظالم يقتدى به.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنى أبى، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا شريك، عن منصور، عن مجاهد، فى قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال: أما من كان منهم صالحاً فسأجعله إماماً يقتدى به. وأما من كان ظالما فلا ولا نُعْمَةَ عَيْنٍ.

وقال سعيد بن جبير: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: المراد به المشرك، لا يكون إمام ظالم. يقول: لا يكون إمام مشرك.

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء، قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فأبى أن يجعل من ذريته إماماً ظالماً. قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره.

وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا عمرو بن ثور القيسارى[٦] فيما كتب إلى، حدثنا الفريابى، حدثنا إسرائيل، حدثنا سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال الله لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾. فأبى أن يفعل، ثم قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

---

(١) فى جـ: «قوله».
(٢) فى جـ: «وسلامه عليه وعليهم أجمعين».
(٣) زيادة من ط.
(٤) فى جـ: «أن لا».
(٥) فى أ: «سفيان بن».
(٦) فى أ: «النيسابورى».

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: يخبره أنه كائن فى ذريته ظالم لا ينال عهده ـ ولا ينبغى [له](١) أن يوليه شيئاً من أمره وإن كان من ذرية خليله ـ ومحسن ستنفذ فيه دعوته، وتبلغ له فيه ما أراد من مسألته.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: يعنى لا عهدَ لظالم عليك فى ظلمه، أن تطيعه فيه.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله، عن إسرائيل، عن مسلم الأعور، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: ليس للظالمين عهد، وإن عاهدته فانتقضه(٢).

وروى عن مجاهد، وعطاء، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك.

وقال الثورى، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، قال: ليس لظالم عهد.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة، فى قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: لا ينال عهدُ الله فى الآخرة(٣) الظالمين، فأما فى الدنيا فقد ناله الظالم فأمن به، وأكل وعاش.

وكذا قال إبراهيم النخعى، وعطاء، والحسن، وعكرمة.

وقال الربيع بن أنس: عهد الله الذى عهد إلى عباده: دينه، يقول: لا ينال دينه الظالمين، ألا ترى أنه قال: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، يقول: ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق.

وكذا روى عن أبى العالية، وعطاء، ومقاتل بن حيان.

وقال جويبر، عن الضحاك: لا ينال طاعتى عَدُو لى يعصينى، ولا أنحلها إلا ولياً لى يطيعنى.

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد، حدثنا أحمد بن عبدالله بن سعيد الأسدى، حدثنا سليم بن سعيد الدامغانى، حدثنا وَكيع، عن الأعمش، عن سعد ابن عبيدة، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن على بن أبى طالب، عن النبى ﷺ، قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، قال: «لا طاعة إلا فى المعروف»(٤).

---

(١) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٢) فى جـ، ط، أ،و: «فأنقضه».

(٣) فى ط: «لا ينال عهد الله ظالم فى الآخرة».

(٤) قال البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٥٧): حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن زيد، عن سعد بن عبيدة، عن أبى عبد الرحمن، عن على ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً، فأوقد ناراً وقال: ادخلوها، فأرادوا أن يدخلوها، وقال آخرون: إنما فررنا منها، فذكروا للنبى ﷺ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة». وقال للآخرين: «لا طاعة فى المعصية، إنما الطاعة فى المعروف». فهذا هو أصل هذا الحديث من دون ذكر الآية، والله أعلم.

وقال السدي: ﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يقول: عهدي نبوتي.

فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية على ما نقله ابن جرير، وابن أبي حاتم، رحمهما الله تعالى. واختار ابن جرير أن هذه الآية ـ وإن كانت ظاهرة في الخبر ـ أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالمًا. ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل، عليه السلام، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه، كما تقدم عن مجاهد وغيره، والله أعلم.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (١٢٥)﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يقول: لا يقضون منه وطراً، يأتونه، ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾، يقول: يثوبون.

رواهما[1] ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا عبد الله بن رجاء، أخبرنا إسرائيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: يثوبون إليه ثم يرجعون. قال: وروي عن أبي العالية، وسعيد بن جبير ـ في رواية ـ وعطاء، ومجاهد، والحسن، وعطية، والربيع بن أنس، والضحاك، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثني عبد الكريم بن أبي عمير، حدثني الوليد بن مسلم قال: قال أبو عمرو ـ يعني الأوزاعي ـ حدثني عبدة بن أبي لبابة، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً.

وحدثني يونس، عن ابن وهب، قال: قال ابن زيد: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: يثوبون إليه من البُلْدان كلها ويأتونه.

[وما أحسن ما قال الشاعر في هذا المعنى، أورده القرطبي[2]:

جعل البيتُ مثاباً لهم ليس منه الدهر يقضون الوَطَرْ][3]

وقال سعيد بن جبير ـ في الرواية الأخرى ـ وعكرمة، وقتادة، وعطاء الخراساني ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مجمعاً.

﴿وَأَمْنًا﴾: قال الضحاك عن ابن عباس: أي أمناً للناس.

---

(١) في جـ، ط: «رواه».

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ١١٠).

(٣) زيادةمن جـ، ط، أ.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ يقول: أمناً من العدو، وأن يُحْمَل فيه السلاح. وقد كانوا فى الجاهلية يُتَخَطَّف الناس من حولهم، وهم آمنون لا يُسْبَون.

وروى عن مجاهد، وعطاء، والسدى، وقتادة، والربيع بن أنس، قالوا: من دخله كان آمناً.

ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية: أن الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً، من كونه مثابة للناس، أى: جعله مَحَلا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضى منه وطراً، ولو ترددت إليه كلَّ عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم، عليه السلام، فى قوله: ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ إلى أن قال: ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ(١)﴾ [إبراهيم: ٣٧ـ ٤٠]. ويصفه تعالى بأنه جعله أمناً، من دخله أمن، ولو كان قد فعل ما فَعل ثم دخله كان آمناً.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يَعْرِض له. كما وصفها فى سورة المائدة بقوله تعالى(٢): ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، أى: يُرْفَع عنهم بسبب تعظيمها(٣) السوءُ، كما قال ابن عباس: لو لم يحج الناسُ هذا البيتَ لأطبق الله السماءَ على الأرض؛ وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً وهو خليل الرحمن، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ .فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وفى هذه الآية الكريمة نَبَّه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده، فقال: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقد اختلف المفسرون فى المراد بالمقام ما هو؟ فقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرَ بن شَبَّة النميرى، حدثنا أبو خلف ـ يعنى عبد الله بن عيسى - حدثنا داود بن أبى هند، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: مقام إبراهيم: الحرم كله. وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك.

وقال [أيضاً](٤): حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، قال: سألت عطاء عن ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فقال: سمعت ابن عباس قال: أما مقام إبراهيم الذى ذكر هاهنا، فمقام إبراهيم هذا الذى(٥) فى المسجد. ثم قال: و﴿ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ ﴾: يعد كثير، «مقام إبراهيم»: الحج كله. ثم فسره لى عطاء فقال: التعريف، وصلاتان بعرفة، والمشعر، ومنى، ورمى الجمار، والطواف بين الصفا والمروة. فقلت: أفسره ابن عباس؟ قال: لا. ولكن قال: مقام إبراهيم: الحج كله. قلت: أسمعت ذلك؟ لهذا أجمع. قال: نعم، سمعته منه.

---

(١) فى جـ، ط: «دعائى».
(٢) فى جـ: «بقوله تبارك وتعالى».
(٣) فى جـ: «لسبب تعظيمهم».
(٤) زيادة من و.
(٥) فى جـ: «الذى هو».

وقال سفيان الثورى، عن عبد الله بن مسلم، عن سعيد بن جبير: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: الحَجر مقام إبراهيم نبى الله، قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة. ولو غَسل رأسَه كما يقولون لاختلف رجلاه.

[وقال السدى: المقام: الحجر الذى وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه. حكاه القرطبى، وضعفه ورجحه غيره، وحكاه الرازى فى تفسيره عن الحسن البصرى وقتادة والربيع ابن أنس][(١)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن ابن جُرَيج، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، سمع جابراً يحدث عن حجة النبى ﷺ قال: لما طاف النبى ﷺ، قال له عمر: هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: نعم. قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[(٢)].

وقال عثمان بن أبى شيبة: أخبرنا أبو أسامة، عن زكريا، عن أبى إسحاق، عن أبى ميسرة قال: قال عمر: قلت: يا رسول الله، هذا مقام خليل ربنا؟ قال: نعم. قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[(٣)].

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا دَعْلَج بن أحمد، حدثنا غيلان بن عبد الصمد، حدثنا مسروق بن المرزبان، حدثنا زكريا بن أبى زائدة، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عمر بن الخطاب، أنه مرَّ بمقام إبراهيم، فقال: يا رسول الله، أليس نقوم مقام خليل ربنا[(٤)]؟ قال: «بلى». قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد[(٥)] بن أحمد بن محمد القزوينى، حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، عن مالك بن أنس، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر، قال: لما وقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة عند مقام إبراهيم، قال له عمر: يا رسول الله، هذا مقام إبراهيم الذى قال الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾؟ قال: «نعم». قال الوليد: قلت لمالك: هكذا حدثك ﴿وَاتَّخِذُوا﴾؟ قال: نعم. هكذا وقع فى هذه الرواية. وهو غريب.

وقد روى النسائى من حديث الوليد بن مسلم، نحوه[(٦)].

وقال البخارى: باب قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾: مثابة: يثوبون يرجعون.

---

(١) زيادة من جـ، ط، أ.

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٧٠).

(٣) ورواه الدارقطنى فى «الأفراد» كما فى «أطراف الغرائب والأفراد» لابن القيسرانى (ق ٣١) وقال: «غريب من حديث أبى إسحاق عن أبى ميسرة ـ عمرو بن شرحبيل ـ عن عمر، تفرد به زكريا بن أبى زائدة عنه».

(٤) فى جـ: «خليل الله».

(٥) فى أ، و: «حدثنا على».

(٦) سنن النسائى (٥/ ٢٣٦).

حدثنا مُسدَّد، حدثنا يحيى، عن حميد، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: وافقتُ ربى فى ثلاث، أو وافقنى ربى فى ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقال: وبلغنى مُعَاتبة النبى ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن[1] فقلت: إن انتهيتن أو ليبدلَن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيتُ إحدى نسائه، فقالت: يا عمر، أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تَعظهن أنت؟! فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الآية [التحريم: ٥].

وقال ابن أبى مريم: أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثنى حميد، قال: سمعت أنساً عن عمر، رضى الله عنهما[2].

هكذا ساقه البخارى هاهنا، وعلق الطريق الثانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبى مريم المصرى. وقد تفرد بالرواية عنه البخارى من بين أصحاب الكتب الستة. وروى عنه الباقون بواسطة، وغرضه من تعليق هذا الطريق ليبين[3] فيه اتصال إسناد الحديث، وإنما لم يسنده؛ لأن يحيى ابن أيوب الغافقى فيه شيء، كما قال الإمام أحمد فيه: هو سيئ الحفظ، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم، حدثنا حُمَيد، عن أنس، قال: قال عمر، رضى الله عنه[4]: وافقت ربى، عز وجل، فى ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقلت: يا رسول الله، إن نساءكَ يدخلُ عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة. فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥] فنزلت كذلك[5]. ثم رواه أحمد، عن يحيى وابن أبى عدى، كلاهما عن حميد، عن أنس، عن عمر أنه قال: وافقت ربى فى ثلاث، أو وافقنى ربى فى ثلاث، فذكره[6].

وقد رواه البخارى عن عَمْرو بن عَوْن، والترمذى عن أحمد بن منيع، والنسائى عن يعقوب بن إبراهيم الدورقى، وابن ماجه عن محمد بن الصباح، كلهم عن هُشَيم بن بشير، به[7]. ورواه الترمذى ـ أيضاً ـ عن عبد بن حمُيد، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة. والنسائى عن هناد، عن

---

(١) فى جـ: «عليهن بالحجاب».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٣).
(٣) فى جـ: «ليتبين».
(٤) فى جـ: «رضى الله عنهما».
(٥) المسند (١/ ٢٣).
(٦) رواية يحيى فى المسند (١/ ٣٦) ورواية ابن أبى عدى (١/ ٢٤).
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩١٦) وسنن الترمذى برقم (٢٩٦٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦١١) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٠٩).

يحيى بن أبي زائدة، كلاهما عن حميد، وهو ابن تيرويه الطويل، به[١]. وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه الإمام علي بن المديني، عن يزيد بن زُرَيع، عن حميد، به. وقال: هذا من صحيح الحديث، وهو بصري، ورواه الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه بسند آخر، ولفظ آخر، فقال: حدثنا عقبة بن مُكْرَم، أخبرنا سعيد بن عامر، عن جويرية بن أسماء، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر، قال: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي أسارى بدر، وفي مقام إبراهيم[٢].

وقال أبو حاتم الرازي: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا حميد الطويل، عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافقني ربي في ثلاث ـ أو وافقت ربي ـ قلت[٣]: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، لو حجبت النساء؟ فنزلت آية الحجاب. والثالثة: لما مات عبد الله بن أبي جاء رسول الله ﷺ ليصلي عليه. قلت: يا رسول الله، تصلي على هذا الكافر المنافق! فقال: «إيهاً عنك يا بن الخطاب»، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤][٤].

وهذا إسناد صحيح أيضاً، ولا تعارض بين هذا ولا هذا، بل الكل صحيح، ومفهوم العدد إذا عارضه منطوق قُدم عليه، والله أعلم.

وقال ابن جريج[٥]: أخبرني جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر: أن رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواط، ومشى أربعاً، حتى إذا فرغ عَمَد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا يوسف بن سلمان[٦]، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر قال: استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين.

وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه، من حديث حاتم بن إسماعيل[٧].

وروى البخاري بسنده، عن عمرو بن دينار، قال: سمعت ابن عمر يقول: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين[٨].

فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحَجَرُ الذي كان إبراهيم، عليه السلام، يقوم عليه

---

(١) سنن الترمذي برقم (٢٩٥٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٩٩٨).
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٣٩٩).
(٣) في ط: «فقلت».
(٤) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٨٨) من طريق أبي حاتم الرازي به.
(٥) في جـ: «ابن جرير».
(٦) في جـ، ط: «سليمان».
(٧) تفسير الطبري (٣/ ٣٦) وصحيح مسلم برقم (١٢١٨).
(٨) صحيح البخاري برقم (٣٩٥، ١٧٩٣).

لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل، عليه السلام، به ليقومَ فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، كلَّما كَمَّل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها هكذا، حتى تم جدارات الكعبة، كما سيأتى بيانه فى قصة إبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت، من رواية ابن عباس عند البخارى. وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب فى جاهليتها ؛ ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته المعروفة اللامية.

ومَوطئُ إبراهيم فى الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل[١]

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضا. وقال[٢] عبد الله بن وهب: أخبرنى يونس بن يزيد، عن ابن شهاب: أن أنس بن مالك حدثهم، قال: رأيت المقام فيه أثر أصابعه، عليه السلام، وإخْمَص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم.

وقال ابن جرير: حدثنا بشر بن معاذ، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا سعيد، عن قتادة: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾: إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه. ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذُكِرَ لنا من رأى أثر عَقِبِه وأصابعه فيه[٣]، فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى.

قلت: وقد كان المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل، عليه السلام[٤]، لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا ـ والله أعلم ـ أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عُمَرُ بن الخطاب، رضى الله عنه[٥]، [وهو][٦] أحدُ الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين، الذين أمِرْنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللَّذَين من بعدى أبى بكر وعمر». وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة، رضى الله عنهم أجمعين.

قال عبد الرزاق، عن ابن جُرَيج، حدثنى عطاء وغيره من أصحابنا، قالوا: أول من نقله عمر بن الخطاب، رضى الله عنه[٧]. وقال عبد الرزاق أيضاً، عن معمر، عن حَمَيد الأعرج، عن مجاهد قال: أول من أخر المقام إلى موضعه الآن، عمر بن الخطاب، رضى الله عنه[٨].

---

(١) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٣).
(٢) فى جـ، ط: «كما قال».
(٣) فى جـ، ط: «فيها».
(٤) فى جـ: «عليه الصلاة والسلام».
(٥) فى جـ: «رضى الله تعالى عنه».
(٦) زيادة من جـ.
(٧) المصنف لعبد الرزاق برقم (٨٩٥٥).
(٨) المصنف لعبد الرزاق برقم (٨٩٥٣).

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن على البيهقى[(١)]: أخبرنا أبو [الحسين بن][(٢)] الفضل القطان، أخبرنا القاضى أبو بكر أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل السلمى، حدثنا أبو ثابت، حدثنا الدراوردى، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها: أن المقام كان فى زمان رسول الله ﷺ، وزمان أبى بكر ملتصقاً بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب، رضى الله عنه. وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر العَدَنى قال: قال سفيان ـ [يعنى ابن عيينة][(٣)] وهو إمام المكيين فى زمانه ـ كان المقام فى[(٤)] سُقْع البيت على عهد رسول الله ﷺ، فحوله عمر إلى مكانه بعد النبى ﷺ، وبعد قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال: ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا، فرده عمر إليه.

وقال سفيان: لا أدرى كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله. قال سفيان: لا أدرى أكان[(٥)] لاصقاً بها أم لا؟[(٦)].

فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرناه، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا أبو عَمْرو، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، قال: قال عمر: يا رسول الله، لو صلينا خلف المقام؟ فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. فكان المقام عند البيت، فحوله رسول الله ﷺ إلى موضعه هذا. قال مجاهد: قد كان عمر يرى الرأى فينزل به القرآن[(٧)].

هذا مرسل عن مجاهد، وهو مخالف لما تقدم من رواية عبد الرزاق، عن معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد أن أول من أخَّر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وهذا أصح من طريق ابن مَرْدُويه، مع اعتضاد هذا بما تقدم، والله أعلم[(٨)].

﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم

(١) فى أ، و: «على بن الحسين».
(٢) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٣) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٤) فى هـ: «من» وهو خطأ.
(٥) فى جـ: «إن كان».
(٦) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٧٢).
(٧) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/ ١٦٩): «إسناده ضعيف».
(٨) وقد ألف سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ رحمه الله ـ رسالتين فيما يتعلق بالمقام:
الأولى: فى جواز نقل المقام سماها: «الجواب المستقيم فى جواز نقل مقام إبراهيم» مطبوعة ضمن فتاواه (٥/ ١٧ ـ ٥٥).
والثانية: فى الرد على الشيخ سليمان بن حمدان فى اعتراضه على رسالة الشيخ عبد الرحمن المعلمى فى جواز نقل المقام سماها: «نصيحة الإخوان ببيان بعض ما فى نقض المبانى لابن حمدان من الخبط والجهل والبهتان» مطبوعة ضمن فتاواه (٥/ ٥٦ ـ ١٣٢) وهما رسالتان قيمتان حشد فيهما ـ رحمه الله ـ جواز نقل المقام، واستشهد بكلام الحافظ ابن كثير هنا وكلام الحافظ ابن حجر فى فتح البارى، وهما تدلان على تبحره وسعة علمه ـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾.

قال الحسن البصرى: قوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ قال: أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنَّجَس ولا يصيبه من ذلك شىء.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: أمرناه. كذا قال. والظاهر أن هذا الحرف إنما عُدِّىَ بإلى؛ لأنه فى معنى: تقدمنا وأوحينا.

وقال سعيد جبير، عن ابن عباس، قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ قال: من الأوثان.

وقال مجاهد وسعيد بن جُبَير: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾: إن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس.

قال ابن أبى حاتم: ورُوِى عن عبيد بن عمير، وأبى العالية، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وقتادة ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ أى: بلا إله إلا الله، من الشرك.

وأما قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فالطواف بالبيت معروف، وعن سعيد بن جبير أنه قال فى قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ يعنى: من أتاه من غُرْبة، ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾: المقيمين فيه. وهكذا روى عن قتادة، والربيع بن أنس: أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جبير.

وقال يحيى [بن][1] القطَّان، عن عبد الملك ـ هو ابن أبى سليمان ـ عن عطاء فى قوله: ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾، قال: من انتابه[2] من الأمصار فأقام عنده[3]، وقال لنا ـ ونحن مجاورون ـ: أنتم من العاكفين.

وقال وَكِيع، عن أبى بكر الهذلى، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: إذا كان جالساً فهو من العاكفين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت، قال: قلت لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أرانى إلا مُكَلِّم الأمير أن أمنع الذين ينامون فى

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى جـ، أ: «من أتى».

(٣) فى أ: «فأقام عندنا».

المسجد الحرام، فإنهم يجنبون[1] ويُحدثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم، فقال: هم العاكفون.

[ورواه عبد بن حميد عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة، به][2].

قلت: وقد ثبت في الصحيح أنّ ابن عمرَ كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عَزَب[3].

وأما قوله تعالى: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: فقال وكيع، عن أبي بكر الهذلي، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ قال: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود. وكذا قال عطاء وقتادة.

وقال ابن جَرِيرٍ، رحمه الله: فمعنى الآية: وأمَرْنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتى للطائفين. والتطهير الذى أمرهما به فى البيت هو تطهيرهُ من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك. ثم أورد سؤالا فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شىء من ذلك الذى أمر بتطهيره منه؟ وأجاب بوجهين، أحدهما: أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زَمَان قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سُنَّة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماماً يقتدى به، كما قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ قال: من الأصنام التى يعبدون، التى كان المشركون يعظمونها.

قلت: وهذا الجواب مُفَرَّع على أنه كان يُعْبَدُ عنده أصنام قبل إبراهيم، عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم مُحَمَّدٍ.

الجواب الثانى: أنه أمرهما أن يخلصا [فى][4] بنائه لله وحده لا شريك له، فيبنياه مطهراً من الشرك والرَّيْب، كما قال جل ثناؤه: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩]. قال: فكذلك قوله: ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ أى: ابنيا بيتى على طهر من الشرك بى والريب، كما قال السدى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾: ابنيا بيتى للطائفين.

وملخص هذا الجواب: أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له، للطائفين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ الآيات [الحج: ٢٦ ـ ٣٧].

[وقد اختلف الفقهاء: أيما أفضل، الصلاة عند البيت أو الطواف؟ فقال مالك: الطواف به لأهل الأمصار أفضل من الصلاة عنده، وقال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقاً، وتوجيه كل منهما يذكر فى كتاب الأحكام][5].

---

(١) فى جـ: «فإنهم يخبثون».
(٢) زيادة من و.
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٤٠).
(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٥) زيادة من أ.

والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته، المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها، وركوعها؛ وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ وفى هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واجتزأ بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام. وفى ذلك ـ أيضاً ـ رَدٌّ على من لا يحجه من أهل الكتابين: اليهود والنصارى؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، ويعلمون أن بنى هذا البيت للطواف فى الحج والعمرة، وغير ذلك، وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون[(١)] مقتدين بالخليل، وهم لا يفعلون ما شرع الله له! وقد حَجَّ البيتَ موسى ابن عمران وغيره من الأنبياء، عليهم السلام، كما أخبر بذلك المعصوم، الذى لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

وتقدير الكلام إذاً: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [أى: تقدمنا لوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل][(٢)] ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أى: طهراه من الشرك والريب، وابنياه خالصاً لله، معقلا للطائفين والعاكفين والركع السجود. وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية، ومن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] ومن السنة من أحاديث كثيرة، من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك، من صيانتها من الأذى والنجاسات[(٣)] وما أشبه ذلك. ولهذا قال، عليه السلام: «إنما بنيت المساجد لما بنيت له»[(٤)]. وقد جَمَعْتُ فى ذلك جزءاً على حدة، ولله الحمد والمنة.

وقد اختلف الناس فى أول من بنى الكعبة، فقيل: الملائكة قبل آدم، وروى هذا عن أبى جعفر الباقر محمد بن على بن الحسين، ذكره القرطبى وحكى لفظه، وفيه غرابة، وقيل: آدم، عليه السلام، رواه عبد الرزاق عن ابن جريج، عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم: أن آدم بناه من خمسة أجبل: من حراء وطور سيناء وطور زيتا وجبل لبنان والجودى، وهذا غريب أيضاً. وروى نحوه عن ابن عباس وكعب الأحبار وقتادة، وعن وهب بن منبه: أن أول من بناه شيث، عليه السلام، وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهى مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها، وأما إذا صح حديث فى ذلك فعلى الرأس والعين.

(١) فى جـ: «فكيف يكون».

(٢) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٣) فى جـ: «والنجاسة».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٦٩) من حديث بريدة رضى الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار قال: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدى، حدثنا سفيان، عن أبى الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حَرَّم بيت الله وأمَّنَه، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يُصَادُ صيدها ولا يقطع عضاهها»[١].

وهكذا رواه النسائى، عن محمد بن بشار، عن بُنْدَار، به[٢].

وأخرجه مسلم، عن أبى بكر بن أبى شيبة، وعَمْرو الناقد، كلاهما عن أبى أحمد الزبيرى، عن سفيان الثورى[٣].

وقال ابن جرير ـ أيضاً ـ: حدثنا أبو كُرَيْب وأبو السائب قالا: حدثنا ابن إدريس. وحدثنا أبوكريب، حدثنا عبد الرحيم الرازى، قالا جميعاً: سمعنا أشعث، عن نافع، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم كان عبد الله وخليله، وإنى عبدُ الله ورسوله. وإن إبراهيم حَرَّم مكة، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها، عضاهَها وصيدَها، لا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير»[٤].

وهذه الطريق غريبة، ليست فى شىء من الكتب الستة، وأصل الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر، جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا فى ثمرنا، وبارك لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، وبارك لنا فى مُدِّنا. اللهم إن إبراهيمَ عبدُك وخليلك ونبيك، وإنى عبدك ونبيك. وإنه دعاك لمكة، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه». ثم يدعو أصْغَرَ وليد له، فيعطيه ذلك الثمر. وفى لفظ: «بركة مع بركة». ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان. لفظ مسلم[٥].

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُريب، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن أبى بكر بن محمد، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن رافع بن خَديج، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنى أحرم ما بين لابتيها».

انفرد بإخراجه مسلم، فرواه عن قتيبة، عن بكر بن مضر، به[٦]. ولفظه كلفظه سواء. وفى

---

(١) تفسير الطبرى (٣/ ٤٨)، واللابتان: هما الحرتان بجانبى المدينة، والعضاة: كل شجر عظيم له شوك، وقيل: العظيم من الشجر مطلقاً.

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (٤٢٨٤).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٣٦٢).

(٤) تفسير الطبرى (٣/ ٤٨).

(٥) صحيح مسلم برقم (١٣٧٣).

(٦) تفسير الطبرى (٣/ ٤٩).

الصحيحين عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ لأبى طلحة: «التمس لى غلاماً من غلمانكم يخدمنى». فخرج بى أبو طلحة يردفنى وراءه، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل. وقال فى الحديث: ثم أقْبَلَ حتى إذا بدا له أُحد قال: «هذا جبل يُحبُّنا ونحبه». فلما أشرف على المدينة قال: «اللهم إنى أحرم ما بين جبليها، مثلما حرم به إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم فى مُدِّهم وصاعهم». وفى لفظ لهما: «اللهم بارك لهم فى مكيالهم، وبارك لهم فى صاعهم، وبارك لهم فى مدهم». زاد البخارى: يعنى: أهل المدينة[١].

ولهما أيضاً عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَى ما جعلت بمكة من البركة»[٢].

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحَرَّمتُ [٣] المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت[٤] لها فى مدها وصاعها[٥] مثل ما دعا إبراهيم لمكة».

رواه البخارى وهذا لفظه[٦]، ومسلم ولفظه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإنى حرَّمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإنى دعوت لها فى صاعها ومدها بمثل ما دعا إبراهيم لأهل مكة»[٧].

وعن أبى سعيد، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «اللهم إنَّ إبراهيم حَرَّم مكة فجعلها حراماً، وإنى حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها، لا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يخبط فيها شجرة إلا لعلف. اللهم بارك لنا فى مدينتنا، اللهم بارك لنا فى صاعنا، اللهم بارك لنا فى مُدِّنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين». الحديث رواه مسلم[٨].

والأحاديث فى تحريم المدينة كثيرة، وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم، عليه السلام، لمكة، لما فى ذلك فى مطابقة الآية الكريمة.

[وتَمسَّك بها من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل، وقيل: إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض وهذا أظهر وأقوى][٩].

وقد وردت أحاديث أخَرُ تدلُّ على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض، كما

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٣٦١).
(٢) صحيح البخارى برقم (١٨٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٣٦٩).
(٣) فى جـ، ط: «وإنى حرمت».
(٤) فى جـ، ط: «وإنى دعوت».
(٥) فى جـ، ط: «صاعها ومدها».
(٦) صحيح البخارى برقم (٢١٢٩).
(٧) صحيح مسلم برقم (١٣٦٠).
(٨) صحيح مسلم برقم (١٣٧٤).
(٩) زيادة من جـ، ط، أ.

جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حَرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يُحل القتال فيه لأحد قبلى، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. لا يُعْضَد شوكه ولا ينفر صيده، ولا تُلْتَقط لُقَطَتُه إلا من عرَّفها، ولا يختلى خَلاَهَا». فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذْخَر فإنه لقَيْنهم ولبيوتهم. فقال: «إلا الإذخر» وهذا لفظ مسلم(١).

ولهما عن أبى هريرة نحو من ذلك(٢).

ثم قال البخارى بعد ذلك: قال(٣) أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم، عن صفية بنت شيبة: سمعت النبى ﷺ، مثله(٤).

وهذا الذى علقه البخارى رواه الإمام أبو عبد الله بن ماجة، عن محمد بن عبد الله بن نُمَير، عن يونس بن بُكَيْر، عن محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم بن يَنَّاق، عن صفية بنت شيبة، قالت: سمعت النبى ﷺ يخطب عام الفتح، فقال: «يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهى حَرَام إلى يوم القيامة، لا يُعْضَد شجرها ولا يُنَفَّر صيدُها، ولا يأخذ لُقَطَتَها إلا مُنْشِد». فقال العباس: إلا الإذخر؛ فإنه للبيوت والقبور. فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإذْخَر»(٥).

وعن أبى شُرَيح العدوى أنَّه قال لعَمْرو بن سعيد ـ وهو يبعث البعوث إلى مكة ـ: ائذن لى ـ أيها الأمير ـ أن أحدثَك قولا قام به رسولُ الله ﷺ الغَد من يوم الفتح، سَمِعَتْه أذناى ووعاه قلبى، وأبصرته عيناى حين تكلَّم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكةَ حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد تَرَخَّصَ بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم. وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب». فقيل لأبى شُرَيح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصياً، ولا فاراً بدم، ولا فاراً بخَرَبَة.

رواه البخارى ومسلم، وهذا لفظه(٦).

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حَرَّم مكة يوم خلق السموات

---

(١) صحيح البخارى برقم (١٨٣٤، ١٥٨٧، ٣١٨٩، ٣٠٧٧) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣).
(٢) صحيح البخارى برقم (١١٢، ٦٨٨٠) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٥).
(٣) فى جـ، ط: «وقال».
(٤) صحيح البخارى برقم (١٣٤٩).
(٥) سنن ابن ماجة برقم (٣١٠٩).
(٦) صحيح البخارى برقم (١٨٣٢) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٤).

والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم، عليه السلام، حَرَّمها؛ لأن إبراهيم بَلَّغ عن الله حُكْمه فيها وتحريمه إياها، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم، عليه السلام، لها، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوباً عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل فى طينته، ومع هذا قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ الآية. وقد أجاب الله دعاءه بما سبق فى علمه وقَدَره. ولهذا جاء فى الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن بَدْء أمرك. فقال: «دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم، ورأت أمى كأنه[1] خرج منها نور أضاءت له قصور الشام».

أى: أخْبِرْنا عن بدء ظهور أمرك. كما سيأتى قريباً، إن شاء الله.

وأما مسألة تفضيل مكَّة على المدينة، كما هو قول الجمهور، أو المدينة على مكة، كما هو مذهب مالك وأتباعه، فتذكر فى موضع آخر بأدلتها، إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أى: من الخوف، لا يَرْعَبُ أهله، وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدراً. كقوله تعالى[2]: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقوله ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] إلى غير ذلك من الآيات. وقد تقدمت الأحاديث فى تحريم القتال فيها. وفى صحيح مسلم عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح»[3]. وقال فى هذه السورة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أى: اجعل هذه البقعة بلداً آمناً، وناسب هذا؛ لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وناسب هذا هناك لأنه، والله أعلم، كأنه وقع دعاء ثانياً[4] بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذى هو أصغر سناً من إسماعيل بثلاث عشرة سنة؛ ولهذا قال فى آخر الدعاء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قال: هو قول الله تعالى. وهذا قول مجاهد وعكرمة وهو الذى صوبه ابن جرير، رحمه الله تعالى: قال: وقرأ آخرون: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم، كما رواه أبو جعفر، عن الربيع، عن أبى العالية قال: كان ابن عباس يقول: ذلك قول إبراهيم، يسأل ربه أن من كفر فأمتعه قليلا.

---

(١) فى جـ: «كأنها».

(٢) فى جـ: «كما قال الله تعالى»، وفى ط: «لقوله تعالى».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٣٥٦).

(٤) فى جـ، ط، أ: «دعاء مرة ثانية».

وقال أبو جعفر، عن ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ يقول: ومن كفر فأرزقه أيضاً ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: لما عزل إبراهيم، عليه السلام، الدعوة عمَّن أبى الله أن يجعل له الولاية ـ انقطاعاً إلى الله ومحبته، وفراقاً لمن خالف أمره، وإن كانوا من ذريته، حين عرف أنه كائن منهم أنه ظالم ألا يناله عهدُه، بخبر الله له بذلك ـ قال الله: ومن كفر فإنى أرزق البر والفاجر وأمتعه قليلا.

وقال حاتم بن إسماعيل عن حُمَيد الخرَّاط، عن عمَّار الدُّهْنى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرُها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله ومن كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين أأخلق خلقاً لا أرزقهم؟! أمتعهم قليلاً، ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير. ثم قرأ ابن عباس: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]. رواه ابن مَرْدُويه. وروى عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضاً. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ . وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى: ثم ألجئه بعد متاعه فى الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير. ومعناه: أن الله تعالى يُنْظِرُهم ويُمْهلهُم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]، وفى الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم»(١)، وفى الصحيح أيضاً: «إن الله ليملى(٢) للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾(٣) [هود: ١٠٢].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث قريباً.

(٢) فى جـ، ط: «يملى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

الرَّحِيمُ﴾: فالقواعد: جمع قاعدة، وهى السارية والأساس، يقول تعالى: واذكر ـ يا محمد ـ لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، البيت، ورفعَهما القواعدَ منه، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، فهما فى عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، كما روى ابن أبى حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكى، عن وُهَيب بن الوَرد: أنه قرأ: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ ثم يبكى ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مُشْفق أن لا يتقبل منك. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين المخلصين[١] فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ أى: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أى: خائفة ألا يتقبل منهم. كما جاء به الحديث الصحيح، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ كما سيأتى فى موضعه.

وقال بعض المفسرين: الذى كان يرفع القواعد هو إبراهيم، والداعى إسماعيل. والصحيح أنهما كانا يرفعان ويقولان، كما سيأتى بيانه.

وقد روى البخارى هاهنا حديثاً سنورده ثم نُتْبِعه بآثار متعلقة بذلك. قال البخارى، رحمه الله:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن أيوب السخيتانى[٢]، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وَدَاعة ـ يزيد أحدُهما على الآخر ـ عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: أول ما[٣] اتخذ النساء المِنْطَق من قبَل أم إسماعيل، عليهما[٤] السلام. اتخذت منطقاً ليعفِّى أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، عليهما السلام، وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زَمْزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسِقَاء فيه ماء، ثم قَفَّى إبراهيم، عليه السلام، منطلقاً. فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت[٥]: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم، عليه السلام، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه، قال: ﴿رَبَّنَا[٦] إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، عليهما السلام، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِد ماء السقاء[٧] عَطِشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ

(١) فى أ، و: «الخلص».
(٢) فى أ، و: «السختيانى».
(٣) فى جـ: «أول من».
(٤) فى جـ: «عليه».
(٥) فى أ: «فقالت له».
(٦) فى جـ، ط: «رب» وهو خطأ.
(٧) فى أ، و: «نفد ما فى السقاء».

أو قال: يتلبط ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقربَ جبل فى الأرض يليها[١]، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طَرْفَ درعها، ثم سعت سَعْىَ الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى. ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحَداً؟ فلم تر أحداً. ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تَسَمَّعت فسمعَت أيضاً. فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غُوَاث فإذا هى بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ أو قال: بجناحه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عيناً مَعيناً».

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة؛ فإن هاهنا بيتاً لله، عز وجل، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله، عز وجل، لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم ـ أو أهل بيت من جُرْهم ـ مقبلين من طريق كَدَاء. فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادى وما فيه ماء. فأرسلوا جَرِيّاً أو جَرِيَّين، فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حَقَّ لكم فى الماء. قالوا: نعم.

قال ابن عباس[٢]: فقال النبى ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس. فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم. حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلامُ، وتعلم العربية منهم، وأنْفَسَهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل، عليهما[٣] السلام، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيلُ ليطالع تَرْكَتَه. فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه. فقالت: خرج يبتغى لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشَرٍّ، نحن فى ضيق وشدة. وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، وقولى له: يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل، عليه السلام، كأنه أنس شيئاً. فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسأل[٤] عنك، فأخبرته، وسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا فى جَهْد وشدَّة. قال: فهل أوصاك بشىء؟ قالت: نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول[٥]: غَيِّرْ عتبة بابك. قال: ذاك أبى. وقد أمرنى أن أفارقك، فالحقى بأهلك. فَطَلَّقها وتزوج منهم بأخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده. فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغى لنا. قال: كيف أنتم؟

(١) فى جـ: «إليها».
(٢) فى ط: «عبد الله بن عباس».
(٣) فى جـ، ط: «عليها».
(٤) فى جـ، ط: «فسألنا».
(٥) فى أ: «يقول لك».

وسألها عن عيشهم وَهَيْئَتهم. فقال: نحن بخير وسعة. وأثنت على الله، عز وجل. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء». قال النبى ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَب، ولو كان لهم، لدعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه». قال: «فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومريه يُثَبِّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، عليه السلام، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه[1]، فسألنى عنك، فأخبرته، فسألنى: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشىء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبى، وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك. ثم لَبثَ عنهم ما شاء الله، عز وجل، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِى نَبْلا[2] له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد، والوالد بالولد. ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرنى بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك، عز وجل. قال: وتعيننى؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتاً ـ وأشار إلى أكَمَة مرتفعة على ما حولها ـ قال: فعند ذلك رَفَعا القواعد من البيت فجعل[3] إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾»، قال: «فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾»[4].

[ورواه عبد بن حميد عن عبد الرزاق به مطولاً][5].

ورواه ابن أبى حاتم، عن أبى عبد الله محمد بن حمَّاد الظهرانى. وابن جرير، عن أحمد بن ثابت الرازى، كلاهما عن عبد الرزاق به مختصراً[6].

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا إسماعيل بن على بن إسماعيل، حدثنا بشر بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد الأزرقى، حدثنا مسلم بن خالد الزنجى، عن عبد الملك بن جُرَيج، عن كثير بن كثير، قال: كنت أنا وعثمان بن أبى سليمان، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين فى ناس مع سعيد بن جبير، فى أعلى المسجد ليلا، فقال سعيد بن جبير: سلونى قبل أن لا ترونى. فسألوه عن المقام. فأنشأ يحدثهم عن ابن عباس، فذكر الحديث بطوله.

ثم قال البخارى: حدثنا عبد الله بن محمد. حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو[7]، حدثنا إبراهيم بن نافع، عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، ومعهم شَنَّة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من

---

(١) فى جـ: «وأثنت عليه خيرا».
(٢) فى جـ: «يبنى له بيتاً».
(٣) فى جـ: «قال: فجعل».
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٦٤).
(٥) زيادة من و.
(٦) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٣٨١).
(٧) فى أ: «بن عمير».

الشنَّة، فَيدرُّ لبنها على صبيها، حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة، ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل، حتى[1] بلغوا كَدَاء نادته[2] من ورائه: يا إبراهيم، إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله، عز وجل. قالت: رضيت بالله. قال: فرجَعَتْ، فجعلت تشرب من الشنة، ويَدر لبنها على صَبيها حتى لما فَنِى الماء قالت: لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحدا. قال: فذهَبَتْ فصَعدت الصفا، فنظرت ونظرت هل تحس أحداً، فلم تحس أحداً. فلما بلغت الوادى سعَت[3] حتى أتت المروة، ففعلت ذلك أشواطاً ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، تعنى الصبى، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه يَنْشَغُ للموت، فلم تقُرَّها نفسها، فقالت: لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحداً. قال: فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت ونَظَرت فلم تُحس أحداً، حتى أتمت سبعا، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، فإذا هى بصوت، فقالت: أغثْ إن كان عندك خير. فإذا جبريل، عليه السلام، قال: فقال بعقبه هكذا، وغمز عَقِبَه على الأرض. قال: فانبثق الماء، فَدَهَشَتْ أم إسماعيل، فجعلت تحفر.

قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «لو تركتْه لكان الماء ظاهراً[4]».

قال: فجعلت تشرب من الماء ويَدِرّ لبنها على صَبِيِّها.

قال: فمر ناس من جُرْهم ببطن الوادى، فإذا هم بطير، كأنهم أنكروا ذلك، وقالوا: ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فَنَظَرَ، فإذا هو بالماء. فأتاهم فأخبرهم. فأتوا إليها فقالوا: يا أم إسماعيل، أتأذنين لنا أن نكون معك ـ أو نسكن معك؟ ـ فبلغ ابنها ونكح فيهم[5] امرأة.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ[6]، فقال لأهله: إنى مُطّلع تَرِكتى. قال: فجاء فسلم، فقال: أين إسماعيل؟ قالت امرأته: ذهب يصيد. قال: قولى له إذا جاء: غير عتبة بيتك. فلما جاء أخبرته، قال: أنت ذَاكِ، فاذهبى إلى أهلك.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال لأهله: إنى مُطَّلع تَرْكتى. قال: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد. فقالت: ألا تنزل فَتَطْعَم وتشرب؟ فقال: ما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم، وشرابنا الماء. قال: اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم.

قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «بَرَكة بدعوة إبراهيم».

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله: إنى مُطَّلع تَرْكتى. فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نَبْلا له[7]. فقال: يا إسماعيل، إن ربك، عز وجل، أمرنى أن أبنى له بيتاً. فقال: أطعْ ربك، عز وجل. قال: إنه قد أمرنى أن تعيننى عليه؟ فقال: إذن أفعلَ ـ أو كما قال ـ قال: فقاما[8]، [قال][9]: فجعل إبراهيم يبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ

(١) فى جـ، ط: «حتى لما».
(٢) فى جـ: «سألته».
(٣) فى جـ: «وسعت».
(٤) فى جـ: «ظاهر».
(٥) فى جـ: «منهم».
(٦) فى جـ، أ: «عليه السلام».
(٧) فى جـ: «يصلح بيتاً له».
(٨) فى جـ، ط: «فقام».
(٩) زيادة من جـ، ط.

الْعَلِيمُ﴾. قال: حتى ارتفع البناء وضَعُف الشيخ عن نقل الحجارة. فقام على حَجَر المقام، فجعل يناوله الحجارة ويقولان: **﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾**.

هكذا[١] رواه من هذين الوجهين في كتاب الأنبياء[٢].

والعجب أن الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه في كتابه المستدرك، عن أبي العباس الأصم، عن محمد بن سنان القَزَّاز، عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، عن إبراهيم بن نافع، به. وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. كذا قال. وقد رواه البخاري كما ترى، من حديث إبراهيم بن نافع، كأن فيه اقتصاراً، فإنه لم يذكر فيه [شأن][٣] الذبح. وقد جاء في الصحيح، أن قرني الكبش كانا معلقين بالكعبة، وقد جاء أن إبراهيم، عليه السلام، كان يزور أهله بمكة على البراق سريعاً[٤]، ثم يعود إلى أهله بالبلاد[٥] المقدسة، والله أعلم. والحديث ـ والله أعلم ـ إنما فيه ـ مرفوع ـ أماكن صَرح بها ابن عباس، عن النبي ﷺ.

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في هذا السياق ما يخالف بعض هذا، كما قال ابن جرير:

حدثنا محمد بن بشار، ومحمد بن المثنى قالا: حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن حارثه بن مضرِّب، عن علي بن أبي طالب، قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت، خرج معه إسماعيل وهاجَر. قال: فلما قدم مكة رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة، فيه مثلُ الرأس. فكلمه، قال: يا إبراهيم، ابن على ظِلي ـ أو قال على قدري ـ ولا تَزدْ ولا تنقص: فلما بنى خرج، وخلف إسماعيل وهاجر، فقالت هاجر: يا إبراهيم، إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله. قالت: انطلق، فإنه لا يضيعنا. قال: فعطش إسماعيل عطشاً شديداً، قال: فصعدت هاجر إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً، حتى أتت المروة فلم تر شيئاً، ثم رجعت إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً، حتى أتت المروة فلم تر شيئاً، ثم رجعت إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً، حتى فعلت ذلك سبع مرات، فقالت: يا إسماعيل، مت حيث لا أراك. فأتته وهو يَفْحَص برجله من العطش. فناداها جبريل فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أم ولد إبراهيم. قال: فإلى من وَكَلَكُما؟ قالت: وكلنا إلى الله. قال: وكلكما إلى كاف. قال: ففحص الغلام الأرض بأصبعه، فنبعت زمزم. فجعلت تحبس الماء فقال: دعيه فإنها رَوَاء[٦].

ففي هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهما، وقد يحتمل ـ إن كان محفوظاً ـ أن يكون أولا

---

(١) في ط: «وهكذا».
(٢) صحيح البخاري برقم (٣٣٦٥).
(٣) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٤) في جـ: «بمكة سريعاً على البراق».
(٥) في جـ: «ثم يعود لأهله إلى البلاد».
(٦) تفسير الطبري (٣/ ٦٩).

وضع له حوطاً وتحجيراً، لا أنه بناه إلى أعلاه، حتى كبر إسماعيل فبنياه معاً، كما قال الله تعالى.

ثم قال ابن جرير: حدثنا هَنَّاد بن السرى، حدثنا أبو الأحوص، عن سِماك، عن خالد بن عرعرة، أن رجلا قام إلى على، رضى الله عنه، فقال: ألا تخبرنى عن البيت، أهو أول بيت وضع فى الأرض؟ قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البَرَكة[1] مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً، وإن شئت أنبأتك كيف بنى: إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لى بيتاً فى الأرض، قال: فضاق إبراهيم بذلك ذَرعاً فأرسل الله السكينة ـ وهى ريح خجوج، ولها رأسان ـ فأتْبَع أحدهما صاحبه، حتى انتهت إلى مكة، فتطوت[2] على موضع البيت كطى الحجَفَة، وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة. فبنى إبراهيم وبقى حجر، فذهب الغلام يبغى شيئاً. فقال إبراهيم: أبغنى حجراً كما آمرك. قال: فانطلق الغلام يلتمس له حجراً، فأتاه به، فوجده قد ركب الحجر الأسود فى مكانه. فقال: يا أبَه، من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتانى به من لن يَتَّكِل[3] على بنائك، جاء به جبريل، عليه السلام، من السماء. فأتماه[4].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى، حدثنا سفيان، عن بشر بن عاصم، عن سعيد بن المسيب، عن كعب الأحبار، قال: كان البيت غثاءة على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاماً، ومنه دحيت الأرض.

قال سعيد: وحدثنا على بن أبى طالب: أن إبراهيم أقبل من أرمينية، ومعه السكينة تدله على تَبَوُّء[5] البيت كما تتبوأ العنكبوت بيتاً، قال: فكشفت عن أحجار لا يُطيق[6] الحجر إلا ثلاثون رجلا. قلت[7]: يا أبا محمد، فإن الله يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ قال: كان ذلك بعد.

وقال السدى: إن الله، عز وجل، أمر إبراهيم أن يبنى [البيت][8] هو وإسماعيل: ابنيا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود، فانطلق إبراهيم، عليه السلام، حتى أتى مكة، فقام هو وإسماعيل، وأخَذَا المعاول لا يدريان أين البيت؟ فبعث الله ريحاً، يقال لها: ريح الخجوج، لها جناحان ورأس فى صورة حية، فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس. فذلك حين يقول [الله][9] تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]. فلما بنيا القواعد فبلغا مكان الركن. قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنى، اطلب لى حجراً حسناً أضعه هاهنا. قال: يا أبت، إنى كسلان لَغِب.

---

(١) فى جـ، ط، أ، و: «فى البركة». (٢) فى أ: «فنظرت».
(٣) فى جـ: «من لا يتكل».
(٤) تفسير الطبرى (٣/ ٧٠).
(٥) فى أ: «حتى بنوا». (٦) فى ط: «ولا يطيق».
(٧) فى جـ، ط: «فقلت».
(٨) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٩) زيادة من جـ.

قال: عَلَيّ بذلك فانطلق فطلب[١] له حجراً، فجاءه بحجر فلم يرضه، فقال ائتنى بحجر أحسن من هذا، فانطلق يطلب له حجراً، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض، ياقوتة بيضاء مثل الثَّغَامة، وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن، فقال: يا أبه، من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك. فبنيا وهما يدعوان الكلمات التى ابتلى [بهن][٢] إبراهيم ربه، فقال: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

وفى هذا السياق ما يدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم. وإنما هُدىَ إبراهيمُ إليها وبُوِّئَ لها. وقد ذهب إلى ذلك[٣] ذاهبون، كما قال الإمام عبد الرزاق[٤]: أخبرنا معمر، عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ قال[٥]: القواعد التى كانت قواعد البيت قبل ذلك[٦].

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا هشام بن حسان، عن سوار ـ ختن عطاء ـ عن عطاء بن أبى رباح، قال: لما أهبط الله آدم من الجنة، كانت رجلاه فى الأرض ورأسُه فى السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم، يأنس إليهم، فهابته[٧] الملائكة، حتى شكت إلى الله فى دعائها وفى صلاتها. فخفضه الله إلى الأرض، فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش حتى شكا ذلك إلى الله فى دعائه وفى صلاته. فوجه إلى مكة، فكان موضع قَدَمه قرية، وخَطوُه مفازة، حتى انتهى إلى مكة، وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة، فكانت على موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الياقوتة، حتى بعث الله إبراهيم، عليه السلام، فبناه. وذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[٨] [الحج: ٢٦].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، قال: قال آدم: إنى لا أسمع أصوات الملائكة؟! قال: بخطيئتك، ولكن اهبط إلى الأرض، فابن لى بيتاً ثم احفف به، كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذى فى السماء. فيزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل: من حراء. وطور زيتا، وطور سَيْنا، وجبل لبنان والجودى. وكان رَبَضُه من حراء. فكان هذا بناء آدم، حتى بناه إبراهيم، عليه السلام، بعدُ[٩].

وهذا صحيح إلى عطاء، ولكن فى بعضه نكارَة، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا معمر، عن قتادة، قال: وضع الله البيت مع آدم حين أهبط الله آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند. وكان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض، فكانت

---

(١) فى جـ، ط: «يطلب».
(٢) زيادة من جـ.
(٣) فى جـ: «إلى هذا».
(٤) فى ط: «عبد الرزاق أيضاً واحمد».
(٥) فى ط: «قالوا».
(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧٨).
(٧) فى جـ: «فهابت».
(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (٣/ ٥٩) من طريق عبد الرزاق به.
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (٣/ ٥٧) من طريق عبد الرزاق به.

الملائكة تهابه، فنُقص إلى ستين ذراعاً؛ فحزن[١] إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم. فشكا ذلك إلى الله، عز وجل، فقال الله: يا آدم، إنى قد أهبطت لك بيتاً تطوف به كما يُطَاف حول عرشى، وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى، فانطلق إليه آدم، فخرج ومُدَّ له فى خطوه، فكان بين كل خطوتين مفازة. فلم تزل تلك المفازة[٢] بعد ذلك. فأتى آدم البيت فطاف به، ومَن بعده من الأنبياء[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد[٤]، حدثنا يعقوب القُمِّى، عن حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: وضع الله البيت على أركان الماء، على أربعة أركان، قبل أن تُخْلَق الدنيا بألفى عام، ثم دحِيت الأرض من تحت البيت.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى [عبد الله][٥] بن أبى نَجِيح، عن مجاهد وغيره من أهل العلم: أن الله لما بَوَّأ إبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام، وخرج معه بإسماعيل وبأمه هاجر، وإسماعيل طفل صغير يرضع، وحمِلُوا ـ فيما حدثنى ـ على البُرَاق، ومعه جبريل يَدُلُّه على موضع البيت ومعالم الحَرَم. وخرج معه جبريل، فكان لا يمر بقرية إلا قال: أبهذه أمرت يا جبريل؟ فيقول جبريل: امْضه. حتى قدم به مكة، وهى إذ ذاك عضَاة سَلَم وَسَمُر، وبها أناس يقال لهم: «العماليق» خارج مكةَ وما حولها. والبيت يومئذ ربوة حمراء مَدِرَة، فقال إبراهيم لجبريل: أهاهنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم. فعمد بهما إلى موضع الحجْر فأنزلهما فيه، وأمر هاجَرَ أمَّ إسماعيل أن تتخذ فيه عَريشاً، فقال: ﴿رَبَّنَا[٦] إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا هشام بن حَسَّان، أخبرنى حُمَيد، عن مجاهد، قال: خلق الله موضعَ هذا البيت قبلَ أن يخلق شيئاً بألفى سنة، وأركانه فى الأرض السابعة[٧].

وكذا قال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: القواعد فى الأرض السابعة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عَمْرو بن رافع، أخبرنا[٨] عبد الوهاب بن معاوية، عن عبد المؤمن بن خالد، عن علياء بن أحمر: أن ذا القرنين قدم مكة فوجد إبراهيم وإسماعيل يبنيان قواعدَ البيت من خمسة أجبل. فقال: مالكما ولأرضى؟ فقال[٩]: نحن عبدان مأموران، أمرنا ببناء هذه الكعبة. قال: فهاتا بالبينة على ما تدعيان. فقامت خمسة أكبش، فقلن: نحن نشهد أن إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران، أمرا ببناء هذه الكعبة. فقال: قد رضيت وسلمت. ثم مضى.

---

(١) فى جـ، ط، أ: «فحزن آدم». (٢) فى جـ، ط: «المفاوز».
(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٣/ ٥٩) من طريق عبد الرزاق به.
(٤) فى جـ، ط: «حدثنا أبو حميد». (٥) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٦) فى جـ، ط، أ، و: «رب» وهو خطأ.
(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (٣/ ٦٢) من طريق عبد الرزاق به.
(٨) فى جـ، ط: «حدثنا». (٩) فى جـ، ط، أ، و: «فقالا».

وذَكَرَ الأزْرَقى فى تاريخ مكة أن ذا القرنين طاف مع إبراهيم، عليه السلام، بالبيت، وهذا يدل على تقدم زمانه[١]، والله أعلم.

وقال البخارى، رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ الآية: القواعد: أساسه واحدها قاعدة. والقواعد من النساء: واحدتها قاعدٌ.

حدثنا إسماعيل، حدثنى مالك، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله: أن عبد الله بن محمد ابن أبى بكر أخبر عبد الله بن عُمَر، عن عائشة زوج النبى ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تَرَى أن قومك حين بنوا البيت[٢] اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟» فقلت: يا رسول الله، ألا تَرُدَّها على قواعد إبراهيم؟ قال: «لولا حِدْثان قومك بالكفر». فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشةُ سَمعت هذا[٣] من رسول الله ﷺ ما أُرَى رسُولَ الله ﷺ ترك استلام الرُكنين اللذَين يَلِيان الحِجْر إلا أن البيت لم يُتَمَّم على قواعد إبراهيم، عليه السلام[٤].

وقد رواه فى الحج عن القَعْنَبى، وفى أحاديث الأنبياء عن عبد الله بن يوسف. ومسلم عن يحيى ابن يحيى، ومن حديث ابن وهب. والنسائى من حديث عبد الرحمن بن القاسم، كلهم عن مالك، به[٥].

ورواه مسلم أيضاً من حديث نافع، قال: سمعت عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن أبى قُحَافة يحدث عبدَ الله بن عُمَر، عن عائشة، عن النبى ﷺ قال: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ـ أو قال: بكفر ـ لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر»[٦].

وقال البخارى: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الأسود، قال: قال لى ابنُ الزبير: كانت عائشة تُسر إليك حديثاً كثيراً، فما حدثتك فى الكعبة؟ قال قلت: قالت لى: قال النبى ﷺ: «يا عائشة، لولا قومك حديث عهدهم ـ فقال ابن الزبير: بكفر ـ لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين: باباً يدخل منه الناس، وباباً يخرجون». ففعله ابن الزبير.

انفرد بإخراجه البخارى، فرواه هكذا فى كتاب العلم من صحيحه[٧].

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا أبو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «لولا حَدَاثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم، فإن قريشا حين بنت البيت[٨] استقصرت، وجعلت لها خَلْفًا».

---

(١) تاريخ مكة (ص٧٤).
(٢) فى جـ، ط، أ: «بنوا الكعبة».
(٣) فى جـ: «سمعت ذلك».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٤).
(٥) صحيح البخارى برقم (١٥٨٣، ٣٣٦٨) وصحيح مسلم برقم (١٣٣٣) وسنن النسائى (٥/ ٢١٤).
(٦) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣).
(٧) صحيح البخارى برقم (١٢٦).
(٨) فى جـ: «بنت الكعبة».

قال: وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كُرَيب، قالا: حدثنا ابن نُمَير، عن هشام بهذا الإسناد. انفرد به مسلم[١].

قال: وحدثنى محمد بن حاتم، حدثنى ابن مهدى، حدثنا سليم بن حيّان، عن سعيد ـ يعنى ابن ميناء ـ قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول: حدثتنى خالتى ـ يعنى عائشة رضى الله عنها ـ قالت: قال النبى ﷺ: «يا عائشة، لولا قومك حديث عَهْد[٢] بشرك، لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، ولجعلت لها بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدْتُ فيها ستةَ أذرع من الحِجْر؛ فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة». انفرد به أيضاً[٣].

ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل، عليه السلام، بمدد[٤] طويلة وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين وقد نَقَل معهم فى الحجارة، وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة:

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يَهُمُّون بذلك[٥] ليسقفوها، ويهابون هَدْمها، وإنما كانت رَضما فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفراً سرقوا كنز الكعبة، وإنما كان يكون فى بئر فى جَوْف الكعبة، وكان الذى وُجد عنده الكنز دويك، مولى بنى مُلَيح بن عمرو من خزاعة، فقطعت قريش يده. ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك. وكان البحر قد رَمَىَ بسفينة إلى جُدَّة، لرجل من تجار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدُّوه لتسقيفها. وكان بمكة رجل قبطى نجار، فهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى كانت تَطْرَحُ فيها ما يُهْدَى لها كل يوم، فَتَتَشرق[٦] على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون. وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزَألّت وكَشَّت وفتحت فاها، فكانوا يهابونها، فبينا هى يوماً تَتَشرَّقُ على جدار الكعبة، كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائراً فاختطفها، فذهب بها. فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رَضِى ما أردنا، عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية.

فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنيانها، قام أبو وهب بن عَمْرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣).
(٢) فى جـ: «حديث عهدهم».
(٣) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣).
(٤) فى جـ: «بمدة».
(٥) فى جـ: «لذلك».
(٦) فى جـ، ط: «فتشرف».

مخزوم، فتناول من الكعبة حجراً، فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه. فقال: يا معشر قريش، لا تُدخلوا فى بنّيانها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بَغِى ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

قال ابن إسحاق: والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر[١] بن مَخزُوم[٢].

قال: ثم إن قريشا تَجَزأت الكعبة، فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبنى جُمَح وسَهْم، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى، ولبنى أسد بن عبد العزى بن قُصى، ولبنى عدى ابن كعب بن لؤى، وهو الحَطيم.

ثم إن الناس هابوا هَدْمها وفَرِقُوا[٣] منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم فى هَدْمها: فأخذ المعْوَل ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم تَرِعْ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله ما صنعنا. فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عَمَله، فهدم وهدم الناس معه، حتى إذا انتهى الهدم [بهم][٤] إلى الأساس، أساس إبراهيم، عليه السلام، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضا[٥].

قال [محمد بن إسحاق][٦]: فحدثنى بعض من يروى الحديث: أن رجلا من قريش، ممن كان يهدمها، أدخل عَتَلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس[٧].

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جَمَعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن ـ يعنى الحجر الأسود ـ فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا، وأعدوا للقتال. فقَربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة، فسموا: لعَقَة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً. ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا.

فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم ـ وكان عامئذ أسن

---

(١) فى أ: «الوليد بن المغيرة بن عمر بن عبد الله».
(٢) السيرة النبوية لابن إسحاق (نص رقم ١٠٣) ط، حميد الله، المغرب.
(٣) فى جـ: «وخافوا». (٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٥) السيرة النبوية لابن إسحاق (نص رقم ١٠٥) ط، حميد الله، المغرب.
(٦) زيادة من جـ، ط.
(٧) السيرة النبوية لابن إسحاق (نص رقم ١٠٦) ط، حميد الله، المغرب.

قريش كلهم ـ قال[١]: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضى بينكم فيه. ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ. فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال [رسول الله][٢] ﷺ: «هَلُمَّ إلَيَّ ثوباً» فأتى به، فأخذ الركن ـ يعنى الحجر الأسود ـ فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب»، ثم [قال][٣]: «ارفعوه جميعاً». ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنى عليه.

وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى: الأمين. فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا، قال الزبير بن عبد المطلب، فيما كان من أمر الحية التى كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها:

عجبت لَمَا تصوبت[٤] العُقَاب ... إلى الثعبان وهى لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش ... وأحياناً يكون لها وثَاب
إذا قمنا إلى التأسيس شَدَّت ... تُهَيِّبُنَا البناءَ وَقَدْ تُهَابُ
فلما أن خَشِينا الزَّجْرَ جاءت ... عقاب تَتْلَئِبُّ لها انصباب
فضمتها إليها ثم خَلَّتْ ... لنا البنيانَ ليس له حجاب
فَقُمْنَا حاشدين إلى بناء ... لنا منه القواعدُ والتراب
غداة نُرَفِّع التأسيس منه ... وليس على مُسَوِّينا ثياب
أعَزَّ به المليكُ بنى لُؤى ... فليسَ لأصله منهُم ذَهاب
وقد حَشَدَتْ هُنَاك بنو عَدىّ ... ومُرَّة قد تَقَدَّمَها كلاب
فَبَوَّأنا المليك بذاكَ عِزّا ... وعند الله يُلْتَمَسُ الثواب[٥]

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبى ﷺ ثمانية عشر ذراعاً، وكانت تكسى القباطى، ثم كُسِيت بعدُ البُرود، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف.

قلت: ولم تزل على بناء قريش حتى أحرقت[٦] فى أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين. وفى آخر ولاية يزيد بن معاوية، لما حاصروا ابن الزبير، فحينئذ نقضها ابنُ الزبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم، عليه السلام، وأدخل فيها الحجر وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين

(١) فى جـ، ط: «فقال». (٢) زيادة من جـ.
(٣) زيادة من ط. (٤) فى ط: «صوبت».
(٥) السيرة النبوية لابن إسحاق (نص رقم ١١٦) ط، حميد الله، المغرب.
(٦) فى أ، و: «احترقت».

بالأرض، كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، عن رسول الله ﷺ. ولم تزل كذلك مُدَّة إمارته حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مَرْوان له بذلك، كما قال مسلم بن الحجاج فى صحيحه:

حدثنا هَنَّاد بن السَّرِى، حدثنا ابن أبى زائدة، أخبرنا ابن أبى سليمان، عن عطاء، قال: لما احترق البيت زَمَنَ يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام، وكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسِمَ يريد أن يُجرِّئَهم ـ أو يُحزبهم ـ على أهل الشام، فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس، أشيروا علىَّ فى الكعبة، أنقضها ثم أبنى بناءها أو أصلح ما وَهَى منها؟ قال ابن عباس: فإنى[(١)] قد فَرِقَ لى رأى فيها، أرى أن تُصْلِحَ ما وَهى منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه[(٢)]، وأحجاراً أسلم الناس عليها، وبعث عليها النبى ﷺ. فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضى حتى يجدده، فكيف بيت ربكم، عز وجل؛ إنى مستخير ربى ثلاثاً ثم عازم على أمرى. فلما مضَت ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها. فتحاماها الناسُ أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمْر من السماء، حتى صعده رجل، فألقى منه حجارة، فلما لم يَرَه الناس أصابه شيء تتابعوا، فنقضوه حتى بلغوا به الأرض. فجعل ابن الزبير أعمدة يستر[(٣)] عليها الستور، حتى ارتفع بناؤه. وقال ابن الزبير: إنى سمعت عائشة، رضى الله عنها، تقول: إن النبى ﷺ، قال: «لولا أن الناس حديث عهدُهم بكفر، وليس عندى من النفقة ما يُقَوِّينى على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت له باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه[(٤)]». قال: فأنا أجد ما أنفق، ولست أخاف الناس. قال: فزاد فيه خمسة[(٥)] أذرع من الحجر، حتى أبدى له أسا[(٦)] نَظَر الناس إليه فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، فلما زاد فيه استقصره فزاد فى طوله عشرة[(٧)] أذرع، وجعل له بابين: أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه. فلما قُتِل ابنُ الزبير كتبَ الحجَّاج إلى عبد الملك يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شيء، أما ما زاده فى طوله فأقره. وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه، وسد الباب الذى فتحه. فنقضه وأعاده إلى بنائه[(٨)].

وقد رواه النسائى فى سننه، عن هناد، عن يحيى بن أبى زائدة، عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء، عن ابن الزبير، عن عائشة بالمرفوع منه[(٩)]. ولم يذكر القصة، وقد كانَت السنة إقرار ما فعله عبد الله بن الزبير، رضى الله عنه؛ لأنه هو الذى وَدَّه رسول الله ﷺ. ولكن خشى أن تنكره

(١) فى جـ: «فإنه».
(٢) فى جـ، ط: «عليها».
(٣) فى جـ، ط: «فستر».
(٤) فى جـ: «وباباً يخرج الناس منه».
(٥) فى جـ، ط: «خمس».
(٦) فى جـ: «أساساً»، وفى أ: «أشيا»، وفى و: «أشا».
(٧) فى جـ: «عشر».
(٨) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣).
(٩) سنن النسائى (٥/ ٢١٨).

قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالإسلام وقربِ عهدهم من الكفر. ولكن خفيت هذه السُّنَّةُ على عبد الملك؛ ولهذا[١] لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ، قال: وددنا أنا تركناه وما تولى. كما قال مسلم:

حدثنى محمد بن حاتم[٢]، حدثنا محمد بن بكر[٣]، أخبرنا ابن جُرَيج، سمعت عبد الله بن عبُيد بن عمير والوليد بن عطاء، يحدثان عن الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة، قال عبد الله بن عبيد: وَفَدَ الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان فى خلافته، فقال عبد الملك: ما أظن أبا خُبَيبٍ ـ يعنى ابن الزبير ـ سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها. قال الحارث: بلى، أنا سمعته منها. قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن قومك استقصروا من بنيان البيت، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فَهَلُمِّى لأريكِ ما تركوا منه». فأراها قريباً من سبعة[٤] أذرع[٥].

هذا حديث عبد الله بن عبُيد [ابن عمير][٦]. وزاد عليه الوليد بن عطاء: قال النبى ﷺ: «ولجعلت لها بابين موضوعين فى الأرض شرقياً وغربياً، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟» قالت: قلت: لا. قال: «تَعَزُّزاً ألا يدخلها إلا من أرادوا. فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها، يَدَعونه حتى[٧] يرتقى، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط». قال عبد الملك: فقلت للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم. قال: فَنَكَتَ ساعة بعصاه، ثم قال: وَدِدْتُ أنى تركت وما تَحَمَّل.

قال مسلم: وحدثناه محمد بن عمرو بن جبلة، حدثنا أبو عاصم (ح) وحدثنا عَبْدُ بن حُمَيد، أخبرنا عبد الرزاق، كلاهما عن ابن جُرَيج بهذا الإسناد، مثلَ حديث ابن[٨] بكر[٩].

قال: وحدثنى محمد بن حاتم، حدثنا عبد الله بن بكر السهمى، حدثنا حاتم بن أبى صَغيرة، عن أبى قَزَعَة أنَّ عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أمِّ المؤمنين، يقول: سمعتها تقول: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، لولا حِدْثان قومك بالكفر لنقضت البيت حتى أزيد فيها[١٠] من الحجر، فإنَّ قومك قصروا فى البناء». فقال الحارث بن عبد الله ابن أبى ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فأنا سمعت أم المؤمنين تحدث هذا. قال: لو كنتُ سمعته قبل أن أهدمَه لتركته على ما بنى ابن الزبير[١١].

---

(١) فى أ: «ولكن». (٢) فى جـ: «محمد بن بكر حاتم».

(٣) فى أ: «بن بكير». (٤) فى جـ، ط، أ، و: «سبع».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣).

(٦) زيادة من و. (٧) فى أ، و: «حين».

(٨) فى أ: «مثل حديث أبى».

(٩) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣).

(١٠) فى جـ، ط، أ، و: «فيه».

(١١) صحيح مسلم برقم (١٣٣٣).

فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة أم المؤمنين، لأنه قد رُوى عنها من طرق صحيحة متعددة عن الأسود بن يزيد، والحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن محمد ابن أبى بكر الصديق، وعروة بن الزبير. فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير. فلو ترك لكان جيداً.

ولكن بعد ما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كَرِه بعض العلماء أن يغيَّر عن حاله، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد ـ أو أبيه المهدى ـ: أنه سأل الإمام مالكاً عن هدم الكعبة وردِّها إلى ما فعله ابن الزبير. فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله مَلْعَبَة للملوك، لا يشاء أحد(١) أن يهدمها إلا هدمها. فترك ذلك الرشيد.

نقله عياضُ والنواوى، ولا تزال ـ والله أعلم ـ هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخرِّبها ذو السُّويقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرب الكعبة ذو السُّوَيقتين من الحبشة». أخرجاه(٢).

وعن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ، قال: «كأنى به أسودَ أفحَجَ، يقلعها حجراً حجراً». رواه البخارى(٣).

وقال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحَرَّانى، حدثنا محمد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله عنهما(٤)، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُخرِّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، ويسلبها حلْيتها(٥) ويجردها من كسوتها. ولكأنى أنظر إليه أصيلع أفَيْدعَ يضرب عليها بِمِسْحَاته ومِعْوله»(٦).

الفَدَع: زَيْغٌ بين القدم وعظم الساق.

وهذا ـ والله أعلم ـ إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج، لما جاء فى صحيح(٧) البخارى عن أبى سعيد الخُدْرى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليُحَجَّنَّ البيتُ وليُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج»(٨).

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام: ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾.

---

(١) فى أ، و: «لا يشاء الله».

(٢) صحيح البخارى برقم (١٥٩٦) وصحيح مسلم برقم (٢٩٠٩).

(٣) صحيح البخارى برقم (١٥٩٥).

(٤) فى جـ: «عنه». (٥) فى جـ: «ويسلبها قال حليتها».

(٦) المسند (٢/ ٢٢٠).

(٧) فى جـ: «فى حديث».

(٨) صحيح البخارى برقم (١٥٩٣).

قال ابن جرير: يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين[١] لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك فى الطاعة أحداً سواك، ولا فى العبادة غيرك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إسماعيل بن رجاء بن حيان الحصْنى القرشى، حدثنا معقل بن عبيد الله، عن عبد الكريم: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ قال: مخلصين لك، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ قال: مخلصة.

وقال أيضاً: حدثنا على بن الحسين، حدثنا المقدمى، حدثنا سعيد بن عامر، عن سلام بن أبى مطيع فى هذه الآية ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾ قال: كانا مسلمين، ولكنهما سألاه الثبات.

وقال عكرمة: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ قال الله: قد فعلت. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ قال الله: قد فعلت.

وقال السدى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾: يعنيان العرب.

قال ابن جرير: والصواب أنه يعمُّ العرب وغيرَهم؛ لأن من ذرية إبراهيم بنى إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

قلت: وهذا الذى قاله ابن جرير لا ينفيه السدى؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفى من عداهم، والسياق إنما هو فى العرب؛ ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية، والمراد بذلك محمَّد ﷺ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] ومع هذا لا ينفى رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وغير ذلك من الأدلة القاطعة.

وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، كما أخبر الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين، فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يُحب أن يكون من صُلْبه من يعبد الله وحده لا شريك له؛ ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم، عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وهو قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقد ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[٢].

---

(١) فى جـ، أ: «واجعلنا مسلمين».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٦٣١).

﴿وأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: قال ابن جُريج، عن عطاء ﴿وأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: أخرجها لنا، علّمْناها[١].

وقال مجاهد ﴿وأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: مذابحنا. وروُى عن عطاء أيضاً، وقتادة نحو ذلك.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا عتّاب بن بشير، عن خُصَيف، عن مجاهد، قال: قال إبراهيم: ﴿أَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فأتاه جبرائيل، فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد. فرفع القواعد وأتم البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله. ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله؟. ثم انطلق به نحو [٢]منَى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كَبِّر وارمه. فكبَّر ورماه. ثم انطلق [٣]إبليس فقام عند الجمرة الوسطى، فلما جاز به [٤]جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه. فكبر ورماه. فذهب إبليس وكان الخبيث أراد أن يُدْخِل فى الحج شيئاً فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام. فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات. قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها: ثلاث مرار. قال: نعم.

وروى عن أبى مِجلَز وقتادة نحو ذلك. وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى العاصم الغنوى، عن أبى الطّفيل، عن ابن عباس، قال: إن إبراهيم لما أرِىَ أوامر المناسك، عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه إبراهيم، ثم انطلق به جبريل حتى أتى[٦] به منى، فقال: مُنَاخ الناس هذا. فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به الجمرة الوسطى، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب، ثم أتى به الجمرة القصوى، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، فأتى به جمعاً. فقال: هذا المشعر. ثم أتى به عرفة. فقال: هذه عرفة. فقال له جبريل: أعرفت؟[٧].

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم ـ أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، أى من ذرية إبراهيم. وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرَ الله السابق فى تعيين محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه[٨] ـ رسولا فى الأميين إليهم، إلى سائر الأعجمين، من الإنس والجن، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا معاوية بن صالح، عن سعيد بن سُوَيد الكلبى، عن عبد الأعلى بن هلال السلمى، عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى عند الله لخاتم

---

(١) فى جـ، ط: «وعلمناها». (٢) فى أ: «إلى».
(٣) فى جـ: «فانطلق». (٤) فى أ: «فلما حاذاه»، وفى و: «فلما حاذى به».
(٥) سنن سعيد بن منصور برقم (٢٢٠) تحقيق الدكتور سعيد الحميد.
(٦) فى جـ، ط: «حتى أراه».
(٧) مسند الطيالسى برقم (٢٦٩٧).
(٨) فى جـ: «ﷺ».

النبيين، وإن آدم لمنجدل فى طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات النبيين[١] يَرَيْنَ»[٢].

وكذلك[٣] رواه ابن وهب، والليث، وكاتبه عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، وتابعه أبو بكر بن أبى مريم، عن سعيد بن سُوَيد، به.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا لقمان بن عامر: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان أول بَدْء أمرك؟ قال: «دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى بى، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»[٤].

والمراد أن أول من نَوّه بذكره وشهره فى الناس، إبراهيم[٥]، عليه السلام. ولم يزل ذكره فى الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتمُ أنبياء بنى إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابن مريم، عليه السلام، حيث قام فى بنى إسرائل خطيباً، وقال: ﴿**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ [الصف: ٦]؛ ولهذا قال فى هذا الحديث: «دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم».

وقوله: «ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» قيل: كان مناماً رأته حين حملت به، وقَصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة. وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام فى آخر الزمان معقلا للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها. ولهذا جاء فى الصحيحين: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك»[٦]. وفى صحيح البخارى: «وهم بالشام»[٧].

قال[٨] أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، فى قوله: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ**﴾ يعنى: أمة محمد ﷺ. فقيل له: قد استجيبت لك، وهو كائن فى آخر الزمان. وكذا قال السدى وقتادة.

وقوله تعالى: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**﴾ يعنى: القرآن ﴿**وَالْحِكْمَةَ**﴾ يعنى: السنة، قاله الحسن،

---

(١) فى أ: «المؤمنين».

(٢) المسند (٤/ ١٢٧).

(٣) فى جـ، ط: «وكذا».

(٤) المسند (٥/ ٢٦٢).

(٥) فى جـ: «إبراهيم الخليل».

(٦) هذا لفظ حديث ثوبان فى صحيح مسلم برقم (١٩٢٠) ورواه أيضاً بنحوه من حديث معاوية برقم (١٠٣٧) وهو فى صحيح البخارى برقم (٧٤٦٠) من حديث معاوية رضى الله عنه برقم (٧٤٥٩) من حديث المغيرة رضى الله عنه.

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٤٦٠) من حديث معاذ رضى الله عنه.

(٨) فى جـ، ط: «وقال».

وقتادة، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك وغيرهم. وقيل: الفهم فى الدين. ولا منافاة.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى طاعة الله، والإخلاص.

وقال محمد بن إسحاق ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ قال: يعلمهم الخير فيفعلوه، والشر فيتقوه، ويخبرهم برضاه عنهم إذا أطاعوه واستكثروا من طاعته، وتجنبوا ما سخط من معصيته.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: العزيز الذى لا يعجزه شىء، وهو قادر على كل شىء، الحكيم فى أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء فى محالها؛ لعلمه وحكمته وعدله.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾.

يقول تبارك وتعالى ردّاً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل، إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يدع معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف فى ذلك سائر قومه، حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢]، ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: عن طريقته ومنهجه. فيخالفها ويرغب عنها ﴿إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أى: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى فى الدنيا للهداية والرشاد، من حداثة سنه[1] إلى أن اتخذه الله خليلا، وهو فى الآخرة من الصالحين السعداء ـ فترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طُرُقَ الضلالة والغى، فأى سفه أعظم من هذا؟ أم أى ظلم أكبر من هذ؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

وقال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية فى اليهود؛ أحدثوا طريقاً ليست من عند الله وخالفوا ملّة إبراهيم فيما أخذوه[2]، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ

---

(١) فى أ: «من حداثة بنيته». (٢) فى جـ، ط، أ، و: «فيما أحدثوه».

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: أمره الله[(١)] بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً، وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾، أى: وصى بهذه الملّة[(٢)]، وهى الإسلام لله [أو يعود الضمير على الكلمة وهى قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾][(٣)]. لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] وقد قرأ بعض السلف «ويعقوب» بالنصب عطفاً على بنيه، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضراً ذلك، وقد ادعى القشيرى فيما حكاه القرطبى عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم، ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح؛ والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب فى حياة الخليل وسارة؛ لأن البشارة وقعت بهما فى قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] وقد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب فى حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضاً فقد قال الله تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: [الآية: ٢٧] وقال فى الآية الأخرى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وهذا يقتضى أنه وجد فى حياته، وأيضاً فإنه بانى بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت فى الصحيحن من حديث أبى ذر قلت: يا رسول الله، أى مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أى؟ قال: «بيت المقدس»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» الحديث[(٤)]. فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذى اعتقد أنه بانى بيت المقدس ـ وإنما كان جدّده بعد خرابه وزخرفه ـ وبين إبراهيم أربعين سنة، وهذا مما أنكر على ابن حبان، فإن المدة بينهما تزيد على ألوف سنين، والله أعلم، وأيضاً فإن ذكر وصية يعقوب لبنيه سيأتى ذكرها قريباً، وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين.

وقوله: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى: أحسنوا فى حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم[(٥)] الله الوفاة عليه. فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه. وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وُفّق له ويسر[(٦)] عليه. ومن نوى صالحاً ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء فى الحديث [الصحيح][(٧)]: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا بَاعٌ أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها[(٨)]. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب،

---

(١) فى جـ، ط، أ، و: «أمره تعالى». (٢) فى أ: «أى رضى بهذه المسألة».
(٣) زيادة من جـ، ط، أ.
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٥٢٠).
(٥) فى جـ: «يرزقكم». (٦) فى ط: «ويسره».
(٧) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٨) فى جـ، ط، أ، و: «فيدخل النار».

فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»؛ لأنه قد جاء فى بعض روايات هذا الحديث: «فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس. وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]».

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) ﴾.

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بنى إسرائيل ـ وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم(١) السلام ـ بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه.

قال النحاس: والعرب تسمى العم أباً، نقله القرطبى؛ وقد استدل بهذه الآية من جعل الجد أباً وحجب به الإخوة، كما هو قول الصديق ـ رضى الله عنه ـ حكاه البخارى عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير، ثم قال البخارى: ولم يختلف عليه، وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين، وبه يقول الحسن البصرى وطاوس وعطاء، وهو مذهب أبى حنيفة وغير واحد من علماء السلف والخلف؛ وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة؛ وحكى مالك عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف، واختاره صاحبا أبى حنيفة القاضى: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، ولتقريرها موضع آخر.

وقوله: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أى: نُوَحِّدُه بالألوهية، ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أى: مطيعون خاضعون كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٢)﴾ [آل عمران: ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوّعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. والآيات فى هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله ﷺ(٣): «نحن مَعْشَرَ الأنبياء أولاد عَلات ديننا واحد»(٤).

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أى: مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أى: إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود

---

(١) فى ط: «عليه». (٢) فى جـ: «وإليه ترجعون».
(٣) فى جـ، ط: «عليه السلام».
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٤٤٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .وأولاد العلات: هم الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى.

نفعُه نعليكم، فإن لهم أعمالهم التى عملوها ولكم أعمالكم: ﴿ولا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقال أبو العالية، والربيع، وقتادة: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعنى: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط [ولهذا جاء فى الأثر: من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه][١].

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن صُوريا الأعورُ لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد[٢]. وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾.

وقوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى: لا نريد ما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى: مستقيما. قاله محمد بن كعب القرظى، وعيسى بن جارية.

وقال خَصيف عن مجاهد: مخلصاً. وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس: حاجاً. وكذا روى عن الحسن والضحاك، وعطية، والسدى.

وقال أبو العالية: الحنيف الذى يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حَجَّه عليه إن استطاع إليه سبيلا.

وقال مجاهد، والربيع بن أنس: حنيفاً، أى: متبعاً. وقال أبو قلابة: الحَنيف الذى يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم.

وقال قتادة: الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريمُ الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله، عز وجل[٣]، والختانُ.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾.

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا، وبما أنْزل على الأنبياء المتقدمين مجملا، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن[٤] لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا

(١) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٢) فى جـ: «تهتدى»، وفى ط: «تهدى».
(٣) فى جـ: «الله تعالى». (٤) فى أ: «أنهم».

بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً . أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ الآية [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وقال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عُمَر، أخبرنا على بن المبارك، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبْرَانيَّة ويُفَسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تُكَذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا[(١)]»[(٢)].

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى من حديث عثمان بن حكيم، عن سعيد بن يَسار عن ابن عباس، قال، كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلى الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا**﴾ الآية، والأخرى بـ ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[(٣)] [آل عمران: ٥٢].

وقال أبو العالية والربيع وقتادة: الأسباط: بنو يعقوب اثنا عشر رجلا؛ ولد كل[(٤)] رجل منهم أمة من الناس، فسمّوا الأسباط.

وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط فى بنى إسرائيل، كالقبائل فى بنى إسماعيل؛ وقال الزمخشرى فى الكشاف: الأسباط: حفدة يعقوب وذرارى أبنائه الاثنى عشر، وقد نقله الرازى عنه، وقرره ولم يعارضه. وقال البخارى: الأسباط: قبائل بنى إسرائيل، وهذا يقتضى أن المراد بالأسباط هاهنا شعوب بنى إسرائيل، وما أنزل الله تعالى من الوحى على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ [المائدة: ٢٠] وقال تعالى: ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا**﴾ [الأعراف: ١٦٠] وقال القرطبى: وسموا الأسباط من السبط، وهو التتابع، فهم جماعة متتابعون. وقيل: أصله من السبَط، بالتحريك، وهو الشجر، أى: هم فى الكثرة بمنزلة الشجر الواحدة سبطة. قال الزجاج: ويبين لك هذا: ما حدثنا محمد بن جعفر الأنبارى، حدثنا أبو نجيد الدقاق، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا إسرائيل عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة: نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام. قال القرطبى: والسبط: الجماعة والقبيلة، الراجعون إلى أصل واحد.

وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به، ويصدقُوا بكتبه كلّها وبرسله.

وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيهما.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن محمد بن مُصْعب الصورى، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا عبيدالله

---

(١) فى أ، و: «وما أنزل الله»، وفى جـ: «وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٥).
(٣) صحيح مسلم برقم (٧٢٧) وسنن أبى داود برقم (١٢٥٩) وسنن النسائى (٢/ ١٥٥).
(٤) فى جـ: «وكذا كل».

ابن أبى حميد، عن أبى المليح، عن مَعْقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل، وليسَعْكمُ القرآن»(١).

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ أى(٢): الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ أى: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ أى: عن الحق إلى الباطل، بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ أى: فسينصرك عليهم ويُظفِرك بهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثنا زياد بن يونس، حدثنا نافع بن أبى نُعَيم، قال: أرسل إلىَّ بعض الخلفاء مصحفَ عثمان بن عفان ليصلحه. قال زياد: فقلت له: إن الناس يقولون: إن مصحفه كان فى حجره حين قُتِل، فوقع الدم على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. فقال نافع: بَصُرت عينى بالدم على هذه الآية وقد قَدُم(٣).

وقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: قال الضحاك، عن ابن عباس: دين الله وكذا روى عن مجاهد، وأبى العالية، وعكرمة، وإبراهيم، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعبد الله بن كثير، وعطية العوفى، والربيع بن أنس، والسدى، نحو ذلك.

وانتصاب ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾: إما على الإغراء كقوله ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] أى: الزموا ذلك عليكموه. وقال بعضهم: بدل من قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾. وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: ﴿آمنا بالله﴾ كقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦].

وقد ورد(٤) فى حديث رواه ابن أبى حاتم وابن مَرْدُويه، من رواية أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس أن نبى الله(٥) قال: «إن بنى إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله. فناداه ربه: ياموسى، سألوك هل يَصْبُغ ربك؟ فقل: نعم، أنا أصبُغ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صبغى». وأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾(٦).

كذا وقع فى رواية ابن مردويه مرفوعاً، وهو فى رواية ابن أبى حاتم موقوف، وهو أشبه، إن صح إسناده، والله أعلم(٧).

(١) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٤٠٠) وفى إسناده عبيد الله بن أبى حميد متفق على ضعفه ويروى عن أبى المليح عجائب. انظر: الميزان (٣/ ٥) والتهذيب (٧/ ٩).

(٢) فى و: «يعنى».

(٣) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٤٠٢).

(٤) فى ط: «وقد روى».

(٥) فى جـ، ط، أ، و: «نبى الله ﷺ».

(٦) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٤٠٣) ومن طريقه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٣٨).

(٧) فى جـ: «والله تبارك وتعالى أعلم».

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾.

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه[١] إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أى: أتناظروننا فى توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له! ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أى: نحن برآء منكم، وأنتم بُرآء منا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]. وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم[٢]: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٨].

وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿[وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ][٣] وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أى: نحن[٤] برآء منكم كما أنتم برآء منا، ونحن له مخلصون، أى فى العبادة والتوجه. ثم أنكر تعالى عليهم فى دعواهم أن إبراهيم ومَنْ ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية[٥]، فقال: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ يعنى: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودا ولا نصارى، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. الآية والتى بعدها. [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾: قال الحسن البصرى: كانوا يقرؤون فى كتاب الله الذى أتاهم: إن الدين [عند الله][٦] الإسلامُ، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك.

---

(١) فى جـ: «ﷺ». (٢) فى جـ: «عن إبراهيم عليه السلام». (٣) زيادة من و.
(٤) فى جـ، ط: «أى ونحن». (٥) فى جـ، ط، أ، و: «أو النصرانية».
(٦) زيادة من جـ، ط.

وقوله: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: [فيه][1] تهديد ووعيد شديد، أى: [أن][2] علمه محيط بعملكم، وسيجزيكم عليه.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أى: قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أى: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغنى عنكم انتسابكم إليهم، من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله، الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبى واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء، وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من سائر المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله[3] أجمعين[4].

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾.

[قيل المراد بالسفهاء هاهنا: المشركون؛ مشركو العرب، قاله الزجاج. وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد. وقيل: المنافقون، قاله السدى. والآية عامة فى هؤلاء كلهم، والله أعلم][5].

قال البخارى: حدثنا أبو نُعَيم، سمع زُهَيراً، عن أبى إسحاق، عن البراء، رضى الله عنه؛ أن النبى ﷺ صلى إلى بيت[6] المقدس ستَّة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلتُه قبَل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها، صلاة العصر، وصلى معه قوم. فخرج رجل[7] ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليتُ مع النبى ﷺ قبَل مكة، فداروا كما هم قبل البيت. وكان الذى مات على القبلة قبل أن تُحوّل قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

انفرد به البخارى من هذا الوجه[8]. ورواه مسلم من وجه آخر[9].

---

(١) زيادة من جـ، ط. (٢) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٣) فى جـ: «وعلى سائر أنبيائه».
(٤) فى أ: « أجمعين أبداً دائماً إلى يوم الدين ورضى الله تعالى عن أصحابه وأصحابهم المتبعين إلى يوم الحشر واليقين».
(٥) زيادة من جـ، ط. (٦) فى جـ: «إلى البيت». (٧) فى ط: «فخرج قوم».
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٦).
(٩) صحيح مسلم برقم (٥٢٥).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني إسماعيل[١] بن أبي خالد، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: كان رسولُ الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر[٢] أمر الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، فقال رجال[٣] من المسلمين: وَدِدنا لو عَلِمْنا علْم من مات منا قبل أن نُصْرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وقال السفهاء من الناس، وهم أهل الكتاب: ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى آخر الآية.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا الحسن بن عطية، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ قد صلَّى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يحب أن يُوَجَّه نحو الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: فَوُجِّه نحو الكعبة. وقال السفهاء من الناس، وهم اليهود: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ لمَّا هاجر إلى المدينة، أمرَه الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يُحِب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي: نحوه. فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقد جاء فى هذا الباب أحاديثُ كثيرة، وحاصِلُ الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أُمِرَ باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يُصَلِّى بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبلٍ صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تَعَذَّر الجمعُ بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس والجمهور، ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره؛ على قولين، وحكى القرطبى فى تفسيره عن عكرمة وأبى العالية والحسن البصرى أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه الصلاة والسلام. والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة، فاستمرَّ الأمرُ على ذلك بضعة عَشَرَ شهراً، وكان يكثر الدعاءَ والابتهالَ أنْ يُوَجَّه إلى الكعبة، التى هى قبلة إبراهيم، عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجُّه إلى البيت العتيق، فخطب رسولُ الله ﷺ الناس وأعلمهم بذلك. وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدم فى الصحيحين من رواية البراء. ووقع عند النسائى من رواية أبى سعيد بن المعلى: أنها الظهر[٤]. وأمَّا أهل قُبَاء، فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني، كما جاء فى الصحيحين، عن ابن عمر أنه قال: بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إنّ رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد

---

(١) فى أ: «حدثنى المعلى».
(٢) فى ط: «وينتظر».
(٣) فى أ: «فقال رجل».
(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٠٤).

أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة[١].

وفى هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم.

ولما وقع هذا حصل لبعض الناس ـ من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ـ ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: ﴿ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ أى: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم فى قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أى: الحكم والتصرف والأمر كله لله، وحيثما تولوا فثمَّ وجه الله، و ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أى: الشأن كله فى امتثال أوامر الله، فحيثما وجَّهنا توجَّهْنَا، فالطاعة فى امتثال أمره، ولو وجهنا فى كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبيده وفى تصريفه وخُدَّامُه، حيثما وجَّهَنا توجهنا، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه[٢] ـ وأمته عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم، خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله فى الأرض، إذ هى بناء إبراهيم الخليل، عليه السلام، ولهذا قال: ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وقد روى الإمام أحمد، عن على بن عاصم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عُمَر[٣] بن قيس، عن محمد بن الأشعث، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ ـ يعنى فى أهل الكتاب ـ: «إنهم لا يحسدوننا على شىء كما يحسدوننا على يوم الجمعة، التى هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين»[٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: يقول تعالى: إنما حَوّلناكم إلى قبلة[٥] إبراهيم، عليه السلام، واخترناها لكم[٦] لنجعلكم خيَار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شُهَدَاء على الأمم؛ لأن الجميع[٧] معترفون[٨] لكم بالفضل. والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسطُ العرب نسباً وداراً، أى: خيرها. وكان رسول الله ﷺ وسطاً فى قومه، أى: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى، التى هى أفضل الصلوات، وهى العصر، كما ثبت فى الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خَصَّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح[٩] المذاهب، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٣) وصحيح مسلم برقم (٥٢٦).
(٢) فى ط: «ﷺ».
(٣) فى ط، أ، و: «عن عمرو».
(٤) المسند (٦/ ١٣٤).
(٥) فى ط: «ملة».
(٦) فى أ: «واحترفناها لكم»، وفى و: «واخترناكم لها».
(٧) فى أ: «الأمم».
(٨) فى ط: «معترفين» وهو خطأ.
(٩) فى جـ: «وأصح».

أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته» قال: فذلك قوله: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾**[١].

قال: الوسط[٢]: العدل، فتدعون، فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم[٣].

رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة من طرق عن الأعمش، [به][٤][٥].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة [ومعه الرجل والنبي][٦]، ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه، فيقال [لهم][٧]: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال [له][٨]: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته: فيدعى بمحمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا ﷺ فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا» فذلك قوله عز وجل: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾** قال: «عدلا **﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾**»[٩].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾**، قال: «عدلا»[١٠].

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم من حديث عبد الواحد بن زياد، عن أبي مالك الأشجعي، عن المغيرة بن عتيبة[١١] بن نهاس: حدثني مكتب لنا[١٢]، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، قال: أنا وأمتي يوم القيامة على كَوْم مُشرفين على[١٣] الخلائق. ما من الناس أحد إلا ودّ أنه منّا. وما من نبي كذَّبه قومه إلا ونحن نشهدُ أنه قد بلغ رسالةَ ربه، عز وجل[١٤].

---

(١) المسند (٣/ ٣٢).

(٢) في جـ، ط: «قال: والوسط».

(٣) في جـ: «بقول يشهد عليكم»، وفي ط: «وأشهد عليكم».

(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٣٣٩، ٤٤٨٧) وسنن الترمذي برقم (٢٩٦١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٠٠٧) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٨٤).

(٦، ٧) زيادة من جـ، أ، والمسند.

(٨) زيادة من جـ، والمسند.

(٩) المسند (٣/ ٥٨).

(١٠) المسند (٣/ ٩).

(١١) في جـ: «ابن عيينة».

(١٢) في و: «مكاتب لنا».

(١٣) في جـ: «مشرف على».

(١٤) ورواه الطبري في تفسيره (٣/ ١٤٧) من طريق ابن فضيل عن أبي مالك الأشجعي به.

وروى الحاكم فى مستدركه وابن مَرْدُويَه أيضاً، واللفظ له، من حديث مصعب بن ثابت، عن محمد بن كعب القُرَظى، عن جابر بن عبد الله، قال: شهد رسولُ الله ﷺ جنازة فى بنى سلمة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: والله ـ يا رسولَ الله ـ لنعم المرءُ كان، لقد كان عفيفاً مسلماً وكان. . . وأثنوا عليه خيراً. فقال رسول الله ﷺ: «أنت بما تقول». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذى بدا لنا منه فذاك. فقال النبى ﷺ: «وجبت». ثم شَهِد جنازة فى بنى حَارِثة، وكنتُ إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: يا رسولَ الله، بئس المرءُ كان، إن كان لفَظّاً غليظاً، فأثنوا عليه شراً فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: «أنت بالذى تقول». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذى بدا لنا منه فذاك. فقال رسول الله ﷺ: «وجبت».

قال مصعب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك محمد بن كَعْب: صدقَ رسولُ الله ﷺ، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا داود بن أبى الفرات، عن عبد الله بن بُريدة، عن أبى الأسود أنه قال: أتيتُ المدينة فوافقتها، وقد وقع بها مرض، فهم يموتون موتاً ذَريعاً. فجلست إلى عمر بن الخطاب، فمرّت به جنازة، فَأُثْنِىَ على صاحبها خير. فقال: وجبت وجَبَت. ثم مُرَّ بأخرى فَأُثْنِى عليها شرٌّ، فقال عمر: وجبت [وجبت](٢). فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسولُ الله ﷺ: «أيّما مسلم شَهِد له أربعة بخير أدخله الله الجنة». قال: فقلنا. وثلاثة؟ قال: «وثلاثة». قال، فقلنا: واثنان؟ قال: «واثنان» ثم لم نسأله عن الواحد.

وكذا رواه البخارى، والترمذى، والنسائى من حديث داود بن أبى الفرات، به(٣).

قال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى، حدثنا أبو قِلابة الرقاشى، حدثنى أبو الوليد، حدثنا نافع بن عمر، حدثنى أمية بن صفوان، عن أبى بكر بن أبى زهير الثقفى، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ بالنَّباوَة(٤) يقول: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم». قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السَّيِّىء، أنتم شهداء الله فى الأرض». ورواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن يزيد بن هارون(٥). ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون، وعبد الملك بن عمر(٦)، وشريح، عن نافع عن ابن عمر، به(٧).

---

(١) المستدرك (٢/ ٢٦٨) وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه مصعب بن ثابت ليس بالقوى».

(٢) زيادة من أ.

(٣) المسند (١/ ٢٢) وصحيح البخارى برقم (١٣٦٨) وسنن الترمذى برقم (١٠٥٩) وسنن النسائى (٤/ ٥٠).

(٤) فى جـ: «بالبناوة».

(٥) سنن ابن ماجة برقم (٤٢٢١) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٣٠١) «إسناد صحيح، رجاله ثقات».

(٦) فى جـ، ط: «بن عمرو».

(٧) لم أجده فى المطبوع من المسند بهذا الطريق، وذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٦/ ٢٣١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾: يقول تعالى: إنما شرعنا لك ـ يا محمد ـ التوجه أولا إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة، ليظهر حالُ من يَتَّبعك ويُطيعك ويستقبل معك حيثما توجهتَ ممن ينقلب على عَقِبَيْه، أى: مُرْتَدّاً عن[1] دينه ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أى: هذه الفعلة، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أى: وإن كان هذا الأمر عظيماً فى النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنُوا بتصديق الرسُول، وأنَّ كلَّ ما جاء به فهو الحقّ الذى لا مرْية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلّف عباده بما شاء[2]، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك، بخلاف الذين فى قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكّاً، كما يحصلُ للذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. ولهذا كان مَن[3] ثَبَتَ على تصديق الرسول ﷺ واتباعه فى ذلك، وتوجه حيثُ أمره الله من غير شك ولا ريْب، من سادات الصحابة. وقد ذهب بعضُهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلّوا القبلتين.

وقال البخارى فى تفسير هذه الآية:

حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن سُفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: بينا الناسُ يصلّون الصبح فى مسجد قُباء إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبى ﷺ قرآن، وقد أمرَ أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها. فتوجهوا إلى الكعبة[4].

وقد رواه مسلم من وجه آخر، عن ابن عمر[5]. ورواه الترمذى من حديث سفيان الثورى[6]، وعنده: أنهم كانوا ركوعاً، فاستداروا كما هم إلى الكعبة، وهم ركوع. وكذا رواه مسلم من حديث حمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، مثله.[7] وهذا يدلّ على كمال طاعتهم لله ورسوله، وانقيادهم لأوامر الله عز وجل، رضى الله عنهم أجمعين.

---

(١) فى جـ: «مرتداً على».
(٢) فى أ: «بما يشاء».
(٣) فى جـ: «من كان».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٨).
(٥) صحيح مسلم برقم (٥٢٦).
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٤١).
(٧) صحيح مسلم برقم (٥٢٧).

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أى: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك لا يضيع[١] ثوابها عند الله، وفى الصحيح من حديث أبى إسحاق السَّبِيعى، عن البراء، قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس: ما حالهم فى ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[٢].

[ورواه الترمذى عن ابن عباس وصححه[٣]][٤].

وقال ابن إسحاق: حدّثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أى: بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم، واتباعه إلى القبلة الأخرى. أى: لَيُعْطيكم[٥] أجرهما جميعاً. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أى: ما كان الله لِيَضيع محمداً ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد فَرق بينها وبين ولدها، فجعلت كُلّما وجدت صبياً من السبى أخذته فألصقته بصدرها، وهى تَدُور على ولدها، فلما وجدته ضمّته إليها وألقمته ثَديها. فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدَها فى النار، وهى تقدر على ألا تطرحه؟» قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[٦].

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾.

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: كان أوّل ما نُسِخَ من القرآن القبلة، وذلك أنّ رسول الله ﷺ لما هاجرَ إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ [يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ][٧]﴾ وقال: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ

(١) فى ط، أ: «ما يضيع».
(٢) سبق تخريج الحديث قريباً.
(٣) سنن الترمذى برقم (٢٩٦٤).
(٤) زيادة من جـ، ط، أ. (٥) فى أ: «ليضيعنكم»، وفى و: «ليعطينكم».
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٩٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥٤).
(٧) زيادة من ط.

عَقِبَيْهِ﴾.

وروى ابن مَرْدريه من حديث القاسم العُمَرى، عن عمه عبُيد الله بن عمر، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: قال: كان النبى ﷺ إذا سَلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء فأنزل الله: **﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** إلى الكعبة إلى الميزاب، يؤَم به جبرائيل[1] عليه السلام.

وروى الحاكم فى مستدركه، من حديث شعبة عن يعلى بن عطاء، عن يحيى بن قمطة قال: رأيت عبد الله بن عمرو[2] جالساً فى المسجد الحرام، بإزاء الميزاب، فتلا هذه الآية: **﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾** قال: نحو ميزاب الكعبة.

ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[3].

ورواه ابن أبى حاتم، عن الحسن بن عرفة، عن هُشَيْم، عن يعلى بن عطاء، به.

وهكذا قال غيره، وهو أحد قولى الشافعى، رحمه الله: إن الغرض إصابة عين القبلة. والقول الآخر وعليه الأكثرون: أن المراد المواجهة[4]، كما رواه الحاكم من حديث محمد بن[5] إسحاق، عن عمير بن زياد الكندى، عن على، رضى الله عنه، **﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** قال: شطره: قِبَله. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وهذا قول أبى العالية، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبُير، وقتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم. وكما تقدم فى الحديث الآخر: ما بين المشرق والمغرب قبلة.

[وقال القرطبى: روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبله لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى[6]»][7].

وقال أبو نُعَيم الفضل بن دكين:

حدثنا زهير، عن أبى إسحاق، عن البراء أن النبى ﷺ صَلّى قبلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه قبلته قبل البيت وأنه صَلّى صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان يصلى معه، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صَلّيت مع رسول الله ﷺ قِبل مكّة، فداروا كما هم قبل البيت[8].

---

(١) فى ط: «جبريل». (٢) فى أ: «بن عمر».

(٣) المستدرك (٢/ ٢٦٩).

(٤) فى ط، أ، و: «الوجهة». (٥) فى ط: «محمد أبى».

(٦) رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢/ ٩، ١٠) من طريق عمر بن حفص عن ابن جريج به، وقال البيهقى: «تفرد به عمر بن حفص المكى وهو ضعيف لا يحتج به، وروى بإسناد آخر ضعيف، عن عبد الله بن حبش كذلك مرفوعاً، ولا يحتج بمثله، والله أعلم».

(٧) زيادة من ج، ط، أ.

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٤٨٦) عن أبى نعيم.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء [قال](١): لما قَدِم رسولُ الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يُحب أن يحوَّل نحو الكعبة، فنزلت: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ [فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا](٢)﴾ فصرف إلى الكعبة.

وروى النسائى عن أبى سعيد بن المعلى قال: كنا نَغْدُو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فنمر على المسجد فنصلى فيه، فمررنا يوماً ـ ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر ـ فقلت: لقد حَدَث أمر، فجلست، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ حتى فَرَغ من الآية. فقلت لصاحبى: تَعَالَ نركع ركعتين قَبْل أن يَنْزل رسول الله ﷺ، فنكونَ أول من صلى، فتوارينا فصليناهما. ثم نزل النبى ﷺ فصلى للناس الظهر يومئذ(٣).

وكذا روى ابن مَرْدويه، عن ابن عمر: أن أولَ صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلى الكعبة صَلاةُ الظهر، وأنها الصلاة الوُسطى. والمشهور أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر، ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا الحسين بن إسحاق التَسْتَرى، حدثنا رجاء بن محمد السقطى، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا إبراهيم بن جعفر، حدثنى أبى، عن جدْته أم أبيه نُوَيلة بنت مسلم، قالت: صَلَّينا الظهر ـ أو العصر(٤) ـ فى مسجد بنى حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا ركعتين، ثم جاء مَنْ يحدثنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام، فتحول النساءُ مكان(٥) الرجال، والرجالُ مكان(٦) النساء، فصلينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلون(٧) البيت الحرام. فحدثنى رجل من بنى حارثة أن النبى ﷺ قال: «أولئك رجال يؤمنون بالغيب»(٨).

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن على بن دُحَيْم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا مالك بن إسماعيل النَّهدى، حدثنا قيس، عن زياد بن علاقة، عن عُمَارة بن أوس قال: بينما نحن فى الصلاة نحو بيت المقدس، ونحن ركوع، إذ أتى مناد بالباب: أن القبلة قد حُوِّلت إلى الكعبة. قال: فأشهد على إمامنا أنه انحرف فتحوّل هو والرِّجال والصبيان، وهم ركوع، نحو الكعبة(٩).

وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾: أمَرَ تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض، شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شىء، سوى النافلة فى حال السفر، فإنه

---

(١) زيادة من جـ، ط، و. (٢) زيادة من جـ.

(٣) سنن النسائى الكبرى (٤ ٠ ١١٠).

(٤) فى جـ: «الظهر والعصر». (٥، ٦) فى أ: «موضع».

(٧) فى أ: «ونحن مستقبلو».

(٨) المعجم الكبير (٢٥/ ٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ١٤): «فيه إسحاق بن إدريس الأسوارى وهو ضعيف متروك».

(٩) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١/ ٣٣٥) عن شبابة عن قيس عن زياد به.

يصليها حيثما توجه قَالبهُ وقَلْبُه نحو الكعبة. وكذا فى حال المسايفة فى القتال يصلى على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده، وإن كان مخطئاً فى نفس الأمر، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

مسألة: وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلى ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعى وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية لقوله: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافى كمال القيام. وقال بعضهم: ينظر المصلى فى قيامه إلى صدره. وقال شريك القاضى: ينظر فى حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة، لأنه أبلغ فى الخضوع وآكد فى الخشوع وقد ورد به الحديث، وأما فى حال ركوعه فإلى موضع قدميه، وفى حال سجوده إلى موضع أنفه وفى حال قعوده إلى حجره.

وقوله: ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ**﴾ أى: واليهودُ ـ الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس ـ يعلمون أن الله تعالى سيُوجهك إليها، بما فى كتبهم عن أنبيائهم، من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمتّه، وما خصه الله تعالى به وشرّفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حَسَداً وكفراً وعناداً؛ ولهذا يهددهم تعالى بقوله: ﴿**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[١].

﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)**﴾.

يخبر تعالى[٢] عن كُفر اليهود وعنادهم، ومخالفتهم ما[٣] يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به، لما اتبعوه وتركوا أهواءهم[٤]، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ**﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**﴾.

وقوله: ﴿**وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ** [**وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ**][٥]﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون[٦] بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضاً مُستَمْسك[٧] بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم فى جميع أحواله، وما كان[٨] متوجهاً إلى بيت المقدس؛ لأنها[٩] قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى[١٠]. ثم حذر [الله][١١] تعالى من مخالفة

(١) فى جـ، ط: «تعلمون».
(٢) فى جـ: «يخبر تبارك وتعالى».
(٣) فى جـ: «ومخالفتهم لما».
(٤) فى جـ: «وتركوا أهوائهم» وهو خطأ.
(٥) زيادة من جـ.
(٦) فى جـ، ط: «متمسكون».
(٧) فى جـ، ط: «متمسك».
(٨) فى جـ، ط: «ولا كان».
(٩) فى جـ، ط: «لكونها».
(١٠) فى جـ: «الله تعالى وطاعته».
(١١) زيادة من جـ.

الحق الذى يعلمه العالم إلى الهوى؛ فإن العالم الحَجّةُ عليه أقوم من غيره. ولهذا قال مخاطباً للرسول، والمراد الأمة: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) ﴾.

يخبر تعالى[(١)] أنّ علماء أهل الكتاب يعرفون صِحّة ما جاءهم به الرسول ﷺ [كما يعرفون أبناءهم][(٢)] كما يعرف أحدُهم ولده، والعربُ كانت تضرب المثلَ فى صحة الشىء بهذا، كما جاء فى الحديث أنّ رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير: «ابنك هذا؟» قال: نعم يارسول الله، أشهد به. قال: «أما إنه لا يَجْنِى عليك ولا تَجْنِى عليه»[(٣)].

[قال القرطبى: ويروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ولدك ابنك، قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته، وإنى لا أدرى ما كان من أمره. قلت: وقد يكون المراد ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ من بين أبناء الناس لا يشك أحد ولا يتمارى فى معرفة ابنه إذا رآه من بين أبناء الناس كلهم][(٤)].

ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق[(٥)] والإتقان العلمى ﴿ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ ﴾ أى: ليكتمون الناس ما فى كتبهم من صفة النبى ﷺ، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ثم ثبّت تعالى نبيه[(٦)] والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء[(٧)] به الرسول[(٨)] ﷺ هو الحقَ الذى لا مرية فيه ولا شك، فقال: ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) ﴾.

قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ . يعنى بذلك: أهل الأديان، يقول: لكل قبلة يرضونها، ووجهة الله حيث تَوجه المؤمنون.

وقال أبو العالية: لليهودى وجهة هو موليها، وللنصرانى وجهة هو موليها، وهَداكم أنتم أيتها الأمة [الموقنون][(٩)] للقبلة التى هى القبلة. وروى عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدى نحو هذا.

---

(١) فى جـ: « يخبر تبارك وتعالى». (٢) زيادة من ط.
(٣) رواه أحمد فى المسند (٢/ ٢٢٦، ٢٢٨) وأبو داود فى السنن برقم (٤٤٩٥).
(٤) زيادة من ج، ط، أ. (٥) فى جـ، ط، أ، و: « التحقيق». (٦) فى جـ: « النبى ﷺ ».
(٧) فى ط: « ما جاءهم به » . (٨) فى جـ: « النبى » . (٩) زيادة من جـ.

وقال مجاهد فى الرواية الأخرى: ولكن أمَرَ كلَّ قوم أن يصلوا إلى الكعبة.

وقرأ ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وابن عامر: «ولكلٍ وجهة هو مُوَلاَّها».

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال ها هنا: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أى: هو قادر على جَمْعِكُم من الأرض، وإن تفرّقت أجسادكم وأبدانكم.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)﴾.

هذا أمر ثالث من الله تعالى[(١)] باستقبال المسجد الحرام، من جميع أقطار الأرض.

وقد اختلفوا فى حكمة هذا التكرار ثلاث مرات، فقيل: تأكيد لأنه أول ناسخ وقع فى الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره، وقيل: بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة، والثانى لمن هو فى مكة غائباً عنها، والثالث لمن هو فى بقية البلدان، هكذا وجهه فخر الدين الرازى. وقال القرطبى: الأول لمن هو بمكة، والثانى لمن هو فى بقية الأمصار، والثالث لمن خرج فى الأسفار، ورجح هذا الجواب القرطبى، وقيل: إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق، فقال: أولا ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فذكر فى هذا المقام إجابته إلى طلبته وأمره بالقبلة التى كان يود التوجه إليها ويرضاها؛ وقال فى الأمر الثانى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فذكر أنه الحق من الله وارتقى عن المقام الأول، حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ فبين أنه الحق أيضا من الله يحبه ويرتضيه، وذكر فى الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم، وقد كانوا يعلمون بما فى كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم، عليه السلام، إلى الكعبة، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التى هى أشرف، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول ﷺ إليها، وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، وقد بسطها فخر الدين وغيره، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

---

(١) فى جـ: «من الله تبارك وتعالى».

وقوله: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أى: أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين أو لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم فى التوجه إلى بيت المقدس. وهذا أظهر.

قال أبو العالية: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ يعنى به أهل الكتاب حين قالوا: صُرِف محمد إلى الكعبة.

وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه[١] ودين قومه. وكان حجتهم على النبى ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام أن قالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدى، نحو هذا.

وقال هؤلاء فى قوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعنى: مشركى قُرَيش.

ووجه بعضهم حُجَّة الظلمة ـ وهى داحضة ـ أن قالوا: إن هذا الرجل يزعمُ أنه على دين إبراهيم: فإن كان توجّهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم، فلم رجع عنه؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أوّلا لما له تعالى فى ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى فى ذلك، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم ـ وهى الكعبة ـ فامتثل أمر الله فى ذلك أيضاً، فهو، صلوات الله وسلامُه عليه، مطيع لله فى جميع أحواله، لا يخرج عن أمر الله طَرْفَةَ عين، وأمتهُ تَبَع له.

وقوله: ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أى: لا تخشوا شُبَهَ الظلمة المتعنتين، وأفْرِدُوا الخشية لى، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه.

وقوله: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ عَطْف على: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أى: ولأتم نعمتى عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: إلى ما ضَلّت عنه الأمم هديناكم إليه، وخَصصْناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرفَ الأمم وأفضلها.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾.

يُذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبينات ويزكيهم، أى: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودَنَس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب ـ وهو القرآن ـ والحكمة ـ وهى السنة ـ ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فكانوا فى الجاهلية الجَهْلاء يُسفهُون بالقول الفرَى، فانتقلوا ببركة رسالته، ويمُن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

(١) فى أ: «فى بيت الله».

وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤]. وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ** ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قال ابن عباس: يعنى بنعمة الله محمداً ﷺ؛ ولهذا نَدبَ الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴾.

قال مجاهد فى قوله: ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ**[(١)] ﴾ يقول: كما فعلت فاذكرونى.

قال عبد الله بن وهب، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم: أن موسى، عليه السلام، قال: يارب، كيف أشكرك؟ قال له ربه: تذكرُنى ولا تنسانى، فإذا ذكرتنى فقد شكرتنى، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى.

وقال الحسن البصرى، وأبو العالية، والسدى، والربيع بن أنس: إن الله يذكر من ذكره، ويزيد من شكره ويعذب من كفره.

وقال بعض السلف فى قوله تعالى: ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال: هو أن يطاع فلا يُعْصى، ويذكر فلا يُنْسَى، ويُشْكَرَ فلا يُكْفَر.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا عمارة الصيدلانى، حدثنا مكحول الأزدى قال: قلت لابن عمر: أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكر الله، وقد قال الله تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾؟ قال: إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته، حتى يسكت.

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ قال: اذكرونى فيما افترضت عليكم أذكركُم فيما أوجبت لكم على نفسى.

وعن سعيد بن جبير: اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغفرتى، وفى رواية: برحمتى.

وعن ابن عباس فى قوله ﴿**فَاذْكُرُونِي**[(٢)] **أَذْكُرْكُمْ** ﴾ قال: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إيَّاه.

وفى الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه».

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « قال الله عز وجل: يا ابن آدم، إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ من الملائكة ـ أو قال: [فى][(٣)] ملأ خير منهم ـ وإن دنوت منى شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت منى ذراعا دنوت منك باعاً، وإنى أتيتنى تمشى أتيتك أهرول».

صحيح الإسناد: أخرجه البخارى من حديث قتادة[(٤)]. وعنده قال قتادة: الله أقرب بالرحمة.

وقوله تعالى: ﴿ **وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴾: أمر الله تعالى بشكره، ووعده على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن الفُضَيل[(٥)] بن فَضَالة ـ رجل من قيس ـ

---

(١) فى ط: « فيكم ». وهو خطأ. (٢) فى هـ: «اذكرونى» والمثبت من ط. (٣) زيادة من أ، والمسند.
(٤) المسند (٣/١٣٨) وصحيح البخارى برقم (٧٥٣٦).
(٥) فى أ: « عن الفضل ».

حدثنا أبو رجاء العطاردى، قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطْرف من خز لم نره[١] عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه». وقال روح مرة: «على عبده»[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾.

لما فرغ تعالى[٣] من بيان الأمر بالشكر شرع فى بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر عليها، أو فى نقمة فيصبر عليها؛ كما جاء فى الحديث: «عجباً للمؤمن. لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر، كان خيراً له؛ وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له».

وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تَحَمّل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم فى قوله: **﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾** [البقرة: ٤٥]. وفى الحديث كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمر صلى.[٤] والصبر صبران، فصبر على ترك المحارم والمآثم وصبر على فعل الطاعات. والقربات، والثانى أكثر ثواباً لأنه المقصود. كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر فى بابين، الصبر لله بما أحب، وإن ثقل على الأنفس[٥] والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم، إن شاء الله.

وقال على بن الحسين زين العابدين: إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد: أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عُنُق من الناس، فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: إلى أين يا بنى آدم؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقولون: وقبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: الصابرون، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله، وصبرنا عن معصية الله، حتى توفانا الله. قالوا: أنتم كما قلتم، ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين.

قلت: ويشهد لهذا قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [الزمر: ١٠].

وقال سعيد بن جبير: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو مُتَجَلّد لا يرى منه إلا الصبر.

وقوله تعالى: **﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾**: يخبر تعالى أنّ الشهداء فى بَرْزَخِهم أحياء يرزقون، كما جاء فى صحيح مسلم: «أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت[٦]، ثم تأوى إلى قناديل مُعَلّقة تحت العرش، فاطّلع عليهم ربك اطّلاعة،

---

(١) فى أ: «لم يرد».
(٢) المسند (٤/٤٣٨).
(٣) فى جـ: «لما فرغ تبارك وتعالى».
(٤) رواه أبو داود فى السنن برقم (١٣١٩) من حديث حذيفة رضى الله عنه.
(٥) فى جـ: «وإن تقتل عليه الأنفس»، وفى ط: «فإن ثقل على الأنفس».
(٦) فى أ: «حيث ما شاءت».

فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأيّ شيء نبغى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يُتْركُون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل فى سبيلك، حتى نقتل فيك مرة أخرى؛ لما يرون من ثواب الشهادة ـ فيقول الرب جلّ جلاله: إنى كتبتُ أنَّهم إليها لا يرجعون»[١].

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعى، عن الإمام مالك، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ المؤمن طائر تَعْلَقُ فى شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»[٢].

ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خصِّصُوا[٣] بالذكر فى القرآن، تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيما[٤].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾.

أخبر تعالى أنه يبتلى عباده [المؤمنين][٥]، أى: يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾** [محمد: ٣١] فتارة بالسرّاء، وتارة بالضرّاء من خوف وجوع، كما قال تعالى: **﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾** [النحل: ١١٢] فإن الجائع والخائف كلّ منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال: لباس الجوع والخوف. وقال هاهنا **﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾** أى: بقليل من ذلك **﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ﴾** أى: ذهاب بعضها **﴿وَالأَنفُسِ﴾** كموت الأصحاب والأقارب والأحباب **﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾** أى: لا تُغِلّ الحدائق والمزارع كعادتها. كما قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة. وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صَبَرَ أثابه [الله][٦]، ومن قنط أحلّ [الله][٧] به عقابه. ولهذا قال: **﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾**.

وقد حكى بعضُ المفسرين أن المراد من الخوف[٨] هاهنا: خوف الله، وبالجوع: صيام رمضان، ونقص[٩] الأموال: الزكاة، والأنفس: الأمراض، والثمرات: الأولاد.

وفى هذا نظر، والله أعلم.

ثم بيّن تعالى مَنْ الصابرون[١٠] الذين شكرهم، قال: **﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾** أى: تسلَّوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنَّهم مِلْك لله يتصرف فى عبيده

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ولفظه مختلف لكن معناه واحد.
(٢) المسند (٣/ ٤٥٥).
(٣) فى جـ: «قد خصوا».
(٤) فى جـ: «تعظيماً وتكريماً».
(٥ ـ ٧) زيادة من جـ.
(٨) فى جـ: «أن المراد بالخوف».
(٩) فى جـ: «وبنقص».
(١٠) فى جـ: «الصابرين».

بما[١] يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثْقال ذرَّة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده، وأنهم إليه راجعون فى الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى عما[٢] أعطاهم على ذلك فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: ثناء من الله عليهم ورحمة.

قال سعيد بن جبير: أى أَمَنَةٌ من العذاب ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾: قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نِعْمَ العدْلان ونعمت العلاوة ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهذان العدْلان ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ فهذه العلاوة، وهى ما توضع بين العدلين، وهى زيادة فى الحمل وكذلك هؤلاء، أعطوا ثوابهم وزيدوا [٣]أيضاً.

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع، وهو قول[٤]: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة. فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا يونس، حدثنا ليث ـ يعنى ابن سعد ـ عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن عمرو ابن أبى عَمْرو، عن المطلب، عن أم سلمة قالت: أتانى أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ، فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولا سُرِرْتُ به. قال: «لا يصيب أحدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته، ثم يقول: اللهم اجُرْنى فى مصيبتى واخْلُفْ لى خيراً منها، إلا فُعِل ذلك به». قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم اجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منه، ثم رجعت إلى نفسى. فقلت: مِنْ أين لى خير[٥] من أبى سلامة؟ فلما انقضت عدَّتى استأذن علىّ رسول الله ﷺ ـ وأنا أدبغ إهاباً لى ـ فغسلت يدى من القَرَظ[٦]، وأذنت له، فوضعت له وسادة أدم حَشْوُها ليف، فقعد عليها، فخطبنى إلى نفسى، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله، ما بى ألا يكون بك الرغبة، ولكنى امرأة فىّ غَيْرة شديدة، فأخاف أن ترى منى شيئاً يعذبنى الله به، وأنا امرأة قد دخلتُ فى السن، وأنا ذات عيال، فقال: «أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يُذهبها[٧] الله، عز وجل، عنك. وأما ما ذكرت من السِّن فقد أصابنى مثلُ الذى أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالُك عيالى». قالت: فقد سَلَّمْتُ لرسول الله ﷺ. فتزوجها رسول الله ﷺ، فقالت أم سلمة بعد: أبدلنى الله بأبى سلمة خيراً منه، رسولُ الله ﷺ[٨].

وفى صحيح مسلم، عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللهم اجُرْنى فى مصيبتى واخْلف لى خيراً منها، إلا آجره الله من مصيبته، وأخلف له خيراً منها». قالت: فلما تُوُفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ، فأخلف الله لى خيرا منه: رسولَ الله ﷺ[٩].

(١) فى جـ: «كيف».
(٢) فى جـ: «بما».
(٣) فى جـ: «ويزيدوا».
(٤) فى جـ: «وهو قوله».
(٥) فى ط: «خيراً».
(٦) فى أ: «القذى».
(٧) فى جـ: «من الغيرة فسيذهبها».
(٨) المسند (٤/ ٢٧).
(٩) صحيح مسلم برقم (٩١٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، وعبَّاد بن عباد قالا: حدثنا هشام بن أبى هشام، حدثنا عباد بن زياد، عن أمه، عن فاطمة ابنة[١] الحسين، عن أبيها الحسين بن على، عن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها ـ وقال عباد: قَدُم عهدها ـ فيُحْدِثُ لذلك استرجاعاً، إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب»[٢].

ورواه ابنُ ماجة فى سُنَنه، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن وكِيع، عن هشام بن زياد، عن أمه، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها [الحسين][٣] [٤].

وقد رواه إسماعيل بن عُلَيَة، ويزيد بن هارون، عن هشام بن زياد[٥]، عن أبيه، كذا عن فاطمة، عن أبيها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق السالحينى، أخبرنا حَمَّاد بن سلمة، عن أبى سِنان قال: دفنتُ ابناً لى، فإنى لفى القبر إذ أخذ بيدى أبو طلحة ـ يعنى الخولانى ـ فأخرجنى، وقال لى: ألا أبشرك؟ قلت: بلى. قال: حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن بن عَرْزَب، عن أبى موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله[٦]: يا ملك الموت، قبضتَ ولد عبدى؟ قبضت قُرَّة عينه وثمرة فؤاده؟ قال نعم. قال: فما[٧] قال؟ قال: حَمِدَك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً فى الجنة، وسمُّوه بيتَ الحمد».

ثم رواه عن على بن إسحاق، عن عبد الله بن المبارك. فذكره[٨]. وهكذا رواه الترمذى عن سُوَيد بن نصر، عن ابن المبارك، به[٩]. وقال: حسن غريب. واسم أبى سنان: عيسى بن سنان.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الهاشمى، أخبرنا إبراهيم بن سعد، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة قالت: قلتُ: أرأيت قولَ الله تعالى: **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾** قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يطَّوف بهما؟ فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أختى إنها لو كانت على ما أوَّلتَها[١٠] عليه كانت: فلا جناح عليه

---

(١) فى جـ: «بنت».

(٢) المسند (١/ ٢٠١).

(٣) زيادة من ط.

(٤) سنن ابن ماجة برقم (١٦٠٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٥٢٨): «هذا إسناد فيه هشام بن زياد وهو ضعيف».

(٥) فى جـ، ط: «بن يزيد».

(٦) فى و: «إذا مات ولد العبد قال الله».

(٧) فى جـ: «فماذا».

(٨) المسند (٤/ ٤١٥).

(٩) سنن الترمذى برقم (١٠٢١).

(١٠) فى جـ: «كما أولتها».

ألا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أنّ الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يُهِلّون لمناة الطاغية، التى كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل. وكان من أهلَّ لها يتحرج أن يطوّف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطّوف بالصفا والمروة فى الجاهلية. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قالت عائشة: ثم قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يَدع الطواف بهما. أخرجاه فى الصحيحين(١).

وفى رواية عن الزهرى أنه قال: فحدثتُ بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقال: إن هذا العلمُ، ما كنت سمعته، ولقد سمعتُ رجالا(٢) من أهل العلم يقولون(٣): إن الناس ـ إلا من ذكرتْ عائشة ـ كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلعلها نزلت فى هؤلاء وهؤلاء.

ورواه البخارى من حديث مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة(٤)، بنحو ما تقدم. ثم قال البخارى: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عاصم بن سُليمان قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة قال: كنا نرى ذلك(٥) من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾(٦).

وذكر القرطبى(٧) فى تفسيره عن ابن عباس قال: كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله، وكانت بينهما آلهة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية. وقال الشعبى: كان إساف على الصفا، وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية قلت: وذكر ابن إسحاق فى كتاب السيرة(٨) أن إسافاً ونائلة كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عبدا، ثم حولا إلى الصفا والمروة، فنصبا هنالك، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما، ولهذا يقول أبو طالب فى قصيدته المشهورة:

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفضى السيول من إساف ونائل

وفى صحيح مسلم [من](٩) حديثُ جابر الطويلُ، وفيه: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه

---

(١) المسند (٦/ ١٤٤) وصحيح البخارى برقم (١٦٤٣).

(٢) فى جـ: «رجلاً». (٣) فى جـ: «يقول».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٩٥).

(٥) فى جـ: «أنها».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٤٩٦).

(٧) فى أ: «وذكر الطبرى».

(٨) السيرة النبوية لابن إسحاق رقم النص (٤) ط، حميد الله، المغرب. (٩) زيادة من جـ.

بالبيت، عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا، وهو يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به». وفي رواية النسائي: «ابدؤوا بما بدأ الله به»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا شُرَيح، حدثنا عبد الله بن المؤمل، عن عطاء بن أبي رباح، عن صفية بنت شيبة، عن حبِيبة بنت أبي تَجْرَاة[٢]، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره، وهو يقول: «اسعَوا، فإن الله كتب عليكم السعي»[٣].

ثم رواه الإمام أحمد، عن عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن واصل ـ مولى أبي عيينة ـ عن موسى ابن عبيدة[٤]، عن صفية بنت شيبة، أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ﷺ بين الصفا والمروة يقول: «كتُب عليكم السعي، فاسعوا»[٥].

وقد استُدلّ بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشافعي، ومن وافقه [ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك][٦]. وقيل: إنه واجب، وليس بركن [فإن تركه عمداً أو سهوا جبره بدم وهو رواية عن أحمد وبه تقول طائفة وقيل: بل مستحب، وإليه ذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين، وروى عن أنس وابن عمر وابن عباس وحكى عن مالك في العتبية ،قال القرطبي: واحتجوا بقوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾][٧]. وقيل: بل مستحب. والقول الأول أرجح، لأنه عليه السلام طاف بينهما، وقال: «لتأخذوا عني مناسككم». فكل ما فعله في حَجته تلك واجب لابد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، والله أعلم [وقد تقدم قوله عليه السلام: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»][٨].

فقد بين الله ـ تعالى ـ أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، أي: مما شرع الله تعالى لإبراهيم الخليل في مناسك الحج، وقد تقدم في حديث ابن عباس أنّ أصل ذلك مأخوذ من تطواف[٩] هاجر وتَرْدادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها، لما نَفد ماؤها وزادُها، حين تركهما إبراهيم ـ عليه السلام ـ هنالك ليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك، ونفد ما عندها قامت تطلب الغوث من الله، عز وجل، فلم تزل تردد[١٠] في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله، عز وجل، حتى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها طعام طُعْم، وشفاء سُقْم، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذُلّه وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجىء إلى الله،

(١) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).
(٢) في جـ: «بنت أبي تجر».
(٣) المسند (٦/ ٤٢١).
(٤) في أ: «بن عبدة».
(٥) المسند (٦/ ٤٣٧).
(٦ ـ ٨) زيادة من جـ، ط، أ.
(٩) في جـ: «تطوف»، وفي أ: «طواف».
(١٠) في جـ: «تزل تتردد».

عز وجل ليُزيح ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم[١]، وأن يثبته عليه إلى مماته، وأن يحوّله من حاله الذى هو عليه من الذنوب والمعاصى، إلى حال الكمال والغُفْران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر ـ عليها السلام.

وقوله: ﴿فَمَن[٢] تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قيل: زاد فى طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك. وقيل: يطوف بينهما[٣] فى حجة تطوع، أو عمرة تطوع. وقيل: المراد تطوع خيراً فى سائر العبادات. حكى ذلك [فخر الدين][٤] الرازى، وعزى الثالث إلى الحسن البصرى، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أى: يثيب على القليل بالكثير ﴿عَلِيمٌ﴾ بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ثوابه و ﴿لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢) ﴾.

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسلُ من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله ـ تعالى ـ لعباده فى كتبه، التى أنزلها على رسله.

قال[٥] أبو العالية: نزلت فى أهل الكتاب، كتموا صفَةَ محمد ﷺ. ثم أخبر أنهم[٦] يلعنهم كلّ شىء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كلّ شىء، حتى الحوت فى الماء والطير فى الهواء، فهؤلاء[٧] بخلاف العلماء [الذين يكتمون][٨]، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. وقد ورد فى الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضاً، عن أبى هريرة، وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «من سُئل عن علم، فكتمه أُلْجم يوم القيامة بلجام من نار»[٩]. والذى فى الصحيح عن أبى هريرة أنه قال: لولا آية فى كتاب الله ما حدثتُ أحداً شيئاً: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ الآية[١٠].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمار بن محمد، عن ليث بن أبى سليم،

---

(١) فى جـ: «إلى صراط مستقيم»، وفى ط: «إلى صراطه المستقيم».
(٢) فى أ، و: «ومن».
(٣) فى أ: «بها».
(٤) زيادة من جـ، ط، أ.
(٥) فى جـ: «وقال».
(٦) فى جـ: «أنه».
(٧) فى جـ: «فهو».
(٨) زيادة من جـ، ط.
(٩) المسند (٢/ ٢٦٣) وقد توسع الحافظ الزيلعى فى كتابه «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٧) فى ذكر طرق هذا الحديث.
(١٠) صحيح البخارى برقم (١١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٢).

عن[١] المنهال بن عمرو، عن زاذان أبى عُمَر[٢]، عن البراء بن عازب، قال: كنا مع النبى ﷺ فى جنازة، فقال: «إن الكافر يُضْرَب ضربة بين عينيه، فيسمع صوته كل[٣] دابة غير الثقلين، فتلعنه كل دابة سمعت صوته، فذلك قول الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ يعنى: دواب الأرض»[٤].

[ورواه ابن ماجة عن محمد بن الصباح عن عمار بن محمد به][٥].

وقال عطاء بن أبى رباح: كل دابة والجن والإنس. وقال مجاهد: إذا أجدبت الأرض قالت البهائم: هذا من أجل عُصاة بنى آدم، لعن الله عصاة بنى آدم.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾: يعنى تلعنهم ملائكة الله، والمؤمنون.

[وقد جاء فى الحديث، أن العالم يستغفر له كل شىء حتى الحيتان، وجاء فى هذه الآية: أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون، واللاعنون أيضاً، وهم كل فصيح وأعجمى إما بلسان المقال ،أو الحال أو لو كان له عقل أو يوم القيامة والله أعلم][٦].

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ أى: رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم وبيّنوا للناس ما كانوا كتموه ﴿فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. وفى هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه.

وقد ورد أن الأمم السالفة لم تكن التوبة تقبل[٧] من مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا من شريعة نبى التوبة ونبى الرحمة صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمرّ به الحالُ إلى مماته بأن ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: فى اللعنة التابعة[٨] لهم إلى يوم القيامة[٩]، ثم المصاحبة لهم فى نار جهنم التى ﴿لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ فيها، أى: لا ينقص عمَّا هم فيه ﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى: لا يُغيَّر[١٠] عنهم ساعة واحدة، ولا يفتَّر، بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك.

وقال أبو العالية وقتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

فصل: لا خلاف فى جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وعمن بعده

---

(١) فى جـ: «قال». (٢) فى أ: «زاذان بن عمر».

(٣) فى جـ، أ، و: «يسمعها».

(٤) هذا قطعة من حديث طويل رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٧٥٣، ٤٧٥٤) والنسائى فى السنن (٤/ ٧٨) من طريق زاذان به، وسيأتى ذكره عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فى تفسير سورة إبراهيم.

(٥، ٦) زيادة من جـ، ط، أ.

(٧) فى جـ: «تقبل منهم». (٨) فى جـ: «الباقية».

(٩) فى أ: «يوم الدين». (١٠) فى جـ، أ، و: «لا يفتر».

من الأئمة، يلعنون الكفرة فى القنوت وغيره؛ فأما الكافر المعين، فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأنا لا ندرى بما يختم له، واستدل بعضهم بهذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين. واختار ذلك الفقيه أبو بكر بن العربى المالكى، ولكنه احتج بحديث فيه ضعف، واستدل غيره بقوله، عليه السلام، فى صحيح البخارى فى قصة الذى كان يؤتى به سكران فيحده، فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»[١] قالوا: فعلّة المنع من لعنه؛ بأنه يحب الله ورسوله فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن، والله أعلم.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾.

يُخبرُ تعالى عن تَفَرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عَديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لا إله إلا هو وأنه الرحمن الرحيم. وقد تقدم تفسير هذين الاسمين فى أول السورة[٢]. وفى الحديث عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ و ﴿الم. اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]»[٣].

ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية [بتفرده][٤] بخلق السموات والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذَرَأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك فى [لطافتها و][٥] ارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض فى [كثافتها و][٦] انخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها وَوِهَادها وعُمْرانها وما فيها من المنافع ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ هذا يجىء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا[٧] يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] أى: يزيد من هذا فى هذا، ومن هذا فى هذا ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٧٨٠) من حديث عمر رضى الله عنه.

(٢) فى جـ، ط، أ، و: «فى أول الفاتحة».

(٣) رواه أبو داود فى السنن برقم (١٤٩٦) والترمذى فى السنن برقم (٣٤٧٨) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) زيادة من جـ، ط. (٥، ٦) زيادة من أ.

(٧) فى ط: «ولا».

أى: فى تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء[(١)] ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ . سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٦]. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أى: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شىء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦] ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أى: تارة تأتى بالرحمة وتارة تأتى بالعذاب، تارة[(٢)] تأتى مبشرة[(٣)] بين يدى السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، [ثم تارة تأتى من الجنوب وهى الشامية، وتارة تأتى من ناحية اليمن وتارة صبا، وهى الشرقية التى تصدم وجه الكعبة، وتارة دبور وهى غربية تفد من ناحية دبر الكعبة والرياح تسمى كلها بحسب مرورها على الكعبة. وقد صنف الناس فى الرياح والمطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول ههنا، والله أعلم][(٤)]. ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [أى: سائر بين السماء والأرض][(٥)] يُسَخَر إلى ما يشاء الله[(٦)] من الأراضى والأماكن، كما يصرفه تعالى: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى: فى هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: أخبرنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أبو سعيد الدَّشْتَكِىّ حدثنى أبى، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتت قريش محمداً ﷺ فقالوا: يا محمد إنما نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، فنشترى به الخيل والسلاح، فنؤمن بك ونقاتل معك. قال: «أوثقوا[(٧)] لى لئنْ دعوتُ ربى فجعلَ لكم الصفا ذهباً لتُؤمنُنّ بى». فأوثقوا له، فدعا ربه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذّبهم عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين. قال محمد ﷺ: «ربّ لا، بل دعنى وقومى فلأدْعُهم يوماً بيوم». فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ الآية.

---

(١) فى جـ: «أولئك لهؤلاء». (٢) فى جـ: «وتارة».
(٣) فى أ: «مسيرة». (٤) زيادة من جـ، ط، أ.
(٥) زيادة من جـ، أ، و.
(٦) فى جـ: «مسخراً إلى ما شاء الله»، وفى ط: «مسخر إلى ما يشاء الله».
(٧) فى أ: «أوقفوا».

ورواه ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن جعفر بن أبي المغيرة، به[١]. وزاد في آخره: وكيف يسألونك عن الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نَجيح، عن عطاء، قال: نزلت على النبي ﷺ بالمدينة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾. فقال كفار قريش بمكة: كيف يَسَعُ الناسَ إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فبهذا يعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كلّ شيء وخالق كل شيء.

وقال وكيع: حدثنا سفيان، عن أبيه، عن أبي الضحى قال: لما نزلت: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ إلى آخر الآية، قال المشركون: إن كان هكذا فليأتنا بآية. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

ورواه آدم بن أبي إياس، عن أبي جعفر ـ هو الرازي ـ عن سعيد بن مسروق، والد سفيان، عن أبي الضحى، به.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾.

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا [له][٢] أنداداً، أي: أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ندّ له، ولا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أيّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلَقك»[٣].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: ولحبهم لله وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه. ثم تَوَعَّدَ تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ

(١) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٢) من طريق يحيى الحماني عن يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة به نحوه.

(٢) زيادة من جـ.

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

جَمِيعًا﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أي: إن الحكم له[1] وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه **﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾** كما قال: **﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ .وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾** [الفجر: ٢٥، ٢٦] يقول: لو علموا ما يعاينونه[2] هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لا نتهوا عما هم فيه من الضلال.

ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال: **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا [وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ][3]﴾** تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم فى دار الدنيا، فتقول الملائكة: **﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾** [القصص: ٦٣] ويقولون: **﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾** [سبأ: ٤١]. والجن أيضاً تتبرأ منهم، ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾** [الأحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: **﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾** [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل لقومه: **﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾** [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: **﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [سبأ: ٣١ ـ ٣٣] وقال تعالى: **﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: **﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾** أى: عاينوا عذاب الله، وتقطّعت بهم الحِيَلُ وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار مَعْدلا ولا مَصْرفا.

قال عطاء عن ابن عباس **﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾** قال: المودة. وكذا قال مجاهد فى رواية ابن أبى نَجيح.

وقوله: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾** أى: لو أن لنا عَوْدة[4] إلى

---

(١) فى جـ، ط: «إن الحكم لله». (٢) فى جـ: «ما يعاينوه».

(٣) زيادة من جـ. (٤) فى ط: «دعوة».

الدار الدنيا حتى نَتَبَرَّأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحد الله وحده بالعبادة. وهم كاذبون في هذا، بل لو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه. كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أي: تذهب وتضمحل كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ الآية [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ الآية [النور: ٣٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾.

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرازق لجميع خلقه، فذكر [ذلك][1] في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالا من الله طيباً، أي: مستطاباً في نفسه غير ضارّ للأبدان ولا للعقول ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي: طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البَحَائر والسوائب والوصائل ونحوها مما زَينه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حمَار الذي في صحيح مسلم، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: إن كل ما أمنحهُ[2] عبادي فهو لهم حلال» وفيه: «وإني خلقت عبادي حُنَفَاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم»[3].

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عيسى بن شيبة[4] المصري، حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي، حدثنا أبو عبد الله الجوزجاني[5] ـ رفيق إبراهيم ابن أدهم ـ حدثنا ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: تُليت هذه الآية عند النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فقام سعد بن أبي وقاص، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال. «يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل ليَقْذفُ اللقمة الحرام في جَوْفه ما يُتَقَبَّل منه أربعين يوماً، وأيما عبد نبت لحمه من السُّحْت والربا فالنار أولى به»[6].

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: تنفير عنه وتحذير منه، كما قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

---

(١) زيادة من أ. (٢) في جـ، ط، أ، و: «كل مال منحته».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).
(٤) في جـ: «شعبة»، وفي هـ: «شبة». (٥) في جـ: «الجرجاني».
(٦) المعجم الأوسط للطبراني برقم (٥٠٢٦) «مجمع البحرين».

وقال قتادة، والسدى فى قوله: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: كل معصية لله فهى من خطوات الشيطان.

وقال عكرمة: هى نزغات الشيطان، وقال مجاهد: خطاه، أو قال: خطاياه.

وقال أبو مِجْلَز: هى النذور فى المعاصى.

وقال الشعبى: نذر رجل أن ينحر ابنه فأفتاه مسروق بذبح كبش. وقال: هذا من خطوات الشيطان.

وقال أبو الضحى، عن مسروق: أتى عبد الله بن مسعود بضَرْع وملح، فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أريده. فقال: أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن آكل ضَرْعا أبدا. فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطْعَمْ وكَفِّر عن يمينك.

رواه [١]ابن أبى حاتم، وقال أيضاً:

حدثنا أبى، حدثنا حَسَّان بن عبد الله المصرى، عن سليمان التيمى، عن أبى رافع، قال: غضبت على امرأتى، فقالت: هى يوماً يهودية ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حر، إن لم تطلق امرأتك. فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من خطوات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهى يومئذ أفقه امرأة فى المدينة. وأتيت عاصماً وابن عمر[٢] فقالا مثل ذلك.

وقال عبد بن حميد: حدثنا أبو نعيم[٣]، عن شريك، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما كان من يمين أو نذر فى غَضَب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين.

[وقال سعيد بن داود فى تفسيره: حدثنا عبادة بن عباد المهلبى عن عاصم الأحول، عن عكرمة فى رجل قال لغلامه: إن لم أجلدك مائة سوط فامرأته طالق، قال: لا يجلد غلامه، ولا تطلق امرأته هذا من خطوات الشيطان][٤].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: إنما يأمركم عدوّكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل[٥] فى هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾.

---

(١) فى جـ: «روى هذا»، وفى ط، أ، و: «رواهن».
(٢) فى ط: «عاصم بن عمر». (٣) فى جـ: «عبد الله بن نعيم».
(٤) زيادة من ج، ط. (٥) فى ط: «فدخل».

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لهؤلاء الكفرة من المشركين: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على رسوله، واتركوا ما أنتم فيه[١] من الضلال والجهل، قالوا فى جواب ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ أى: وجدنا ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى: من عبادة الأصنام والأنداد. قال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ أى: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ أى: ليس لهم فهم ولا هداية!!

وروى ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنها نزلت فى طائفة من اليهود، دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. فأنزل الله هذه الآية.

ثم ضرب لهم تعالى مثلا، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠]، فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: فيما هم فيه من الغى والضلال والجهل كالدواب السارحة التى لاتفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها، أى: دعاها إلى ما يرشدها، لاتفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط.

هكذا روى عن ابن عباس، وأبى العالية، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس، نحو هذا.

وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم فى دعائهم الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، اختاره ابن جرير، والأول أولى؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئاً ولا تعقله ولا تبصره، ولا بطش لها ولا حياة فيها[٢]. وقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أى: صم عن سماع الحق، بكم لا يتفوهون به، عمى عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ أى: لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أى: صُمٌّ عن سماع الحق، بكم لا يتفوهون به، عمى عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ أى: لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣)﴾.

يقول تعالى آمراً عبادَه المؤمنين بالأكل من طَيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه على ذلك، إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبولَ الدعاء والعبادة، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمامُ أحمد:

حدثنا أبو النضر، حدثنا الفُضَيل بن مرزوق، عن عدىِّ بن ثابت، عن أبى حازم، عن أبى هريرة

(١) فى أ: «ما أنتم عليه».
(٢) فى أ: «لأن الأصنام لا تسمع دعاءً ولا نداءً بل هى جمادات لا تسمع شيئاً».

قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ثم ذكر الرجل يطيلُ السفر أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء: يارب، يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغُذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك».

ورواه مسلم فى صحيحه، والترمذى من حديث [فضيل][(١)] بن مرزوق[(٢)].

ولما امتن تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يُحَرِّمْ عليهم من ذلك إلا الميتة، وهى التى تموت حَتْف أنفها من غير تذكية، وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو مُتَرَدِّية أو نطيحة أو قد عدا عليها السبُع.

وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦] على ما سيأتى، وحديث العنبر فى الصحيح وفى المسند والموطأ والسنن قوله، عليه السلام، فى البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وروى الشافعى وأحمد وابن ماجة والدارقطنى من حديث ابن عمر مرفوعاً: «أحل لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال» وسيأتى تقرير ذلك فى سورة المائدة[(٣)].

ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعى وغيره؛ لأنه جزء منها. وقال مالك فى رواية: هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس، فقال القرطبى فى تفسيره هاهنا: يخالط اللبن منها يسير، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع. وقد روى ابن ماجة من حديث سيف ابن هارون عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدى، عن سلمان سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء، فقال: «الحلال ما أحل الله فى كتابه، والحرام ما حرم الله فى كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه»[(٤)].

وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير، سواء ذُكِّى أو مات حَتْف أنفه، ويدخُلُ شَحْمه فى حكم لحمه[(٥)]، إما تغليباً أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأى. و[كذلك][(٦)] حَرَّم عليهم ما أُهِلَّ به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه[(٧)] تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام، ونحو ذلك

---

(١) زيادة من أ.

(٢) المسند (٢/ ٣٢٨) وصحيح مسلم برقم (١٠١٥) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨٩).

(٣) وسيأتى تخريج الحديثين عند تفسير أول سورة المائدة.

(٤) سنن ابن ماجة برقم (٣٣٦٧) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٧٢٦) من طريق سيف بن هارون به وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه». وروى سفيان وغيره عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان، عن سلمان قوله، وكأن الحديث الموقوف أصح، وسألت البخارى عن هذا الحديث فقال: ما أراه محفوظاً، روى سفيان عن سليمان التيمى عن أبى عثمان، عن سلمان موقوفاً، قال البخارى: «وسيف بن هارون مقارب الحديث، وسيف بن محمد، عن عاصم ذاهب الحديث».

(٥) فى جـ: «ويدخل لحمه فى حكم شحمه». (٦) زيادة من جـ، أ، و. (٧) فى جـ: «غير اسم الله».

مما كانت الجاهلية ينحرون له. [وذكر القرطبى عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصرى: أنه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبها فنحرت فيه جزوراً، فقال: لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم؛ وأورد القرطبى عن عائشة أنها سئلت عما يذبحه العجم فى أعيادهم فيهدون منه للمسلمين، فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوه، وكلوا من أشجارهم](١). ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أى: فى غير بغى ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أى: فى أكل ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال مجاهد: فمن اضطر غير باغ ولا عاد، قاطعاً للسبيل، أو مفارقاً للأئمة، أو خارجاً فى معصية الله، فله الرخصة ومن خرج باغياً أو عادياً أو فى معصية الله فلا رخصة له، وإن اضطر إليه، وكذا روى عن سعيد بن جبير.

وقال سعيد ـ فى رواية عنه، ومقاتل بن حيان: غير باغ: يعنى غير مستحله. وقال السدى: غير باغ يبتغى فيه شهوته، وقال عطاء الخراسانى فى قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ [قال](٢): لا يشوى من الميتة ليشتهيه ولا يطبخه، ولا يأكل إلا العُلْقَة، ويحمل معه ما يبلغه الحلال، فإذا بلغه ألقاه [وهو قوله: ﴿وَلَا عَادٍ﴾ يقول: لا يعدو به الحلال](٣).

وعن ابن عباس: لا يشبع منها. وفسره السدى بالعدوان. وعن ابن عباس ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ فى الميتة، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ فى أكله. وقال قتادة: فمن اضطر غير باغ ولا عاد فى(٤) أكله: أن يتعدى حلالا إلى حرام، وهو يجد عنه مندوحة.

وحكى القرطبى عن مجاهد فى قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أى :أكره على أكل ذلك بغير اختياره.

مسألة: ذكر القرطبى إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بلا خلاف ـ كذا قال ـ ثم قال: وإذا أكله، والحالة هذه، هل يضمنه أم لا؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك، ثم أورد من سنن ابن ماجة من حديث شعبة عن أبى إياس جعفر بن أبى وحشية: سمعت عباد بن العنزى(٥) قال: أصابتنا عاماً مخمصة، فأتيت المدينة(٦). فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه فى كسائى، فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما أطعمته إذ كان جائعاً أو ساعياً، ولا علمته إذ كان جاهلاً»(٧). فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق، إسناد صحيح قوى جيد وله شواهد كثيرة: من ذلك حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق، فقال: «من أصاب منه من ذى حاجة بفيه غير متخذ خبنة(٨)، فلا شىء عليه»(٩) الحديث.

(١) زيادة من جـ، أ. (٢) زيادة من جـ. (٣) زيادة من و.
(٤) فى جـ: «ولا عاد أى». (٥) فى أ: «شرحيل الفتوى»، وفى ط: «بشر العنزى»، والصواب ما أثبتناه.
(٦) فى أ: «فأتيت الحتفية».
(٧) سنن ابن ماجة برقم (٢٢٩٨).
(٨) فى أ: «غير منحن جيبه».
(٩)رواه الترمذى فى السنن برقم (١٢٨٩) وقال: «هذا حديث حسن».

وقال مقاتل بن حيان فى قوله: ﴿فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: فيما أكل من اضطرار، وبلغنا ـ والله أعلم ـ أنه لا يزاد(١) على ثلاث لقم.

وقال سعيد بن جبير: غَفُور لما أكل من الحرام. رحيم إذ أحل له الحرام فى الاضطرار.

وقال وَكِيع: حدثنا الأعمش، عن أبى الضحى، عن مسروق قال: من(٢) اضطُرَّ فلم يأكل ولم يشرب، ثم مات دخل النار.

[وهذا يقتضى أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة. قال أبو الحسن الطبرى ـ المعروف بالكياالهراسى رفيق الغزالى فى الاشتغال: وهذا هو الصحيح عندنا؛ كالإفطار للمريض فى رمضان ونحو ذلك](٣).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ [مما يشهد له بالرسالة](٤) ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعنى اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ فى كتبهم التى بأيديهم، مما تشهد(٥) له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا ـ لعنهم الله ـ إن أظهروا ذلك أن يَتَّبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك، وهو نَزْرٌ يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا فى الدنيا والآخرة؛ أما فى الدنيا فإن الله أظهر لعباده صِدْقَ رسوله، بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباؤوا بغضب على غضب، وذمَّهم الله فى كتابه فى غير(٦) موضع. من ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾ أى: إنما يأكلون ما يأكلونه فى مقابلة كتمان الحق ناراً تَأَجَّجُ فى بطونهم يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وفى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب

(١) فى أ: «أنه لا يزيد».

(٢) فى جـ: «فمن».

(٣، ٤) زيادة من جـ.

(٥) فى أ: «كالعهد».

(٦) فى جـ، أ، و: «فى غيرما».

والفضة، إنما يُجَرْجِرُ فى بطنه نار جهنم»(١).

وقوله: ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: وذلك لأنه غضبانُ عليهم، لأنَّهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم، أى: يثنى(٢) عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذاباً أليماً.

وقد ذكر ابن أبى حاتم وابن مَرْدُوَيْه هاهنا [الحديث الذى رواه مسلم أيضاً من](٣) حديث الأعمش، عن أبى حازم، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم [ولهم عذاب أليم](٤): شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»(٥).

ثم قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى﴾ أى: اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما فى كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته فى كتبهم ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أى: اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطَوْه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾: يخبر تعالى أنَّهم فى عذاب شديد عظيم هائل، يتعجَّبُ من رآهم فيها من صبرهم على ذلك، مع(٦) شدة ما هم فيه من العذاب، والنكال، والأغلال عياذاً بالله من ذلك.

[وقيل معنى قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أى: ما أدومهم لعمل المعاصى التى تفضى بهم إلى النار](٧).

وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى: إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتُبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره، فخالفوه وكذبوه. وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه، ويكتمون صفته، فاستهزؤوا بآيات الله المنزلة على رسله؛ فلهذا استحقوا العذاب والنكال؛ ولهذا(٨) قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا

(١) صحيح البخارى برقم (٥٦٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٠٦٥) من حديث أم سلمة رضى الله عنها .
(٢) فى أ: «أى: لا يثنى».
(٣) زيادة من جـ، أ.
(٤) زيادة من جـ، وصحيح مسلم.
(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٠٧).
(٦) فى جـ، أ، و: «من».
(٧) زيادة من أ.
(٨) فى جـ: «فلهذا».

وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة، على جمَل عظيمة، وقواعد عميمَة، وعقيدة مستقيمة، كما قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عُبَيد[١] بن هشام الحلبى، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عامر بن شُفَى، عن عبد الكريم، عن مجاهد، عن أبى ذر: أنه سأل رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ فتلا عليه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ إلى آخر الآية. قال: ثم سأله أيضاً، فتلاها عليه[٢]، ثم سأله. فقال: «إذا عملت حسنَة أحبها[٣] قلبك، وإذا عملت سيئة أبغضها[٤] قلبك»[٥].

وهذا منقطع؛ فإن[٦] مجاهداً لم يدرك أبا ذر؛ فإنه مات قديماً.

وقال المسعودى: حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، قال: جاء رجل إلى أبى ذر، فقال: ما الإيمان؟ فقرأ[٧] عليه هذه الآية: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ حتى فرغ منها. فقال الرجل: ليس عن البر سألتُكَ. فقال أبو ذر: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتنى عنه، فقرأ عليه هذه الآية، فأبى أن يرضى كما أبيت [أنت][٨] أن ترضى فقال له رسول الله ﷺ ـ وأشار بيده ـ: «المؤمن إذا عمل حسنة سَرته ورجا ثوابها، وإذا عمل سيئة أحزنته وخاف عقابها»[٩].

رواه ابن مَرْدُويه، وهذا أيضاً منقطع، والله أعلم.

وأما الكلام على تفسير هذه الآية، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حَوَّلهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيانَ حكمته فى ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله، عز وجل، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس فى لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ولهذا قال: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية، كما قال فى الأضاحى والهدايا: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية: ليس البر أن تُصَلُّوا ولا تعملوا. فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود، فأمر الله بالفرائض والعمل بها.

(١) فى جـ: «حدثنا عبيدة». (٢) فى جـ: «فتلا عليه».

(٣) فى جـ: «فأحبها». (٤) فى جـ: «فأبغضها».

(٥) ورواه محمد بن نصر فى «تعظيم قدر الصلاة» برقم (٤٠٩) من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن عبد الكريم، عن مجاهد به.

(٦) فى جـ: «لأن». (٧) فى جـ: «فتلا».

(٨) زيادة من أ.

(٩) ورواه محمد بن نصر فى «تعظيم قدر الصلاة» برقم (٤٠٨) من طريق عبد الله بن يزيد والملائى، كلاهما عن المسعودى به نحوه، ورواه الحاكم (٢/ ٢٧٢) من طريق موسى بن أعين، عن عبد الكريم به نحوه. وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى: «قلت: وهو منقطع».

وروى عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك.

وقال أبو العالية: كانت اليهودُ تُقْبل(١) قبل المغرب، وكانت النصارى تقبل(٢) قبل المشرق، فقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته(٣) العمل. وروى عن الحسن والربيع بن أنس مثله.

وقال مجاهد: ولكن البر ماثبت فى القلوب من طاعة الله، عز وجل.

وقال الضحاك: ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها.

وقال الثورى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية، قال: هذه أنواع البر كلها. وصدق رحمه الله؛ فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل فى عُرَى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وهو أنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله ﴿وَالْكِتَابِ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب، الذى انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل سعادة فى الدنيا والآخرة، ونسخ [الله](٤) به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أى: أخرجه، وهو مُحب له، راغب فيه. نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هُرَيرة مرفوعاً: «أفضل الصدقة أن تَصَدَّقَ وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر».

وقد روى الحاكم فى مستدركه، من حديث شعبة والثورى، عن منصور، عن زُبَيد، عن مُرَّة، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾: أن(٥) تعطيه وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى(٦) وتخشى الفقر». ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه(٧).

قلت وقد رواه وَكِيع عن الأعمش، وسفيان عن زُبَيد، عن مرة، عن ابن مسعود، موقوفاً، وهو أصح، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] نمط آخرُ أرفع من هذا [ومن هذا](٨)، وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا(٩) وأطعموا ما هم محبون له.

وقوله: ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهم: قرابات الرجل، وهم أولى من أعطى من الصدقة، كما ثبت فى

(١، ٢) فى جـ: «تتقبل». (٣) فى جـ: «وحقيقة».
(٤) زيادة من جـ. (٥) فى أ: «أى».
(٦) فى أ: «العيش».
(٧) المستدرك (٢/ ٢٧٢).
(٨) زيادة من جـ. (٩) فى جـ: «وهؤلاء أعطوه».

الحديث: «الصدقة على المساكين[(١)] صدقة، وعلى ذوى الرحم ثنتان: صدقة وصلة». فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك. وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم فى غير ما موضع من كتابه العزيز.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ هم: الذين لا كاسب[(٢)] لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن جويبر، عن الضحاك، عن النزال بن سَبْرة، عن على، عن رسول الله ﷺ قال: «لا يُتْم بعد حُلُم».

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ وهم: الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم، فيعطون ما تُسَدُّ به حاجتهم وخلتهم. وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذى تَرده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْطَن له[(٣)] فيُتَصَدَقَ عليه»[(٤)].

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو: المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذى يريد سفراً فى طاعة، فيعطى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه، ويدخل فى ذلك الضيف، كما قال على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس أنه قال: ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو جعفر الباقر، والحسن، وقتادة، والضحاك والزهرى، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ وهم: الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكيع وعبد الرحمن، قالا: حدثنا سفيان، عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبى يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها[(٥)] ـ قال عبد الرحمن: حسين بن على ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس». رواه أبو داود.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وهم: المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه فى كتابتهم.

وسيأتى الكلام على كثير من هذه الأصناف[(٦)] فى آية الصدقات من براءة، إن شاء الله تعالى.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا شريك، عن أبى حمزة، عن الشعبى، حدثتنى فاطمة بنت قيس: أنها سألت رسول الله ﷺ: أفى المال حق سوى الزكاة؟ قالت: فتلا علَىَّ: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾[(٧)].

ورواه ابن مَرْدُويه من حديث آدم بن أبى إياس، ويحيى بن عبد الحميد، كلاهما، عن شريك،

(١) فى أ: «على المسلمين».

(٢) فى أ: «لا مكاسب».

(٣) فى أ: «لا يجد ما يغنيه ولا ينظر له».

(٤) صحيح البخارى برقم (١٤٧٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٩).

(٥) فى جـ: «فاطمة بنت حسين عن أبيها»، وفى أ: «فاطمة بنت حسين بن على، عن حسين بن على».

(٦) فى جـ: «من الأصناف هذه».

(٧) هو فى صحيح البخارى برقم (٣٣) وصحيح مسلم برقم (٥٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

عن أبى حمزة عن الشعبى، عن فاطمة بنت قيس، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فى المال حق سوى الزكاة» ثم تلا[(١)]: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

[وقد أخرجه ابن ماجة والترمذى[(٢)] وضعف أبا حمزة ميموناً[(٣)] الأعور، قال: وقد رواه بيان[(٤)] وإسماعيل بن سالم عن الشعبى][(٥)].

وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أى: وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها، وسجودها، وطمأنينتها، وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى.

وقوله: ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾: يُحْتَمَلُ أن يكون المراد به زكاة النفس، وتخليصها من الأخلاق الدنية[(٦)] الرذيلة، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقول موسى لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ . وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

ويحتمل أن يكون المرادُ زكاة المال[(٧)]، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ويكون المذكور من إعطاء[(٨)] هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة؛ ولهذا تقدم فى الحديث عن فاطمة بنت قيس: أن فى المال حقاً سوى الزكاة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾، كقوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ٢٠] وعكس هذه الصفة النفاق، كما صح فى الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». وفى الحديث الآخر: «إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[(٩)].

وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أى: فى حال الفقر، وهو البأساء، وفى حال المرض والأسقام، وهو الضراء. ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أى: فى حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومرة الهمدانى، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدى، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك، والضحاك، وغيرهم.

وإنما نُصب ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدته وصعوبته، والله أعلم، وهو المستعان وعليه التُّكلان.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أى: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدَقوا فى إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ

---

(١) فى جـ، أ، و: «ثم قرأ».

(٢) سنن الترمذى برقم (٦٥٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٧٨٩) وقال الترمذى: «هذا حديث ليس إسناده بذاك، وأبو حمزة يضعف فى الحديث، وقد روى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبى قوله، وهو أصح».

(٣) فى أ: «عوناً».

(٤) فى جـ: «سيار» والصواب ما أثبتناه.

(٥) زيادة من جـ، أ.

(٦) فى جـ: «الذميمة».

(٧) فى جـ: «زكاة الملك».

(٨) فى أ، و: «من أعطى».

(٩) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنه.

المُتَّقُونَ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾.

يقول تعالى: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾** العدلُ فى القصاص ـ أيّها المؤمنون ـ حُرّكم[(١)] بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة و[بنو][(٢)] النضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة فى الجاهلية وقَهَروهم، فكان إذا قتل النضرىّ القُرظىَّ لا يقتل به، بل يُفَادَى بمائة وسْق من التمر، وإذا قتل القرظى النضرى قتل به، وإن فادَوْه فَدَوه بمائتى وسق من التمر ضعْف دية[(٣)] القرظى، فأمر الله بالعدل فى القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين[(٤)] المخالفين لأحكام الله فيهم، كفرا وبغياً[(٥)]، فقال تعالى: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَى﴾**.

وذكر فى [سبب][(٦)] نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَير[(٧)]، حدثنى عبد الله بن لَهيعة، حدثنى عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، فى قول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾** يعنى: إذا كان عَمْدًا، الحر بالحر. وذلك أن حيَّيْنِ من العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتل وجراحات، حتى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر فى العدة والأموال، فحلفوا ألا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم[(٨)]، فنزلت فيهم.

﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَى﴾ منها منسوخة، نسختها **﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾** [المائدة: ٤٥].

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: **﴿وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَى﴾** وذلك أنهم لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة فأنزل الله: النفس بالنفس والعين بالعين، فجعل الأحرار فى القصاص[(٩)] سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم فى النفس، وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستوين[(١٠)] فيما بينهم من العمد فى النفس وفيما دون النفس رجالهم

(١) فى جـ، أ، و: «فاقتلوا حركم».
(٢) زيادة من أ.
(٣) فى جـ: «ضعف دم».
(٤) فى أ: «المجرمين».
(٥) فى جـ: «لهواً ولعباً».
(٦) زيادة من جـ.
(٧) فى جـ، أ: «بكر».
(٨) فى جـ: «والمرأة منا بالرجل منهم».
(٩) فى جـ: «القصاص والعبيد».
(١٠) فى أ، و: «مستويين».

ونساؤهم، وكذلك روى عن أبى مالك أنها منسوخة بقوله: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

مسألة: مذهب أبى حنيفة أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، وإليه ذهب الثورى وابن أبى ليلى وداود، وهو مروى عن على، وابن مسعود، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعى، وقتادة، والحكم، وقال البخارى، وعلى بن المدينى وإبراهيم النخعى والثورى فى رواية عنه: يقتل السيد بعبده؛ لعموم حديث الحسن عن سمرة: «من قتل عبده قتلناه، ومن جذعه جذعناه، ومن خصاه خصيناه»(١)، وخالفهم الجمهور وقالوا: لا يقتل الحر بالعبد؛ لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم تجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته، وأنه لا يقاد بطرفه ففى النفس بطريق أولى، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر، كما ثبت فى البخارى عن على، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»(٢) ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة.

مسألة: قال الحسن وعطاء: لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية، وخالفهم الجمهور لآية المائدة؛ ولقوله عليه السلام: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» (٣)، وقال الليث: إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة.

مسألة: ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد؛ قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى غلام قتله سبعة فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم، ولا يعرف له فى زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع. وحكى عن الإمام أحمد رواية: أن الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة. وحكاه ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير، وعبد الملك بن مروان والزهرى ومحمد بن سيرين وحبيب بن أبى ثابت؛ ثم قال ابن المنذر: وهذا أصح، ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة(٤). وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه، وإذا اختلف الصحابة فسبيله النظر.

وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾: قال مجاهد عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو: أن يَقبل الدية فى العمد، وكذا روى عن أبى العالية، وأبى الشعثاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يقول: فمن ترك له من أخيه شيء يعنى: [بعد] (٥)أخذَ الديّة بعد استحقاق الدم، وذلك العَفْوُ ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول: فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قَبِل الدية ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ يعنى: من القاتل من غير ضرر ولا مَعْك، يعنى المدافعة.

وروى الحاكم من حديث سفيان، عن عمرو، عن مجاهد، عن ابن عباس: ويؤدى المطلوب

---

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٥١٥، ٤٥١٦) والترمذى فى السنن برقم (١٤١٤) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) صحيح البخارى برقم (١١١).

(٣) رواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٦٨٣) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٤) فى أ: «قتل جماعة بواحد». (٥) زيادة من جـ، أ.

بإحسان. وكذا قال سعيد بن جُبَير، وأبو الشعثاء جابر بن زَيد، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراسانى، والربيع بن أنس، والسدى، ومقاتل بن حيان.

مسألة: قال مالك ـ رحمه الله ـ فى رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور، وأبو حنيفة وأصحابه والشافعى فى أحد قوليه: ليس لولى الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل، وقال الباقون: له أن يعفو عليها وإن لم يرض القاتل، وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو، منهم الحسن، وقتادة، والزهرى، وابن شبرمة، والليث، والأوزاعى، وخالفهم الباقون.

وقوله: **﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾** يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية فى العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما قال سعيد بن منصور:

حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، أخبرنى مجاهد، عن ابن عباس، قال: كتب على بنى إسرائيل القصاص فى القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة[1]: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾** فالعفو أن يقبل الدية فى العمد، ذلك تخفيف [من ربكم ورحمة][2] مما كتب على من كان قبلكم، فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان[3].

وقد رواه غير واحد عن عمرو [بن دينار][4]، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه، عن عمرو بن دينار، به[5]. [وقد رواه البخارى والنسائى عن ابن عباس][6]؛ ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عباس، بنحوه.

وقال قتادة: **﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾**: رَحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبلهم، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش[7]، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل لهذه الأمة القصاصُ والعفو والأرش.

وهكذا روى عن سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، نحو هذا.

وقوله: **﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**: يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجع شديد.

وكذا رُوى عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدى، ومقاتل بن حيان: أنه هو الذى يقتل بعد أخذ الدية، كما قال محمد بن إسحاق، عن الحارث بن فضيل، عن سفيان بن أبى العوجاء، عن أبى شريح الخزاعى: أن النبى ﷺ قال: «من

---

(١) فى أ: «فقال الله فى هذه الآية». (٢) زيادة من جـ.

(٣) سنن سعيد بن منصور برقم (٢٤٦) بتحقيق د. الحميد.

(٤) زيادة من جـ.

(٥) صحيح ابن حبان (٧/ ٦٠١) «الإحسان» وانظر لتمام تخريج هذا الحديث وذكر طرقه: حاشية الدكتور سعد الحميد ـ حفظه الله ـ على سنن سعيد بن منصور.

(٦) زيادة من جـ، أ. (٧) فى جـ: «أثر».

أصيب بقتل أو خَبْل[١] فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية؛ فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه. ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها» رواه[٢] أحمد[٣].

وقال سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أعافى رجلا قتل بعد أخذ الدية ـ يعنى: لا أقبل منه الدية ـ بل أقتله»[٤].

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾: يقول تعالى: وفى شَرْع القصاص لكم ـ وهو قتل القاتل ـ حكمة عظيمة لكم، وهى بقاء المُهَج وصَوْنها؛ لأنه إذا علم القاتلُ أنه يقتل انكفّ عن صنيعه، فكان فى ذلك حياة النفوس. وفى الكتب المتقدمة: القتلُ أنْفَى للقتل. فجاءت هذه العبارة فى القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾: قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتُل، فتمنعه مخافة أن يُقتل.

وكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبى مالك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولى العقول والأفهام والنّهى، لعلكم تنزجرون فتتركون محارم الله ومآثمه، والتقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين. وقد كان ذلك واجباً ـ على أصح القولين ـ قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نُسخت هذه، وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله، يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية ولا تحمل منّة[٥] الموصى، ولهذا جاء الحديثُ فى السنن وغيرها عن عَمْرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: «إن الله قد أعطى كلّ ذى حق حقه، فلا وصية لوارث»[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عُلَيَّة، عن يونس بن عبيد، عن محمد بن

---

(١) فى أ: «أو ختل». (٢) فى جـ: «ورواه».

(٣) المسند (٤/ ٣١).

(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٤٢١) وعزاه لسمويه فى فوائده، وروى البيهقى فى السنن الكبرى (٨/ ٥٤) من طريق سعيد بن أبى عروبة عن مطر عن الحسن مرسلاً بنحوه، وروى أبو داود فى السنن برقم (٤٥٠٧) من طريق حماد عن مطر عن الحسن عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه مرفوعاً بنحوه.

(٥) فى و: «مآنة»، وفى أ: «مانة».

(٦) سنن الترمذى برقم (٢١٢١) وسنن النسائى (٦/ ٢٤٧) وسنن ابن ماجة برقم (٢٧١٢).

سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى [على][1] هذه الآية: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ فقال: نُسخت هذه الآية.

وكذا رواه سعيد بن منصور، عن هُشَيم، عن يونس، به. ورواه الحاكم فى مستدركه وقال: صحيح على شرطهما[2].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ قال: كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين، فأنزل الله آية الميراث[3]، فبيَّن ميراث الوالدين، وأقر وصية الأقربين فى ثلث مال الميت.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج، وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾: نسختها هذه الآية: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

ثم قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن عمر[4]، وأبى موسى، وسعيد بن المسيّب، والحسن، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن سيرين، وعكرمة، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدى، ومقاتل بن حيّان، وطاوس، وإبراهيم النَّخعى، وشُرَيح، والضحاك، والزهرى: أن هذه الآية منسوخة نسختها آية الميراث.

والعجب من أبى عبد الله مُحَمَّد بن عمر[5] الرازى ـ رحمه الله ـ كيف حكى فى تفسيره الكبير عن أبى مسلم الأصفهانى[6]: أن هذه الآية غير منسوخة، وإنما هى مُفَسرة بآية المواريث، ومعناه: كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث[7] الوالدين والأقربين. من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] قال: وهو قولُ أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء. قال: ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عباس، والحسن، ومسروق، وطاوس، والضحاك، ومسلم بن يَسَار، والعلاء بن زياد.

قلت: وبه قال أيضاً سعيدُ بن جُبَير، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان. ولكن على قول هؤلاء[8] لا يسمى هذا نسخاً فى اصطلاحنا المتأخر؛ لأن آية الميراث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن «الأقربين» أعم ممن يرث ومن[9] لا يرث، فرفع حكم من يرث بما عُيِّنَ له، وبقى الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى. وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم: أن الوصاية فى ابتداء الإسلام إنما كانت نَدْباً حتى نُسخت. فأما من يقول: إنها كانت واجبة وهو الظاهر من

---

(١) زيادة من جـ.

(٢) سنن سعيد بن منصور برقم (٢٥٢) بتحقيق الدكتور الحميد، والمستدرك (٢/ ٢٧٣).

(٣) فى أ: «المواريث». (٤، ٥) فى جـ: «ابن أبى عمر».

(٦) فى أ: «الأصبهانى».

(٧) فى جـ: «من تواريث». (٨) فى أ: «على قول هذا».

(٩) فى أ: «وممن».

سياق الآية ـ فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث، كما قاله أكثرُ المفسرين والمعتبرين من الفقهاء؛ فإنّ وجوب الوصية للوالدين والأقربين [الوارثين][1] منسوخ بالإجماع. بل منهى عنه للحديث المتقدم: «إن الله قد أعطى كلّ ذى حق حقه فلا وصية لوارث». فآية الميراث حكم مستقل، ووجوب من عند الله لأهل الفروض وللعصبات[2]، رفع بها حُكْمُ هذه بالكلية. بقى الأقارب الذين لا ميراث لهم، يستحب له أن يُوصىَ لهم من الثلث، استئناساً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت فى الصحيحين، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شىء يوصى فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده». قال ابن عمر ما مرت عَلَىّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندى وصيتى[3].

والآيات والأحاديث بالأمر ببر الأقارب والإحسان إليهم، كثيرة جداً.

وقال عبد بن حميد فى مسنده: أخبرنا عبيد الله، عن مبارك بن حسان، عن نافع قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، ثنتان لم يكن لك واحدة منهما: جعلت لك نصيباً فى مالك حين أخذْتُ بكَظَمك؛ لأطهرك به وأزكّيك، وصلاةُ عبادى عليكَ بعد انقضاء أجلك».

وقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أى: مالا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، وأبو العالية، وعَطية العَوْفى، والضحاك، والسدى، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيَّان، وقتادة، وغيرهم.

ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قَلّ المال أو كثُر كالوراثة[4]، ومنهم من قال: إنما يُوصِى إذا ترك مالا جزيلا، ثم اختلفوا فى مقداره، فقال ابن أبى حاتم:

حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى، أخبرنا سفيان، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، قال: قيل لعلى، رضى الله عنه: إن رجلا من قريش قد مات، وترك ثلاثمائة دينار أو أربعمائة[5]، ولم يوص. قال: ليس بشىء، إنما قال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾.

قال: وحدثنا هارون بن إسحاق الهمدانى، حدثنا عَبْدة ـ يعنى ابن سليمان ـ عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن علياً دخل على رجل من قومه يعوده، فقال له: أوصى؟ فقال له على: إنما قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ إنما تركت شيئاً يسيرا، فاتركه لولدك.

وقال الحكم[6] بن أبان: حدثنى عكرمة، عن ابن عباس: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ قال ابن عباس: من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً، قال الحكم[7]: قال طاوس: لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً. وقال قتادة: كان يقال: ألفا فما فوقها.

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: بالرفق والإحسان، كما قال ابن أبى حاتم:

---

(١) زيادة من جـ، أ، و. (٢) فى جـ: «والعصبات».
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٧٣٨) وصحيح مسلم برقم (١٦٢٧).
(٤) فى أ: «كالوارثة». (٥) فى أ، و: «أربعمائة دينار».
(٦، ٧) فى جـ: «الحاكم».

حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن يسار[١]، حدثنى سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن، قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ فقال: نَعَم، الوصية حَق، على كل مسلم أن يوصى إذا حضره الموت بالمعروف غير المُنكر.

والمراد بالمعروف: أن يوصى لأقربيه وَصِيَّةً لا تجحف بورثته، من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت فى الصحيحين أن سعداً قال: يا رسول الله، إن لى مالا ولا يرثنى إلا ابنة لى، أفأوصى بثُلُثَىْ مالى؟ قال: «لا» قال: فبالشَّطْر؟ قال: «لا» قال: فالثلث[٢]؟ قال: «الثلث، والثلث كثير؛ إنك أن تَذَرَ ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس».

وفى صحيح البخارى: أن ابن عباس قال: لو أن الناس غَضوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث، والثلث كثير»[٣].

وروى الإمام أحمد، عن أبى سعيد مولى بنى هاشم، عن ذيال بن عبيد بن حنظلة، سمعت حنظلة بن حِذْيَم[٤] بن حنيفة: أن جده حنيفة أوصى ليتيم فى حجره بمائة من الإبل، فشقّ ذلك على بنيه، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ. فقال حنيفة: إنى أوصيت ليتيم لى بمائة من الإبل، كنا نسميها المطيَّبة. فقال النبى ﷺ، «لا، لا، لا. الصدقة: خمس، وإلا فعَشْر، وإلا فخمس عشرة، وإلا فعشرون، وإلا فخمس وعشرون، وإلا فثلاثون، وإلا فخمس وثلاثون، فإن أكثرتَ فأربعون».

وذكر الحديث بطوله[٥].

وقوله: ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾: يقول تعالى: فمن بدّل الوصية وحرّفها، فغيَّرَ حكمها وزاد فيها أو نقص ـ ويدخل فى ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ـ ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: وقد وُقع أجر الميت على الله، وتعلّق الإثم بالذين بدلوا ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصى إليهم.

وقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾: قال ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدى: الجَنَف: الخطأ. وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها، بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعه الشيءَ الفُلاَنىّ محاباة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدَها، أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد، بل بطبعه وقُوّة شفقته من غير تبصر، أو متعمداً آثماً فى ذلك، فللوصىّ ـ والحالة هذه ـ أن يصلح القضية[٦]، ويعدلَ فى الوصية على الوجه الشرعى. ويعدلَ عن الذى أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به[٧]، جمعاً بين مقصود الموصى

---

(١) فى أ، و: «ابن بشار». (٢) فى جـ: «فبالثلث».

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٧٤٣).

(٤) فى أ: «جديم»، وفى و: «جذيم».

(٥) المسند (٥/ ٦٧).

(٦) فى أ: «القصة». (٧) فى جـ: «المأمور به».

والطريق الشرعى. وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل فى شىء. ولهذا عطف هذا ـ فبينه[١] ـ على النهى لذلك، ليعلم أنّ هذا ليس من ذلك بسبيل، والله أعلم.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا العباس بن الوليد بن مَزيد، قراءة، أخبرنى أبى، عن الأوزاعى، قال الزهرى: حدثنى عروة، عن عائشة، عن النبى ﷺ: أنه قال: «يُرَدّ من صَدقة الحائف[٢] فى حياته ما يردَ من وصية المجنف[٣] عند موته»[٤].

وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْدُويَه، من حديث العباس بن الوليد، به.

قال ابن أبى حاتم: وقد أخطأ فيه الوليد بن مزيد. وهذا الكلام إنما هو عن عروة فقط. وقد رواه الوليد بن مسلم، عن الأوزاعى، فلم يجاوز به عروة.

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن يوسف، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عمر بن المغيرة، عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «الحيف فى الوصية من الكبائر»[٥].

وهذا فى رفعه أيضاً نظر[٦]. وأحسن ما ورد فى هذا الباب ما قال عبد الرزاق:

حدثنا مَعْمَر، عن أشعثَ بن عبد الله، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعملُ بعمل أهل الخير سبعينَ سنة، فإذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعَمَل أهل الشرّ سبعينَ سنة، فيعدل فى وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة»[٧]. قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩][٨].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) ﴾.

---

(١) فى أ: «فنبه». (٢) فى أ: «الخائف». (٣) فى أ: «المخيف».

(٤) ورواه أبو داود فى المراسيل برقم (١٩٤) من طريق عباس بن الوليد بن مزيد، عن أبيه، عن الأوزاعى، به. قال العباس: حدثنا به مرة، عن عروة، ومرة عن عروة، عن عائشة عن النبى ﷺ، ثم رواه أبو داود برقم (١٩٥) عن عروة مرسلاً، وبرقم (١٩٦) عن الزهرى مرسلاً.

(٥) ورواه الدارقطنى فى السنن (٤/ ١٥١) والعقيلى فى الضعفاء (٣/ ١٨٩) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦/ ٢٧١) من طريق عمر بن المغيرة به نحوه، ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٦/ ٢٧١) من طريق هشيم عن داود به موقوفاً، وقال: «هذا هو الصحيح موقوف، وكذلك رواه ابن عيينة وغيره عن داود موقوفاً، وروى من وجه آخر مرفوعاً، ورفعه ضعيف».

(٦) فى جـ: «وهذا أيضاً فى رفعه نظر». (٧) فى جـ: «تقديم وتأخير فى العبارتين».

(٨) المصنف برقم (١٦٤٥٥) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٨٦٧) والترمذى فى السنن برقم (٢١١٧) من طريق أشعث بن جابر عن شهر بن حوشب، عن أبى هريرة بلفظ آخر وفيه: «ستين سنة» بدل السبعين، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة وآمراً لهم بالصيام، وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله[١]، عز وجل، لما فيه زكاة النفس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة. وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وَلْيَجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكملَ مما فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ الآية [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان؛ ولهذا ثبت في الصحيحين: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءَة فَلْيتزوجْ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[٢] ثم بيّن مقدار الصوم، وأنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله[٣] وأدائه، بل في أيام معدودات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان، كما سيأتي بيانه. وقد رُوِي أن الصيام كان أولا كما كان عليه الأمم قبلنا، من كل شهر ثلاثة أيام ـ عن معاذ، وابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، وقتادة، والضحاك بن مزاحم. وزاد: لم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح إلى أن نَسَخَ الله ذلك بصيام شهر رمضان.

وقال عباد بن منصور، عن الحسن البصري: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ فقال: نعم، والله لقد كُتِبَ الصيام على كل أمة قد خلت كما كتب[٤] علينا شهراً كاملا وأياماً معدودات: عدداً معلوماً. وروى عن السدي، نحوه.

وروى ابن أبي حاتم من حديث أبي عبد الرحمن المقري، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني عبد الله بن الوليد، عن أبي الربيع، رجل من أهل المدينة، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم...» في حديث طويل اختصر منه ذلك[٥].

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عمن حدثه عن ابن عمر، قال أنزلت: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ [لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ][٦]﴾ كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة ونام حرم [الله][٧] عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عباس، وأبي العالية، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، ومجاهد، وسعيد بن جُبير، ومقاتل بن حيّان، والربيع بن أنس، وعطاء الخراساني، نحو ذلك.

وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني بذلك: أهل الكتاب. وروى عن الشعبي والسّدي[٨]، وعطاء الخراساني، مثله.

---

(١) في جـ: «خالصة لوجه الله تعالى».

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) في أ: «ليشق على النفوس فتضعف عن حكمه». (٤) في أ: «كما كتبه الله».

(٥) عزاه الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ١٧٨) لابن أبي حاتم وقال: «في إسناده مجهول».

(٦، ٧) زيادة من جـ.

(٨) في جـ: «عن السدي والشعبي».

ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أى: المريض والمسافر لا يصومان فى حال المرض والسفر؛ لما فى ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر. وأما الصحيح المقيم الذى يُطيق الصيام، فقد كان مخيَّراً بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام، وإن شاء أفطر، وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم، فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس، ومقاتل بن حبان، وغيرهم من السلف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا المسعودى، حدثنا عمرو بن مُرّة، عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى، عن معاذ بن جبل، رضى الله عنه، قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال؛ فأما أحوال الصلاة فإن النبى ﷺ قدم المدينة، وهو يصلى[١] سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، ثم إن الله عز وجل أنزل عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ الآية [البقرة: ١٤٤] فوجهَهُ اللهُ إلى مكة. هذا حول.

قال: وكانوا يجتمعون للصلاة ويُؤْذنُ بها بعضهم بعضاً حتى نَقَسُوا أو كادوا يَنْقُسُون. ثم إنّ رجلا من الأنصار، يقال له: عبدُ الله بن زيد، أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنى رأيت فيما يرى النائم ـ ولو قلتُ: إنى لم أكن نائماً لصدقتُ ـ أنى[٢] بينا أنا بين النائم واليقظان إذْ رأيت شخصاً عليه ثوبان أخضران، فاستقبل القبلة، فقال: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله ـ مثنى حتى فرغ من الأذان، ثم أمهل ساعة، ثم قال مثل الذى قال، غير أنه يزيد فى ذلك: قد قامت الصلاة ـ مرتين ـ قال رسول الله ﷺ: «علِّمها بلالا فَلْيؤذن بها». فكان بلال أول من أذن بها. قال: وجاء عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال: يا رسول الله، [إنه][٣] قد طاف بى مثل الذى طاف به، غير أنه سبقنى، فهذان حالان[٤].

قال: وكانوا يأتون الصلاة ـ قد سبقهم النَّبىّ ﷺ ببعضها، فكان الرجل يشير إلى الرجل إذاً كم صلى، فيقول: واحدة أو اثنتين، فيصليهما، ثم يدخل مع القوم فى صلاتهم. قال: فجاء معاذ فقال: لا أجده على حال أبداً إلا كنتُ عليها، ثم قضيتُ ما سبقنى. قال: فجاء وقد سبَقه النبى ﷺ ببعضها، قال: فثَبَتَ معه، فلما قضى رسول الله ﷺ قام فقضى، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد سن لكم مُعاذ، فهكذا فاصنعوا». فهذه ثلاثة أحوال[٥].

وأما أحوال الصيام فإنّ رسولَ الله ﷺ قَدمَ المدينة، فجعل يصومُ من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا

---

(١) فى جـ: «فصلى». (٢) فى جـ: «وأنى».
(٣) زيادة من جـ، أ، و. (٤) فى جـ، أ، و: «حولان».
(٥) المسند (٥/ ٢٤٦).

كُتبَ عَلَى الَّذينَ من قَبْلكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وعَلَى الَّذينَ يُطيقُونَهُ فدْيَةٌ طَعَامُ مسْكينٍ﴾ فكان مَنْ شاء صام، ومن شاء أطعم مسكيناً، فأجزأ ذلك عنه. ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي أُنزلَ فيه الْقُرْآنُ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَن شَهدَ منكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فأثبت اللهُ صيامَه على المقيم الصحيح[١]، ورخَّصَ فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعامُ للكبير[٢] الذى لا يستطيع الصيام، فهذان حالان[٣].

قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلا من الأنصار يقال له: صرْمة، كان يعمل صائماً حتى أمسى، فجاء إلى أهله فصلى العشاء، ثم نام فلم يأكل ولم يشرب، حتى أصبح فأصبح صائماً، فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديداً، فقال: ما لى أراك قد جَهِدْتَ جهداً شديداً؟ قال: يا رسول الله، إنى عملت أمس فجئتُ حين جئتُ فألقيتُ نفسى فنمت فأصبحت حين أصبحت صائماً. قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله عز وجل: ﴿أُحلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصّيَامِ الرَّفَثُ إلَىٰ نسَائكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتمُّوا الصّيَامَ إلَى اللَّيْل﴾.

وأخرجه أبو داود فى سننه، والحاكم فى مستدركه، من حديث المسعودى، به[٤].

وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث الزهرى، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فلما نزل فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر[٥]. وروى البخارى عن ابن عمر وابن مسعود، مثله[٦].

وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذينَ يُطيقُونَهُ فدْيَةٌ طَعَامُ مسْكينٍ﴾ كما قال معاذ: كان[٧] فى ابتداء الأمر: من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً. وهكذا روى البخارى عن سَلَمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت: ﴿وَعَلَى الَّذينَ يُطيقُونَهُ فدْيَةٌ طَعَامُ مسْكينٍ﴾ كان من أراد أن يُفْطر يفتدى، حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها[٨].

وروى أيضاً من حديث عُبَيد الله[٩]، عن نافع، عن ابن عمر، قال: هى منسوخة.

وقال السدى، عن مرة، عن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذين يُطيقُونَهُ فدْيَةٌ طَعَامُ مسْكينٍ﴾ قال: يقول: ﴿وَعَلَى الَّذين يُطيقُونَهُ﴾ أى: يتجشمونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ قال: يقول: أطعم مسكيناً آخر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فكانوا كذلك حتى نسختها: ﴿فَمَن شَهدَ منكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

---

(١) فى جـ: «الصحيح المقيم». (٢) فى جـ: «للنفر». (٣) فى أ: «الحولان».
(٤) سنن أبى داود برقم (٥٠٦، ٥٠٧).
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥٠٢) وصحيح مسلم برقم (١١٢٥).
(٦) حديث ابن عمر فى صحيح البخارى برقم (٤٥٠١) وحديث ابن مسعود فى صحيح البخارى برقم (٤٥٠٣).
(٧) فى جـ: « وكان ».
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٥٠٧).
(٩) فى جـ: « عبد الله ».

وقال البخاري أيضاً: حدثنا إسحاق، أخبرنا روح، حدثنا زكريا بن إسحاق، حدثنا عَمْرو بن دينار، عن عطاء سمعَ ابن عباس يقرأ: «وعلى الذين يُطَوَّقونه فدية طعام مسكين». قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً[(١)].

وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، نحوه.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن أشعث بن سوار، عن عكرمة، عن ابن عباس [قال][(٢)]: نزلت هذه الآية: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾ في الشيخ الكبير الذى لا يطيق الصوم ثم ضَعُف، فرُخصّ له أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً.

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا الحسين بن محمد بن بِهْرام المحرمى، حدثنا وهب بن بَقِيَّة، حدثنا خالد بن عبد الله، عن ابن أبى ليلى، قال: دخلت على عطاء فى رمضان، وهو يأكل، فقال: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾، فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً، ثم نزلت هذه الآية فنسخت الأولى، إلا الكبير الفانى إن شاء أطعم عن كل يوم مسكينا وأفطر. فحاصل الأمر أن النسخ ثابت فى حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه، بقوله: ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ وأما الشيخ الفانى [الهرم][(٣)] الذى لا يستطيع الصيام فله أن يُفْطر ولا قضاءَ عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه [إذا أفطر][(٤)] أن يطعم عن[(٥)] كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جِدة؟ فيه قولان للعلماء، أحدهما: لا يجب عليه إطعام؛ لأنه ضعيف عنه لسنّه، فلم يجب عليه فدية كالصبى؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهو أحد قولى الشافعى. والثانى ـ وهو الصحيح، وعليه أكثر العلماء ـ: أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ**﴾ أى: يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخارى فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس ـ بعد أن[(٦)] كبر عاماً أو عامين ـ كلّ يوم مسكيناً خبزاً ولحما، وأفطر[(٧)].

وهذا الذى علقه البخارى قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده، فقال: حدثنا عُبَيد الله ابن مُعَاذ، حدثنا أبى، حدثنا عمران، عن أيوب بن أبى تميمة[(٨)]، قال: ضعف أنس [بن مالك][(٩)] عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم[(١٠)].

ورواه عبد بن حميد، عن روح بن عبادة، عن عمران ـ وهو ابن حُدَير[(١١)] ـ عن أيوب، به.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٠٥).
(٢) زيادة من أ، و. (٣، ٤) زيادة من جـ، أ، و. (٥) فى أ: « فى ».
(٦) فى جـ: « بعد ما ».
(٧) صحيح البخارى (٨/ ١٧٩) «فتح».
(٨) فى جـ، أ: « بن أبى تميم ». (٩) زيادة من أ.
(١٠) مسند أبى يعلى (٧/ ٢٠٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ١٦٤): « رجاله رجال الصحيح » لكنه منقطع.
(١١) فى و: « وهو ابن خدير ».

ورواه عبد أيضاً، من حديث ستة من أصحاب أنس، عن أنس ـ بمعناه.

ومما يلتحق بهذا المعنى: الحامل والمرضع، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان. وقيل: يفديان فقط، ولا قضاء. وقيل: يجب القضاء بلا فدية. وقيل: يفطران، ولا فدية ولا قضاء. وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة فى كتاب الصيام الذى أفردناه[1] . ولله الحمد والمنة.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾.

يمدح تعالى شهرَ الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصه بذلك، قد ورد الحديث بأنه الشهرَ الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء.

قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا عمران أبو العوام، عن قتادة، عن أبى المليح، عن واثلة ـ يعنى ابن الأسقع ـ أن رسول الله ﷺ قال: « أنزلت صُحُف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان. وأنزلت التوراة لستٍ مَضَين من رمضان، والإنجيل لثلاث عَشْرَةَ خلت من رمضان[2]، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»[3].

وقد روى من حديث جابر بن عبد الله وفيه: أن الزبور أنزل[4] لثنتَى عشرة [ليلة][5] خلت من رمضان، والإنجيل لثمانى عشرة، والباقى كما تقدم. رواه ابن مَردُويه.

أما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل ـ فنزل كل منها[6] على النبى الذى أنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك فى شهر رمضان، فى ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١]. وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[الدخان: ٣]، ثم نزل بعدُ مفرقاً[7] بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ. هكذا روى من غير وجه، عن ابن عباس، كما قال إسرائيل، عن السّدى، عن محمد بن أبى المجالد عن مِقْسَم، عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود، فقال: وقع[8] فى قلبى الشك من قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقد[9] أنزل فى شوال، وفى ذى القعدة، وفى ذى الحجة، وفى المحرم، وصفر، وشهر ربيع. فقال ابن عباس: إنه أنزل فى رمضان، فى ليلة القدر وفى ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل[10] على مواقع النجوم ترتيلا[11] فى الشهور والأيام. رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه، وهذا

---

(١) فى أ: « الذى أوردناه ».
(٢) فى « أ » بعدها: « وأنزل الزبور لثمانى عشرة خلت من رمضان».
(٣) المسند (٤/١٠٧).
(٤) فى جـ: « نزلت »، وفى أ: « نزل ».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى جـ: « منهما ».
(٧) فى و: «متفرقاً».
(٨) فى و: « أوقع ».
(٩) فى جـ: « وهذا ».
(١٠) فى جـ: « ثم نزل ».
(١١) فى أ: « رسلاً ».

لفظه.

وفى رواية سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن فى النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا فجعل فى بيت العزَّة، ثم أنزل على رسول الله ﷺ فى عشرين سنة لجواب كلام الناس.

وفى رواية عكرمة، عن ابن عباس، قال: نزل القرآن فى شهر رمضان فى ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يُحْدِثُ لنبيه ما يشاء، ولا يجيء المشركون بمثَل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً . وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾[الفرقان: ٣٢، ٣٣].

[قال فخر الدين: ويحتمل أنه كان ينزل فى كل ليلة قدر ما يحتاج الناس إلى إنزاله إلى مثله من اللوح إلى سماء الدنيا، وتوقف هل هذا أولى أو الأول؟ وهذا الذى جعله احتمالاً نقله القرطبى عن مقاتل بن حيان، وحكى الإجماع على أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، وحكى الرازى عن سفيان بن عيينة وغيره أن المراد بقوله: ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أى: فى فضله أو وجوب صومه، وهذا غريب جدا][1].

وقوله: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ :هذا مدح للقرآن الذى أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه ﴿ وَبَيِّنَاتٍ﴾ أى: ودلائل وحُجَج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبَّرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافى للضلال، والرشد المخالف للغى، ومفرقاً بين الحق والباطل، والحلال، والحرام.

وقد روى عن بعض السلف أنه كَره أن يقال: إلا « شهر رمضان» ولا يقال: « رمضان»؛ قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا محمد بن بكار بن الريَّان، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القُرَظى، وسعيد ـ هو المقْبُرى ـ عن أبى هريرة، قال: لا تقولوا: رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا: شهر رمضان.

قال[2] ابن أبى حاتم: وقد روى عن مجاهد، ومحمد بن كعب نحو ذلك، ورَخَّص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت.

قلت: أبو معشر هو نَجِيح بن عبد الرحمن المدنى إمام [فى][3] المغازى، والسير،ولكن فيه ضعف، وقد رواه ابنه محمد عنه فجعله مرفوعاً، عن أبى هريرة، وقد أنكره عليه الحافظ ابن عدى[4] ـ وهو جدير بالإنكارـ فإنه متروك،وقد وهم فى رفع هذا الحديث، وقد انتصر البخارى، رحمه الله، فى كتابه لهذا فقال: «باب يقال[5] رمضان»[6] ،وساق أحاديث فى ذلك منها: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» ونحو ذلك.

(١) زيادة من جـ، أ.　(٢) فى جـ: « قال لى».　(٣) زيادة من جـ.
(٤) الكامل لابن عدى (٧/٥٣).
(٥) فى جـ: « باب بأن يقال ».
(٦) الترجمة فى الصحيح (٤/١١٢) : « باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان، ومن رأى كله واسعاً ».

وقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾: هذا إيجاب حَتْمٍ على من شهد استهلال الشهر ـ أى كان مقيما فى البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح فى بدنه ـ أن يصوم لا محالة. ونَسَخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيما أن يفطر ويفدى بإطعام مسكين عن كل يوم، كما تقدم بيانه. ولما حتَّم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر فى الإفطار، بشرط القضاء فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ معناه: ومن كان به مرض فى بدنه يَشُقّ عليه الصيام معه، أو يؤذيه[(١)]، أو كان على سفر أى فى حال سفر ـ فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه بعدة ما أفطره فى السفر من الأيام؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أى: إنما رخَّص لكم فى الفطر فى حال المرض وفى السفر، مع تحتّمه فى حق المقيم الصحيح، تيسيراً عليكم ورحمة بكم.

وهاهنا مسائل تتعلق بهذه الآية:

إحداها: أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيما فى أول الشهر ثم سافر فى أثنائه، فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه، لقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر، وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم فى كتابه المُحَلى، عن جماعة من الصحابة والتابعين. وفيما حكاه عنهم نظر، والله أعلم. فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرجَ فى شهر رمضان لغزوة الفتح، فسار[(٢)] حتى بلغ الكَدِيد، ثم أفطر، وأمر الناس بالفطر. أخرجه صاحبا الصحيح[(٣)].

الثانية: ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار فى السفر، لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. والصحيح قول الجمهور، أن الأمر فى ذلك على التخيير، وليس بحتْمٍ؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان. قال: « فَمنا الصائم ومنا المفطر، فلم يعب الصائمُ على المفطر، ولا المفطر على الصائم[(٤)]». فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم[(٥)] الصيام، بل الذى ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان فى مثل هذه الحالة صائماً، لما ثبت فى الصحيحين عن أبى الدرداء [قال][(٦)]: خرجنا مع رسول الله ﷺ [فى شهر رمضان][(٧)] فى حَرٍّ شديد، حتى إن كان أحدُنا ليضع يده على رأسه [من شدة الحر][(٨)]، وما فينا صائم إلا رسولُ الله ﷺ وعبد الله بن رواحة[(٩)].

الثالثة: قالت طائفة منهم الشافعى: الصيام فى السفر أفضل من الإفطار، لفعل النبى ﷺ كما تقدم، وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل، أخذاً بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ: أنه سئل عن الصوم فى السفر، فقال: «من أفطر فحسَن، ومن صام فلا جناح عليه»[(١٠)]. وقال فى حديث آخر:

---

(١) فى جـ: « أو يمتد به ».
(٢) فى أ، و: « فصام ».
(٣) صحيح البخارى برقم (١٩٤٨، ٤٢٧٩) وصحيح مسلم برقم (١١١٣).
(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١١١٨) من حديث أنس رضى الله عنه.
(٥) فى أ: «عليهم فى الصيام».
(٦) زيادة من و.
(٧، ٨) زيادة من جـ، أ، و.
(٩) صحيح البخارى برقم (١٩٤٥) وصحيح مسلم برقم (١١٢٢).
(١٠) هذا لفظ حديث حمزة بن عمرو الأسلمى فى صحيح مسلم برقم (١١٢١).

« عليكم برخصة الله التى رخص لكم»[١]. وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة: أن حَمْزة بن عمرو الأسلمى قال: يا رسول الله، إنى كثير الصيام، أفأصوم فى السفر؟ فقال: « إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر». وهو فى الصحيحين[٢]. وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر: أن رسول الله ﷺ رأى رجلا قد ظُلِّلَ عليه، فقال: « ما هذا؟» قالوا: صائم، فقال: «ليس من البر الصيام فى السفر». أخرجاه[٣]. فأما إن رغب عن السنة، ورأى أن الفطر مكروه إليه، فهذا يتعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيام، والحالة هذه، لما جاء فى مسند الإمام أحمد وغيره، وعن ابن عمر وجابر، وغيرهما: من لم يقبل رُخْصَةَ الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة[٤].

الرابعة: القضاء، هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق؟ فيه قولان: أحدهما: أنه يجب التتابع، لأن القضاء يحكى الأداء. والثانى: لا يجب التتابع، بل إن شاء فَرّق، وإن شاء تابع. وهذا قول جُمهور السلف والخلف، وعليه ثبتت الدلائل[٥]؛ لأن التتابع إنما وجب فى الشهر لضرورة أدائه فى الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدَّةَ ما أفطر. ولهذا قال تعالى: ﴿**فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ ثم قال: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو سلمة الخزاعى، حدثنا ابن[٦] هلال، عن حميد بن هلال العدوى، عن أبى قتادة، عن الأعرابى الذى سمع النبى ﷺ يقول: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره»[٧].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا عاصم بن هلال، حدثنا غاضرة بن عُرْوة الفُقَيْمى، حدثنى أبى عُرْوَة، قال: كنا ننتظر النبى ﷺ فخرج رَجلا[٨] يَقْطُرُ رأسه من وضوء أو غسل، فصلى، فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: علينا حرج فى كذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن دين الله فى يسر» ثلاثاً يقولها[٩].

ورواه الإمام أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسير هذه الآية من حديث مسلم بن إبراهيم، عن عاصم بن هلال، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة قال: حدثنا أبو التيّاح، سمعت أنس بن مالك يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «يسروا، ولا تعسروا، وسكِّنوا ولا تُنَفِّروا». أخرجاه فى الصحيحين[١٠]. وفى الصحيحين أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبى موسى حين بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا». وفى السنن والمسانيد أن رسول الله

---

(١) هذا لفظ حديث جابر وسيأتى.

(٢) صحيح البخارى برقم (١٩٤٣) وصحيح مسلم برقم (١١٢١).

(٣) صحيح البخارى برقم (١٩٤٦) وصحيح مسلم برقم (١١٢١).

(٤) المسند (٢/ ٧١).

(٥) فى جـ: « تثبت الأدلة ».

(٦) فى أ، و: «حدثنا أبو».

(٧) المسند (٣/ ٤٧٩).

(٨) فى أ، و: «فخرج رجل».

(٩) المسند (٥/ ٦٩).

(١٠) صحيح البخارى برقم (٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٤).

ﷺ قال: «بعثت بالحنيفيَّة السمحة»(١).

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره: حدثنا عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يحيى ابن أبى طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا أبو مسعود الجُرَيرى، عن عبد الله بن شقيق، عن مِحْجَن بن الأدرع: أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يصلى فتراءاه بصره(٢) ساعة، فقال: «أتراه يصلى صادقاً؟» قال: قلت: يا رسول الله، هذا أكثر أهل المدينة صلاة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُسْمِعْه فتُهلكَه». وقال: «إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليُسْر، ولم يرد بهم العُسْر»(٣).

ومعنى قوله: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾ أى: إنما أرْخَصَ لكم فى الإفطار للمرض(٤) والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدّة شهركم.

وقوله: ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ أى: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقال: [﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾](٥) [النساء: ١٠٣]، [﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وقال: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠]؛ ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح، والتحميد، والتكبير بعد الصلوات المكتوبات.

وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير؛ ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير فى عيد الفطر من هذه الآية: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ حتى ذهب داود بن على الأصبهانى الظاهرى إلى وجوبه فى عيد الفطر؛ لظاهر الأمر فى قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ وفى مقابلته مذهبُ أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ أنه لا يُشْرَع التكبير فى عيد الفطر. والباقون على استحبابه، على اختلاف فى تفاصيل بعض الفروع بينهم.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى: إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبدة بن أبى برزة السِّجستانى(٦)، عن الصُّلْب(٧) بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيرى، عن أبيه، عن جده، أن

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٣٤١، ٤٣٤٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٣).

(٢) فى أ، و: «ببصره».

(٣) ورواه أحمد فى المسند (٥/ ٣٢) من طريق حماد عن الجريرى، عن عبد الله بن شقيق عن محجن نحوه.

(٤) فى أ: «للمريض».

(٥) زيادة من جـ.

(٦) فى جـ، أ، و: «السختيانى».

(٧) فى جـ: «الصلت».

أعرابياً قال: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبى ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١].

ورواه ابن مَرْدُويه، وأبو الشيخ الأصبهانى، من حديث محمد بن أبى حميد، عن جرير، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا جعفر بن سليمان، عن عوف، عن الحسن، قال: سأل أصحاب رسول الله ﷺ [النبى ﷺ][٢]: أين ربنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية[٣].

وقال ابن جُرَيج عن عطاء: أنه بلغه لما نزلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قال الناس: لو نعلم أى ساعة ندعو؟ فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى، حدثنا خالد الحذاء، عن أبى عثمان النهدى، عن أبى موسى الأشعرى، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى غَزَاة فجعلنا لا نصعد شَرَفاً، ولا نعلو شَرَفاً، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا فقال: «يأيها الناس، أربَعُوا على أنفسكم؛ فإنَّكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذى تدعون أقربُ إلى أحدكم من عُنُق راحلته. يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله».

أخرجاه في الصحيحين، وبقية الجماعة من حديث أبى عثمان النهدى، واسمه عبد الرحمن بن مُل[٤] عنه، بنحوه[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا شعبة، حدثنا قتادة، عن أنس رضى الله عنه: أن النبى ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا دعانى»[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، أخبرنا عبد الله، أخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن كريمة بنت الخشخاش المزنية، قالت: حدثنا أبو هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا مع عبدى ما ذكرنى، وتحركت بى شفتاه»[٧].

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وكقوله لموسى وهارون، عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]. والمراد من هذا: أنه تعالى لا يخيب دعاء داع، ولا يشغله عنه شىء، بل هو سميع الدعاء. وفيه ترغيب فى الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى، كما قال الإمام أحمد:

---

(١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٣/ ٤٨٠) من طريق جرير به، وانظر حاشيته ففيها كلام جيد حول الصلب بن حكيم.

(٢) زيادة من جـ، أ، و.

(٣) ورواه الطبرى فى تفسيره (٣/ ٤٨١) من طريق عبد الرزاق به.

(٤) فى جـ: «بن ملبك».

(٥) المسند (٤/ ٤٠٢).

(٦) المسند (٣/ ٢١٠).

(٧) المسند (٢/ ٥٤٠).

حدثنا يزيد، حدثنا رجل أنه سمع أبا عثمان ـ هو النهدى ـ يحدث عن سلمان ـ يعنى الفارسى ـ رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليستحيى أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردّهما خائبتين».

قال يزيد: سموا لى هذا الرجل، فقالوا: جعفر بن ميمون[١].

وقد رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجة من حديث جعفر بن ميمون، صاحب الأنماط، به[٢].

وقال الترمذى: حسن غريب. ورواه بعضهم، ولم يرفعه.

وقال الشيخ الحافظ أبو الحجاج المِزّى، رحمه الله، فى أطرافه: وتابعه أبو همام محمد بن الزبرقان، عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدى، به[٣].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو عامر، حدثنا عَلِىّ بن دُؤاد أبو المتوكل الناجى، عن أبى سعيد: أن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجِّل له دعوته، وإما أن يَدّخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» قالوا: إذاً نكثر. قال: «الله أكثر[٤]»[٥].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن منصور الكوسج، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جُبَير بن نفير، أن عُبَادة بن الصامت حدّثهم أن النبى ﷺ قال: «ما على ظهر الأرض من رجل مُسْلِم يدعو الله، عز وجل، بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها، ما لم يَدعُ بإثم أو قطيعة رحم»[٦].

ورواه الترمذى، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، عن محمد بن يوسف الفرْيابى، عن ابن ثوبان ـ وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ـ به[٧]. وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وقال الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن أبى عبيد ـ مولى ابن أزهر ـ عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَاب لأحدكم ما لم يَعْجل، يقول: دعوتُ فلم يستجب لى».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك، به[٨]. وهذا لفظ البخارى، رحمه الله، وأثابه الجنة.

وقال مسلم أيضاً[٩]: حدثنى أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرنى معاوية بن صالح، عن ربيعة ابن يزيد، عن أبى إدريس الخَوْلانى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يَدعُ بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد

(١) المسند (٥/ ٤٣٨).
(٢) سنن أبى داود برقم (١٤٨٨) وسنن الترمذى برقم (١٤٨٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣٨٦٥).
(٣) تحفة الأشراف (٤/ ٢٩).
(٤) فى جـ: «أكثروا».
(٥) المسند (٣/ ١٨).
(٦) زوائد المسند (٥/ ٣٢٩).
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٧٣).
(٨) الموطأ (١/ ٢١٣) وصحيح البخارى برقم (٦٨٤).
(٩) فى جـ، أ: «وقال مسلم فى صحيحه».

دعوتُ، وقد دَعَوتُ، فلم أرَ يستجابُ لى، فَيَسْتَحسر عند ذلك، ويترك[١] الدعاء»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا ابن[٣] هلال، عن قتادة، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل». قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: «يقول: قد دعوتُ ربى فلم يَسْتَجبْ لى»[٤].

وقال الإمام أبو جعفر الطبرى فى تفسيره: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثنى أبو صخر: أن يزيد بن عبد الله بن قسَيط حدثه، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: ما من عَبْد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب، حتى تُعَجَّل له فى الدنيا أو تُدّخر له فى الآخرة إذا لم[٥] يعجل أو يقنط. قال عروة: قلت: يا أمَّاه[٦]، كيف عجلته وقنوطه؟ قالت: يقول: سألت فلم أعْطَ، ودعوت فلم أجَبْ.

قال ابن قُسَيْط: وسمعت سعيد بن المسيب يقول كقول عائشة سواء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا بكر بن عمرو، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلىّ، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل»[٧].

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن إسحاق بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن أبىّ بن نافع ابن معديكرب ببغداد، حدثنى أبىّ بن نافع، حدثنى أبى نافع بن معديكرب، قال: كنت أنا وعائشة سألتُ رسولَ الله ﷺ عن الآية: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ قال: «يارب، مسألة عائشة». فهبط جبريل فقال: الله يقرئك السلام، هذا عبدى الصالح[٨]، بالنية الصادقة، وقلبُه نقى[٩]، يقول: يا رب، فأقول: لبيك. فأقضى حاجته.

هذا حديث غريب من هذا الوجه[١٠].

وروى ابن مَرْدُويه من حديث الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس: حدثنى جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قرأ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية. فقال رسول

---

(١) فى جـ، أ، و: «ويدع».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٣٥).
(٣) فى جـ: «حدثنا أبو».
(٤) المسند (٣/ ٢١٠).
(٥) فى جـ، أ: «إذا هو لم». (٦) فى أ، و: «يا أمتاه».
(٧) المسند (٢/ ١٧٧).
(٨) فى جـ: «عبدى أصلح». (٩) فى جـ: «وقلبه تقى».
(١٠) ذكره ابن الأثير فى أسد الغابة (٤/ ٥٣٠) وقال: «روى حديثه محمد بن إسحاق، عن إسحاق بن إبراهيم بن أبى بن نافع بن معديكرب، عن جده أُبى، عن أبيه نافع بن معديكرب أنه قال، فذكر مثله» ثم قال ابن الأثير: «أخرجه أبو موسى وقال: عند ابن إسحاق هذا، وعند غيره: عن إسحاق بن إبراهيم أحاديث».

الله ﷺ: «اللهم أمرت بالدعاء، وتوكَّلْتَ بالإجابة، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، لبيك إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك، أشهد أنك فرد أحد صَمَد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفواً أحد، وأشهد أن وعدك حق، ولقاءك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنت تبعث من فى القبور»[١].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسن بن يحيى الأرزى[٢]، ومحمد بن يحيى القُطَعى[٣]، قالا: حدثنا الحجاج بن منْهال، حدثنا صالح المُرِّى، عن الحسن، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، واحدة لك وواحدة لى، وواحدة فيما بينى وبينك؛ فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئاً، وأما التى لك فما عملتَ من شىء وَفَّيْتُكَه[٤]، وأما التى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلىَّ الإجابة»[٥].

وفى ذكره تعالى[٦] هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد فى الدعاء عند إكمال العِدّة، بل وعندَ كلّ فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسى فى مسنده:

حدثنا أبو محمد المليكى، عن عَمْرو ـ هو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة». فكان عبد الله بن عمرو إذ أفطر دعا أهله، وولده ودعا[٧].

وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة فى سننه: حدثنا هشام بن عمار، أخبرنا الوليد بن مسلم، عن إسحاق بن عبيد الله[٨] المدنى، عن عَبْد الله[٩] بن أبى مُلَيْكة، عن[١٠] عبد الله بن عَمْرو، قال: قال النبى ﷺ: «إن للصائم عند فطره دَعْوةً ما تُرَدّ». قال عَبْد الله[١١] بن أبى مُليكة: سمعت عبد الله بن عَمْرو يقول إذا أفطر: اللهم إنى أسألك برحمتك التى وَسِعَتْ كل شىء أن تغفر لى[١٢].

وفى مسند الإمام أحمد، وسنن الترمذى، والنسائى، وابن ماجة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى[١٣] يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون[١٤] الغمام يوم القيامة، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول: بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين»[١٥].

---

(١) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (١٧٩٨) وابن أبى الدنيا فى الدعاء كما فى الدر المنثور (١/ ٤٧٤) وإسناده واه.

(٢) فى جـ: «الأزدى».
(٣) فى جـ: «المقطعى».

(٤) فى أ، و: «من شىء أو من عمل وفيتكه».

(٥) مسند البزار برقم (١٩) «كشف الأستار» وقال البزار: «تفرد به صالح المرى، وصالح المرى ضعفه الأئمة».

(٦) فى جـ: «وفى ذكره تبارك وتعالى».

(٧) مسند الطيالسى برقم (٢٢٦٢).

(٨) فى هـ: «عبد الله»، والصواب ما أثبتناه.
(٩) فى و: «عبيد الله».

(١٠) فى جـ: «سمعت».
(١١) فى و: «عبيد الله».

(١٢) سنن ابن ماجة برقم (١٧٥٣) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٣٨): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات» وحسنه الحافظ ابن حجر فى «نتائج الأفكار».

(١٣) فى و: «حين».
(١٤) فى أ: «فوق».

(١٥) المسند (٢/ ٤٤٥) وسنن الترمذى برقم (٣٥٩٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٧٥٢).

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾.

هذه رُخصة من الله تعالى للمسلمين، ورَفْع لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة. فوجدوا من ذلك مَشَقة كبيرة. والرفث هنا هو: الجماع. قاله[١] ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وطاوس، وسالم ابن عبد الله، وعَمْرو بن دينار[٢]، والحسن، وقتادة، والزهرى، والضحاك، وإبراهيم النَّخعى، والسّدى، وعطاء الخراسانى، ومقاتل بن حيان.

وقوله: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة، والسدى، ومقاتل بن حيان: يعنى هن سكَن لكم، وأنتم سكن لهن.

وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن.

وحاصله أنّ الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويُمَاسه ويضاجعه، فناسب أن يُرَخَّص لهم فى المجامعة فى ليل رمضانَ، لئلا يشقّ ذلك عليهم، ويحرجوا، قال الشاعر[٣]:

إذا ما الضجيع ثَنَى جيدها   تَدَاعَتْ فكانت عليه لباسا

وكان السبب فى نزول هذه الآية كما تقدم فى حديث معاذ الطويل، وقال أبو إسحاق عن البراء ابن عازب قال: كان أصحاب النبى ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر، لم يأكل إلى مثلها، وإن قَيْس بن صِرْمة[٤] الأنصارى كان صائماً، وكان يومه ذاك يعمل فى أرضه، فلما حَضَر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك. فغلبته عينُه فنام، وجاءت امرأته، فلما رأته نائما قالت: خيبة لك! أنمت؟ فلما انتصف النهار غُشى عليه، فذكر ذلك للنبى ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً[٥].

ولفظ البخارى هاهنا من طريق أبى إسحاق: سمعت البراء قال: لما نزل صومُ رمضان كانوا لا

---

(١) فى أ: «كما قال».

(٢) فى جـ: «بن يسار».

(٣) هو النابغة الجعدى، والبيت فى تفسير الطبرى (٣/ ٤٩٠).

(٤) فى و: «قيس بن أبى صرمة».

(٥) هذا اللفظ رواه الطبرى فى تفسيره (٣/ ٤٩٥).

يقربُون النساء، رَمَضَانَ كُلّه، وكان رجَال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[١].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: كان المسلمون فى شهر رمضان إذا صَلّوا العشاء حَرُم عليهم[٢] النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام فى شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾. وكذا روى العوفى عن ابن عباس.

وقال موسى بن عقبة، عن كُرَيْب، عن ابن عباس، قال: إن الناس كانوا قبل أن ينزل فى الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون، ويحل لهم شأن النساء، فإذا نام أحدهُم لم يطعَمْ ولم يشرَب ولا يأتى أهله حتى يفطر من القابلة، فبلغنا أن عُمَر بن الخطاب بعدما نام ووجب عليه الصومُ وَقَع على أهله، ثم جاء إلى النبى ﷺ فقال: أشكو إلى الله وإليك الذى صنعت. قال: «وماذا صنعت؟» قال: إنى سَوَّلَتْ لى نفسى، فوقعت على أهلى بعد ما نمت وأنا أريد الصوم. فزعموا أن النبى ﷺ قال: «ما كنت خليقاً أن تفعل». فنزل الكتاب: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾.

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قيس بن سعد[٣]، عن عطاء بن أبى رباح، عن أبى هريرة فى قول الله تعالى[٤]: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ قال: كانَ المسلمون قبلَ أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حرُمَ عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء، وإن صِرْمة بن قيس الأنصارى غلبته عينه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبع من الطعام، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء، فقام فأكل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره[٥] بذلك، فأنزل الله عند ذلك: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ يعنى بالرفث: مجامعة النساء ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ يعنى: تجامعون النساء، وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ يعنى: جامعوهن ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعنى: الولد﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾. فكان ذلك عفواً من الله ورحمة.

وقال هُشَيم، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، قال: قام عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال: يا رسول الله، إنى أردت أهلى البارحة[٦] على ما يريد الرجلُ أهلَهُ فقالت: إنها قد نامت، فظننتها تعتلّ، فواقعتها، فنزل فى عمر: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٠٨).

(٢) فى جـ: «حرم الله عليهم».

(٣) فى جـ: «سعد بن قيس».

(٤) فى جـ: «فى قوله تعالى».

(٥) فى جـ: «فأخبراه».

(٦) فى جـ: «البارحة أهلى».

وهكذا رواه شعبة، عن عَمْرو بن مُرّة، عن ابن أبى ليلى، به[١].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا سويد، أخبرنا ابن المبارك، عن ابن لَهيعة، حدثنى موسى بن جبير ـ مولى بنى سلمة ـ أنه سمع عبد الله بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه قال: كان الناس فى رمضان إذا صام الرجل فأمسَى فنام، حُرّم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد. فرجع عمر بن الخطاب من عند النبى ﷺ ذات ليلة وقد سَمَرَ عنده، فوجد امرأته قد نامت، فأرادها، فقالت: إنى قد نمت! فقال: ما نمت! ثم وقع بها. وصنع كعب بن مالك مثل ذلك. فغدا عمر بن الخطاب إلى النبى ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ [الآية][٢] [٣].

وهكذا روى عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والسدى، وقتادة، وغيرهم فى سبب نزول هذه الآية فى عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع، وفى صِرْمة بن قيس؛ فأباح الجماعَ والطعام والشراب فى جميع الليل رحمة ورخصة ورفقاً.

وقوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: قال أبو هريرة، وابن عباس[٤]، وأنس، وشُرَيح القاضى، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، والربيع بن أنس، والسدى، وزيد بن أسلم، والحكم ابن عتبة[٥]، ومقاتل بن حيان، والحسن البصرى، والضحاك، وقتادة، وغيرهم: يعنى الولد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعنى: الجماع.

وقال عَمْرو بن مالك النُّكْرى، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: ليلة القدر. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر قال: قال قتادة: وابتغوا الرخصة التى كتب الله لكم. وقال سعيد عن قتادة: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يقول: ما أحل الله لكم.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عُيَيْنة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبى رباح، قال: قلت لابن عباس: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿وَابْتَغُوا﴾ أو: «اتبعوا»؟ قال: أيتهما شئت: عليك بالقراءة الأولى.

واختار ابن جرير أنّ الآية أعمّ من هذا كله.

وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾: أباح تعالى الأكل والشرب، مع ما تقدم من إباحة الجماع فى أىّ الليل شاء الصائمُ إلى أن يتبين ضياءُ الصباح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أبو عبد الله البخارى: حدثنا ابن أبى

---

(١) رواه ابن مردويه فى تفسيره من طريق عمرو بن عون، عن هشيم به. قال الحافظ ابن كثير فى «مسند الفاروق» (٢/ ٥٦٦): «هذا إسناد جيد وابن أبى ليلى مختلف فى سماعه من عمر، ولكن قد روى من وجه آخر عن ابن أبى ليلى عن معاذ بن جبل أن عمر فعل مثل هذا». ورواه الطبرى فى تفسيره (٣/ ٤٩٣) من طريق شعبة عن عمرو بن مرة به.

(٢) زيادة من جـ، أ، و.

(٣) تفسير الطبرى (٣/ ٤٩٦).

(٤) فى جـ: «قال الزهرى عن ابن عباس». (٥) فى أ: «عيينة»، وفى و: «عتيبة».

مريم، حدثنا أبو غسَّان محمد بن مُطَرِّف، حدثنى أبو حازم، عن سهل بن سعد، قال: أنزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ ولم يُنْزَلْ ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم، ربَطَ أحدُهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنما يعنى: الليل والنهار[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم، أخبرنا حُصَين، عن الشعبى، أخبرنى عَدىّ بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ عَمَدت إلى عقالين، أحدُهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتى، قال: فجعلت أنظر إليهما فلا تبيَّن[٢] لى الأسود من الأبيض، ولا الأبيض من الأسود، فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته بالذى صنعت. فقال: «إنّ وسادك إذاً لعريض، إنما ذلك بياض النهار وسواد[٣] الليل»[٤].

أخرجاه فى الصحيحين من غير وجه، عن عَدى[٥]. ومعنى قوله: «إن وسادك إذاً لعريض» أى: إن كان يسعُ لوضع الخيط الأسود والخيط الأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل. فيقتضى أن يكون بعرض المشرق والمغرب.

وهكذا وقع فى رواية البخارى مفسرا بهذا: أخبرنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن حُصَين، عن الشعبى، عن عَدِىّ قال: أخذ عَدى عقالا أبيض وعقالا أسود، حتى كان بعض الليل نظر فلم يتبينا[٦]. فلما أصبح قال: يا رسول الله، جعلت تحت وسادتى. قال: «إن وسادك إذاً لعريض، أنْ كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك»[٧].

وجاء فى بعض الألفاظ: إنك لعريض القفا. ففسره بعضهم بالبلادة، وهو ضعيف. بل يرجع إلى هذا؛ لأنه إذا كان وساده عريضاً فقفاه أيضاً عريض، والله أعلم. ويفسره رواية البخارى أيضاً:

حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن مُطَرِّف، عن الشعبى، عن عدى بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: «إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين». ثم قال: «لا، بل هو[٨] سواد الليل وبياض النهار»[٩].

وفى إباحته تعالى جوازَ الأكل إلى طلوع الفجر، دليل على استحباب السَّحُور؛ لأنه من باب الرخصة، والأخذ بها محبوب؛ ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السَّحور[لأنه من باب الرخصة والأخذ بها][١٠]، ففى الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَسَحَّرُوا فإن فى السَّحور بركة»[١١]. وفى صحيح مسلم، عن عمرو بن العاص رضى الله عنه، قال: قال

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥١١).
(٢) فى جـ: «فلما يتبين». (٣) فى جـ: «من سواد».
(٤) المسند (٤/ ٣٧٧).
(٥) صحيح البخارى برقم (١٩١٦، ٤٥٠٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٩٠).
(٦) فى أ، و: «فلم يستبينا».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٥٠٩).
(٨) فى جـ: «بل هما».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٥١٠).
(١٠) زيادة من جـ.
(١١) صحيح البخارى برقم (١٩٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٩٥).

رسول الله ﷺ: «إن فَصْلَ[١] ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَّحَرَ[٢]»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى[٤]، هو ابن الطباع، حدثنا عبد الرحمن بن زيد، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «السَّحور أكْلُهُ بركة؛ فلا تدعوه، ولو أنّ أحدكم يَجْرَع جرعة من ماء، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين»[٥].

وقد ورد فى الترغيب فى السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء، تشبهاً[٦] بالآكلين. ويستحب تأخيره إلى قريب انفجار الفجر، كما جاء فى الصحيحين، عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت، قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة. قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لَهيعة، عن سالم بن غيلان، عن سليمان[٨] بن أبى عثمان، عن عَدىّ بن حاتم الحِمْصى، عن أبى ذَرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال أمتى بخير ما عَجّلوا الإفطار وأخّروا السحور»[٩]. وقد ورد فى أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سمَّاه الغَدَاء المبارك، وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، والنسائى، وابن ماجة من رواية حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زرّ بن حبيش، عن حذيفة بن اليمان قال: تسحَّرْنا مع رسول الله ﷺ، وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع[١٠]. وهو حديث تفرد به عاصم بن أبى النَّجُود، قاله النسائى، وحمله على أن المراد قربُ النهار، كما قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** ﴾ [الطلاق: ٢] أى: قاربن انقضاء العدة، فإما إمساك[١١] أو تَرْك للفراق. وهذا الذى قاله هو المتعيَّن حملُ الحديث عليه: أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر، حتى إن بعضهم ظن طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك. وقد رُوى عن طائفة كثيرة من السلف أنَّهم تسامحوا[١٢] فى السحور عند مقاربة الفجر. روى مثل هذا عن أبى بكر، وعمر، وعلى، وابن مسعود، وحذيفة، وأبى هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعن طائفة كثيرة من التابعين، منهم: محمد ابن على بن الحسين، وأبو مِجْلز، وإبراهيم النَّخَعَى، وأبو الضُّحَى، وأبو وائل، وغيره[١٣] من أصحاب ابن مسعود، وعطاء، والحسن، والحكم بن عيينة[١٤]، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وأبو الشعثاء جابر بن زيد. وإليه ذهب الأعمش معمر[١٥] بن راشد. وقد حررنا أسانيد ذلك فى كتاب

---

(١) فى أ: «إن أفضل». (٢) فى أ: «السحور».
(٣) صحيح مسلم برقم (١٠٩٦).
(٤) فى جـ: «بن إسحاق».
(٥) المسند (٣/ ٤٤).
(٦) فى أ: «تشبيهاً».
(٧) صحيح البخارى برقم (١٩٢١) وصحيح مسلم برقم (١٠٩٧).
(٨) فى جـ: «عن سلمان».
(٩) المسند (٥/ ١٧٢).
(١٠) المسند (٥/ ٣٩٦) وسنن النسائى (٤/ ١٤٢) وسنن ابن ماجة برقم (١٦٩٥).
(١١) فى جـ: «إمساك بمعروف». (١٢) فى أ: «أنهم سامحوا».
(١٣) فى أ: «وغيرهم». (١٤) فى جـ: «ابن قتيبة»، وفى و: «ابن عتيبة».
(١٥) فى جـ، أ: «ومعمر».

الصيام المفرد، ولله الحمد.

وحكى أبو جَعفر بن جرير فى تفسيره، عن بعضهم: أنَّه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها.

قلت: وهذا القول ما أظنّ أحداً من أهل العلم يستقر له قَدَم عليه، لمخالفته نصّ القرآن فى قوله: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ وقد وَرَدَ فى الصحيحين من حديث القاسم، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعكم[(١)] أذانُ بلال عن سَحُوركم، فإنه ينادى بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر». لفظ البخارى[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا محمد بن جابر، عن قيس بن طَلْق، عن أبيه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «ليس الفجرُ المستطيل فى الأفق ولكنه المعترض الأحمر»[(٣)]. ورواه أبو داود، والترمذى ولفظهما: «كلوا واشربوا ولا يَهِيدَنَّكُمْ الساطع المصعد، فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر»[(٤)].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا شعبة، عن شيخ من بنى قشير: سمعت سَمُرة بن جُنْدَب يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يغرنكم نداء بلال وهذا البياض حتى ينفجر الفجر، أو يطلع الفجر».

ثم رواه من حديث شعبة وغيره، عن سوادة بن حنظلة، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعكم من سَحُوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل، ولكن الفجر المستطير فى الأفق»[(٥)].

قال: وحدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَية، عن عبد الله بن سَوادة القُشَيرى، عن أبيه، عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا البياض، تعمدوا الصبح حين يستطير[(٦)]».

ورواه مسلم فى صحيحه عن زهير بن حرب، عن إسماعيل بن إبراهيم ـ يعنى[(٧)] ابن علية ـ مثله سواء[(٨)].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حمَيد، حدثنا ابن المبارك، عن سُلَيمان التيمى، عن أبى عثمان النهدى، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعَنّ أحدكم أذان بلال عن سحوره ـ أو قال نداء بلال ـ فإن بلالا يؤذن ـ أو [قال][(٩)] ينادى ـ لينبه نائمكم وليَرْجع قائمكم، وليس الفجر أن يقول

---

(١) فى و: «لا يمنعنكم».

(٢) صحيح البخارى برقم (١٩١٨، ٦٢٢) وصحيح مسلم برقم (١٠٩٢) وقوله: «لا يمنعنكم أذان بلال عن سحوركم» لم يقع فى البخارى من حديث عائشة وإنما من حديث عبد الله بن مسعود، هذا ما ظهر لى بعد البحث، والله أعلم.

(٣) المسند (٤/ ٢٣).

(٤) سنن أبى داود برقم (٢٣٤٨) وسنن الترمذى برقم (٧٠٥).

(٥) هذا الحديث لم أجده فى تفسير الطبرى المطبوع.

(٦) فى أ، و: «لعمود الصبح حتى يستطير». (٧) فى و: «هو».

(٨) صحيح مسلم برقم (١٠٩٤).

(٩) زيادة من و.

هكذا أو هكذا، حتى يقول هكذا».

ورواه من وجه آخر عن التيمى، به[(١)].

وحدثنى الحسن بن الزبرقان النخعى، حدثنا أبو أسامة عن محمد بن أبى ذئب، عن الحارث بن عبد الرحمن، عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «الفجر فجران، فالذى كأنه ذنب السرحان لا يُحَرِّم شيئاً، وأما المستطير الذى يأخذ الأفق، فإنه يحل الصلاة ويحرّم الطعام»[(٢)]. وهذا مرسل جيد.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، عن عطاء قال: سمعت ابن عباس يقول: هما فجران، فأما الذى يسطع فى السماء فليس يُحِلّ ولا يحرِّم شيئاً، ولكن الفجر الذى يستبين[(٣)] على رؤوس الجبال، هو الذى يحرّم الشراب. قال عطاء: فأما إذا سطع سطوعاً فى السماء، وسطوعه أن يذهب فى السماء طولا، فإنه لا يحرم به شراب لصيام ولا صلاة، ولا يفوت به حج[(٤)]، ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال، حرم الشراب للصيام وفات الحج.

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء، وهكذا رُوى عن غير واحد من السلف، رحمهم الله.

مسألة: ومِن جَعْله تعالى الفجرَ غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام، يُسْتَدَلّ على أنه من أصبح جُنُباً فليغتسل، وليتم صومه، ولا حرج عليه. وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً، لما رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة، رضى الله عنهما، أنهما قالتا: كان رسول الله ﷺ يصبح جُنُباً من جماع غير احتلام، ثم يغتسل ويصوم[(٥)]. وفى حديث أم سلمة عندهما: ثم لا يفطر ولا يقضى. وفى صحيح مسلم، عن عائشة: أن رجلا قال: يا رسول الله، تُدْركنى الصلاة وأنا جنب، فأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأنا تدركنى الصلاة وأنا جنب، فأصوم». فقال: لست مثلنا ـ يا رسول الله ـ قد غفرَ اللهُ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فقال: «والله إنى لأرجو أن أكونَ أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى»[(٦)]. فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن همام، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا نودى للصلاة ـ صلاة الصبح ـ وأحدكم جنب فلا يصم يومئذ»[(٧)]، فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين، كما ترى[(٨)]، وهو فى الصحيحين عن أبى هريرة، عن الفضل بن عباس عن النبى

---

(١) لم أجد هذا الحديث فى المطبوع من تفسير الطبرى ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٢١، ٥٢٩٨) ومسلم فى صحيحه برقم (١٠٩٣) من طريق أبى عثمان النهدى به.

(٢) تفسير الطبرى (٣/ ٥١٤).

(٣) فى أ: «حتى يستنير».

(٤) فى أ: «به الحج».

(٥) صحيح البخارى برقم (١٩٢٥، ١٩٢٦) وصحيح مسلم برقم (١١٠٩).

(٦) صحيح مسلم برقم (١١٠٩).

(٧) المسند (٢/ ٣١٤).

(٨) فى جـ: «كما ترى على شرط الشيخين».

ﷺ[١]، وفى سنن النسائى[٢]: عنه، عن أسامة بن زيد، والفضل بن عباس ولم يرفعه[٣]. فمن العلماء من علَّل هذا الحديث بهذا، ومنهم من ذهب إليه، ويُحْكى هذا عن أبى هريرة، وسالم، وعطاء، وهشام بن عروة، والحسن البصرى. ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصبح جنباً نائماً فلا عليه، لحديث عائشة وأم سلمة، أو مختاراً فلا صومَ له، لحديث أبى هريرة. يحكى[٤] هذا عن عُروة، وطاوس، والحسن. ومنهم من فرق بين الفرض فيتمه ويقضيه وأما النَّفْل فلا يضره. رواه الثورى، عن منصور، عن إبراهيم النخَعى. وهو رواية عن الحسن البصرى أيضاً، ومنهم من ادعى نسخ حديث أبى هريرة بحديثى عائشة وأم سلمة، ولكن لا تاريخ معه.

وادعى ابن حزم أنه منسوخ بهذه الآية الكريمة، وهو بعيد أيضاً، وأبعد؛ إذ لا تاريخ، بل الظاهر من التاريخ خلافه. ومنهم من حمل حديث أبى هريرة على نفى الكمال «فلا صوم له» لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز. وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ يقتضى الإفطار عند غُرُوب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء فى الصحيحين، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا، فقد أفطر الصائم»[٥].

وعن سهل بن سعد الساعدى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» أخرجاه أيضاً[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى، حدثنا قُرّة بن عبد الرحمن، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «يقول الله، عز وجل: إن أحبّ عبادى إلى أعجلُهم فِطْراً».

ورواه الترمذى من غير وجه، عن الأوزاعى، به[٧]. وقال: هذا حديث حسن غريب.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا عبيد الله[٨] بن إياد، سمعت إياد بن لقيط قال: سمعت ليلى امرأة بَشِير بن الخَصَاصيَّة، قالت: أردت أن أصومَ يومين مواصلة، فمنعنى بشير وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنه. وقال: «يفعل ذلك النصارى، ولكنْ صُوموا كما أمركم الله، وأتموا الصيامَ إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا»[٩].

[وروى الحافظ ابن عساكر، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا يحيى بن

---

(١) صحيح البخارى برقم (١٩٢٥) وصحيح مسلم برقم (١١٠٩).
(٢) فى أ: «وفى سنن أبى داود والنسائى».
(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (٢٩٣٣، ٢٩٣٤).
(٤) فى جـ: «ويحكى».
(٥) صحيح البخارى برقم (١٩٥٤) وصحيح مسلم برقم (١١٠٠).
(٦) صحيح البخارى برقم (١٩٥٧) وصحيح مسلم برقم (١٠٩٨).
(٧) المسند (٢/ ٢٣٨) وسنن الترمذى برقم (٧٠٠، ٧٠١).
(٨) فى أ: «عبد الله».
(٩) المسند (٥/ ٢٢٥).

حمزة، عن ثور بن يزيد، عن على بن أبى طلحة، عن عبد الملك بن أبى ذر، أن رسول الله ﷺ واصل يومين وليلة؛ فأتاه جبريل فقال: إن الله قد قبل وصالك، ولا يحل لأحد بعدك، وذلك بأن الله قال: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، فلا صيام بعد الليل، وأمرنى بالوتر قبل الفجر، وهذا إسناد لا بأس به، أورده فى ترجمة عبد الملك بن أبى ذر فى تاريخه][(١) (٢)].

ولهذا ورد فى الأحاديث الصحيحة النهى عن الوصال، وهو أن يصل صوم يوم بيوم آخر، ولا يأكل بينهما شيئاً. قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا». قالوا: يا رسول الله، إنك تواصل. قال: «فإنى لست مثلكم، إنى أبِيتُ يُطْعمنى ربى ويسقينى». قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبى ﷺ يومين وليلتين، ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالمُنكِّل بهم[(٣)].

وأخرجاه فى الصحيحين، من حديث الزهرى به[(٤)]. وكذلك أخرجا النهى عن الوصال من حديث أنس وابن عمر[(٥)].

وعن عائشة، رضى الله عنها، قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل. قال: «إنى لست كهيئتكم، إنى يطعمنى ربى ويسقينى»[(٦)].

فقد ثبت النهى عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائص النبى ﷺ، وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب فى حقه إنما كان معنوياً لا حسياً، وإلا فلا يكون مواصلا مع الحسى، ولكن كما قال الشاعر:

لها أحاديثُ من ذكراك تَشْغَلها عن الشراب وتُلْهيها عَن الزادِ

وأما من أحبّ أن يُمْسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما فى حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا، فأيّكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر». قالوا: فإنك تواصِلَ يا رسول الله. قال: «إنى[(٧)] لست كهيئتكم، إنى أبيت لى مَطْعِم يطعمنى، وساق يسقينى». أخرجاه فى الصحيحين أيضاً[(٨)].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو نعيم، حدثنا أبو إسرائيل العَبْسى[(٩)]، عن أبى بكر ابن حفص، عن أمّ ولد حاطب بن أبى بَلْتعة: أنها مرت برسول الله ﷺ وهو يتسحر، فدعاها إلى الطعام. فقالت: إنى صائمة. قال: وكيف تصومين؟ فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فقال: «أين أنت من

(١) زيادة من جـ، أ، و.
(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٥/ ١٩٢).
(٣) فى جـ: «لهم».
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٨٥١) وصحيح مسلم برقم (١١٠٥).
(٥) حديث أنس فى صحيح البخارى برقم (١٩٦١) وفى صحيح مسلم برقم (١١٠٤)، وحديث ابن عمر فى صحيح البخارى برقم (١٩٦٢) وفى صحيح مسلم برقم (١١٠٢).
(٦) صحيح البخارى برقم (١٩٦٤) وصحيح مسلم برقم (١١٠٥).
(٧) فى جـ: «فإنى».
(٨) صحيح البخارى برقم (١٩٦٣) ولم أقع عليه فى صحيح مسلم.
(٩) فى أ: «القيسى».

وصال آل محمد، من السَّحَر إلى السَّحَر»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل، عن عبد الأعلى، عن محمد بن على، عن على: أن النبى ﷺ كان يواصل من السَّحَر إلى السَّحَر[٢].

وقد روى ابن جرير، عن عبد الله بن الزّبير وغيره من السلف، أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة [وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف][٣]، وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم، لا أنهم كانُوا يفعلونه عبادة. والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهى أنه إرْشَاد، [أى][٤] من باب الشفقة، كما جاء فى حديث عائشة: «رحمة لهم»، فكان ابن الزبير وابنُه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه، لأنهم كانوا يجدون قُوة عليه. وقد ذُكرَ عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصَّبِر لئلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولا. وقد رُوى عن ابن الزبير أنَّه كان يواصل سبعة أيام ويصبح فى اليوم السابع أقواهم وأجلدهم. وقال أبو العالية: إنما فرض الله الصيام بالنهار فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هذا فى الرجل يعتكف فى المسجد فى رمضان أو فى غير رمضان، فحرّم الله عليه أن ينكح النساء ليلا ونهارا[٥] حتى يقضى اعتكافه.

وقال الضحاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد، جامع إن شاء، فقال الله تعالى: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ أى: لا تقربوهن ما دمتم عاكفين فى المسجد[٦] ولا فى غيره. وكذا قال مجاهد، وقتادة وغير واحد أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن مسعود، ومحمد بن كعب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، والضحاك والسُّدِّى، والربيع بن أنس، ومقاتل، قالوا: لا يقربها وهو معتكف. وهذا الذى حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء: أن المعتكف يحرمُ عليه النساءُ ما دامَ معتكفاً فى مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لابد له منها فلا يحل له أن يتلبَّث[٧] فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط، أو أكل، وليس له أن يقبل امرأته، ولا يضمها إليه، ولا يشتغل بشىء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض، لكن يسأل عنه وهو مار فى طريقه.

وللاعتكاف أحكام مفصلة فى بابه، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء، ومنها ما هو مختلف فيه[٨]. وقد ذكرنا قِطْعَة صالحة من ذلك فى آخر كتاب الصيام، ولله الحمد[٩].

ولهذا كان الفقهاء المصنفون يُتْبِعون كتابَ الصيام بكتاب الاعتكاف، اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم. وفى ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على

---

(١) تفسير الطبرى (٣/ ٥٣٧، ٥٣٨).
(٢) المسند (١/ ٩١، ١٤١).
(٣، ٤) زيادة من جـ.
(٥) فى جـ، أ: «أو نهاراً».
(٦) فى أ: «فى المساجد».
(٧) فى جـ: «أن يمكث».
(٨) فى أ: «فيها».
(٩) فى جـ: «ولله الحمد والمنة».

الاعتكاف فى الصيام، أو فى آخر[١] شهر الصيام، كما ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ: أنه كان يعتكف العشرَ الأواخر من شهر رمضان، حتى توفاه الله، عز وجل. ثم اعتكف أزواجُه من بعده. أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها[٢]. وفى الصحيحين أن صَفيَّة بنت حُيى كانت[٣] تزور النبى ﷺ وهو معتكف فى المسجد، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها ـ وكان ذلك ليلا ـ فقام النبى ﷺ ليمشى معها حتى تبلغ دارها، وكان منزلها فى دار أسامة بن زيد فى جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبى ﷺ أسرعا ـ وفى رواية: تواريا ـ أى حياء من النبى ﷺ لكون أهله معه[٤]، فقال لهما النبى ﷺ: «على رِسْلكما إنها صفية بنت حيى» أى: لا تسرعا، واعلما أنها صفية بنت حيى، أى: زوجتى. فقالا: سبحان الله يارسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئاً» أو قال: «شراً»[٥].

قال الشافعى، رحمه الله: أراد، عليه السلام، أنْ يعلم أمّته التبرى من التّهمة فى محلها، لئلا يقعا فى محذور، وهما كانا أتقى لله أن يظنا بالنبى ﷺ شيئاً. والله أعلم.

ثم المراد بالمباشرة: إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل، ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشىء ونحوه فلا بأس به؛ فقد ثبت فى الصحيحين، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُدْنى إلىّ رأسه فأرجِّله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان. قالت عائشة: ولقد كان المريضُ يكون فى البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارة[٦].

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى بيناه، وفرضناه، وحددناه من الصيام، وأحكامه، وما أبحنا فيه وما حرّمنا، وذكْر[٧] غاياته ورخصه وعزائمه، حدود الله، أى: شرعها الله وبيّنها بنفسه ﴿فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ أى: لا تجاوزوها، وتعتدوها[٨].

وكان الضحاك ومقاتل يقولان فى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى: المباشرة فى الاعتكاف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى هذه الحدود الأربعة، ويقرأ[٩]: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ حتى بلغ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ قال: وكان أبى وغيره من مَشْيَختنا[١٠] يقولون هذا ويتلونه علينا.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أى: كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله، كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يَعْرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

---

(١) فى أ، و: «أو فى أواخر».

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٠٣٣) وصحيح مسلم برقم (١١٧٢) واللفظ لمسلم.

(٣) فى جـ، أ: «جاءت». (٤) فى جـ: «معه أهله».

(٥) صحيح البخارى برقم (٢٠٣٥، ٦٢١٩) وصحيح مسلم برقم (٢١٧٥) من حديث صفية رضى الله عنها.

(٦) صحيح البخارى برقم (٢٠٢٩) وصحيح مسلم برقم (٢٩٧).

(٧) فى جـ: «وذكرنا». (٨) فى جـ: «تتجاوزوها أو تعتدوها».

(٩) فى جـ: «ويقول». (١٠) فى أ: «من مشايخنا».

[وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ][(١)]﴾ [الحديد: ٩].

﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾.

قال على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: هذا فى الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بيِّنة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكل حرام.

وكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة، والحسن، وقتَادة، والسدّى، ومقاتل بن حيّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تُخَاصِمْ وأنت تعلمُ أنَّك ظالم. وقد ورد[(٢)] فى الصحيحين عن أم سلمة: أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بَشَر، وإنما يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضىَ له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هى قطعة من نار، فَلْيَحْمِلْهَا، أو ليذَرْها»[(٣)]. فدلَّت هذه الآية الكريمة، وهذا الحديث على أنّ حكم الحاكم لا يغير الشىء فى نفس الأمر، فلا يُحلّ فى نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالا هو حلال، وإنما هو يلزم[(٤)] فى الظاهر، فإن طابق فى[(٥)] نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجرُه وعلى المحتال وزره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾ [أى طائفة][(٦)] ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجون فى كلامكم.

قال قتادة: اعلم - يابن آدم ـ أنّ قضاء القاضى لا يُحِل لك حراماً، ولا يُحقُّ لك باطلا، وإنما يقضى القاضى بنحو ما يرى[(٧)] ويشهد به الشهود، والقاضى بَشَر يخطئ ويصيب، واعلموا أنّ من قُضى له بباطل أنّ خصومته لم تَنْقَض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضى على المبطل للمحق بأجودَ مما قضى به للمبطل على المحق فى الدنيا.

وقال أبو حنيفة: حكم الحاكم بطلاق الزوجة إذا شهد عنده شاهدا زور فى نفس الأمر، ولكنهما عدلان عنده يحلها للأزواج حتى للشاهدين ويحرمها على زوجها الذى حكم بطلاقها منه، وقالوا: هذا كلعان المرأة، إنه يبينها من زوجها ويحرمها عليه، وإن كانت كاذبة فى نفس الأمر، ولو علم الحاكم بكذبها لحدها ولما حرمها وهذا أولى.

مسألة: قال القرطبى: أجمع أهل السنة على أن من أكل مالاً حراماً ولو ما يصدق عليه اسم المال أنه يفسق، وقال بشر بن المعتمر فى طائفة من المعتزله: لا يفسق إلا بأكل مائتى درهم فما زاد، ولا يفسق بما دون ذلك، وقال الجبائى: يفسق بأكل درهم فما فوقه إلا بما دونه.

---

(١) زيادة من و، وفى جـ، ط، أ، هـ: «الآية».

(٢) فى جـ: «وقد روى».

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٤٥٨، ٦٩٦٧) وصحيح مسلم برقم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضى الله عنها.

(٤) فى جـ: «هو ملزم».

(٥) فى جـ: «ما فى».

(٦) زيادة من جـ، أ.

(٧) فى جـ: «على نحو ما ترى».

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)﴾.

قال العوفى عن ابن عباس: سأل الناسُ رسولَ الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ [وَالْحَجِّ](١)﴾ يعلمون بها حلَّ دَيْنهم، وعدّة نسائهم، ووقتَ حَجِّهم.

وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبى العالية: بلغنا أنَّهم قالوا: يا رسول الله، لم خُلقَتْ الأهلة؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾. يقول: جعَلَهَا الله مواقيت لصَوْم المسلمين وإفطارهم، وعِدة نسائهم، ومَحَلّ دَيْنهم.

وكذا رُوِى عن عَطَاء، والضحاك، وقتادة، والسدى، والربيع بن أنس، نحو ذلك.

وقال عبد الرزاق، عن عبد العزيز بن أبى رَوّاد، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلة مواقيت للناس. فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُم عليكم فَعُدُّوا ثلاثين يوماً».

ورواه الحاكم فى مستدركه، من حديث ابن أبى رواد، به(٢). وقال: كان ثقة عابداً مجتهداً شريف النسب، فهو صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقال محمد بن جابر، عن قيس بن طلق؛ عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلَّة، فإذا رأيتم الهلال فصُوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن أغْمى عليكم فأكملوا العدة ثلاثين»(٣). وكذا روى من حديث أبى هريرة، ومن كلام علىّ بن أبى طالب، رضى الله عنه(٤) (٥).

وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾: قال البخارى: حدثنا عبيد الله(٦) بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتَوْا البيت من ظهره، فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾(٧).

وكذا رواه أبو داود الطيالسى، عن شعبة، عن أبى إسحاق، عن البراء، قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سَفَر لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية.

وقال الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر: كانت قريش تدعى الحُمْس، وكانوا يدخلون من الأبواب فى الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب فى الإحرام، فبينا رسول الله

---

(١) زيادة من أ.

(٢) المستدرك (١/ ٤٢٣).

(٣) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٢٣) من طريق محمد بن جابر به.

(٤) فى جـ: «عنهم».

(٥) حديث أبى هريرة رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٩٠٩) ومسلم فى صحيحه برقم (١٠٨١).

(٦) فى أ: «عبد الله».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٥١٢).

ﷺ فى بستان إذْ خرج من بابه، وخرج معه قُطْبة بن عامر الأنصارى، فقالوا: يا رسول الله، إن قطبة ابن عامر رجل تاجر[١]، وإنه خرج معك من الباب. فقال له: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: رأيتك فعلتَه ففعلتُ كما فعلتَ. فقال: «إنى [رجل][٢] أحمس». قال له: فإن دينى دينك. فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾. رواه ابن أبى حاتم. ورواه العوفى عن ابن عباس بنحوه. وكذا روى عن مجاهد، والزهرى، وقتادة، وإبراهيم النَّخَعى، والسدى، والربيع بن أنس.

وقال الحسن البصرى: كان أقوام من أهل الجاهليّة إذا أراد أحدُهم سَفراً وخرج من بيته يُريد سفره الذى خرج له، ثم بدا له بَعْد خُروجه أن يُقيم ويدعَ سفره، لم يدخلِ البيت من بابه، ولكن يتسوّره من قبل ظهره، فقال[٣] الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا [وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ][٤]﴾ الآية.

وقال محمد بن كعب: كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت، فأنزل الله هذه الآية.

وقال عطاء بن أبى رباح: كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ويَرَوْنَ أن ذلك أدنى إلى البر، فقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى: اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ غدا إذا وقفتم بين يديه، فيجزيكم[٥] بأعمالكم على التمام، والكمال.

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) ﴾.

قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ قال: هذه أول آية نزلت فى القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمَّن كف عنه حتى نزلت سورة براءة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وفى هذا نظر؛ لأن قوله: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ إنما هو تَهييج وإغراء بالأعداء الذين همتُّهم قتال الإسلام وأهله، أى: كما

---

(١) فى جـ: «فاجر». (٢) زيادة من جـ، أ.
(٣) فى أ: «فأنزل».
(٤) زيادة من جـ.
(٥) فى جـ، أ: «فيجازيكم».

يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]؛ ولهذا قال فى هذه الآية: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أى: لتكن همتكم منبعثة على قتالهم، كما أن همّتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التى أخرجوكم منها، قصاصاً.

وقد حكى عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، أن أول آية نزلت فى القتال بعد الهجرة، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ الآية [الحج: ٣٩] وهو الأشهر وبه ورد الحديث.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أى: قاتلوا فى سبيل الله ولا تعتدوا فى ذلك ويدخل فى ذلك ارتكاب المناهى ـ كما قاله الحسن البصرى ـ من المُثْلة، والغُلُول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، ومقاتل بن حيان، وغيرهم. ولهذا جاء فى صحيح مسلم، عن بُرَيدة أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزوا فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلّوا، ولا تَغْدروا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا أصحاب الصوامع». رواه الإمام أحمد(١).

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بَعَث جيوشه قال: «اخرجوا باسم الله، قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا، ولا تُمَثلوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصّوامع». رواه الإمام أحمد(٢).

ولأبى داود، عن أنس مرفوعاً، نحوه(٣). وفى الصحيحين عن ابن عمر قال: وُجدت امرأة فى بعض مغازى النبىّ ﷺ مقتولة، فأنكر رسولُ الله ﷺ قتلَ النساء والصبيان(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا مُصعب بن سَلام، حدثنا الأجلح، عن قيس بن أبى مسلم، عن رِبْعى ابن حِرَاش، قال: سمعت حُذَيفة يقول: ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالا: واحداً، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحدَ عشرَ، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثلا وترك سائرَها، قال: «إن قوماً كانوا أهلَ ضَعْف ومسكنة، قاتلهم أهلُ تجبر وعداء، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عَدُوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه»(٥).

هذا حديث حَسَنُ الإسناد. ومعناه: أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء، فاعتَدوا عليهم واستعملوهم فيما لا يليق بهم، أسخطوا الله عليهم بسبب(٦) هذا الاعتداء. والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جداً.

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتلُ الرجال، نبَّه تعالى على أنّ ما هم مشتملون(٧) عليه من

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٧٣١) والمسند (٥/ ٣٥٢).

(٢) المسند (١/ ٣٠٠).

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٦١٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٠١٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٤).

(٥) المسند (٥/ ٤٠٧).

(٦) فى جـ: «لسبب». (٧) فى جـ: «مقيمون».

الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل؛ ولهذا قال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾. قال أبو مالك: أى: ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل.

وقال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع ابن أنس فى قوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ يقول: الشرك أشد من القتل.

وقوله: ﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كما جاء فى الصحيحين: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار، وإنها ساعتى هذه حَرَام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَد شجره، ولا يُخْتَلى خَلاه. فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم»[(١)].

يعنى بذلك ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قتالَه أهلها يومَ فتح مكة، فإنه فتحها عنوة، وقتلت رجال منهم عند الخَنْدَمَة، وقيل: صلحاً؛ لقوله: من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن.

[وقد حكى القرطبي: أن النهى عن القتال عند المسجد الحرام منسوخ. قال قتادة: نسخها قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. قال مقاتل بن حيان: نسخها قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾. وفى هذا نظر][(٢)].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول تعالى: لا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يَبْدَؤوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصيّال[(٣)]، كما بايع النبى ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لَمَّا تألبت عليه بطونُ قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، وقوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: فإن تَرَكُوا القتال فى الحرم، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله [غفور رحيم][(٤)] يغفر ذنوبهم، ولو كانوا قد قتلوا المسلمين فى حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاظَمُه ذَنْب أنْ يغفره لمن تاب منه إليه.

ثم أمر تعالى بقتال الكفَّار: ﴿حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أى: شرك. قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع، ومقاتل بن حيان، والسُّدى، وزيد بن أسلم.

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أى: يكونَ دينُ الله هو الظاهر [العالى][(٥)] على سائر الأديان، كما ثبت فى الصحيحين: عن أبى موسى الأشعرى، قال: سُئِل النبى[(٦)] ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّة، ويقاتل رياء، أىّ ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو

---

(١) صحيح البخارى برقم (١٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) زيادة من جـ، أ. (٣) فى أ: «للقتال». (٤) زيادة من جـ.

(٥) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٦) فى جـ، ط،: «سئل رسول الله».

فى سبيل الله»[١]. وفى الصحيحين: «أمرتُ أنْ أقاتلَ الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»[٢].

وقوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يقول: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك، وقتال المؤمنين، فكُفُّوا عنهم، فإنّ مَنْ قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عُدوانَ إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: لا يُقَاتَلُ إلا من قاتل. أو يكون تقديره؛ فإن انتهوا فقد تَخَلَّصُوا من الظلم، وهو الشرك. فلا عدوان عليهم بعد ذلك، والمراد بالعُدْوان هاهنا المعاقبة والمقاتلة، كقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى: ٤٠]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم: الذى أبى أن يقول: لا إله إلا الله.

وقال البخارى: قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ [وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ][٣]﴾ الآية: حدثنا محمد ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا[٤]: إن الناس صنعوا[٥] وأنت ابن عمر وصاحب النبى ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعنى أن الله حرم دم أخى. قالا: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله. زاد عثمان ابن صالح[٦]، عن ابن وهب قال: أخبرنى فلان وحيوة بن شريح، عن بكر بن عمرو المعافرى[٧]: أن بُكَير بن عبد الله حدثه، عن نافع: أن رجلا أتى ابن عمر فقال [له][٨]: يا أبا عبد الرحمن، ما حملك على أن تحج عاماً وتعتمر[٩] عاماً، وتترك الجهاد فى سبيل الله، وقد علمت ما رغب الله فيه؟ فقال: يا ابن أخى، بُنى الإسلام على خمس: الإيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت. قال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله فى كتابه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: فعلنا على عهد النبى[١٠] ﷺ وكان الإسلام قليلا وكان الرجل يفتن فى دينه: إما قتلوه أو عذبوه[١١]، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، قال: فما قولك فى على وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن تعفوا[١٢] عنه، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وخَتَنه، وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون[١٣].

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨١٠، ٣١٢٦) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٤).
(٢) صحيح البخارى برقم (٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.
(٣) زيادة من جـ، ط.
(٤) فى ط: «فقالوا».
(٥) فى و: «ضيعوا».
(٦) فى جـ: «عثمان بن أبى صالح».
(٧) فى أ: «المغافرى».
(٨) زيادة من جـ، ط، أ.
(٩) فى و: «وتقيم».
(١٠) فى جـ: «رسول الله».
(١١) فى أ، و: «أو يعذبوه».
(١٢) فى جـ: «يعفو».
(١٣) صحيح البخارى برقم (٤٥١٣ ـ ٤٥١٥).

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾ .

قال عكرمة، عن ابن عباس، والضحاك، والسدى، ومقْسَم، والربيع بن أنس، وعطاء وغيرهم: لما سار رسولُ الله ﷺ مُعْتَمِراً فى سنة ست من الهجرة، وحَبَسَه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدّوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعْدة، وهو شهر حرام، حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها فى السنة الآتية، هو ومن كان [معه][1] من المسلمين، وأقَصه الله منهم، فنزلت فى ذلك هذه الآية: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث بن سعد، عن أبى الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يغزو فى الشهر الحرام إلا أن يُغْزَى ويُغْزَوا[2]، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ[3].

هذا إسناد صحيح؛ ولهذا لما بلغ النبى ﷺ ـ وهو مُخَيِّم بالحديبية ـ أن عثمان قد قتل ـ وكان قد بعثه فى رسالة إلى المشركين ـ بايع أصحابه، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحتَ الشجرة على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقْتل كفّ عن ذلك، وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان.

وكذلك لما فَرَغ من قتال هَوازن يوم حنين وتَحَصَّن فَلُّهم بالطائف، عَدَل إليها، فحاصَرَها ودخل ذو القَعْدة وهو محاصرها بالمنجنيق، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس[4]. فلما كثر القتل فى أصحابه انصرف عنها ولم تُفْتَح، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من الجعرانه، حيث قسم غنائم حُنين. وكانت عُمْرته هذه فى ذى القعدة أيضاً عام ثمان، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ : أمر بالعدل حتى فى المشركين: كما قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. وقال: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد، ثم نسخ بآية الجهاد[5] بالمدينة. وقد رَدّ هذا القول ابنُ جرير، وقال: بل [هذه][6] الآية مدنية بعد عُمْرة القَضيّة، وعزا ذلك إلى مجاهد، رحمه الله.

وقد أطلق ههنا الاعتداء على الاقتصاص، من باب المقابلة، كما قال عمرو بن أم كلثوم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال ابن دريد:

---

(١) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٢) فى جـ: «إلا أن يغزوا الغزو»، وفى أ: «إلا أن يقر ويقروا».

(٣) المسند (٣/ ٣٤٥).

(٤) الحديث بهذا المعنى فى صحيح مسلم برقم (١٠٥٩).

(٥) فى جـ، ط، أ، و: «بآية القتال».

(٦) زيادة من جـ، ط، أ.

لى استواء إن موالى استوا   لى التواء إن تعادى التوا

وقال غيره:

ولى فرس للحلم بالحلم ملجم   ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
ومن رام تقويمى فإنى مقوم   ومن رام تعويجى فإنى معوج

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: أمرٌ لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبارٌ بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد فى الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)﴾.

قال البخارى: حدثنا إسحاق، أخبرنا النضر، أخبرنا شعبة عن سليمان قال: سمعت أبا وائل، عن حذيفة: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: نزلت فى النفقة(١).

ورواه ابن أبى حاتم، عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن أبى معاوية عن الأعمش، به مثله. قال: وروى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدى، ومقاتل بن حيَّان، نحو ذلك.

وقال الليث بن سعد، عن يزيد بن أبى حبيب، عن أسلم أبى عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرَقه، ومعنا أبو أيوب الأنصارى، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نَجيًا، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونَصْرِه، حتى فشا الإسلام وكثر أهلُه، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما. فنزل(٢) فينا: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. فكانت التهلكة [فى](٣) الإقامة فى الأهل والمال وترك الجهاد.

رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وعَبْدُ بن حُمَيد فى تفسيره، وابن أبى حاتم، وابن جرير(٤)، وابن مَرْدُويه، والحافظ أبو يعلى فى مسنده، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم فى مستدركه، كلهم من حديث يزيد بن أبى حبيب، به(٥).

وقال الترمذى: حسن صحيح غريب. وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

ولفظ أبى داود عن أسلم أبى عمران: كنا(٦) بالقسطنطينية ـ وعلى أهل مصر عقبة بن عامر؛

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥١٦).

(٢) فى جـ: «فنقيم فيهم فنزلت».   (٣) زيادة من و.

(٤) فى جـ: «وابن جرير وابن أبى حاتم».

(٥) سنن أبى داود برقم (٢٥١٢) وسنن الترمذى برقم (٢٩٧٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٢٩) وتفسير الطبرى (٣/ ٥٩٠) وصحيح ابن حبان برقم (١٦٦٧) «موارد» والمستدرك (٢/ ٢٧٥).

(٦) فى جـ: «إنا كنا».

وعلى أهل الشام رجل، يريد فَضَالة بن عُبَيد ـ فخرج من المدينة صَف عظيم من الروم، فصففنا لهم فحَمَل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم: ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه فقالوا: سبحان الله، ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: يا أيها الناس، إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، وإنا لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها. فأنزل الله هذه الآية.

وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق السَّبِيعي قال: قال رجل للبراء بن عازب: إن حملتُ على العدوّ وحدى فقتلوني أكنت ألقيتُ بيدى إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله لرسوله: ﴿**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ**﴾ [النساء: ٨٤]، إنما هذا فى النفقة. رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث إسرائيل، عن أبي إسحاق، به. وقال صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[١]. ورواه الثورى، وقيس بن الربيع، عن أبي إسحاق، عن البراء ـ فذكره. وقال بعد قوله: ﴿**لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ**﴾: ولكن التهلكة أن يُذْنبَ الرجلُ الذنبَ، فيلقى بيده إلى التهلكة ولا يتوب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو صالح ـ كاتب الليث ـ حدثنى الليث، حدثنا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أخبره: أنهم حاصروا دمشق، فانطلق رجل من أزد شنوءة، فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل، فعاب ذلك عليه المسلمون ورفعوا حديثه إلى عَمْرو بن العاص، فأرسل إليه عمرو فَرَدّه، وقال عمرو: قال الله: ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾.

وقال عطاء بن السائب[٢]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾: ليس[٣] ذلك فى القتال، إنما هو فى النفقة أنْ تُمسكَ بيدك عن النفقة فى سبيل الله. ولا تلق بيدك إلى التهلكة.

وقال حماد بن سلمة، عن داود، عن الشعبى، عن الضحاك بن أبى جُبَيْرة[٤] قال: كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم، فأصابتهم سَنَة، فأمسكوا عن النفقة فى سبيل الله فنزلت: ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾.

وقال الحسن البصرى: ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ قال: هو البخل.

وقال سماك بن حرب، عن النعمان بن بشير فى قوله: ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾: أن يذنب الرجل الذنب، فيقول: لا يغفر لى، فأنزل الله: ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾. رواه ابن مَرْدويه.

وقال ابن أبى حاتم: ورُوِىَ عن عُبيدَة السلمانى، والحسن، وابن سيرين، وأبى قلابة ـ نحوُ ذلك. يعنى: نحو قول النعمان بن بشير: إنها فى الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له، فيلقى بيده إلى التهلكة، أى يستكثر من الذنوب فيهلك. ولهذا رَوَى على بن أبى طلحة عن ابن عباس:

(١) المستدرك (٢/ ٢٧٥).
(٢) فى أ: «عطاء بن أبى السائب». (٣) فى جـ: «وليس».
(٤) فى أ: «ابن أبى صبرة».

التهلكة: عذاب الله.

وقال ابن أبى حاتم وابن جرير جميعاً: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، أخبرنى أبو صخر، عن القُرَظى: أنه كان يقول فى هذه الآية: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: كان القوم فى سبيل الله، فيتزود الرجل. فكان أفضل زاداً من الآخر، أنفق البائس[١] من زاده، حتى لا يبقى من زاده شىء، أحب أن يواسى صاحبه، فأنزل الله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[٢].

وقال[٣] ابن وهب أيضاً: أخبرنى عبد الله بن عياش[٤]، عن زيد بن أسلم فى قول الله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: وذلك أنّ رجالا كانوا يخرجون فى بعوث يبعثها رسولُ الله ﷺ، بغير نفقة، فإما يُقْطَعُ بهم، وإما كانوا عيالا، فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع أو العطش أو من المشى. وقال لمن بيده فضل: ﴿أَحْسِنُوا[٥] إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومضمون الآية: الأمرُ بالإنفاق فى سبيل الله فى سائر وجوه القُرُبات ووجوه الطاعات، وخاصّة[٦] صرفَ الأموال فى قتال الأعداء وبذلها فيما يَقْوَى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك ذلك بأنه هلاك ودمار إن[٧] لزمه واعتاده. ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾.

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعَطَفَ بذكر الجهاد، شرعَ فى بيان المناسك، فأمرَ بإتمام الحجّ والعُمْرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما[٨]؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أى: صُدِدْتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما. ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع فى الحج والعمرة مُلْزِمٌ، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها، كما هما قولان للعلماء. وقد ذكرناهما

---

(١) فى جـ، ط، و: «أنفقوا الباقين».
(٢) تفسير الطبرى (٣/ ٥٨٤).
(٣) فى جـ، ط، أ: «وبه قال».
(٤) فى أ: «ابن عباس».
(٥) فى جـ، ط: «وأحسنوا» وهو الصواب.
(٦) فى جـ: «وحاصله».
(٧) فى جـ: «كمن»، وفى ط، أ: «لمن».
(٨) فى ط: «فيها».

بدلائلهما فى كتابنا «الأحكام» مستقصى[١]، ولله الحمد والمنة.

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرّة، عن عبد الله بن سَلَمة، عن على: أنه قال فى هذه الآية: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: أن تُحْرِم من دُوَيرة أهلك.

وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وطاوس. وعن سفيان الثورى أنه قال فى هذه الآية: إتمامهما[٢] أن تحرم من أهلك، لا تريد إلا الحج والعمرة، وتُهِلّ من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت: لو حججت أو اعتمرت، وذلك يجزئ، ولكن التمام أن تخرج له، ولا تخرج لغيره.

وقال مكحول: إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الميقات.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر عن الزهرى قال: بلغنا أنّ عمر قال فى قول الله[٣]: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [قال][٤]: من تمامهما أن تُفْرِد كُلَّ واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر فى غير أشهر الحج؛ إن الله تعالى يقول: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾.

وقال هُشَيْم عن ابن عون قال: سمعت القاسم بن محمد يقول: إن العمرة فى أشهر الحج ليست بتامة[٥]، فقيل له: العمرة فى المحرم؟ قال: كانوا يرونها تامة. وكذا روى عن قتادة بن دعامة، رحمهما الله.

وهذا القول فيه نظر؛ لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عُمَرٍ كلها فى ذى القعدة: عمرة الحديبية فى ذى القعدة سنة ست، وعمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، وعمرة الجِعرّانة فى ذى القعدة سنة ثمان، وعمرته التى مع حجته أحرم بهما معاً فى ذى القعدة سنة عشر، ولا اعتمر قَطّ فى غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأم هانئ[٦]: «عُمْرة فى رمضان تعدل حجة معى»[٧]. وما ذاك إلا لأنها [كانت][٨] قد عزمت على الحج معه، عليه السلام، فاعتاقَتْ عن ذلك بسبب الطهر، كما هو مبسوط فى الحديث عند البخارى، ونَصّ سعيد بن جبير على أنه من خصائصها، والله أعلم.

وقال السدى فى قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أى: أقيموا الحجّ والعمرة. وقال على بن أبى طلحة[٩]، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ يقول: من أحرم بالحج أو بالعمرة[١٠]، فليس له أن يحل حتى يتمهما، تمام الحج يوم النحر، إذا رمى جمرة العقبة، وطاف[١١] بالبيت، وبالصفا، والمروة، فقد حل.

وقال قتادة، عن زُرارة، عن ابن عباس أنه قال: الحج عرفة، والعمرة الطواف. وكذا روى الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة فى قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: هى [فى][١٢] قراءة عبد

---

(١) فى جـ: «المستقصى». (٢) فى جـ: «تمامهما».
(٣) فى جـ: «فى قوله». (٤) زيادة من جـ.
(٥) فى جـ: «تامة»، وفى أ: «بتمامها». (٦) فى جـ، ط، أ: «ولكن قال لتلك المرأة».
(٧) كذا وقع هنا أم هانئ وهو وهم، والصواب: أم سنان، والحديث فى صحيح البخارى برقم (١٨٦٣).
(٨) زيادة من جـ، ط، أ، و. (٩) فى أ: «ابن أبى صالح».
(١٠) فى جـ، ط: «بحج أو عمرة». (١١) فى جـ، ط، و: «وزار».
(١٢) زياة من أ.

الله: «وأقيموا[(١)] الحج والعمرة إلى البيت» لا تُجاوز بالعمرة البيت. قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد ابن جبير، فقال: كذلك قال ابن عباس.

وقال سفيان عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قال: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» وكذا روى الثورى أيضاً عن إبراهيم، عن منصور، عن إبراهيم أنه قرأ: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت».

وقرأ الشعبى: «وأتموا[(٢)] الحج والعمرةُ لله» برفع العمرة، وقال: ليست بواجبة. وروى عنه خلاف ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ جَمَع فى إحرامه بحج وعمرة، وثبت عنه فى الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هَدْى فليهل بحج وعمرة»[(٣)].

وقال فى الصحيح أيضاً: «دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة».

وقد روى الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى سبب نزول هذه الآية حديثاً غريباً فقال: حدثنا على ابن الحسين، حدثنا أبو عبد الله الهروى، حدثنا غسان الهروى، حدثنا إبراهيم بن طَهْمَان، عن عطاء، عن صفوان بن أمية أنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ مُتَضمِّخ بالزعفران، عليه جبة، فقال: كيف تأمرنى يا رسول الله فى عمرتى؟ قال: فأنزل الله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فقال رسولُ الله ﷺ: «أين السائل عن العُمْرة؟» فقال: ها أنا ذا. فقال له: «ألق عنك ثيابك، ثم اغتسل، واستنشق ما استطعت، ثم ما كنت صانعاً فى حَجّك فاصنعه فى عمرتك»[(٤)].

هذا حديث غريب وسياق عجيب، والذى ورد فى الصحيحين، عن يعلى بن أمية فى قصة الرجل الذى سأل النبى ﷺ وهو بالجعرانة فقال: كيف ترى فى رجل أحرم بالعمرة وعليه جُبة وخَلُوق؟ فسكت رسول الله ﷺ، ثم جاءه الوحى، ثم رفع رأسه فقال: «أين السائل؟» فقال: ها أنا ذا فقال: «أما الجبة فانزعها، وأما الطيب الذى بك فاغسله، ثم ما كنت صانعاً فى حجك فاصنعه فى عُمْرتك»[(٥)]. ولم يذكر فيه الغسل والاستنشاق[(٦)]، ولا ذكر نزول الآية[(٧)]، وهو عن يعلى بن أمية، لا [عن][(٨)] صفوان بن أمية، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: ذكروا أنّ هذه الآية نزلت فى سنة ست، أىْ عام الحديبية، حين حال المشركون بين رسُول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله فى ذلك سورةَ الفتح بكمالها، وأنزل لهم رُخْصَةً: أن يذبحوا ما معهم من الهدى وكان سبعين بدنة، وأن يَتَحَلَّلوا من

---

(١) فى أ، و: «وأتموا».　　　(٢) فى جـ: «وأقيموا».

(٣) صحيح مسلم برقم (١٢٣٦) من حديث أسماء رضى الله عنها.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٢١٨) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٥) ورواه ابن عبد البر فى التمهيد (٢/ ٢٥١) من طريق محمد بن سابق، عن إبراهيم بن طهمان، عن أبى الزبير، عن عطاء، عن صفوان بن أمية به.

(٦) فى جـ: «ولا الاستنشاق».　　　(٧) فى ط: «نزول الحق».

(٨) زيادة من جـ، ط.

إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رؤوسهم ويتحللوا. فلم يفعلوا انتظارا للنسخ حتى خرج فحلق رأسه، ففعل الناس وكان منهم من قَصّر رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال ﷺ: «رَحِم الله المُحلِّقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة: «والمقصرين»(١). وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك، كُلُّ سبعة في بَدَنَة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل: بل كانوا على طَرَف الحرم، فالله أعلم.

ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو، فلا يتحلل إلا من حصره عَدُو، لا مرض ولا غيره؟ على قولين:

فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى، حدثنا سفيان، عَنْ عمرو بن دينار، عن ابن عباس، وابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس، وابن أبي نَجِيح [ومجاهد](٢)، عن ابن عباس، أنه قال: لا حَصْرَ إلا حصرُ العدو، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء، إنما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنتُم﴾، فليس الأمن حصراً.

قال: وروى عن ابن عمر، وطاوس، والزهرى، وزيد بن أسلم، نحو ذلك.

والقول الثاني: أن الحصر أعمّ من أن يكون بعدُوّ أو مرض أو ضلال ـ وهو التَّوَهان عن الطريق أو نحو ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حَجَّاج الصوّافُ، عن يحيى بن أبي كثير، عن عكرمة، عن الحجاج بن عمرو(٣) الأنصارى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كُسِر أو عَرِج فقد حل، وعليه حجة أخرى».

قال: فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا: صدق.

وأخرجه(٤) أصحاب الكتب الأربعة من حديث يحيى بن أبي كثير، به(٥). وفي رواية لأبي داود وابن ماجة: من عرِج أو كُسر أو مَرِض ـ فذكر معناه. ورواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عُلَيّة، عن الحجاج بن أبي عثمان الصواف، به. ثم قال: وروى عن ابن مسعود، وابن الزبير، وعلقمة، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، ومجاهد، والنخعى، وعطاء، ومقاتل ابن حيان، أنهم قالوا: الإحصار من عدو، أو مرض، أو كسر.

وقال الثورى: الإحصار من كل شيء آذاه. وثبت في الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دَخَل على ضُبَاعة بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله، إني أريد الحج وأنا شاكية. فقال: «حُجِّي واشترطي: أنَّ مَحِلِّي حيثُ حبَسْتَني»(٦). ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله(٧). فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث. وقد علق الإمام محمد بن إدريس

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٣٠١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٢) زيادة من جـ، ط.

(٣) في أ: «بن عمر».

(٤) في جـ: «وقد أخرجه».

(٥) المسند (٣/ ٤٥٠) وسنن أبي داود برقم (١٨٦٢) وسنن الترمذى برقم (٩٤٠) وسنن النسائي (٥/ ١٩٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣٠٧٨).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٨٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٠٧).

(٧) صحيح مسلم برقم (١٢٠٨).

الشافعى القولَ بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث. قال البيهقى وغيره من الحفاظ: فقد صح، ولله الحمد.

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: قال الإمام مالك، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على ابن أبى طالب أنه كان يقول: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: شاة. وقال ابن عباس: الهَدْى من الأزواج الثمانية: من الإبل والبقر والمعز والضأن.

وقال الثورى، عن حبيب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، قال: شاة. وكذا قال عطاء، ومجاهد، وطاوس، وأبو العالية، ومحمد بن على بن الحسين، وعبد الرحمن بن القاسم، والشعبى، والنّخعى، والحسن، وقتادة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم مثلَ ذلك، وهو مذهب الأئمة الأربعة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة وابن عمر: أنهما كانا لا يريان ﴿مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ إلا من الإبل والبقر.

قال: ورُوِى عن سالم، والقاسم، وعروة بن الزبير، وسعيد بن جبير ـ نحوُ ذلك.

قلت: والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قضية[١] الحديبية، فإنه لم يُنْقَل عن أحد منهم أنه ذبح فى تحلله ذاك شاة، وإنما ذبحوا الإبل والبقر، ففى الصحيحين عن جابر قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نشترك فى الإبل والبقر كل سبعة منا فى بقرة[٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: بقدر يَسَارته[٣].

وقال العوفى، عن ابن عباس: إن كان موسراً فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم.

وقال هشام بن عروة، عن أبيه: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: إنما ذلك فيما بين الرّخص والغلاء.

والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجْزَاء ذبح الشاة فى الإحصار: أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدى، أى: مهما تيسر مما يسمى هدياً، والهَدْى من بهيمة الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، كما قاله الحَبْر البحر[٤] ترجمان القرآن وابن عم الرسول ﷺ. وقد ثَبتَ فى الصحيحين عن عائشة أمّ المؤمنين، رضى الله عنها، قالت: أهْدَى النبى ﷺ مرة غنماً[٥].

وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وليس معطوفاً على قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ كما زعمه ابن جرير، رحمه الله؛ لأن النبى ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما فى حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ

---

(١) فى جـ، أ: «قصة».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٣١٨).

(٣) فى أ: «يساره».

(٤) فى ط: «البحر الحبر».

(٥) صحيح البخارى برقم (١٧٠١) وصحيح مسلم برقم (١٣٢١).

الْهَدْيُ مَحِلَّه﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة، إن كان قارناً، أو من فعْل أحدهما إن كان مُفْرداً أو متمتعاً، كما ثبت في الصحيحين عن حَفْصَةَ أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن[1] الناس حَلّوا من العمرة، ولم تَحِلّ أنت من عمرتك؟ فقال: «إني لَبَّدْتُ رأسي وقلَّدت هَدْيي، فلا أحلّ حتى أنحر»[2].

وقوله: **﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾**: قال البخاري: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، عن عبد الرحمن بن الأصبهاني: سمعت عبد الله بن مَعْقِل، قال: فعدت إلى كعب بن عُجْرَةَ في هذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ فسألته عن **﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾**، فقال: حُمِلْتُ إلى النبي ﷺ والقملُ يتناثر على وجهي. فقال: «ما كنتُ أرَى أن الجَهد بلغ بك هذا! أما تجد شاة؟» قلت: لا. قال: «صُمْ ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك». فنزلت فيّ خاصة، وهي لكم عامة[3].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا إسماعيلُ، حدثنا أيوب، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَةَ قال: أتى عَلَيّ النبي ﷺ وأنا أوقد تحت قدر، والقَمْلُ يتناثَرُ على وجهي ـ أو قال: حاجبي ـ فقال: «يُؤْذيك[4] هَوامُّ رأسك؟». قلت: نعم. قال: «فاحلقه، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيكة». قال أيوب: لا أدري بأيتهن بدأ[5].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر[6]، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية، ونحن محرمون، وقد حصره المشركون[7]، وكانت لي وَفْرة، فجعلت الهوام تَساقَطُ على وجهي، فمر بي رسول الله[8] ﷺ فقال: «أيؤذيك هوام رأسك؟» فأمره أن يحلق. قال: ونزلت هذه الآية: **﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾**[9].

وكذا رواه عفان، عن شعبة، عن أبي بشر، وهو جعفر بن إياس، به. وعن شعبة، عن الحكم، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، به[10]. وعن شعبة، عن داود، عن الشعبي، عن كعب بن عُجْرَة، نحوه.

ورواه الإمام مالك عن حميد بن قيس، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب ابن عجرة ـ فذكر نحوه[11].

وقال سعد[12] بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن أبان بن صالح، عن الحسن البصري: أنه

(١) في جـ: «ما بال».

(٢) صحيح البخاري برقم (١٧٢٥) وصحيح مسلم برقم (١٢٢٩).

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٥١٧).

(٤) في جـ: «أيؤذيك».

(٥) المسند (٤/ ٢٤١).

(٦) في جـ: «حدثنا يونس». (٧) في جـ: «العدو».

(٨) في جـ، ط، أ: «فمر بي النبي».

(٩) المسند (٤/ ٢٤١).

(١٠) رواه أحمد في المسند كما في أطرافه لابن حجر (٥/ ٢١٩).

(١١) الموطأ (١/ ٤١٧).

(١٢) في ط، أ: «وقال سعيد».

سمع كعب بن عُجْرَة يقول: فذبحت شاة. رواه ابن مَرْدُوَيه. وروى أيضاً من حديث عمر بن قيس، سندل ـ وهو ضعيف[١] ـ عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «النسك شاة، والصيام ثلاثة أيام، والطعام[٢] فَرَق، بين ستة»[٣].

وكذا رُوى عن على، ومحمد بن كعب، وعكرمة[٤]، وإبراهيم [النخعى][٥]، ومجاهد، وعطاء، والسدى، والربيع بن أنس.

وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا عبد الله بن وهب: أن مالك بن أنس حدثه[٦]، عن عبد الكريم بن مالك الجَزَرى، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن كعب ابن عُجْرة: أنه كان مع رسول الله ﷺ، فآذاه القَمْل فى رأسه، فأمره رسولُ الله ﷺ أن يحلق رأسه، وقال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، مُدّين مدّين لكل إنسان، أو انسُك شاة، أىَّ ذلك فعلتَ أجزأ عنك»[٧].

وهكذا روى ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، قال: إذا كان «أو» فأيه أخذتَ أجزأ عنك.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وطاوس، والحسن، وحُميد الأعرج، وإبراهيم النخَعى، والضحاك، نحو ذلك.

قلت: وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يُخيَّر[٨] فى هذا المقام، إن شاء صام، وإن شاء تصدّق بفَرَق، وهو ثلاثة آصع، لكل مسكين نصفُ صاع، وهو مُدّان، وإن شاء ذبح شاة وتصدّق بها على الفقراء، أىّ ذلك فعل أجزأه. ولما كان لفظ القرآن فى بيان الرخصة جاءَ بالأسهل فالأسهل: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ ولَمَّا أمرَ النبى ﷺ كعبَ بن عجرة بذلك، أرشده إلى الأفضل، فالأفضل فقال: انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين أو صم ثلاثة أيام. فكلّ حسن فى مقامه. ولله الحمد والمنة.

وقال ابن جرير: حدّثنا أبو كُرَيْب، حدّثنا أبو بكر بن عياش قال: ذكر الأعمشُ قال: سأل إبراهيمُ سعيدَ بن جبير عن هذه الآية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فأجابه يقول: يُحكَم عليه طعام، فإن كان عنده اشترى شاة، وإن لم يكن قوّمت الشاة دراهم، وجعل مكانها طعام فتصدق، وإلا صام بكل نصف صاع يوماً، قال إبراهيم: كذلك سمعت علقمة يذكر. قال: لما قال لى سعيد بن جبير: من هذا؟ ما أظرفه! قال: قلت: هذا إبراهيم. فقال: ما أظرفه! كان يجالسنا. قال: فذكرت ذلك لإبراهيم، قال: فلما قلت: «يجالسنا» انتفض منها[٩].

---

(١) فى جـ: «سنده عنه ضعيف». (٢) فى جـ: «والإطعام».
(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٥١٥) وعزاه لابن مردويه والواحدى.
(٤) فى جـ، ط، أ: «وعلقمة». (٥) زيادة من جـ، ط.
(٦) فى جـ: «حدثهم».
(٧) الحديث فى الموطأ (١/ ٤١٧).
(٨) فى جـ، ط: «مخيرا»، وفى و: «محير».
(٩) تفسير الطبرى (٤/ ٧٤).

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن أبى عمران، حدثنا عُبَيد الله[١] بن معاذ، عن أبيه، عن أشعث، عن الحسن فى قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ قال: إذا كان بالمُحْرِم أذى من رأسه، حلَق وافتدى بأىّ هذه الثلاثة شاء، والصيام عشرة أيام، والصدقة على عشرة مساكين، كلّ مسكين مكّوكين: مكوكا من تمر، ومكوكا من بُر، والنسك شاة.

وقال قتادة، عن الحسن وعكرمة فى قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ قال: إطعام عشرة مساكين.

وهذان القولان من سعيد بن جبير، وعلقمة، والحسن، وعكرمة قولان غريبان فيهما نظر؛ لأنه قد ثَبَتت السنةُ فى حديث كعب بن عُجْرة بصيام ثلاثة أيام، [لا عشرة و][٢] لا ستة، أو إطعام ستة مساكين أو نسك شاة، وأن ذلك على التخيير كما دَلّ عليه سياق القرآن. وأما هذا الترتيبُ فإنما هو معروفٌ فى قَتْل الصيد، كما هو نص القرآن. وعليه أجمع الفقهاء هناك، بخلاف هذا، والله أعلم.

وقال هُشَيم: أخبرنا ليث، عن طاوس: أنه كان يقول: ما كان من دم أو طعام[٣] فبمكة، وما كان من صيام فحيث شاء. وكذا قال عطاء، ومجاهد، والحسن.

وقال هُشَيم: أخبرنا حجاج وعبد الملك وغيرهما عن عطاء: أنه كان يقول: ما كان من دم فبمكة، وما كان من طعام وصيام فحيث شاء.

وقال هشيم: أخبرنا يحيى بن سعيد، عن يعقوب بن خالد، أخبرنا أبو أسماء مولى ابن جعفر، قال: حج عثمان بن عفان، ومعه على والحسين[٤] بن على، فارتحل عثمان. قال أبو أسماء: وكنت مع ابن جعفر، فإذا نحن برجل نائم وناقته عند رأسه، قال: فقلت: أيها النؤوم[٥]. فاستيقظ، فإذا الحسين[٦] بن على. قال: فحمله ابنُ جعفر حتى أتينا به السُّقْيا قال: فأرسل إلى على ومعه أسماء بنت عميس. قال: فمرضناه نحوا من عشرين ليلة. قال: قال على للحسين: ما الذى تجد؟ قال: فأومأ بيده إلى رأسه. قال: فأمر به علىّ فَحلَق رأسه، ثم دعا ببدَنَة فنحرها. فإن كانت هذه الناقة عن الحلق ففيه أنه نحرها دون مكة. وإن كانت عن[٧] التحلل فواضح.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أى: إذا تمكنتم من أداء المناسك، فمن كان منكم مُتَمتّعاً بالعُمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولا، فلما فرغ منها أحرم بالحج وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف فى كلام الفقهاء. والتمتع العام يشمل القسمين، كما دلت عليه الأحاديثُ الصحاح، فإنّ من الرُواة من يقولُ: تمتع رسول الله ﷺ. وآخر يقول: قَرَن. ولا خلاف أنّه ساق الهدى[٨].

وقال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أى: فليذبح ما قدر عليه من الهدى، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر؛ لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر. وقال الأوزاعى،

---

(١) فى جـ، أ: «عبد الله». (٢) زيادة من جـ، أ.
(٣) فى جـ: «أو إطعام». (٤) فى جـ: «الحسن».
(٥) فى أ: «أيها النائم». (٦) فى جـ: «الحسن».
(٧) فى أ: «من». (٨) فى أ، و: «أنه ساق هدياً».

عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة[١]، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ ذبح بقرة عن نسائه، وكن متمتعات. رواه أبو بكر بن مَرْدويه[٢].

وفى هذا دليل على شرعية[٣] التمتع، كما جاء فى الصحيحين عن عِمْران بن حُصين قال: نزلت آية المتعة[٤] فى كتاب الله، وفعلناها مع رسول الله ﷺ. ثم لم يُنْزَل قرآن يُحرّمه، ولم يُنْهَ عنها، حتى مات. قال رجل برأيه ما شاء[٥]. قال البخارى: يقال: إنه عُمَر. وهذا الذى قاله البخارى قد جاء مصرحاً به أن عمر، رضى الله عنه، كان ينهى الناس عن التمتع، ويقول: إن[٦] نأخذ بكتاب الله فإنّ الله يأمر بالتمام. يعنى قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾. وفى نفس الأمر لم يكن عمر، رضى الله عنه، ينهى عنها محرِّماً لها، إنما كان يَنْهَى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين، كما قد صرح به، رضى الله عنه.

وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾: يقول تعالى: فمن لم يجد هَدْياً فَلْيصمْ ثلاثة أيام فى الحج، أى: فى أيام المناسك. قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل يوم عَرَفة فى العشر[٧]، قاله عطاء. أو من حين يحرم، قاله ابن عباس وغيره، لقوله: ﴿فِي الْحَجِّ﴾، ومنهم من يجوِّز صيامها من أول شوال، قاله طاوس ومجاهد وغير واحد. وجوز الشعبى صيام يوم عرفة وقبله يومين، وكذا قال مجاهد، وسعيدُ بن جُبَير، والسدّى، وعطاء، وطاوس، والحكم، والحسن، وحماد، وإبراهيم، وأبو جعفر الباقر، والربيع، ومقاتل بن حيّان. وقال العوفى، عن ابن عباس: إذا لم يجد هَدْياً فعليه صيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يومُ عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله. وكذا رَوَى أبو إسحاق عن وبرة، عن ابن عمر، قال: يصوم يوماً قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة. وكذا رَوَى عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على أيضاً.

فلو لم يَصُمْها أو بعضها قبل [يوم][٨] العيد فهل يجوز أن يصومها فى أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء، وهما للإمام الشافعى أيضاً، القديم منهما أنه يجوزُ له صيامها لقول عائشة وابن عمر فى صحيح البخارى: لم يَرَخّص فى أيام التشريق أن يُصَمن[٩] إلا لمن لا يجد الهَدى[١٠]. وكذا رواه مالك، عن الزّهرى، عن عروة، عن عائشة. وعن سالم، عن ابن عمر [إنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ﴾][١١] [١٢]، وقد روى من غير وجه عنهما. ورواه سفيان، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علىّ أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام فى الحج صامهن أيام

(١) فى هـ: «أبى مسلم»، والصواب ما أثبتناه من جـ، أ.
(٢) ورواه أبو داود فى السنن برقم (١٧٥١) من طريق الوليد عن الأوزاعى به.
(٣) فى جـ: «على مشروعية». (٤) فى أ: «آية التمتع».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥١٨) وصحيح مسلم برقم (١٢٢٦).
(٦) فى أ: «إنا». (٧) فى أ: «فى العشرة».
(٨) زيادة من أ. (٩) فى أ: «أن يصوم».
(١٠) صحيح البخارى برقم (١٩٩٧).
(١١) زيادة من جـ، أ.
(١٢) الموطأ: (١/ ٤٢٦).

التشريق. وبهذا يقول عُبَيد بن عُمَير الليثى[١]، وعكرمة، والحسن البصرى، وعروة بن الزبير؛ وإنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾. والجديد من القولين: أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق، لما رواه مسلم عن نُبَيْشَةَ[٢] الهذلى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكلٍ وشرب وذكر الله»[٣].

وقوله: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: فيه قولان:

أحدهما: إذا رجعتم فى الطريق. ولهذا قال مجاهد: هى رخصة إذا شاء صامها فى الطريق. وكذا قال عطاء بن أبى رباح.

والقول الثانى: إذا رجعتم إلى أوطانكم؛ قال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن يحيى بن سعيد، عن سالم، سمعت ابن عمر قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ قال: إذا رَجَع إلى أهله[٤]. وكذا رُوى عن سعيد بن جُبَير، وأبى العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والزهرى، والربيع بن أنس. وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماعَ.

وقد قال البخارى: حدثنا يحيى بن بُكَير، حدثنا الليث، عن عُقَيل، عن ابن شهاب، عن سالم ابن عبد الله أن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ فى حَجَّة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهَدْى من ذى الحُلَيفة، وبدأ رسول الله ﷺ فأهلَّ بالعمرة، ثم أهلَّ بالحج، فتمتع الناس مع النبى ﷺ بالعمرة إلى الحج. فكان مِنَ الناس مَنْ أهدى فساق الهَدْى، ومنهم من لم يُهْد. فلما قدم النبى ﷺ مكة قال للناس: «من كان منكم أهدى فإنه لا يَحل لشىء حَرُم منه حتى يقضى حَجَّه، ومَنْ لم يكن منكم أهدى فَلْيَطُف بالبيت وبالصفا والمروة، ولْيُقَصِّر وليَحلل[٥]، ثم لِيُهلّ بالحج، فمن لم يجد هدياً فليصُمْ ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله». وذكر تمام الحديث[٦].

قال الزهرى: وأخبرنى عروة، عن عائشة بمثل ما أخبرنى سالم عن أبيه. والحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى، به[٧].

وقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعينى، وسمعت بأذنى، وكتبت بيدى. وقال الله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال: ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقيل: معنى ﴿كَامِلَةٌ﴾: الأمرُ بإكمالها وإتمامها، اختاره ابنُ جرير. وقيل: معنى ﴿كَامِلَةٌ﴾ أى: مُجزئة عن الهَدْى. قال[٨] هُشَيم، عن عباد بن راشد، عن الحسن البصرى، فى قوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قال: مِنَ الهَدْى.

---

(١) فى جـ: «المكثى». (٢) فى جـ: «عن ابن نبيشة».
(٣) صحيح مسلم برقم (١١٤١).
(٤) تفسير عبد الرزاق (١/ ٩٣).
(٥) فى جـ: «وليتحلل».
(٦) صحيح البخارى برقم (١٦٩١).
(٧) صحيح البخارى برقم (١٦٩٢) وصحيح مسلم برقم (١٢٢٨).
(٨) فى أ: «قاله».

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: قال ابن جرير: اختلف أهلُ التأويل فيمن عُنِي بقوله: ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم مَعْنيون به، وأنه لا متعة لهم، فقال بعضهم: عنى بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم.

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان ـ هو الثورى ـ قال: قال ابن عباس ومجاهد: هم أهل الحَرَم. وكذا روى ابن المبارك، عن الثورى، وزاد: الجماعة عليه.

وقال قتادة: ذُكر لنا أن ابن عباس كان يقول: يا أهل مكة، لا متعة لكم، أحلت لأهل الآفاق وحُرِّمت عليكم، إنما يقطع أحدكم واديا ـ أو قال: يجعل بينه وبين الحرم واديا[١] ـ ثم يُهِلّ بعمرة.

وقال عبد الرزاق: حدثنا[٢] معْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: المتعةُ للناس ـ لا لأهل مكة ـ مَنْ لم يكن أهلُه من الحرم. وذلك قول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. قال: وبلغنى عن ابن عباس مثلُ قول طاوس.

وقال آخرون: هم أهل الحرم ومن بيْنه وبين المواقيت، كما قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن رجل، عن عطاء، قال: من كان أهله دون المواقيت، فهو كأهل مكة، لا يتمتع[٣].

وقال عبد الله بن المبارك، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مكحول، فى قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: من كان دون الميقات.

وقال ابن جُرَيْج عن عطاء: ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: عرفة، ومرّ، وعُرَنَة، وضَجْنان، والرجيع[٤].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، سمعت الزهرى يقول: من كان أهله على يوم أو نَحْوه تَمتَّع. وفى رواية عنه: اليوم واليومين. واختار ابن جرير فى ذلك مذهب الشافعى أنهم أهل الحرم، ومن كان منه على مسافة لا تُقْصَر منها[٥] الصلاة؛ لأن من كان كذلك يُعَدّ حاضراً لا مسافراً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم[٦] وما نهاكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: لمن خالف[٧] أمره، وارتكب ما عنه زجَره.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾.

اختلف أهل العربية فى قوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ فقال بعضهم: [تقديره][٨]: الحج حَجُّ أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام به فيما عداها، وإن كان ذاك صحيحاً والقول بصحة الإحرام بالحج فى جميع السّنَة مذهبُ مالك، وأبى حنيفة، وأحمد

(١) فى ط: «وادياً وادياً». (٢) فى ط: «أخبرنا».
(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٩٣).
(٤) فى و: «الضجيع». (٥) فى جـ، ط، أ، و: «فيها».
(٦) فى ط: «فيما أمركم به». (٧) فى ط: «لمن خاف».
(٨) زيادة من جـ، أ، و.

ابن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وبه يقول إبراهيم النخعي، والثوري، والليث بن سعد. واحتجّ لهم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وبأنه أحد النسكين. فصح الإحرام به فى جميع السَّنَة كالعمرة.

وذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا فى أشهره[١]، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به، وهل ينعقد عُمْرة؟ فيه قولان عنه. والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا فى أشهره مَرْوِىّ عن ابن عباس، وجابر، وبه يقول عطاء، وطاوس، ومجاهد، رحمهم الله، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾، وظاهره التقدير الآخر الذى ذهب إليه النحاة، وهو أن: وقت الحج أشهر مَعْلُومات، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة، فدلّ على أنه لا يصح قبلها، كميقات الصلاة.

قال الشافعي، رحمه الله: أخبرنا مسلم بن خالد، عن ابن جريج، أخبرنى عُمَر بن عَطَاء، عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: لا ينبغى لأحد أن يُحْرِم بالحج إلا فى شهور[٢] الحج، من أجل قول الله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾. وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أحمد بن يحيى بن مالك السوسى، عن حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج، به. ورواه ابن مَرْدويه فى تفسيره من طريقين، عن حجاج بن أرطاة، عن الحكم بن عُتَيْبة[٣]، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: أنه قال: من السُّنَّة ألا يحرم [بالحج][٤] إلا فى أشهر الحج.

وقال ابن خزيمة فى صحيحه: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن شعبة، عن الحكم، عن مقْسَم، عن ابن عباس، قال: لا يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج فى أشهر الحج[٥]. وهذا إسناد صحيح، وقول الصحابى: «من السنة كذا» فى حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن، وهو ترجمانه.

وقد ورد فيه حديث مرفوع، قال[٦] ابن مردويه: حدثنا عبد الباقى بن قانع[٧]، حدثنا الحسن بن المُثَنى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان، عن أبى الزبير، عن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: «لا ينبغى لأحد أن يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج».

وإسناده لا بأس به. لكن[٨] رواه الشافعي، والبيهقى من طُرُق، عن ابن جريج، عن أبى الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل: أيُهَلّ بالحج قبل أشهر الحج؟ فقال: لا[٩].

وهذا الموقوف أصحّ وأثبت من المرفوع، ويبقى حينئذ مذهب صحابى، يتقوّى بقول ابن عباس: «من السنة أن لا يحرم بالحج إلا فى أشهره». والله أعلم.

وقوله: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾: قال البخارى: قال ابن عمر: هى شوال، وذو القَعْدة، وعشر من ذى الحجة[١٠]. وهذا الذى علقه البخارى عنه بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولا: حدثنا أحمد بن

---

(١) فى جـ: «إلا فى أشهر الحج». (٢) فى أ: «فى أشهر».
(٣) فى أ، و: «بن عيينة». (٤) زيادة من جـ.
(٥) صحيح ابن خزيمة برقم (٢٥٩٦).
(٦) فى جـ: «وقال». (٧) فى جـ: «بن نافع». (٨) فى جـ: «ولكن».
(٩) الأم للشافعى (٢/ ١٣٦) والسنن الكبرى للبيهقى (٤/ ٣٤٣).
(١٠) صحيح البخارى (٣/ ٤١٩) «فتح».

حازم بن أبى غَرْزة[١]، حدثنا أبو نعيم، حدثنا ورقاء، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ قال: شوال، وذو القعدة وعشر من ذى الحجة[٢].

إسناد[٣] صحيح، وقد رواه الحاكم أيضاً فى مستدركه، عن الأصم، عن الحسن بن على بن عفان، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله[٤]، عن نافع، عن ابن عمر ـ فذكره وقال: على شرط الشيخين[٥].

قلت: وهو مَرْوِىّ عن عُمَر، وعلىّ، وابن مسعود، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وإبراهيم النخَعى، والشعبى، والحسن، وابن سيرين، ومكحول، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيّان. وهو مذهب الشافعى، وأبى حنيفة، وأحمد بن حنبل، وأبى يوسف، وأبى ثَوْر، رحمهم الله. واختار هذا القول ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع[٦] على شهرين وبعض الثالث للتغليب، كما تقول العرب: «زرته العام، ورأيته اليوم». وإنما وقع ذلك فى بعض العام واليوم؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وإنما تعجل فى يوم ونصف.

وقال الإمام مالك بن أنس [والشافعى فى القديم][٧]: هى[٨] :شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله. وهو رواية عَن ابن عُمَر أيضاً؛ قال ابن جرير:

حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: شوال وذو القعدة وذو الحجة.

وقال ابن أبى حاتم فى تفسيره: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى ابن جريج، قال: قلت لنافع: أسمعت عبد الله بن عُمَر يسمى شُهُور الحج؟ قال: نعم، كان عبد الله يسمى: «شوال وذو القعدة وذو الحجة». قال[٩] ابن جريج: وقال ذلك ابن شُهاب، وعطاء، وجابر ابن عبد الله صاحب النبى ﷺ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن جريج. وقد حُكى هذا أيضاً عن طاوس، ومجاهد، وعروة بن الزبير، والربيع ابن أنس، وقتادة. وجاء فيه حديث مرفوع، ولكنه موضوع، رواه الحافظ بن مَرْدويه، من طريق حُصَين بن مخارق ـ وهو متهم بالوضع ـ عن يونس بن عبيد، عن شهر بن حَوْشَب، عن أبى أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحج أشهر معلومات: شوال وذو القعدة وذو الحجة»[١٠].

وهذا كما رأيت لا يَصح رفعه، والله أعلم.

وفائدة مذهب مالك أنّه إلى آخر ذى الحجة، بمعنى أنه مختص بالحج، فيكره الاعتمار فى بقية

---

(١) فى جـ: «بن أبى عزرة».
(٢) تفسير الطبرى (٤/ ١١٦).
(٣) فى جـ: «إسناده». (٤) فى هـ، أ: «عبد الله»، والصواب ما أثبتناه من جـ، ط، و.
(٥) المستدرك (٢/ ٢٧٦).
(٦) فى ط: «الجميع». (٧) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٨) فى جـ: «هو». (٩) فى جـ: «وقال».
(١٠) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (١٦٩٣) «مجمع البحرين» من طريق محمد بن ثواب عن حصين بن مخارق به.

ذى الحجة، لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن قيس بن مُسلم، عن طارق بن شهاب، قال: قال عبدُ الله: الحج أشهر معلومات، ليس فيها عمرة. وهذا إسناد صحيح.

قال ابن جرير: إنما أراد من ذَهَب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أنّ هذه الأشهر ليست أشهر العمرة، إنما هى للحج، وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى، كما قال محمد بن سيرين: ما أحد مِن أهل العلم يَشُكّ فى أن عمرة فى غير أشهر الحجّ أفضل من عمرة فى أشهر الحج.

وقال ابن عون: سألت القاسم بن محمد، عن العمرة فى أشهر الحج، فقال: كانوا لا يرونها تامة.

قلت: وقد ثبت عن عمر وعثمان، رضى الله عنهما، أنهما كانا يحبان[1] الاعتمار فى غير أشهر الحج، وينهيان عن ذلك فى أشهر الحج، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أى: أوجب بإحرامه حَجًا. فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضى فيه. قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفَرْض هاهنا الإيجاب والإلزام.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ يقول: من أحرم بحَجّ أو عمرة. وقال عطاء: الفرضُ الإحرامُ. وكذا قال إبراهيم، والضحاك، وغيرهم.

وقال ابن جُرَيج: أخبرنى عمر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه قال ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾: فلا ينبغى أن يلبى بالحج ثم يقيم بأرض. قال ابن أبى حاتم: وَرُوى عن ابن مسعود، وابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخعى، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، وسفيان الثورى، والزهرى، ومقاتل بن حَيّان ـ نحو ذلك.

وقال طاوس، والقاسمُ بن محمد: هو التلبية.

وقوله: ﴿فَلا رَفَثَ﴾ أى: من أحرم بالحَجِّ أو العمرة، فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكذلك يحرم تعاطى دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذا التكلم به بحضرة النساء.

قال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى يونس: أن نافعاً أخبره: أن عبد الله ابن عمر كان يقول: الرفثُ إتيانُ النساء، والتكلم بذلك: الرجالُ والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم.

قال ابن وهب: وأخبرنى أبو صخر، عن محمد بن كَعْب، مثله.

قال ابن جرير: وحدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن رجل، عن أبى العالية الرِّياحى، عن ابن عباس: أنه كان يحدو ـ وهو محرم ـ وهو يقول:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا   إنْ يَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنَلْ لَمِيسَا

قال أبو العالية فقلت: تكَلَّمُ بالرفث وأنت محرم؟! قال: إنما الرفث ما قيل عند النساء[2].

---

(١) فى أ: «يحثان».

(٢) تفسير الطبرى (٤/ ١٢٦).

ورواه الأعمش، عن زياد بن حصين، عن أبى العالية، عن ابن عباس، فذكره.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن أبى عدى، عن عَون[١]، حدثنى زياد بن حصين، حدثنى أبى حصين بن قيس، قال: أصْعَدْتُ مع ابن عباس فى الحاجِّ، وكنت خليلا له، فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عباس، فأخذ بذَنَب بعيره فجعل يلويه و[هو] [٢]يرتجز، ويقول:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بنَا هَمِيسَا إنْ يَصْدُق الطَّيْرُ نَنَل لَميسَا

قال: فقلت: أترفث وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما قيل عند النساء[٣].

وقال عبد الله بن طاوس، عن أبيه: سألت ابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ﴾ قال: الرفث التعريض بذكر الجماع، وهى العَرَابَة فى كلام العرب، وهو أدنى الرفث.

وقال عطاء بن أبى رباح: الرفثُ: الجماع، وما دونه من قول الفحش، وكذا قال عمرو بن دينار. وقال عطاء: كانوا يكرهون العَرَابة، وهو التعريض بذكر الجماع وهو مُحْرِم.

وقال طاوس: هو أن تقول للمرأة: إذا حَلَلْت أصبتُك. وكذا قال أبو العالية.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: الرفث: غِشْيان النساء والقُبَل والغَمْز، وأن يُعَرِّض لهَا بالفحش[٤] من الكلام، ونحو ذلك.

وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر: الرفثُ: غشيانُ النساء. وكذا قال سعيدُ بن جُبَير، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم، وأبو العالية، وعطاء، ومكحول، وعطاء بن يسار، وعطية، وإبراهيم النَّخَعى، والربيع والزهرى، والسدى، ومالك بن أنس، ومقاتل بن حَيَّان، وعبد الكريم بن مالك، والحسن، وقتادة والضحاك، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَلا فُسُوقَ﴾ قال مِقْسَم وغير واحد، عن ابن عباس: هى المعاصى. وكذا قال عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، وإبراهيم النَّخعى، والزهرى، ومكحول، وابن أبان، والربيع بن أنس، وعطاء بن يسار، وعطاء الخراسانى، ومقاتل بن حيان.

وقال محمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر[٥] قال: الفسوق: ما أصيبَ من معاصى الله به صَيْد أو غيره. وكذا روى ابن وهب، عن يونس، عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: الفسوق إتيانٌ معاصى الله فى الحرم.

وقال آخرون: الفسوقُ هاهنا السباب، قاله ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، ومجاهد، والسدى، وإبراهيم والحسن. وقد يتمسك لهؤلاء[٦] بما ثبت فى الصحيح[٧]: « سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر».

---

(١) فى جـ، ط، أ: « عن عوف ».
(٢) زيادة من جـ، ط، أ.
(٣) تفسير الطبرى (٤/١٢٦).
(٤) فى جـ: « يعرض لها الفحشاء »
(٥) فى جـ: « أن عبد الله بن عمر ».
(٦) فى جـ: « هؤلاء».
(٧) فى أ: « الصحيحين ».

ولهذا رواه هاهنا الحبرُ أبو محمد بن أبى حاتم، رحمه الله، من حديث سفيان الثورى عن يزيد[١] ،عن أبى وائل، عن عبد الله، عن النبى ﷺ قال: « سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[٢]. وروى من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه[٣]، ومن حديث أبى إسحاق عن محمد بن سعد عن أبيه[٤]][٥] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق هاهنا: الذبح للأصنام. قال الله تعالى: ﴿ **أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال الضحاك: الفسوق : التنابز بالألقاب.

والذين قالوا: الفسوق هاهنا هو جميع المعاصى، معهم الصواب، كما نهى تعالى عن الظلم فى الأشهر الحرم، وإن كان فى جميع السنة منهياً عنه، إلا أنه فى الأشهر الحرم آكَدُ؛ ولهذا قال:﴿ **مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ** ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال فى الحرم:﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الحج: ٢٥].

واختار ابن جرير أن الفسوق هاهنا: هو ارتكاب ما نُهى عنه فى الإحرام، من قتل الصيد، وحَلْق الشعر، وقَلْم الأظفار، ونحو ذلك، كما تقدم عن ابن عمر. وما ذكرناه أولى، والله أعلم. وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى حازم، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[٦].

وقوله: ﴿ **وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ فيه قولان:

أحدهما: ولا مجادلة فى وقت الحج وفى مناسكه، وقد بينه الله أتمّ بيان ووضحه أكمل إيضاح. كما قال وكيع، عن العلاء بن عبد الكريم: سمعت مجاهداً يقول: ﴿**وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ قد بين الله أشهر الحَج، فليس فيه جدال بين الناس.

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿**وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ قال: لا شهرَ يُنْسأ، ولا جدال فى الحج، قد تَبَيَّن، ثم ذكر كيفية ما كان المشركون يصنعون فى النسىء الذى ذمهم الله به.

وقال الثورى، عن عبد العزيز بن رُفَيع، عن مجاهد فى قوله: ﴿**وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ قال: قد استقام الحج، فلا جدَال فيه. وكذا قال السدى.

وقال هُشَيم: أخبرنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿ **وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ قال: المراء فى الحج.

(١) فى أ: « عن زيد» ، وفى و: «عن زبيد».
(٢) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠٤٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٦٣) من طريق منصور بن المعتمر عن أبى وائل به.
(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٣٤) والنسائى فى السنن (٧/ ١٢٢).
(٤) رواه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٩٤١).
(٥) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٦) صحيح البخارى برقم (١٥٢١) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٠).

وقال عبد الله بن وهب: قال مالك: قال الله تعالى: ﴿وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فالجدال فى الحج - والله ـ أعلم ـ أنّ قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، وكانت العرب، وغيرهم يقفون بعَرفَة، وكانوا يتجادلون، يقول هؤلاء: نحن أصوب. ويقول هؤلاء: نحن أصوب. فهذا فيما نرى، والله أعلم.

وقال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يقفُون موَاقف مختلفة يتجادلون، كُلّهم يدعى أن موقفه موقف إبراهيم فقطعه الله حين أعلم نَبيَّه بالمناسك.

وقال ابن وهب، عن أبى صخر، عن محمد بن كعب، قال: كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء: حجُّنا أتّم من حجكم. وقال هؤلاء: حجّنا أتم من حَجكم.

وقال حماد بن سلمة عن جبر[1] بن حبيب، عن القاسم بن محمد أنه قال: الجِدَال فى الحج أن يقول بعضهم: الحجّ غداً. ويقول بعضهم: اليوم.

وقد اختار ابن جرير مضمونَ هذه الأقوال، وهو قطع التنازع فى مناسك الحج.

والقول الثانى: أن المراد بالجدال هاهنا: المخاصمة.

قال ابن جرير: حدثنا عبد الحميد بن بيان[2]، حدثنا إسحاق، عن شريك، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ فى قوله: ﴿وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾. قال: أنْ تمارى صاحبك حتى تغضبه.

وبهذا الإسناد إلى أبى إسحاق، عن التميمى: سألت ابن عباس عن «الجدال» قال: المراء، تمارى صاحبك حتى تغضبه. وكذا روى مِقْسَم والضحاك، عن ابن عباس. وكذا قال أبو العالية، وعطاء ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، وعطاء الخراسانى، ومكحول، وعمرو بن دينار، والسدى، والضحاك، والربيع بن أنس، وإبراهيم النَّخَعى، وعطاء بن يسار، والحسن، وقتادة، والزهرى، ومقاتل بن حيّان.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال الجدال: المراء والملاحاة، حتى تغضب أخاك وصاحبك، فنهى الله عن ذلك.

وقال إبراهيم النخعى: ﴿وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قال: كانوا يكرهون الجدال. وقال محمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، قال: الجدال: السباب والمنازعة. وكذا روى ابن وهب، عن يونس، عن نافع: أن ابن عمر كان يقول: الجدال فى الحج: السباب، والمراء، والخصومات، وقال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن الزبير، والحسن، وإبراهيم، وطاوس، ومحمد بن كعب، قالوا: الجدال المراء.

وقال عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن بشر[3]، عن عكرمة: ﴿وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾: والجدال الغضب، أن تُغضب عليك مسلماً، إلا أن تستعتب مملوكاً فتُغْضبه من غير أن تضربه، فلا بأس عليك، إن شاء الله.

---

(١) فى جـ: «عن حسين»، وفى أ: «عن جبير». (٢) فى جـ: «بن سنان». (٣) فى أ: «بن بشير».

قلت: ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس، حدثنا محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه: أنّ أسماء بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجّاجاً، حتى إذا كنا بالعَرْج نزَل رسول الله ﷺ، فجلست عائشةُ إلى جنب رسول الله، وجلستُ إلى جَنْب أبي. وكانت[١] زِمَالَة أبي بكر وزِمَالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه، فأطْلَعَ وليس معه بعيره، فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضللتُه البارحة. فقال أبو بكر: بعير واحد تُضلّه؟ فطفق يضربه، ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول: «انظروا إلى هذا المُحْرِم ما يصنع؟».

وهكذا أخرجه أبو داود، وابن ماجة، من حديث ابن إسحاق[٢]. ومن هذا الحديث حكى بعضُهم عن بعض السلف أنه قال: من تمام الحج ضَرْبُ الجمال. ولكن يستفاد من قول النبي ﷺ عن أبي بكر: «انظروا إلى هذا المُحْرِم ما يصنع؟» ـ كهيئة الإنكار اللطيف ـ أن الأولى تركُ ذلك، والله أعلم.

وقد قال الإمام عبد بن حميد في مسنده: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن موسى بن عبيدة، عن أخيه عبد الله بن عبيدة[٣]، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضَى نُسُكَه وسلِم المسلمون من لسانه ويده، غفر له ما تقدم من ذنبه[٤]»[٥].

وقوله: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ : لما نهاهم عن إتيان القبيح قولا وفعلا، حثَّهم على فعل الجميل، وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزيهم عليه أوفرَ الجزاء يوم القيامة.

وقوله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: كان أناس يخرجون من أهليهم ليست[٦] معهم أزودة، يقولون: نَحُجُّ بيت الله ولا يطعمنا . . فقال الله: تزودوا[٧] ما يكف وجوهكم عن الناس.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة: قال: إن ناساً كانوا يحجون بغير زاد، فأنزل الله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ .

وكذا رواه ابن جرير عن عمرو ـ وهو الفَلاَّس[٨] ـ عن ابن عيينة.

قال ابن أبي حاتم: وقد روى هذا الحديث ورْقاء، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال: وما يرويه ابن عيينة أصح.

---

(١) في ط: «وكان».

(٢) المسند (٦/ ٣٤٤) وسنن أبي داود برقم (١٨١٨) وسنن ابن ماجة برقم (٢٩٣٣).

(٣) في جـ: «عن أخيه عن عبد الله».

(٤) في جـ: «ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٤٨) وموسى بن عبيدة ضعيف.

(٦) في جـ: «ليس».

(٧) في أ: «وتزودوا».

(٨) في جـ: «وهو ابن العلاء» وفي أ: «أبو الفلاس».

قلت: قد رواه النسائى، عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومى، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو ابن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس [قال][١]: كان نَاس يحجون بغير زاد، فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[٢]. وأما حديث ورقاء فأخرجه البخارى، عن[٣] يحيى بن بشر، عن[٤] شَبَابة[٥]. وأخرجه أبو داود، عن أبى مسعود أحمد بن الفرات الرازى، ومحمد بن عبد الله المُخَرِّمى، عن شبابة، عن ورقاء، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يَحُجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون[٦]. فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[٧].

ورواه عبد بن حميد فى تفسيره، عن شَبَابة [به][٨]. ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث شبابة، به.

وروى ابن جرير وابن مَرْدويه من حديث عَمْرو بن عبد الغفار [عن محمد بن سوقة] [٩]، عن نافع، عن ابن عمر، قال: كانوا إذا أحرموا ـ ومعهم أزوادهم ـ رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر[١٠]؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ فَنُهوا عن ذلك، وأمِرُوا أن يتزودوا الكعك والدقيق والسويق. وكذا قال ابن الزبير، وأبو العالية، ومجاهد، وعكرمة، والشعبى، والنخعى، وسالم بن عبد الله، وعطاء الخراسانى، وقتادة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان.

وقال سعيد بن جبير: فتزودوا[١١] الدقيق والسويق والكعك[١٢] وقال وكيع [بن الجراح][١٣] فى تفسيره: حدثنا سفيان، عن محمد بن سوقة[١٤]، عن سعيد بن جبير: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ قال: الخشكنانج والسويق. وقال وكيع أيضاً: حدثنا إبراهيم المكى، عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: إن من كَرَم الرجل طيب زاده فى السفر. وزاد فيه حماد بن سلمة، عن أبى ريحانة أنّ ابن عمر كان يشترط على من صحبه الجَوْزَة[١٥].

وقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾: لما أمرهم بالزاد للسفر فى الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]. لما ذكر اللباس الحسى نَبّه مرشداً إلى اللباس المعنوى، وهو الخشوع، والطاعة[١٦]، والتقوى، وذكر أنه خير من هذا، وأنفع.

قال عطاء الخراسانى فى قوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ يعنى: زاد الآخرة.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا عبدان، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا مروان بن

(١) زيادة من جـ.
(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٣٣).
(٣) فى ط: «حدثنا».
(٤) فى أ: «بن بشير نبا».
(٥) فى ط: «شبابة قال».
(٦) فى ط: «نحن متوكلون».
(٧) صحيح البخارى برقم (١٥٢٣) وسنن أبى داود برقم (١٧٣٠).
(٨) زيادة من أ، و.
(٩) زيادة من الطبرى.
(١٠) تفسير الطبرى (٤/١٥٦).
(١١) فى جـ، ط، و: «يتزودوا» وفى أ: «تزودوا».
(١٢) في أ: «كما بينه».
(١٣) زيادة من أ.
(١٤) فى جـ: «صوفة».
(١٥) فى ط، أ، و: «الجودة».
(١٦) فى أ: «الخشوع فى الطاعة».

معاوية، عن إسماعيل عن قيس، عن جرير بن عبد الله، عن النبى، ﷺ [قال][١]: «من يتزود فى الدنيا يَنْفَعه فى الآخرة»[٢].

وقال مقاتل بن حيان: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ قام رجل من فقراء المسلمين فقال: يا رسول الله، ما نجد زاداً نتزوده. فقال رسول ﷺ: «تزود ما تكف به وجهك عن الناس، وخير ماتزودتم التقوى». رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ يقول: واتقوا عقابى، ونكالى، وعذابى لمن خالفنى ولم يأتمر بأمرى، ياذوى العقول والأفهام.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ﴾.

قال البخارى: حدثنا محمد، أخبرنى ابن عيينة، عن عَمْرو، عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ ومَجَنَّة، وذو المجاز أسواق الجاهلية، فتأثّموا أن يتجروا فى المواسم[٣]، فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فى مواسم الحج[٤].

وهكذا رواه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وغير واحد، عن سفيان بن عيينة، به[٥].

ولبعضهم: فلما جاء الإسلام تأثموا أن يتجروا، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية. وكذلك[٦] رواه ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس، قال: كان متجر الناس فى الجاهلية عكاظُ ومَجَنّةُ وذو المجاز، فلما كان[٧] الإسلام كأنهم كرهوا ذلك، حتى نزلت هذه الآية.

وروى أبو داود، وغيره، من حديث يزيد بن أبى زياد، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كانوا يَتَّقون البيوع والتجارة فى الموسم، والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[٨].

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس: أنه قال: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج».

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية: لا حرج عليكم فى الشراء والبيع قبل

---

(١) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٢) المعجم الكبير (٢/ ٣٠٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣١١): «رجاله رجال الصحيح».

(٣) فى جـ، ط: «فى الموسم».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٥١٩).

(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٥) وسنن سعيد بن منصور برقم (٣٤٧).

(٦) فى ط: «وكذا». (٧) فى جـ، ط: «فلما جاء».

(٨) سنن أبى داود برقم (١٧٣١).

الإحرام وبعده. وهكذا رَوَى العوفى، عن ابن عباس.

وقال وَكِيع: حدثنا طلحة بن عمرو الحضرمى، عن عطاء، عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج». [وقال عبد الرزاق: عن أبيه عيينة، عن عبيد الله بن أبى يزيد: سمعت ابن الزبير يقول: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج»][1].

ورواه عبد بن حميد، عن محمد بن الفضل، عن حماد بن زيد، عن عبيد الله[2] بن أبى يزيد، سمعت ابن الزبير يقرأ[3] ـ فذكر مثله سواء[4]. وهكذا فسرها مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومنصور بن المعتمر، وقتادة، وإبراهيم النخعى، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا شبابة بن سَوّار، حدثنا شعبة، عن أبى أميمة[5] قال: سمعت ابن عمر ـ وسُئِل عن الرجل يحجُّ ومعه تجارة ـ فقرأ ابن عمر: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُم** ﴾.

وهذا موقوف، وهو قوى جيد[6]. وقد روى مرفوعاً قال أحمد: حدثنا [أحمد بن][7] أسباط، حدثنا الحسن بن عَمْرو الفُقَيمى، عن أبى أمامة التيمى، قال: قلت لابن عمر: إنا نُكْرَى، فهل لنا من حج، قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المُعَرَّفَ، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قال: قلنا[8]: بلى. فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى فلم يجبه، حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُم** ﴾، فدعاه النبى ﷺ، فقال: «أنتم حجاج»[9].

وقال[10] عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن العلاء بن المسيب، عن رجل من بنى تيم الله قال: جاء رَجُل إلى عبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنا قوم نُكْرَى، ويزعمون أنه ليس لنا حج. قال: ألستم تحرمون كما يحرمون، وتطوفون كما يطوفون، وترمون كما يرمون؟ قال: بلى. قال: فأنت حاج[11]. ثم قال ابن عمر: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فسأله عما سألت عنه، فنزلت هذه الآية: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُم** ﴾[12].

ورواه عَبْد [بن حميد فى تفسيره][13]، عن عبد الرزاق به. وهكذا روى هذا الحديث ابن[14]

---

(١) زيادة من جـ، ط، و. (٢) فى جـ: « عبد الله ». (٣) فى جـ: « يقول ».
(٤) فى و: يقرأ: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج».
(٥) فى جـ، ط: « عن أبى أمامة ». (٦) فى أ: « جداً ». (٧) زيادة من أ.
(٨) فى ط: « قال: قلت ».
(٩) المسند (٢/ ١٥٥).
(١٠) فى جـ، ط، أ، و: « وقد قال ». (١١) فى جـ: « فأنتم حجاج ».
(١٢) ورواه الطبرى فى تفسيره (٤/ ١٦٩) من طريق عبد الرزاق به.
(١٣) زيادة من و. (١٤) فى جـ ، ط ، أ ، و : «أبو» .

حذيفة، عن الثورى، مرفوعاً. وهكذا روى من غير هذا الوجه مرفوعاً[١].

وقال[٢] ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عباد بن العوام، عن العلاء بن المسيب، عن أبى أمامة التيمى، قال: قلت لابن عمر: إنا أناس نُكْرَى فى هذا الوجه إلى مكة، وإن ناساً يزعمون أنّه لا حَجّ لنا، فهل ترى لنا حجاً؟ قال: ألستم تحرمون، وتطوفون بالبيت، وتقفون[٣] المناسك؟ قال: قلت: بلى. قال: فأنتم حجاج. ثم قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن [مثل][٤] الذى سألت، فلم يَدْرِ ما يعود عليه ـ أو قال: فلم يَرُدّ عليه شيئاً ـ حتى نزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُم ﴾ فدعا الرجل، فتلاها عليه، وقال: « أنتم حجاج »[٥].

وكذا رواه مسعود بن سعد، وعبد الواحد بن زياد، وشَرِيك القاضى، عن العلاء بن المسيب به مرفوعاً.

وقال ابن جرير: حدثنى طليق[٦] بن محمد الواسطى، حدثنا أسباط ـ هو ابن محمد ـ أخبرنا الحسن بن عَمْرو ـ هو الفقَيْمى ـ عن أبى أمامة التيمى. قال: قلت لابن عمر: إنا قوم نُكْرَى، فهل لنا من حج؟ فقال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المُعَرّف، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قلنا: بلى. قال[٧]: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فسأله عن الذى سألتنى عنه، فلم يدر ما يقول له، حتى نزل جبريل، عليه السلام، بهذه الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُم ﴾ إلى آخر الآية، فقال النبى ﷺ: « أنتم حجاج »[٨].

وقال ابن جرير: حدثنى أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا مَنْدل، عن عبد الرحمن بن المهاجر، عن أبى صالح مولى عمر، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون فى الحج؟ قال: وهل كانت معايشهم إلا فى الحج؟

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾.

إنما صرَفَ « عرفات » وإن كان علَمًا على مؤنث؛ لأنه فى الأصل جَمْع كمسلمات ومؤمنات، سمى به بقعة معينة، فروعى فيه الأصل، فصرف. اختاره ابن جرير.

وعرفة: موضع الموقف[٩] فى الحج، وهى عمدة أفعال الحج؛ ولهذا روى الإمام أحمدُ، وأهل السنن، بإسناد صحيح، عن الثورى، عن بكير بن[١٠] عطاء، عن عبد الرحمن بن يَعْمر الديلى،

---

(١) وانظر ذكر هذه الطرق فى: حاشية الشيخ سعد الحميد على سنن سعيد بن منصور برقم (٣٥٢) فقد أجاد وأفاد، ولولا خشية الإطالة لنقلته ههنا.

(٢) فى جـ، ط، أ، و: « فقال ». (٣) فى جـ، ط، أ، و: «تقضون». (٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٥) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (٣٠٥١) من طريق مروان بن معاوية عن العلاء بن المسيب به، ورواه أبو داود فى السنن برقم (١٧٣٣) من طريق عبد الواحد بن زياد عن العلاء بن المسيب به.

(٦) في جـ : «طلق» . (٧) فى جـ ، ط : « فقال ».

(٨) تفسير الطبرى (٤/ ١٦٤).

(٩) فى جـ، ط، و: « موضع الوقوف »، وفى أ: « مواضع الوقوف ».

(١٠) فى جـ، ط، أ، و: «عن» والمثبت من أ.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات ـ ثلاثاً ـ فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك. وأيام منى ثلاثة[١]، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه»[٢].

ووقت الوقوف من الزوال يومَ عرفة إلى طُلُوع الفجر الثانى من يوم النحر؛ لأنّ النبىّ ﷺ وقف فى حجة الوداع، بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال: «لتأخُذوا عنى مناسككم»[٣].

وقال فى هذا الحديث: «فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» وهذا مذهب مالك، وأبى حنيفة، والشافعى رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عَرَفَة. واحتجوا بحديث الشعبى، عن عروة بن مُضَرِّس بن حارثة بن لام[٤] الطائى قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة، حين خرج إلى الصلاة، فقلت: يا رسول الله، إنى جئت من جَبَلَىْ[٥] طيئ، أكللت[٦] راحلتى، وأتعبت نفسى، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لى من حَج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من شَهِد صلاتنا هذه، فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلا أو نهاراً، فقد تم حَجّه، وقضى تَفَثَه».

رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى[٧].

ثم قيل: إنما سميت عَرَفَات لما رواه عبد الرزاق: أخبرنى ابن جريج قال: قال ابن المسيب: قال على بن أبى طالب: بعث الله جبريل، عليه السلام، إلى إبراهيم، عليه السلام، فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد[٨] أتاها مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عَرَفَة.

وقال ابن المبارك، عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء، قال: إنما سميت عرفة، أنّ جبريل كان يُرِى إبراهيم المناسك، فيقول: عَرَفْتُ عَرَفْتُ. فسمى «عرفات». وروى نحوه عن ابن عباس، وابن عمر وأبى مِجْلَز، فالله أعلم.

وتسمى عرفات المشعر الحلال، والمشعر[٩] الأقصى، والإل ـ على وزن هلال ـ ويقال للجبل فى وسطها: جَبَلُ الرحمة. قال أبو طالب فى قصيدته المشهورة:

وبالمشعَرِ الأقصى إذا قَصَدوا له ... إلال إلى تلك الشِّراج القَوَابل[١٠]

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا حماد بن الحسن بن عَنْبَسَة، حدثنا أبو عامر، عن زمعة ـ هو ابن

---

(١) فى أ: «ثلاث».

(٢) المسند (٤/ ٣٣٥) وسنن أبى داود برقم (١٩٤٩) وسنن الترمذى برقم (٢٩٧٥) وسنن النسائى (٥/ ٢٦٤) وسنن ابن ماجة برقم (٣٠١٥).

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢٩٧) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٤) فى جـ: «ابن الإمام». (٥) فى جـ، ط، أ: «من جبل». (٦) فى جـ: «أظللت».

(٧) المسند (٤/ ١٥) وسنن أبى داود برقم (١٩٥٠) وسنن الترمذى برقم (٨٩١) وسنن النسائى (٥/ ٢٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (٣٠١٦).

(٨) فى جـ: «وقد كان». (٩) فى ط: «المشعر الحرام».

(١٠) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٧٤).

صالح ـ عن سلمة ـ هو ابن وَهْرَام[١] ـ عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال، كأنها العمائم على رؤوس الرجال، دفعوا، فأخر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس.

ورواه ابن مَرْدُويه، من حديث زمعة بن صالح، وزاد: ثم وقف بالمزدلفة، وصلى الفجر بغَلَس، حتى إذا أسفر[٢] كلّ شيء، وكان في الوقت الآخر، دفع. وهذا حَسَنُ الإسناد.

وقال ابن جُرَيْج، عن محمد بن قيس، عن المِسْوَر بن مَخْرَمة قال: خَطَبنا رسولُ الله ﷺ، وهو بعرفات، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «أما بعد ـ وكان إذا خطب خطبة قال: أما بعد ـ فإن هذا اليوم الحجَ الأكبر، ألا وإن أهلَ الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس، إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال، كأنها عمائم الرجال في وجوهها، وإنا ندفع بعد أن تغيب الشمس، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس، إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس، مُخَالفاً هَدْيُنَا هَدْى أهل الشرك».

هكذا رواه ابن مَرْدُيَه وهذا لفظه، والحاكم في مستدركه، كلاهما من حديث عبد الرحمن بن المبارك العيشي، عن عبد الوارث بن سعيد، عن ابن جريج، به. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. قال: وقد صح وثَبَت بما ذكرناه سماع المِسْوَر من رسول الله ﷺ، لا كما يتوهمه رعاع أصحابنا أنّه ممن له رؤية[٣] بلا سماع[٤].

وقال وكِيع، عن شعبة، عن إسماعيل بن رجاء [الزبيدي][٥]، عن المعرور بن سويد، قال: رأيت عمر، رضى الله عنه، حين دفع من عرفة، كأنى أنظر إليه رجُلا أصلع على بعير له، يُوضِع[٦]، وهو يقول: إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاع.

وفي حديث جابر بن عبد الله الطويل، الذي في صحيح مسلم، قال فيه: فلم يزل واقفاً ـ يعني بعرفة ـ حتى غربت الشمس، وذهبت[٧] الصُّفْرَة قليلا، حتى غاب القُرْصُ، وأردف أسامة خلفه، ودفعَ رسول الله ﷺ وقد شَنَقَ للقصواء الزّمام، حتى إنّ رأسها ليصيب مَوْرك رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس، السكينة السكينة». كلما أتى جبلا من الجبال أرْخَى لها قليلا حتى تصعد، حتى أتى المُزْدَلِفة فصلَّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسَبِّحْ بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجرُ فصلى الفجر حين تَبَيَّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعرَ الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهلَّله ووحَّده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلُع الشمس[٨]. وفي الصحيح[٩]، عن أسامة بن زيد، أنه سُئِل كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دَفَع؟

---

(١) في جـ: «هو ابن هشام». (٢) في أ: «إذا استقر».
(٣) في جـ: «ممن له رواية».
(٤) المستدرك (٢/ ٢٧٧).
(٥) زيادة من و. (٦) في أ: «فوضع». (٧) في جـ، ط، أ، و: «وبدت».
(٨) صحيح مسلم برقم (١٢١٨). (٩) في جـ، ط، أ، و: «وفي الصحيحين».

قال: «كان يسير العَنَق، فإذا وجد فَجْوَة نَص»[١]. والعنق: هو انبساط السير، والنَّص، فوقه.

وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبو محمد ابن بنت الشافعى، فيما كَتَب إلىّ، عن أبيه أو عمه، عن سفيان بن عيينة قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وهى الصلاتين[٢] جميعاً.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعى، عن عمرو بن ميمون: سألت عبد الله بن عَمْرو عن المشعر الحرام، فسكت حتى إذا هبطت أيدى رواحلنا بالمزدلفة قال: أين السائل عن المشعر الحرام؟ هذا المشعر الحرام.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن سالم قال: قال ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها[٣].

وقال هُشَيم، عن حجاج[٤]، عن نافع، عن ابن عمر: أنه سئل عن قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ قال: فقال: هو الجبل وما حوله.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن المغيرة، عن إبراهيم قال: رآهم ابن عُمَر يزدحمون على قُزَحَ، فقال: عَلَام يزدحم هؤلاء؟ كل ما هاهنا مشعر[٥].

وروى عن ابن عباس، وسعيد بن جُبير، وعكرمة، ومجاهد، والسدى، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أين المزدلفة؟ قال: إذا أفَضْت[٦] من مَأزمى عرفة فذلك إلى مُحَسِّر. قال: وليس المأزمان مَأزما عرفة من المزدلفة، ولكن مُفَاضَاهما[٧]. قال: فقِف[٨] بينهما إن شئت، قال: وأحب أن تَقفَ دون قُزَح، هَلُمّ إلينا من أجل طريق الناس.

قلت: والمشاعر هى المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام؛ لأنها داخل الحرم، وهل الوقوف بها ركن فى الحج لا يصح إلا به، كما ذهب إليه طائفة من السلف، وبعض أصحاب الشافعى، منهم: القفال، وابن خُزَيمة، لحديث عُرْوة بن مُضَرِّس؟ أو واجب، كما هو أحد قولى الشافعى يجْبَر بدم؟ أو مستحب لا يجب[٩] بتركه شىء كما هو القول الآخر؟ فى ذلك ثلاثة أقوال للعلماء، لبسطها موضع آخر غير هذا، والله أعلم.

---

(١) صحيح البخارى برقم (١٦٦٦، ٤٤١٣) وصحيح مسلم برقم (١٢٨٦).

(٢) كذا فى جـ، ط، وهو خطأ، والصواب: «الصلاتان».

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٤/ ١٧٦) من طريق عبد الرزاق به.

(٤) فى جـ: «عن الحجاج».

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٤/ ١٧٧، ١٧٨) من طريق عبد الرزاق به.

(٦) فى جـ، ط: «إذا أفضيت»، وفى أ: «إذا قضيت».

(٧) فى أ، و: «مقضاهما».

(٨) فى جـ: «فتقف».

(٩) فى جـ: «لا يجبره».

وقال عبد الله بن المبارك، عن سفيان الثورى، عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: «عَرَفَةُ كلها موقف، وارفعوا عن عُرَنَة[١]، وجَمْع كلها مَوقف إلا مُحَسراً»[٢].

هذا حديث مرسل. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، حدثنى سليمان بن موسى، عن جبير بن مطعم[٣]، عن النبى ﷺ: قال: «كل عرفات موقف، وارفعوا عن عُرَنة[٤]. وكل مزدلفة موقف وارفعوا عن مُحَسِّر، وكل فجاج مكة مَنْحر، وكل أيام التشريق ذبح»[٥].

وهذا أيضاً منقطع، فإن سليمان بن موسى هذا ـ وهو الأشدق ـ لم يدرك جُبَير بن مطعم. ولكن رواه الوليد بن مسلم، وسويد بن عبد العزيز، عن سعيد بن عبد العزيز، عن سليمان، فقال الوليد: عن ابن لجبير[٦] بن مطعم، عن أبيه. وقال سويد: عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن النبى ﷺ، فذكره، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾: تنبيه لهم على ما أنعَم به عليهم، من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج، على ما كان عليه إبراهيم الخليل، عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ قيل: من قبل هذا الهدى، وقبل القرآن، وقبل الرسول. والكل متقارب، ومتلازم، وصحيح.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

«ثم» هاهنا لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يَدْفَع إلى المزدلفة، ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فيقفون فى طرف الحرم عند أدنى الحِل[٨]، ويقولون: نحن أهل الله فى بلدته، وقُطَّان بيته.

وقال البخارى: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا محمد بن حازم، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسَمّون الحُمْس، وكان[٨] سائر العرب يقفون بعرفات. فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتىَ عرفات، ثم يقف بها ثم يُفيض

---

(١) فى أ، و: «عن عرفة».

(٢) رواه الطبرى فى التفسير (٤/ ١٧٩) وقد جاء موصولا من حديث جابر رضى الله عنه، ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٠١٢) وأصله فى صحيح مسلم برقم (١٢١٨) أ.هـ مستفاداً من حاشية الشيخ أحمد شاكر على تفسير الطبرى.

(٣) فى ط: «عن جبير بن مطعم عن أبيه».

(٤) فى أ: «عرفات» وفى و: «عرنات».

(٥) المسند (٤/ ٨٢).

(٦) فى أ: «عن جبير».

(٧) فى أ: «الجبل».

(٨) فى جـ، ط، أ: «وكانت».

منها، فذلك قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾(١).

وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، والسدى، وغيرهم. واختاره ابن جرير، وحكى عليه الإجماع، رحمهم الله.

وقال الإمام أحمد، حدثنا سُفْيان، عن عمرو، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: أضللتُ بعيراً لى بعرفة، فذهبت أطلبه، فإذا النبى ﷺ واقف، قلت: إن هذا من الحَمْس(٢)، ما شأنه هاهنا؟

أخرجاه فى الصحيحين(٣). ثم روى البخارى من حديث موسى بن عقبة، عن كُرَيب، عن ابن عباس ما يقتضى أنّ المراد بالإفاضة هاهنا هى الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمى الجمار(٤). فالله أعلم. وحكاه ابنُ جرير، عن الضحاك بن مزاحم فقط. قال: والمراد بالناس: إبراهيم، عليه السلام. وفى رواية عنه: الإمام. قال ابن جرير(٥): ولولا إجماعُ الحجة على خلافه لكان هو الأرجح.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات؛ ولهذا ثبت فى صحيح مسلم أنّ رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثاً. وفى الصحيحين أنّه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير، ثلاثاً وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين(٦).

وقد روى ابن جرير هاهنا حديث(٧) ابن عباس(٨) بن مرداس السلمى فى استغفاره، عليه السلام، لأمته عَشِيَّةَ عرفة، وقد أوردناه(٩) فى جُزْء جمعناه فى فضل يوم عرفة(١٠).

وأورد ابن مَرْدويه هاهنا الحديث الذى رواه البخارى، عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شَرّ ما صنعت، أبوءُ لك بنعمتك عَلَىّ، وأبوء بذنبى، فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها فى ليلة فمات فى ليلته دخل الجنة، ومن قالها فى

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٢٠).
(٢) فى أ: «الحميس».
(٣) المسند (٤/ ٨٠) وصحيح البخارى برقم (١٦٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٢٢٠).
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٥٢١).
(٥) فى جـ: «ابن جريج».
(٦) فى جـ: «ثلاث وثلاثين وثلاث وثلاثين».
(٧) فى ط: «ههنا حديثاً حديث».
(٨) فى ط: «حديث العباس».
(٩) فى جـ: «أفردناه».
(١٠) قال الطبرى فى تفسيره (٤/ ١٩٢): «حدثنى إسماعيل بن سيف العجلى قال: حدثنا عبد القاهر بن السرى السلمى قال: حدثنا ابن كنانة ـ ويكنى أبا كنانة ـ عن أبيه، عن العباس بن مرداس السلمى قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوت الله يوم عرفة أن يغفر لأمتى ذنوبها، فأجابنى: أنْ قد غفرتُ، إلا ذنوبها بينها وبين خلقى، فأعدت الدعاء يومئذ، فلم أجب بشىء، فلما كان غداة المزدلفة قلت: يارب، إنك قادر أن تعوض هذا المظلوم من ظلامته وتغفر لهذا الظالم. فأجابنى: أنْ قد غفرتْ» قال: فضحك رسول الله ﷺ، قال: فقلنا: يا رسول الله، رأيناك تضحك فى يوم لم تكن تضحك فيه!! قال: «ضحكت من عدو الله إبليس لما سمع بما سمع، إذ هو يدعو بالويل والثبور، ويضع التراب على رأسه».

يومه فمات دخل الجنة»[١].

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عَمْرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علّمنى دعاء أدعو به فى صلاتى؟ فقال: «قل: اللهمّ إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مَغْفِرةً مِن عندك وارحمنى، إنَّك أنت الغفور الرحيم»[٢].

والأحاديث فى الاستغفار كثيرة.

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) ﴾.

يأمرُ تعالى بذكره والإكثار منه بعد قَضَاء المناسك وفراغها.

وقوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾: اختلفوا فى معناه، فقال ابن جُرَيج، عن عطاء: هو[٣] كقول الصبى: «أبَهْ أمَّهْ»، يعنى: كما يَلْهَج الصبى بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم، فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك. وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس. وروى ابنُ جرير من طريق العوفى، عن ابن عباس ـ نحوه.

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس [قال][٤]: كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم[٥]، فيقول الرجل منهم: كان أبى يطعم ويحمل الحَمَالات [ويحمل الديات][٦]. ليس لهم ذكر غير فَعَال آبائهم. فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

قال ابن أبى حاتم: ورُوى عن أنس بن مالك، وأبى وائل، وعطاء بن أبى رباح فى أحد قوليه، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة فى إحدى رواياته، ومجاهد، والسدى، وعطاء الخراسانى، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك. وهكذا حكاه ابن جرير أيضاً عن جماعة، والله أعلم.

والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل؛ ولهذا كان انتصاب قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد منه ذكراً. و«أو» هاهنا لتحقيق المماثلة فى الخبر، كقوله: ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٠٦).
(٢) صحيح البخارى برقم (٧٣٧٨) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٥).
(٣) فى جـ: «وهو».
(٤) زيادة من جـ، ط.
(٥) فى أ: «فى المواسم».
(٦) زيادة من أ، و.

[النساء: ٧٧]، ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]. فليست هاهنا للشك قطعاً، وإنما هى لتحقيق الخبر عنه بأنه كذلك أو أزيد منه. ثم إنه تعالى أرشد إلى دُعَائه بعد كثرة ذكره، فإنه مظنة الإجابة، وذَمَّ من لا يسأله إلا فى أمر دنياه، وهو معرض عن أخراه، فقال: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أى: مِنْ نَصِيب ولا حظ. وتضمَّن هذا الذمّ التنفير عن التشبه[١] بمن هو كذلك. قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غَيث وعام خصْب وعام ولاد حسن. لا يذكرون[٢] من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن[٣] يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون [من المؤمنين][٤] فيقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فأنزل الله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ولهذا مدح من يسأله للدنيا والأخرى، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فجمعت هذه الدعوةُ كلَّ خير فى الدنيا، وصرفت كلّ شر، فإن الحسنة فى الدنيا تشملُ كلّ مطلوب دنيوى، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنىء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عباراتُ المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة فى الحسنة فى الدنيا. وأما الحسنة فى الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن[٥] من الفزع الأكبر فى العَرَصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه فى الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام[٦].

وقال القاسم بن[٧] عبد الرحمن: من أعطى قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابراً، فقد أوتى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة، ووقى عذاب النار.

ولهذا وردت السنة بالترغيب فى هذا الدعاء. فقال البخارى: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، عن عبد العزيز، عن أنس بن مالك قال: كان النبى ﷺ يقول: «اللّهم ربَّنا، آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس[٩] قال: كان أكثر دعوة يدعو بها رسول الله ﷺ [يقول][١٠]: «اللهم ربَّنا، آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، وقنا عذا النار»[١١].

---

(١) فى أ: «عن التشبيه».
(٢) فى جـ: «لا يذرون».
(٣) فى و: «فمن الناس من» وهو الصواب.
(٤) زيادة من أ، و.
(٥) فى جـ: «وتوابع ذلك الأمن».
(٦) فى جـ: «فى الحرام»، وفى أ: «واجتناب الحرام».
(٧) فى أ، و: «قال القاسم أبو».
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٥٢٢).
(٩) فى و: «حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال: سأل قتادة أنساً: أى دعوة كان أكثر يدعو بها النبى ﷺ؟».
(١٠) زيادة من و.
(١١) المسند (٣/ ١٠١).

[وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه][١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد السلام بن شداد ـ يعنى أبا طالوت ـ قال: كنت عند أنس بن مالك، فقال له ثابت: إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم. فقال: اللهم آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار. وتحدثوا ساعة حتى إذا أرادوا القيام، قال[٢]: يا أبا حمزة، إن إخوانك يريدون القيام فادع لهم فقال: تريدون أن أشَقِّقَ لكم الأمور، إذا آتاكم الله فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن أبى عدى، عن حميد، [وعبد الله بن بكر السهمى، حدثنا حميد][٣] عن أنس، أن رسول الله ﷺ عاد رَجُلا من المسلمين قد صار مثل الفَرْخ. فقال له رسول الله ﷺ: «هل تدعو[٤] الله بشىء أو تسأله إيَّاه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! لا تطيقه ـ أو لا تستطيعه ـ فهلا قلت: ﴿ربَّنا[٥] آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾». قال: فدعا الله، فشفاه.

انفرد بإخراجه مسلم، فرواه من حديث ابن أبى عدى ـ به[٦].

وقال الإمام الشافعى: أخبرنا سعيد بن سالم القداح، عن ابن جريج، عن يحيى بن عبيد ـ مولى السائب ـ عن أبيه، عن عبد الله بن السائب: أنه سمع النبى ﷺ يقول فيما بين الركن اليمانى والركن الأسود: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٧]. ورواه الثورى عن ابن جريج كذلك.

وروى ابن ماجة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، نحو ذلك. وفى سنده ضعف[٨]، والله أعلم.

وقال ابن مَرْدويه: حدثنا عبد الباقى، أخبرنا أحمد بن القاسم بن مساور، حدثنا سعيد بن سليمان، عن إبراهيم بن سليمان، عن عبد الله بن هرمز، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكاً يقول: آمين. فإذا مررتم عليه فقولوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾».

---

(١) زيادة من أ، و. (٢) فى أ: «قالوا».
(٣) زيادة من مسند الإمام أحمد (٣/ ١٠٧).
(٤) فى جـ، ط: «هل كنت تدعو».
(٥) فى جـ، ط: «اللهم» وهو خطأ.
(٦) المسند (٣/ ١٠٧).
(٧) ورواه البغوى فى شرح السنة (٧/ ١٢٨) من طريق الشافعى به. ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٠٠١) «موارد» من طريق يحيى القطان عن ابن جريج به نحوه.
(٨) سنن ابن ماجة برقم (٢٩٥٧).

وقال الحاكم في مستدركه: أخبرنا أبو زكريا العنبرى، حدثنا محمد بن عبد السلام، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، عن الأعمش، عن مُسْلم البطين، عن سعيد بن جبير قال: جاء رَجُل إلى ابن عباس فقال: إنى أجرت نفسى من قوم على أن يحملونى، ووضعت لهم من أجرتى على أن يَدعُونى أحج معهم، أفيجزى ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله [فيهم][1]: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[2].

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) ﴾ .

قال ابن عباس: «الأيام المعدودات» أيام التشريق، و«الأيام المعلومات» أيام العَشْر. وقال عكرمة: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ يعنى: التكبير أيامَ التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر، الله أكبر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا موسى بن على، عن أبيه، قال: سمعت عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم عَرَفَة ويوم النحر وأيام التشريق عيدُنا أهل الإسلام، وهى أيام أكل وشرب»[3].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هُشَيم، أخبرنا خالد، عن أبى المليح، عن نُبَيْشة الهذلى قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيامُ أكل وشرب وذكر الله». رواه[4] مسلم أيضاً[5]، وتقدم حديث جبير بن مطعم: «عَرَفَة كلها موقف، وأيام التشريق كلها ذبح». وتقدم [أيضاً][6] حديث عبد الرحمن ابن يَعْمَر الدِّيلى[7]: «وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه».

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم وخلاد بن أسلم، قالا: حدثنا هُشَيْم، عن عَمْرو بن أبى سلمة، عن أبيه، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق أيام طُعْم وذكر[8]»[9].

وحدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا رَوْح، حدثنا صالح، حدثنى ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حُذَافة يطوف فى منى: «لا تصوموا هذه الأيام، فإنها أيام أكل وشرب، وذكر الله، عز وجل»[10].

---

(١) زيادة من جـ.
(٢) المستدرك (٢/ ٢٧٧).
(٣) المسند (٤/ ١٥٣).
(٤) فى جـ، ط: «ورواه».
(٥) المسند (٥/ ٧٥) وصحيح مسلم برقم (١١٤١).
(٦) زيادة من و. (٧) فى أ: «معمر الديلمى». (٨) فى جـ، ط، أ، و: «وذكر الله».
(٩، ١٠) تفسير الطبرى (٤/ ٢١١).

وحدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيم، عن سفيان بن حسين، عن الزهرى، قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة، فنادى فى أيام التشريق فقال: «إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر الله، إلا من كان عليه صَوْم من هَدْى».

زيادة حسنة ولكن مرسلة. وبه قال هُشَيم، عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عمرو بن دينار: أن رسول الله ﷺ بعث بِشْرَ بن سحيم، فنادى فى أيام التشريق فقال: «إن هذه الأيام أيام أكل وشرب وذكر الله».

وقال هُشَيم، عن ابن أبى ليلى، عن عطاء، عن عائشة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق، قال: «هى أيام أكل وشرب وذكر الله».

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم، عن مسعود بن الحاكم الزُّرَقى، عن أمه قالت: لكأنى[1] أنظر إلى علىّ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، حتى وقف[2] على شعب الأنصار وهو يقول: «يا أيها الناس، إنها ليست بأيام صيام، إنما هى أيام أكل وشرب وذكر»[3].

وقال مِقْسَم عن ابن عباس: الأيام المعدودات: أيام التشريق، أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة [أيام][4] بعده. ورُوى عن ابن عمر، وابن الزبير، وأبى موسى، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد ابن جُبَير، وأبى مالك، وإبراهيم النخَعى، [ويحيى بن أبى كثير][5] والحسن، وقتادة، والسدى، والزهرى، والربيع بن أنس، والضحاك، ومقاتل بن حيّان، وعطاء الخراسانى، ومالك بن أنس، وغيرهم ـ مثل ذلك.

وقال على بن أبى طالب[6]: هى ثلاثة، يوم النحر ويومان بعده، اذبح فى أيِّهنّ شئت، وأفضلها أولها.

والقول الأول هو المشهور وعليه دل ظاهر الآية الكريمة، حيث قال: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر.

ويتعلق بقوله: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ ذكرُ الله على الأضاحى، وقد تقدم، وأن الراجح فى ذلك مذهب الشافعى، رحمه الله، وهو أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق. ويتعلق به أيضاً الذكر المؤقت خلف الصلوات، والمطلق فى سائر الأحوال. وفى وقته أقوال[7] للعلماء، وأشهرها الذى عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق، وهو آخر النَّفْر الآخِر. وقد جاء فيه حديث رواه الدارقطنى، ولكن لا يصح مرفوعا[8]. والله أعلم. وقد ثبت أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كان يكبر فى قبته، فيكبر أهل السوق

---

(١) فى أ: «وكأنى». (٢) فى أ: «حتى وقفت».

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٤/ ٢١٣) من طريق ابن علية عن ابن إسحاق به.

(٤، ٥) زيادة من أ، و. (٦) فى أ: «وقال على بن أبى طلحة رضى الله عنه».

(٧) فى جـ: «وفيه أقوال».

(٨) سنن الدارقطنى (٢/ ٤٩، ٥٠) من طرق عن جابر رضى الله عنه.

بتكبيره، حتى ترتج منى تكبيراً.

ويتعلق بذلك أيضاً التكبيرُ وذكر الله عند رمى الجمرات كلّ يوم من أيام التشريق. وقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود وغيره: «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار، لإقامة ذكر الله عز وجل»(١).

ولما ذكر الله تعالى النَّفْر الأول والثانى، وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم فى المشاعر والمواقف، قال: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [أى: تجتمعون يوم القيامة](٢)، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) ﴾.

قال السدى: نزلت فى الأخنس بن شَرِيق الثقفى، جاء إلى رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام وفى باطنه خلاف ذلك. وعن ابن عباس: أنها نزلت فى نفر من المنافقين تكلموا فى خُبَيب وأصحابه الذين قتلوا بالرَّجيع وعابوهم، فأنزل الله فى ذم المنافقين ومدح خُبَيب وأصحابه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**﴾.

وقيل: بل ذلك عام فى المنافقين كلهم وفى المؤمنين كلهم. وهذا قول قتادة، ومجاهد، والرّبيع ابن أنس، وغير واحد، وهو الصحيح.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى الليث بن سعد، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبى هلال، عن القرظى، عن نَوْف ـ وهو البكالى، وكان ممن يقرأ الكتب ـ قال: إنى لأجد صفة ناس من هذه الأمة فى كتاب الله المنزل: قَوم يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمَرّ من الصَّبر، يلبسون للناس(٣) مُسوك الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله تعالى: فعلىّ يجترئون! وبى يغترون! حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها(٤) حيران. قال القرظى: تدبرتها فى القرآن، فإذا هم المنافقون، فوجدتها: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ**﴾ الآية.

وحدثنى محمد بن أبى معشر، أخبرنى أبى أبو معشر نَجيح قال: سمعت سعيداً المقبرى يذاكر محمد بن كعب القرظى، فقال سعيد: إن فى بعض الكتب: إنّ [لله](٥) عباداً ألسنتهم أحلى من

---

(١) سنن أبى داود برقم (١٨٨٨).
(٢) زيادة من جـ.
(٣) فى جـ، ط، أ، و: «يلبسون لباس».
(٤) فى أ: «فيهم».
(٥) زيادة من جـ، ط، أ، و.

العسل، وقلوبهم أمَرّ من الصّبر، لبسوا للناس مُسُوك الضأن من اللين، يَجْترّون الدنيا بالدين. قال الله تعالى: عليّ [(١)] تجترئون! وبي تغترون!. وعزتي لأبعثنّ عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران. فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله. فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية. فقال سعيد: قد عرفتُ فيمن أنزلت هذه الآية. فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل، ثم تكون عامة بعد. وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح.

وأما قوله: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾: فقرأه ابن محيصن: «ويَشْهَدُ اللهُ» بفتح الياء، وضم الجلالة ﴿ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ومعناها: أن هذا وإن أظهر لكم الحيل[(٢)]، لكن الله يعلم من قلبه القبيح، كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وقراءة الجمهور بضم الياء، ونصب الجلالة ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ومعناه: أنّه يُظْهِرُ للناس الإسلام ويبارزُ الله بما في قلبه من الكفر والنفاق، كقوله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٠٨] هذا معنى ما رواه ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن[(٣)] عكرمة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

وقيل: معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حَلَف وأشهد الله لهم: أن الذي في قلبه موافق للسانه. وهذا المعنى صحيح، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير، وعزاه إلى ابن عباس، وحكاه عن مجاهد، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾: الألد في اللغة: [هو][(٤)] الأعوج، ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧] أي: عُوجاً. وهكذا المنافق في حال خصومته، يكذب، ويَزْوَرّ عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفتري ويفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وقال البخاري: حدثنا قَبِيصةُ، حدثنا سفيان، عن ابن جُرَيج، عن ابن أبي مُلَيْكة، عن عائشة تَرْفَعُه قال: «أبغض الرجال إلى الله الألَدُّ الخَصِم»[(٥)].

قال: وقال عبد الله بن يزيد: حدثنا سفيان، حدثني ابن جريج، عن ابن أبي مُلَيكة، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[(٦)].

وهكذا رواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر في قوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾، عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[(٧)].

---

(١) في أ: «أعليّ».
(٢) في جـ، و: «الجميل».
(٣) في جـ، ط: «أو».
(٤) زيادة من جـ، ط.
(٥، ٦) صحيح البخاري برقم (٤٥٢٣).
(٧) تفسير عبد الرزاق (١/ ٩٧).

وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ أى: هو أعوج المقال، سيِّئ الفعَال، فذلك قوله، وهذا فعله: كلامه كَذِب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة.

والسعى هاهنا هو: القَصْد. كما قال إخباراً عن فرعون: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ . فَحَشَرَ فَنَادَىٰ . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ .فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٢ـ ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] أى: اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعى الحسى إلى الصلاة منهىٌّ عنه بالسنة النبوية: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تَسْعَوْن، وأتوها وعليكم السكينةُ والوقار».

فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد فى الأرض، وإهلاك الحرث، وهو: مَحل نماء الزروع والثمار والنسل، وهو: نتاج الحيوانات اللذين لا قوَام للناس إلا بهما.

وقال مجاهد: إذا سُعى فى الأرض فساداً، منع الله القَطْرَ، فهلك الحرث والنسل. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ أى: لا يحب من هذه صفَته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أى: إذا وُعظ هذا الفاجر فى مقاله وفعاله، وقيل له: اتق الله، وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق ـ امتنع وأبى، وأخذته الحميَّة والغضب بالإثم، أى: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢]؛ ولهذا قال فى هذه الآية: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أى: هى كافيته عقوبة فى ذلك.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذَكَر صفات المؤمنين الحميدة، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

قال ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وأبو عثمان النَّهدى، وعكرمة، وجماعة: نزلت فى صُهيب بن سنَان الرومى، وذلك أنَّه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإنْ أحب أن يتجرّد منه ويهاجر، فَعَل. فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرّة. فقالوا[(١)]: رَبح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية. ويروى أنّ رسول الله ﷺ قال له: «ربِح البيع صهيب، ربح البيع صهيب».

قال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن عبد الله بن رُسْتَه، حدثنا سليمان ابن داود، حدثنا جعفر بن سليمان الضبَعى، حدثنا عوف، عن أبى عثمان النهدى، عن صهيب قال: لما أردتُ الهجرة من مكة إلى النبى ﷺ قالت لى قريش: يا صهيبٌ، قدمتَ إلينا ولا مَالَ لك،

(١) فى جـ، و: «فقالوا له».

وتخرج أنت ومالك! والله لا يكون ذلك أبداً. فقلت لهم: أرأيتم إن دَفَعْتُ إليكم مالى تُخلُّون عنى؟ قالوا: نعم. فدفعتُ إليهم مالى، فخلَّوا عنى، فخرجت حتى قدمتُ المدينة. فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: «رَبح صهيبُ، ربح صهيب» مرتين[١].

وقال حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: أقبل صهيب مهاجراً نحو النبى ﷺ فاتبعه نَفَر من قريش، فنزل عَنْ راحلته، وانتثل ما فى كنانته. ثم قال[٢]: يا معشر قريش، قد علمتم أنّى من أرماكم رجلا، وأنتم والله لا تصلون إلى حتى أرمى كُلّ سهم فى كنانتى، ثم أضرب بسيفى ما بقى فى يدى منه شَىْء، ثم افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالى وقُنْيتى بمكة وخلَّيتم سبيلى؟ قالوا: نعم. فلما قَدم على النبى ﷺ قال: «ربح البيع، ربح البيع». قال: ونزلت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت فى كل مُجاهد فى سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]. ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين، أنكر عليه بعضُ الناس، فردّ عليهم عُمَر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدّقين برسوله: أنْ يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك.

قال العوفى، عن ابن عباس، ومجاهد، وطاوس، والضحاك، وعكرمة، وقتادة، والسُّدّى، وابن زيد، فى قوله: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ يعنى: الإسلام.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، وأبو العالية، والربيعُ بن أنس: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ يعنى: الطاعة. وقال قتادة أيضاً: الموادعة.

وقوله: ﴿كَافَّةً﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، والربيع، والسّدى، ومقاتل ابن حيَّان، وقتادة والضحاك: جميعاً، وقال مجاهد: أى اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر.

وزعم عكرمة أنها نزلت فى نَفَر ممن أسلم من اليهود وغيرهم، كعبد الله بن سَلام، وثعلبة وأسَدُ

---

(١) ورواه ابن سعد فى الطبقات (٢/ ٢٢٧) عن هوذة، عن عوف، عن أبى عثمان قال: بلغنى أن صهيباً، فذكر نحوه، ورواه ابن سعد فى الطبقات (٢/ ٢٢٨) وأبو نعيم فى الحلية (١/ ١٥١) من طريق على بن زيد عن سعيد بن المسيب، فذكر نحو القصة.

(٢) فى جـ: «وقال»، وفى أ، و: «كما قال».

ابن عُبَيد وطائفة استأذنوا رسول الله ﷺ فى أن يُسْبتوا، وأن يقوموا بالتوراة ليلا. فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والاشتغال بها عما عداها. وفى ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نظر، إذْ يبعد أن يستأذن فى إقامة السبت، وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفعه وبطلانه، والتعويض عنه بأعياد الإسلام.

ومن المفسرين من يجعل قوله: ﴿كَافَّةً﴾ حالا من الداخلين، أى: ادخلوا فى الإسلام كلكم. والصحيح الأول، وهو أنهم أمروا [كلهم] [(١)] أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام، وهى كثيرة جداً ما استطاعوا منها. وقال[(٢)]: ابن أبى حاتم: أخبرنا على بن الحسين، أخبرنا أحمد بن الصباح، أخبرنى الهيثم بن يمان، حدثنا إسماعيل بن زكريا، حدثنى محمد بن عون، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ ـ كذا قرأها بالنصب ـ يعنى مؤمنى أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمْر التوراة والشرائع التى أنزلت فيهم، فقال الله: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾، يقول: ادخلوا فى شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعَوا منها شيئاً، وحسبكم بالإيمان بالتوراة وما فيها.

وقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى: اعملوا الطاعات[(٣)]، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان فـ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، و﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. قال مُطَرِّف: أغش عباد الله لعَبِيد الله الشيطان.

وقوله: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى: عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحُجَج، فاعلموا أن الله عزيز [أى] [(٤)] فى انتقامه، لا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب. حكيم فى أحكامه ونقضه وإبرامه؛ ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: عزيز فى نقمته، حكيم فى أمره. وقال محمد بن إسحاق: العزيز فى نصره ممن كفر به إذا شاء، الحكيم فى عذره وحجته إلى عباده.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٢١٠)﴾.

يقول تعالى مُهَدِّدًا للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ يعنى: يوم القيامة، لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزى كُلّ عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ كما قال: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا. وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا. وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٣]، وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨].

---

(١) زيادة من جـ، ط، أ، و.
(٢) فى جـ، ط: «كما قال».
(٣) فى أ: «اعملوا بالطاعات».
(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير هاهنا حديث الصور بطوله من أوله، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ. وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم، وفيه: «أنّ الناس إذا اهتموا لموقفهم[١] فى العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً، من آدم فمن بعده، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد، صلوات الله وسلامه عليه، فإذا جاؤوا إليه قال: أنا لها، أنا لها. فيذهب فيسجد لله تحت العرش، ويشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء بين العباد، فيُشفّعه الله، ويأتى فى ظُلَل من الغمام بعد ما تنشق[٢] السماء الدنيا، وينزل من فيها من الملائكة، ثم الثانية، ثم الثالثة إلى السابعة، وينزل[٣] حملة العرش والكَرُوبيّون[٤] قال: وينزل الجبار، عز وجل، فى ظُلَل من الغمام والملائكةُ، ولهم زَجَل مِنْ تسبيحهم يقولون: سبحان ذى الملك والملكوت، سبحان رب العرش ذى الجبروت[٥]، سبحان الحى الذى لا يموت، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت، سبُّوح قدوس، رب الملائكة والروح، قدوس قدوس، سبحان ربنا الأعلى، سبحان ذى السلطان والعظمة، سبحانه أبداً أبدا»[٦].

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه هاهنا أحاديث فيها غرابة والله أعلم؛ فمنها ما رواه من حديث المنهال بن عمرو، عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن مسروق، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فَصْل القضاء، وينزل الله فى ظُلَل من الغمام من العرش إلى الكرسى»[٧].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا أبو بكر بن عطاء بن مقدم، حدثنا معتمر بن سليمان، سمعت عبد الجليل القَيْسى، يحدّث عن عبد الله بن عمرو: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ الآية، قال: يهبط حين يهبط، وبينه وبين خَلْقه سبعون ألف حِجَاب، منها: النور، والظلمة، والماء. فيصوت الماء فى تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب.

قال: وحدثنا أبى: حدثنا محمد بن الوزير الدمشقى، حدثنا الوليد قال: سألت زهير بن محمد، عن قول الله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ قال: ظلل من الغمام، منظوم من الياقوت[٨]، مكلّل بالجوهر والزبَرْجَد.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ قال: هو غير السحاب، ولم يكن قَطّ إلا لبنى إسرائيل فى تيههم حين تاهوا.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي

(١) فى ط: «لمواقفهم». (٢) فى جـ: «بعد ما تشقق».
(٣) فى ط: «وتنزل». (٤) فى أ: «الكرسيون».
(٥) فى جـ: «والجبروت».
(٦) تفسير الطبرى (٤/ ٢٦٦) وسيأتى الحديث بطوله عند تفسير الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.
(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٩/ ٤١٦، ٤١٧) من طريقين عن المنهال بن عمرو به مطولا، وقال الذهبى: «إسناده حسن».
(٨) فى أ، و: «منظوم بالياقوت».

﴿ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [قال][(١)]: يقول: والملائكة يجيئون فى ظلل من الغمام، والله تعالى يجىء فيما يشاء ـ وهى فى بعض القراءة: «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة فى ظُلَل من الغمام» وهى كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) ﴾.

يقول تعالى مُخبراً عن بنى إسرائيل: كم قد شاهدوا مع موسى ﴿مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ أى: حجة قاطعة على صدقه فيما جاءهم به، كيده وعصاه وفَلْقه البحر وضَرْبه الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم فى شدة الحر، ومن إنزال المَنّ والسلوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار، وصدق من جرت هذه الخوارق على يَدَيه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبَدلوا نعمة الله [كفراً][(٢)]، أى: استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها، والإعراض عنها. ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، كما قال إخباراً عن كفار قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رَضُوا بها واطمأنّوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوها عَنْ مصارفها التى أمروا بها مما يُرْضِى الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها فى طاعة ربهم، وبذلوا ابتغاء وجه الله؛ فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك فى محشرهم ومَنْشَرهم، ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا فى الدرجات فى أعلى علّيين، وخلد أولئك فى الدركات فى أسفل السافلين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: يرزق من يشاء من خَلْقه، ويعطيه عطاء كثيراً جزيلا بلا حَصر ولا تعداد فى الدنيا والآخرة[(٣)]، كما جاء فى الحديث: «ابن آدم، أَنْفقْ أُنْفقْ عليك»، وقال النبى ﷺ: «أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا»[(٤)]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، وفى[(٥)] الصحيح أن مَلَكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم، يقول[(٦)] أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعط مُمْسكاً تلفاً. وفى الصحيح[(٧)]: «يقول

(١) زيادة من جـ، ط.

(٢) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٣) فى ط: «فى الدنيا ولا فى الآخرة».

(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ١٩٢) من طريق يحيى بن وثاب، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً، وحسنه المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢/ ٥١).

(٥) فى جـ، أ، و: «وهو فى».

(٦) فى جـ، ط: «فيقول».

(٧) فى أ: «وفى الصحيحين».

ابن آدم: مالي، مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، وما لَبِسْتَ فأبليتَ، وما تصدقت فأمضيت[١]؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يَجمَعُ من لا عقل له»[٢].

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو داود، أخبرنا هَمَّام، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان بيْن نوح وآدم[٣] عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق. فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله: «كَانَ النَّاس أمّةً وحْدَةً فاخْتَلَفوا».

ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث بُنْدَار عن محمد بن بشار. ثم قال: صحيح ولم يخرجاه[٤].

وكذا روى أبو جعفر الرازي، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب: أنه كان يقرؤها: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين».

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** قال: كانوا على الهدى جميعاً، « فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين منذرين» فكان أول نَبي بعث نوحاً. وهكذا قال مجاهد، كما قال ابن عباس أولاً.

وقال العوفي، عن ابن عباس: **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** يقول: كانوا كفاراً، **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾**.

والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم، عليه السلام، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً، عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

ولهذا قال: **﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ**

(١) في أ: «فأبقيت».
(٢) المسند (٦/ ٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) في ط: «كان بين آدم ونوح».
(٤) تفسير الطبري (٤/ ٢٧٥) والمستدرك (٢/ ٥٤٦).

﴿أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أى: من بعد ما قامت عليهم الحجج وما حملهم على ذلك إلا البغى من بعضهم على بعض، **﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**.

وقال عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَر، عن سليمان الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة فى قوله: **﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾** قال: قال النبى ﷺ: «نحن الآخرون الأولون[١] يوم القيامة نحن أوّلُ الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه، فهدانا له[٢]، فالناس لنا فيه تبع، فغداً لليهود، وبعد غد للنصارى».

ثم رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبى هريرة[٣].

وقال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه فى قوله: **﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾**: فاختلفوا فى يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد. فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة. واختلفوا فى القبلة؛ فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة. واختلفوا فى الصلاة؛ فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلى وهو يتكلم، ومنهم من يصلى وهو يمشى، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا فى الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا فى إبراهيم، عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا فى عيسى، عليه السلام، فكذّبت به اليهود، وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه، وكلمته، فهدى الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك.

وقال الربيع بن أنس فى قوله: **﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾** أى: عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله عز وجل وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأقاموا على الأمر الأول الذى كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة شهوداً[٤] على قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وآل فرعون، أنّ رسلهم قد بلغوهم، وأنهم قد كذبوا رسلهم.

وفى[٥] قراءة أبى بن كعب: «وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»، وكان أبو العالية يقول: فى هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن.

وقوله: **﴿بِإِذْنِهِ﴾** أى: بعلمه، بما هداهم له. قاله ابن جرير: **﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾** أى: من

(١) فى أ: «السابقون».
(٢) فى أ: «فهدانا الله له».
(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٩٩) والحديث مخرج فى الصحيحين.
(٤) فى أ: «شهدوا».
(٥) فى أ، و: «وهى فى».

خلقه ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: وله الحكم[١] والحجة البالغة. وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم[٢] بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم»[٣]. وفى الدعاء المأثور: اللهم، أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا، ووفّقنا لاجتنابه، ولا تَجْعَلْه ملتبساً علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إماماً.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قبل أن تُبتَلوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ وهى: الأمراض؛ والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب.

قال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومُرّة الهَمْدانى، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع، والسّدى، ومقاتل بن حيّان: ﴿الْبَأْسَاءُ﴾: الفقر. قال ابن عباس: ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾: السّقم.

﴿وَزُلْزِلُوا﴾ خوْفاً من الأعداء زلْزالا شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء فى الحديث الصحيح عن خبَّاب بن الأرَتّ قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «إنّ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرَق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يَصْرفه[٤] ذلك عن دينه، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه». ثم قال: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون».

وقال الله تعالى: ﴿الم . أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

وقد حصل من هذا[٥] جانب عظيم للصحابة، رضى الله عنهم، فى يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا

---

(١) فى و: «وله الحكمة». (٢) فى أ: «أنت الحكيم».
(٣) صحيح مسلم برقم (٧٧٠).
(٤) فى ط: «لا يفتنه». (٥) فى أ: «من ذلك».

اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ الآيات [الأحزاب: ١٠ ـ ١٢].

ولما سأل هرقلُ أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كان[١] الحرب بينكم؟ قال: سجَالا، يدال علينا ونُدَال عليه. قال: كذلك الرسل تُبْتَلى، ثم تكون لها العاقبة[٢] [٣].

وقوله: **﴿مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾** أى: سنتهم. كما قال تعالى: **﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾** [الزخرف: ٨].

وقوله: **﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾** أى: يستفتحون على أعدائهم، ويَدْعون بقُرْب الفرج والمخرج، عند ضيق الحال والشدة. قال الله تعالى: **﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾** كما قال: **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾** [الشرح: ٥، ٦].

وكما تكون الشدة ينزل من النصر[٤] مثلُها؛ ولهذا قال تعالى: **﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾**. وفى حديث أبى رَزِين: «عَجِب ربّك[٥] من قُنُوط عباده، وقُرْب غيثه[٦]، فينظر إليهم قَنِطين، فيظل يضحك، يعلم أنّ فرجهم[٧] قريب» الحديث[٨].

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾.

قال مُقَاتل بن حيّان: هذه الآية فى نفقة التطوّع. وقال السدى نَسَختها الزكاة. وفيه نظر. ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس ومجاهد، فبين لهم تعالى ذلك، فقال: **﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾** أى: اصرفُوها فى هذه الوجوه. كما جاء فى الحديث: «أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك». وتلا ميمون بن مِهْرَان هذه الآية، ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلا ولا مزماراً، ولا تصاوير الخشب، ولا كُسْوة الحيطان.

ثم قال تعالى: **﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾** أى: مهما صَدَرَ منكم من فعل معروف، فإن الله يعلَمُه، وسيجزيكم على ذلك أوفرَ الجزاء؛ فإنه لا يظلم أحداً مثقالَ ذَرّة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾.

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين: أن يكُفُّوا شرّ الأعداء عن حَوْزة الإسلام.

---

(١) فى أ، و: «فكيف كانت». (٢) فى أ: «الرجل يبتلى ثم تكون له العاقبة».

(٣) حديث هرقل رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧).

(٤) فى أ، و: «الصبر». (٥) فى أ: «عجب ربكم».

(٦) فى أ: «وقرب خيره». (٧) فى أ: «أن فرجكم».

(٨) رواه ابن ماجة فى السنن برقم (١٨١) من طريق يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عدس، عن أبى رزين به، وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٨٥): «هذا إسناد فيه مقال».

وقال الزهرى: الجهادُ واجب على كلّ أحد، غزا أو قعد؛ فالقاعد عليه إذًا استعين أن يَعين، وإذا استُغيثَ أن يُغيثَ، وإذا استُنْفرَ أن ينفر، وإن لم يُحتَجْ إليه قعد.

قلت: ولهذا ثَبَت فى الصحيح[١]: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو مات ميتة جاهلية»[٢]. وقال عليه السلام يوم الفتح: «لا هجرة، ولكن جهاد ونيّة، إذا استنفرتم فانفروا»[٣].

وقوله: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ أى: شديد عليكم ومشقة. وهو كذلك، فإنه إما أن يُقتَلَ أو يجرحَ مع[٤] مشقة السفر ومجالدَة الأعداء.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى: لأنّ القتالَ يعقبه النصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على بلادهم، وأموالهم، وذراريهم، وأولادهم.

﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾: وهذا عام فى الأمور كلّها، قد يُحبّ المرءُ شيئاً، وليس له فيه خيرة ولا مصلحة. ومن ذلك القُعُود عن القتال، قد يَعْقُبُه استيلاء العدو على البلاد والحكم.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبَرُ بما فيه صلاحكم فى دنياكم وأخراكم؛ فاستجيبوا له، وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، حدثنى الحَضْرَمى، عن أبى السَّوار، عن جُنْدَب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ بَعَثَ رَهْطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجَرّاح [أو عبيدة بن الحارث][٥]، فلما ذهب ينطلق، بكَى صَبَابة[٦] إلى رسول الله ﷺ، فَجَلَس، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً، وأمره ألا يقرأ

(١) فى أ: «فى الصحيحين».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٩١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٨٣٤، ٢٧٨٣، ٢٨٢٥) ومسلم فى صحيحه برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٤) فى أ: «على».

(٥) زيادة من ط، أ، و.

(٦) فى جـ: «بكى صبيانه».

الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: لا تُكْرِهَنّ أحداً على السير معك من أصحابك. فلما قرأ الكتابَ استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله. فخبَّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان، وبقى بقيَّتُهم، فلقوا ابن الحَضْرَمى فقتلوه، ولم يَدْرُوا أن ذلك اليوم من رجب أو من جُمَادى. فقال المشركون للمسلمين: قتلتم فى الشهر الحرام! فأنزل الله: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ**﴾ الآية.

وقال السدى، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرّة، عن ابن مسعود: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ**﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سَرِيّة، وكانوا سَبْعَة نفر، عليهم عبد الله بن جَحْش الأسدى، وفيهم عمَّار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عُتْبة بن ربيعة، وسعد بن أبى وَقّاص، وعتبة بن غَزْوان السُّلمى ـ حليف لبنى نَوْفل ـ وسُهَيل بن بيضاء، وعامر بن فُهيرة، وواقد بن عبد الله اليَرْبوعى، حليف لعمر بن الخطاب. وكتب لابن جحش كتاباً، وأمره ألا يقرأه حتى ينزل بطن مَلَل[١]، فلما نزل بطن مَلَل [٢]فتح الكتاب، فإذا فيه: أنْ سِرْ حتى تنزل بطن نخلة. فقال لأصحابه: مَنْ كان يريد الموت فَلْيمض ولْيوص، فإننى مُوص وماضٍ لأمر رسول الله ﷺ. فسار، فتخلف عنه سعد بن أبى وقّاص، وعتبة، وأضلا راحلة لهما فأتيا بُحْران[٣] يطلبانها، وسار ابنُ جحش إلى بطن نخلة، فإذا هو بالحكم بن كيسان، والمغيرة بن عثمان، وعمرو بن الحضرمى، وعبد الله بن المغيرة. وانفلت [ابن][٤] المغيرة، [فأسروا الحكم بن كيسان والمغيرة][٥] وقُتِل عَمْرو، قتله واقد بن عبد الله. فكانت أوّل غنيمة غنمها أصحاب النبى ﷺ.

فلما رجعوا إلى المدينة بالأسيرين[٦] وما أصابوا المال، أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين، فقال النبى ﷺ: «حتى ننظر مافعل صاحبانا» فلما رجع سعد وصاحبه، فادى بالأسيرين، ففجر عليه المشركون وقالوا: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من استحل الشهر الحرام، وقتل صاحبنا فى رجب. فقال المسلمون: إنما قتلناه فى جمادى ـ وقيل: فى أول رجب، وآخر ليلة من جمادى ـ وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب. فأنزل الله يُعَيِّر أهل مكة: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ**﴾ لا يحل، وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل فى الشهر الحرام، حين كفرتم بالله، وصددْتم عنه محمداً ﷺ وأصحابَه. وإخراجُ أهل المسجد الحرام منه، حين أخرجوا محمداً ﷺ أكبر من القتل عند الله.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ**﴾ وذلك أنّ المشركين صدّوا رسول الله ﷺ، وردّوه عن المسجد [الحرام] [٧]فى شهر حرام، ففتح الله على نبيه فى شهر حرَام من العام المقبل. فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتالَ فى شهر حرام. فقال الله: ﴿**وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ**﴾ من القتال فيه. وأنّ محمداً ﷺ بعث سرية فلقوا عَمْرو بن الحضرمى، وهو مقبل من الطائف فى آخر ليلة من جمادى، وأوّل ليلة من

(١، ٢) فى جـ: «مالك». (٣) فى أ، و: «يجوبان».

(٤، ٥) زيادة من أ. (٦) فى جـ، ط، أ، و: «بأسيرين».

(٧) زيادة من أ.

رجب. وأنّ أصحاب محمد ﷺ كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى، وكانت أول رجب ولم يشعروا، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه. وأنّ المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك. فقال الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، وغير ذلك أكبر منه: صَدّ عن سبيل الله، وكفر به والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه[١]: إخراجُ أهل المسجد الحرام أكبر من الذى أصابَ أصحاب محمد ﷺ، والشرك أشد منه.

وهكذا روى أبو سَعد[٢] البقّال، عن عكرمة، عن ابن عباس أنها أنزلت[٣] فى سَرِيَّة عبد الله بن جحش، وقتل عمرو بن الحضرمى.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن السائب الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس قال: نزل فيما كان من مصاب عَمْرو بن الحضرمى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ إلى آخر الآية.

وقال عبد الملك بن هشام راوى السيرة، عن زياد بن عبد الله البكائى، عن محمد بن إسحاق بن يسار المدنى، رحمه الله، فى كتاب السيرة له، أنّه قال: وبعث ـ يعنى رسول الله ﷺ ـ عبد الله بن جَحش بن رئاب الأسدى فى رجب، مَقْفَلَه من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضى لما أمره به، ولا يَسْتكره من أصحابه أحداً. وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين. ثم من بنى عبد شمس بن عبد مناف: أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ومن حلفائهم: عبد الله بن جحش، وهو أمير القوم، وعُكّاشة بن محصن بن حُرْثان، أحد بنى أسد ابن خزيمة، حليف لهم. ومن بنى نَوفل بن عبد مناف: عتبة بن غَزْوَان بن جابر، حليف لهم. ومن بنى زُهرة بن كلاب: سعد بن أبى وقاص. ومن بنى عدى بن كعب: عامر بن ربيعة، حليف لهم من عَنْز بن وائل، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عَرِين بن ثعلبة بن يربوع، أحد بنى تميم، حليف لهم. وخالد بن البُكَير أحد بنى سعد بن ليث، حليف لهم. ومن بنى الحارث بن فِهْر: سُهَيل بن بيضاء.

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه: «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف، ترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم». فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال: سمعاً وطاعة. ثم قال لأصحابه: قد أمرنى رسول الله ﷺ أن أمضى إلى نخلة، أرصد بها قريشاً، حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهانى أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادةَ ويرغب فيها فَلْيَنطلقَ، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد.

فسلك على الحجاز، حتى إذا كان بِمَعْدن، فوق الفُرْع، يقال له: بُحْران[٤]، أضلّ سعد بن

---

(١) فى جـ: «منه أكبر عند الله». (٢) فى ط: «أبو سعيد».
(٣) فى جـ، أ: «أنها نزلت». (٤) فى جـ: «نجران».

أبى وقاص وعُتبة بن غزوان بعيراً لهما، كانا يَعْتقبانه، فتخلفا عليه فى طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرّت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش، فيها: عمرو بن الحضرمى، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كَيسان، مولى هشام بن المغيرة.

فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنُوا وقالوا: عُمَّار، لا بأس عليكم منهم. وتشاور القوم فيهم، وذلك فى آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلةَ ليدخلن الحرم، فليمتنعنّ منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتُلُنَّهم فى الشهر الحرام. فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قَدروا عليه منهم، وأخْذ ما معهم. فرمى واقدُ بن عبد الله التميمى(١) عمرَو ابن الحضرمى بسهم فقتله، واستأسر عثمانَ بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفلُ بن عبد الله فأعجزهم. وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

قال ابن إسحاق: وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أنّ عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يَفْرض الله الخمس من المغانم، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسم سائرها بين أصحابه.

قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله قال: «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام». فوقَّف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط فى أيدى القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنَّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابه الشهرَ الحرام، وسفكوا فيه(٢) الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال. فقال من يَرُدّ عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان.

وقالت: يهودُ تَفَاءلُ بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله: عمرو: عمرت الحرب، والحضرمى: حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله: وقدت الحرب. فجعل الله عليهم ذلك لا لهم.

فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾ أى: إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم(٣) منهم، ﴿ **وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾ أى: قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه، حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه(٤). فذلك أكبر عند الله من القتل: ﴿ **وَلَا**

---

(١) فى أ: «السهمى». (٢) فى جـ: «فيها».
(٣) فى جـ: «من قتل». (٤) فى أ: «يفتنون المسلمين فى دينهم حتى يردوهم إلى الكفر بعد إيمانهم».

﴿يزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ أى: ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين.

قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا من الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَق قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، فقال رسول الله ﷺ: لا نُفْديكموهما حتى يقدم صاحبانا ـ يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة ابن غزْوان ـ فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم. فقدم سعد وعتبة، فأفداهما رسول الله ﷺ منهم.

فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسُن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً. وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة، فمات بها كافراً.

قال ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طَمعُوا فى الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعطَى فيها أجر المجاهدين [المهاجرين][1]؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء.

قال ابن إسحاق: والحديث فى هذا عن الزهرى، ويزيد بن رُومان، عن عروة.

وقد روى يونس بن بُكَيْر، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قريباً من هذا السياق. وروى موسى بن عقبة عن الزهرى نفسه، نحو ذلك.

وروى شعيب بن أبى حَمزة، عن الزهرى، عن عروة بن الزبير نحوا من هذا أيضاً، وفيه: فكان ابن الحضرمى أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين، فركب وفد من كفار قريش حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة فقالوا: أيحلّ القتالُ فى الشهر الحرام؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ [قِتَالٍ فِيهِ][2]﴾ الآية. وقد استقصى ذلك الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب «دلائل النبوة».

ثم قال ابن هشام عن زياد، عن ابن إسحاق: وقد ذكر عن بعض آل عبد الله [بن جحش][3]: أن الله قسم الفىء حين أحلَّه، فجعل أربعة أخماس لمن أفاءه، وخمساً إلى الله ورسوله. فوقع على ما كان عبد الله بن جحش صنع فى تلك العير[4].

قال ابن هشام: وهى أول غنيمة غنمها المسلمون. وعمرو بن الحضرمى أول من قتل المسلمون، وعثمان بن عبد الله، والحكم بن كَيْسان أول من أسر المسلمون[5].

قال ابن إسحاق: فقال أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، فى غزوة عبد الله بن جحش، ويقال: بل عبد الله بن جحش قالها، حين قالت قريش: قد أحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه

---

(١) زيادة من جـ. (٢) زيادة من جـ، ط.
(٣) زيادة من أ.
(٤، ٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٠٥).

الدم، وأخذوا فيه المال، وأسروا فيه الرجال. قال ابن هشام: هى لعبد الله بن جحش:

تَعُدّون قَتْلاً فى الحرام عظيمةً ... وأعظم منه لو يَرى الرشد راشد
صدودُكمُ عما يقول محمد ... وكفر به والله راءٍ وشاهدُ
وإخراجُكمْ من مسجد الله أهلَه ... لئلا يُرَى لله فى البيت ساجدُ
فإنَّا وإن عَيَّرْتمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سَقَيْنَا من ابن الحضرمّى رماحَنَا ... بنخلةَ لَمَّا أوقدَ الحربَ واقدُ
دما وابنُ عبد الله عثمانُ بيننا ... ينازعه غُلٌّ من القدّ عاندُ

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن أبى ميسرة، عن عمر أنَّه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً. فنزلت هذه الآية التى فى البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ [وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ][1]﴾ فدُعى عمر فقرئتْ عليه، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التى فى النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣]، فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: ألا يقربنّ الصلاة سكرانُ. فدُعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التى فى المائدة. فدعى عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؟ قال عمر: انتهينا، انتهينا[2].

وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى من طرق، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق[3]. وكذا رواه ابن أبى حاتم وابن مَرْدويه من طريق الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى ميسرة، واسمه عمرو ابن شُرَحْبِيل الهَمْدانى الكوفى، عن عمر. وليس له عنه سواه، لكن قال أبو زُرْعَة: لم يسمع منه. والله أعلم. وقال على بن المدينى: هذا الإسناد صالح وصحّحه الترمذى. وزاد ابن أبى حاتم ـ بعد قوله: انتهينا ـ: إنها تذهب المال وتذهب العقل. وسيأتى هذا الحديث أيضاً مع ما رواه أحمد من

---

(١) زيادة من جـ.
(٢) المسند (١/ ٥٣).
(٣) سنن أبى داود برقم (٣٦٧٠) وسنن الترمذى برقم (٣٠٤٩) وسنن النسائى (٨/ ٢٨٦).

طريق أبى هريرة أيضاً[١] ـ عند قوله فى سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] الآيات.

فقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾: أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إنه كل ما خامر العقل. كما سيأتى بيانُه فى سورة المائدة، وكذا الميسر، وهو القمار.

وقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾: أما إثمهما فهو فى الدين، وأما المنافع فدنيوية، من حيث إن[٢] فيها نفع البدن، وتهضيمَ الطعام، وإخراجَ الفضلات، وتشحيذ بعض الأذهان، ولذّة الشدّة المطربة التى فيها، كما قال حسان بن ثابت فى جاهليته:

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسْداً لا يُنَهْنِهها اللقاءُ[٣]

وكذا بيعها والانتفاع بثمنها. وما كان يُقَمِّشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله. ولكن هذه المصالح لا توازى مضرّته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين. ولهذا قال: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾؛ ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة؛ ولهذا قال عمر، رضى الله عنه، لما قرئت عليه: اللهم بَين لنا فى الخمر بياناً شافياً، حتى نزل التصريح بتحريمها فى سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] وسيأتى الكلام على ذلك فى سورة المائدة إن شاء الله، وبه الثقة.

قال ابن عمر، والشعبى، ومجاهد، وقتادة، والرّبيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه[٤] أوّل آية نزلت فى الخمر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ [وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ][٥]﴾، ثم نزلت الآية التى فى سورة النساء، ثم التى فى المائدة، فحرمت الخمر[٦].

وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾: قُرِئَ بالنصب وبالرفع[٧]، وكلاهما حسن متّجه قريب.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان، حدثنا يحيى أنه بلغه: أنّ معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، إن لنا أرقاء وأهلين [فما ننفق][٨] من أموالنا. فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾[٩].

وقال الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ قال: ما يفضل عن

(١) فى جـ: «عنه». (٢) فى و: «إن كان فيها».
(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٤/ ٣٢٧).
(٤) فى أ: «هذا». (٥) زيادة من جـ.
(٦) فى أ: «فحرمت الخمر فلله الحمد». (٧) فى جـ: «بالرفع والنصب».
(٨) زيادة من أ.
(٩) وهذا منقطع، فإن يحيى بن سعيد بينه وبين معاذ قرنٌ من الزمان.

أهلك.

وكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والحسن، وقتادة، والقاسم، وسالم، وعطاء الخراسانى، والربيع بن أنس، وغير واحد: أنهم قالوا فى قوله: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾: يعنى الفضل.

وعن طاوس: اليسير من كل شىء، وعن الربيع أيضاً: أفضل مالك، وأطيبه.

والكل يرجع إلى الفضل.

وقال عبد بن حميد فى تفسيره: حدثنا هوذة بن خليفة، عن عوف، عن الحسن: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ قال: ذلك ألا تجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس.

ويدل على ذلك ما رواه ابنُ جرير: حدثنا على بن مسلم، حدثنا أبو عاصم، عن ابن عَجْلان، عن المَقْبُرِىّ، عن أبى هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، عندى دينار؟ قال: «أنفقه على نفسك». قال: عندى آخر؟ قال: «أنفقه على أهلك». قال: عندى آخر؟ قال: «أنفقه على ولدك». قال: عندى آخر؟ قال: «فأنت أبصرُ».

وقد رواه مسلم فى صحيحه[1]. وأخرج مسلم أيضاً عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «ابدأ بنفسك فتصدّق عليها، فإن فَضَل شىء فلأهلك، فإن فضل شىء عن أهلك فلذى قرابتك، فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا»[2].

وعنده عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظَهْر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[3].

وفى الحديث أيضاً: «ابن آدم، إنك إن تبذُل الفضلَ خيرٌ لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تُلام على كَفَافٍ»[4].

ثم قد قيل: إنها منسوخة بآية الزكاة، كما رواه على بن أبى طلحة، والعوفى عن ابن عباس، وقاله عطاء الخراسانى والسدى، وقيل: مبينة بآية الزكاة، قاله مجاهد وغيره، وهو أوجه.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أى: كما فصَّل لكم هذه الأحكام وبينَها وأوضحها، كذلك يبين لكم سائر الآيات فى أحكامه ووعده، ووعيده، لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير الطبرى (٤/ ٣٤٠)، وأما قول الحافظ بأنه فى صحيح مسلم، فقد قال الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ: «وهم ـ رحمه الله ـ فإن الحديث ليس فى صحيح مسلم على اليقين بعد طول التتبع منى ومن أخى السيد محمود». قلت: لم يذكره المزى فى تحفة الأشراف معزواً لمسلم، وإنما عزاه لأبى داود وغيره.

(٢) صحيح مسلم برقم (٩٩٧).

(٣) هو فى صحيح البخارى برقم (١٤٢٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، وهو فى صحيح مسلم برقم (١٠٣٤) من حديث حكيم بن حزام رضى الله عنه.

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٠٣٦) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى فى زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسى، حدثنا أبو أسامة، عن الصَّعق العيشى[١]، قال: شهدت الحسن ـ وقرأ هذه الآية من البقرة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ قال: هى والله لمن تفكر فيها، ليعلم أن الدنيا دار بلاء، ثم دار فناء، وليعلم أن الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء.

وهكذا قال قتادة، وابن جُرَيْج، وغيرهما.

وقال عبد الرزاق عن مَعْمَر، عن قتادة: لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا. وفى رواية عن قتادة: فآثِرُوا الآخرة على الأولى.

[وقد ذكرنا عند قوله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] آثاراً كثيرة عن السلف فى معنى التفكر والاعتبار][٢].

وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾ الآية: قال ابن جرير:

حدثنا سفيان بن وَكِيع، حدثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤] و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزَل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضُل له الشىء من طعامه فيُحبَس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم[٣].

وهكذا رواه أبو داود، والنسائى، وابن أبى حاتم، وابن مَرْدويه، والحاكم فى مستدركه من طرق، عن عطاء بن السائب، به[٤]. وكذا رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس. وكذا رواه السدى، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة، عن ابن مسعود ـ بمثله. وهكذا ذكر[٥] غير واحد فى سبب نزول هذه الآية كمجاهد، وعطاء، والشعبى، وابن أبى ليلى، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

قال وَكِيع بن الجراح: حدثنا هشام الدَّسْتَوائى[٦]، عن حماد، عن إبراهيم قال: قالت عائشة:

---

(١) فى جـ، أ، و: «التميمى». (٢) زيادة من جـ.

(٣) تفسير الطبرى (٤/ ٣٥٠).

(٤) سنن أبى داود برقم (٢٨٧١) وسنن النسائى (٦/ ٢٥٦) والمستدرك (٢/ ٢٧٨).

(٥) فى جـ: «وهكذا رواه». (٦) فى جـ: «حدثنا صاحب الدستوائى»، وفى أ: «حدثنا هشام صاحب الدستوائى».

إنى لأكره أن يكون مال اليتيم عندى عُرّة[١] حتى أخلط طعامه بطعامى وشرابه بشرابى.

فقوله: ﴿**قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ**﴾ أى: على حدَة ﴿**وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**﴾ أى: وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم، فلا بأس عليكم؛ لأنهم إخوانكم فى الدين؛ ولهذا قال: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ**﴾ أى: يعلم مَنْ قَصْدُه ونيته الإفسادَ أو الإصلاح.

وقوله: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ أى: ولو شاء لضيّق عليكم وأحرجكم[٢]، ولكنه وَسَّع عليكم، وخفَّف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتى هى أحسن، كما قال: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [الأنعام: ١٥٢]، بل قد جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدن لمن أيسر، أو مجاناً كما سيأتى بيانه فى سورة النساء، إن شاء الله، وبه الثقة.

﴿**وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)**﴾.

هذا تحريم من الله عزّ وجل على المؤمنين أن يتزوّجوا المشركات من عبدة الأوثان. ثم إن كان عمومُها مراداً، وأنَّه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خَص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ [وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ]**[٣]﴾ [المائدة: ٥].

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ**﴾: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب. وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومكحول، والحسن، والضحاك، وزيد بن أسلم، والربيع بن أنس، وغيرهم.

وقيل: بل المراد بذلك المشركون[٤] من عبدة الأوثان، ولم يُرِدْ أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول، والله أعلم.

فأما ما رواه ابن جرير: حدثنى عبيد بن آدم بن أبى إياس العسقلانى، حدثنا أبى، حدثنا عبد الحميد بن بَهْرَام الفزارى، حدثنا شَهْر بن حَوْشَب قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: نهى رسولُ الله ﷺ عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات، وحرّم كل ذات دين غير الإسلام، قال الله عز وجل: ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**﴾ [المائدة: ٥]. وقد نكح طلحة بن عُبَيد الله يهودية، ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية، فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً، حتى هَمَّ أن يسطو عليهما. فقالا: نحن نطلّق يا أمير المؤمنين، ولا تغضب! فقال: لئن حَلّ طلاقهن لقد حل نكاحهن، ولكنى أنتزعهن منكم صَغَرَة قَمأة[٥] ـ فهو حديث غريب جداً. وهذا الأثر عن عمر غريب أيضاً.

---

(١) فى جـ: «عندى حدة». (٢) فى أ، و: «وأخرجكم».
(٣) زيادة من جـ. (٤) فى أ، و: «المشركين».
(٥) تفسير الطبرى (٤/ ٣٦٤).

قال أبو جعفر بن جرير، رحمه الله، بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات: وإنما كره عمر ذلك، لئلا يزهد الناس فى المسلمات، أو لغير ذلك من المعانى، كما حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن إدريس، حدثنا الصلت بن بهرام، عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خَلِ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام فأخَلى سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكنى أخاف أن تعاطوا المومسات منهن[١].

وهذا إسناد صحيح، وروى الخلال عن محمد بن إسماعيل، عن وَكِيع، عن الصلت[٢]، نحوه.

وقال ابن جرير: حدثنى موسى بن عبد الرحمن المسروقى، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا سفيان[٣] بن سعيد، عن يزيد بن أبى زياد، عن زيد بن وهب قال: قال [لى] [٤]عمر بن الخطاب: المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصرانى المسلمة.

قال: وهذا أصح إسناداً من الأول[٥] [٦].

ثم قال: وقد حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا إسحاق الأزرق[٧]، عن شريك، عن أشعث بن سوار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا».

ثم قال: وهذا الخبر ـ وإن كان فى إسناده ما فيه ـ فالقول به لإجماع الجميع من الأمة على صحة القول[٨] به[٩].

كذا قال ابن جرير، رحمه الله.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى، حدثنا وَكيع، عن جعفر بن بُرْقان، عن ميمون بن مِهْران، عن ابن عمر: أنه كره نكاح أهل الكتاب، وتأول[١٠]: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾.

وقال البخارى: وقال ابن عمر: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: ربها[١١] عيسى[١٢].

وقال أبو بكر الخلال الحنبلى: حدثنا محمد بن هارون[١٣]، حدثنا إسحاق بن إبراهيم (ح) وأخبرنى محمد بن على، حدثنا صالح بن أحمد: أنهما سألا أبا عبد الله أحمد بن حنبل، عن قول

---

(١) تفسير الطبرى (٤/ ٣٦٦).
(٢) فى جـ: «عن الفضل».
(٣) فى أ: «شقيق».
(٤) زيادة من جـ.
(٥) فى جـ: «وهذا إسناد أصح من الأول».
(٦) تفسير الطبرى (٤/ ٣٦٧).
(٧) فى أ: «وقد حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا عثمان بن المنتصر، أخبرنا إسحاق الأزرق».
(٨) فى جـ، أ، و: «الجميع من الأمة عليه».
(٩) تفسير الطبرى (٤/ ٣٦٧).
(١٠) فى جـ: «ولا يتأول».
(١١) فى أ: «ربنا».
(١٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٨٥) وهو هنا موصولاً عن ابن عمر.
(١٣) فى أ، و: «محمد بن أبى هارون».

الله: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، قال: مشركات العرب الذين يعبدون الأوثان[١].

وقوله: ﴿وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾: قال السدى: نزلت فى عبد الله بن رواحة، كانت له أمه سوداء، فغضب عليها فلطمها، ثم فزع، فأتى رسول الله ﷺ، فأخبره خبرها. فقال له: «ما هى؟» قال: تصوم، وتصلى، وتحسن الوضوءَ، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال: «يا أبا عبد الله، هذه مؤمنة». فقال: والذى بعثك بالحق لأعتقَنّها ولأتزوجنَها[٢]. ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، وقالوا: نكح أمَة. وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، ويُنكحوهم رغبة فى أحسابهم، فأنزل الله: ﴿وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

وقال عبد بن حميد: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا عبد الرحمن بن زياد الإفريقى، عن عبد الله ابن يزيد، عن عبد الله بن عَمْرو، عن النبى ﷺ قال: «لا تنكحوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن[٣]، وانكحوهن على الدين، فلأمة سوداء خَرْماء ذات دين أفضل»[٤]. والإفريقى ضعيف.

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك»[٥]. ولمسلم عن جابر مثله[٦]. وله، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[٧].

وقوله: ﴿وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ أى: لا تُزَوّجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: ﴿لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أى: ولرجل مؤمن ـ ولو كان عبداً حبشياً ـ خير من مشرك، وإن كان رئيساً سَرِياً[٨] ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى: معاشَرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أى: بشرعه وما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ

(١) فى جـ، أ، و: «الأصنام». (٢) فى أ: «لأعتقها ولأتزوجنها».
(٣) فى جـ: «أن يطغيهن».
(٤) المتخب لعبد بن حميد برقم (٣٢٨).
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٩٠) وصحيح مسلم برقم (١٤٦٦).
(٦) صحيح مسلم برقم (٧١٥).
(٧) صحيح مسلم برقم (١٤٥٧).
(٨) فى جـ: «شريفاً».

(٢٢٢) ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يُؤَاكلوها ولم يجامعوها فى البيوت، فسأل أصحابُ النبى [النبىَّ][(١)] ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ حتى فرغ من الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شىء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يَدَع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه! فجاء أسيد بن حُضَير وعبَّاد بن بشر فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن [(٢)]قد وَجَدَ عليهما، فخرجا، فاستقبلتهما[(٣)] هدية من لبن إلى رسول [(٤)]الله ﷺ، فأرسل فى آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يَجدْ عليهما.

رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة[(٥)].

فقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ يعنى [فى][(٦)] الفَرْج، لقوله: «اصنعوا كل شىء إلا النكاح»[(٧)]؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه تجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج.

قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أيوب، عن عكرمة، عن بعض أزواج النبى ﷺ أنّ النبى ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً، ألقى على فرجها ثوباً[(٨)].

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا القَعْنَبِىّ، حدثنا عبد الله ـ يعنى ابن عمر بن غانم ـ عن عبد الرحمن ـ يعنى ابن زياد ـ عن عمارة بن غُرَاب: أن عمَّة له حدثته: أنها سألت عائشة قالت: إحدانا تحيض، وليس لها ولزوجها فراش إلا فراش واحد؟ قالت: أخبرك بما صنع رسول ﷺ: دخل فمضى إلى مسجده ـ قال أبو داود: تعنى مسجد بيتها ـ فما انصرف حتى غلبتنى عينى، وأوجعه البرد، فقال: «ادنى منى». فقلت: إنى حائض. فقال: «اكشفى عن فخذيك». فكشفت فخذى، فوضع خدّه وصدره على فخذى، وحنَيت [(٩)]عليه حتى دفئ ونام ﷺ[(١٠)].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب عن كتاب أبى قِلاَبة: أن مسروقاً ركب إلى عائشة، فقال: السلام على النبى وعلى أهله[(١١)]. فقالت عائشة: أبو[(١٢)]

---

(١) زيادة من أ، و.
(٢) فى جـ: «أنه».
(٣) فى أ، و: «فاستقبلهما».
(٤) فى جـ: «من لبن لرسول».
(٥) المسند (٣/ ١٣٢) وصحيح مسلم برقم (٣٠٢).
(٦) زيادة من أ.
(٧) فى جـ، أ، و: «إلا الجماع».
(٨) سنن أبى داود برقم (٢٧٢).
(٩) فى أ: «وحننت».
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٧٠).
(١١) فى جـ: «الصلاة على النبى وعلى آله».
(١٢) فى أ: «ابن».

عائشة! مرحباً مرحباً. فأذنوا له فدخل، فقال: إنى أريد أن أسألك [١] عن شىء، وأنا أستحيى. فقالت: إنما أنا أمّك، وأنت ابنى. فقال: ما للرجل من امرأته وهى حائض؟ فقالت: له كل شىء إلا فرجها [٢].

ورواه أيضاً عن حميد بن مسعدة، عن يزيد بن زريع، عن عيينة بن عبد الرحمن بن جَوْشن، عن مروان الأصفر، عن مسروق قال: قلت لعائشة: ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً؟ قالت: كل شىء إلا الجماع.

وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة.

وروى ابن جرير أيضاً، عن أبى كُرَيْب، عن ابن أبى زائدة، عن حجاج، عن ميمون بن مِهْران، عن عائشة قالت: له ما فوق الإزار.

قلت: وتحل مضاجعتها ومؤاكلتها بلا خلاف. قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يأمرنى فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكئ فى حجرى وأنا حائض، فيقرأ القرآن [٣]. وفى الصحيح عنها قالت: كنت أتعرّق العَرْق وأنا حائض، فأعطيه النبى ﷺ، فيضع فمه فى الموضع الذى وضعت فمى فيه، وأشرب الشراب فأناوله، فيضع فمه فى الموضع الذى كنت أشرب [٤].

وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن جابر بن صُبْح [٥]: سمعت خلاساً الهَجَرى قال: سمعت عائشة تقول: كنت أنا ورسول الله ﷺ نبيت فى الشعار الواحد، وإنى حائض طامث، فإن أصابه منى شىء، غسل مكانه لم يَعْدُه، وإن أصاب ـ يعنى ثوبه ـ شىء غسل مكانه لم يَعْدُه، وصلى فيه [٦].

فأما ما رواه أبو داود: حدثنا سعيد بن عبد الجبار، حدثنا عبد العزيز ـ يعنى ابن محمد ـ عن أبى اليمان، عن أم ذرة، عن عائشة: أنها قالت: كنتُ إذا حضْتُ نزلت عن المِثَال على الحصير، فلم نقرب رسول الله ﷺ ولم ندن منه حتى نطهر [٧] ـ فهو محمول [٨] على التنزه والاحتياط.

وقال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار، كما ثبت فى الصحيحين، عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت: كان النبى [٩] ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهى حائض [١٠]. وهذا لفظ البخارى. ولهما عن عائشة نحوه [١١].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجة من حديث العلاء بن الحارث، عن حزام

(١) فى أ: «إنى سائلك».
(٢) تفسير الطبرى (٤/ ٣٧٨).
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٧).
(٤) صحيح مسلم برقم (٣٠٠).
(٥) فى جـ، أ، و: «صبيح».
(٦) سنن أبى داود برقم (٢٦٩).
(٧) سنن أبى داود برقم (٢٧١).
(٨) فى جـ: «فمحمول». (٩) فى جـ: «كان رسول الله ».
(١٠) صحيح البخارى برقم (٣٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٩٤).
(١١) صحيح البخارى برقم (٣٠٠) وصحيح مسلم برقم (٢٩٣).

ابن حكيم، عن عمه عبد الله بن سعد الأنصارى: أنه سأل رسولَ الله ﷺ: ما يَحِل لى من امرأتى وهى حائض؟ قال: «ما[١] فوق الإزار»[٢].

ولأبى داود أيضاً، عن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله ﷺ عما يحل لى من امرأتى وهى حائض[٣]. قال: «ما فوق الإزار والتعفف عن ذلك أفضل». وهو رواية عن عائشة ـ كما تقدم ـ وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وشريح.

فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل له ما فوق الإزار منها، وهو أحد القولين فى مذهب الشافعى رحمه الله، الذى رجحه كثير من العراقيين وغيرهم. ومأخذهم[٤] أنه حريم الفرج، فهو حرام، لئلا يتوصل إلى تعاطى ما حرم الله عز وجل، الذى أجمع العلماء على تحريمه، وهو المباشرة فى الفرج. ثم من فعل ذلك فقد أثم، فيستغفر الله ويتوب إليه. وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا؟ فيه قولان:

أحدهما: نعم، لما رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ فى الذى يأتى امرأته وهى حائض: «يتصدق بدينار، أو نصف دينار»[٥]. وفى لفظ للترمذى: «إذا كان دماً أحمر فدينار، وإن كان دماً أصفر فنصف دينار». وللإمام أحمد أيضاً، عنه: أن رسول الله ﷺ جعل فى الحائض تصاب ،ديناراً فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل، فنصف دينار.

والقول الثانى: وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعى، وقول الجمهور: أنه لا شىء فى ذلك، بل يستغفر الله عز وجل، لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث، فإنه [قد][٦] روى مرفوعاً كما تقدم وموقوفاً، وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث، فقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ**﴾ تفسير لقوله: ﴿**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ**﴾ ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً، ومفهومه حله إذا انقطع، [وقد قال به طائفة من السلف. قال القرطبى: وقال مجاهد وعكرمة وطاوس: انقطاع الدم يحلها لزوجها ولكن بأن تتوضأ][٧].

وقوله: ﴿**فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ**﴾ فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال. وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة، لقوله: ﴿**فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ**﴾ وليس له فى ذلك مستند، لأن هذا أمر بعد الحظر. وفيه أقوال لعلماء الأصول، منهم من يقول: إنه للوجوب كالمطلق. وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم، ومنهم من يقول: إنه للإباحة، ويجعلون تقدم النهى عليه قرينة صارفة له عن الوجوب، وفيه نظر. والذى ينهض عليه الدليل أنه يُرَدّ الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهى، فإن كان واجباً فواجب، كقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ**

(١) فى جـ: «لك ما».

(٢) المسند (٤/ ٣٤٢) وسنن أبى داود برقم (٢١٢) وسنن الترمذى برقم (١٣٣) وسنن ابن ماجة برقم (٦٥١).

(٣) سنن أبى داود برقم (٢١٣).

(٤) فى أ، و: «ومأخذه».

(٥) المسند (١/ ٢٣٠) وسنن أبى داود برقم (٢٦٦) وسنن الترمذى برقم (١٣٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٢٨٢).

(٦) زيادة من جـ.

(٧) زيادة من جـ، أ.

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، أو مباحاً فمباح، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وقد حكاه الغزالى وغيره، واختاره بعض أئمة المتأخرين، وهو الصحيح.

وقد اتفق العلماء[١] على أن المرأة إذا انقطع حيضُها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم، إن[٢] تعذر ذلك عليها بشرطه، [إلا يحيى بن بكير من المالكية وهو أحد شيوخ البخارى، فإنه ذهب إلى إباحة وطء المرأة بمجرد انقطاع دم الحيض، ومنهم من ينقله عن ابن عبد الحكم أيضا، وقد حكاه القرطبى عن مجاهد وعكرمة عن طاوس كما تقدم][٣]. إلا أن أبا حنيفة، رحمه الله، يقول[٤] فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض، وهو عشرة أيام عنده: إنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلى غسل [ولا يصح لأقل من ذلك المزيد فى حلها من الغسل ويدخل عليها وقت صلاة إلا أن تكون دمثة، فيدخل بمجرد انقطاعه][٥]، والله أعلم.

وقال ابن عباس: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ أى: من الدم ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ أى: بالماء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، ومقاتل بن حيان، والليث بن سعد، وغيرهم.

وقوله: ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعنى الفَرْج؛ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ يقول فى الفرج ولا تَعْدُوه[٦] إلى غيره، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى.

وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى: أن تعتزلوهن. وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء فى الدبر، كما سيأتى تقريره قريباً.

وقال أبو رَزِين، عكرمة، والضحاك وغير واحد: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ يعنى: طاهرات غير حُيَّض، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾أى: من الذنب وإن تكرر[٧] غشْيانه، ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أى: المتنزهين عن[٨] الأقذار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض، أو فى غير المأتى.

وقوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ قال ابن عباس: الحرث موضع الولد ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أى: كيف شئْتم مقبلة ومدبرة فى صِمام واحد، كما ثبتت بذلك الأحاديث.

قال البخارى: حدثنا أبو نُعيم، حدثنا سفيان عن ابن المنْكَدر قال: سَمعت جابراً قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾. ورواه داود[٩]، من حديث سفيان الثورى به[١٠].

---

(١) فى جـ: «جمهور العلماء». (٢) فى جـ: «أو». (٣) زيادة من جـ، أ.
(٤) فى جـ: «إلا أبا حنيفة وصاحبيه فإنهم رحمهم الله يقولون». (٥) زيادة من جـ.
(٦) فى جـ: « ولا تعداه ». (٧) فى جـ: « وإن تكون ». (٨) فى جـ، أ: « من ».
(٩) فى جـ، أ، و: «ورواه مسلم وأبو داود».
(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٥٢٨).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى مالك بن أنس وابن جريج وسفيان بن سعيد الثورى: أن محمد بن المنكدر حدثهم: أن[١] جابر بن عبد الله أخبره: أن اليهود قالوا للمسلمين: من أتى امرأة وهى مدبرة جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

قال ابن جريج فى الحديث: فقال رسول الله ﷺ: «مقبلة ومدبرة، إذا كان ذلك فى الفرج».

وفى حديث بَهْز بن حكيم بن معاوية بن حَيْدة القشيرى، عن أبيه، عن جده أنه قال: يا رسول الله، نساؤنا ما نأتى منها وما نذر؟ قال: «حرثك، ائت حرثك أنى شئت، غير ألا تضربَ الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى المبيت[٢]». الحديث، رواه أحمد، وأهل السنن[٣].

حديث آخر: قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى ابن لَهِيعة عن يزيد ابن أبى حبيب، عن عامر بن يحيى، عن حنش بن عبد الله، عن عبد الله بن عباس قال: أتى ناس من حمير إلى رسول الله ﷺ، فسألوه عن أشياء، فقال له رجل: إنى أحب النساء، فكيف ترى فى ذلك؛ فأنزل الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[٤].

حديث آخر: قال أبو جعفر الطحاوى فى كتابه «مشكل الحديث»: حدثنا أحمد بن داود بن موسى، حدثنا يعقوب بن كاسب، حدثنا عبد الله بن نافع، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد الخدرى: أن رجلا أصاب امرأة فى دبرها، فأنكر الناس عليه ذلك، فأنزل الله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، ورواه ابن جرير عن يونس وعن يعقوب، به[٥].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم[٦]، عن عبد الرحمن بن سابط قال: دخلت على حفصة ابنة[٧] عبد الرحمن بن أبى بكر فقلت: إنى سائلك عن أمر، وإنى[٨] أستحيى أن أسألك. قالت: فلا تستحى يا ابن أخى. قال: عن إتيان النساء فى أدبارهن؟ قالت: حدثتنى أم سلمة أن الأنصار كانوا لا يَجُبّون النساء، وكانت اليهود تقول: إنه من جَبَّى امرأته كان الولد أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا فى نساء الأنصار، فجبوهنّ، فأبت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتى رسول الله ﷺ. فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسى حتى يأتى رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ استحيت الأنصارية أن تسأله، فخرجت، فحدثت أم سلمة رسول الله ﷺ فقال: «ادعى الأنصارية»: فدُعيَتْ، فتلا عليها هذه الآية: «﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ صماماً واحداً».

---

(١) فى جـ: «عن». (٢) فى جـ، أ، و: «فى البيت».
(٣) المسند (٥/ ٣) وسنن أبى داود برقم (٢١٤٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٩١٦٠).
(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (٤/ ٤١٣) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/ ٢٣٧) من طريق ابن لهيعة به.
(٥) مشكل الآثار برقم (٦١١٨). (٦) فى جـ: «بن خيثم».
(٧) فى أ: «بنت».
(٨) فى جـ: «وانا».

ورواه الترمذى، عن بُنْدَار، عن ابن مهدى، عن سفيان، عن ابن خُثَيْم[١]، به[٢]. وقال: حسن.

قلت: وقد روى من طريق حماد بن أبى حنيفة، عن أبيه، عن ابن خُثَيْم[٣]، عن يوسف بن ماهَك، عن حفصة أم المؤمنين: أن امرأة أتتها فقالت: إن زوجى يأتينى مُجَبِّيَة ومستقبلة فكرهته، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: «لا بأس إذا كان فى صمام واحد»[٤].

حديث آخر:قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا يعقوب ـ يعنى القُمَى [٥] ـ عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت! قال: «ما الذى أهلكك؟» قال: حولت رحلى البارحة! قال: فلم يرد عليه شيئاً. قال: فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾: أقبل وأدبر، واتق الدبر والحيضة».

رواه الترمذى، عن عبد بن حميد، عن حسن بن موسى الأشيب، به[٦]. وقال: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غَيْلان، حدثنا رِشْدين، حدثنى الحسن بن ثوبان، عن عامر ابن يحيى المعافرى، عن حَنَش، عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ**﴾ فى أناس من الأنصار، أتوا النبى ﷺ، فسألوه، فقال النبى ﷺ: «آتها على كل حال، إذا كان فى الفرج»[٧].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحارث بن سريج[٨]، حدثنا عبد الله بن نافع، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد قال: أثفر رجل امرأته على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: أثفر فلان امرأته، فأنزل الله عز وجل: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾[٩].

وقال أبو داود: حدثنا عبد العزيز بن يحيي أبو الأصبغ، قال: حدثنى محمد ـ يعنى ابن سلمة ـ عن محمد ابن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: إن ابن عمر ـ والله يغفر له ـ أوهم، إنما كان أهل هذا الحى من الأنصار ـ وهم أهل وثن ـ مع أهل هذا الحى من يهود ـ وهم أهل كتاب ـ وكانوا يرون لهم فضلا عليهم فى العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحى من قريش يَشْرَحون النساء شرحاً منكراً، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات. فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من

---

(١) فى جـ: «خيثم».

(٢) المسند (٦/ ٣٠٤) وسنن الترمذى برقم (٢٩٧٩).

(٣) فى جـ: «خيثم».

(٤) مسند أبى حنيفة برقم (١٠٢).

(٥) فى جـ : «العمى».

(٦) المسند (١/ ٢٩٧) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨٠).

(٧) المسند (١/ ٢٦٨).

(٨) فى هـ: «شريح».

(٩) مسند أبى يعلى (٢/ ٣٥٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٣١٩): «شيخه الحارث بن سريج، ضعيف كذاب» ولكنه توبع، تابعه يعقوب بن حميد، فرواه عن عبد الله بن نافع عن هشام، عن زيد بن أسلم به، أخرجه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٦١١٨) وقد سبق.

الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نُؤتى على حرف. فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني، فسرى أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ أى: مقبلات، ومدبرات، ومستلقيات ـ يعنى بذلك موضع الولد(١).

تفرد به أبو داود، ويشهد (٢) له بالصحة ما تقدم من الأحاديث، ولاسيما رواية أم سلمة، فإنها مشابهة لهذا السياق.

وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو القاسم الطبرانى من طريق محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه (٣) عند كل آية منه(٤)، وأسأله عنها، حتى انتهيت إلى هذه الآية: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾، فقال ابن عباس: إن هذا الحى من قريش كانوا يشرحون (٥) النساء بمكة، ويتلذذون بهن.. فذكر القصة بتمام سياقها(٦).

وقول ابن عباس: «إن ابن عمر ـ والله يغفر له ـ أوهم». كأنه يشير إلى ما رواه البخارى:

حدثنا إسحاق، حدثنا النضر بن شميل، أخبرنا ابن عون عن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغُ منه، فأخذت عليه يوماً فقرأ سورة البقرة، حتى انتهى إلى مكان قال(٧): أتدرى فيم أنزلت؟ قلت: لا. قال: أنزلت فى كذا وكذا. ثم مضى. وعن عبد الصمد قال: حدثنى أبى، حدثنى أيوب، عن نافع، عن ابن عمر: ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ قال: يأتيها فى... (٨).

هكذا رواه البخارى، وقد تفرد به من هذه الوجوه(٩).

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا ابن عون، عن نافع قال: قرأت ذات يوم: ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾، فقال ابن عمر: أتدرى فيم نزلت؟ قلت: لا. قال: نزلت فى إتيان النساء فى أدبارهن(١٠).

وحدثنى أبو قلابة، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنى أبى، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر: ﴿ فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾قال: فى الدبر(١١).

وروى من حديث مالك، عن نافع، عن ابن عمر، ولا يصح.

وروى النسائى، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبى بكر بن أبى أويس، عن سليمان ابن بلال، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر: أن رجلا أتى امرأته فى دبرها، فوجد فى نفسه من ذلك

---

(١) سنن أبى داود برقم (٢١٦٤).
(٢) فى جـ: «وشهد». (٣) فى حـ، أ، و: «أوقفه عليه».
(٤) فى جـ: «فيه». (٥) فى جـ: «يشرخون».
(٦) المعجم الكبير (١١/ ٧٧).
(٧) فى جـ: «فقال».
(٨) بياض فى جميع النسخ، وفى فتح البارى ٨/ ١٣٠: «كذا وقع فى جميع النسخ، لم يُذكر ما بعد الظرف وهو المجرور، ووقع فى الجمع بين الصحيحين للحميدى: يأتيها فى الفرج. وهو من عنده بحسب ما فهمه» ومستفادا من هامش ط. الشعب.
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٥٢٦).
(١٠) تفسير الطبرى (٤/ ٤٠٤).
(١١) تفسير الطبرى (٤/ ٤٠٦).

وجداً شديداً، فأنزل الله: ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾[١].

قال أبو حاتم الرازي: لو كان هذا عند زيد بن أسلم، عن ابن عمر لما أولع[٢] الناس بنافع. وهذا تعليل منه لهذا الحديث.

وقد رواه عبد الله بن نافع، عن داود بن قيس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عمر ـ فذكره.

وهذا محمول على ما تقدم، وهو أنه يأتيها في قبلها من دبرها، لما رواه النسائي أيضاً عن على ابن عثمان النفيلي، عن سعيد بن عيسى، عن المفضل[٣] بن فضالة عن عبد الله بن سليمان الطويل، عن كعب بن علقمة، عن أبي النضر: أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر: إنه قد أكثر عليك القول: إنك تقول عن ابن عمر إنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن قال: كذبوا علي، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر: إن ابن عمر عرض المصحف يوماً وأنا عنده، حتى بلغ: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾: فقال: يا نافعُ، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت[٤]: لا. قال: إنا كنا معشر قريش نُجبِّي[٥] النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منهن مثل ما كنا نريد فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمنه، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾[٦].

وهذا إسناد صحيح، وقد رواه ابن مردويه، عن الطبراني، عن الحسين بن إسحاق، عن زكريا[٧] ابن يحيى كاتب العمري، عن مفضل بن فضالة، عن عبد الله بن عياش[٨]، عن كعب بن علقمة، فذكره. وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحا، وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتي، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر[٩]، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك، رحمه الله. وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه؛ فقال الحسن بن عرفة:

حدثنا إسماعيل بن عياش[١٠]، عن سهيل[١١] بن أبي صالح، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا، إن الله لا يستحيي من الحق، لا يحل مأتى النساء في حشوشهن»[١٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن عبد[١٣] بن شداد عن رجل عن خزيمة بن ثابت: أن رسول الله ﷺ نهى أن يأتي الرجل امرأته في دبرها[١٤].

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٩٨١).
(٢) في جـ: «لما ولع».
(٣) في جميع المخطوطات: «الفضل»، والصواب ما أثبتناه.
(٤) في جـ، أ: «قال».
(٥) في أ: «نجب».
(٦) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٩٧٨).
(٧) في أ: «عن أبي زكريا».
(٨) في أ: «عباس».
(٩) في أ: «السير».
(١٠) في أ: «عباس».
(١١) في جـ، أ: «عن سهل».
(١٢) ورواه الدارقطني في السنن (٣/ ٢٨٨) من طريق الحسن بن عرفة به.
(١٣) في جـ، أ: «عن عبد الله».
(١٤) المسند (٥/ ٢١٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٩٨٥، ٨٩٨٦) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٢٤) وانظر الاختلاف فيه في: سنن النسائي (٥/ ٣١٦ ـ ٣١٩).

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يعقوب، سمعت أبي يحدث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة ابن الهاد: أن عبيد الله بن الحصين الوالبي حدثه أن هرمي بن عبد الله الواقفي حَدَّثه: أن خزيمة بن ثابت الخطمي حدثه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يستحيي الله من الحق، لا يستحي الله من الحق ـ ثلاثا ـ لا تأتوا النساء في أعجازهن».

ورواه النسائي، وابن ماجة من طرق، عن خزيمة بن ثابت. وفي إسناده اختلاف كثير.

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي، والنسائي: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن الضحاك بن عثمان، عن مَخْرمة بن سليمان، عن كُرَيْب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة في الدبر». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب (١). وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢). وصححه ابن حزم أيضاً. ولكن رواه النسائي، عن هناد، عن وكيع، عن الضحاك، به (٣) موقوفاً.

وقال عبد: أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن ابن طاوس، عن أبيه: أن رجلا سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها قال(٤): تسألني عن الكفر! [إسناد صحيح](٥).

وكذا رواه النسائي، من طريق ابن المبارك، عن معمر (٦) ـ به نحوه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن عَمْرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى»(٧).

وقال عبد الله بن أحمد: حدثني هدبة، حدثنا همام، قال: سُئل قتادة عن الذي يأتي امرأته في دبرها. فقال قتادة: حدثنا عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ قال: «هي اللوطية الصغرى».

قال قتادة: وحدثني عقبة بن وسَّاج، عن أبي الدرداء قال: وهل يفعل ذلك إلا كافر؟(٨).

وقد روى هذا الحديث يحيى بن سعيد القطان، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو (٩) بن العاص، قوله. وهذا أصح، والله أعلم.

وكذلك رواه عبد بن حميد، عن يزيد بن هارون، عن حميد الأعرج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، موقوفاً من قوله.

طريق أخرى: قال جعفر الفريابي: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الرحمن بن زياد بن العم، عن أبي عبد الرحمن الحُبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة لا ينظر

---

(١) سنن الترمذي برقم (١١٦٥) وسنن النسائي الكبري برقم (٩٠٠١).

(٢) صحيح ابن حبان برقم (١٣٠٢) «موارد».

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (٩٠٠٢).

(٤) في جـ: «فقال». (٥) زيادة من جـ، أ، و.

(٦) في هـ: «عن عكرمة» وهو خطأ.

(٧) المسند (٢/ ٢١٠).

(٨) زوائد المسند (٢/ ٢١٠).

(٩) في جـ: «عمر».

الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم، ويقول: ادخلوا النار مع الداخلين: الفاعل والمفعول به، والناكح يده، وناكح البهيمة، وناكح المرأة فى دبرها، وجامع بين المرأة وابنتها، والزانى بحليلة جاره، والمؤذى جاره حتى يلعنه»(١).

ابن لَهِيعة وشيخه ضعيفان.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن عاصم، عن عيسى بن حطان، عن مُسْلم بن سَلاَم، عن على بن طلق، قال: نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء فى أدبارهن؛ فإن الله لا يستحيى من الحق(٢).

وأخرجه أحمد أيضاً، عن أبى معاوية، وأبو عيسى الترمذى من طريق أبى معاوية أيضاً، عن عاصم الأحول [به] (٣) وفيه زيادة، وقال: هو حديث حسن(٤).

ومن الناس من يورد هذا الحديث فى مسند على بن أبى طالب، كما وقع فى مسند الإمام أحمد ابن حنبل(٥)، والصحيح أنه على بن طلق.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن سُهَيل بن أبى صالح، عن الحارث بن مُخلَّد، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذى يأتى امرأته فى دبرها لا ينظر الله إليه».

وحدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا سهيل، عن الحارث بن مخلد، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله (٦) ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته فى دبرها».

وكذا رواه ابن ماجة من طريق سهيل(٧).

وحدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان عن سهيل بن أبى صالح، عن الحارث بن مخلد، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة فى دبرها».

وهكذا رواه أبو داود، والنسائى من طريق وَكِيع، به(٨).

طريق أخرى: قال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى: أخبرنا أحمد بن القاسم بن الريان، حدثنا أبو عبد الرحمن النسائى، حدثنا هناد، ومحمد ابن إسماعيل ـ واللفظ له ـ قالا: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سهيل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأة فى دبرها»(٩).

---

(١) ورواه أبو الشيخ فى مجلس من حديثه (٦٢/١، ٢)، وابن بشران فى الأمالى (٨٦/١، ٢) من طرق عن عبد الرحمن بن زياد الأفريقى به. أ. هـ مستفاداً من إرواء الغليل للألبانى (٥٩/٨).

(٢) ذكره ابن حجر فى أطراف المسند (٣٨٤/٤) ولم أجده فى المطبوع.

(٣) زيادة من جـ، أ.

(٤) ذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٣٨٤/٤) وسنن الترمذى برقم (١١٦٤).

(٥) المسند (٨٦/١).

(٦) فى أ، و: «عن أبى هريرة عن النبى».

(٧) المسند (٣٤٤/٢) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٢٣).

(٨) المسند (٤٤٤/٢) وسنن أبى داود برقم (٢١٦٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (٩٠١٥).

(٩) رواه أبو نعيم فى جزء له عالٍ عن أحمد بن القاسم بن الريان، قال الذهبى: «فيه ما ينكر».

ليس هذا الحديث هكذا فى سنن النسائى، وإنما الذى فيه عن سهيل، عن الحارث بن مخلد، كما تقدم.

قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى: ورواية أحمد بن القاسم بن الريان هذا الحديث بهذا السند، وَهْمٌ منه، وقد ضعفوه.

طريق أخرى: رواها [١] مسلم بن خالد الزِّنْجى، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «ملعون من أتى النساء فى أدبارهن».

ومسلم بن خالد فيه كلام، والله أعلم.

طريق أخرى: رواها الإمام أحمد، وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة، عن حكيم الأثرم، عن أبى تميمة الهُجيْمى، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة فى دبرها، أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد»[٢].

وقال الترمذى: ضعف البخاري هذا الحديث. والذى قاله البخارى فى حديث حكيم [الأثرم] [٣] عن أبى تميمة: لا يتابع فى حديثه[٤].

طريق أخرى: قال النسائى: حدثنا عثمان بن عبد الله، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن من كتابه، عن عبد الملك بن محمد الصنعانى، عن سعيد بن عبد العزيز، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «استحيوا من الله حق الحياء، لا تأتوا النساء فى أدبارهن»[٥].

تفرد به النسائى من هذا الوجه.

قال حمزة بن محمد الكنَانى الحافظ: هذا حديث منكر باطل من حديث الزهرى، ومن حديث أبى سلمة ومن حديث سعيد؛ فإن كان عبد الملك سمعه من سعيد، فإنما سمعه بعد الاختلاط، وقد رواه الزهرى عن أبى سلمة أنه كان ينهى عن ذلك، فأما عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فلا. انتهى كلامه.

وقد أجاد وأحسن الانتقاد؛ إلا أن عبد الملك [بن محمد] [٦] الصنعانى لا يعرف أنه اختلط، ولم يذكر ذلك أحد غير حمزة الكنانى، وهو ثقة، ولكن تكلم فيه دُحَيْم، وأبو حاتم، وابن حبان، وقال: لا يجوز الاحتجاج به، فالله أعلم. وقد تابعه زيد بن يحيى بن [٧] عبيد، عن سعيد بن عبد العزيز. وروى من طريقين آخرين، عن أبى سلمة. ولا يصح منها شىء.

طريق أخرى: قال النسائى: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن سفيان الثورى، عن ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن أبى هريرة قال: إتيان الرجال النساء [٨] فى

(١) فى جـ: «رواية»، وفى أ، و: «ورواه».

(٢) المسند (٢/٤٠٨) وسنن أبى داود برقم (٣٩٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٣٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (٩٠١٦) وسنن ابن ماجة برقم (٦٣٩).

(٣) زيادة من جـ، أ، وفى و: «حكيم الترمذى».

(٤) التاريخ الكبير (٣/١٧).

(٥) سنن النسائى الكبرى برقم (٩٠١٠).

(٦) زيادة من جـ، أ، و. (٧) فى جـ: «عن». (٨) فى جـ، أ: «والنساء».

أدبارهن كفر[١].

ثم رواه، عن بُنْدَار، عن عبد الرحمن، به. قال: من أتى امرأة [٢] فى دبرها ملك[٣] كفره[٤]. هكذا رواه النسائى، من طريق الثورى، عن ليث، عن مجاهد، عن أبى هريرة موقوفاً. وكذا رواه من طريق على بن بذيمة، عن مجاهد، عن أبى هريرة ـ موقوفاً [٥] . ورواه بكر بن خنيس، عن ليث، عن مجاهد، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «من أتى شيئاً من الرجال والنساء فى الأدبار فقد كفر» والموقوف أصح، وبكر بن خنيس ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه آخرون[٦].

حديث آخر: قال محمد بن أبان البلخى: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه ـ وعن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن يزيد بن الهاد قالا: قال عمر بن الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يستحيى من الحق، لا تأتوا النساء فى أدبارهن»[٧].

وقد رواه النسائى: حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانى، عن عثمان بن اليمان، عن زمعة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن الهاد، عن عمر قال: «لا تأتوا النساء فى أدبارهن»[٨].

وحدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يزيد بن أبى حكيم، عن زمعة بن صالح، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن عبد الله بن الهاد الليثى قال: قال عمر رضى الله عنه: استحيوا من الله، فإن الله لا يستحيي من الحق، لا تأتوا النساء فى أدبارهن [٩] . الموقوف أصح.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا غُنْدَر ومعاذ بن معاذ قالا: حدثنا شعبة عن عاصم الأحول، عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن طلق بن يزيد ـ أو يزيد بن طلق ـ عن النبى ﷺ قال: «إن الله لا يستحيي من الحق، لا تأتوا النساء فى أستاههن»[١٠].

وكذا رواه غير واحد، عن شعبة. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن عاصم الأحول، عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن طلق بن على، والأشبه أنه على بن طلق، كما تقدم، والله أعلم.

حديث آخر: قال أبو بكر الأثرم فى سننه: حدثنا أبو مسلم الحَرَمىّ، حدثنا أخى أنيس بن إبراهيم[١١] أن أباه إبراهيم بن عبد الرحمن بن القعقاع أخبره، عن أبيه أبى القعقاع، عن ابن مسعود،

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (٩٠١٨).

(٢) فى جـ، أ، و: «امرأته». (٣) فى جـ: «تلك»، وفى أ: «وذلك».

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (٩٠١٩).

(٥) سنن النسائى الكبرى برقم (٩٠٢١).

(٦) رواه العقيلى فى الضعفاء الكبير (١/ ١٤٩).

(٧) ذكره الدارقطنى فى العلل (٢/ ١٦٧) قال: «ولم يذكر طاوساً فى حديث عمرو بن دينار، وقول عثمان بن اليمان أصحها».

(٨) سنن النسائى الكبرى برقم (٩٠٠٨).

(٩) سنن النسائى الكبرى برقم (٩٠٠٩).

(١٠) ذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٤/ ٣٨٤) من طريق غندر فى مسند على بن طلق، ولا أدرى كيف وقع هنا يزيد بن طلق، وقد بين الحافظ الصواب فى ذلك، والله أعلم. (١١) فى أ: «أخى أنيس بن أبى تميم».

رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «محاش النساء حرام»[١].

وقد رواه إسماعيل بن علية، وسفيان الثورى، وشعبة، وغيرهم، عن أبى عبد الله الشقرى ـ واسمه سلمة بن بن تمام: ثقة ـ عن أبى القعقاع، عن ابن مسعود ـ موقوفاً. وهو أصح.

طريق أخرى: قال ابن عدى: حدثنا أبو عبد الله المحاملى، حدثنا سعيد بن يحيى الأموى، حدثنا محمد بن حمزة، عن زيد بن رفيع عن أبى عبيدة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأتوا النساء فى أعجازهن»[٢]، محمد بن حمزة هو الجزرى، وشيخه فيهما مقال.

وقد روى من حديث أبى بن كعب[٣]، والبراء بن عازب، وعقبة بن عامر[٤]، وأبى ذر، وغيرهم. وفى كل منها [٥] مقال لا يصح معه الحديث، والله أعلم.

وقال الثورى، عن الصَّلت بن بَهْرام، عن أبى المعتمر، عن أبى جويرية [٦] قال: سأل رجل عليا عن إتيان المرأة فى دبرها، فقال: سفلت، سَفَّلَ الله بك! ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

وقد تقدم قول ابن مسعود، وأبى الدرداء، وأبى هريرة، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو فى تحريم ذلك، وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، أنه يحرمه.

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الدارمى فى مسنده: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، عن الحارث بن يعقوب، عن سعيد بن يسار أبى الحباب قال: قلت لابن عمر: ما تقول فى الجوارى، أنحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكر الدُّبر. فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟

وكذا رواه ابن وهب وقتيبة، عن الليث، به. وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك، فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم[٧].

وقال ابن جرير: حدثنى عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد بن أبى الغمر[٨]، حدثنى عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس أنه قيل له: يا أبا عبد الله، إن الناس يروون عن سالم بن عبد الله أنه قال: كذب العبد، أو العلج، على أبى [عبد الله] [٩] فقال مالك: أشهد على يزيد بن رومان أنه أخبرنى، عن سالم بن عبد الله، عن ابن عمر مثل ما قال نافع. فقيل له: فإن الحارث بن يعقوب يروى عن أبى الحباب سعيد بن يسار: أنه سأل ابن عمر فقال له: يا أبا عبد الرحمن، إنا نشترى الجوارى أفنحمض لهن؟ فقال: وما التحميض؟ فذكر له الدبر. فقال ابن عمر: أف ! أف! أيفعل ذلك مؤمن ـ أو قال: مسلم ـ فقال مالك: أشهد على ربيعة

(١) ورواه الدولابى فى الكنى (٢/ ٨٥).
(٢) الكامل لابن عدى (٣/ ٢٠٦).
(٣) حديث أبى بن كعب رواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٥٤٥٧) من طريق أبى قلابة، عن زر بن حبيش، عن أبى بن كعب به.
(٤) حديث عقبة بن عامر رواه ابن عدى فى الكامل (٤/ ١٤٨) من طريق ابن لهيعة، عن مشرح بن هاعان، عن عقبة به.
(٥) فى أ: «منهما». (٦) فى جـ: «عن أبى جرير به»، وفى أ: «عن أبى جويرة». (٧) فى جـ، أ: «هذا الحكم».
(٨) فى جـ، أ، و: «أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبى الغمر». (٩) زيادة من جـ.

لأخبرنى عن أبى الحباب، عن ابن عمر، مثل ما قال نافع[١].

وروى النسائى، عن الربيع بن سليمان، عن أصبغ بن الفرج الفقيه، حدثنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قلت لمالك: إن عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحارث بن يعقوب، عن سعيد[٢] بن يسار، قال: قلت لابن عمر: إنا نشترى الجوارى، فنحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ قلت: نأتيهن فى أدبارهن. فقال: أف! أف! أو يعمل هذا مسلم؟ فقال لى مالك: فأشهد على ربيعة لحدثنى عن سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر، فقال: لا بأس به[٣].

وروى النسائى أيضاً من طريق يزيد بن رومان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن ابن عمر[٤] كان لا يرى بأساً أن يأتى الرجل المرأة فى دبرها[٥].

وروى معن[٦] بن عيسى، عن مالك: أنّ ذلك حرام.

وقال أبو بكر بن زياد النيسابورى: حدثنى إسماعيل بن حصن، حدثنى إسماعيل[٧] بن روح: سألت مالك بن أنس: ما تقول فى إتيان النساء فى أدبارهن: قال: ما أنتم قوم عرب. هل يكون الحرث إلا موضع الزرع، لا تعدو الفرج.

قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون: إنك تقول ذلك؟! قال: يكذبون على، يكذبون على.

فهذا هو الثابت عنه، وهو قول أبى حنيفة، والشافعى، وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة. وهو قول سعيد بن المسيب، وأبى سلمة، وعكرمة، وطاوس، وعطاء، وسعيد بن جبير، وعروة بن الزبير، ومجاهد بن جبر[٨]، والحسن وغيرهم من السلف: أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فاعله[٩] الكفر، وهو مذهب جمهور العلماء.

وقد حكى فى هذا شىء عن بعض فقهاء أهل المدينة، حتى حكوه عن الإمام مالك، وفى صحته عنه نظر.

[وقد روى ابن جرير فى كتاب النكاح له وجمعه عن يونس بن عبد الأحوص بن وهب إباحته][١٠].

قال الطحاوى: روى أصبغ بن الفرج، عن عبد الرحمن بن القاسم قال: ما أدركت أحداً أقتدى به فى دينى يشك فى أنه حلال. يعنى وطء المرأة فى دبرها، ثم قرأ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ ثم قال: فأى شىء أبين من هذا؟ هذه حكاية الطحاوى.

وقد روى[١١] الحاكم، والدارقطنى، والخطيب البغدادى، عن الإمام مالك من طرق ما يقتضى

(١) تفسير الطبرى (٤/ ٤٠٥).
(٢) فى أ: «عن سفيان».
(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٩٧٩).
(٤) فى أ، و: «أن عبد الله بن عمر».
(٥) سنن النسائى الكبرى برقم (٨٩٨٠).
(٦) فى هـ: «معمر» والصواب ما أثبتناه من جـ، أ، و. (٧) فى جـ، أ، و: «حدثنى اسرائيل». (٨) فى جـ: «بن جبير».
(٩) فى أ، و: «على فعله». (١٠) زيادة من جـ، آ، و. (١١) فى جـ: «وقد أورد».

إباحة ذلك. ولكن فى الأسانيد ضعف شديد، وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى فى جزء جمعه فى ذلك، فالله أعلم.

وقال الطحاوى: حكى لنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعى يقول: ما صح عن النبى ﷺ فى تحليله ولا تحريمه شىء. والقياس أنه حلال. وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب، عن أبى سعيد الصيرفى، عن أبى العباس الأصم، سمعت محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، سمعت الشافعى يقول. . . فذكر. قال أبو نصر بن الصباغ: كان الربيع يحلف بالله الذى لا إله إلا هو: لقد كذب ـ يعنى ابن عبد الحكم ـ على الشافعى فى ذلك فإن الشافعى نص على تحريمه فى ستة (١) كتب من كتبه، والله أعلم.

وقال القرطبى فى تفسيره: وممن ينسب إليه هذا القول ـ وهو إباحة وطء المرأة فى دبرها ـ سعيد ابن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظى وعبد الملك بن الماجشون. وهذا القول فى العتبية. وحكى ذلك عن مالك فى كتاب له أسماه كتاب السر، وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، ومالك أجل من أن يكون له كتاب السر ووقع هذا القول فى العتبية وذكر ابن العربى أن ابن شعبان أسند هذا القول إلى زمرة كبيرة من الصحابة والتابعين وإلى مالك من رواية كثيرة من كتاب جماع النسوان وأحكام القرآن هذا لفظه قال: وحكى الكياالهراسى الطبرى عن محمد بن كعب القرظى أنه استدل على جواز ذلك بقوله: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ الشعراء: [١٦٥، ١٦٦].

يعنى مثله من المباح ثم رده بأن المراد بذلك من خلق الله لهم من فروج النساء لا أدبارهن قلت: وهذا هو الصواب وما قاله القرطى إن كان صحيحاً إليه فخطأ. وقد صنف الناس فى هذه المسألة مصنفات منهم أبو العباس القرطبى وسمى كتابه إظهار إدبار من أجاز الوطء فى الأدبار.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ﴾ أى: من فعل الطاعات، مع امتثال مانهاكم عنه من ترك المحرمات؛ ولهذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ﴾ أى: فيحاسبكم على أعمالكم جميعاً.

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: المطيعين لله فيما أمرهم، التاركين ما عنه (٢) زجرهم.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثنى محمد بن كثير، عن عبد الله بن واقد، عن عطاء ـ قال: أراه عن ابن عباس ـ : ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ﴾ قال: يقول: «باسم الله»، التسمية عند الجماع.

وقد ثبت فى صحيح البخارى، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنِّبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبداً»(٣).

---

(١) فى جـ: «فى ست».
(٢) فى أ: «ما عنهم».
(٣) صحيح البخارى برقم (١٤١).

﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)﴾.

يقول تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها، كقوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير. كما قال البخارى:

حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن النبى ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»، وقال رسول الله ﷺ: «والله لأن يلجّ أحدكم بيمينه فى أهله آثمُ له عند الله من أن يُعطى كفارته التى افترض الله عليه».

وهكذا رواه مسلم، عن محمد بن رافع[١]، عن عبد الرزاق، به. ورواه أحمد، عنه، به[٢].

ثم قال البخارى: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا معاوية، هو ابن سلام، عن يحيى، وهو ابن أبى كثير، عن عكرمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من استلج [٣] فى أهله بيمين، فهو أعظم إثماً، ليس تغنى الكفارة»[٤].

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾ قال: لا تجعلن عرضة ليمينك [٥] ألا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير.

وهكذا قال مسروق، والشعبى، وإبراهيم النخعى، ومجاهد، وطاوس، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، ومكحول والزهرى، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والضحاك، وعطاء الخراسانى، والسدى. ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت فى الصحيحين، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى والله ـ إن شاء الله ـ لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها» [٦]، وثبت فيهما أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت خيراً منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك»[٧].

وروى مسلم، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً

(١) فى جـ: «بن نافع».
(٢) صحيح البخارى برقم (٦٦٢٤، ٦٦٢٥) وصحيح مسلم برقم (١٦٥٥).
(٣) فى جـ: «من استبلج»، وفى أ: «من أسلح».
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٦٢٦).
(٥) فى أ: «ليمنيكم».
(٦) صحيح البخارى برقم (٦٦٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٦٤٩).
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٦٢٢، ٧١٤٦) وصحيح مسلم برقم (١٦٥٢).

منها، فليكفر عن يمينه، وليفعل الذى هو خير»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا خليفة بن خياط، حدثنى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فتركها كفارتها»[٢].

ورواه أبو داود من طريق عبيد الله بن الأخنس، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم، ولا فى معصية الله، ولافى قطيعة رحم، ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليدعها، وليأت الذى هو خير، فإن تركها كفارتها»[٣].

ثم قال أبو داود: والأحاديث عن النبى ﷺ كلها: «فليكفر عن يمينه» وهى الصحاح.

وقال ابن جرير: حدثنا على بن سعيد الكندى، حدثنا على بن مُسْهِر، عن حارثة بن محمد، عن عمرة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على قطيعة رحم أو معصية، فبره أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه»[٤].

وهذا حديث ضعيف؛ لأن حارثة [هذا] [٥] هو ابن أبى الرجال محمد بن عبد الرحمن، متروك الحديث، ضعيف عند الجميع.

ثم روى ابن جرير عن ابن جبير[٦]، وسعيد بن المسيب، ومسروق، والشعبى: أنهم قالوا: لا يمين فى معصية، ولا كفارة عليها[٧].

وقوله: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أى: لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، وهى التى لا يقصدها الحالف، بل تجرى على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد، كما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف فقال فى حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله» [٨] فهذا قاله لقوم حديثى [٩] عهد بجاهلية، قد أسلموا وألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد، فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص، كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد، لتكون هذه بهذه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ [١٠]﴾ كما قال فى الآية الأخرى فى المائدة: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩].

قال أبو داود: باب لغو اليمين: حدثنا حميد بن مسعدة الشامى[١١] حدثنا حسان ـ يعنى ابن

(١) صحيح مسلم برقم (١٦٥٠).
(٢) المسند (٢/ ١٨٥).
(٣) سنن أبى داود برقم (٣٢٧٤).
(٤) تفسير الطبرى (٤/ ٤٤٢).
(٥) زيادة من جـ، أ.
(٦) فى جـ، أ: «عن ابن عباس».
(٧) فى أ: «والكفارة منها».
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨٦٠، ٦٦٥٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٤٧).
(٩) فى جـ: «لقوم حديثو» وهو خطأ.
(١٠) فى أ: «والله غفور رحيم» وهو خطأ.
(١١) فى جـ: «أحمد بن سعدة الشامى».

إبراهيم ـ حدثنا إبراهيم ـ يعنى الصائغ ـ عن عطاء: فى اللغو فى اليمين، قال: قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل فى بيته: كلا والله وبلى والله»[(١)].

ثم قال أبو داود: رواه داود بن أبى الفرات، عن إبراهيم الصائغ، عن عطاء، عن عائشة موقوفاً. ورواه الزهرى، وعبد الملك، ومالك بن مِغْول، كلهم عن عطاء، عن عائشة، موقوفاً أيضاً.

قلت: وكذا رواه ابن جريج، وابن أبى ليلى، عن عطاء، عن عائشة، موقوفاً.

ورواه ابن جرير، عن هناد، عن وكيع، وعبدة، وأبى معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة فى قوله: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٩] قالت: لاوالله، بلى والله.

ثم رواه عن محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن هشام، عن أبيه، عنها. وبه، عن ابن إسحاق، عن الزهرى، عن القاسم، عنها. وبه، عن سلمة [(٢)] عن ابن أبى نَجيح، عن عطاء، عنها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن عروة[(٣)]، عن عائشة فى قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ قالت: هم القوم يتدارؤون [(٤)] فى الأمر، فيقول هذا: لا والله، وبلى والله، وكلا والله يتدارؤون فى الأمر: لا تعقد عليه قلوبهم[(٥)].

وقد قال ابن أبى حاتم: أخبرنا هارون بن إسحاق الهمدانى، حدثنا عبدة ـ يعنى ابن سليمان ـ عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة فى قول الله: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ قالت: هو قول الرجل: لاوالله، وبلى والله.

وحدثنا أبى، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثنى ابن لهيعة، عن أبى الأسود، عن عروة قال: كانت عائشة تقول: إنما اللغو فى المزاحة والهزل، وهو قول الرجل: لاوالله، وبلى والله. فذاك لا كفارة فيه، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله، ثم لا يفعله.

ثم قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن عمر، وابن عباس فى أحد أقواله، والشعبى، وعكرمة فى أحد قوليه، وعطاء، والقاسم بن محمد، ومجاهد فى أحد قوليه، وعروة بن الزبير، وأبى صالح، والضحاك فى أحد قوليه، وأبى قلابة، والزهرى، نحو ذلك.

الوجه الثاني: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى الثقة، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة: أنها كانت تتأول هذه الآية ـ يعنى قوله: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ وتقول: هو الشىء يحلف عليه أحدكم، لا يريد منه إلا الصدق، فيكون على غير ما حلف عليه.

ثم قال: وروى عن أبى هريرة، وابن عباس ـ فى أحد قوليه ـ وسليمان بن يسار، وسعيد بن جبير، ومجاهد ـ فى أحد قوليه ـ وإبراهيم النخعى ـ فى أحد قوليه ـ والحسن، وزرارة بن أوفى،

---

(١) سنن أبى داود برقم (٣٢٥٤).

(٢) فى جـ: « عن إسحاق». (٣) فى جـ: «عن عبدة». (٤) فى جـ: «يتدارون».

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (٤/٤٢٨) من طريق عبد الرزاق به.

وأبى مالك، وعطاء الخراسانى، وبكر بن عبد الله، وأحد قولى عكرمة، وحبيب بن أبى ثابت، والسدى، ومكحول، ومقاتل، وطاوس، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن سعيد، وربيعة، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن موسى الحرشى(١)، حدثنا عبد الله بن ميمون المرالى، حدثنا عوف الأعرابى عن الحسن بن أبى الحسن، قال: مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون ـ يعنى: يرمون ـ ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فرمى رجل من القوم فقال: أصبت والله وأخطأت والله. فقال الذى مع النبى ﷺ: حنث الرجل يا رسول الله. قال: «كلا، أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولاعقوبة» هذا مرسل حسن عن الحسن(٢).

وقال ابن أبى حاتم: وروى عن عائشة القولان جميعاً.

حدثنا عصام بن رواد، أخبرنا آدم، أخبرنا شيبان، عن جابر، عن عطاء بن أبى رباح، عن عائشة قالت: هو قوله: لا والله، وبلى والله، وهو يرى أنه صادق، ولا يكون كذلك.

أقوال أخر: قال عبد الرزاق، عن هشيم، عن مغيرة، عن إبراهيم: هو الرجل يحلف على الشىء ثم ينساه.

وقال زيد بن أسلم: هو قول الرجل: أعمى الله بصرى إن لم أفعل كذا وكذا، أخرجنى الله من مالى إن لم آتك غداً، فهو هذا.

قال ابن أبى حاتم: وحدثنا على بن الحسين، حدثنا مسدد، حدثنا خالد، أخبرنا عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان.

وأخبرنى أبى، أخبرنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنى أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك، فذلك ما ليس عليك فيه كفارة، وكذا روى عن سعيد بن جبير.

وقال أبو داود «باب اليمين فى الغضب»: حدثنا محمد بن المنهال، أنبأنا يزيد بن زريع، حدثنا حبيب المعلم، عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب: أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال: إن عدت تسألنى عن القسمة، فكل مالى فى رتاج الكعبة. فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك وكلم أخاك، سمعت(٣) رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك، ولا نذر فى معصية الرب عز وجل، ولا فى قطيعة الرحم، وفيما(٤) لا تملك»(٥).

وقوله: ﴿ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم﴾: قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو أن يحلف على الشىء وهو يعلم أنه كاذب. قال مجاهد وغيره: وهى كقوله: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾ الآية [المائدة: ٨٩].

---

(١) فى جـ: «الجرشى».

(٢) تفسير الطبرى (٤/ ٤٤٤).

(٣) فى جـ: «فسمعت».

(٤) فى جـ: «ولا فيما».

(٥) سنن أبى داود برقم (٣٢٧٢) ووقع فيه: «باب اليمين فى قطيعة الرحم».

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أى: غفور لعباده، حليم عليهم[(١)].

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) ﴾.

الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو: إما أن يكون أقل من أربعة أشهر، أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر، وليس لها مطالبته بالفيئة [(٢)] فى هذه المدة، وهذا كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله آلى من نسائه شهراً، فنزل لتسع وعشرين، وقال: «الشهر تسع [(٣)] وعشرون» [(٤)] ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه [(٥)] . فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر: إما أن يفىء ـ أى: يجامع ـ وإما أن يطلق، فيجبره الحاكم على هذا أو هذا لئلا يضر بها. ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ أى: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور. ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أى: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة [(٦)] أو الطلاق. ولهذا قال: ﴿ فَإِن فَاءُوا﴾ أى: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس، ومسروق والشعبى، وسعيد بن جبير، وغير واحد، ومنهم ابن جرير رحمه الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: لما سلف من التقصير فى حقهن بسبب اليمين.

وقوله: ﴿ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه دلالة لأحد قولى العلماء ـ وهو القديم عن الشافعى: أن المولى [(٧)] إذا فاء بعد الأربعة الأشهر [(٨)] أنه لا كفارة عليه. ويعتضد بما تقدم فى الآية التى قبلها، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فتركها كفارتها»[(٩)]، كما رواه أحمد وأبو داود [(١٠)] والذى عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعى أن عليه الكفارة لعموم وجوب التكفير على كل حالف، كما تقدم أيضاً فى الأحاديث الصحاح. والله أعلم.

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم ـ فى مناسبة تأجيل [(١١)] المولى بأربعة أشهر ـ الأثر الذى رواه الإمام مالك بن أنس، رحمه الله، فى الموطأ، عن عمرو [(١٢)] بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

تطاوَلَ هذا الليلُ واسودّ جانبُهْ ... وأرقنى ألا خليلَ ألاعبُهْ
فوالله لولا الله أنى أراقبُهْ ... لحرِّكَ من هذا السرير جوانبه

---

(١) فى جـ: «حليم عنهم». (٢) فى جـ: «بالفىء». (٣) فى أ، و: «الشهر يكون تسع».
(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٧٥) وهو عند البخارى من حديث أم سلمة برقم (٥٢٠٢).
(٥) صحيح البخارى برقم (٥١٩١) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٩).
(٦) فى جـ: «بالفىء». (٧) فى جـ: «الألى». (٨) فى جـ: «الأربعة أشهر».
(٩) فى أ: «فتركها كفارة».
(١٠) المسند (٢/ ١٨٥) وسنن أبى داود برقم (٣٢٧٤).
(١١) فى جـ: «تأخير». (١٢) فى أ، و: «عن عبد الله».

فسأل عمر ابنته حفصة، رضى الله عنها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر. فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك[١].

وقال: محمد بن إسحاق، عن السائب بن جبير، مولى ابن عباس ـ وكان قد أدرك أصحاب النبى ﷺ ـ قال: ما زلت أسمع حديث عمر أنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة، وكان يفعل ذلك كثيراً؛ إذ مر بامرأة من نساء العرب [٢] مغلقة بابها [وهى] [٣] تقول.

تطاول هذا الليل وازورّ جانبه ... وأرقنى ألا ضجيعَ ألاعبُـــــــهْ
ألاعبه طوراً وطوراً كأنما ... بدا قمراً فى ظلمة الليل حاجبه
يسرّ به من كان يلهو بقربه ... لطيف الحشا لا يحتويه أقاربه
فوالله لولا الله لا شىء غيره ... لنقض من هذا السرير جوانبه
ولكننى أخشى رقيباً موكلا ... بأنفسنا لايفتُر الدهرَ كاتبه

ثم ذكر بقية ذلك كما تقدم، أو نحوه[٤]. وقد روى هذا من طرق، وهو من المشهورات[٥].

وقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾: فيه دلالة على أنه لا يقع الطلاق [٦] بمجرد مضى الأربعة أشهر كقول الجمهور[٧]، وذهب أخرون إلى أنه يقع بمضى الأربعة أشهر تطليقة، وهو مروى بأسانيد صحيحة عن عمر، وعثمان، وعلى، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه يقول ابن سيرين، [ومسروق] [٨] والقاسم، وسالم والحسن، وأبو سلمة، وقتادة، وشريح القاضى، وقبيصة بن ذؤيب، وعطاء، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وسليمان بن طرخان التيمى، وإبراهيم النخعى، والربيع بن أنس، والسدى.

ثم قيل: إنها تطلق بمضى الأربعة أشهر طلقة رجعية؛ قاله سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ومكحول، وربيعة، والزهرى، ومروان بن الحكم. وقيل إنها تطلق طلقة بائنة، روى عن على، وابن مسعود، وعثمان، وابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه يقول: عطاء وجابر بن زيد، ومسروق وعكرمة، والحسن، وابن سيرين، ومحمد بن الحنفية، وإبراهيم، وقبيصة بن ذؤيب، وأبو حنيفة، والثورى، والحسن بن صالح، وكل من قال: إنها [٩] تطلق بمضى الأربعة أشهر أوجب عليها العدة، إلا ما روى عن ابن عباس وأبى الشعثاء: أنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها، وهو قول الشافعى، والذى عليه الجمهور[١٠] أنه يوقف فيطالب إما بهذا أو هذا[١١]، ولا يقع عليها [١٢] بمجرد مضيها طلاق.

(١) ذكره الحافظ ابن كثير فى مسند الفاروق (١/ ٤٢٢) ونقله القرطبى فى التفسير (٣/ ١٠٨).
(٢) فى جـ: «من نساء الغزاة».
(٣) زيادة من جـ، أ، و.
(٤) ذكره الحافظ ابن كثير فى مسند الفاروق (١/ ٤٢٢).
(٥) فى جـ: «من المشهور».
(٦) فى جـ: «لايقع شىء».
(٧) فى أ: «الجمهور من المتأخرين».
(٨) زيادة من جـ، أ.
(٩) فى أ: «بأنها».
(١٠) فى جـ، أ: «الجمهور من المتأخرين».
(١١) فى جـ، أ: «أو بهذا».
(١٢) فى جـ، أ: «عليه».

وروى مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر، حتى يوقف، فإما أن يطلق، وأما أن يفيء.وأخرجه البخارى(١).

وقال الشافعى، رحمه الله : أخبرنا سفيان بن عيينة، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار قال: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبى ﷺ كلهم يوقف المولى قال الشافعى: وأقل ذلك ثلاثة عشر. ورواه الشافعى عن على رضى الله عنه: أنه وقف المولى. ثم قال: وهكذا نقول، وهو موافق لما رويناه عن عمر، وابن عمر، وعائشة،وعن عثمان، وزيد بن ثابت، وبضعة عشر من أصحاب النبى ﷺ. هكذا قال الشافعى، رحمه الله.

وقال ابن جرير : حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن عمر، عن سهيل بن أبى صالح، عن أبيه قال: سألت اثنى عشر رجلا من الصحابة عن الرجل يولى من امرأته، فكلهم يقول: ليس عليه شىء حتى تمضى أربعة أشهر فيوقف، فإن فاء وإلا طلق.

ورواه الدارقطنى من طريق سهيل.

قلت: وهو مروى عن عمر، وعثمان،وعلى، وأبى الدرداء، وعائشة أم المؤمنين، وابن عمر، وابن عباس.وبه يقول سعيد بن المسيب، وعمر بن عبد العزيز، ومجاهد، وطاوس، ومحمد بن كعب، والقاسم. وهو مذهب مالك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، وأصحابهم، رحمهم الله، وهو اختيار ابن جرير أيضاً،وهو قول الليث[ابن سعد] (٢)،وإسحاق بن راهويه، وأبى عبيد، وأبى ثور، وداود، وكل هؤلاء قالوا: إن لم يفئ ألزم بالطلاق، فإن لم يطلق طلق عليه الحاكم، والطلقة تكون رجعية له رجعتها فى العدة.

وانفرد مالك بأن قال: لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها فى العدة وهذا غريب جداً.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾.

هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أى: بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء؛ ثم تتزوج إن شاءت، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمَة إذا طُلِّقت، فإنها تعتدّ عندهم بقرءين، لأنها على النصف من الحرة، والقرْء لا يتبعض(٣)، فكُمِّل لها قرءان. ولما رواه ابن جريج عن مُظاهر بن أسلم(٤) المخزومى المدنى،عن القاسم، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان».

(١) الموطأ (٢/ ٥٥٦) وصحيح البخارى برقم (٥٢٩١).

(٢) زيادة من جـ.

(٣) فى جـ: « لا يتقصقص ».

(٤) فى جـ: « عن عطاء هو ابن أسلم ».

رواه أبو داود، والترمذى وابن ماجة[١]. ولكن مظاهر هذا ضعيف بالكلية. وقال الحافظ الدارقطنى وغيره: الصحيحُ أنه من قول القاسم بن محمد نفسه.

ورواه ابن ماجة من طريق عطية العَوْفى عن ابن عمر مرفوعاً[٢]. قال الدارقطنى: والصحيح ما رواه سالم ونافع، عن ابن عمر قوله. وهكذا رُوى عن عمر بن الخطاب. قالوا: ولم يعرف بين الصحابة خلاف. وقال بعض السلف: بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية؛ ولأن هذا أمر جِبِلى[٣] فكان الإماء والحرائر[٤] فى هذا سواء، والله أعلم، حكى هذا القول الشيخُ أبو عمر بن عبد البر، عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر، وضعفه.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل ـ يعنى ابن عيّاش[٥] ـ عن عمرو بن مهاجر، عن أبيه: أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت: طُلِّقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله، عز وجل، حين طلقت أسماء العدة للطلاق، فكانت أول من نزلت فيها العدة للطلاق، يعنى: ﴿ والْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾[٦].

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقد اختلف السلف والخلف والأئمة فى المراد بالأَقْرَاء ما هو[٧]؟ على قولين:

أحدهما: أن المراد بها: الأطهار، وقال مالك فى الموطأ عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: انتقلت حفصة بنتَ عبد الرحمن بن أبى بكر، حين دخلت فى الدم من الحيضة الثالثة، قال الزهرى: فذكرتُ ذلك لعمرة بنت عبد الرحمن، فقالت: صدق عروة. وقد جادلها فى ذلك ناس فقالوا: إن الله تعالى يقول فى كتابه: ﴿ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فقالت عائشة: صدقتم، وتدرون ما الأقراءُ؟ إنما الأقراء: الأطهار[٨].

وقال مالك: عن ابن شهاب، سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحداً من فقهائنا إلا وهو يقول ذلك، يريد قول عائشة. وقال مالك: عن نافع، عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته فدخلت فى الدم من الحيضة الثالثة فقد بَرِئت منه وبرئ منها. وقال مالك: وهو الأمر عندنا. ورُوى مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت، وسالم، والقاسم، وعروة، وسليمان بن يسار، وأبى بكر بن عبد الرحمن، وأبان بن عثمان، وعطاء ابن أبى رباح، وقتادة، والزهرى، وبقية الفقهاء السبعة، وهو مذهب مالك، والشافعى [وغير واحد وداود وأبى ثور، وهو رواية عن أحمد، واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق: ١] أى: فى الأطهار. ولما كان الطهر الذى يطلق فيه محتسبًا، دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها؛ ولهذا قال هؤلاء: إن المعتدة

---

(١) سنن أبى داود برقم (٢١٨٩) وسنن الترمذى برقم (١١٨٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٨٠).

(٢) سنن ابن ماجة برقم (٢٠٧٩).

(٣) فى جـ: « جلى ». (٤) فى جـ: « الأحرار والإماء ». (٥) فى أ: « ابن عباس ».

(٦) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٢٨١) من طريق يحيى بن صالح، عن إسماعيل بن عياش به.

(٧) فى أ: « ما هى».

(٨) الموطأ (٢/ ٥٧٧).

تنقضى عدتها وتبين من زوجها بالطعن فى الحيضة الثالثة، وأقل مدة تصدق فيها المرأة فى انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يوماً ولحظتان][١].

واستشهد أبو عُبَيْد وغيره على ذلك بقول الشاعر ـ وهو الأعشى ـ:

ففى كل عام أنت جَاشِمُ غَزْوة ... تَشُدّ لأقصاها عَزِيمَ عَزَائكا
مُوَرِّثة عداً، وفى الحىّ رفعة ... لما ضاع فيها من قُروء نسائكا[٢]

يمدح أميراً من أمراء العرب آثر الغزو على المقام، حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم يواقعهن فيها.

والقول الثانى: أن المراد بالأقراء: الحيض، فلا تنقضى العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها. وأقل وقت تصدق فيه المرأة فى انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يوماً ولحظة. قال الثورى: عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنا عند عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فجاءته امرأة فقالت: إن زوجى فارقنى بواحدة أو اثنتين[٣]، فجاءنى [وقد وضعت مائى][٤] وقد نزعت ثيابى وأغلقت بابى. فقال عمر لعبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ [ما ترى؟ قال][٥]: أراها امرأته، ما دون أن تحل لها الصلاة. قال [عمر:] [٦]وأنا أرى ذلك[٧].

وهكذا[٨] روى عن أبى بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلى، وأبى الدرداء، وعبادة بن الصامت، وأنس بن مالك، وابن مسعود، ومعاذ، وأبى بن كعب، وأبى موسى الأشعرى، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعلقمة، والأسود، وإبراهيم، ومجاهد، وعطاء، وطاوس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، والشعبى، والربيع، ومقاتل بن حيان، والسدى، ومكحول، والضحاك، وعطاء الخراسانى، أنهم قالوا: الأقراء: الحيض.

وهذا مذهب أبى حنيفة وأصحابه، وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل، وحكى عنه الأثرم أنه قال: الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: الأقراء الحيض. وهو مذهب الثورى، والأوزاعى، وابن أبى ليلى، وابن شبرمة، والحسن بن صالح بن حَىّ. وأبى عبيد، وإسحاق بن راهويه.

ويؤيد هذا ما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والنسائى، من طريق المنذر بن المغيرة، عن عروة بن الزبير، عن فاطمة بنت أبى حُبَيش[٩]، أن رسول الله ﷺ قال لها: « دعى الصلاة أيام

---

(١) زيادة من جـ، أ.
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٤/ ٥١٢).
(٣) فى جـ: « أو اثنين ».
(٤ـ ٦) زيادة من تفسير الطبرى (٤/ ٥٠٣).
(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (٤/ ٥٠٣).
(٨) فى جـ: « وهذا ».
(٩) فى جـ: « حسن ».

أقرائك»[١]. فهذا لو صح لكان صريحاً فى أن القرء هو الحيض، ولكن المنذر هذا قال فيه أبو حاتم: مجهول ليس بمشهور. وذكره ابن حبان فى الثقات.

وقال ابن جرير: أصلُ القرء فى كلام العرب: « الوقت لمجىء الشىء المعتاد مجيئه فى وقت معلوم، ولإدبار الشىء المعتاد إدباره لوقت معلوم». وهذه العبارة تقتضى أن يكون مشتركاً بين هذا وهذا، وقد ذهب إليه بعض [العلماء][٢] الأصوليين فالله أعلم. وهذا قول الأصمعى: أن القرء هو الوقت. وقال أبو عمرو بن العلاء: العرب تسمى الحيض: قُرْءا، وتسمى الطهر: قرءاً، وتسمى الحيض مع الطهر جميعاً: قرءا. وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ويراد به الطهر، وإنما اختلفوا فى المراد من الآية ما هو على قولين.

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أى: من حَبَل أو حيض. قاله ابن عباس، وابن عُمَر، ومجاهد، والشعبى، والحكم بن عيينة[٣]، والربيع بن أنس، والضحاك، وغير واحد.

وقوله: ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ : تهديد لهن على قول خلاف الحق. ودل هذا على أن المرجع فى هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتين، وتتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك، فردّ الأمر إليهن، وتُوعِّدْنَ فيه، لئلا تخبر بغير الحق إما استعجالا منها لانقضاء العدة، أو رغبة منها فى تطويلها، لما لها فى ذلك من المقاصد[٤]. فأمرت أن تخبر بالحق فى ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أى: وزوجها الذى طلقها أحق بردتها ما دامت فى عدتها، إذا كان مراده بردتها الإصلاح والخير. وهذا فى الرجعيات. فأما المطلقات البوائن فلم يكنْ حالَ نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما صار ذلك لما حُصروا فى الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحقّ برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصروا فى الآية التى بعدها على ثلاث طلقات[٥]، صار للناس مطلقة بائن وغير بائن. وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين، من استشهادهم على مسألة عود الضمير ـ هل يكون مخصصا لما تقدمه من لفظ العموم أم لا؟ ـ بهذه الآية الكريمة، فإن التمثيل بها غير مطابق لما ذكروه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت فى صحيح مسلم، عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته، فى حجة الوداع: «فاتقوا الله فى النساء، فإنكم أخذتموهُنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله،ولكم عليهن ألا يُوطِئْنَ فُرُشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف»[٦]. وفى حديث بهز بن حكيم، عن معاوية بن حَيْدَة القُشَيرى، عن أبيه، عن جده، أنه قال: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا؟

(١) سنن أبى داود برقم (٢٨٠) وسنن النسائى (١/ ١٢١).
(٢) زيادة من جـ.
(٣) فى جـ: « بن قتيبة ».
(٤) فى أ: « من المفاسد».
(٥) فى أ: « ثلاث تطليقات ».
(٦) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).

قال: « أن تطعمها إذا طعمْتَ، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقبِّح، ولا تهجر إلا فى البيت»[(١)]. وقال وَكِيع عن بشير بن سليمان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: إنى لأحب أن أتزيَّن للمرأة كما أحب أن تتزين لى المرأة؛ لأن الله يقول: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أى: فى الفضيلة فى الخُلُق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤].

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عزيز فى انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم[(٢)] فى أمره وشرعه وقدره.

﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)﴾.

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام، من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته، وإن طلقها مائة مرة ما دامت فى العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله عز وجل إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة فى المرة والثنتين، وأبانها بالكلية فى الثالثة، فقال: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

قال أبو داود، رحمه الله، فى سننه: « باب فى نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث»: حدثنا أحمد ابن محمد المروزى، حدثنى على بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوى، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ[(٣)]﴾ الآية: وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها، وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال[(٤)]: ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ ﴾ الآية.

ورواه النسائى عن زكريا بن يحيى، عن إسحاق بن إبراهيم، عن على بن الحسين، به[(٥)].

---

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢١٤٣).
(٢) فى جـ: « وحكيم ».
(٣) بعدها فى جـ: « إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر».
(٤) فى جـ: « فقال الله ».
(٥) سنن أبى داود برقم (٢١٩٥) وسنن النسائى (٦/ ٢١٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا عبدة ـ يعنى ابن سليمان ـ عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن رجلا قال لامرأته: لا أطلقك أبداً ولا أؤويك أبداً. قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك، حتى إذا دنا أجلك راجعتك. فأتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك[١]، فأنزل الله عز وجل: ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ ﴾.

وهكذا رواه ابن جرير فى تفسيره من طريق جَرير بن عبد الحميد، وابن إدريس. ورواه عبد بن حُمَيد فى تفسيره، عن جعفر بن عون، كلهم عن هشام، عن أبيه. قال: كان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها ما شاء، ما دامت فى العدة، وإن رجلا من الأنصار غضب على امرأته فقال: والله لا أؤويك ولا أفارقك. قالت: وكيف ذلك. قال: أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك، ثم أطلقك، فإذا دنا أجلك راجعتك. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ ﴾ قال: فاستقبل الناس الطلاق، من كان طلق ومن لم يكن طلق.

وقد رواه أبو بكر بن مَرْدُوَيه، من طريق محمد بن سليمان، عن يعلى بن شبيب ـ مولى الزبير ـ عن هشام، عن أبيه، عن عائشة فذكره بنحو ما تقدم. ورواه الترمذى، عن قتيبة، عن يعلى بن شبيب به. ثم رواه عن أبى كريب، عن ابن إدريس، عن هشام، عن أبيه مرسلا. وقال: هذا أصح[٢]. ورواه الحاكم فى مستدركه، من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب، عن يعلى بن شبيب به، وقال صحيح الإسناد[٣].

ثم قال ابن مَردُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: لم يكن للطلاق وقت، يطلقُ الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة، وكان بين رَجل من الأنصار وبين أهله[٤] بعضُ ما يكون بين الناس[٥]، فقال: والله لأتركنك لا أيِّماً ولا ذات زوج، فجعل يطلقها حتى إذا كادت[٦] العدة أن تنقضي راجعها، ففعل ذلك مراراً، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾. فوقَّتَ الطلاق ثلاثاً لا رجعة فيه بعد الثالثة، حتى تنكح زوجاً غيره. وهكذا رُوى عن قتادة مرسلا. وذكره السدى، وابن زيد، وابن جرير كذلك، واختار أن هذا تفسير[٧] هذه الآية.

وقوله: ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ أى: إذا طلقتها[٨] واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها[٩] ما دامت عدتها باقية، بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضى عدتها، فتبين منك، وتطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً، ولا

---

(١) فى جـ: « ذلك له».

(٢) سنن الترمذى برقم (١١٩٢) ورواه مالك فى الموطأ (٢/ ٥٨٨) عن هشام بن عروة، عن أبيه به مرسلاً.

(٣) المستدرك (٢/ ٢٧٩) وتعقبه الذهبى بأن يعقوب بن حميد ضعفه غير واحد.

(٤) فى أ: « وبين امرأته ».

(٥) فى أ: « بين النساء».

(٦) فى أ: « إذا كانت ».

(٧) فى أ: « أن هذا تفسيره».

(٨) فى جـ: « إذا طلقها ».

(٩) فى أ: « مخير فيهما ».

تُضَارّ بها.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين، فليتق الله في الثالثة، فإما[١] أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها[٢]، أو يسرحها [بإحسان][٣] فلا يظلمها من حقها شيئاً.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سفيان الثوري، حدثني إسماعيل بن سميع، قال: سمعت أبا رَزين يقول: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت قول الله عز وجل: ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ أين الثالثة؟ قال: «التسريح بإحسان».

ورواه عبد بن حميد في تفسيره، ولفظه: أخبرنا يزيد بن أبي حكيم، عن سفيان، عن إسماعيل ابن سميع، أن أبا[٤] رزين الأسدي يقول: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت قول الله: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ﴾، فأين الثالثة؟ قال: « التسريح بإحسان الثالثة»[٥].

ورواه الإمام أحمد أيضاً. وهكذا رواه سعيد بن منصور، عن خالد بن عبد الله، عن إسماعيل بن زكريا وأبي معاوية، عن إسماعيل بن سميع، عن أبي رزين، به[٦]. وكذا رواه قيس بن الربيع، عن إسماعيل بن سميع عن أبي رزين به مرسلا. ورواه ابن مردويه [أيضا][٧] من طريق عبد الواحد[٨] ابن زياد، عن إسماعيل بن سميع، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، فذكره[٩]. ثم قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحيم، حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عبيد الله بن جرير بن جبلة[١٠]، حدثنا ابن عائشة[١١]، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ذكر الله الطلاق مرتين، فأين الثالثة؟ قال: « إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»[١٢].

وقوله: ﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا [إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ][١٣]﴾ أي: لا

---

(١) في جـ: « فلها ». (٢) في جـ: « صحبتها ». (٣) زيادة من جـ، أ، و.

(٤) في جـ: « عن إسماعيل سمع أبا ».

(٥) ورواه الطبري في تفسيره (٤/ ٥٤٥) من طريق يحيى بن سعيد وابن مهدي، كلاهما عن سفيان الثوري به.

(٦) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٤٠) من طريق سعيد بن منصور به، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٥٩) عن أبي معاوية به.

(٧) زيادة من و. (٨) في جـ: « من طريق عبد الرحمن ».

(٩) ورواه الدارقطني في السنن (٤١٤) من طريق ليث بن حماد، عن عبد الواحد بن زياد به، وقال: « كذا قال عن أنس، والصواب عن إسماعيل بن سميع عن أبي رزين مرسل عن النبي ﷺ».

(١٠) في جـ: « عبيد الله بن جرير بن خالد»، وفي أ: « عبد الله بن جرير بن صلة ».

(١١) في جـ: « ابن عيينة ».

(١٢) ورواه الدارقطني في السنن (٤/ ٣، ٤) من طريق عبد الله بن جرير بن جبلة به، وصححه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام، وانظر كلامه في تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (١/ ١٤٢).

(١٣) زيادة من جـ.

يحل لكم أن تُضَاجروهن وتضيّقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩]، فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها. فقد قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، وأما إذا تشاقق الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدى منه بما أعطاها، ولا حرج عليها فى بذلها، ولا عليه فى قبول ذلك منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ الآية.

فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه، فقد قال ابن جرير:

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب ـ وحدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية ـ قالا جميعاً: حدثنا أيوب، عن أبى قِلاَبة، عمن حدثه، عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال: « أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير بأس[١]، فحرام عليها رائحة الجنة»[٢].

وهكذا رواه الترمذى، عن بندار، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى به[٣]. وقال حسن: قال: ويروى، عن أيوب، عن أبى قلابة، عن أبى أسماء، عن ثوبان. ورواه بعضهم، عن أيوب بهذا الإسناد. ولم يرفعه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبى قلابة ـ قال: وذكر أبا أسماء وذكر ثوبان ـ قال: قال رسول الله ﷺ: « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة».

وهكذا رواه أبو داود، وابن ماجة، وابن جرير، من حديث حماد بن زيد، به[٤].

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن ليث، عن أبى إدريس، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، عن النبى ﷺ أنه قال: « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس، حَرّم الله عليها رائحة الجنة». وقال: «المختلعات هن المنافقات»[٥].

ثم رواه ابن جرير والترمذى جميعاً، عن أبى كريب، عن مزاحم بن ذَوّاد بن عُلْبَة، عن أبيه، عن ليث، هو ابن أبى سليم[٦]، عن أبى الخطاب، عن أبى زُرْعَة، عن أبى إدريس، عن ثوبان قال:

(١) فى جـ: « فى غير ما بأس ».
(٢) تفسير الطبرى (٤/٥٦٩) .
(٣) سنن الترمذى برقم (١١٨٧).
(٤) المسند (٥/٢٣٨) وسنن أبى داود برقم (٢٢٢٦) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٥٥) وتفسير الطبرى (٤/ ٥٧٠).
(٥) تفسير الطبرى (٤/٥٦٨).
(٦) فى جـ: «عن ليث هو ابن القاسم بن أبى سليم».

قال رسول الله ﷺ: «المختلعات هن المنافقات». ثم قال الترمذي: غريب من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوى[١].

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب حدثنا حفص بن بشر، حدثنا قيس بن الربيع، عن أشعث بن سوار، عن الحسن[٢]، عن ثابت بن يزيد، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: « إن المختلعات المنتزعات هن المنافقات»[٣].

غريب من هذا الوجه ضعيف.

حديث آخر: قال ابن ماجة: حدثنا بكر بن خلف أبو[٤] بشر، حدثنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى بن ثَوْبان، عن عمه عمارةَ بن ثوبان، عن عطاء، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: « لا تسألُ امرأة زوجَها الطلاق فى غير كُنْهِهِ فتَجِدَ ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد[٥] من مسيرة أربعين عاماً»[٦].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا أيوب، عن الحسن عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: « المختلعات والمنتزعات هن المنافقات»[٧].

ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف: إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة، فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، واحتجوا بقوله: ﴿ **وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا** [**إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ**][٨]﴾ الآية. قالوا: فلم يشرع الخلع إلا فى هذه الحالة، فلا يجوز فى غيرها إلا بدليل، والأصل عَدَمُه، وممن ذهب إلى هذا ابن عباس، وطاوس، وإبراهيم، وعطاء، [والحسن][٩]، والجمهور حتى قال مالك والأوزاعى: لو أخذ منها شيئاً وهو مضارّ لها وجب ردّه إليها، وكان الطلاق رجعياً. قال مالك: وهو الأمر الذى أدركتُ الناسَ عليه[١٠]. وذهب الشافعى، رحمه الله، إلى أنه يجوز الخلع فى حالة الشقاق، وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرى، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة. وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر فى كتاب «الاستذكار» له، عن بكر بن عبد الله المزنى، أنه ذهب إلى أن الخلع منسوخ بقوله: ﴿**وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا**﴾ [النساء: ٢٠]. ورواه ابن جرير عنه[١١]. وهذا قول ضعيف ومأخذ مردود على قائله. وقد ذكر ابن جرير، رحمه الله، أن هذه الآية نزلت فى شأن[١٢] ثابت بن قيس بن شَمَّاس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبى بن سلول. ولنذكر طرق حديثها، واختلاف ألفاظه:

---

(١) تفسير الطبرى (٤/٥٦٨) وسنن الترمذى برقم (١١٨٦).
(٢) فى جـ: « عن الحسين ».
(٣) تفسير الطبرى (٤/٥٦٨).
(٤) فى جـ: « خلف بن ». (٥) فى جـ: « توجد».
(٦) سنن ابن ماجة برقم (٢٠٥٤) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/١٣٣): « هذا إسناد ضعيف».
(٧) المسند (٢/٤١٤) وهو منقطع، الحسن لم يسمع من أبى هريرة، وانظر كلام الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩/٤٠٣).
(٨) زيادة من جـ. (٩) زيادة من جـ، أ،و. (١٠) فى جـ: « أدركت عليه الناس».
(١١) تفسير الطبرى (٤/٥٨٠).
(١٢) فى جـ: « فى بيان».

قال الإمام مالك فى موطئه : عن يحيى بن سعيد، عن عَمْرة بنت عبد الرحمن بن سعد[١] بن زرارة، أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الأنصارية، أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصّبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه فى الغَلَس، فقال رسول الله ﷺ: «من هذه؟» قالت: أنا حبيبة بنت سهل. فقال: «ما شأنك؟» فقالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس ـ لزوجها ـ فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ: «هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر». فقالت حبيبة: يارسول الله، كل ما أعطانى عندى. فقال رسول الله ﷺ: «خذ منها». فأخذ منها وجلست فى أهلها.

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عبد الرحمن بن مهدى، عن مالك بإسناده ـ مثله[٢]. ورواه أبوداود، عن القعنبى، عن مالك. والنسائى، عن محمد بن مسلمة، عن ابن القاسم، عن مالك به[٣].

حديث آخر: عن عائشة: قال أبو داود وابن جرير: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا أبو عامر، حدثنا أبو عمرو السدوسى، عن عبد الله ـ يعنى ابن أبى بكر ـ عن عمرة، عن عائشة، أن حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، فضربها فكسر نُغضها[٤]، فأتت رسول الله ﷺ بعد الصبح فاشتكته إليه، فدعا رسول الله ﷺ ثابتا[٥] فقال: «خذ بعض مالها وفارقها». قال: ويصلح ذلك يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: فإنى أصدقتها حديقتين، فهما بيدها. فقال النبى ﷺ: «خذهما وفارقها». ففعل[٦].

وهذا لفظ ابن جرير. وأبو عمرو السدوسى هو سعيد بن سلمة بن أبى الحسام.

حديث آخر فيه: عن ابن عباس رضى الله عنه:

قال البخارى: حدثنا أزهر بن جميل، حدثنا عبد الوهاب الثقفى، حدثنا خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ما أعتب عليه فى خلق ولا دين، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة»[٧].

وكذا رواه النسائى، عن أزهر بن جميل بإسناده، مثله[٨]. ورواه البخارى أيضاً، عن إسحاق الواسطى، عن خالد هو ابن عبد الله الطحان، عن خالد، هو ابن مهران الحذاء، عن عكرمة به،

(١) فى جـ : « بن أسعد ».
(٢) الموطأ (٢/ ٥٦٤) والمسند (٦/ ٤٣٣).
(٣) سنن أبى داود برقم (٢٢٢٧) وسنن النسائى (٦/ ١٦٩) .
(٤) فى جـ، و: «فكسر بعضها».
(٥) فى جـ، أ، و: «ثابت» وهو خطأ .
(٦) سنن أبى داود برقم (٢٢٢٨) وتفسير الطبرى (٤/ ٥٥٤) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٥٢٧٣).
(٨) سنن النسائى (٦/ ١٦٩) .

نحوه[١].

وهكذا رواه البخاري أيضاً من طرق، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس، به[٢]. وفي بعضها أنها قالت: لا أطيقه، تعني: بغضاً. وهذا الحديث من أفراد البخاري من هذا الوجه.

ثم قال: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن عكرمة، أن جميلة رضي الله عنها[٣]. كذا قال، والمشهور أن اسمها حبيبة [كما تقدم][٤].

قال الحافظ أبو بكر بن مَردويه في تفسيره: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا أزهر بن مروان الرقاشي، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت: والله ما أعتب على ثابت بن قيس بن شماس في دين ولا خلق، ولكنني أكره الكفر بعد الإسلام، ولا أطيقه بغضاً. فقال النبي ﷺ: «تردين عليه حديقته»؟ قالت: نعم، فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها حديقته ولا يزداد.

وهكذا رواه ابن ماجة عن أزهر بن مروان، بإسناده مثله سواء، وهذا إسناد جيد مستقيم[٥]، ورواه أيضا أبو القاسم البغوي، عن عبيد الله القواريري، عن عبد الأعلى، مثله. لكن [٦] قال ابن جرير:

حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد، عن ثابت، عن عبد الله بن رباح[٧]، عن جميلة بنت أبي بن سلول: أنها كانت تحت ثابت بن قيس، فنشزت عليه، فأرسل إليها النبي ﷺ فقال: «يا جميلة، ما كرهت من ثابت؟» قالت: والله ماكرهت منه ديناً ولا خلقاً، إلا أني كرهت دمامته! فقال لها: «أتردين الحديقة؟» قالت: نعم. فردت الحديقة، وفرق بينهما[٨].

قال [٩] ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: قرأت على فضيل، عن أبي جرير[١٠]، أنه سأل عكرمة: هل كان للخلع أصل؟ قال: كان ابن عباس يقول: إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله بن أبي، أنها أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، لا يجمع [١١] رأسي ورأسه شيء أبداً، إني رفعتُ جانب الخباء، فرأيته أقبل في عدة، فإذا هو أشدهم سواداً، وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً. قال زوجها: يارسول الله، إني أعطيتها أفضل مالي، حديقة لي، فإن ردت [١٢] عليَّ حديقتي؟ قال: «ما تقولين؟» قالت: نعم، وإن شاء زدته. قال: ففرق بينهما[١٣].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٥٢٧٤).
(٢) صحيح البخاري برقم (٥٢٧٥، ٥٢٧٦).
(٣) صحيح البخاري برقم (٥٢٧٧).
(٤) زيادة من جـ، أ.
(٥) سنن ابن ماجة برقم (٢٠٥٦).
(٦) في جـ: «ولكن».
(٧) في جـ: «ابن رواح».
(٨) تفسير الطبري (٤/٥٥٦).
(٩) في جـ، أ: «وقال».
(١٠) في جـ، أ، و:«عن ابن جرير».
(١١) في جـ: «لا يجتمع».
(١٢) في جـ: «فإن رددت».
(١٣) تفسير الطبري (٤/٥٥٢) وانظر حاشيته فإنها متينة (٤/٥٥٣، ٥٥٤).

حديث آخر: قال ابن ماجة: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكان رجلا دميماً، فقالت: يا رسول الله، والله لولا مخافة الله إذا دخل عليَّ بصقت فى وجهه! فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم. فردت عليه حديقته. قال: ففرق بينهما رسول الله ﷺ(١).

وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله، فى أنه: هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاها؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك، لعموم قوله تعالى: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾. وقال ابن جرير:

حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، أخبرنا أيوب، عن كثير مولى سمرة: أن عمر أتى بامرأة ناشز، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل، ثم دعا بها فقال: كيف وجدت؟ فقالت: ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التى حبستنى. فقال لزوجها: اخلعها ولو من قرطها(٢).

ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن كثير مولى سمرة، فذكر مثله، وزاد: فحبسها فيه ثلاثة أيام.

قال (٣) سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن حميد بن عبد الرحمن: أن امرأة أتت عمر بن الخطاب، فشكت زوجها، فأباتها فى بيت الزبل. فلما أصبحت قال لها: كيف وجدت مكانك؟ قالت: ما كنت عنده ليلة أقر لعينى من هذه الليلة. فقال: خذ ولو عقاصها(٤).

وقال البخارى: وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل: أن الربيع بنت معوذ بن عفراء حدثته قالت: كان لى زوج يُقِلّ عليَّ الخير إذا حضرنى، ويحرمنى إذا غاب عنى. قالت: فكانت منى زلة يومًا، فقلت له: أختلع منك بكل شىء أملكه؟ قال: نعم. قالت: ففعلت. قالت(٥): فخاصم عمى معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان، فأجاز الخلع، وأمره أن يأخذ عقاص رأسى فما دونه، أو قالت: ما دون عقاص الرأس(٦).

ومعنى هذا: أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير، ولا يترك لها سوى عقاص شعرها. وبه يقول ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم النخعى، وقبيصة بن ذؤيب، والحسن بن صالح، وعثمان البتى. وهذا مذهب مالك، والليث، والشافعى، وأبى ثور، واختاره ابن جرير.

(١) سنن ابن ماجة برقم (٢٠٥٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١٣٤): «هذا إسناد ضعيف؛ لتدليس الحجاج وهو ابن أرطاة».
(٢) تفسير الطبرى (٤/ ٥٧٦).
(٣) فى جـ، أ: «وقال».
(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (٤/ ٥٧٦) من طريق عبد الأعلى عن سعيد به.
(٥) فى جـ: «قال».
(٦) ورواه الطبرى فى تفسيره (٤/ ٥٧٨) عن عبد الرزاق به.

وقال أصحاب أبى حنيفة، رحمهم الله: إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاها، ولا تجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز فى القضاء: وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً، فإن أخذ جاز فى القضاء.

وقال الإمام أحمد، وأبو عبيد، وإسحاق بن راهويه: لا يجوز أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها. وهذا قول سعيد بن المسيب، وعطاء، وعمرو بن شعيب، والزهرى، وطاوس، والحسن، والشعبى، وحماد بن أبى سليمان، والربيع بن أنس.

وقال معمر، والحكم: كان على يقول: لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها. وقال الأوزاعى: القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها.

قلت: ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، فى قصة ثابت بن قيس: فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد، وبما روى عبد بن حميد حيث قال: أخبرنا قبيصة، عن سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء: أن النبى ﷺ كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها يعنى المختلعة[1]، وحملوا معنى الآية على معنى ﴿**فلا جُنَاحَ عليْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**﴾ أى: من الذى أعطاها؛ لتقدم قوله: ﴿**وَلا** [**يَحِلُّ لَكُمْ أَن**][2] **تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**﴾ أى: من ذلك. وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس: «فلا جناح عليهما فيما افتدت به منه» رواه ابن جرير؛ ولهذا قال بعده: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾.

فصل

قال الشافعى: اختلف أصحابنا فى الخلع، فأخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس فى رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد[3]: يتزوجها إن شاء؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ**﴾ قرأ إلى: ﴿**أَن يَتَرَاجَعَا**﴾ قال الشافعى: وأخبرنا سفيان، عن عمرو [بن دينار][4]، عن عكرمة قال: كل شىء أجازه المال فليس بطلاق.

وروى غير الشافعى، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس: أن إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص سأله فقال: رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه، أيتزوجها؟ قال: نعم، ليس الخلع بطلاق، ذكر الله الطلاق فى أول الآية وآخرها، والخلع فيما بين ذلك، فليس الخلع بشىء، ثم قرأ: ﴿**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾ وقرأ: ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**﴾.

---

(١) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٧/ ٣١٤) من طريق سعيد بن منصور، عن سفيان به.

(٢) زيادة من جـ. (٣) فى جـ: «اختلعت بعد منه». (٤) زيادة من جـ.

وهذا الذى ذهب إليه ابن عباس رضى الله عنهما [(١)] ـ من أن الخلع ليس بطلاق، وإنما هو فسخ ـ هو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وابن عمر. وهو قول طاوس، وعكرمة. وبه يقول أحمد ابن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور، وداود بن على الظاهرى. وهو مذهب الشافعى فى القديم، وهو ظاهر الآية الكريمة.

والقول الثانى فى الخلع: أنه طلاق بائن إلا أن ينوى أكثر من ذلك. قال مالك،عن هشام بن عروة، عن أبيه،عن جُمْهان مولى الأسلميين[(٢)]،عن أم بكر الأسلمية: أنها اختلعت من زوجها عبد الله ابن خالد بن أسيد، فأتيا عثمان بن عفان فى ذلك، فقال: تطليقة؛ إلا أن تكون سميت شيئاً فهو ما سميت. قال الشافعى: ولا أعرف جُمْهان. وكذا ضعف أحمد بن حنبل هذا الأثر، والله أعلم.

وقد روى نحوه عن عمر، وعلى، وابن مسعود، وابن عمر. وبه يقول سعيد بن المسيب، والحسن، وعطاء، وشريح، والشعبى، وإبراهيم، وجابر بن زيد. وإليه ذهب مالك، وأبو حنيفة، وأصحابه، والثورى، والأوزاعى،وعثمان التبى، والشافعى فى الجديد. غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالع بخلعه تطليقة أو اثنتين [(٣)] أو أطلق فهو واحدة بائنة. وإن نوى ثلاثاً فثلاث. وللشافعى قول آخر فى الخلع، وهو: أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق، وعرى عن النية فليس هو بشىء بالكلية.

مسالة:

وذهب مالك، وأبو حنيفة، والشافعى، وأحمد وإسحاق فى رواية عنهما، وهى المشهورة؛ إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء، إن كانت ممن تحيض. وروى ذلك عن عمر، وعلى، وابن عمر. وبه يقول سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وعروة، وسالم ، وأبو سلمة، وعمر بن عبد العزيز، وابن شهاب، والحسن، والشعبى، وإبراهيم النخعى، وأبو [(٤)] عياض، وجُلاس بن عمرو، وقتادة، وسفيان الثورى، والأوزاعى، والليث بن سعد، وأبو عبيد. قال الترمذى: وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم. ومأخذهم فى هذا أن الخلع طلاق، فتعتد كسائر المطلقات.

والقول الثانى: أنها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها. قال ابن أبى شيبة: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبيد الله [(٥)] بن عمر، عن نافع أن الربيع اختلعت من زوجها، فأتى عمها عثمان، رضى الله عنه، فقال: تعتد حيضة. قال: وكان ابن عمر يقول: تعتد ثلاث حيض، حتى قال هذا عثمان، فكان ابن عمر يفتى به ويقول: عثمان خيرنا وأعلمنا[(٦)].

وحدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: عدة المختلعة حيضة.

وحدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى، عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس قال: عدتها حيضة. وبه يقول عكرمة، وأبان بن عثمان، وكل من تقدم ذكره ممن يقول: إن الخلع فسخ [(٧)] ـ يلزمه

---

(١) فى جـ: «عنه». (٢) فى أ: «الأسلمين». (٣) فى جـ: « أو ثنتين».
(٤) فى جـ: «وابن». (٥) فى أ: «عبد الله».
(٦) المصنف لابن أبى شيبة (٥/ ١١٤).
(٧) فى جـ: «فسحة».

القول بهذا، واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود، والترمذى، حيث قال كل واحد منهما: حدثنا محمد ابن عبد الرحيم البغدادى، حدثنا على بن بحر، حدثنا هشام بن يوسف، عن معمر، عن عمرو بن مسلم، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبى [(١)] ﷺ، فأمرها النبى ﷺ أن تعتد بحيضة[(٢)]. ثم قال الترمذى: حسن غريب. وقد رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن عمرو بن مسلم، عن عكرمة مرسلا.

حديث آخر: قال الترمذى: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا الفضل بن موسى، عن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الرحمن وهو مولى آل [(٣)] طلحة، عن سليمان بن يسار، عن الربيع بنت معوذ ابن عفراء: أنها اختلعت على عهد رسول الله ﷺ، فأمرها النبى ـ أو أمرت ـ أن تعتد بحيضة. قال الترمذى: الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة [(٤)].

طريق أخرى: قال ابن ماجة: حدثنا على بن سلمة النيسابورى، حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، حدثنا أبى عن ابن إسحاق، أخبرنى عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قال: قلت لها: حدثينى حديثك. قالت: اختلعت من زوجى، ثم جئت عثمان، فسألت: ماذا على من العدة؟ قال[(٥)]: لا عدة عليك، إلا أن يكون حديث عهد بك[(٦)]، فتمكثين عنده حتى تحيضى حيضة. قالت: وإنما تبع فى ذلك قضاء رسول الله ﷺ فى مريم المغالية، وكانت تحت ثابت بن قيس، فاختلعت منه[(٧)].

وقد روى ابن لهيعة، عن أبى الأسود، عن أبى سلمة ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، عن الربيع بنت معوذ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يأمر امرأة ثابت بن قيس حين اختلعت منه أن تعتد بحيضة.

مسألة:

وليس للمخالع أن يراجع المختلعة فى العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء؛ لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء. وروى عن عبد الله بن أبى أوفى، وماهان الحنفى، وسعيد بن المسيب، والزهرى أنهم قالوا: إن رد إليها الذى أعطاها [(٨)]جاز له رجعتها فى العدة بغير رضاها، وهو [(٩)] اختيار أبى ثور، رحمه الله. وقال سفيان الثورى: إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها. وإن كان سمى طلاقا [(١٠)] فهو أملك لرجعتها ما دامت فى العدة. وبه يقول داود بن على الظاهرى: واتفق الجميع على أن للمختلع أن يتزوجها فى العدة. وحكى الشيخ أبو عمر

(١) فى جـ: «على عهد رسول الله».
(٢) سنن أبى داود برقم (٢٢٢٩) وسنن الترمذى برقم (١١٨٥).
(٣) فى جـ: «مولى أبى».
(٤) سنن الترمذى برقم (١١٨٥).
(٥) فى جـ: «فقال». (٦) فى جـ: «حديث عهدك».
(٧) سنن ابن ماجة برقم (٢٠٥٨).
(٨) فى جـ: «الذى أعطته». (٩) فى أ: «وهذا». (١٠) فى جـ: «سمى الطلاق».

بن عبد البر، عن فرقة أنه لا يجوز له ذلك، كما لا يجوز لغيره، وهو قول شاذ مردود.

مسألة:

وهل له أن يوقع عليها طلاقا آخر في العدة؟ فيه ثلاثة [١] أقوال للعلماء:

أحدهما[٢]: ليس له ذلك؛ لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه. وبه يقول ابن عباس، وابن الزبير، وعكرمة، وجابر بن زيد، والحسن البصري، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو ثور.

والثاني: قال مالك: إن أتبع الخلع طلاقا من غير سكوت بينهما وقع، وإن سكت بينهما لم يقع. قال ابن عبد البر: وهذا يشبه ما روى عن عثمان، رضى الله عنه.

والثالث: أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، والثوري، والأوزاعي. وبه يقول سعيد بن المسيب، وشريح، وطاوس، وإبراهيم، والزهري، والحكم، وحماد بن أبي سليمان. وروى ذلك عن ابن مسعود، وأبي الدرداء. قال ابن عبد البر: وليس ذلك بثابت عنهما.

وقوله: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ أي: هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده، فلا تتجاوزوها. كما ثبت في الحديث الصحيح: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان، فلا تسألوا عنها»[٣].

وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام، كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم، وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة واحدة، لقوله: ﴿**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ**﴾ ثم قال: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ ويقوون ذلك بحديث محمود بن لبيد الذي رواه النسائي في سننه حيث قال: حدثنا سليمان بن داود، أخبرنا ابن وهب عن مخرمة بن بكير عن أبيه، عن محمود بن لبيد قال: أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان، ثم قال: «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟!» حتى قام رجل فقال: يا رسول الله، ألا أقتله؟ [٤]، فيه انقطاع.

وقوله تعالى: ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**﴾ أي: إنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجا غيره، أي: حتى يطأها

---

(١) في جـ: «ثلاث» وهو خطأ. (٢) في أ: «أحدها».

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١٥) من طريق داود بن أبي هند، عن مكحول، عن أبي ثعلبة الخشني رضى الله عنه به مرفوعاً، وتصحيح الحافظ له هنا متعقب، فإن الحديث فيه انقطاع واختلاف ذكرهما الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ١٥٠) ط. الرسالة.

(٤) سنن النسائي (٦/ ١٤٢).

زوج آخر فى نكاح صحيح، فلو وطئها واطئ فى غير نكاح، ولو فى ملك يمين لم تحل للأول؛ لأنه ليس بزوج، وهكذا لو تزوجت، ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول، واشتهر بين كثير من الفقهاء عن سعيد بن المسيب، رحمه الله، أنه يقول: يحصل المقصود من تحليلها [(١)] للأول بمجرد العقد على الثانى. وفى صحته عنه نظر، على أن الشيخ أبا عمر بن عبد البر قد حكاه عنه فى الاستذكار، فالله أعلم.

وقد قال أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن سالم بن رزين، عن سالم بن عبد الله[(٢)]، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ فى الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة، فيتزوجها زوج آخر فيطلقها، قبل أن يدخل بها: أترجع إلى الأول؟ قال: «لا ،حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها»[(٣)].

هكذا وقع فى رواية ابن جرير، وقد رواه الإمام أحمد فقال:

حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن علقمة بن مرثد، سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله، يعنى: ابن عمر، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ: فى الرجل تكون له المرأة فيطلقها، ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل أن يدخل بها، فترجع إلى زوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ: «حتى يذوق العسيلة»[(٤)].

وهكذا رواه النسائى، عن عمرو بن على الفلاس، وابن ماجة عن محمد بن بشار بندار[(٥)]، كلاهما عن محمد بن جعفر غندر، عن شعبة، به كذلك[(٦)]. فهذا من رواية سعيد بن المسيب عن ابن عمر مرفوعاً، على خلاف ما يحكى عنه، فبعيد أن يخالف ما رواه بغير مستند، والله أعلم.

وقد روى أحمد أيضا، والنسائى، وابن جرير هذا الحديث من طريق سفيان الثورى، عن علقمة ابن مرثد، عن رزين بن سليمان الأحمرى، عن ابن عمر قال: سئل النبى ﷺ عن الرجل يطلق امرأته ثلاثا فيتزوجها آخر، فيغلق الباب ويرخى الستر ثم يطلقها، قبل أن يدخل بها: هل تحل للأول؟ قال: «لا ،حتى يذوق العسيلة»[(٧)].

وهذا لفظ أحمد، وفى رواية لأحمد: سليمان[(٨)] بن رزين.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا محمد بن دينار، حدثنا يحيى بن يزيد الهنائى، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثا فتزوجت بعده رجلا، فطلقها قبل أن يدخل بها: أتحل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، حتى يكون الآخر قد ذاق من عسيلتها وذاقت من عسيلته».

---

(١) فى أ: «تحللها».
(٢) فى أ: «سالم بن عبيد».
(٣) تفسير الطبرى (٤/ ٥٩٦).
(٤) المسند (٢/ ٨٥).
(٥) فى جـ: «بشار بن بندار».
(٦) سنن النسائى (٦/ ١٤٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٣٣).
(٧) المسند (٢/ ٢٥) وسنن النسائى (٦/ ١٤٩) وتفسير الطبرى (٧/ ٥٩٦).
(٨) فى جـ : «عن سليمان».

ورواه ابن جرير، عن محمد بن إبراهيم الأنماطى، عن هشام بن عبد الملك، حدثنا محمد بن دينار، فذكره[(١)].

قلت: ومحمد بن دينار بن صندل[(٢)] أبو بكر الأزدى ثم الطاحى البصرى، ويقال له: ابن أبى الفرات: اختلفوا فيه، فمنهم من ضعفه، ومنهم من قواه وقبله وحسن له[(٣)]. وقال[(٤)] أبو داود: إنه تغير قبل موته، فالله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا عبيد بن آدم بن أبى إياس العسقلانى، حدثنا أبى، حدثنا شيبان، حدثنا يحيى بن أبى كثير، عن أبى الحارث الغفارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ فى المرأة[(٥)] يطلقها زوجها ثلاثا فتتزوج زوجا غيره، فيطلقها قبل أن يدخل بها، فيريد الأول أن يراجعها، قال: «لا، حتى يذوق الآخر عسيلتها».

ثم رواه من وجه آخر عن شيبان، وهو ابن عبد الرحمن، به[(٦)]. وأبو الحارث غير معروف.

حديث آخر: قال ابن جرير:

حدثنا ابن مثنى، حدثنا يحيى، عن عبيد الله، حدثنا القاسم، عن عائشة: أن رجلا طلق امرأته ثلاثا، فتزوجت زوجا فطلقها قبل أن يمسها، فسئل رسول الله ﷺ: أتحل للأول؟ فقال: «لا، حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول».

أخرجه البخارى، ومسلم، والنسائى، من طرق، عن عبيد الله بن عمر العمرى، عن القاسم بن عبد الرحمن بن أبى بكر، عن عمته عائشة، به[(٧)].

طريق أخرى: قال ابن جرير:

حدثنا عبيد الله بن إسماعيل الهبارى، وسفيان بن وكيع، وأبو هشام الرفاعى قالوا: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: سئل رسول الله[(٨)] ﷺ عن رجل طلق امرأته، فتزوجت رجلا غيره، فدخل بها ثم طلقها قبل أن يواقعها: أتحل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تحل لزوجها الأول حتى يذوق الآخر عسيلتها وتذوق عسيلته».

وكذا رواه أبو داود عن مسدد، والنسائى عن أبى كريب، كلاهما عن أبى معاوية، وهو محمد ابن حازم الضرير، به[(٩)].

طريق أخرى: قال مسلم فى صحيحه:

---

(١) المسند (٣/ ٢٤٨) وتفسير الطبرى (٤/ ٥٩٤).
(٢) فى جـ: «ابن مندل».
(٣) فى جـ: «وحسنه له».
(٤) فى جـ، أ، و: «وذكر».
(٥) فى جـ: «فى امرأة».
(٦) تفسير الطبرى (٤/ ٥٩٣).
(٧) تفسير الطبرى (٤/ ٥٩٢) وصحيح البخارى برقم (٥٢٦١) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٣) وسنن النسائى (٦/ ١٤٨).
(٨) فى أ: «سألت رسول الله»، وفى و: «سئل النبى».
(٩) تفسير الطبرى (٤/ ٥٨٩) وسنن أبى داود برقم (٢٣٠٩) وسنن النسائى (٦/ ١٤٦).

حدثنا محمد بن العلاء الهمدانى، حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها، فتتزوج رجلا فيطلقها قبل أن يدخل بها: أتحل لزوجها الأول؟ قال: « لا ، حتى يذوق عسيلتها».

قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا ابن فضيل: وحدثنا أبو كريب، حدثنا أبو معاوية جميعا، عن هشام بهذا الإسناد[١].

وقد رواه البخارى من طريق أبى معاوية محمد بن حازم، عن هشام به[٢]. ونفرد به مسلم من الوجهين الآخرين. وهكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الله بن المبارك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعا بنحوه أو مثله[٣]. وهذا إسناد جيد. وكذا رواه ابن جرير أيضا، من طريق على بن زيد بن جدعان، عن امرأة أبيه أمينة [٤] أم محمد عن عائشة، عن النبى ﷺ بمثله [٥]، وهذا السياق مختصر من الحديث الذى رواه البخارى: حدثنا عمرو بن على، حدثنا يحيى، عن هشام، حدثنى أبى، عن عائشة، عن النبى ﷺ. وحدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا عبدة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أن رفاعة القرظى تزوج امرأة ثم طلقها، فتزوجت آخر فأتت النبى ﷺ، فذكرت له أنه لا يأتيها، وأنه ليس معه إلا مثل هدبة الثوب فقال: «لا، حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك»[٦].

تفرد به من هذين الوجهين.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظى ـ وأنا وأبو بكر عند النبى ﷺ ـ فقالت: إن رفاعة طلقنى البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجنى، وإنما عنده مثل الهدبة، وأخذت هدبة من جلبابها، وخالد ابن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدى رسول الله ﷺ! فما زاد رسول الله على التبسم، وقال رسول الله ﷺ: «كأنك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة، لا، حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك»[٧].

وهكذا رواه البخارى من حديث [٨] عبد الله بن المبارك، ومسلم من حديث عبد الرزاق، والنسائى من حديث يزيد بن زريع، ثلاثتهم عن معمر به [٩]. وفى حديث عبد الرزاق عند مسلم: إن

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٣٣).
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٥).
(٣) تفسير الطبرى (٤/ ٥٩٠).
(٤) فى جـ: «آمنة».
(٥) تفسير الطبرى (١١/ ٥٩٢).
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٣١٧).
(٧) المسند (٦/ ٣٤).
(٨) فى جـ: «من طريق».
(٩) صحيح البخارى برقم (٦٠٨٤) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٣) وسنن النسائى (٦/ ١٤٦).

رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات. وقد رواه الجماعة إلا أبا داود من طريق سفيان بن عيينة، والبخارى من طريق عقيل، ومسلم من طريق يونس بن يزيد [وعنده ثلاث تطليقات، والنسائى من طريق أيوب ابن موسى، ورواه صالح بن أبى الأخضر] [(١)] كلهم عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، به[(٢)].

وقال مالك عن المسور بن رفاعة القرظى عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير: أن رفاعة بن سموال طلق امرأته تميمة بنت وهب فى عهد رسول الله ﷺ ثلاثا، فنكحت عبد الرحمن بن الزبير، فاعترض عنها فلم يستطع أن يمسها، ففارقها، فأراد رفاعة أن ينكحها، وهو زوجها الأول الذى كان طلقها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فنهاه عن تزويجها، وقال: «لا تحل لك حتى تذوق العسيلة» كذا رواه أصحاب الموطأ عن مالك وفيه انقطاع[(٣)]. وقد رواه إبراهيم بن طَهْمَان، وعبد الله بن وهب، عن مالك، عن رفاعة، عن الزبير بن عبد الرحمن، عن أبيه، فوصله[(٤)].

فصل

والمقصود من الزوج الثانى أن يكون راغباً فى المرأة، قاصداً لدوام عشرتها، كما هو المشروع من التزويج، واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثانى وطئاً مباحاً، فلو وطئها وهى محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء أو والزوج صائم أو محرم أو معتكف، لم تحل للأول بهذا الوطء. وكذا لو كان الزوج الثانى ذميًا لم تحل للمسلم بنكاحه؛ لأن أنكحة الكفار باطلة عنده. واشترط الحسن البصرى فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثانى، وكأنه تمسك[(٥)] بما فهمه من قوله عليه السلام: «حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك»، ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضا. وليس المراد بالعسيلة المنى لما رواه الإمام أحمد والنسائى، عن عائشة رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن العسيلة الجماع» [(٦)]، فأما إذا كان الثانى إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذى وردت الأحاديث بذمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده فى العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة[(٧)].

ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك

الحديث الأول: عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد:

(١) زيادة من جـ، أ، و.

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٦٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٣) وسنن الترمذى برقم (١١١٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٦٠٤) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٣٢)، كلهم من طريق سفيان بن عيينة، وصحيح البخارى برقم (٥٢٦٠) من طريق عقيل، وصحيح مسلم برقم (١٤٣٣) من طريق يونس بن يزيد.

(٣) الموطأ (٢/ ٥٣١).

(٤) انظر: التمهيد لابن عبد البر (١٣/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٥) فى جـ: «وكأنه يتمسك».

(٦) المسند (٦/ ٦٢).

(٧) فى جـ: «جمهور الأئمة رحمهم الله».

حدثنا الفضل بن دُكَيْن، حدثنا سفيان، عن أبي قيس، عن الهزيل، عن عبد الله قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة، والمحلِّل والمحلَّل له، وآكل الربا وموكله[١].

ثم رواه أحمد، والترمذي، والنسائي من غير وجه، عن سفيان، وهو الثوري، عن أبي قيس واسمه عبد الرحمن بن ثروان الأودي، عن هزيل بن شرحبيل الأودي، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ [٢] به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة، منهم: عمر، وعثمان، وابن عمر. وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي، وابن مسعود، وابن عباس.

طريق أخرى: عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله، عن عبد الكريم، عن أبي الواصل، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله المحلل والمحلل له»[٣].

طريق أخرى: روى الإمام أحمد، والنسائي، من حديث الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن الحارث الأعور، عن عبد الله بن مسعود قال: آكل الربا وموكله، وشاهداه وكاتبه إذا علموا به، والواصلة، والمستوصلة، ولاوي الصدقة، والمعتدي فيها، والمرتد على عقبيه إعراضا بعد هجرته، والمحلل والمحلل له، ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة[٤].

الحديث الثاني: عن علي رضي الله عنه. قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن جابر [وهو ابن يزيد الجعفي][٥]، عن الشعبي، عن الحارث، عن علي قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله، وشاهديه وكاتبه، والواشمة والمستوشمة للحسن، ومانع الصدقة، والمحلل، والمحلل له، وكان ينهى عن النوح[٦].

وكذا رواه عن غندر، عن شعبة، عن جابر، وهو ابن يزيد الجعفي، عن الشعبي عن الحارث، عن علي، به.

وكذا رواه من حديث إسماعيل بن أبي خالد، وحصين بن عبد الرحمن، ومجالد بن سعيد، وابن عون، عن عامر الشعبي، به.

---

(١) المسند (١/٤٤٨).
(٢) المسند (١/٤٤٨) وسنن الترمذي برقم (١١٢٠) وسنن النسائي (٦/١٤٩).
(٣) المسند (١/ ٤٥٠).
(٤) المسند (١/ ٤٦٤) وسنن النسائي (٨/١٤٧) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (١١٥٤) «موارد» من طريق الأعمش به.
(٥) زيادة من جـ.
(٦) المسند (١/١٠٧).

وقد رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجة من حديث الشعبى، به[١]. ثم قال أحمد:

حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الحارث، عن على قال: لعن رسول ﷺ صاحب الربا، وآكله، وكاتبه، وشاهده، والمحلل، والمحلل له[٢].

الحديث الثالث: عن جابر: قال الترمذى:

حدثنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا أشعث بن عبد الرحمن بن زبيد اليامى، حدثنا مجالد، عن الشعبى، عن جابر بن عبد الله وعن الحارث، عن على: أن رسول الله ﷺ لعن المحلل والمحلل له[٣]. ثم قال: وليس إسناده بالقائم، ومجالد ضعفه غير واحد من أهل العلم، منهم أحمد بن حنبل. قال: ورواه ابن نمير، عن مجالد، عن الشعبى، عن جابر بن عبد الله، عن على. قال: وهذا وهم من ابن نمير، والحديث الأول أصح.

الحديث الرابع: عن عقبة بن عامر: قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة:

حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى، حدثنا أبى، سمعت الليث بن سعد يقول: قال أبو مصعب مشرح هو: ابن هاعان، قال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «هو المحلِّل، لعن الله المحلل والمحلل له»[٤].

تفرد به ابن ماجة. وكذا رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى، عن عثمان بن صالح، عن الليث، به ،ثم قال: كانوا ينكرون على عثمان فى هذا الحديث إنكاراً شديداً.

قلت: عثمان هذا أحد الثقات، روى عنه البخارى فى صحيحه. ثم قد تابعه غيره، فرواه جعفر الفريابى عن العباس المعروف بابن فريق[٥]، عن أبى صالح عبد الله بن صالح، عن الليث به، فبرئ من عهدته والله أعلم.

الحديث الخامس: عن ابن عباس. قال ابن ماجة:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو عامر، عن زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له[٦].

طريق أخرى: قال الإمام الحافظ خطيب دمشق أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى السعدى: حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة[٧]، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل قال: «لا، إلا نكاح

(١) سنن أبى داود برقم (٢٠٧٦) وسنن الترمذى (١١١٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٣٥).
(٢) المسند (١/٨٨).
(٣) سنن الترمذى برقم (١١١٩).
(٤) سنن ابن ماجة برقم (١٩٣٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/١٠٢): «هذا إسناد مختلف فيه من أجل أبى مصعب».
(٥) فى جـ: «بابن فرين».
(٦) سنن ابن ماجة برقم (١٩٣٤) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/١٠٢): «هذا إسناد ضعيف لضعف زمعة بن صالح الجندى».
(٧) فى هـ : «بن أبى حنيفة» وهو خطأ.

رغبة، لا نكاح دُلْسَة ولا استهزاء بكتاب الله، ثم يذوق عسيلتها»[١].

ويتقوى هذان الإسنادان [٢] بما رواه أبو بكر بن أبى شيبة، عن حميد بن عبد الرحمن، عن موسى بن أبى الفرات، عن عمرو بن دينار، عن النبى ﷺ بنحو من هذا[٣]، فيتقوى كل من هذا المرسل والذى قبله بالآخر، والله أعلم.

الحديث السادس: عن أبى هريرة. قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو عامر، حدثنا عبد الله، هو ابن جعفر، عن عثمان بن محمد، عن المقبرى، عن أبى هريرة قال: لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له[٤].

وهكذا رواه أبو بكر بن أبى شيبة، والجوزجانى، والبيهقى، من طريق عبد الله بن جعفر القرشى[٥]. وقد وثقه أحمد بن حنبل، وعلى بن المدينى، ويحيى بن معين وغيرهم. وأخرج له مسلم فى صحيحه، عن عثمان بن محمد الأخنسى ـ وثقه ابن معين ـ عن سعيد المقبرى، وهو متفق عليه.

الحديث السابع: عن ابن عمر. قال الحاكم فى مستدركه:

حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا محمد بن إسحاق الصغانى[٦]، حدثنا سعيد بن أبى مريم، حدثنا أبو غسان [٧] محمد بن مطرف المدنى، عن عمر [٨]بن نافع، عن أبيه أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر، فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه، ليحلها لأخيه: هل تحل للأول؟ فقال: لا، إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله ﷺ. ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[٩].

وقد رواه الثورى، عن عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر، به. وهذه الصيغة مشعرة بالرفع. وهكذا روى أبو بكر بن أبى شيبة، والجوزجانى، وحرب الكرمانى، وأبو بكر الأثرم، من حديث الأعمش، عن المسيب بن رافع، عن قبيصة بن جابر، عن عمر أنه قال: لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما[١٠].

وروى البيهقى من حديث ابن لهيعة، عن بكير بن الأشج، عن سليمان بن يسار: أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها، ففرق بينهما. وكذا روى عن على، وابن عباس،

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٢٢٦) من طريق إسحاق بن محمد الفروى، عن إبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة به.

(٢) فى أ، و: «ويتقوى هذا الإسناد».

(٣) المصنف لابن أبى شيبة (٤/ ٢٩٥).

(٤) المسند (٢/ ٣٢٢).

(٥) المصنف لابن أبى شيبة (٤/ ٢٩٦) وسنن البيهقى الكبرى (٧/ ٢٠٨).

(٦) فى جـ، أ: «الصنعانى». (٧) فى أ، و: «أبو يمان». (٨) فى أ: «عن عمرو».

(٩) المستدرك (٢/ ١٩٩).

(١٠) المصنف لابن أبى شيبة (٤/ ٢٩٤).

وغير واحد من الصحابة، رضى الله عنهم.

وقوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أى: الزوج الثانى بعد الدخول بها ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا﴾ أى: المرأة والزوج الأول ﴿إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أى: يتعاشرا بالمعروف [وقال مجاهد: إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسه][1] ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى: شرائعه وأحكامه ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ أى: يوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله، فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين، وتركها حتى انقضت عدتها، ثم تزوجت بآخر فدخل بها، ثم طلقها فانقضت عدتها، ثم تزوجها الأول: هل تعود إليه بما بقى من الثلاث، كما هو مذهب مالك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، وهو قول طائفة من الصحابة، رضى الله عنهم؟ أو يكون الزوج الثانى قد هدم ما قبله من الطلاق، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث، كما هو مذهب أبى حنيفة وأصحابه رحمهم الله؟وحجتهم أن الزوج الثانى إذا هدم الثلاث فلأن يهدم ما دونها بطريق الأولى والأحرى، والله أعلم.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)﴾.

هذا أمر من الله عز وجل للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقا له عليها فيه رجعة، أن يحسن فى أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يمسكها، أى: يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف، وهو أن يشهد على رجعتها، وينوى عشرتها بالمعروف، أو يسرحها، أى: يتركها حتى تنقضى عدتها، ويخرجها من منزله بالتى هى أحسن، من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح، قال الله تعالى: ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، ومسروق، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع، ومقاتل بن حيان وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً، لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أى: بمخالفته أمر الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾: قال ابن جرير: عند هذه الآية:

أخبرنا أبو كُرَيْب، أخبرنا إسحاق بن منصور، عن عبد السلام بن حرب، عن يزيد بن عبد الرحمن، عن أبى العلاء الأودى، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبى موسى: أن رسول الله

(١) زيادة من و.

ﷺ غضب على الأشعريين، فأتاه أبو موسى فقال: يا رسول الله، أغضبت على الأشعريين؟! فقال: يقول أحدكم: قد طلقت، قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة فى قُبُل عدتها»(١).

ثم رواه من وجه آخر(٢)، عن أبى خالد الدالانى، وهو يزيد بن عبد الرحمن، وفيه كلام.

وقال مسروق: هو (٣) الذى يطلق فى غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها، لتطول عليها العدة.

وقال الحسن، وقتادة، وعطاء الخراسانى، والربيع، ومقاتل بن حيان: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً. فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فألزم الله بذلك.

وقال ابن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثنا أبو أحمد الصيرفى، حدثنى جعفر بن محمد السمسار، عن إسماعيل بن يحيى، عن سفيان، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: طلق رجل امرأته وهو يلعب، لا يريد الطلاق؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عصام بن زوَّاد، حدثنا آدم، حدثنا المبارك بن فضالة، عن الحسن، هو البصرى، قال: كان الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً أو يعتق (٤)ويقول: كنت لاعبًا وينكح ويقول: كنت لاعبًا فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾، وقال رسول الله ﷺ: «من طلق أو أعتق أو نكح أو أنكح، جاداً أو لاعباً، فقد جاز عليه».

وكذا رواه ابن جرير من طريق الزهرى، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن، مثله. وهذا مرسل(٥). وقد رواه ابن مردويه، من طريق عمرو بن عبيد، عن الحسن، عن أبى الدرداء، موقوفاً عليه. وقال أيضاً:

حدثنا أحمد بن الحسن (٦) بن أيوب، حدثنا يعقوب بن أبى يعقوب، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا أبو معاوية، عن إسماعيل بن سلمة، عن الحسن، عن عبادة بن الصامت، فى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ قال: كان الرجل على عهد النبى ﷺ يقول للرجل زوجتك ابنتى ثم يقول: كنت لاعباً. ويقول: قد أعتقت، ويقول: كنت لاعباً فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب، فهن جائزات عليه: الطلاق، والعتاق، والنكاح»(٧).

---

(١) تفسير الطبرى (٥/ ١٤).

(٢) فى جـ: «ثم رواه ابن ماجة من وجه آخر».

(٣) فى جـ: «وهو». (٤) فى جـ: «ويعتق».

(٥) تفسير الطبرى (٥/ ١٣) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٥/ ١٠٦) من طريق آخر، فرواه عن عيسى بن يونس، عن عمرو، عن الحسن به.

(٦) فى جـ: «بن الحسين».

(٧) ورواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده برقم (٥٠١) «زوائده» من طريق آخر، فرواه من طريق ابن لهيعة، عن عبيد الله بن أبى جعفر، عن عبادة بن الصامت به مرفوعاً.

والمشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة من طريق عبد الرحمن بن حبيب بن أردك، عن عطاء، عن ابن ماهك، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة»[١]. وقال الترمذي: حسن غريب.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾ أي: يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما تأتون وفيما تذرون ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية، وسيجازيكم على ذلك.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾.

قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين، فتنقضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها[٢] وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك، فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى الله أن يمنعوها. وكذا[٣] روى العوفي، عنه، وكذا قال مسروق، وإبراهيم النخعي، والزهري والضحاك أنها نزلت في ذلك. وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لابد في تزويجها[٤] من ولي، كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية، كما جاء في الحديث: لا تزوج المرأةُ المرأةَ، ولاتزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها[٥]. وفي الأثر الآخر: لا نكاح إلا بولي مرشد، وشاهدي عدل. وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء محرر في موضعه من كتب الفروع، وقد قررنا ذلك في كتاب «الأحكام»، ولله الحمد والمنة.

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته، فقال البخاري، رحمه الله، في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية:

حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا عباد بن راشد، حدثنا الحسن قال: حدثني معقل بن يسار قال: كانت لي أخت تخطب إلي ـ قال البخاري: وقال إبراهيم، عن يونس، عن الحسن: حدثني معقل بن يسار. وحدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا يونس، عن الحسن: أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها، فأبى معقل،

---

(١) سنن أبي داود برقم (٢١٩٤) وسنن الترمذي برقم (١١٨٤) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٣٩).

(٢) في جـ: «ثم يبدو له تزويجها». (٣) في جـ: «وكذلك».

(٤) في جـ، أ: «في النكاح».

(٥) رواه ابن ماجة في السنن برقم (١٨٨٢) من طريق محمد بن مروان عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة مرفوعاً به، وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ٨٤): «هذا إسناد مختلف فيه».

فنزلت: ﴿فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾[١].

وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجة، وابن أبى حاتم، وابن جرير، وابن مردويه من طرق متعددة، عن الحسن، عن معقل بن يسار، به[٢]. وصححه الترمذى أيضاً، ولفظه عن معقل ابن يسار: أنه زوج أخته رجلا من المسلمين، على عهد رسول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يالكع[٣]، أكرمتك بها وزوجتكها، فطلقتها! والله لا ترجع إليك أبداً، آخر ما عليك قال: فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ فلما سمعها معقل قال: سَمْعٌ لربى وطاعة ثم دعاه، فقال: أزوجك وأكرمك، زاد ابن مردويه: وكفرت عن يمينى.

وروى ابن جرير[٤]، عن ابن جريج قال: هى جمل بنت يسار كانت تحت أبى البداح، وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق السبيعى قال: هى فاطمة بنت يسار. وهكذا ذكر غير واحد من السلف: أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار وأخته. وقال السدى: نزلت فى جابر بن عبد الله، وابنة عم له، والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ أى: هذا الذى نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، يأتمر به ويتعظ به وينفعل له ﴿ مَن كَانَ مِنكُمْ﴾ أيها الناس ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ أى: يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه فى الدار الآخرة[٥]، وما فيها من الجزاء ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أى: اتباعكم شرع الله فى رد المولیات إلى أزواجهن، وترك الحمية فى ذلك، أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أى: من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه ﴿ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ أى: الخيرة فيما تأتون ولا فيما تذرون.

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٢٩).

(٢) سنن أبى داود برقم (٢٠٨٧) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨١) وتفسير الطبرى (٥/١٧، ١٨) ولم يعزه المزى فى تحفة الأشراف لسنن ابن ماجة.

(٣) فى أ: «فقال له وكيع». (٤) فى جـ: «ابن جريج». (٥) فى جـ: «فى الدنيا والآخرة».

هذا إرشاد من الله تعالى [١] للوالدات: أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهى سنتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك؛ ولهذا [٢] قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم.

قال [٣] الترمذى: «باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا فى الصغر [٤] دون الحولين»: حدثنا قتيبة، حدثنا أبو عوانة، عن هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء فى الثدى، وكان قبل الفطام». وقال: هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم: أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وماكان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئاً. وفاطمة بنت المنذر ابن الزبير بن العوام، وهى امرأة هشام بن عروة[٥].

قلت: تفرد الترمذى برواية هذا الحديث، ورجاله على شرط الصحيحين، ومعنى قوله: إلا ما كان فى الثدى، أى: فى محل [٦] الرضاعة قبل الحولين، كما جاء فى الحديث، الذى رواه أحمد، عن وكيع وغندر، عن شعبة، عن عدى بن ثابت، عن البراء بن عازب قال: لما مات إبراهيم ابن النبى ﷺ قال: «إن له مرضعاً [٧] فى الجنة». وهكذا أخرجه البخارى من حديث شعبة [٨]، وإنما قال، عليه السلام، ذلك؛ لأن ابنه إبراهيم، عليه السلام، مات وله سنة وعشرة أشهر، فقال: «إن له مرضعاً فى الجنة» يعنى: تكمل رضاعه، ويؤيده ما رواه الدارقطنى، من طريق الهيثم بن جميل، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان فى الحولين»، ثم قال: لم يسنده عن ابن عيينة غير الهيثم بن جميل، وهو ثقة حافظ[٩].

قلت: وقد رواه الإمام مالك فى الموطأ، عن ثور بن زيد، عن ابن عباس موقوفاً [١٠][١١]. ورواه الدراوردى عن ثور، عن عكرمة، عن ابن عباس وزاد: «وما كان بعد الحولين فليس بشىء»، وهذا أصح.

وقال أبو داود الطيالسى، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رضاع بعد فصال، ولا يُتْم بعد احتلام»، وتمام الدلالة من هذا الحديث فى قوله: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. وقال: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين مروى عن

---

(١) فى جـ: «من الله تبارك وتعالى». (٢) فى جـ: «فلهذا». (٣) فى جـ: «وقال».
(٤) فى أ: «فى الصغير».
(٥) سنن الترمذى برقم (١١٥٢).
(٦) فى جـ، أ: «فى حال».
(٧) فى أ، و: «إن ابنى مات وإن له مرضعا».
(٨) المسند (٤/ ٣٠٠) وصحيح البخارى برقم (١٣٨٢).
(٩) سنن الدارقطنى (٤/ ١٧٤).
(١٠) فى هـ: «مرفوعاً» والصواب ما أثبتناه من جـ، أ، و، وهو ما نبه عليه الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله.
(١١) الموطأ (٢/ ٦٠٢).

على، وابن عباس، وابن مسعود، وجابر، وأبى هريرة، وابن عمر، وأم سلمة، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والجمهور. وهو مذهب الشافعى، وأحمد، وإسحاق، والثورى، وأبى يوسف، ومحمد، ومالك فى رواية، وعنه: أن مدته سنتان وشهران، وفى رواية: وثلاثة أشهر. وقال أبو حنيفة: سنتان وستة أشهر، وقال زفر بن الهذيل: ما دام يرضع فإلى ثلاث سنين، وهذا رواية عن الأوزاعى. قال مالك: ولو فطم الصبى دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم؛ لأنه قد صار بمنزلة الطعام، وهو رواية عن الأوزاعى، وقد روى عن عمر وعلى أنهما قالا: لارضاع بعد فصال، فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور، سواء فطم أو لم يفطم، ويحتمل أنهما أرادا الفعل، كقول مالك، والله أعلم.

وقد روى فى الصحيح(١) عن عائشة، رضى الله عنها: أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر فى التحريم، وهو قول عطاء بن أبى رباح، والليث بن سعد، وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها فترضعه، وتحتج فى ذلك بحديث سالم مولى أبى حذيفة حيث أمر النبى ﷺ امرأة أبى حذيفة أن ترضعه، وكان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وأبى ذلك سائر أزواج النبى ﷺ، ورأين(٢) ذلك من الخصائص، وهو قول الجمهور. وحجة الجمهور ـ منهم الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة، والأكابر من الصحابة، وسائر أزواج رسول الله ﷺ سوى عائشة ـ ما ثبت فى الصحيحين، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «انظرْنَ من إخوانكن، فإنما الرضاعة من المجاعة»(٣). وسيأتى الكلام على مسائل الرضاع، وفيما يتعلق برضاع الكبير، عند قوله تعالى: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم﴾ [النساء: ٢٣].

وقوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أى: بما جرت به عادة أمثالهن فى بلدهنّ من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته فى يساره وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿لِينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ [الطلاق: ٧]. قال الضحاك: إذا طلَّقَ [الرجل](٤) زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله: ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ أى: لا تدفعه(٥) عنها لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللِّبأ(٦) الذى لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها رفعه عنها إن شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضّرار لها. ولهذا قال: ﴿وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ أى: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها، قاله مجاهد، وقتادة، والضحاك، والزهرى، والسدى، والثورى، وابن زيد، وغيرهم.

---

(١) فى أ: «فى الصحيحين». (٢) فى جـ: «ويروى».
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٦٤٧) وصحيح مسلم برقم (١٤٥٥).
(٤) زيادة من جـ. (٥) فى أ، و: «بأن تدفعه». (٦) فى جـ: «اللبأة».

وقوله: ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾. قيل: فى عدم الضرار لقريبه[١]، قاله مجاهد، والشعبى، والضحاك. وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور. وقد استقصى ذلك ابن جرير فى تفسيره. وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروى عن عمر بن الخطاب، وجمهور السلف، ويرشح ذلك بحديث الحسن، عن سَمرة مرفوعاً: من ملك ذا رحم محرم عُتِق عليه[٢].

وقد ذُكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت[٣] الولد إما فى بدنه أو عقله، وقد قال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة: أنه رأى امرأة تُرضع بعد الحولين. فقال: لا ترضعيه.

وقوله: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أى: فإن اتفقا والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا فى ذلك مصلحة له، وتشاورا فى ذلك، وأجمعا[٤] عليه، فلا جناح عليهما فى ذلك، فيؤْخَذُ منه: أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفى، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثورى وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل، وإلزام للنظر فى أمره، وهو من رحمة الله[٥] بعباده، حيث حجر على الوالدين فى تربية طفلهما وأرشدهما إلى ما يصلحه ويصلحهما كما قال فى سورة الطلاق: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ [الطلاق: ٦].

وقوله: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يتسلم منها الولد[٦]، إما لعذر منها، أو عذر له، فلا جناح عليهما فى بذله، ولا عليه فى قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتى هى أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف. قاله غير واحد.

وقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى: فى جميع أحوالكم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى: فلا يخفى عليه شىء من أحوالكم وأقوالكم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾.

هذا أمر من الله[٧] للنساء اللاتى يُتَوفّى عنهن أزواجهن: أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال[٨]، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده فى غير

(١) فى أ: « بقرينه»، وفى و: « بقريبه ».

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٣٩٤٩) والترمذى فى السنن برقم (١٣٦٥) من طريق عاصم الأحول عن الحسن به، وقال الترمذى: « هذا حديث لا نعرفه مسنداً إلا من حديث حماد بن سلمة، وقد روى بعضهم هذا الحديث عن قتادة عن الحسن، عن عمر شيئاً من هذا»، ولفظه عندهما: « من ملك ذا رحم محرم فهو حر ».

(٣) فى أ: « جزت». (٤) فى جـ، أ: « واجتمعا ». (٥) فى جـ: « من رحمه الله تعالى ».

(٦) فى أ، و: « الولد ويسترضع له غيرها ». (٧) فى جـ: « من الله تعالى ». (٨) فى جـ: « ليالى ».

المدخول بها عُمُوم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى: أن ابن مسعود سُئِل عن رجل تزوّج امرأة فمات ولم يدخل بها، ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مراراً[١] فى ذلك فقال: أقول فيها برأيى، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكُن خطأ فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: [أرى][٢] لها الصداق كاملا. وفى لفظ: لها صداق مثلها، لا وكس، ولا شَطَط، وعليها العدّة، ولها الميراث. فقام معقل بن سنان[٣] الأشجعى فقال: سمعت رسول الله ﷺ قَضى به فى بَرْوَع بنت واشق. ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً. وفى رواية: فقام رجال من أشجع، فقالوا: نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به فى بَرْوَع بنت وَاشق[٤].

ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهى حامل، فإن عدّتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله: ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤]. وكان ابن عباس يرى: أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعَشْر، للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوى، لولا ما ثبتت به السنة فى حديث سُبَيعة الأسلمية، المخرج فى الصحيحين من غير وجه: أنه توفى عنها زوجها سعد بن خولة، وهى حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، وفى رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها تجملت للخُطّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعْكَك، فقال لها: ما لى أراك مُتجَمِّلة؟ لعلك ترجين النكاح. والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لى ذلك جمعت علىَّ ثيابى حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فأفتانى بأنى قد حلَلَتُ حين وضعتُ، وأمرنى بالتزويج إن بدا لى[٥].

قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روى أن ابن عباس رجع إلى حديث سُبَيعة، يعنى لما احتج عليه به. قال: ويصحح ذلك عنه: أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة، كما هو[٦] قول أهل العلم قاطبة.

وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمس ليال، على قول الجمهور؛ لأنها لما كانت على النصف من الحرة فى الحَدّ، فكذلك[٧] فلتكن على النصف منها فى العدة. ومن العلماء ـ كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية ـ من يسوى بين الزوجات الحرائر والإماء فى هذا المقام؛ لعموم الآية، ولأن العدة من باب الأمور الجبلية[٨] التى تستوى فيها الخليقة. وقد ذكر سعيدُ بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما: أن الحكمة فى جعل عدة الوفاء أربعة أشهر وعشراً؛ لاحتمال اشتمال الرحم على حمل، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً، كما جاء فى حديث ابن مسعود الذى فى الصحيحين وغيرهما: «إن خلق أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك

---

(١) فى جـ، أ، و: « إليه شهراً ». (٢) زيادة من أ، و. (٣) فى هـ، جـ، ط، أ: « معقل بن يسار » والمثبت هو الصواب.
(٤) المسند (٤/ ٢٨٠) وسنن أبى داود برقم (٢٢١٤، ٢٢١٥) وسنن الترمذى برقم (١١٤٥) وسنن النسائى (٦/ ١٢١) وسنن ابن ماجة برقم (١٨٩١).
(٥) صحيح البخارى برقم (٥٣١٩) وصحيح مسلم برقم (١٤٨٤).
(٦) فى جـ: « وهو ». (٧) فى جـ: « وكذلك ». (٨) فى أ: « الجلية ».

فينفخ فيه الروح»[١]. فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه، والله أعلم.

قال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة: سألت سعيد بن المسيب: ما بال العشر؟ قال: فيه ينفخ الروح. وقال الربيع بن أنس: قلت لأبى العالية: لِمَ صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة؟ قال: لأنه ينفخ فيها الروح. رواهما ابن جرير. ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد، فى رواية عنه، إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة هاهنا؛ لأنها صارت فراشا كالحرائر، وللحديث الذى رواه الإمام أحمد، عن يزيد ابن هارون، عن سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن رجاء بن حَيْوة، عن قبيصة بن ذؤيب، عن عمرو بن العاص أنه قال: لا تُلْبِسوا علينا سنة نبينا، عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر[٢].

ورواه أبو داود، عن قتيبة، عن غُنْدَر ـ وعن ابن المثنى، عن عبد الأعلى. وابن ماجة، عن على ابن محمد، عن وكِيع ـ ثلاثتهم عن سعيد بن أبى عَرُوبة، عن مَطَر الوراق، عن رجاء بن حيوة، عن قبيصة، عن عمرو بن العاص، فذكره[٣].

وقد روى عن الإمام أحمد أنه أنكر هذا الحديث، وقيل: إن قبيصة لم يسمع عَمْراً، وقد ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف، منهم: سعيد بن المسيب، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين، وأبو عياض[٤]، والزهرى، وعمر بن عبد العزيز. وبه كان يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان، وهو أمير المؤمنين. وبه يقول الأوزاعى، وإسحاق بن راهَوَيه، وأحمد بن حنبل، فى رواية عنه. وقال طاوس وقتادة: عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها نصفُ عدة الحرة: شهران وخمس ليال. وقال أبو حنيفة وأصحابه، والثورى، والحسن بن صالح بن حَىّ: تعتد بثلاث حيض. وهو قول على، وابن مسعود، وعطاء، وإبراهيم النخَعى. وقال مالك، والشافعى، وأحمد فى المشهور عنه: عدتها حيضة. وبه يقول ابن عمر، والشعبى، ومكحول، والليث، وأبو عبيد، وأبو ثَور، والجمهور.

قال الليث: ولو مات وهى حائض أجزأتها. وقال مالك: فلو كانت ممن لا تحيض فثلاثة أشهر. وقال الشافعى والجمهور: شهر، وثلاثة أحب إلى. والله أعلم.

وقوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها، لما ثبت فى الصحيحين، من غير وجه، عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمى المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل لامرأة تؤمن

(١) صحيح البخارى برقم (٣٢٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).
(٢) المسند (٤/٢٠٣).
(٣) سنن أبى داود برقم (٢٣٠٨) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٨٣).
(٤) فى جـ: « وأبو عاص ».

بالله واليوم الآخر أن تُحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»[١]. وفى الصحيحين أيضا، عن أم سلمة: أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتى تُوفى عنها زوجها، وقد اشتكت عينُها، أفنكْحُلُها؟ فقال: « لا ». كل ذلك يقول: « لا » مرتين أو ثلاثاً. ثم قال: « إنما هى أربعة أشهر وعشر[٢]، وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة». قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حفْشاً، ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيباً ولا شيئاً، حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطى بَعْرة فترمى بها، ثم تؤتى بدابة ـ حمار أو شاة أو طير ـ فَتَفْتَضّ به فقلما تفتض بشىء إلا مات[٣].

ومن هاهنا ذهب كثير من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التى بعدها، وهى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٠]، كما قاله ابن عباس وغيره ،وفى هذا نظر كما سيأتى تقريره.

والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب، ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحُلِىٍّ وغير ذلك وهو واجب فى عدة الوفاة قولا واحداً، ولا يجب فى عدة الرجعية قولا واحداً، وهل يجب فى عدة البائن؟ فيه قولان.

ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء فى ذلك الصغيرة والآيسة[٤]، والحرة والأمة، والمسلمة والكافرة، لعموم الآية. وقال الثورى وأبو حنيفة وأصحابه: لا إحداد على الكافرة. وبه يقول أشهبُ، وابنُ نافع من أصحاب مالك. وحجة قائل هذه المقالة قولهُ ﷺ[٥]: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحدّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»: قالوا: فجعله تعبداً[٦]. وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثورى الصغيرة بها، لعدم التكليف. وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لنقصها[٧]. ومحل تقرير ذلك كله فى كتب الأحكام والفروع، والله الموفق للصواب.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أى: انقضت عدتهن[٨]. قاله الضحاك والربيع بن أنس، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزهرى: أى: على أوليائها ﴿فِيمَا فَعَلْنَ﴾ يعنى: النساء اللاتى انقضت عدتهن. قال العوفى[٩] ،عن ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنَّع وتتعرض للتزويج، فذلك المعروف . روى عن مقاتل بن حيان نحوه، وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: هو النكاح الحلال الطيب. وروى عن الحسن، والزهرى، والسدى نحو ذلك.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٣٣٧) وصحيح مسلم برقم (١٤٨٦) من حديث زينب بنت جحش رضى الله عنها، وصحيح البخارى برقم (٥٣٣٤) وصحيح مسلم برقم (١٤٨٦) من حديث أم حبيبة رضى الله عنها.

(٢) فى جـ: « وعشراً ».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٣٣٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٨٨).

(٤) فى جـ : « الصغير والكبير ». (٥) فى جـ : « عليه السلام».

(٦) فى جـ: « مقيداً ». (٧) فى جـ: « لبعضها ».

(٨) فى جـ، أ، و: « عدتها ». (٩) فى جـ: « قال الوالبى ».

﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تُعَرِّضوا بخطبة النساء فى عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح. قال الثورى وشعبة وجرير وغيرهم، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ قال: التعريض أن تقُول: إنى أريد التزويج، وإنى أحب امرأة من أمرها ومن أمرها ـ يعرض لها بالقول بالمعروف ـ وفى رواية: وددت أن الله رزقنى امرأة ونحو هذا. ولا يَنْصِبُ للخِطْبة. وفى رواية: إنى لا أريد أن أتزوج غيرَك إن شاء الله، ولوددت أنى وجدت امرأة صالحة، ولا ينصب لها ما دامت فى عدتها. ورواه البخارى تعليقاً، فقال: قال لى طلق بن غَنَّام، عن زائدة، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ هو أن يقول: إنى أريد التزويج، وإن النساء لمن حاجتى، ولوددت أنه تَيَسَّر لى امرأة صالحة(١).

وهكذا قال مجاهد، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جُبير، وإبراهيم النخَعى، والشعبى، والحسنُ، وقتادة، والزهرى، ويزيد بن قُسَيط، ومقاتل بن حيَّان، والقاسم بن محمد، وغير واحد من السلف والأئمة فى التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة. وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها، كما قال النبى ﷺ لفاطمة بنت قيس، حين طلقها زوجها أبو عَمْرو بن حَفْص: آخر ثلاث تطليقات. فأمرها أن تعتد فى بيت ابن أم مكتوم، وقال لها: « فإذا حَلَلْت فآذنينى». فلما حلَّتْ خطب عليها أسامة بن زيد مولاه، فزوّجها إياه (٢).

فأما المطلقة الرجعية: فلا خلاف فى أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم.

وقوله: ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ أى: أضمرتم فى أنفسكم خطْبَتَهنّ(٣)، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ(٤) يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص: ٦٩]، وكقوله: ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ [الممتحنة: ١]؛ ولهذا قال: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ أى: فى أنفسكم، فرفع الحرج عنكم فى ذلك، ثم قال: ﴿ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ قال أبو مِجْلَز، وأبو الشعثاء ـ جابر بن زيد ـ والحسن البصرى، وإبراهيم النخعى وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، وسليمان التيمى، ومقاتل ابن حيان، والسدى: يعنى الزنا. وهو معنى رواية العَوفى عن ابن عباس، واختاره ابن جرير.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥١٢٤).

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٨٠).

(٣) فى جـ، أ، و: « من خطبتهن ».

(٤) فى جـ: « والله » وهو خطأ.

وقال على بن أبى طلحة، عن أبى عباس: ﴿وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ : لا تقل لها : إنى عاشق، وعاهدينى ألا تتزوجى غيرى، ونحو هذا. وكذا رُوِى عن سعيد بن جُبير، والشعبى، وعكرمة، وأبى الضحى، والضحاك، والزهرى، ومجاهد، والثورى: هو أن يأخذ ميثاقها ألا تتزوج غيره، وعن مجاهد: هو قول الرجل للمرأة: لا تفوتينى بنفسك، فإنى ناكحك.

وقال قتادة: هو أن يأخذ عهد المرأة، وهى فى عدتها ألا تنكح غيره، فنهى الله عن ذلك وقدم فيه، وأحل الخِطْبة والقول بالمعروف.

وقال ابن زيد: ﴿وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ هو أن يتزوجها فى العدة سراً، فإذا حلت أظهر ذلك.

وقد يحتمل أن تكون الآية عامة فى جميع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ قال[١] ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير، والسدى، والثورى، وابن زيد: يعنى به: ما تقدم من إباحة التعريض. كقوله: إنى فيك لراغب.ونحو ذلك.

وقال محمد بن سيرين: قلت لعَبِيدة: ما معنى قوله: ﴿إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾؟ قال: يقول لوليها: لا تسبقْنى بها، يعنى: لاتزوجها حتى تُعلمنى. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعنى: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضى العدة. قال ابن عباس، ومجاهد، والشعبى، وقتادة، والربيع بن أنس، وأبو مالك، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان، والزهرى، وعطاء الخراسانى، والسدى، والثورى، والضحاك: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعنى: حتى تنقضى العدة.

وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد فى مدة العدة. واختلفوا فيمن تزوج امرأة فى عدتها فدخل بها، فإنه يفرق بينهما، وهل تحرم عليه أبدا؟ على قولين: الجمهور على أنها لا تحرم عليه، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها. وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأبيد. واحتج فى ذلك بما رواه عن ابن شهاب، وسليمان بن يسار: أن عمر، رضى الله عنه، قال: أيما امرأة نكحت فى عدتها، فإن زوجها الذى تزوجها [٢] لم يدخل بها، فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم كان الآخر خاطباً من الخطاب، وإن كان دخل بها فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من الأول[٣]، ثم اعتدت من الآخر، ثم لم ينكحها أبداً[٤].

قالوا: ومأخذ هذا: أن الزوج لما استعجل ما أجل الله، عوقب بنقيض قصده، فحرمت عليه على التأبيد، كالقاتل يحرم [٥] الميراثَ. وقد روى الشافعى هذا الأثر عن مالك. قال البيهقى: وذهب إليه فى القديم ورجع عنه فى الجديد، لقول على: إنها تحل له.

قلت: ثم هو [٦] منقطع عن عمر. وقد روى الثورى، عن أشعث، عن الشعبى، عن مسروق:

---

(١) فى جـ: «وقال». (٢) فى جـ، أ، و: «زوجها التى تزوج بها». (٣) فى جـ :«من زوجها الأول».
(٤) الموطأ (٢/ ٥٣٥). (٥) فى جـ: «يحرم عليه». (٦) فى جـ: «قلت وهو».

أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها، وجعلهما يجتمعان.

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ توعدهم على ما يقع فى ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يُؤْيِسْهُم من رحمته، ولم يُقْنطهم من عائدته، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رحيم[١]﴾.

﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)﴾.

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها. قال ابن عباس، وطاوس، وإبراهيم، والحسن البصرى: المس: النكاح. بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها، والفرض لها إن كانت مُفَوّضةَ، وإن كان فى هذا انكسار لقلبها؛ ولهذا أمر تعالى بإمتاعها، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره.

وقال سفيان الثورى، عن إسماعيل بن أمية، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: متعة الطلاق أعلاه الخادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: إن [٢] كان موسراً متعها بخادم، أوشبه ذلك، وإن كان معسراً أمتعها بثلاثة أثواب.

وقال الشعبى: أوسط ذلك: درع وخمار وملحفة وجلباب. قال: وكان شريح يمتع بخمسمائة.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن أيوب، عن ابن سيرين قال: كان يُمتع بالخادم، أو بالنفقة، أو بالكسوة، قال: ومتع الحسن بن على بعشرة آلاف[٣]، ويروى أن المرأة قالت:

متاعٌ قليلٌ من حَبيبٍ مُفَارِقِ

وذهب أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أنه متى تنازع الزوجان فى مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها. وقال الشافعى فى الجديد: لايجبر الزوج على قدر معلوم، إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة، وأحب ذلك إلىَّ أن يكون أقله ماتجزئ فيه الصلاة. وقال فى القديم: لا أعرف فى المتعة قدراً[٤]، إلا أنى أستحسن ثلاثين درهماً؛ لما روى عن ابن عمر، رضى الله عنهما[٥].

وقد اختلف العلماء أيضاً: هل تجب المتعة لكل مطلقة، أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التى لم يفرض لها؟ على أقوال:

أحدها: أنه تجب المتعة لكل مطلقة، لعموم قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١] ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾[الأحزاب: ٢٨]، وقدكن مفروضاً لهن ومدخولا بهن، [٦]وهذا

---

(١) فى جـ، أ، و: «غفور حليم» وهو الصواب. (٢) فى أ: «إذا».
(٣) ورواه الطبرى فى تفسيره (٥/ ١٢٣) من طريق عبد الرزاق به.
(٤) فى جـ، أ، و: «وقتاً». (٥) فى جـ: «عنه». (٦) فى جـ: «وقد كن مدخولاً بهن ومفروضاً لهن».

قول سعيد ابن جُبير، وأبي العالية، والحسن البصري. وهو أحد قولي الشافعي، ومنهم من جعله الجديد الصحيح، فالله أعلم.

والقول الثاني: أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾** [الأحزاب: ٤٩]، قال شعبة وغيره، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب قال: نسخت هذه الآية التي في الأحزاب الآية التي في البقرة.

وقد روى البخاري في صحيحه، عن سهل بن سعد، وأبي أُسَيد أنهما قالا: تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنما[١] كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقِيَّين[٢] [٣].

والقول الثالث: أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها، ولم يفرض[٤] لها، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول، وجب لها عليه شطره، فإن دخل بها استقر الجميع، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة، وإنما المصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها. وهذا قول ابن عمر، ومجاهد. ومن العلماء: من استحبها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول: وهذا ليس بمنكور[٥]، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾**، [البقرة: ٢٤١].

ومن العلماء من يقول: إنها مستحبة مطلقاً. قال ابن أبي حاتم: حدثنا كثير بن شهاب القزويني، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو ـ يعني ابن أبي قيس ـ عن أبي إسحاق، عن الشعبي قال: ذكروا له المتعة، أيحبس فيها؟ فقرأ: **﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾** قال الشعبي: والله ما رأيت أحداً حبس[٦] فيها، والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾.

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى[٧]، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض، وإذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من

---

(١) في أ، و: «فكأنها». (٢) في جـ: «درافتين».
(٣) صحيح البخاري برقم (٥٢٢٦).
(٤) في جـ: «ولم يعرض». (٥) في جـ: «بمعلوم».
(٦) في جـ: «أحسن».
(٧) في أ: «الكريمة».

متعة لبينها[(١)]، لاسيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الحالة[(٢)]، والله أعلم.

وتشطير الصداق ـ والحالة هذه ـ أمر مجمع عليه بين العلماء، لاخلاف بينهم فى ذلك، فإنه متى كان قد سمى لها صداقاً ثم فارقها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمى من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج، وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعى فى القديم، وبه حكم الخلفاء الراشدون، لكن [(٣)] قال الشافعى: أخبرنا مسلم بن خالد، أخبرنا ابن جريج، عن ليث بن أبى سليم، عن طاوس، عن ابن عباس أنه قال: ـ فى الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ثم يطلقها ـ ليس لها إلا نصف الصداق؛ لأن الله يقول: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ قال الشافعى: هذا أقوى[(٤)]، وهو ظاهر الكتاب.

قال البيهقى: وليث بن أبى سليم وإن كان غير محتج [(٥)] به، فقد رويناه من حديث ابن أبى طلحة، عن ابن عباس فهو يقوله[(٦)].

وقوله: ﴿ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ﴾ أى: النساء عما وجب لها على زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شيء.

قال السدى، عن أبى صالح، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ﴾ قال: إلا أن تعفو الثيب فتدع حقها. قال الإمام أبو محمد بن أبى حاتم، رحمه الله: وروى عن شريح، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، ومجاهد، والشعبى، والحسن، ونافع، وقتادة، وجابر بن زيد، وعطاء الخراسانى، والضحاك، والزهرى، ومقاتل بن حيان، وابن سيرين، والربيع بن أنس، والسدى، نحو ذلك. قال: وخالفهم محمد بن كعب القرظى فقال: ﴿إِلاَّ أَن يَعْفُونَ﴾ يعنى: الرجال، وهو قول شاذ لم يتابع عليه. انتهى كلامه.

وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ قال ابن أبى حاتم: ذكر عن ابن لهيعة، حدثنى عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ [قال][(٧)]: «ولى عقدة النكاح الزوج».

وهكذا أسنده ابن مردويه من حديث عبد الله بن لهيعة، به[(٨)]. وقد أسنده ابن جرير، عن ابن لهيعة، عن عمرو بن شعيب أن رسول الله ﷺ، فذكره [(٩)]، ولم يقل: عن أبيه، عن جده فالله أعلم.

ثم قال ابن أبى حاتم، رحمه الله: وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا جرير، يعنى ابن حازم، [(١٠)] عن عيسى ـ يعنى ابن عاصم ـ قال: سمعت شريحاً يقول: سألنى على بن طالب[(١١)]

---

(١) فى أ: «لمسها». (٢) فى جـ: «المتعة مهما دلت عليه الآية الأولى بتلك الحالة».

(٣) فى جـ: «ولكن». (٤) فى جـ، و: «بهذا أقول»، وفى أ: «بهذا القول». (٥) فى جـ: «غير صحيح».

(٦) فى أ، و: «فهو مقوله». (٧) زيادة من جـ، أ، و.

(٨) ورواه الدارقطنى فى السنن (٣/ ٢٧٩) من طريق قتيبة عن ابن لهيعة به، وذكر البيهقى فى السنن الكبرى (٧/ ٢٥١) وقال: «هذا غير محفوظ، وابن لهيعة غير محتج به، والله أعلم».

(٩) تفسير الطبرى(٥/ ١٥٧).

(١٠) فى جـ: «يعنى ابن أبى حاتم». (١١) فى أ: «على بن أبى طلحة»، وفى و: «على بن أبى طالب».

عن الذى بيده عقدة النكاح. فقلت له: هو ولى المرأة. فقال على: لا، بل هو الزوج.

ثم قال: وفى إحدى الروايات عن ابن عباس، وجبير بن مطعم، وسعيد بن المسيب، وشريح - فى أحد قوليه ـ وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبى، وعكرمة، ونافع، ومحمد بن سيرين، والضحاك، ومحمد بن كعب القرظى، وجابر بن زيد، وأبى مِجْلز، والربيع بن أنس، وإياس بن معاوية، ومكحول، ومقاتل بن حيان: أنه الزوج.

قلت: وهذا هو الجديد من قولى [1] الشافعى، ومذهب أبى حنيفة. وأصحابه، والثورى، وابن شبرمة، والأوزاعى، واختاره ابن جرير. ومأخذ هذا القول: أن الذى بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج، فإن بيده [2]عقدها وإبرامها ونقضها وانهدامها، وكما أنه لا يجوز للولى أن يهب شيئاً من مال المولية للغير، فكذلك فى الصداق.

قال[3]: والوجه الثانى: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا عمرو ابن دينار، عن ابن عباس ـ فى الذى ذكر الله بيده عقدة النكاح ـ قال: ذلك أبوها أو أخوها، أو من لا تنكح إلا بإذنه، وروى عن علقمة، والحسن، وعطاء، وطاوس، والزهرى، وربيعة، وزيد بن أسلم، وإبراهيم النخعى، وعكرمة فى أحد قوليه، ومحمد بن سيرين ـ فى أحد قوليه: أنه الولى. وهذا مذهب مالك، وقول [4] الشافعى فى القديم؛ ومأخذه أن الولى هو الذى أكسبها إياه، فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها.

وقال ابن جرير: حدثنا سعيد بن الربيع الرازى، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة قال: أذن الله فى العفو وأمر به، فأى امرأة عفت جاز عفوها، فإن شحت وضنت عفا وليها وجاز عفوه.

وهذا يقتضى صحة عفو الولى، وإن كانت رشيدة، وهو مروى عن شريح. لكن أنكر عليه الشعبى، فرجع عن ذلك، وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه.

وقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: قال ابن جرير: قال بعضهم: خوُطب به الرجال، والنساء.

حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبى رباح، عن ابن عباس: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ قال: أقربهما للتقوى الذى يعفو.

وكذا روى عن الشعبى وغيره، وقال مجاهد، والضحاك، ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والثورى: الفضل [5] هاهنا أن تعفو المرأة عن شطرها، أو إتمام الرجل الصداق لها. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ[بَيْنَكُم][6]﴾ أى: الإحسان، قاله سعيد. وقال الضحاك، وقتادة، والسدى، وأبو وائل: المعروف يعنى: لا تهملوه بل استعملوه بينكم.

وقد قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا موسى بن إسحاق،

---

(١) فى جـ: «من مذهب». (٢) فى جـ: «فإن بيدها». (٣) فى جـ: «وقال».
(٤) فى جـ: «وهو قول». (٥) فى جـ: «والفضل».
(٦) زيادة من جـ.

حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عبيد الله [١] بن الوليد الوصافى، عن عبد الله ابن عبيد، عن على بن أبى طالب، أن رسول الله ﷺ قال: « ليأتينَّ على الناس زمان عَضُوض، يَعَضّ المؤمن على ما فى يديه وينسى الفضل، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ، شرار يبايعون كل مضطر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر، وعن بيع الغَرَر، فإن كان عندك خير فعُدْ به على أخيك، ولا تزده هلاكاً إلى هلاكه، فإن المسلم أخو المسلم لا يَحْزُنه [٢] ولا يحرمه» [٣].

وقال سفيان، عن أبى هارون قال: رأيت عون بن عبد الله فى مجلس القرظى، فكان عون يحدثنا ولحيته تُرَش من البكاء ويقول: صحبت الأغنياء فكنت من أكثرهم همًّا، حين رأيتهم أحسن ثياباً، وأطيب ريحاً، وأحسن مركباً [منى] [٤]. وجالست الفقراء فاسترحت بهم، وقال: ﴿وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾. إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فَلْيَدْعُ له: رواه ابن أبى حاتم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى: لا يخفى عليه شيء من أموركم [٥] وأحوالكم، وسيجزى كل عامل بعمله.

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) ﴾ .

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وحفظ حدودها وأدائها فى أوقاتها، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أى العمل أفضل؟ قال: « الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: « الجهاد فى سبيل الله». قلت: ثم أى؟ قال: « بر الوالدين». قال: حدثنى بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدتُه لزادنى [٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم، عن القاسم بن غنام، عن جدته أم أبيه الدنيا، عن جدته أم فَرْوَة ـ وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ، أنها سمعت رسول الله ﷺ، وذكر الأعمال، فقال: « إن أحب الأعمال [٧] إلى الله تعجيلُ الصلاة لأول وقتها».

وهكذا رواه أبو داود، والترمذى [٨]، وقال: لا نعرفه إلا من طريق العمرى، وليس بالقوى عند أهل الحديث:

وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى. وقد اختلف السلف والخلف فيها: أى

---

(١) فى أ، و: «عبد الله». (٢) فى أ: « لا يخزيه ».

(٣) وقد جاء من وجه آخر، رواه أحمد فى المسند (١/ ١١٦) وأبو داود فى السنن برقم (٣٣٨٢) من طريق أبى عامر المزنى عن شيخ من بنى تميم عن على موقوفاً عليه بنحوه.

(٤) زيادة من جـ، أ، و. (٥) فى جـ: « من أعمالكم ».

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٢٧، ٥٩٧٠) وصحيح مسلم برقم (٨٥).

(٧) فى جـ: « العمل ».

(٨) المسند (٦/ ٢٧٤) وسنن أبى داود برقم (٤٢٦) وسنن الترمذى برقم (١٧٠).

صلاة هى؟ فقيل: إنها الصبح. حكاه مالك فى الموطأ بلاغاً عن على، وابن عباس [قال: مالك: وذلك رأيى][١]. وقال هشيم، وابن عُلَيَّة، وغُنْدَر، وابن أبى عدى، وعبد الوهاب، وشَريك وغيرهم، عن عوف الأعرابى، عن أبى رجاء العطاردى قال: صليت خلف ابن عباس الفجر، فقنتَ فيها، ورفع يديه، ثم قال: هذه الصلاة الوسطى التى أمرنا أن نقوم فيها قانتين. رواه ابن جرير[٢]. ورواه أيضاً من حديث عوف، عن خِلاَس بن عمرو، عن ابن عباس، مثله سواء[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عوف، عن أبى المنهال، عن أبى العالية، عن ابن عباس: أنه صلى الغداة فى مسجد[٤] البصرة، فقنت قبل الركوع وقال: هذه الصلاة الوسطى التى ذكرها الله فى كتابه فقال: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

وقال أيضاً: حدثنا محمد بن عيسى الدامغانى، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا الربيع بن أنس، عن أبى العالية قال: صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة[٥] صلاة الغداة، فقلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى جانبى: ما الصلاة الوسطى؟ قال: هذه الصلاة[٦].

وروى من طريق أخرى عن الربيع، عن أبى العالية: أنه صلى مع أصحاب رسول الله، ﷺ، صلاة الغداة، فلما أن فرغوا قال، قلت لهم: أيَّتهُنَّ الصلاة الوسطى؟ قالوا: التى قد صليتها قبل.

وقال أيضاً: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن عَثمَةَ، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن جابر بن عبد الله قال: الصلاة الوسطى: صلاة الصبح.

وحكاه ابن أبى حاتم، عن ابن عمر، وأبى أمامة، وأنس، وأبى العالية، وعُبَيد بن عمير، وعطاء، ومجاهد، وجابر بن زيد، وعكرمة، والربيع بن أنس. ورواه ابن جرير، عن عبد الله بن شداد بن الهاد أيضاً وهو الذى نص عليه الشافعى، رحمه الله، محتجاً بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾. والقنوت عنده فى صلاة الصبح. [ونقله الدمياطى عن عمر، ومعاذ، وابن عباس، وابن عمر، وعائشة على خلاف منهم، وأبى موسى، وجابر، وأنس، وأبى الشعثاء، وطاوس، وعطاء، وعكرمة، ومجاهد][٧].

ومنهم من قال: هى الوسطى باعتبار أنها لا تقصر، وهى بين صلاتين رباعيتين مقصورتين. وترد المغرب. وقيل: لأنها بين صلاتَىْ ليل[٨] جهريتين، وصلاتى نهار[٩] سريتين.

وقيل: إنها صلاة الظهر. قال أبو داود الطيالسى فى مسنده: حدثنا ابن أبى ذئب، عن الزبرقان ـ

(١) زيادة من جـ.
(٢) تفسير الطبرى (٥/ ٢١٥، ٢١٦).
(٣) تفسير الطبرى (٥/ ٢١٨).
(٤) فى جـ: « فى جامع ».
(٥) فى أ، و: « بالبصرة وفرغت ».
(٦) فى أ: « هذه الصلاة الوسطى ».
(٧) زيادة من جـ، أ.
(٨) فى أ، و : « بين صلاتين ليلتين ».
(٩) فى أ، و: « وصلاتين نهاريتين ».

يعنى ابن عمرو ـ عن[١] زهرة ـ يعنى ابن معبد ـ قال: كنا جلوساً عند زيد بن ثابت، فأرسلوا إلى أسامة، فسألوه عن الصلاة الوسطى، فقال: هى الظهر، كان النبى[٢]، ﷺ، يصليها بالهجير[٣].

وقال [الإمام][٤] أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثنى عمْرو بن أبى حكيم، سمعت الزبرقان يحدث عن عروة بن الزبير، عن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يصلى الظهر بالهاجرة، ولم يكن يُصَلِّى صلاة أشد على أصحاب النبى، ﷺ، منها، فنزلت: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ وقال: « إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين»، ورواه أبو داود فى سننه، من حديث شعبة، به[٥].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد، حدثنا ابن أبى ذئب[٦]، عن الزبرقان[٧]: أن رهطاً من قريش مر بهم زيد بن ثابت، وهم مجتمعون، فأرسلوا إليه غلامين لهم؛ يسألانه عن الصلاة الوسطى، فقال: هى العصر. فقام إليه رجلان منهم فسألاه، فقال: هى الظهر. ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه، فقال: هى الظهر؛ إن النبى ﷺ كان يصلى الظهر بالهجير، فلا يكون وراءه إلا الصف والصفان، والناس فى قائلتهم وفى تجارتهم، فأنزل الله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ قال: فقال رسول الله ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ رجال أو لأحرقن بيوتهم»[٨].

الزبرقان هو ابن عمرو بن أمية الضمرى، لم يدرك أحداً من الصحابة. والصحيح ما تقدم من روايته، عن زهرة بن معبد، وعروة بن الزبير.

وقال شعبة وهمام، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن زيد بن ثابت قال: الصلاة الوسطى: صلاة الظهر.

وقال أبو داود الطيالسى وغيره، عن شعبة، أخبرنى عمر بن سليمان، من ولد عمر بن الخطاب قال: سمعت عبد الرحمن بن أبان بن عثمان، يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت قال: الصلاة الوسطى هى الظهر.

ورواه ابن جرير، عن زكريا بن يحيى بن أبى زائدة، عن عبد الصمد، عن شعبة، عن عمر بن سليمان، به، عن زيد بن ثابت، فى حديث رفعه قال: الصلاة الوسطى صلاة الظهر.

وممن روى عنه أنها الظهر: ابن عمر، وأبو سعيد، وعائشة على اختلاف عنهم. وهو قول عروة ابن الزبير، وعبد الله بن شداد بن الهاد. ورواية عن أبى حنيفة، رحمهم الله.

وقيل: إنها صلاة العصر. قال الترمذى والبغوى، رحمهما الله: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم، وقال القاضى الماوردى: وهو قول جمهور التابعين. وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. وقال أبو محمد بن عطية فى تفسيره: هو قول جمهور الناس. وقال الحافظ

---

(١) فى جـ: « وعن ».
(٢) فى جـ: « رسول الله ».
(٣) مسند الطيالسى برقم (٦٢٨).
(٤) زيادة من جـ.
(٥) المسند (٥/ ١٨٣) وسنن أبى داود برقم (٤١١).
(٦) فى أ: «حدثنا ابن أبى وهب»، وفى و: «أنبأنا أبى وهب».
(٧) فى أ: «ابن الزبرقان».
(٨) المسند (٥/ ٢٠٦).

أبومحمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى فى كتابه المسمى: «كشف المغطى، فى تبيين الصلاة الوسطى»: وقد نصر فيه أنها العصر، وحكاه عن عمر، وعلى، وابن مسعود، وأبى أيوب، وعبد الله ابن عمرو، وسَمُرة بن جُنْدُب، وأبى هريرة، وأبى سعيد، وحفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة. وعن ابن عمر، وابن عباس، وعائشة على[(١)] الصحيح عنهم. وبه قال عبيدة، وإبراهيم النخعى، وزر بن حبيش، وسعيد بن جبير، وابن سيرين، والحسن، وقتادة، والضحاك، والكلبى، ومقاتل، وعبيد بن أبى مريم، وغيرهم وهو مذهب أحمد بن حنبل. قال القاضى الماوردى: والشافعى. قال ابن المنذر: وهو الصحيح عن أبى حنيفة، وأبى يوسف، ومحمد، واختاره ابن حبيب المالكى، رحمهم الله.

ذكر الدليل على ذلك

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن مسلم، عن شتير بن شكل[(٢)]، عن على قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً». ثم صلاها بين العشاءين: المغرب والعشاء[(٣)].

وكذا رواه مسلم، من حديث أبى معاوية محمد بن حازم الضرير، والنسائى من طريق عيسى بن يونس، كلاهما عن الأعمش عن مسلم بن صبيح أبى الضحى، عن شتير بن شكل[(٤)] بن حميد، عن على بن أبى طالب، عن النبى ﷺ مثله[(٥)].

وقد رواه مسلم أيضاً، من طريق شعبة، عن الحكم بن عتيبة[(٦)]، عن يحيى بن الجزار، عن على، به[(٧)].

وأخرجه الشيخان، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وغير واحد من أصحاب المساند[(٨)]، والسنن، والصحاح من طرق يطول ذكرها، عن عبيدة السلمانى، عن على، به[(٩)].

ورواه الترمذى، والنسائى من طريق الحسن البصرى، عن على، به[(١٠)]. قال الترمذى: ولا يعرف سماعه منه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن سفيان، عن عاصم، عن زر: قال قلت لعبيدة: سل علياً عن صلاة الوسطى، فسأله، فقال: كنا نراها الفجر ـ أو الصبح ـ حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وأجوافهم ـ أو بيوتهم ـ ناراً» ورواه ابن جرير، عن بندار، عن ابن مهدى،

(١) فى جـ: «فى». (٢) فى جـ: «بشير بن نكل».
(٣) المسند (١/ ٨١).
(٤) فى جـ: «بشير بن نكل».
(٥) صحيح مسلم برقم (٦٢٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٤٥).
(٦) فى أ: «بن عيينة».
(٧) صحيح مسلم برقم (٦٢٧). (٨) فى أ: «المسانيد».
(٩) صحيح البخارى برقم (٢٩٣١، ٤١١١) وصحيح مسلم برقم (٦٢٧) وسنن أبى داود برقم (٤٠٩) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨٤) وسنن النسائى (١/ ٢٣٦).
(١٠) لم أقع على هذا الطريق ولم يذكره المزى فى تحفة الأشراف.

به[١].

وحديث يوم الأحزاب، وشَغْل المشركين رسول الله ﷺ ، وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ، مروى عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نص منهم فى روايته أن الصلاة الوسطى: هى صلاة العصر. وقد رواه مسلم أيضا، من حديث ابن مسعود، والبراء بن عازب ـ رضى الله عنهما[٢].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرة: أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الوسطى: صلاة العصر»[٣].

وحدثنا بهز، وعفان قالا: حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سَمُرة: أن رسول الله، ﷺ قال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾وسماها لنا أنها هى: صلاة العصر[٤].

وحدثنا محمد بن جعفر، وروح، قالا: حدثنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرة بن جندب: أن رسول الله ﷺ قال: «هى العصر». قال ابن جعفر: سئل عن صلاة الوسطى[٥].

ورواه الترمذى، من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة. [٦] وقال:حسن صحيح: وقد سُمِعَ منه.

[حديث آخر][٧]: وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن التيمى، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة الوسطى صلاة العصر»[٨].

طريق أخرى، بل حديث آخر:وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا سليمان بن أحمد الجرشى الواسطى، حدثنا الوليد بن مسلم. قال: أخبرنى صدقة بن خالد، حدثنى خالد بن دهقان، عن خالد ابن سبلان، عن كهيل بن حرملة. قال: سئل أبو هريرة عن الصلاة الوسطى، فقال: اختلفنا فيها كما اختلفتم فيها، ونحن بفناء بيت رسول الله ﷺ ، وفينا الرجل الصالح: أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فقال: أنا أعلم لكم ذلك: فقام فاستأذن على رسول الله ﷺ، فدخل عليه، ثم خرج إلينا فقال: أخبرنا أنها صلاة العصر [٩] غريب من هذا الوجه جداً.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد السلام، عن سالم مولى أبى بصير[١٠]، حدثنى إبراهيم بن يزيد الدمشقى قال: كنت جالساً عند عبد العزيز بن

---

(١)تفسير الطبرى (٥/ ١٨٤).

(٢) صحيح مسلم برقم (٦٢٨) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه وبرقم (٦٣٠) من حديث البراء رضى الله عنه.

(٣) المسند (٥/ ٢٢).

(٤) المسند (٥/ ٨).

(٥) المسند (٥/ ٧، ١٢، ١٣).

(٦) سنن الترمذى برقم (١٨٢، ٢٩٨٣).

(٧) زيادة من جـ، أ.

(٨) تفسير الطبرى (٥/ ١٨٩).

(٩) تفسير الطبرى (٥/ ١٩١).

(١٠) فى أ: «أبى نصير».

مروان فقال: يا فلان، اذهب إلى فلان فقل له: أى شىء سمعت من رسول الله، ﷺ. فى الصلاة الوسطى؟ فقال رجل جالس: أرسلنى أبو بكر وعمر ـ وأنا غلام صغير ـ أسأله عن الصلاة الوسطى، فأخذ إصبعى الصغيرة فقال: هذه الفجر، وقبض التى تيها، فقال: هذه الظهر. ثم قبض الإبهام، فقال: هذه المغرب. ثم قبض التى تليها، فقال: هذه العشاء. ثم قال: أى أصابعك بقيت؟ فقلت: الوسطى. فقال: أى الصلاة بقيت؟ فقلت: العصر. فقال: هى العصر [١]. غريب أيضاً.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنى محمد بن عوف الطائى، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش[٢]، حدثنى أبى، حدثنى ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة الوسطى صلاة العصر»[٣]. إسناده لا بأس به.

حديث آخر: قال أبو حاتم بن حبان فى صحيحه: حدثنا أحمد بن يحيى بن زهير، حدثنا الجراح ابن مخلد، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام عن قتادة عن مُوَرِّق [٤] العجْلى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الوسطى صلاة العصر»[٥].

وقد روى الترمذى، من حديث محمد بن طلحة بن مُصَرِّف، عن زبيد اليامى، عن مُرَّة الهَمدانى، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الوسطى صلاة العصر[٦]»، ثم قال: حسن صحيح.

وأخرجه مسلم فى صحيحه، من طريق [٧] محمد بن طلحة، به [٨]ولفظه: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» الحديث.

فهذه نصوص فى المسألة لا تحتمل شيئاً، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، وقوله ﷺ فى الحديث الصحيح، من رواية الزهرى، عن سالم، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله[٩] »[١٠]. وفى الصحيح أيضاً، من حديث الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى قِلاَبَة، عن أبى المهاجر [١١] عن بُرَيدة بن الحُصَيْب، عن النبى ﷺ قال: «بكروا بالصلاة فى يوم الغَيم، فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»[١٢] [١٣].

---

(١) تفسير الطبرى (٥/ ١٩٦).

(٢) فى أ: «بن عباس».

(٣) تفسير الطبرى (٥/ ١٩٨) وقول الحافظ: إسناده لا بأس به، متعقب؛ فإن فى إسناده ضعف وانقطاع، وهذه نسخة مشهورة خرجها الطبرانى فى المعجم الكبير.

(٤) وقع فى هـ: «همام بن مورق» والتصحيح من الإحسان.

(٥) صحيح ابن حبان (٣/ ١٢١) «الإحسان».

(٦) سنن الترمذى برقم (١٨١).

(٧) فى جـ: «من حديث».

(٨) صحيح مسلم برقم (٦٢٨).

(٩) فى جـ: «ماله وأهله».

(١٠) صحيح مسلم برقم (٦٢٦).

(١١) فى جـ: «عن أبى المهاجر عن أبى المليح».

(١٢) الذى فى الصحيح إنما هو عن هشام عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى قلابة، عن أبى المليح، عن بريدة رضى الله عنه، وهو فى صحيح البخارى برقم (٥٥٣)، وهذا الثانى إنما هو فى سنن ابن ماجة برقم (٦٩٤)، والأول هو المحفوظ، وقد وقع فى نسخة «جـ» إثباته على الصواب، كما بينته، لكن وقع تخليط فى ذلك؛ لأنه أثبت كلمة: «وفى الصحيح» ثم تدارك ذلك.

(١٣) جاء فى جـ: «كذا رواه ابن ماجة من حديث الأوزاعى. ورواه البخارى والنسائى من حديث هشام الدستوائى، عن يحيى بن =

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن أبى تميم، عن أبى بصرة [١] الغفارى قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فى واد من أوديتهم، يقال له: المخَمَّص صلاة العصر، فقال: «إن هذه الصلاة صلاة العصر عُرِضَت على الذين من قبلكم فضيعوها، ألا ومن صلاها ضُعِّفَ له أجره مرتين، ألا ولا صلاة بعدها حتى تروا [٢] الشاهد».

ثم قال: رواه عن يحيى بن إسحاق، عن الليث، عن خير [٣] بن نُعيم، عن عبد الله بن هبيرة، به[٤].

وهكذا رواه مسلم والنسائى جميعاً، عن قتيبة، عن الليث[٥]. ورواه مسلم أيضا من حديث محمد بن إسحاق، حدثنى يزيد بن أبى حبيب كلاهما عن خير [٦]بن نعيم الحضرمى، عن عبد الله ابن هبيرة السبائى[٧]، به[٨].

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا إسحاق، أخبرنى مالك، عن زيد بن أسلم، عن القعقاع بن حكيم، عن أبى يونس مولى عائشة قال: أمرتنى عائشة أن أكتب لها مصحفاً، قالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ فآذنى. فلما بلغتها آذنتها، فأملت على: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» قالت: سمعتها من رسول الله ﷺ وهكذا رواه مسلم، عن يحيى بن يحيى، عن مالك، به[٩].

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا الحجاج، حدثنا حماد، عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان فى مصحف عائشة: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهى صلاة العصر». [١٠] وهكذا رواه من طريق الحسن البصرى: أن رسول الله ﷺ قرأها كذلك. وقد روى الإمام مالك أيضا، عن زيد بن أسلم عن عمرو بن رافع قال: كنت أكتب مصحفاً لحفصة زوج النبى ﷺ، فقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ فلما بلغتها آذنتها. فأملت على: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» [١١].

وهكذا رواه محمد بن إسحاق بن يسار [١٢] فقال: حدثنى أبو جعفر محمد بن على، ونافع مولى بن عمر: أن عمر بن رافع قال... فذكر مثله، وزاد: كما حفظتها من النبى ﷺ.

= أبى كثير، عن أبى قلابة، عن أبى المليح بن أسامة، عن بريدة، عن النبى ﷺ: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله».

(١) جـ: «عن أبى نضرة». (٢) فى أ: «حتى يزول».

(٣) فى جـ: «عن حسن».

(٤) المسند (٦/ ٣٩٧).

(٥) صحيح مسلم برقم (٨٣٠) وسنن النسائى (١/ ٢٥٩).

(٦) فى جـ: «جبير».

(٧) فى أ: «الشيبانى».

(٨) صحيح مسلم برقم (٨٣٠).

(٩) المسند (٦/ ٧٣) وصحيح مسلم برقم (٦٢٩).

(١٠) تفسير الطبرى (٥/ ١٧٥).

(١١) الموطأ (١/ ١٣٩).

(١٢) فى جـ: «بن بشار».

طريق أخرى عن حفصة: قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبى بشر، عن عبد الله بن يزيد الأزدى، عن سالم بن عبد الله: أن حفصة أمرت إنساناً أن يكتب لها مصحفاً، فقالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ** ﴾ فآذنى. فلما بلغ آذنها فقالت: اكتب: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر»(١).

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنى ابن المثنى عبد الوهاب، حدثنا عبيد الله، عن نافع، أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها مصحفاً فقالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ** ﴾ فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها. فلما بلغها أمرته فكتبها: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». قال نافع: فقرأت ذلك المصحف فرأيت فيه «الواو»(٢).

وكذا روى ابن جرير، عن ابن عباس وعبيد بن عمير أنهما قرآ كذلك.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبدة، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنى أبو سلمة، عن عمرو بن رافع مولى عمر قال: كان فى مصحف حفصة: «حافظوا على الصلوات والصلاة الواسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين»(٣). وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التى تقتضى المغايرة، فدل ذلك على أنها غيرها وأجيب عن ذلك بوجوه: أحدها أن هذا إن روى على أنه خبر، فحديث على أصح وأصرح منه، وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة، كما فى قوله: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ٥٥]، ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** ﴾ [الأنعام: ٧٥]، أو تكون لعطف الصفات لا لعطف الذوات، كقوله: ﴿ **وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وكقوله: ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ** ﴾ [الأعلى: ٤] وأشباه ذلك كثيرة، وقال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة فى المزدحم

وقال أبو دؤاد الإيادى:

سلط الموت والمنون عليهم ... فلهم فى صدى المقابر هام(٤)

والموت هو المنون؛ قال عدى بن زيد العبادى:

فقدمت الأديم لراهشيه ... فألفى قولها كذبا ومينا(٥)

والكذب: هو المين، وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل: مررت بأخيك وصاحبك، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه، والله أعلم.

---

(١) تفسير الطبرى (٥/٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) تفسير الطبرى (٥/٢٠٩).

(٣) تفسير الطبرى (٥/٢١١).

(٤) البيت فى لسان العرب لابن منظور، مادة «منن».

(٥) البيت فى لسان العرب لابن منظور، مادة «مين».

وأما إن روى على أنه قرآن فإنه لم يتواتر، فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن؛ ولهذا لم يثبته أمير المؤمنين عثمان بن عفان فى المصحف الإمام، ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين تثبت الحجة بقراءتهم، لا من السبعة ولاغيرهم. ثم قد روى ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة فى هذا الحديث. قال مسلم: أخبرنا إسحاق بن راهويه، أخبرنا يحيى بن آدم، عن فضيل بن مرزوق، عن شقيق بن عقبة، عن البراء بن عازب، قال: نزلت:« حافظوا على الصلوات وصلاة العصر[(١)]» فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله، ثم نسخها الله، عز وجل، فأنزل: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ**﴾، فقال له زاهر ـ رجل كان مع شقيق ـ : أفهى العصر؟ قال: قد حدثتك كيف نزلت، وكيف نسخها الله، عز وجل.

قال مسلم: ورواه الأشجعى، عن الثورى، عن الأسود، عن شقيق[(٢)].

قلت: وشقيق هذا لم يرو له مسلم سوى هذا الحديث الواحد، والله أعلم. فعلى هذا تكون هذه التلاوة، وهى تلاوة الجادة، ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة، ولمعناها، إن كانت الواو دالة على المغايرة، ، وإلا فللفظها فقط، والله أعلم.

وقيل: إن الصلاة الوسطى هى صلاة المغرب. رواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس. وفى إسناده نظر؛ فإنه رواه عن أبيه، عن أبى الجُمَاهر[(٣)]، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبى الخليل، عن عمه، عن ابن عباس قال: صلاة الوسطى: المغرب. وحكى هذا القول ابن جرير عن قبيصة بن ذؤيب وحكى أيضاً عن قتادة على اختلاف عنه. ووجه هذا القول بعضهم بأنها: وسطى فى العدد بين الرباعية والثنائية، وبأنها وتر المفروضات، وبما جاء فيها من الفضيلة، والله أعلم.

وقيل: أنها العشاء الآخرة، اختاره على بن أحمد الواحدى فى تفسيره المشهور: وقيل: هى واحدة من الخمس، لا بعينها، وأبهمت فيهن، كما أبهمت ليلة القدر فى الحول أو الشهر أو العشر. ويحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب، وشريح القاضى، ونافع مولى ابن عمر، والربيع بن خيثم، ونقل أيضاً عن زيد بن ثابت، واختاره إمام الحرمين الجوينى فى نهايته.

وقيل: بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس، رواه ابن أبى حاتم عن ابن عمر، وفى صحته أيضاً نظر والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النَّمرى، إمام ما وراء البحر، وإنها لإحدى الكبر، إذ اختار ـ مع اطلاعه وحفظه ـ ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولاسنة ولا أثر. وقيل: إنها صلاة العشاء وصلاة الفجر،وقيل: بل هى صلاة الجماعة. وقيل: صلاة الجمعة. وقيل: صلاة الخوف. وقيل: بل صلاة عيد الفطر. وقيل: بل صلاة عيد الأضحى. وقيل: الوتر. وقيل: الضحى. وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة، ولم يظهر لهم وجه الترجيح. ولم يقع الإجماع على قول واحد، بل لم يزل التنازع[(٤)] فيها موجوداً من زمن الصحابة وإلى الآن.

(١) فى جـ، أ: «والصلاة الوسطى صلاة العصر».

(٢) صحيح مسلم برقم (٦٣).

(٣) فى أ: «عن أبى الجماهير».

(٤) فى أ، و: «النزاع».

قال ابن جرير: حدثنى محمد بن بشار وابن مثنى، قالا: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة قال: سمعت قتادة يحدث عن سعيد بن المسيب قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين فى الصلاة الوسطى هكذا، وشبَّك بين أصابعه(١).

[وقد حكى فخر الدين الرازى فى تفسيره قولا عن جمع من العلماء منهم زيد بن ثابت، وربيع ابن خيثم: أنها لم يرد بيانها، وإنما أريد إبهامها، كما أبهمت ليلة القدر فى شهر رمضان، وساعة الإجابة فى يوم الجمعة، والاسم الأعظم فى أسماء الله تعالى، ووقت الموت على المكلف؛ ليكون فى كل وقت مستعداً، وكذا أبهمت الليلة التى ينزل فيها من السماء وباء ليحذرها الناس، ويعطوا الأهبة دائماً، وكذا وقت الساعة استأثر الله بعلمه؛ فلا تأتى إلا بغته](٢).

وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التى قبلها، وإنما المدار ومعترك النزاع فى الصبح والعصر. وقد ثبتت السنة بأنها العصر، فتعين المصير إليها.

وقد روى الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى فى كتاب «فضائل الشافعى» رحمه الله: حدثنا أبى، سمعت حرملة بن يحيى التجيبى يقول: قال الشافعى: كل ما قلت فكان عن النبى ﷺ خلاف قولى مما يصح،فحديث النبى ﷺ أولى، ولا تقلدونى. وكذا روى الربيع والزعفرانى وأحمد بن حنبل، عن الشافعى. وقال موسى أبو الوليد بن أبى الجارود، عن الشافعى: إذا صح الحديث وقلت قولا فأنا راجع عن قولى وقائل بذلك. فهذا من سيادته وأمانته، وهذا نفس إخوانه من الأئمة، رحمهم الله ورضى عنهم أجمعين آمين. ومن هاهنا قطع القاضى الماوردى بأن مذهب الشافعى، رحمه الله، أن صلاة الوسطى هى صلاة العصر، وإن كان قد نص فى الجديد وغيره أنها الصبح، لصحة الأحاديث أنها العصر، وقد وافقه على هذه الطريقة جماعة من محدثى المذهب، ولله الحمد والمنة. ومن الفقهاء فى المذهب من ينكر أن تكون هى العصر مذهباً للشافعى، وصمموا على أنها الصبح قولا واحداً. قال الماوردى: ومنهم من حكى فى المسألة قولين، ولتقرير المعارضات والجوابات موضع آخر غير هذا، وقد أفردناه على حدة، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أى: خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم(٣) ترك الكلام فى الصلاة، لمنافاته إياها؛ ولهذا لما امتنع النبى ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه، وهو فى الصلاة، اعتذر إليه بذلك، وقال. «إن فى الصلاة لشغلا»، وفى صحيح مسلم أنه عليه السلام قال لمعاوية بن الحكم [السلمى] (٤) حين تكلم فى الصلاة: «إن هذه الصلاة لا يصلح (٥) فيها شىء من كلام الناس، إنما هى التسبيح والتكبير وذكر الله»(٦).

---

(١) تفسير الطبرى (٥/ ٢٢١).

(٢) زيادة من جـ.

(٣) فى جـ: «يستلزم».

(٤) زيادة من جـ، أ، و.

(٥) فى أ: «لايصح».

(٦) صحيح مسلم برقم (٥٣٧).

وقال الإمام أحمد، حدثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل، حدثنى الحارث بن شبيل، عن أبى عمرو الشيبانى، عن زيد بن أرقم قال: كان الرجل يكلم صاحبه فى عهد النبى ﷺ، فى الحاجة فى الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت. رواه الجماعة ـ سوى ابن ماجة، به، من طرق عن إسماعيل، به[١].

وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء، حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام فى الصلاة كان بمكة، قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذى فى الصحيح، قال: كنا نسلم على النبى ﷺ قبل أن نهاجر إلى الحبشة وهو فى الصلاة، فيرد علينا، قال: فلما قدمنا سلمت عليه، فلم يرد على، فأخذنى ما قرب وما بعد، فلما سلم قال: «إنى لم أرد عليك إلا أنى كنت فى الصلاة، وإن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث ألا تكلموا فى الصلاة»[٢].

وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة، ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم، فهاجر إلى المدينة، وهذه الآية: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ مدنية [٣] بلا خلاف، فقال قائلون: إنما أراد زيد ابن أرقم بقوله: «كان الرجل يكلم أخاه فى حاجته فى الصلاة» الإخبار عن جنس الناس، واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها، والله أعلم.

وقال آخرون: إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها، ويكون ذلك قد أبيح مرتين، وحرم مرتين، كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم، والأول أظهر. والله أعلم.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن الوليد، حدثنا إسحاق بن يحيى، عن المسيب، عن ابن مسعود قال: كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة، فمررت برسول الله ﷺ فسلمت عليه، فلم يرد على، فوقع فى نفسى أنه نزل فىَّ شىء، فلما قضى النبى ﷺ صلاته قال: «وعليك السلام، أيها المسلم، ورحمة الله، إن الله، عز وجل، يحدث من أمره ما يشاء فإذا كنتم فى الصلاة فاقنتوا ولاتكلموا»[٤].

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾: لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات، والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدها، ذكر الحال التى يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهى حال القتال والتحام الحرب، فقال: ﴿فَإِنْ[٥] خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ أى: فصلوا على أى حال كان، رجالا أوركبانا، يعنى مستقبلى القبلة

(١) المسند (٤/٣٦٨) وصحيح البخارى برقم (١٢٠٠، ٤٥٣٤) وصحيح مسلم برقم (٥٣٩) وسنن أبى داود برقم (٩٤٩) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٤٧).

(٢) صحيح البخارى برقم (١١٩٩، ٣٨٧٥) وصحيح مسلم برقم (٥٣٨).

(٣) فى و: «نزلت بالمدينة».

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/١٣٧) من طريق عاصم عن المسيب عن ابن مسعود به نحوه.

(٥) فى جـ: «وإن» وهو خطأ.

وغير مستقبليها كما قال مالك، عن نافع: أن [١] ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها. ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا على أقدامهم، أو ركبانا، مستقبلى القبلة أو غير مستقبليها. قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبى ﷺ. ورواه البخارى ـ وهذا لفظه [٢] ـ ومسلم ورواه البخارى أيضاً من وجه آخر، عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبى، ﷺ: نحوه أو قريباً منه[٣]. ولمسلم أيضاً، عن ابن عمر قال: فإن كان خوف أشد من ذلك فصل راكباً، أو قائماً تومئ إيماء[٤].

وفى حديث عبد الله بن أنيس الجهنى لما بعثه النبى، ﷺ، إلى خالد بن سفيان الهذلى ليقتله، وكان نحو عرفة ـ أو عرفات ـ فلما واجهه حانت صلاة العصر، قال: فخشيت أن تفوتنى، فجعلت أصلى وأنا أومئ إيماء. الحديث بطوله رواه أحمد، وأبو داود بإسناد جيد[٥]. وهذا من رخصة الله التى رخص لعباده، ووَضْعِه الآصار والأغلال عنهم.

وقد روى ابن أبى حاتم، من طريق شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال فى هذه الآية: يصلى الراكب على دابته، والراجل على رجليه. قال: وروى عن الحسن، ومجاهد، ومكحول، والسدى، والحكم، ومالك، والأوزاعى، والثورى، والحسن بن صالح، نحو ذلك، وزادوا: يومئ برأسه أينما توجه[٦].

ثم قال: حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو داود ـ يعنى ابن علية ـ عن مطرف، عن عطية، عن جابر بن عبد الله قال: إذا كانت المسايفة فليومئ برأسه [إيماء] [٧] حيث كان وجهه، فذلك قوله: ﴿فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾.

وروى عن الحسن، ومجاهد. وسعيد بن جبير، وعطاء، وعطية، والحكم، وحماد، وقتادة، نحو ذلك. وقد ذهب الإمام أحمد، فيما نص عليه، إلى أن صلاة الخوف تفعل فى بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان، وعلى ذلك ينزل الحديث الذى رواه مسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجة، وابن جرير، من حديث أبى عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكرى ـ زاد مسلم والنسائى: وأيوب ابن عائذ ـ كلاهما، عن بكير بن الأخنس الكوفى، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ، فى الحضر أربعاً، وفى السفر ركعتين، وفى الخوف ركعة [٨] وبه قال الحسن البصرى، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن مهدى، عن شعبة قال: سألت الحكم، وحماداً، وقتادة، عن صلاة المسايفة، فقالوا: ركعة. وهكذا روى الثورى، عنهم سواء.

(١) فى جـ: «عن».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٥).
(٣) صحيح البخارى برقم (٩٤٣).
(٤) صحيح مسلم برقم (٨٣٩).
(٥) المسند (٣/٤٩٦) وسنن أبى داود برقم (١٢٤٩).
(٦) فى أ: «إيماء بوجهه». (٧) زيادة من و.
(٨) صحيح مسلم برقم (٦٨٧) وسنن أبى داود برقم (١٢٤٧) وسنن النسائى (١/٢٢٦، ٣/١١٨، ١١٩، ١٦٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٦٨) وتفسير الطبرى (٥/٢٤٧).

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنى سعيد بن عمرو السكونى، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا المسعودى، حدثنا يزيد الفقير، عن جابر بن عبد الله قال: صلاة الخوف. ركعة واختار هذا القول ابن جرير.

وقال البخارى: «باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو» وقال الأوزاعى: إن كان تهيأ الفتح، ولم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماء، كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا، فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا. وبه قال مكحول ـ وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تسْتَر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها، ونحن مع أبى موسى، ففتح لنا. قال أنس: وما يسرنى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها.

هذا لفظ البخارى[(١)] ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره، عليه السلام، صلاة العصر يوم الخندق بعذر المحاربة إلى [(٢)] غيبوبة الشمس، وبقوله، عليه السلام، بعد ذلك لأصحابه، لما جهزهم إلى بنى قريظة: «لايصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة»، فمنهم من أدركته الصلاة فى الطريق فصلوا، وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ، إلا تعجيل السير، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس فى بنى قريظة، فلم يعنف واحداً [(٣)] من الفريقين. وهذا يدل على اختيار البخارى لهذا القول، والجمهور على خلافه، ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التى ورد به القرآن فى سورة النساء، ووردت [(٤)] بها الأحاديث، لم تكن مشروعة فى غزوة الخندق، وإنما شرعت بعد ذلك. وقد جاء مصرحاً بهذا فى حديث أبى سعيد، وغيره، وأما مكحول، والأوزاعى، والبخارى فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافى جواز ذلك؛ لأن هذا حال نادر خاص، فيجوز فيه مثل ماقلنا، بدليل صنيع الصحابة زمن عمر فى فتح تستر، وقد اشتهر ولم ينكر، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أى: أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتموا[(٥)] ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أى: مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم فى الدنيا والآخرة، فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وستأتى الأحاديث الواردة فى صلاة الخوف وصفاتها فى سورة النساء، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ﴾ الآية [النساء: ١٠٢].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)﴾

---

(١) صحيح البخارى (٢/ ٤٣٤) «فتح».

(٢) فى جـ، و: «إلى بعد».

(٣) فى جـ : «أحداً». (٤) فى جـ: «وورد». (٥) فى جـ: «وأتموا».

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) ﴾.

قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتى قبلها، وهى قوله: ﴿ **يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا** ﴾.

قال البخارى: حدثنا أمية، حدثنا يزيد بن زُرَيع، عن حبيب، عن ابن أبى مُلَيْكة، قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان: ﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا** ﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها ـ أو تدعها؟ قال: يا ابن أخى، لا أغير شيئاً منه من مكانه(١).

ومعنى هذا الإشكال الذى قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر، فما الحكمة فى إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التى نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفى، وأنا وجدتها مثبتة فى المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جريج، وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ** ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها فى الدار سنة، فنسختها آية المواريث، فجعل لهن الربع أو الثمن مما ترك الزوج. ثم قال: وروى عن أبى موسى الأشعرى، وابن الزبير، ومجاهد، وإبراهيم، وعطاء، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، والسدى، ومقاتل بن حيان، وعطاء الخراسانى، والربيع بن أنس: أنها منسوخة.

وروى من طريق على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة فى بيته، ينفق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد: ﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا** ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملا، فعدتها أن تضع ما فى بطنها، وقال: ﴿ **وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ [مِمَّا تَرَكْتُم]**(٢) ﴾ [النساء: ١٢] فبين ميراث المرأة، وترك الوصية والنفقة.

قال: وروى عن مجاهد، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والربيع، ومقاتل بن حيان، قالوا: نسختها ﴿ **أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا** ﴾.

قال: وروى عن سعيد بن المسيب قال: نسختها التى فى الأحزاب: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ [ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ]**(٣) ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

قلت: وروى عن [مقاتل و](٤) قتادة: أنها منسوخة بآية الميراث.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٠).

(٢) زيادة من و.

(٣) زيادة من جـ.

(٤) زيادة من أ، و.

وقال البخارى: حدثنا إسحاق بن راهويه، حدثنا روح، حدثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قال: كانت هذه العدة، تعتد عند أهل زوجها واجب، فأنزل الله: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ قال: جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت فى وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قول الله: ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، فالعدة كما هى واجب عليها، زعم ذلك عن مجاهد: رحمه الله. وقال عطاء: وقال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شاءت، وهو قول الله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت فى وصيتها، وإن شاءت خرجت لقول الله: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ [فِي أَنفُسِهِنَّ](1) ﴾ قال عطاء: ثم جاء الميراث فنسخ السكنى، فتعتد حيث شاءت، ولاسكنى لها، ثم أسند البخارى عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه(2).

فهذا القول الذى عول عليه مجاهد وعطاء، من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور، حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة الأشهر (3) وعشر، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات أن يمكنَّ من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا، إن اخترن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم ﴾ أى: يوصيكم الله بهن وصية، كقوله: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾ الآية [النساء: ١١] ، وقال: ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٢]، وقيل: إنما انتصب على معنى: فلتوصوا بهن وصية. وقرأ آخرون بالرفع «وصية» على معنى: كتب عليكم وصيةٌ واختارها ابن جرير ولايمنعن من ذلك، لقوله: ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل، فإنهن لايمنعن من ذلك، لقوله: ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ وهذا القول له اتجاه، وفى اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة، منهم: الإمام أبو العباس بن تيمية(4)، ورده آخرون، منهم: الشيخ أبو عمر ابن عبد البر.

وقول عطاء ومن تابعه على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر (5) لا تجب فى تركة الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة، وهما قولان للشافعى، رحمه الله، وقد استدلوا على وجوب السكنى فى منزل الزوج بما رواه مالك فى موطئه عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة، عن عمته زينب بنت كعب ابن عُجْرَة: أن الفريعة بنت مالك بن سنان، وهى أخت أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنهما أخبرتها: أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها فى بنى خُدرة، فإن زوجها خرج فى طلب أعبد له أبقوا، حتى إذا كانوا بطرف القدوم لحقهم، فقتلوه. قالت: فسألت رسول الله ﷺ

(١) زيادة من أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٣١).

(٣) فى جـ: «أشهر». (٤) فى جـ: «ابن تيمية رحمه الله». (٥) فى أ: «والعشر».

أن أرجع إلى أهلى فى بنى خُدرة، فإن زوجى لم يتركنى فى مسكن يملكه ولانفقة قالت: فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قالت: فانصرفت، حتى إذا كنت فى الحجرة نادانى رسول الله ﷺ ـ أو أمر بى فنوديت له ـ فقال: «كيف قلت؟» فرددت عليه القصة التى ذكرت [١] له من شأن زوجى. فقال: «امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً. قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلى، فسألنى عن ذلك، فأخبرته، فاتبعه، وقضى به[٢].

وكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث مالك، به[٣]: ورواه النسائى أيضاً وابن ماجة من طرق، عن سعد بن إسحاق به [٤] وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل قوله: ﴿ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى المحسنين﴾ [البقرة: ٢٣٦] قال رجل: إن شئتُ أحسنت ففعلت، وإن شئتُ لم أفعل. فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضاً لها أو مطلقاً[٥]، قبل المسيس أو مدخولا بها، وهو قول عن الشافعى، رحمه الله. وإليه ذهب سعيد بن جبير. وغيره من السلف، واختاره ابن جرير. ومن لم يوجبها مطلقاً يخصص من هذا العموم بمفهوم قوله: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وأجاب الأولون: بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم، فلا تخصيص على المشهور المنصور، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: فى إحلاله وتحريمه، وفروضه، وحدوده، فيما أمركم به ونهاكم عنه، بيَّنه[٦] ووضحه وفسره، ولم يتركه مجملا فى وقت احتياجكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى: تفهمون، وتتدبرون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾.

روى عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف، وعنه: كانوا ثمانية آلاف. وقال أبو صالح: تسعة آلاف، وعن ابن عباس: أربعون ألفاً. وقال وهب بن منبه، وأبو مالك: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً

---

(١) فى جـ: «ما ذكرت».

(٢) الموطأ (٢/ ٥٩١).

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٣٠٠) وسنن الترمذى برقم (١٢٠٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٤٤).

(٤) سنن النسائى (٦/ ١٩٩، ٢٠٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٣).

(٥) فى أ، و: «أو مطلقة». (٦) فى جـ: «وبينه».

وروى ابن أبى حاتم، عن ابن عباس قال: كانوا أهل قرية يقال لها: داوردان. وكذا قال السدى وأبو صالح، وزاد: من قبل واسط. وقال سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات، وقال ابن جريج، عن عطاء قال: هذا مثل. وقال على بن عاصم: كانوا: من أهل داوردان: قرية على فرسخ من واسط.

وقال وكيع بن الجراح فى تفسيره: حدثنا سفيان، عن ميسرة بن حبيب النهدى، عن المنهال بن عمرو الأسدى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ** ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف، خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: نأتى أرضاً ليس بها[(١)] موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم[(٢)]: ﴿ **مُوتُوا** ﴾ فماتوا، فمر عليهم نبى من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم، فأحياهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ** ﴾ الآية.

وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة فى زمان بنى إسرائيل، استوخموا[(٣)] أرضهم وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح، فملأوا ما بين عدوتيه، فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما من أسفل الوادى، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر، وبنى عليهم جدران وقبور، [وفنوا] [(٤)] وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر مَرّ بهم نبى من أنبياء بنى إسرائيل، يقال له: حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تكتسى لحماً وعصباً وجلداً. فكان ذلك، وهو يشاهده. ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره. فقاموا أحياء ينظرون، قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك [اللهم ربنا وبحمدك][(٥)]، لا إله إلا أنت.

وكان فى إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسمانى يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ** ﴾ أى: فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج والدلالات الدامغة، ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ أى: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم فى دينهم ودنياهم.

وفى هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغنى حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء فروا [(٦)] من الوباء طلباً [(٧)] لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً فى آن واحد.

ومن هذا القبيل الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، أخبرنا مالك، وعبد الرزاق، أخبرنا معمر، كلاهما عن الزهرى، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد [ابن أسلم][(٨)] بن الخطاب، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد الله بن عباس: أن عمر بن

---

(١) فى جـ: «ليس فيها». (٢) فى جـ: «قال لهم الله».
(٣) فى جـ: «فاستوخموا». (٤) زيادة من أ، و. (٥) زيادة من أ.
(٦) فى أ، و: «خرجوا فراراً». (٧) فى ا، و: «وطلباً». (٨) زيادة من جـ.

الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرغ، لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فذكر الحديث فجاءه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً لبعض حاجته فقال: إن عندى من هذا علما، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض وأنتم فيها (١) فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» فحمد الله عمر ثم انصرف.

وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى به(٢).

طريق أخرى لبعضه: قال أحمد: حدثنا حجاج ويزيد العمِّى، قالا: أخبرنا ابن أبى ذئب، عن الزهرى، عن سالم، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة: أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر، وهو فى الشام، عن النبى ﷺ: «إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم، فإذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها (٣) فلا تخرجوا فراراً منه». قال: فرجع عمر من الشام وأخرجاه فى الصحيحين، من حديث مالك، عن الزهرى، بنحوه(٤).

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: كما أن الحذر لا يغنى من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلا، ولا يباعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن، لا يزاد فيه ولا ينقص منه، كما قال: تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً. أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨]. ورويناعن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامى حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه، أبى سليمان خالد بن الوليد، رضى الله عنه، أنه قال: ـ وهو فى سياق الموت: لقد شهدت كذا كذا موقفاً، وما من عضو من أعضائى إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت العير!! فلا نامت أعين الجبناء (٥) يعنى: أنه يتألم لكونه ما مات قتيلا فى الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه.

وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾: يحث تعالى عباده على الإنفاق فى سبيله، وقد كرر تعالى هذه الآية فى كتابه العزيز فى غير موضع. وفى حديث النزول [أنه يقول تعالى](٦): «من يقرض غير عديم ولا ظلوم» وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود قال:

---

(١) فى أ، و: «وأنتم بها».

(٢) المسند (١/ ١٩٤) وصحيح البخارى برقم (٥٧٢٩) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٩).

(٣) فى جـ، و: «وأنتم بها».

(٤) المسند (١/ ١٩٣) وصحيح البخارى برقم (٥٧٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٩).

(٥) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٨/ ٢٦).

(٦) زيادة من و.

لما نزلت : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾: قال أبو الدحداح الأنصارى: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح». قال: أرنى يدك يا رسول الله. قال: فناوله يده قال: فإنى قد أقرضت ربى حائطى. قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها. قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك. قال: اخرجى فقد أقرضته ربى، عز وجل. وقد رواه ابن مردويه، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر مرفوعاً بنحوه(١).

وقوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: روى عن عمر وغيره من السف: هو النفقة فى سبيل الله. وقيل: هو النفقة على العيال.

وقيل: هو التسبيح، والتقديس. وقوله: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، كما قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١]. وسيأتى الكلام عليها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد (٢)، أخبرنا مبارك بن فضالة، عن على بن زيد، عن أبى عثمان النهدى، قال: أتيت أبا هريرة فقلت له: إنه بلغنى أنك تقول: إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة. فقال: وما أعجبك من ذلك؟ لقد سمعته من النبى ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة»(٣).

هذا حديث غريب، وعلى بن زيد بن جدعان عنده مناكير، لكن رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر فقال:

حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد المؤدب، حدثنا يونس بن محمد المؤدب، حدثنا محمد بن عقبة الرباعى(٤)، عن زياد الجصاص، عن أبى عثمان النهدى، قال: لم يكن أحد أكثر مجالسة لأبى هريرة منى، فقدم قبلى حاجا قال: وقدمت بعده، فإذا أهل البصرة يأثرون عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة» فقلت: ويحكم، والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبى هريرة منى، فما سمعت هذا الحديث. قال: فتحملت أريد أن ألحقه، فوجدته قد انطلق حاجاً، فانطلقت إلى الحج أن ألقاه فى هذا الحديث، فلقيته لهذا، فقلت: يا أبا هريرة، ما حديث سمعت أهل البصرة يأثرون عنك؟ قال: ما هو؟ قلت: زعموا أنك تقول: إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف

(١) جزء الحسن بن عرفة برقم (٨٧) ورواه سعيد بن منصور فى السنن برقم (٤١٧) تحقيق الدكتور الحميد، ومن طريقه رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢/ ٣٠١) عن خلف بن خليفة به نحوه، وحميد الأعرج ضعيف، لكن للحديث شواهد من حديث أنس وعمر رضى الله عنهما.

(٢) فى جـ: «يزيد بن هارون».

(٣) المسند (٢/ ٢٩٦).

(٤) كذا فى أ، و، هـ .وفى الجرح لابن أبى حاتم (٤/ ١/ ٣٦): «محمد بن عقبة، روى عن زياد الجصاص، وروى عنه يونس بن محمد المؤدب. حدثنا عبد الرحمن قال: سألت أبى عنه فقال: شيخ. قلت: فإن يونس بن محمد يقول: الرفاعى. قال: ليس هو الرفاعى، هو من قبيلة أخرى»، مستفادا من هامش ط . الشعب.

حسنة. قال: يا أبا عثمان، وما تعجب [(١)] من ذا، والله يقول: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ويقول: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] والذى نفسى بيده، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة»[(٢)].

وفى معنى هذا الحديث ما رواه الترمذى وغيره، من طريق عمرو بن دينار، عن سالم، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل سوقاً من الأسواق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة» الحديث [(٣)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزلت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١] إلى آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتى» فنزلت: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قال: رب زد أمتى. فنزل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠][(٤)].

وروى ابن أبى حاتم أيضاً عن كعب الأحبار: أنه جاءه رجل فقال: إنى سمعت رجلا يقول: من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] مرة واحدة، بنى الله له عشرة [(٥)] آلاف ألف غرفة من در وياقوت فى الجنة، أفأصدق بذلك؟ قال: نعم، أو عجبت من ذلك؟ قال: نعم وعشرين ألف ألف، وثلاثين ألف ألف، وما لا يحصى ذلك إلا الله، ثم قرأ ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ فالكثير من الله لايحصى.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ أى: أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرزاق، يضيق على من يشاء فى الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة فى ذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾.

قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: هذا النبى هو يوشع بن نون. قال ابن جرير: يعنى ابن أفرائيم [(٦)] ابن يوسف بن يعقوب. وهذا القول بعيد؛ لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل، وكان

---

(١) فى جـ: « وما يعجبك».

(٢) ورواه أحمد فى المسند (٥/٥٢١) من طريق علي بن زيد، عن أبى عثمان به.

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٤٢٩) وقال: «عمرو بن دينار هذا هو شيخ بصرى، وقد تكلم فيه بعض أصحاب الحديث من غير هذا الوجه».

(٤) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٦٤٨) «موارد» من طريق حفص المقرئ، عن أبى إسماعيل المؤدب به.

(٥) فى جـ: «عشر». (٦) فى جـ: «إفرائيم»، وفى أ: «إبراهيم».

ذلك فى زمان داود، عليه السلام، كما هو مصرح به فى القصة، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة، والله أعلم.

وقال السدى: هو شمعون (١) .وقال مجاهد: هو شمويل، عليه السلام. وكذا قال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه، وهو: شمويل بن بالى بن علقمة بن يرخام (٢) بن إليهو بن تهو بن صوف (٣) بن علقمة بن ماحث (٤) بن عموصا بن عزريا بن صفنيه (٥) بن علقمة بن أبى ياسف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى، عليه السلام، على طريق (٦) الاستقامة مدة الزمان، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيرا، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذى كان فى قديم (٧) الزمان، وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام(٨)، فلم يزل بهم تماديهم (٩) على الضلال حتى استلبه (١٠) منهم بعض الملوك فى بعض الحروب، وأخذ التوراة من أيديهم، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط (١١) لاوى الذى يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها. وقد قتل، فأخذوها فحبسوها فى بيت، واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم، ولم تزل [تلك] (١٢) المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً، فسمع الله لها ووهبها غلاماً، فسمته شمويل: أى: سمع الله. ومنهم من يقول: شمعون. وهو بمعناه، فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم، وأنبته (١٣)الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بنى إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضاً قد باد فيهم(١٤)، فقال لهم النبى: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألاَّ تفوا بما التزمتم من القتال معه ﴿ **قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا** ﴾أى: وقد أخذت منا البلاد، وسبيت الأولاد؟ قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ أى: ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي

---

(١) فى و: «شمويل».
(٢) فى جـ: «حام» وفى و: « نزخام».
(٣) فى جـ: «قهوص»، وفى أ:«قهرص»، وفى و: «بهرص».
(٤) فى أ: «بن ماحب».
(٥) فى جـ، و: «بن صفيه».
(٦) فى جـ : « على طريقة».
(٧) فى و: «فى قيد».
(٨) فى جـ، أ، و: «عليه أفضل الصلاة والسلام».
(٩) فى جـ: «يردهم»، وفى و:«عادتهم».
(١٠) فى جـ: «حتى أسلبه».
(١١) فى جـ: «من وسط».
(١٢) زيادة من جـ، أ.
(١٣) فى جـ، «فأنبته».
(١٤) فى جـ: «منهم».

الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) ﴾.

أى: لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم، فعين لهم طالوت، وكان رجلا من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك فيهم؛ لأن الملك فيهم كان فى سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلهذا قالوا: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ أى: كيف يكون ملكاً علينا ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ أى: ثم هو مع هذا فقير، لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، وقيل: دباغاً. وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف ثم قد أجابهم النبى قائلا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى: اختاره لكم من بينكم، والله أعلم به منكم. يقول: لست أنا الذى عينته من تلقاء نفسى، بل الله أمرنى به لما طلبتم منى ذلك ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ أى: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبل وأشكل منكم، وأشد قوة وصبراً [(١)] فى الحرب ومعرفة بها، أى: أتم علماً وقامة منكم. ومن هاهنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة فى بدنه ونفسه، ثم قال: ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾ أى: هو الحاكم الذى ما شاء فعل، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه [وحكمته] [(٢)] ورأفته بخلقه؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) ﴾.

يقول نبيهم لهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذى كان أخذ منكم.

﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قيل: معناه فيه وقار، وجلالة.

قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ ﴾ أى: وقار. وقال الربيع: رحمة [(٣)]. وكذا روى عن العوفى، عن ابن عباس، وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله: ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ [مِّن رَّبِّكُمْ] [(٤)]﴾ قال: ما يعرفون من آيات الله فيسكنون [(٥)] إليه.

وقيل: السكينة طست من ذهب، كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء، أعطاها الله موسى عليه السلام، فوضع فيها الألواح. ورواه السدى، عن أبى مالك، عن ابن عباس.

وقال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، عن أبى الأحوص؛ عن على قال: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، ثم هى ريح هفافة.

وقال ابن جرير: حدثنى [ابن] [(٦)] المثنى، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، وحماد بن سلمة، وأبو الأحوص، كلهم عن سِماك، عن [(٧)] خالد بن عرعرة، عن على قال: السكينة ريح خجوج ولها

(١) فى أ: «وخبراً».
(٢) زيادة من جـ، و، وفى أ: «وحلمه».
(٣) فى جـ: «رحمة الله».
(٤) زيادة من جـ، و.
(٥) فى أ: «تسكنون».
(٦) زيادة من تفسير الطبرى (٥/٣٢٧).
(٧) فى جـ: «عن سماك بن».

رأسان.

وقال مجاهد: لها جناحان وذنب. وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه: السكينة رأس هرة ميتة، إذا صرخت فى التابوت بصراخ هر، أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا بكار بن عبد الله أنه سمع وهب بن منبه [١] يقول: السكينة روح من الله تتكلم، إذا اختلفوا فى شىء تكلم، فأخبرهم ببيان ما يريدون.

وقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾: قال ابن جرير: أخبرنا ابن المثنى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد، عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس فى هذه الآية: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ قال: عصاه ورضاض الألواح. وكذا قال قتادة، والسدى، والربيع بن أنس، وعكرمة وزاد: والتوراة.

وقال أبو صالح ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ يعنى: عصا موسى، وعصا هارون، ولوحين [٢] من التوراة، والمن.

وقال عطية بن سعد: عصا موسى، وعصا هارون، وثياب موسى، وثياب هارون، ورضاض الألواح.

وقال عبد الرزاق: سألت الثورى عن قوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ فقال: منهم من يقول قفيز من مَنٍّ، ورضاض الألواح. ومنهم من يقول: العصا، والنعلان.

وقوله: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: قال ابن جريج: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت [٣] بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدى طالوت، والناس ينظرون.

وقال السدى: أصبح التابوت فى دار طالوت، فآمنوا بنبوة شمعون، وأطاعوا طالوت.

وقال عبد الرزاق، عن الثورى، عن بعض أشياخه: جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة، وقيل: على بقرتين.

وذكر غيره أن التابوت كان بأريحا [٤]، وكان المشركون لما أخذوه وضعوه فى بيت آلهتهم، تحت صنمهم الكبير، فأصبح التابوت على رأس الصنم، فأنزلوه فوضعوه تحته، فأصبح كذلك، فسمروه تحته فأصبح الصنم مكسر القوائم، ملقى بعيدا، فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به، فأخرجوا التابوت من بلدهم، فوضعوه فى بعض القرى [٥]، فأصاب أهلها داء فى رقابهم [٦]، فأمرتهم جارية من سبى بنى إسرائيل أن يردوه إلى بنى إسرائيل، حتى يخلصوا من هذا الداء، فحملوه على بقرتين، فسارتا به لا يقربه أحد إلا مات، حتى اقتربنا من بلد بنى إسرائيل، فكسرتا النيرين [٧] ورجعتا. وجاء بنو إسرائيل فأخذوه، فقيل: إنه تسلمه داود، عليه السلام، وإنه لما قام إليهما [٨] حجل من فرحه بذلك. وقيل: شابان منهم، فالله أعلم. وقيل: كان التابوت بقرية من قرى فلسطين، يقال لها: أزدرد.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ أى: على صدقى فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من

---

(١) فى أ: «بن منصور».
(٢) فى جـ: «ولوحان».
(٣) فى جـ: «وتحمل التوابيت».
(٤) فى جـ: «كان تاريخاً».
(٥) فى و: «بعض القرايا».
(٦) فى جـ: «فى قلوبهم».
(٧) فى جـ: «النيرير».
(٨) فى جـ: «قام إليه» وفى و: «قام إليها».

طاعة طالوت: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى: بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بنى إسرائيل حين خرج فى جنوده ومن أطاعه من ملأ بنى إسرائيل، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدى ثمانين ألفاً، فالله أعلم، أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم [بِنَهَرٍ][(١)]﴾ قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعنى: نهر الشريعة المشهور ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أى: فلا يصحبنى اليوم فى هذا الوجه، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أى: فلا بأس عليه، قال الله تعالى ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روى، ومن شرب منه لم يرو. وكذا رواه السدى، عن أبى مالك، عن ابن عباس. وكذا قال قتادة، وابن شوذب.

وقال السدى: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب ستة وسبعون ألفاً، وتبقى معه أربعة آلاف، كذا قال.

وقد روى ابن جرير، من طريق إسرائيل، وسفيان الثورى، ومسْعَر [(٢)] بن كُدَام، عن أبى إسحاق السبيعى، عن البراء بن عازب قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن. ورواه البخارى، عن عبد الله بن رجاء، عن إسرائيل بن يونس، عن أبى إسحاق، عن البراء [(٣)] قال: «كنا ـ أصحاب محمد ﷺ ـ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت، الذين جازوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة»[(٤)].

ثم رواه من حديث سفيان الثورى وزهير، عن أبى إسحاق، عن البراء، بنحوه [(٥)]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أى: استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشجعهم علماؤهم [وهم][(٦)] العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله، ليس عن [(٧)] كثرة عدد ولا عدد. ولهذا قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى

---

(١) زيادة من أ، و. (٢) فى جـ: «ومسعود».
(٣) فى هـ، أ، و: «عن أبى إسحاق عن جده عن البراء» والمثبت من البخارى.
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٩٥٨).
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٩٥٧) من حديث زهير وبرقم (٣٩٥٩) من حديث سفيان.
(٦) زيادة من جـ. (٧) فى أ: «لا من».

الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) ﴾.

أى: لما واجه حزب الإيمان ـ وهم قليل ـ من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت ـ وهم عدد كثير ـ ﴿ **قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا** ﴾ أى: أنزل علينا صبراً من عندك ﴿ **وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا** ﴾ أى: فى لقاء الأعداء، وجنبا الفرار والعجز ﴿**وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾.

قال الله تعالى: ﴿ **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾أى: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿ **وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ**﴾ ذكروا فى الإسرائيليات: أنه قتله بمقلاع كان فى يده، رماه به فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته، ويشركه [١] فى أمره، فوفى له، ثم آل [٢] الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ**﴾ الذى كان بيد طالوت ﴿ **وَالْحِكْمَةَ** ﴾ أى: النبوة بعد شمويل ﴿ **وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ** ﴾ أى: مما يشاء الله من العلم الذى اختصه به ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ**﴾أى: لولاه يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن بنى إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود، لهكوا، كما قال: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**﴾ الآية [الحج: ٤٠].

وقال ابن جرير، رحمه الله: حدثنى أبو حميد الحمصى أحمد بن المغيرة، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حفص بن سليمان، عن محمد بن سوقه، عن وبرة بن عبد الرحمن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء». ثم قرأ ابن عمر: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ**﴾[٣] وهذا إسناد ضعيف، فإن يحيى بن سعيد [هذا] [٤] هو أبو زكريا العطار الحمصى، وهو ضعيف جداً.

ثم قال ابن جرير: حدثنى أبو حميد الحمصى، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده، وأهل دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون فى حفظ الله، عز وجل، مادام فيهم»[٥].

وهذا أيضا غريب ضعيف لما تقدم أيضاً. وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا على بن إسماعيل بن حماد، أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد، أخبرنا زيد ابن الحباب، حدثنى حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبى قلابة عن أبى أسماء[٦]، عن ثوبان ـ رفع

(١) فى جـ: «ويشاركه».
(٢) فى جـ: «بما آل».
(٣) تفسير الطبرى (٥/ ٣٧٤).
(٤) زيادة من أ، و.
(٥) تفسير الطبرى (٥/ ٣٧٥).
(٦) فى جـ: «بن أبى أسامة».

الحديث ـ قال: «لايزال فيكم سبعة، بهم تنصرون، وبهم تمطرون، وبهم ترزقون حتى يأتى أمر الله»[(١)].

وقال ابن مردويه أيضاً: وحدثنا محمد بن أحمد[(٢)]، حدثنا محمد بن جرير بن يزيد، حدثنا أبو معاذ نهار بن عثمان الليثى، أخبرنا زيد بن الحباب، أخبرنى عمر البزار، عن عنبسة الخواص، عن قتادة، عن أبى قِلاَبة، عن أبى الأشعث الصنعانى، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «الأبدال فى أمتى ثلاثون، بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون» قال قتادة: إنى لأرجو أن يكون الحسن منهم[(٣)].

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى: مَنٌّ عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً، وله الحكم والحكمة، والحجة على خلقه فى جميع أفعاله، وأقواله.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: هذه آيات الله التى قصصناها عليك من[(٤)] أمر الذين ذكرناهم بالحق، أى: بالواقع الذى كان عليه الأمر، المطابق لما بأيدى أهل الكتاب من الحق، الذى يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)﴾.

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال هاهنا: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يعنى: موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، وكذلك آدم، كما ورد به الحديث المروى فى صحيح ابن حبان، عن أبى ذر رضى الله عنه، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كما ثبت فى حديث الإسراء، حين رأى النبى ﷺ الأنبياء فى السماوات[(٥)] بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت فى الصحيحين، عن أبى هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودى فى قسم يقسمه: لا والذى اصطفى موسى

(١) ورواه عبد الرزاق فى المصنف برقم (٢٠٤٥٧) عن معمر، عن أيوب عن أبى قلابة مرسلاً.

(٢) فى جـ: «وحدثنا أحمد بن محمد».

(٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير من طريق محمد بن الفرج عن زيد بن الحباب به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٦٣): «رواه الطبرانى من طريق عمرو البزار عن عنبسة الخواص وكلاهما لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح».

فائدة: قال الإمام ابن القيم فى المنار المنيف (ص١٣٦): «أحاديث الأبدال والأقطاب، والأغواث، والنقباء، والنجباء، والأوتاد، كلها باطلة على رسول الله ﷺ، وأقرب ما فيها: «لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم البدلاء، كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه رجلاً آخر» ذكره أحمد، ولا يصح أيضاً، فإنه منقطع».

(٤) فى جـ: «فى».

(٥) فى جـ: «فى السماء».

على العالين. فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودى فقال: أى خبيث، وعلى محمد ﷺ! فجاء اليهودى إلى رسول الله ﷺ، فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفضلونى على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدرى أفاق قبلى، أم جوزى بصعقة الطور؟ فلا تفضلونى على الأنبياء»[(١)]. وفى رواية: «لا تفضلوا بين الأنبياء».

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل، وفى هذا نظر.

الثانى: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع.

الثالث: أن هذا نهى عن التفضيل فى مثل هذه الحال التى تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر.

الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية.

الخامس: ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله، عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به.

وقوله: ﴿ **وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ** ﴾ أى: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بنى إسرائيل به، من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿ **وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴾ يعنى: أن الله أيده بجبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا** ﴾ أى: بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾.

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم فى سبيله، سبيل الخير، ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم، وليبادروا إلى ذلك فى هذه الحياة الدنيا ﴿ **مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ** ﴾ يعنى: يوم القيامة ﴿ **لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ** ﴾ أى: لا يباع أحد من نفسه، ولا يفادى بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعنى: صداقته، بل ولا نسابته، كما قال: ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿ **وَلا شَفَاعَةٌ** ﴾ أى: ولا تنفعهم شفاعة الشافعين.

وقوله: ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾: مبتدأ محصور فى خبره، أى: ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافرا. وقد روى ابن أبى حاتم، عن عطاء بن دينار أنه[(٢)] قال: الحمد لله الذى قال: ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾، ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٤٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٣).

(٢) فى جـ: «به».

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾.

هذه آية الكرسى، ولها شأن عظيم، قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ، بأنها أفضل آية فى كتاب الله. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن سعيد الجريرى، عن أبى السليل، عن عبد الله بن رباح، عن أبى ـ هو ابن كعب ـ أن النبى ﷺ سأله: «أى آية فى كتاب الله أعظم»؟ قال: الله ورسوله أعلم. فرددها مراراً، ثم قال أبى: آية الكرسى. قال: «لِيَهْنك العلم أبا المنذر، والذى نفسى بيده، إن لها لساناً وشفتين، تقدس الملك عند ساق العرش» وقد رواه مسلم، عن أبى بكر بن أبي شيبة، عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى، عن الجريرى ـ به[1] ،وليس عنده زيادة: «والذى نفسى بيده . . .» إلخ.

حديث آخر: عن أبى أيضاً، فى فضل آية الكرسى، قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا أحمد ابن إبراهيم الدورقى، حدثنا مبشر عن الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير، عن عبدة بن أبى لبابة[2]، عن عبد الله بن أبى بن كعب: أن أباه أخبره: أنه كان له جرن فيه تمر، قال: فكان أبى يتعاهده، فوجده ينقص، قال: فحرسه [3] ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم، قال: فسلمت عليه فرد السلام. قال: فقلت: ما أنت، جنى أم إنسي؟ قال: جنى . قلت: ناولنى يدك. قال: فناولنى، فإذا يد[4] كلب، وشعر كلب. فقلت: هكذا خَلْقُ الجن؟ قال: لقد علمت الجن ما فيهم أشد منى، قلت: فما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغنى أنك رجل تحب الصدقة، فأحببنا أن نصيب من طعامك. قال: فقال له[5]: فما الذى يجيرنا [6] منكم؟ قال: هذه الآية: آية الكرسى. ثم غدا إلى النبى [7] ﷺ فأخبره، فقال النبى ﷺ: «صدق الخبيث».

وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه، من حديث أبى داود الطيالسى، عن حرب بن شداد، عن يحيى بن أبى كثير، عن الحضرمى بن لاحق، عن محمد بن عمرو بن أبى بن كعب، عن جده، به[8]. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عثمان بن غياث[9]، قال: سمعت أبا السليل قال: كان رجل من أصحاب النبى ﷺ يحدث الناس حتى يكثروا عليه، فيصعد على سطح بيت فيحدث الناس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أى أية فى القرآن أعظم؟» فقال رجل:

---

(١) المسند (٥/ ١٤١) وصحيح مسلم برقم (٨١٠).

(٢) فى جـ: «بن أبى كنانة».
(٣) فى جـ: «فحرسته».

(٤) فى جـ، و: «فإذا يده يد».
(٥) فى أ، و: «فقال له أبى».
(٦) فى أ: «يحرسنا».

(٧) فى جـ: «إلى رسول الله».

(٨) المستدرك (١/ ٥٦٢) وفيه انقطاع، وقد جاء من طريق آخر، فرواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٧٢٤) «موارد» من طريق الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير، عن ابن لأبى بن كعب، عن أبيه كعب أنه أخبره فذكر نحوه.

(٩) فى أ: «بن عتاب».

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾. قال: فوضع يده بين كتفى، فوجدت بردها بين ثديى، أو قال: فوضع يده بين ثديى فوجدت بردها بين كتفى، وقال: «ليهنك العلم يا أبا المنذر»(١).

حديث آخر: عن الأسفع (٢) البكرى. قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو يزيد القراطيسى، حدثنا يعقوب بن أبى عباد المكى، حدثنا مسلم بن خالد، عن ابن جريج، أخبرنى عمر ابن عطاء أن مولى ابن الأسفع (٣) ـ رجل صدق ـ أخبره، عن الأسفع (٤) البكرى: أنه سمعه يقول: إن النبى ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين، فسأله إنسان: أى آية فى القرآن أعظم؟ فقال النبى ﷺ: «﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾» حتى انقضت الآية(٥).

حديث آخر: عن أنس. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن الحارث، حدثنى سلمة بن وردان، أن أنس بن مالك حدثه، أن رسول الله ﷺ سأل رجلا من صحابته، فقال: «أى فلان، هل تزوجت»؟ قال: لا، وليس عندى ما أتزوج به. قال: «أوليس معك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليسَ معك: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾»؟ قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن أليس معك: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ [وَالْفَتْحُ](٦)﴾؟ قال: بلى. قال: «ربع القرآن. أليس معك آية الكرسى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾(٧)» قال: بلى. قال: «ربع القرآن»(٨).

حديث آخر: عن أبى ذر جُنْدَب بن جنادة، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع بن الجراح، حدثنا المسعودى، أنبأنى أبو عمر الدمشقى، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد، فجلست. فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟» قلت: لا. قال: «قم فصل» قال: فقمت فصليت، ثم جلست. فقال: «يا أبا ذر، تَعَوَّذ بالله من شر شياطين الإنس والجن» قال: قلت: يارسول الله، أو للإنس شياطين؟قال: «نعم» قال: قلت: يا رسول الله، الصلاة؟ قال: «خير موضوع، من شاء أقل، ومن شاء أكثر». قال: قلت: يا رسول الله، فالصوم؟ قال: «فرض مُجْزِئ، وعند الله مزيد» قلت: يا رسول الله، فالصدقة؟ قال: «أضعاف مضاعفة». قلت: يارسول الله، فأيها أفضل؟ قال:«جهد من مقل، أو سر إلى فقير» قلت: يارسول الله أى الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله، ونبى(٩) كان؟ قال: «نعم، نبى مكلم» قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلثمائة وبضعة عشر، جماً غفيراً» وقال مرة: «وخمسة عشر» قال: قلت: يا رسول الله، أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾» ورواه النسائى(١٠).

---

(١) المسند (٥/٥٨).

(٢) فى جـ، أ: «عن الأسقع». (٣) فى جـ: «ابن الأسقع». (٤) فى جـ: «عن الأسقع».

(٥) المعجم الكبير (١/ ٣٣٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ٣٢١): «فيه راوٍ لم يسم وقد وثق،وبقية رجاله ثقات».

(٦) زيادة من و. (٧) فى أ: «هو الحى القيوم».

(٨) المسند (٣/ ٢٢١).

(٩) فى جـ :«ونبى الله».

(١٠) المسند (٥/ ١٧٨) وسنن النسائى (٨/ ٢٧٥).

حديث آخر: عن أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى، رضى الله عنه وأرضاه، قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان[١]، عن ابن أبى ليلى، عن أخيه عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أبى أيوب: أنه كان[٢] فى سهوة له، وكانت الغول تجىء فتأخذ، فشكاها إلى النبى ﷺ: فقال: «فإذا رأيتها فقل: باسم الله، أجيبى رسول الله». قال: فجاءت، فقال لها: فأخذها، فقالت: إنى لا أعود. فأرسلها، فجاء، فقال له النبى ﷺ: «ما فعل أسيرك؟» قال: أخذتها، فقالت لى: إنى لا أعود إنى لأعود. فأرسلتها. فقال[٣]: «إنها عائدة» فأخذتها مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك تقول: لا أعود، وأجىء[٤] إلى النبى ﷺ فيقول: «ما فعل أسيرك؟» فأقول: أخذتها. فتقول: لا أعود. فيقول: «إنها عائدة» فأخذها، فقالت: أرسلنى وأعلمك شيئاً تقوله فلا يقربك شىء: آية الكرسى. فأتى النبى ﷺ فأخبره، فقال: «صدقت، وهى كذوب».

ورواه الترمذى فى فضائل القرآن،عن بُندار، عن أبى أحمد الزبيرى، به[٥]. وقال: حسن غريب.

وقد ذكر البخارى هذه القصة، عن أبى هريرة، فقال فى كتاب «فضائل القرآن» وفى كتاب «الوكالة»، وفى «صفة إبليس» من صحيحه: قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو، حدثنا عوف، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة قال: وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إنى محتاج، وعلىّ عيال، ولى حاجة شديدة. قال: فخليت عنه. فأصبحت، فقال النبى ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: قلت يارسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالا، فرحمته وخليت سبيله. قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ:«إنه سيعود» فرصدته فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. قال: دعنى، فإنى محتاج، وعلى عيال، لا أعود. فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت[٦]: يا رسول الله، شكا حاجة وعيالا فَرحِمتُه فخليت سبيله. قال: «أما إنه قد كَذَبك وسيعود» فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. وهذا آخر ثلاث مرات أنَّك تزعم أنك لا تعود، ثم تعود. فقال: دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: ما هن[٧]. قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها، فخليت سبيله. قال: «ما هى»؟ قال: قال لى: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وقال لى: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. وكانوا أحرص شىء على الخير، فقال النبى

---

(١) فى جـ، أ، و: «قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا سفيان». (٢) فى جـ: «أنه بات».
(٣) فى جـ: «فقال النبى ﷺ». (٤) فى جـ: «وتجىء».
(٥) المسند (٥/ ٤٢٣) وسنن الترمذى برقم (٢٨٨٠).
(٦) فى جـ: « فقلت». (٧) فى أ، و: «ما هى».

ﷺ: «أما إنه صدقك [1]وهو كذوب، تعلم من تخاطب مُذْ[2] ثلاث ليال يا أبا هريرة؟» قلت[3]: لا قال: «ذاك شيطان».

كذا رواه البخارى معلقا بصيغة الجزم[4]. وقد رواه النسائى فى « اليوم والليلة» عن إبراهيم بن يعقوب، عن عثمان بن الهيثم، فذكره [5]. وقد روى من وجه آخر، عن أبى هريرة بسياق آخر قريب من هذا، فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره:

حدثنا محمد بن عبد الله بن عمرويه الصفار، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، أخبرنا مسلم بن إبراهيم، أخبرنا إسماعيل بن مسلم العبدى، أخبرنا أبو المتوكل الناجى: أن أبا هريرة كان معه مفتاح بيت الصدقة، وكان فيه تمر، فذهب يوماً ففتح الباب، فوجد التمر قد أخذ منه ملء كف، ودخل يوماً آخر فإذا قد أخذ منه ملء كف، ثم دخل يوماً آخر ثالثاً فإذا قد أخذ منه مثل ذلك. فشكا ذلك أبو هريرة إلى النبى، فقال له النبى ﷺ:« تحب أن تأخذ صاحبك هذا؟» قال: نعم. قال: «فإذا فتحت الباب فقل: سبحان من سخرك محمد» [6] فذهب ففتح الباب، فقال[7]: سبحان من سخرك محمد[8]. فإذا هو قائم بين يديه، قال: يا عدو الله، أنت صاحب هذا؟ قال: نعم، دعنى، فإنى لا أعود، ما كنت آخذاً إلا لأهل بيت من الجن فقراء، فخلى عنه. ثم عاد الثانية، ثم عاد الثالثة. فقلت: أليس قد عاهدتنى ألا تعود؟ لا أدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبى [9]ﷺ. قال: لا تفعل، فإنك إن تدعنى علمتك كلمات، إذا أنت قلتها لم يقربك أحد من الجن، صغير ولا، كبير، ذكر ولا أنثى، قال له: لتفعلن؟ قال: نعم. قال: ما هن؟ قال: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قرأ آية الكرسى حتى ختمها، فتركه فذهب فأبعد، فذكر ذلك أبو هريرة للنبى ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أما علمت أن ذلك كذلك؟».

وقد رواه النسائى،عن أحمد بن محمد بن عبيد الله، عن شعيب بن حرب،عن إسماعيل بن مسلم، عن أبى المتوكل عن أبى هريرة، به[10]. وقد تقدم لأبى بن كعب كائنة مثل هذه أيضاً، فهذه ثلاث وقائع.

قصة أخرى: قال أبو عبيد فى كتاب «الغريب»: حدثنا أبو معاوية، عن أبى عاصم الثقفى، عن الشعبى، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رجل من الإنس فلقيه رجل من الجن، فقال: هل لك أن تصارعنى، فإن صرعتنى علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان؟ فصارعه، فصرعه[11]، فقال: إنى أراك ضئيلا شخيتا [12] كأن ذراعيك ذراعا كلب، أفهكذا أنتم أيها الجن. كلكم. أم أنت من بينهم؟ فقال: إنى بينهم [13] لضليع فعاودنى فصارعه [14] فصرعه الإنسى. فقال: تقرأ آية الكرسى، فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان، وله خَبَجٌ كخبج [15] الحمار.

(١) فى جـ: «صدق».
(٢) فى و: «من»، وفى أ:«منذ».
(٣) فى جـ: «قال».
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٢٧٥، ٢٣١١).
(٥) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٩٥).
(٦) فى جـ: «لمحمد».
(٧) فى جـ: «وقال».
(٨) فى جـ: «لمحمد».
(٩) فى جـ: «إلى رسول الله».
(١٠) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٩٤).
(١١) فى جـ، أ، و: «فصرعه عمر».
(١٢) فى جـ: «صحيتاً».
(١٣) فى أ، و:«إنى منهم».
(١٤) فى جـ: «فصارعن».
(١٥) فى جـ: «وله خنيج كخنيج الحمار».

فقيل لابن مسعود: أهو عمر؟ فقال: من عسى أن يكون إلا عمر.

قال أبوعبيد: الضئيل: النحيف الجسم، والخَبج (١) بالخاء المعجمة، ويقال: بالحاء المهملة: الضراط(٢).

حديث آخر عن أبى هريرة: قال الحاكم أبو عبد الله فى مستدركه: حدثنا على بن حمشاذ(٣)، حدثنا بشر بن موسى، حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، حدثنى حكيم بن جُبَير الأسدى، عن أبى صالح، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن، لا تقرأ فى بيت فيه شيطان إلا خرج منه! آية الكرسى».

وكذا رواه من طريق أخرى عن زائدة، عن حكيم بن جبير ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه(٤). كذا قال. وقد رواه الترمذى من حديث زائدة [به](٥)، ولفظه: «لكل شىء سنام وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هى سيدة آى القرآن: آية الكرسى». ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير، وقد تكلم فيه شعبة وضعفه(٦).

قلت: وكذا ضعفه أحمد، ويحيى بن معين وغير واحد من الأئمة، وتركه ابن مهدى، وكذبه السعدى.

حديث آخر: قال ابن مَرْدُويه: حدثنا عبد الباقى بن نافع، أخبرنا عيسى بن محمد المروزى، أخبرنا عمر بن محمد البخارى، أخبرنا أبى، أخبرنا عيسى بن موسى غُنْجَار، عن عبد الله بن كَيْسان، أخبرنا يحيى بن عقيل، عن يحيى بن يعمر(٧)، عن ابن عمر، عن عمر بن الخطاب: أنه خرج ذات يوم إلى الناس، وهم سماطات، فقال: أيكم يخبرنى بأعظم آية فى القرآن؟ فقال ابن مسعود: على الخبير سَقَطْتَ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعظم آية فى القرآن: ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾» (٨).

حديث آخر فى اشتمالها على اسم الله الأعظم: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر(٩)، أخبرنا عبيد الله (١٠) بن أبى زياد، حدثنا شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت(١١): سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هاتين الآيتين ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ و ﴿ **الـم. اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [آل عمران: ١، ٢] «إن فيهما اسم الله الأعظم»(١٢).

وكذا رواه أبو داود عن مُسَدَّد والترمذى عن على بن خَشْرم (١٣) وابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة، ثلاثتهم عن عيسى بن يونس، عن عبيد الله بن أبى زياد، به(١٤). وقال الترمذى: حسن صحيح.

(١) فى جـ: «والخنيج».
(٢) غريب الحديث لأبى عبيد (٣/٣١٦).
(٣) فى أ: «حماد» وفى و: «جمشاد».
(٤) المستدرك (٢/٢٥٩).
(٥) زيادة من جـ، أ، و.
(٦) المستدرك (٢/٢٥٩).
(٧) فى أ: «ابن معمر».
(٨) ورواه الجورقانى فى الأباطيل برقم (٧١٢) من طريق عيسى بن موسى غنجار به.
(٩) فى أ: «ابن بكير». (١٠) فى جـ، أ: «عبد الله». (١١) فى جـ: «قال».
(١٢) المسند (٦/٤٦١).
(١٣) فى أ، و: «ابن حزم».
(١٤) سنن أبى داود برقم (١٤٩٦) وسنن الترمذى برقم (٣٤٧٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣٨٥٥).

حديث آخر فى معنى هذا عن أبى أمامة رضى الله عنه: قال ابن مَرْدُويه: أخبرنا عبد الرحمن بن نمير، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل، أخبرنا هشام بن عمار، أخبرنا الوليد بن مسلم، أخبرنا عبد الله بن العلاء بن زيد: أنه سمع القاسم بن عبد الرحمن، يحدث عن أبى أمامة يرفعه، قال: «اسم الله الأعظم الذى إذا دُعِىَ به أجاب فى ثلاث: سورة البقرة، وآل عمران، وطه». وقال هشام ـ وهو ابن عمار خطيب دمشق ـ: أما البقرة فـ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ وفى آل عمران: ﴿ الم. اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ وفى طه: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ [طه: ١١١][(١)].

حديث آخر عن أبى أمامة فى فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة: قال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن محرز بن مساور الأدمى، أخبرنا جعفر بن محمد بن الحسن، أخبرنا الحُسَين بن بشر[(٢)] بطَرَسُوس، أخبرنا محمد بن حمْير، أخبرنا محمد بن زياد، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ دُبُر كل صلاة مكتوبة آية الكرسى لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت».

وهكذا رواه النسائى فى «اليوم والليلة» عن الحسين بن بشر، به[(٣)]، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه، من حديث محمد بن حمْير، وهو الحمصى من رجال البخارى أيضاً، فهو إسناد على شرط البخارى، وقد زعم أبو الفرج بن الجوزى أنه حديث موضوع[(٤)]. فالله أعلم. وقد روى ابن مردويه من حديث على[(٥)]، والمغيرة بن شعبة[(٦)]، وجابر بن عبد الله نحو هذا الحديث. ولكن فى إسناد كل منها ضعف.

وقال ابن مردويه أيضا: حدثنا محمد بن الحسن بن زياد المقرى، أخبرنا يحيى بن دُرُسْتُوَيه المروزى[(٧)]، أخبرنا زياد بن إبراهيم، أخبرنا أبو حمزة السكرى، عن المثنى، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى موسى الأشعرى، عن النبى ﷺ قال: «أوحى الله إلى موسى بن عمران، عليه السلام، أن اقرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة، فإنه من يقرؤها فى دبر كل صلاة مكتوبة أجعلْ له[(٨)] قلب الشاكرين، ولسان الذاكرين وثواب المنيبين[(٩)] وأعمال الصديقين، ولا يواظب على ذلك إلا نبى أو صديق أو عبد امتحنتُ[(١٠)] قلبه للإيمان، أو أريد قتله فى سبيل الله»[(١١)] وهذا حديث منكر جداً.

حديث آخر فى أنها تحفظ مَنْ قرأها فى أول النهار وأول الليل: قال أبو عيسى الترمذى: حدثنا يحيى بن المغيرة، أبو سلمة المخزومى المدينى، أخبرنا ابن أبى فديك، عن عبد الرحمن المليكى، عن

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٨٢) والطحاوى فى مشكل الآثار برقم (١٧٦) من طرق عن هشام بن عمار به نحوه.

(٢) فى أ: «بشير».

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (٩٩٢٨).

(٤) الموضوعات (١/ ٢٤٤).

(٥) حديث على رواه أيضاً البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٢٣٩٥) من طريق نهشل عن أبى إسحاق الهمدانى عن حبة العرنى عن على رضى الله عنه.

(٦) حديث المغيرة رواه أبو نعيم فى الحلية (٣/ ٢٢١) من طريق عمر بن إبراهيم، عن محمد بن كعب، عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه.

(٧) فى جـ: «بن ساسويه المروبى».

(٨) فى جـ: «جعل الله».

(٩) فى جـ: «وثواب النبيين».

(١٠) فى أ: «متحبب».

(١١) وفيه محمد بن الحسن النقاش، قال البرقانى كل حديثه منكر. وقال الخطيب: حديثه مناكير. وروى نحوه من حديث جابر رضى الله عنه لكنه ضعيف.

زرارة بن مصعب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ: ﴿ حم ﴾ المؤمن، إلى: ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ١ ـ٣] وآية الكرسى حين يصبح، حفظ بهما حتى يمسى، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح» ثم قال: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم فى عبد الرحمن بن أبى بكر بن أبى مُلَيْكة المليكى من قبل حفظه[١].

وقد ورد فى فضيلتها[٢] أحاديث أخر، تركناها اختصاراً لعدم صحتها وضعف أسانيدها. كحديث على قراءتها عند الحجامة: إنها تقوم مقام حجامتين، وحديث أبى هريرة فى كتابتها فى اليد اليسرى بالزعفران سبع مرات، وتلحس للحفظ وعدم النسيان أوردهما ابن مردويه، وغير ذلك.

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة.

فقوله: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ أى: الحى فى نفسه الذى لا يموت أبداً المقيم لغيره، وكان عمر يقرأ: «القَيَّام»، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غنى عنها، ولا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله: ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ أى: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شىء، لا يغيب عنه شىء، ولايخفى عليه خافية[٣]. ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم فقوله: ﴿ لا تَأْخُذُهُ ﴾ أى لا تغلبه سنة، وهى الوسن والنعاس؛ ولهذا قال: ﴿وَلا نَوْمٌ ﴾ ؛ لأنه أقوى من السنة. وفى الصحيح عن أبى موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «إن الله لا ينام، ولاينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور ـ أو النار ـ لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[٤].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، أخبرنى الحكم بن أبان، عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله: ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾: أن موسى، عليه السلام ، سأل الملائكة هل ينام الله، عز وجل؟ فأوحى الله إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثاً[٥]، فلا يتركوه ينام، ففعلوا، ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما، ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما. قال: فجعل ينعس وهما فى يده[٦]، فى كل يد واحدة. قال: فجعل ينعس وينبه[٧]، وينعس وينبه[٨]، حتى نعس نعسة، فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما. قال معمر: إنما هو مثل ضربه الله، عز وجل، يقول: فكذلك السموات والأرض فى يديه.

هكذا رواه ابن جرير، عن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، فذكره[٩]. وهو من أخبار بنى إسرائيل، وهو مما يعلم أن موسى، عليه السلام، لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله، عز وجل، وأنه منزه عنه.

---

(١) سنن الترمذى برقم (٢٨٧٩).
(٢) فى أ: «فى فضلها».
(٣) فى أ: «عليه شىء».
(٤) صحيح مسلم برقم (١٧٩).
(٥) فى أ: «قليلاً».
(٦) فى أ: «يديه».
(٧، ٨) فى أ: «وينتبه».
(٩) تفسير الطبرى (٥/ ٣٩٣).

وأغرب من هذا كله الحديث الذى رواه ابن جرير:

حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى، عليه السلام، على المنبر، قال: «وقع فى نفس موسى: هل ينام الله؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً، ثم أعطاه قارورتين، فى كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما». قال: «فجعل ينام تكاد يداه تلتقيان فيستيقظ، فيحبس إحداهما عن الأخرى، حتى نام نومة فاصطفقت يداه، فانكسرت القارورتان» قال: «ضرب الله له مثلا، عز وجل: أن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض»(١).

وهذا حديث غريب جداً، والأظهر أنه إسرائيلى لا مرفوع، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتكى، حدثنى أبى، عن أبيه، حدثنا أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن بنى إسرائيل قالوا: يا موسى، هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله. فناداه ربه، عز وجل: يا موسى، سألوك: هل ينام ربك، فخذ زجاجتين فى يديك فقم الليل فنعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا. فقال: يا موسى، لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان فى يديك. وأنزل الله على نبيه ﷺ آية الكرسى.

وقوله: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾: إخبار بأن الجميع عبيده وفى ملكه وتحت قهره وسلطانه، كقوله:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ كقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦]، وكقوله: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه، عز وجل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذن له(٢) فى الشفاعة، كما فى حديث الشفاعة: «آتى تحت العرش فأخر(٣) ساجداً، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع» قال: «فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة»(٤).

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات: ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وقوله: ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ أى: لا يطلع أحد من علم الله على شىء إلا

(١) تفسير الطبرى (٥/ ٣٩٤) وقال الحافظ ابن حجر فى ترجمة أمية بن شبل: «له حديث منكر رواه عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبى هريرة مرفوعاً قال: «وقع فى نفس موسى عليه السلام: هل ينام الله؟» الحديث رواه هشام بن يوسف وخالفه معمر، عن الحكم، عن عكرمة فوقفه، وهذا أقرب، ولا يسوغ أن يكون هذا وقع فى نفس موسى، عليه السلام، وإنما روى أن بنى إسرائيل سألوا موسى عن ذلك».

(٢) فى أ، و: «إلا أن يأذن له». (٣) فى أ، و: «فأخر لله».

(٤) حديث الشفاعة مخرج فى الصحيحين من حديث أنس، رضى الله عنه، وسيأتى سياقه وذكر طرقه عند تفسير الآية: ٧٩ من سورة الإسراء.

بما أعلمه الله، عز وجل، وأطلعه عليه. ويحتمل أن يكون المراد: لا يطلعون على شىء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن إدريس، عن مطرف بن طريف، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد جبير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّه ﴾ قال: علمه. وكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن إدريس وهشيم، كلاهما عن مطرف بن طريف، به.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن سعيد بن جبير مثله. ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: الكرسى، موضع القدمين، ثم رواه عن أبى موسى، والسدى، والضحاك، ومسلم البطين.

وقال شجاع بن مخلد فى تفسيره: أخبرنا أبو عاصم، عن سفيان، عن عمار الدُّهْنى، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: سئل النبى ﷺ عن قول الله: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّه السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ قال: «كرسيه موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله، عز وجل».

كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه، من طريق شجاع بن مخْلد الفلاس، فذكره[(١)]، وهو غلط، وقد رواه وَكيع فى تفسيره: حدثنا سفيان، عن عمار الدُّهْنى[(٢)]، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكرسى موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره. وقد رواه الحاكم فى مستدركه، عن أبى العباس محمد بن أحمد المحبوبى، عن محمد بن معاذ، عن أبى عاصم، عن سفيان ـ وهو الثورى ـ بإسناده، عن ابن عباس موقوفاً مثله، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[(٣)]. وقد رواه ابن مردويه من طريق الحكم بن ظُهَيْر الفزارى الكوفى ـ وهو متروك ـ عن السدى، عن أبيه، عن أبى هريرة مرفوعاً، ولايصح أيضاً.

وقال السدى عن أبى مالك: الكرسى تحت العرش. وقال السدى: السموات والأرض فى جوف الكرسى، والكرسى بين يدى العرش. وقال الضحاك عن ابن عباس: لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كن فى سعة الكرسى إلا بمنزلة الحلقة فى المفازة.

ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنى ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثنى أبى قال: قال رسول الله ﷺ: « ما السموات السبع فى الكرسى، إلا كدراهم سبعة ألقيت فى تُرْس». قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرى فلاة من الأرض»[(٤)].

وقال أبو بكر بن مردويه: أخبرنا سليمان بن أحمد، أخبرنا عبد الله بن وهيب[(٥)] الغزى،

---

(١) ورواه الخطيب فى تاريخ دمشق (٩/ ٢٥١) من طريق شجاع بن مخلد به.

(٢) فى أ: «عن على الذهبى».

(٣) المستدرك (٢/ ٢٨٢) ورواه ابن أبى شيبة فى صفة العرش برقم (٦١) من طريق أبى عاصم عن سفيان به موقوفاً.

(٤) تفسير الطبرى (٥/ ٣٩٩) وهو منقطع، وقد جاء موصولاً، فرواه ابن أبى شيبة فى صفة العرش برقم (٥٨) من طريق المختار بن غسان، عن إسماعيل بن سلم، عن أبى إدريس الخولانى، عن أبى ذر الغفارى ،رضى الله عنه، مرفوعاً بنحوه. وسيأتى أيضاً موصولاً من طريق آخر وهو الذى يليه من رواية ابن مردويه.

(٥) فى هـ: «ابن وهب» والتصويب من الإكمال.

أخبرنا محمد بن أبى السَّرِىّ العسقلانى، أخبرنا محمد بن عبد الله [١] التميمى، عن القاسم بن محمد الثقفى، عن أبى إدريس الخولانى، عن أبى ذر الغفارى، أنه سأل النبى ﷺ عن الكرسى. فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، ما السموات السبع، والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[٢].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده: حدثنا زهير، حدثنا ابن أبى بُكَيْر[٣]، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الله بن خليفة، عن عمر، رضى الله عنه، قال: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلنى الجنة. قال: فعظم الرب تبارك وتعالى وقال: «إن كرسيه وسع السموات والأرض، وإن له أطيطاً كأطيط الرَّحل الجديد من ثقله»[٤].

وقد رواه الحافظ البزار فى مسنده المشهور، وعبد بن حميد وابن جرير فى تفسيريهما، والطبرانى وابن أبى عاصم فى كتابى السنة لهما، والحافظ الضياء فى كتابه «المختار» من حديث أبى إسحاق [٥] السبيعى، عن عبد الله بن خليفة، وليس بذاك المشهور، وفى سماعه من عمر نظر[٦]. ثم منهم من يرويه عنه، عن عمر موقوفاً، ومنهم من يرويه عنه مرسلا [٧]، ومنهم من يزيد فى متنه زيادة غريبة، ومنهم من يحذفها.

وأغرب من هذا حديث جبير بن مطعم فى صفة العرش كما رواه أبو داود فى كتاب السنة من سننه [٨]، والله أعلم.

وقد روى ابن مردويه وغيره أحاديث عن بريدة وجابر وغيرهما، فى وضع الكرسى يوم القيامة لفصل القضاء، والظاهر أن ذاك غير المذكور فى هذه الآية.

وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الإسلاميين: أن الكرسى عندهم هو الفلك الثامن، وهو فلك الثوابت الذى فوقه الفلك التاسع، وهو الفلك الأثير، ويقال له: الأطلس. وقد رد ذلك عليهم آخرون.

وروى ابن جرير من طريق جُوَيبر، عن الحسن البصرى أنه كان يقول: الكرسى هو العرش. والصحيح أن الكرسى غير العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار، وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة، عن عمر فى ذلك، وعندى فى صحته نظر، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ أى: لا يثقله ولا يُكْرِثُه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن

---

(١) فى أ: «ابن عبيد الله».

(٢) وفى إسناده محمد بن أبى السرى العسقلانى، ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن معين، وقال ابن عدى: كثير الغلط.

(٣) فى أ: «ابن أبى بكر».

(٤) ورواه من طريقه الضياء المقدسى فى المختارة برقم (١٥١).

(٥) فى أ: «عن أبى القاسم».

(٦) مسند البزار برقم (٣٩) «كشف الأستار» وتفسير الطبرى (٥/ ٤٠٠) والسنة لابن أبى عاصم برقم (٥٧٤) والمختارة للضياء المقدسى برقم (١٥١ ـ ١٥٤).

(٧) الرواية المرسلة فى تفسير الطبرى (٥/ ٤٠٠).

(٨) سنن أبى داود برقم (٤٧٢٦).

بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء، ولايغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة وهو الغنى الحميد، الفعال لما يريد، الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلى العظيم لا إله غيره ولارب سواه، فقوله: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾كقوله: ﴿ وَهُوَ [الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ وكقوله][1]: ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩].

وهذه الآيات وما فى معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح إمرارها كما جاءت، من غير تكييف ولا تشبيه.

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ أى: لا تكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام، فإنه بين واضح جلى دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرها مقسوراً. وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبى عدى، عن شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقْلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾.

وقد رواه أبو داود والنسائى جميعاً، عن بُنْدَار، به[2]. ومن وجوه أخر، عن شعبة، به نحوه. وقد رواه ابن أبى حاتم، وابن حبان فى صحيحه، من حديث شعبة، به [3]. وهكذا ذكر مجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبى، والحسن البصرى، وغيرهم: أنها نزلت فى ذلك.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد الحرشى، عن [4]زيد بن ثابت، عن عكرمة أو عن سعيد [بن جبير] [5]، عن ابن عباس، قوله: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ قال: نزلت فى رجل من الأنصار، من بنى سالم بن عوف، يقال له: الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلا مسلماً، فقال للنبى ﷺ: ألا أستكرههما، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك.

رواه ابن جرير، وروى عن السدى نحو ذلك، وزاد: وكانا قد تنصرا على يدى تجار قدموا من الشام، يحملون زيتاً، فلما عزما على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرههما، وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث فى آثارهما، فنزلت هذه الآية.

(١) زيادة من أ، و.
(٢) تفسير الطبرى (٥/ ٤٠٧، ٤٠٨) وسنن أبى داود برقم (٢٦٨٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٤٨).
(٣) صحيح ابن حبان برقم (١٧٢٥) «موارد».
(٤) فى و: «مولى». (٥) زيادة من جـ، أ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن عوف، أخبرنا شريك، عن أبى هلال، عن أُسَق قال: كنت فى دينهم مملوكاً نصرانياً لعمر بن الخطاب، فكان يعرض على الإسلام، فآبى فيقول: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، ويقول: يا أُسَق، لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين.

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب، ومن دخل فى دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية. وقال آخرون: بل هى منسوخة بآية القتال، فإنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول فى الدين الحنيف دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ولم ينقد له ويبذل الجزية، قوتل حتى يقتل. وهذا معنى الإكراه قال الله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح:١٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم:٩]، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:١٢٣]. وفى الصحيح: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة فى السلاسل»، [(١)] يعنى: الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام فى الوثاق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم وسرائرهم، فيكونون من أهل الجنة.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حميد، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال: إنى أجدنى كارها. قال: «وإن كنت كارها» [(٢)]. فإنه ثلاثى صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبى ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبر أن نفسه ليست قابلة له، بل هى كارهة، فقال له: «أسلم، وإن كنت كارهاً، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص».

وقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: من خلع الأنداد والأوثان[(٣)]، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده، وشهد أنه لا إله إلا هو ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾أى: فقد ثبت فى أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم.

قال أبو القاسم البغوى: حدثنا أبو روح البلدى، حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم، عن أبى إسحاق، عن حسان ـ هو ابن فائد العبسى ـ قال: قال عمر، رضى الله عنه: إن الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون فى الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان من [(٤)] أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه وإن كان فارسياً أو نبطيا. وهكذا رواه ابن جرير[(٥)]. وابن أبى حاتم، من حديث الثورى، عن أبى إسحاق، عن حسان بن فائد العبسى، عن عمر، فذكره.

ومعنى قوله فى الطاغوت: إنه الشيطان، قوى جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها.

وقوله: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾أى: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب،

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٠١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) المسند (٣/ ١٨١).

(٣) فى أ: «والأديان». (٤) فى جـ، أ، و: «عن».

(٥) تفسير الطبرى (٥/ ٤١٧).

وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية، وربطها قوي شديد؛ ولهذا قال: ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال مجاهد: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ يعني: الإيمان. وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير، والضحاك: يعني لا إله إلا الله. وعن أنس [١] بن مالك: ﴿ الْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾: القرآن. وعن سالم بن أبي الجعد قال: هو الحب في الله، والبغض في الله.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافي بينها.

وقال معاذ بن جبل، في قوله: ﴿ لا انفِصَامَ لَهَا ﴾ أي: لا انقطاع لها دون دخول الجنة.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا﴾ ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا ابن عون، عن محمد، عن قيس بن عباد قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة. فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه، فحدثته، فلما استأنس [٢] قلت له: إن القوم لما دخلت قبل المسجد قالوا كذا وكذا. قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم: إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه: رأيت كأني في روضة خضراء ـ قال ابن عون: فذكر من خضرتها وسعتها ـ وسطها عمود حديد، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي: اصعد عليه. فقلت: لا أستطيع. فجاءني منصف ـ قال ابن عون: هو الوصيف [٣] ـ فرفع ثيابي من خلفي. فقال: اصعد. فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة. فاستيقظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه. فقال: «أما الروضة فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت»[٤].

قال: وهو عبد الله بن سلام. أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الله بن عون[٥]، وأخرجه البخاري من وجه آخر، عن محمد بن سيرين، به[٦].

طريق أخرى وسياق آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، وعفان قالا: حدثنا حماد ابن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن المسيب بن رافع، عن خرشة بن الحُرّ قال: قدمت المدينة فجلست إلى مشيخة في مسجد النبي ﷺ. فجاء شيخ يتوكأ على عصاً له، فقال القوم: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا. فقام خلف سارية فصلى ركعتين فقمت إليه، فقلت له: قال بعض القوم: كذا وكذا. فقال: الجنة لله يُدخلها [٧] من يشاء، وإني رأيت على عهد رسول الله ﷺ رؤيا، رأيت كأن رجلا أتاني فقال: انطلق. فذهبت معه، فسلك بي منهجاً عظيماً، فعرضت لي طريق عن يساري، فأردت أن أسلكها. فقال: إنك لست من أهلها. ثم عرضت لي طريق عن

---

(١) في أ: «وعن يونس».
(٢) في جـ: «فلما أنس». (٣) في أ: «هو الوصف».
(٤) المسند (٥/ ٤٥٢).
(٥) صحيح البخاري برقم (٣٨١٣) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٤).
(٦) صحيح البخاري برقم (٧٠١٠).
(٧) في جـ: «سيدخلها».

يمينى، فسلكتها حتى انتهيت إلى جبل زلق، فأخذ بيدى فزجل[١]، فإذا أنا على ذروته، فلم أتقار ولم أتماسك، فإذا عمود حديد فى ذروته حلقة من ذهب، فأخذ بيدى فزجل[٢] حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك. فقلت: نعم. فضرب العمود برجله فاستمسكت بالعروة، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «رأيت خيراً، أما المنهج العظيم فالمحشر[٣]، وأما الطريق التى عرضت عن يسارك فطريق أهل النار، ولست من أهلها، وأما الطريق التى عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة، وأما الجبل الزلق فمنزل الشهداء، وأما العروة التى استمسكت بها فعروة الإسلام، فاستمسك بها حتى تموت». قال: فأنا أرجو أن أكون من أهل الجنة. قال: وإذا هو عبد الله بن سلام[٤].

وهكذا رواه النسائى، عن أحمد بن سليمان، عن عفان، وابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن الحسن بن موسى الأشيب، كلاهما عن حماد بن سلمة، به نحوه[٥]. وأخرجه مسلم فى صحيحه، من حديث الأعمش، عن سليمان بن مُسْهِر، عن خرشة بن الحُرّ الفزارى، به[٦].

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) ﴾.

يخبر تعالى أنه يهدى من اتبع رضوانه سُبُلَ السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلى المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشياطين تزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿ **أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾.

ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة كما قال: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿ **عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ** ﴾ [النحل: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات التى فى لفظها إشعار بتفرّد الحق، وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن ميسرة، حدثنا عبد العزيز بن أبى عثمان، عن موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد قال: يبعث أهل الأهواء[٧]ـ أو قال: يبعث أهل الفتن ـ فمن كان هواه الإيمان كانت فتنته بيضاء مضيئة، ومن كان هواه الكفر كانت فتنته سوداء مظلمة، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي

(١، ٢) فى جـ، أ، و: «فدحا بى». (٣) فى جـ: «فالمحن».

(٤) المسند (٥/٤٥٢، ٤٥٣).

(٥) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٦٣٣) وسنن ابن ماجة برقم (٣٩٢٠).

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٤٨٤).

(٧) فى أ: «الأسواق».

يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾.

هذا الذى حاج إبراهيم فى ربه هو ملك بابل: نمروذ بن كنعان بن كُوش بن سام بن نوح. ويقال: نمروذ بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح والأول قول مجاهد، وغيره.

قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود، وذو القرنين. والكافران: نمروذ [بن كنعان] (١) وبختنصر. فالله أعلم.

ومعنى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أى: بقلبك يا محمد ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أى: [فى] (٢) وجود ربه. وذلك أنه أنكر أن يكون ثَمَّ إله غيره، كما قال بعده فرعون لملئه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره، وطول مدته فى الملك؛ وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمائة سنة فى ملكه؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وكأنه طلب من إبراهيم دليلا على وجود الرب الذى يدعو إليه، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها. وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلابد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذى أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج (٣) ـ وهو النمروذ ـ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.

قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، والسدى، وغير واحد: وذلك أنى(٤) أوتى بالرجلين قد استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة.

والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا فى معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع. وإنما أراد أن يَدّعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذى يحيى ويميت، كما اقتدى به فرعون فى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾؛ ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أى: إذا كنت كما تدعى من أنك [أنت الذى] (٥) تحيى وتميت، فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود فى خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيى وتميت، فأت بها من المغرب. فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام بُهت، أى: أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة. قال الله تعالى(٦): ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ردية. وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثانى ويُبيِّن بطلان ما ادعاه نمروذ فى الأول والثانى، ولله الحمد والمنة.

(١) زيادة من جـ. (٢) زيادة من أ، و. (٣) فى جـ، أ، و: «الحاج».
(٤) فى أ: «وذلك أنه». (٥) زيادة من أ، و. (٦) فى جـ، أ: «عز شأنه».

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمروذ بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا فى ذلك اليوم، فجرت بينهما هذه المناظرة.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم: أن النمروذ كان عنده [١] طعام، وكان الناس يغدون [٢] إليه للميرة، فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال: أشغل أهلى عنى إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله، وجاء فاتكأ فنام. فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً، فعملت منه طعاماً. فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه، فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذى جئت به. فعرف أنه رزق رزقهموه الله، عز وجل. قال [٣]زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمره بالإيمان بالله، فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى، ثم الثالثة فأبى، وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعى. فجمع النمروذ جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم باباً من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاماً بادية، ودخلت واحدة منها فى منخرى الملك، فمكثت فى منخريه أربعمائة سنة، عذبه الله بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة كلها حتى أهلكه الله بها.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾.

تقدم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ [أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ] [٤]﴾ وهو فى قوة قوله: هل رأيت مثل الذى حاج إبراهيم فى ربه؟ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾. اختلفوا فى هذا المار من هو؟ فروى ابن أبى حاتم عن عصام بن روَّاد، عن آدم بن أبى إياس، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن على بن أبى طالب أنه قال: هو عزير.

ورواه ابن جرير، عن ناجية، نفسه. وحكاه ابن جرير، وابن أبى حاتم، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدى، وسليمان بن بُرَيْدَة، وهذا القول هو المشهور.

وقال وهب بن منبه، وعبد الله بن عبيد بن عمير: هو إرميا بن حلقيا. قال محمد بن إسحاق؛ عمن لا يتهم، عن وهب بن منبه، أنه قال: وهو اسم الخضر، عليه السلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى قال: سمعت [٥]سليمان بن محمد اليسارى الجارى ـ من أهل الجار، ابن عم مطرف ـ قال: سمعت رجلا من أهل الشام يقول: إن الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه اسمه: حزقيل بن بورا.

وقال مجاهد بن جبر: هو رجل من بنى إسرائيل.

---

(١) فى أ: «كان بيده». (٢) فى أ: «يبدون» وفى و: «يفدون».
(٣) فى جـ: «وقال». (٤) زيادة من جـ، أ. (٥) فى جـ: «حدثنا».

[وذكر غير واحد أنه مات وهو ابن أربعين سنة؛ فبعثه الله وهو كذلك، وكان له ابن، فبلغ من السن مائة وعشرين سنة، وبلغ ابن ابنه تسعين وكان الجد شابا وابنه وابن ابنه شيخان كبيران قد بلغا الهرم، وأنشدني به بعض الشعراء:

واسودّ رأس شاب من قبل ابنه ... ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرى أنه شيخا يدب على عصا ... ولحيته سوداء والرأس أشعر
وما لابنه حبل ولا فضل قوة ... يقوم كما يمشى الصغير فيعثر
وعمر ابنه أربعون أمرها ... ولابن ابنه فى الناس تسعين غبر][1]

وأما القرية: فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها.

﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ أى: ليس فيها أحد، من قولهم: خوت الدار تخوى خواءً وخُوياً.

وقوله: ﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أى: ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ قال[2]: وعمرت البلدة بعد مضى سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها. فلما بعثه الله، عز وجل، بعد موته كان أول شىء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه؟ فلما استقل سويا قال الله له ـ أى بواسطة الملك ـ : ﴿ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله فى آخر نهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ وذلك: أنه كان معه، فيما ذكر، عنب وتين وعصير، فوجده كما فقده لم يتغير منه شىء، لا العصير استحال، ولا التين حمض، ولا أنتن، ولا العنب تعفن ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ أى: كيف يحييه الله، عز وجل، وأنت تنظر ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أى: دليلا على المعاد، ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ أى: نرفعها فتركب بعضها على بعض.

وقد روى الحاكم فى مستدركه، من حديث نافع بن أبى نُعَيم، عن إسماعيل بن أبى حكيم، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ بالزاى. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[3].

وقرئ: ﴿ نُنشِرُهَا ﴾ أى: نحييها، قاله مجاهد، ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾.

وقال السدى وغيره: تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً[4]، فنظر إليها وهى تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب[5] كل عظم فى موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً، وبعث الله ملكاً فنفخ فى منخرى الحمار، فنهق كله بإذن الله عز وجل، وذلك كله بمرأى من العزير، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى: أنا عالم بهذا، وقد رأيت عياناً، فأنا أعلم أهل زمانى بذلك وقرأ آخرون: «قال اعلم» ، على أنه أمر له بالعلم.

---

(١) زيادة من جـ، أ. (٢) فى أ، و: «قالوا».
(٣) المستدرك (٢/ ٢٣٤) وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه إسماعيل بن قيس من ولد زيد بن ثابت وقد ضعفوه».
(٤) فى أ، و: «وشمالاً». (٥) فى جـ، أ: «ثم ركبت».

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾.

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام، أسباباً، منها: أنه لما قال لنمروذ: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين فى ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾.

فأما الحديث الذى رواه البخارى عند هذه الآية: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنى يونس، عن ابن شهاب، عن أبى سلمة وسعيد، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: رب أرنى كيف تحيى الموتى؟ قال: أولم تؤمن. قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبى» وكذا رواه مسلم، عن حرملة بن يحيى، عن ابن وهب[(١)]، به ـ فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده، بلاخلاف. وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة، أحدها. . .[(٢)].

وقوله: ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾: اختلف المفسرون فى هذه الأربعة: ما هى؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان فى ذلك مُتَّهم لنص عليه القرآن، فروى عن ابن عباس أنه قال: هى الغرنوق، والطاووس، والديك، والحمامة. وعنه أيضاً: أنه أخذ وزاً، ورألا ـ وهو فرخ النعام ـ وديكا، وطاووساً. وقال مجاهد وعكرمة: كانت حمامة، وديكاً، وطاووساً، وغراباً.

وقوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أى: قطعهن. قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٧) وصحيح مسلم برقم (١٥١).

(٢) وقع هنا بياض بجميع النسخ، ووقع فى نسخة مساعدة من مؤسسة الملك فيصل الخيرية فى هذا الموضع، وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة:

أحدها: قول إسماعيل المزنى: لم يشك النبى ﷺ ولا إبراهيم، عليه السلام، فى أن الله سبحانه قادر على إحياء الموتى، وإنما بدأ لجاهل يجيبهما إلى ما سألاه. وقال الخطابى فى قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»: ليس اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم، ولكن فيه نفى الشك عنهما يقول: إذا لم أشك فى قدرة الله على إحياء الموتى، فإبراهيم أولى بألا يشك، قال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس، وكذلك قوله: «لولبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى» وفيه الإعلام بأن المسألة من جهة إبراهيم لم تعرض من جهة الشك، لكن من قبل زيادة العلم بالعيان، لأنه يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال، وقيل: قال هذا ﷺ تواضعاً وتقديماً لإبراهيم قوله: «أولم تؤمن قال: بلى قد آمنت».

وأظن هذا من تصرف الناسخ، لأنه كتب بالجانب بياض فى الأصل. قال الشيخ أحمد شاكر عند هذا الموضع من كتابه «العمدة» الذى هو مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٠):

«هنا بياض فى المخطوطة الأزهرية والمطبوعة، لعل الحافظ ابن كثير تركه ليكتب الأقوال فى ذلك، ثم لم يفعل سهواً أو نسياناً وقد أفاض الحافظ ابن حجر فى الفتح (٦/ ٢٩٤، ٢٩٥) فى ذكر أقوال العلماء فى ذلك. وأجود ذلك عندى قول ابن عطية: «إن الحديث مبنى على نفى الشك، والمراد بالشك فيه: الخواطر التى لا تثبت. وأما الشك المصطلح ـ وهو التوقف بين الأمرين من غير مزية لأحدهما على الآخر ـ فهو منفى عن الخليل قطعاً؛ لأنه يبعد وقوعه ممن رسخ الإيمان فى قلبه، فكيف بمن بلغ رتبة النبوة؟! وأيضاً فإن السؤال لما وقع بـ ﴿ كيف ﴾ دل على حال شىء موجود مقرر عند السائل والمسؤول، كما تقول: كيف علم فلان فـ ﴿كيف﴾ فى الآية سؤال عن هيئة الإحياء لا عن نفس الإحياء فإنه ثابت مقرر. وقال غيره: معناه: إذا لم نشك نحن، فإبراهيم أولى ألا يشك، أى: لو كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء؛ لكنت أنا أحق به منه، وقد علمتم أنى لم أشك فاعلموا أنه لم يشك وإنما قال ذلك تواضعاً منه».

مالك، وأبو الأسود الديلى، ووهب بن منبه، والحسن، والسدى، وغيرهم.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾: أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن، ثم قطعهن ونتف ريشهن، ومزقهن [(١)] وخلط بعضهن فى بعض، ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل[(٢)]. وقيل: سبعة. قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله، عز وجل، أن يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله، عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له فى الرؤية التى سألها، وجعل كل طائر يجىء ليأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم، عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جثته بحول الله وقوته؛ ولهذا قال: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عزيز لا يغلبه شىء، ولا يمتنع منه شىء، وما شاء كان بلا ممانع لأنه العظيم القاهر لكل شىء، حكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن أيوب فى قوله: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: قال ابن عباس: ما فى القرآن آية أرجى عندى منها[(٣)].

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت زيد بن على يحدث، عن رجل، عن سعيد بن المسيب قال: اتعد عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا. قال: ونحن شببة، فقال أحدهما لصاحبه: أى آية فى كتاب الله أرجى لهذه الأمة؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الآية [الزمر: ٥٣]. فقال ابن عباس: أما إن كنت تقول: إنها، وإن أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[(٤)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثنى ابن أبى سلمة عن محمد بن المنْكَدِر، أنه قال: التقى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أى آية فى القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عز وجل: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا [مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ][(٥)]﴾ الآية ـ فقال ابن عباس: لكن أنا أقول[(٦)]: قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾ فرضى من إبراهيم قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ قال: فهذا لما يعترض [(٧)] فى النفوس [(٨)] ويوسوس به الشيطان.

وهكذا رواه الحاكم فى المستدرك، عن أبى عبد الله محمد بن يعقوب بن الأخرم، عن إبراهيم بن عبد الله السعدى، عن بشر بن عمر الزهرانى، عن عبد العزيز بن أبى سلمة، بإسناده، مثله. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[(٩)].

(١) فى أ: «وفرقهن». (٢) فى أ: «أربعة أجزاء». (٣) فى جـ: «أرجى آية منها».
(٤) تفسير الطبرى (٥/٤٨٩).
(٥) زيادة من جـ، أ. (٦) فى جـ، أ: «إن كنت تقول».
(٧) فى جـ: «لما يعرض». (٨) فى أ، و: «فى الصدور».
(٩) المستدرك (١/ ٦٠) وتعقبه الذهبى بأن فيه انقطاعاً.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق فى سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال سعيد بن جبير: يعنى: فى طاعة الله. وقال مكحول: يعنى به: الإنفاق فى الجهاد، من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: الجهاد والحج، يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾.

وهذا المثل أبلغ فى النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله، عز وجل، لأصحابها، كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف، قال الإمام أحمد:

حدثنا زياد بن الربيع أبو خِدَاش، حدثنا واصل مولى أبى عيينة، عن بشار بن أبى سيف الجرمى، عن عياض بن غطيف قال: دخلنا على أبى عبيدة [بن الجراح] (١) نعوده من شكوى أصابه ـ وامرأته تُحَيْفَة قاعدة عند رأسه ـ قلنا: كيف بات أبو عبيدة؟ قالت: والله لقد بات بأجر، قال أبو عبيدة: ما بت بأجر، وكان مقبلا بوجهه على الحائط، فأقبل على القوم بوجهه، وقال: ألا تسألونى عما قلت؟ قالوا: ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه! قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق نفقة فاضلة فى سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق على نفسه وأهله، أو عاد مريضاً أو مازَ أذى، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جنة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله، عز وجل، ببلاء فى جسده فهو له حطة».

وقد روى النسائى فى الصوم بعضه من حديث واصل به، ومن وجه آخر موقوفاً(٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سليمان، سمعت أبا عمرو الشيبانى، عن أبى مسعود: أن رجلا تصدق بناقة مخطومة فى سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة».

ورواه مسلم والنسائى، من حديث سليمان بن مِهْران، عن الأعمش، به(٣). ولفظ مسلم: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله، هذه فى سبيل الله. فقال: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة».

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا عمرو بن مَجْمَع أبو المنذر الكندى، أخبرنا إبراهيم الهجرى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله، عز وجل، جعل حسنة ابن آدم بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلا الصوم، والصوم لى وأنا أجزى به، وللصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة يوم القيامة، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»(٤).

---

(١) زيادة من المسند (١/ ١٩٥).

(٢) المسند (١/ ١٩٥) وسنن النسائى (٤/ ١٦٧، ١٦٨).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٨٩٢) وسنن النسائى (٦/ ٤٩).

(٤) المسند (١/ ٤٤٦).

حديث آخر: قال[الإمام][١] أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء [٢] الله، يقول الله: إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجزى به، يدع طعامه وشهوته من أجلى، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخُلُوف فيه [٣] أطيب عند الله من ريح المسك. الصوم جنة، الصوم جنة» . وكذا رواه مسلم، عن أبى بكر بن أبى شيبة، وأبى سعيد الأشج، كلاهما عن وكيع، به[٤].

حديث آخر: قال أحمد: حدثنا حسين بن على، عن زائدة، عن الركين، عن يُسَيْر بن عميلة[٥]، عن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة فى سبيل الله تضاعف سبعمائة[٦] ضعف»[٧].

حديث آخر: قال أبو داود: حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح، حدثنا ابن وهب، عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أبى أيوب، عن زبان بن فائد، عن سهل بن معاذ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصلاة والصيام والذكر يضاعف على النفقة فى سبيل الله سبعمائة ضعف»[٨].

حديث آخر: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هارون بن عبد الله بن مروان، حدثنا ابن أبى فديك، عن الخليل بن عبد الله، عن الحسن، عن عمران بن حصين، عن رسول الله ﷺ قال: «من أرسل بنفقة فى سبيل الله، وأقام فى بيته[٩]، فله بكل درهم سبعمائة درهم يوم القيامة ومن غزا[١٠] فى سبيل الله، وأنفق فى جهة ذلك[١١]، فله بكل درهم[١٢] سبعمائة ألف درهم». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وهذا حديث غريب[١٣].

وقد تقدم حديث أبى عثمان النهدى، عن أبى هريرة فى تضعيف الحسنة إلى ألفى ألف حسنة، عند قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[البقرة: ٢٤٥].

حديث آخر: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن عبيد الله بن العسكرى البزاز، أخبرنا الحسن بن على بن شبيب، أخبرنا محمود بن خالد الدمشقى، أخبرنا أبى، عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال النبى ﷺ: «رب زد أمتى» قال: فأنزل الله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾قال: «رب زد أمتى» قال: فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠].

وقد رواه أبو حاتم ابن حبان فى صحيحه، عن حاجب بن أركين، عن أبى عمر حفص بن عمر ابن عبد العزيز المقرئ، عن أبى إسماعيل المؤدب، عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر، فذكره[١٤].

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى جـ، أ، و: «إلى ما يشاء». (٣) فى جـ: «ولخلوف فمه».
(٤) صحيح مسلم برقم (١١٥١).
(٥) فى أ: «عن الركن بن بشير بن جميلة»، وفى و: «عن الركين، عن بشير بن عميلة».
(٦) فى جـ، و: «بسبعمائة» وهو الصواب.
(٧) المسند (٤/ ٣٤٥).
(٨) سنن أبى داود برقم (٢٤٩٨).
(٩) فى أ: «فى بنيته». (١٠) فى أ، و: «من غزا بنفسه». (١١) فى جـ، أ، و: «فى وجهه ذلك».
(١٢) فى جـ، أ، و: «درهم يوم القيامة».
(١٣) ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٧٦١) عن هارون بن عبد الله به.
(١٤) صحيح ابن حبان برقم (١٦٤٨) «موارده».

وقوله هاهنا: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أى: بحسب إخلاصه فى عمله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾.

يمدح تعالى الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منّا على من [(١)] أعطوه، فلا يمنون به على أحد، ولا يمنون به لا بقول ولا فعل.

وقوله: ﴿وَلا أَذًى﴾ أى: لايفعلون مع من أحسنوا إليه مكروها يحبطون به ما سلف من الإحسان. ثم وعدهم تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾أى: ثوابهم على الله، لا على أحد سواه ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى: [على] [(٢)] ما خلفوه من الأولاد وما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها[(٣)]، لا يأسفون عليها؛ لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أى: من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أى: غفر [(٤)] عن ظلم قولى أو فعلى ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن نفيل قال: قرأت على معقل بن عبيد الله، عن عمرو ابن دينار قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف، ألم تسمع قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾» ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ [أى] [(٥)] :عن خلقه. ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم.

وقد وردت الأحاديث بالنهى عن المن فى الصدقة، ففى صحيح مسلم، من حديث شعبة، عن الأعمش عن سليمان بن مُسْهِر، عن خرشة بن الحر، عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»[(٦)].

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى، أخبرنا عثمان بن محمد الدورى، أخبرنا هُشَيْم [(٧)] بن خارجة، أخبرنا سليمان بن عقبة، عن يونس بن ميسرة، عن أبى إدريس، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر»

---

(١) فى جـ ، أ: «على ما».
(٢) زيادة من جـ، أ، و.
(٣) فى و: «وزينتها».
(٤) فى جـ، أ، و: «أى عفو».
(٥) زيادة من جـ.
(٦) صحيح مسلم برقم (١٠٦).
(٧) فى و: «الهيثم».

وروى أحمد وابن ماجه، من حديث يونس بن ميسرة نحوه[١].

ثم روى [٢] ابن مردويه، وابن حبان، والحاكم في مستدركه، والنسائي من حديث عبد الله بن يسار الأعرج، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى»[٣].

وقد روى النسائي، عن مالك بن سعد، عن عمه روح بن عبادة، عن عتاب بن بشير، عن خصيف الجزري، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاق لوالديه، ولا منان»[٤].

وقد رواه ابن أبي حاتم، عن الحسن بن المنهال[٥]، عن محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي، عن عتاب، عن خُصَيف، عن مجاهد، عن ابن عباس[٦].

ورواه النسائي من حديث، عبد الكريم بن مالك الجزري، عن مجاهد، قوله. وقد روى عن مجاهد، عن أبي سعيد[٧]، وعن مجاهد، عن أبي هريرة، نحوه[٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى.

ثم قال تعالى: ﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي: لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدحة الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه؛ ولهذا قال: ﴿ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه ـ قال الضحاك: والذي يتبع نفقته منا أو أذى ـ فقال: ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو جمع صَفْوانة، ومنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً، وهو الصفا، وهو الصخر الأملس ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي: فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً، أي[٩]: أملس يابساً، أي: لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أي: وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله[١٠]، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، ؛ ولهذا قال: ﴿ لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾.

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ

---

(١) المسند (٦/ ٤٤١) وسنن ابن ماجة برقم (٣٣٧٦) وقال البوصيري في الزوائد (٣/ ١٠٣): «هذا إسناد حسن، سليمان بن عتبة مختلف فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات».

(٢) في جـ: «وروى».

(٣) المستدرك (٤/ ١٤٦) وسنن النسائي (٥/ ٨٠).

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (٤٩٢١).

(٥) في جـ: «ابن نهال»، وفي أ: «بن منهلل».

(٦) في جـ، أ، و: «ابن عباس في قوله».

(٧) سنن النسائي الكبرى برقم (٤٩٢٠).

(٨) سنن النسائي الكبرى برقم (٤٩٢٢).

(٩) في جـ: «هكذا».

(١٠) في جـ: «عند الله تعالى».

أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾.

وهذا مثل المؤمنين المنفقين ﴿أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ عنهم فى ذلك ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: وهم متحققون مُثَبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا فى المعنى قوله، عليه السلام[1]، فى الحديث المتفق على صحته: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً...» أى: يؤمن أن الله شرعه، ويحتسب عند الله ثوابه.

قال الشعبى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: تصديقاً ويقيناً[2]. وكذا قال قتادة، وأبو صالح، وابن زيد. واختاره ابن جرير. وقال مجاهد والحسن: أى: يتثبتون أين يضعون[3] صدقاتهم.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أى: كمثل بستان بربوة. وهو عند الجمهور: المكان المرتفع المستوى من الأرض. وزاد ابن عباس والضحاك: وتجرى فيه الأنهار.

قال ابن جرير: وفى الربوة ثلاث لغات هن ثلاث قراءات: بضم الراء، وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق. وفتحها، وهى قراءة بعض أهل الشام والكوفة، ويقال: إنها لغة تميم. وكسر الراء، ويذكر أنها قراءة ابن عباس.

وقوله: ﴿أَصَابَهَا[4] وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم، فآتت ﴿أُكُلَهَا﴾ أى: ثمرتها[5] ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أى: بالنسبة إلى غيرها من الجنان. ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ قال الضحاك: هو الرذاذ، وهو اللين من المطر. أى: هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً؛ لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأيا ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره وينميه، كل عامل يحسبه؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى: لا يخفى عليه من أعمال عباده شىء.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)﴾.

قال البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام ـ هو ابن يوسف ـ عن ابن جريج: سمعت عبد الله[6] بن أبى مُلَيكة، يحدث عن ابن عباس، وسمعت أخاه أبا بكر بن أبى مليكة يحدث عن عبيد بن عُمَير قال: قال عمر بن الخطاب يوما لأصحاب النبى ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أولا نعلم[7]. فقال ابن عباس: فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: يا ابن أخى، قل ولا تَحقرْ نفسك. قال ابن عباس: ضَربت مثلا لعمل. قال عمر: أىُّ عملٍ؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غنى يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمِل بالمَعاصى

---

(١) فى جـ، أ، و: «ﷺ».
(٢) فى و: «وتيقناً».
(٣) فى جـ: «أى يضعوا».
(٤) فى جـ، أ: «فأصابها» وهو خطأ.
(٥) فى جـ، أ، و: «أى ثمرها».
(٦) فى جـ، أ، و: «عبيد الله».
(٧) فى جـ: «فقالوا أتعلم أو لا تعلم».

حتى أغرق[١] أعماله[٢].

ثم رواه البخارى، عن الحسن بن محمد الزعفرانى، عن حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج، فذكره[٣]. وهو من أفراد البخارى، رحمه الله.

وفى هذا الحديث كفاية فى تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولا، ثم بعد ذلك انعكس سيره، فبدل الحسنات بالسيئات، عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثانى ما أسلفه فيما تقدم من الصالح[٤]، واحتاج إلى شىء من الأول فى أضيق الأحوال، فلم يحصل له منه شىء، وخانه أحوجَ ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح الشديد[٥] ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أى: أحرق[٦] ثمارَها وأباد أشجارها، فأىّ حال يكون حاله.

وقد روى ابن أبى حاتم، من طريق العَوْفى، عن ابن عباس قال: ضرب الله له مثلا حسناً، وكل أمثاله حسن، قال: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يقول: ضيّعه فى شيبته ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فأحرق[٧] بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة، إذا ردّ إلى الله، عز وجل، ليس له خير فيُسْتَعْتَب، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه، كما لم يُغْن عن هذا ولدُه، وحُرم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرم هذا جنة الله عند أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته.

وهكذا[٨] روى الحاكم فى مستدركه: أن رسول الله ﷺ كان يقول فى دعائه: «اللهم اجعل أوسع رزقك على عند كبر سنى وانقضاء عمرى»[٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعانى، وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا

(١) فى جـ: «حتى أحرق».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٨).

(٣) لم أقع على هذا الطريق فى صحيح البخارى، ولم يذكره المزى فى تحفة الأشراف.

(٤) فى أ: «من المصالح». (٥) فى جـ: «الشديدة». (٦) فى جـ: «أى احترق».

(٧) فى جـ: «فأحرقت»، وفى أ: «فاحترقت». (٨) فى جـ: «ولهذا».

(٩) المستدرك (١/٥٤٢) من طريق سعيد بن سليمان، عن عيسى بن ميمون، عن القاسم، عن عائشة، رضى الله عنها، مرفوعاً، وقال الحاكم: «هذا حديث حسن الإسناد والمتن غريب فى الدعاء مستحب للمشايخ إلا أن عيسى بن ميمون لم يحتج به الشيخان» قال الذهبى: قلت: «عيسى متهم».

أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق ـ والمراد به الصدقة ههنا؛ قاله ابن عباس ـ من طيبات ما رزقهم من الأموال التى اكتسبوها. قال مجاهد: يعنى التجارة بتيسيره إياها لهم.

وقال على والسدى: ﴿ **مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ** ﴾ يعنى: الذهب والفضة، ومن الثمار والزروع التى أنبتها لهم من الأرض.

قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برُذَالَة المال ودَنِيه ـ وهو خبيثه ـ فإن الله طَيِّب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿ **وَلا تَيَمَّمُوا** ﴾ أى: تقصدوا ﴿ **الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ** ﴾ أى: لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون.

وقيل: معناه: ﴿ **وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ** ﴾ أى: لا تعدلوا عن المال الحلال، وتقصدوا إلى الحرام، فتجعلوا نفقتكم منه.

ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مُرَّة الهَمْدانى، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحبَّ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نفسى بيده، لا يسلم عَبْدٌ حتى يُسلِمَ قلبُه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جارُه بوائقه». قالوا: وما بوائقه يا نبى الله؟. قال: «غَشْمُه وظلمه، ولا يكسب[١] عبد مالاً من حرام فينفقَ منه فيباركَ له فيه، ولا يتصدقُ به فيقبل[٢] منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار: إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[٣].

والصحيح القول الأول؛ قال ابن جرير: حدثنى الحسين بن عمرو العَنْقَزِىّ، حدثنى أبى، عن أسباط، عن السدّى، عن عدى بن ثابت، عن البراء بن عازب فى قول الله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ** ﴾ الآية. قال: نزلت فى الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذَاذ النخل، أخرجت من حيطانها أقناء البُسْر، فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين فى مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعْمد الرجل منهم إلى الحَشَف، فيدخله مع أقناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿ **وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ** ﴾.

ثم رواه[٤] ابن جرير، وابن ماجه، وابن مَرْدُويَه، والحاكم فى مستدركه، من طريق السدى، عن

---

(١) فى جـ، أ: «ولا يكتسب». (٢) فى أ، و: «فيتقبل».
(٣) المسند (١/٣٨٧).
(٤) فى جـ: «ورواه».

عدى بن ثابت، عن البراء، بنحوه. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[١].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدى، عن أبى مالك، عن البراء: ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال: نزلت فينا، كنا أصحاب نخل، وكان الرجل يأتى من نخله بقدر كثرته وقلته، فيأتى الرجل بالقِنْو فيعلقه فى المسجد، وكان أهل الصفة[٢] ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه، فيسقط منه البسر والتمر، فيأكل، وكأن أناس ممن لا يرغبون فى الخير يأتي بالقِنْو فيه الحَشَف والشِّيص، ويأتى بالقنو قد انكسر فيعلقه، فنزلت: ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال: لو أنّ أحدكم أهدى له مثل ما أعطَى ما أخذه إلا على إغماض وحَياء، فكنا بعد ذلك يجىء الرجل منا بصالح ما عنده.

وكذا رواه الترمذى، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، عن عبيد الله ـ هو ابن موسى العبسى ـ عن إسرائيل، عن السدى ـ وهو إسماعيل بن عبد الرحمن ـ عن أبى مالك الغفارى ـ واسمه غَزْوان ـ عن البراء، فذكر نحوه[٣].

ثم قال[٤]: وهذا حديث حسن غريب.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا سليمان بن كثير، عن الزهرى، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ نهى عن لونين من التمر: الجُعْرُور ولون الحُبَيْق[٥]. وكان الناس يَتيمّمون شرار ثمارهم[٦] ثم يخرجونها فى الصدقة، فنزلت: ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[٧].

ورواه أبو داود من حديث سفيان بن حسين، عن الزهرى [به][٨]. ثم قال: أسنده أبو الوليد، عن سليمان بن كثير، عن الزهرى، ولفظه: نهى رسول الله ﷺ عن الجُعْرُور ولون الحُبيق[٩] أن يؤخذا فى الصدقة[١٠].

وقد روى النسائى هذا الحديث من طريق عبد الجليل بن حُمَيد اليَحْصُبى، عن الزهرى، عن أبى أمامة. ولم يقل: عن أبيه، فذكر نحوه[١١]. وكذا رواه ابن وهب، عن عبد الجليل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن مَعْقل[١٢] فى هذه الآية: ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ قال: كسب المسلم لا يكون خبيثاً، ولكن لا يصدّق بالحشف، والدرهم الزّيف، وما لا خير فيه.

---

(١) تفسير الطبرى (٥/٥٥٩، ٥٦٠) وسنن ابن ماجة برقم (١٨٢٢) والمستدرك(٢/ ٢٨٥) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٥٨): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وله شاهد من حديث عوف بن مالك رواه أصحاب السنن الأربعة».

(٢) فى جـ، أ، و: «وكان أهل الصدقة».

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٩٨٧).

(٤) فى جـ: «وقال». (٥) فى جـ، أ: «ولون الحشف». (٦) فى جـ: «شر أثمارهم».

(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٠٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (٦/ ٧٦) من طريق أبى الوليد الطيالسى به، وقال الحاكم: «حديث صحيح على شرط البخارى».

(٨) زيادة من جـ، أ. (٩) فى جـ: «ولون الحسف».

(١٠) سنن أبى داود برقم (١٦٠٧).

(١١) سنن النسائى (٥/ ٤٣).

(١٢) فى جـ: «ابن مغفل».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حماد ـ هو ابن أبى سليمان ـ عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: أُتى رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه. قلت: يا رسول الله، نطعمه[١] المساكين؟ قال: «لا تطعموهم مما لا تأكلون»[٢].

ثم رواه عن عفان[٣]، عن حماد بن سلمة، به. فقلت: يا رسول الله، ألا أطعمه المساكين؟ قال: «لا تطعموهم ما لا تأكلون».

وقال الثورى: عن السدى، عن أبى مالك، عن البراء ﴿ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ يقول: لو كان لرجل على رجل، فأعطاه ذلك لم يأخذه؛ إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه رواه ابن جرير.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ يقول: لو كان لكم على أحد حق، فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه. قال: فذلك قوله: ﴿إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾. فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم، وحقى عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه!!

رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير، وزاد: وهو قوله: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾. [آل عمران: ٩٢] ثم روى من طريق العوفى وغيره، عن ابن عباس نحو ذلك، وكذا ذكر غير واحد.

قوله[٤]: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى: وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غنى عنها، وما ذاك إلا ليساوى الغنى الفقير، كقوله: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧] وهو غنى عن جميع خلقه، وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل لا ينفذ ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب، فليَعلمْ أن الله غنى واسع العطاء، كريم جواد، سيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة من يقرض غَيْرَ عديم ولا ظلوم، وهو الحميد، أى: المحمود فى جميع أفعاله وأقواله[٥] وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا هَنَّاد بن السَّرِى، حدثنا أبو الأحوص، عن عطاء ابن السائب، عن مرة الهَمْدانى، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لَلَمّة[٦] بابن آدم، وللمَلَك لَمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلَمْ أنه من الله، فَلْيحمَد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان». ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ الآية.

وهكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتابى[٧] التفسير من سُنَنَيْهما جميعاً، عن هَنَّاد بن السَّرِى[٨].

---

(١) فى جـ: «ألا نطعمه».
(٢) المسند (١٠٥/٦).
(٣) فى جـ: «عن عثمان».
(٤) فى جـ، أ، و: «وقوله».
(٥) فى جـ: «فى جميع أقواله وأفعاله».
(٦) فى جـ: «لمة».
(٧) فى جـ: «فى كتاب».
(٨) سنن الترمذى برقم (٢٩٨٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٥١).

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه، عن أبى يعلى الموصلى، عن هَنَّاد، به[(١)]. وقال الترمذى: حسن غريب، وهو حديث أبى الأحوص ـ يعنى سلام بن سليم ـ لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديثه. كذا قال. وقد رواه أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسيره، عن محمد بن أحمد، عن محمد بن عبد الله بن رُسْتَه، عن هارون الفَرْوِى، عن أبى ضَمْرة[(٢)]، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن مسعود، مرفوعاً نحوه.

ولكن رواه مِسْعر، عن عطاء بن السائب، عن أبى الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن ابن مسعود. فجعله من قوله، والله أعلم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ** ﴾ أى: يخوفكم الفقر، لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه فى مرضاة الله، ﴿ **وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ** ﴾ أى: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصى والمآثم والمحارم ومخالفة الخَلاق، قال [الله][(٣)] تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ** ﴾ أى: فى مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿ **وَفَضْلاً** ﴾ أى: فى مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾.

وقوله: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ** ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

وروى جُوَيْبر، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً: الحكمة القرآن[(٤)]. يعنى: تفسيره، قال ابن عباس: فإنه [قد][(٥)] قرأه البر والفاجر. رواه ابن مَرْدُويه.

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: يعنى بالحكمة: الإصابة فى القول.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ** ﴾: ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن.

وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة.

وقد روى ابن مَرْدُويه، من طريق بقية، عن عثمان بن زُفَر الجُهَنى، عن أبى عمار الأسدى، عن ابن مسعود مرفوعاً: «رأس الحكمة مخافة الله»[(٦)].

وقال أبو العالية فى رواية عنه: الحكمة: الكتاب والفهم. وقال إبراهيم النخَعى: الحكمة: الفهم. وقال أبو مالك: الحكمة: السنة. وقال ابن وهب، عن مالك، قال زيد بن أسلم: الحكمة: العقل. قال مالك: وإنه ليقع فى قلبى أن الحكمة هو الفقه فى دين الله، وأمرٌ يدخله الله فى القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك، أنك تجد الرجل عاقلا فى أمر الدنيا ذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً فى أمر دنياه، عالماً بأمر دينه، بصيراً به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه فى دين الله.

وقال السدى: الحكمة: النبوة.

---

(١) صحيح ابن حبان برقم (٤٠) «موارد».

(٢) فى جـ، أ: «عن أبى حمزة».

(٣) زيادة من جـ، أ.

(٤) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٦٦) لابن مردويه فى تفسيره وإسناده ضعيف جداً.

(٥) زيادة من أ، و.

(٦) ورواه البيهقى وضعفه فى شعب الإيمان برقم (٧٤٤) من طريق محمد بن وصفى عن بقية به، ورواه البيهقى أيضاً من وجه آخر موقوفاً على ابن مسعود.

والصحيح أن الحكمة - كما قاله الجمهور - لا تختص بالنبوة، بل هى أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع، كما جاء فى بعض الأحاديث: «من حفظ القرآن فقد أدْرِجَت النبوة بين كتفيه[(١)]، غير أنه لا يوحى إليه»[(٢)]. رواه[(٣)] وَكِيع بن الجراح فى تفسيره، عن إسماعيل بن رافع[(٤)]،عن رجل لم يسمه، عن عبد الله بن عمر[(٥)]، قوله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع ويزيد[(٦)] قالا: حدثنا إسماعيل - يعنى ابن أبى خالد - عن قيس - وهو ابن أبى حازم - عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلَّطه على هَلَكته فى الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها»[(٧)].

وهكذا رواه البخارى، ومسلم، والنسائى، وابن ماجة - من طرق متعددة - عن إسماعيل بن أبى خالد، به[(٨)].

وقوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ أى: وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل يعى به الخطاب ومعنى الكلام.

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠) إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾.

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات وتَضَمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده. وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أى: يوم القيامة ينقذونهم[(٩)] من عذاب الله ونقمته.

وقوله: ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ أى: إن أظهرتموها فنعم شىء هى.

وقوله: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾: فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء؛ إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة، من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية، وقال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمُسِر بالقرآن كالمُسِر بالصدقة»[(١٠)].

والأصل أن الإسرار أفضل، لهذه الآية، ولما ثبت فى الصحيحين، عن أبى هريرة قال: قال

---

(١) فى جـ، أ، و: «بين جنبيه».

(٢) وفى إسناده إسماعيل بن رافع المدنى ضعفه أحمد وابن معين والنسائى وقال ابن عدى: أحاديثه كلها مما فيه نظر.

(٣) فى جـ: «ورواه». (٤) فى أ، و: «عن إسماعيل بن رافع أبى رافع».

(٥) فى أ، و: «ابن عمرو». (٦) فى أ: «وزيد».

(٧) المسند (١/٤٣٢).

(٨) صحيح البخارى برقم (٧٣) وصحيح مسلم برقم (٨١٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٨٤٠) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٠٨).

(٩) فى أ، و: «ينقذهم».

(١٠) رواه أحمد فى المسند (٤/١٥١) وأبو داود فى السنن برقم (١٣٣٣) والترمذى فى السنن برقم (٢٩١٩) من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع[١] إليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام بن حوشب، عن سليمان بن أبى سليمان، عن أنس بن مالك، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت[٣] الملائكة من خلق الجبال، فقالت: يا رب، فهل من[٤] خلقك شىء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالت: يا رب، فهل من خلقك شىء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار. قالت: يا رب، فهل من[٥] خلقك شىء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. قالت: يا رب، فهل من[٦] خلقك شىء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالت: يا رب، فهل من[٧] خلقك شىء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابنُ آدم يتصدق بيمينه فيخفيها من[٨] شماله»[٩].

وقد ذكرنا فى فضل آية الكرسى، عن أبى ذر قال: قلت: يا رسول الله، أى الصدقة أفضل؟ قال: «سر إلى فقير، أو جهد من مقل». رواه أحمد[١٠].

ورواه ابن أبى حاتم من طريق على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة، عن أبى ذر فذكره. وزاد: ثم نَزَع بهذه الآية: ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية[١١].

وفى الحديث المروى: «صدقة السر تطفئ غضب الرب، عز وجل»[١٢].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الحسين بن زياد المحاربى مؤدب محارب، أخبرنا موسى ابن عمير، عن عامر الشعبى فى قوله: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال: أنزلت[١٣] فى أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما، سأما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبى ﷺ: فقال له النبى ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر؟». قال: خلفت لهم نصف مالى، وأما أبو بكر فجاء بماله كلّه يكاد[١٤] أن يخفيه من نفسه، حتى دفعه إلى النبى ﷺ. فقال له النبى ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟». فقال: عدة الله وعدةُ رسوله. فبكى عمر، رضى الله عنه، وقال: بأبى أنت يا أبا بكر، والله ما اسْتَبَقْنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقاً[١٥].

---

(١) فى و: «حتى يعود».

(٢) صحيح البخارى برقم (١٤٢٣، ٦٦٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١).

(٣) فى أ: «فتعجب». (٤ ـ ٧) فى جـ: «فى». (٨) فى جـ: «عن».

(٩) المسند (٣/ ١٢٤).

(١٠) المسند (٥/ ١٧٨).

(١١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٦٩) من طريق خالد بن أبى يزيد، عن على بن يزيد به.

(١٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٣٨٦) من حديث أنس، رضى الله عنه، وروى عن جماعة من الصحابة وهو حديث متواتر.

(١٣) فى أ: «نزلت». (١٤) فى جـ: «وكاد».

(١٥) ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب برقم (١٦٤٣) من طريق محمد بن الصباح بن موسى بن عيسى عن الشعبى به.

وهذا الحديث مروى من وجه آخر، عن عمر، رضى الله عنه[١]. وإنما أوردناه ههنا لقول الشعبى: إن الآية نزلت فى ذلك، ثم إن الآية عامة فى أن إخفاء الصدقة أفضل، سواء كانت مفروضة أو مندوبة. لكن روى ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، فى تفسير هذه الآية، قال: جعل الله صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها، فقال: بسبعين ضعفاً. وجعل صدقة الفريضة عَلاَنيتَها أفضلَ منِ سرها، فقال: بخمسة وعشرين ضعفاً.

وقوله: ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أى: بدل الصدقات، ولاسيما إذا كانت سراً يحصل لكم الخير فى رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات، وقد قرئ: «ويكفر عنكم» بالضم، وقرئ: «ونكفر» بالجزم، عطفاً على[٢] جواب الشرط، وهو قوله: ﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ كقوله: «فاصدق وأكون» ﴿ وأكن ﴾.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى: لا يخفى عليه من ذلك شىء، وسيجزيكم عليه [سبحانه وبحمده][٣].

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) ﴾.

قال أبو عبد الرحمن النسائى: أخبرنا محمد بن عبد الله[٤] بن عبد الرحيم، أخبرنا[٥] الفرْيَابى، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا، فرخص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾[٦].

وكذا رواه أبو حذيفة، وابن المبارك، وأبو أحمد الزبيرى، وأبو داود الحَفَرى، عن سفيان ـ وهو الثورى ـ به.

وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا[٧] أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنى أحمد بن عبد الرحمن ـ يعنى الدَّشْتَكِىّ ـ حدثنى أبى، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد

---

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (١٦٧٨) والترمذى فى السنن برقم (٣٦٧٥) من طريق هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) فى جـ، أ، و: «على محل». (٣) زيادة من و.

(٤) فى جـ، أ، و: «ابن عبد السلام». (٥) فى جـ: «حدثنا».

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٥٢).

(٧) فى جـ: «حدثنا».

ابن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: أنه كان يأمر بألا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين[١]. وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ الآية [الممتحنة:٨] حديث أسماء بنت الصديق في ذلك [إن شاء الله تعالى][٢].

وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥] ونظائرها في القرآن كثيرة[٣].

وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾: قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن ـ إذا أنفق ـ إلا ابتغاء وجه الله.

وقال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عملُه وهذا معنى حسن، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجرُه على الله، ولا عليه[٤] في نفس الأمر لمن أصاب: ألبَرّ أو فاجر أو مستحق أو غيره، هو مثاب على قصده، ومستَندُ هذا تمام الآية: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾، والحديث المخرج في الصحيحين، من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تُصُدقَ على زانية! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدق الليلة على غني! فقال: اللهم لك الحمد على غَني، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق الليلة على سارق! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غني، وعلى سارق، فأتى فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت؛ أما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته»[٥].

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم[٦] و ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: سفراً للتسبب في طلب المعاش. والضرب في الأرض: هو السفر؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ﴾ [النساء: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [المزمل: ٢٠].

وقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي: الجاهلُ بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم. وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة قال:

---

(١) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/٨٦) لابن مردويه والضياء المقدسي.

(٢) زيادة من جـ، أ.

(٣) في و: «كثير». (٤) في و: «ولا يمكنه».

(٥) صحيح البخاري برقم (١٤٢١) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٢).

(٦) في أ: «بأنفسهم».

قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يَفْطَنُ له فَيُتَصَدَقَ عليه، ولا يسأل الناس شيئاً»[١]. وقد رواه أحمد، من حديث ابن مسعود أيضاً[٢].

وقوله: ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أى: بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم، كما قال [الله][٣] تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. وفى الحديث الذى فى السنن: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[٤] [الحجر: ٧٥].

وقوله: ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أى: لا يُلحون فى المسألة ويكلفون الناس مالا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال، فقد ألحف فى المسألة؛ قال البخارى:

حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شريك بن أبى نمر: أن عطاء بن يَسَار وعبد الرحمن بن أبى عَمْرَة الأنصارى قالا: سمعنا أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكينُ الذى ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذى يتعفَّفُ؛ اقرؤوا إن شئتم ـ يعنى قوله ـ: ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾»[٥].

وقد رواه مُسْلِم، من حديث إسماعيل بن جعفر المدينى، عن شريك بن عبد الله بن أبى نَمر، عن عطاء بن يسار ـ وحده ـ عن أبى هريرة، به[٦].

وقال أبو عبد الرحمن النسائى[٧]: أخبرنا على بن حجر، حدثنا إسماعيل، أخبرنا شريك ـ وهو ابن أبى نمر ـ عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، إنما المسكين المتعفف؛ اقرؤوا إن شئتم: ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾»[٨].

وروى البخارى من حديث شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، نحوه[٩].

وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى ابن أبى ذئب، عن أبى الوليد، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بالطواف عليكم، فتطعمونه[١٠] لقمة لقمة، إنما المسكين المتعفف الذى لا يسأل الناس إلحافا».

وقال ابن جرير: حدثنى معتمر، عن الحسن بن ماتك[١١]، عن صالح بن سويد، عن أبى هريرة

(١) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٩).
(٢) المسند (١/ ٣٨٤).
(٣) زيادة من جـ.
(٤) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٢٧) من طريق عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبى سعيد، رضى الله عنه، به مرفوعاً، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، وقد روى عن بعض أهل العلم».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥٣٩).
(٦) صحيح مسلم برقم (١٠٣٩).
(٧) فى و: «ورواه النسائى ولفظه».
(٨) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٠٥٣).
(٩) صحيح البخارى برقم (١٤٧٦).
(١٠) فى جـ، أ، و: «فتعطونه».
(١١) فى جـ، أ: «الحسن بن بابل»، وفى و: «أيمن بن نابل».

قال: ليس المسكين الطواف الذى ترده الأكلة والأكلتان، ولكن المسكين المتعفف فى بيته، لا يسأل الناس شيئاً تصيبه الحاجة؛ اقرؤوا إن شئتم: ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو بكر الحنفى، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، عن رجل من مزينة، أنه قالت له أمه: ألا تنطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله، فوجدته قائماً يخطب، وهو يقول: «ومن استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافا». فقلت بينى وبين نفسى: لناقة لى خير من خمس أواق، ولغلامه ناقة أخرى فهى خير من خمس أواق فرجعت ولم أسأل[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبى سعيد، عن أبيه قال: سرحتنى أمى إلى رسول الله ﷺ، أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلنى فقال: «من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفَّه الله، ومن استكف كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف». قال: فقلت: ناقتى الياقوتة خير من أوقية. فرجعت ولم أسأله.

وهكذا رواه أبو داود والنسائى، كلاهما عن قتيبة. زاد أبو داود: وهشام بن عمار كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى الرجال بإسناده، نحوه[(٢)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الجماهير، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبى سعيد قال: قال أبو سعيد الخدرى: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله قيمة وقية فهو ملحف» والوقية: أربعون درهما[(٣)].

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن رجل من بنى أسد قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله أوقية ـ أوعدلها ـ فقد سأل إلحافا»[(٤)].

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حكيم بن جبير، عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا ـ أو كدوحا ـ فى وجهه». قالوا: يارسول الله، وماغناه؟ قال: «خمسون درهماً، أو حسابها من الذهب».

وقد رواه أهل السنن الأربعة، من حديث حكيم بن جبير الأسدى الكوفى.[(٥)] وقد تركه شعبة ابن الحجاج، وضعفه غير واحد من الأئمة من جراء هذا الحديث.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى، حدثنا أبو حصين[(٦)] عبد الله

---

(١) المسند (٤/١٣٨).

(٢) المسند (٣/٩) وسنن أبى داود برقم (١٦٢٨) وسنن النسائى (٥/٩٨).

(٣) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (٢٤٤٧) وابن حبان فى صحيحه برقم (٨٤٦) من طريق عبد الله بن يوسف، عن عبد الرحمن ابن أبى الرجال به.

(٤) المسند (٤/٣٦).

(٥) المسند (١/٣٨٨) وسنن أبى داود برقم (١٦٢٦) وسنن الترمذى برقم (٦٥٠) وسنن النسائى (٥/٩٧) وسنن ابن ماجة برقم (١٨٤٠).

(٦) فى هـ: «أبو حصن» وهو خطأ.

ابن أحمد بن يونس، حدثنى أبى، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين قال: بلغ الحارث ـ رجلاً كان بالشام من قريش ـ أن أباذر كان به عوز، فبعث إليه ثلاثمائة دينار، فقال: ما وجد عبد الله رجلا هو أهون عليه منى، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سأل وله أربعون فقد ألحف» ولآل أبى ذر أربعون درهماً وأربعون شاة وماهنان. قال أبو بكر بن عياش: يعنى خادمين[١].

وقال ابن مَرْدُوَيه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا إبراهيم بن محمد، أنبأنا عبد الجبار، أخبرنا سفيان، عن داود بن سابور، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: «من سأل وله أربعون درهماً فهو مُلْحِف، وهو مثل سف الملة» يعنى: الرمل.

ورواه النسائى، عن أحمد بن سليمان، عن يحيى بن آدم، عن سفيان ـ وهو ابن عيينة ـ بإسناده، نحوه[٢].

قوله[٣]: ﴿ **وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾ أى: لا يخفى عليه شىء منه، وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة، أحوج مايكونون إليه.

وقوله: ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين[٤] فى سبيله، وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهار، حتى إن النفقة على الأهل تدخل فى ذلك أيضاً، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقاص ـ حين عاده مريضاً عام الفتح، وفى رواية عام حجة الوداع ـ: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى ما تجعل فى فى امرأتك»[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وبَهْز قالا: حدثنا شعبة، عن عدى بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن يزيد[٦] الأنصارى، يحدث عن أبى مسعود، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، أنه قال: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة» أخرجاه من حديث شعبة، به[٧].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا[٨] سليمان بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن شعيب، قال: سمعت سعيد بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن عريب المليكى، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: «نزلت هذه الآية: ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ [وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ]**[٩] ﴾ فى أصحاب الخيل»[١٠].

---

(١) المعجم الكبير (٢/ ١٥٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٣١): «رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن يونس وهو ثقة».

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (٢٣٧٥).

(٣) فى جـ: «وقوله». (٤) فى جـ، أ: «فى حق المنفقين».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٤٠٩، ٦٣٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٦٢٨).

(٦) فى جـ: «ابن زيد».

(٧) المسند (٤/ ١٢٢) وصحيح البخارى برقم (٥٥) وصحيح مسلم برقم (١٠٠٢).

(٨) فى أ: «عن». (٩) زيادة من جـ، أ.

(١٠) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٢٨٣) من طريق سليمان بن عبد الرحمن به، وفى إسناده سعيد بن سنان متروك.

وقال حنش [1] الصنعانى، عن ابن عباس فى هذه الآية، قال: هم الذى يعلفون الخيل فى سبيل الله. رواه ابن أبى حاتم، ثم قال: وكذا روى عن أبى أمامة، وسعيد بن المسيب، ومكحول.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا يحيى بن يمان، عن عبد الوهاب بن مجاهد ابن جبر، عن أبيه قال: كان لعلى أربعة دراهم، فأنفق درهماً ليلا، ودرهماً نهاراً، ودرهماً سراً، ودرهما علانية، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾.

وكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الوهاب بن مجاهد، وهو ضعيف. ولكن رواه ابن مردويه من وجه آخر، عن ابن عباس أنها أنزلت فى على بن أبى طالب.

وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾أى: يوم القيامة على مافعلوا من الإنفاق فى الطاعات ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تقدم تفسيره.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)﴾.

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصلات لذوى الحاجات والقرابات فى جميع الأحوال والآنات ـ شرع فى ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أى: لايقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له؛ وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. وقال ابن عباس: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخْنَق. رواه ابن أبى حاتم، قال: وروى عن عوف بن مالك، وسعيد بن جبير، والسدى، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، نحو ذلك.

وحكى عن عبد الله بن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا فى قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يعنى: لا يقومون يوم القيامة. وكذا قال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، والضحاك، وابن زيد.

وروى ابن أبى حاتم، من حديث أبى بكر بن أبى مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن ابن عبد الله ابن مسعود، عن أبيه أنه كان يقرأ: «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة».

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا ربيعة بن كلثوم، حدثنا أبى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب. وقرأ: ﴿لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾قال: وذلك حين يقوم من قبره.

---

(١) فى جـ: «وقال حسن».

وفى حديث أبى سعيد فى الإسراء، كما هو مذكور فى سورة سبحان: أنه، عليه السلام[(١)]، مر ليلتئذ بقوم لهم أجواف مثل البيوت، فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء أكلة الربا. رواه البيهقى مطولا.

وقال ابن ماجة: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى الصلت، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت، فيها الحيات ترى من خارج بطونهم. فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا».

ورواه الإمام أحمد، عن حسن وعفان، كلاهما عن حماد بن سلمة، به[(٢)]. وفى إسناده ضعف.

وقد روى البخارى، عن سَمُرَة[(٣)] بن جندب فى حديث المنام الطويل: «فأتينا على نهر ـ حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم ـ وإذا فى النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح، [ما يسبح][(٤)]، ثم يأتى ذلك الذى قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه فيلقمه[(٥)] حجراً» وذكر فى تفسيره: أنه آكل الربا[(٦)].

وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ أى: إنما جُوزُوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع؛ لأن المشركين لا يعترفون[(٧)] بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أى: هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع، أى: هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا!

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام[(٨)]، رداً عليهم، أى: قالوا: ماقالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً، وهو الحكيم العليم الذى لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها، وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى: من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ [المائدة: ٩٥] وكما قال النبى ﷺ يوم فتح مكة: «وكل رباً فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين، وأول ربا أضع ربا العباس»[(٩)] ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية، بل عفا عما سلف، كما قال

(١) فى جـ: «أنه عليه الصلاة والسلام».
(٢) سنن ابن ماجة برقم (٢٢٧٣) والمسند (٢/ ٣٥٣).
(٣) فى جـ، أ: «عن سلمة».
(٤) زيادة من صحيح البخارى (٧٠٤٧).
(٥) فى جـ: «فألقمه».
(٦) صحيح البخارى برقم (٧٠٤٧).
(٧) فى جـ: «لايعرفون».
(٨) فى جـ: «يحتمل أن يكون من كلام الله».
(٩) قال الشيخ أحمد شاكر، رحمه الله، فى عمدة التفسير (٢/ ١٨٩): «وهم الحافظ ابن كثير، رحمه الله، فإن هذا لم يكن له يوم فتح مكة، بل كان فى حجة الوداع فى خطبته ﷺ بعرفه».
قلت: جاء هذا مصرحاً فى رواية عمرو بن الأحوص قال: سمعت النبى ﷺ فى حجة الوداع يقول: «الا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع... » فذكر الحديث، رواه أبو داود فى السنن برقم (٣٣٣٤) والترمذى فى السنن برقم (٣٠٨٧).

تعالى: ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾.

قال سعيد بن جبير والسدى: ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ فإنه [١] ما كان أكل من الربا قبل التحريم.

وقال ابن أبى حاتم: قرئ على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى جرير بن حازم، عن أبى إسحاق الهمدانى، عن أم يونس ـ يعنى امرأته العالية بنت أيفع ـ أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت لها أم محبة[٢] أم ولد لزيد بن أرقم ـ: يا أم المؤمنين، أتعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم. قالت: فإنى بعته عبداً إلى العطاء بثمانمائة، فاحتاج إلى ثمنه، فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة. فقالت: بئس ماشريت! وبئس ما اشتريت! أبلغى زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب قالت: فقلت: أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة؟ قالت: نعم، ﴿ فَمَن[٣] جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾.

وهذا الأثر مشهور، وهو دليل لمن حرم مسألة العينة، مع ماجاء فيها من الأحاديث المقررة فى كتاب الأحكام، ولله الحمد والمنة.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾أى: إلى الربا ففعله بعد بلوغ نهى الله له عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة؛ ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

وقد قال أبو داود: حدثنا يحيى بن معين، أخبرنا عبدالله بن رجاء المكي، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما نزلت: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «من لم يذر المخابرة، فليؤذن بحرب من الله ورسوله»[٤].

ورواه الحاكم فى مستدركه، من حديث ابن خثيم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه[٥] [٦].

وإنما حرمت المخابرة وهى: المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض، والمزابنة وهى: اشتراء الرطب فى رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، والمحاقلة وهى: اشتراء الحب فى سنبله فى الحقل بالحب على وجه الأرض ـ إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها، حسماً لمادة الربا؛ لأنه لا يعلم التساوى بين الشيئين قبل الجفاف. ولهذا قال الفقهاء: الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة. ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا، والوسائل الموصلة إليه، وتفاوت [٧] نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، وقد قال تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: ٧٦].

وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد [٨] إلينا فيهن عهداً ننتهى إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا [٩] يعنى بذلك بعض المسائل التى فيها شائبة الربا، والشريعة شاهدة بأن كل

(١) فى جـ، و: «فله».
(٢) فى أ، و: «أم محنة».
(٣) فى هـ: «من» والمثبت من جـ، أ هو الصواب.
(٤) سنن أبى داود برقم (٣٤٠٦).
(٥) فى جـ، أ، و: «ولم يخرجاه».
(٦) المستدرك (٢/٢٨٦) ووقع فيه: «ولم يخرجاه».
(٧) فى أ: «وتقارب».
(٨) فى جـ: «أن رسول الله ﷺ كان عهد».
(٩) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٥٨٨) ومسلم فى صحيحه برقم (٣٠٣٢).

حرام فالوسيلة إليه مثله؛ لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد ثبت في الصحيحين، عن النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه[(١)]»[(٢)].

وفي السنن عن الحسن بن علي، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى مالا يريبك»[(٣)]. وفي الحديث الآخر: «الإثم ما حاك في القلب وترددت فيه النفس، وكرهت أن يطلع عليه الناس». وفي رواية: «استفت قلبك، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[(٤)].

وقال الثوري: عن عاصم، عن الشعبي، عن ابن عباس قال: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ آية الربا. رواه [البخاري][(٥)] عن قبيصة، عنه[(٦)].

وقال أحمد، عن[(٧)] يحيى، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب أن عمر قال: من آخر ما نزل آية الربا[(٨)]، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة. رواه[(٩)] ابن ماجه[(١٠)]، وابن مردويه.

وروى ابن مَرْدويه من طريق هياج بن بسطام، عن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة[(١١)]، عن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: إني لعلي أنهاكم عن أشياء تصلح لكم وآمركم بأشياء لا تصلح لكم، وإن من آخر القرآن نزولا آية الربا، وإنه قد مات رسولُ الله ﷺ ولم يبينه لنا، فدعوا ما يريبكم إلى مالا يريبكم.

وقد قال ابن ماجة: حدثنا عمرو بن علي الصيرفي، حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن زبيد، عن إبراهيم، عن مسروق، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون بابا»[(١٢)].

ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث عمرو بن علي الفلاس، بإسناد مثله، وزاد: «أيسرها أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم». وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[(١٣)].

---

(١) في و: «يوشك أن يخالط الحمى».

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٥٩٩).

(٣) سنن الترمذي برقم (٢٥١٨) وسنن النسائي (٨/٣٢٧) وقد أطنب في الكلام عليه الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/٢٧٨) ط. الرسالة.

(٤) رواه أحمد في المسند (٤/٢٢٨) من طريق الزبير بن عبد السلام، عن أيوب، عن وابصة ـ رضي الله عنه.

(٥) زيادة من جـ، أ، و.

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٥٤٤).

(٧) في جـ: «حدثنا».

(٨) في أ: «آخر ما أنزل الله الربا».

(٩) في جـ: «ورواه».

(١٠) المسند (١/٣٦) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٧٦) وقال البوصيري في الزوائد (٢/١٩٨): «هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات».

(١١) في جـ، أ: «عن أبي بصرة».

(١٢) سنن ابن ماجة برقم (٢٢٧٥) وقال البوصيري في الزوائد (٢/١٩٨): «هذا إسناد صحيح».

(١٣) المستدرك (٢/٣٧).

وقال ابن ماجة: حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن أبى معشر، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الربا سبعون حوباً، أيسرها أن ينكح الرجل أمه»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، عن عباد بن راشد، عن سعيد بن أبى خَيرة(٢)، حدثنا الحسن ـ منذ نحو من أربعين أو خمسين سنة ـ عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا» قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: «من لم يأكله منهم ناله من غباره» وكذا رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجة من غير وجه، عن سعيد بن أبى خيرة(٣)، عن الحسن، به (٤).

ومن هذا القبيل، وهو تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صبيح، عن مسروق، عن عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر البقرة فى الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فقرأ هُن، فحرم التجارة فى الخمر.

وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذى، من طرق، عن الأعمش به(٥) وهكذا لفظ رواية البخارى، عند تفسير الآية: فحرم التجارة، وفى لفظ له، عن عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا قرأها رسول الله ﷺ على الناس، ثم حرم التجارة فى الخمر. قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة: لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر ومايفضى إليه من تجارة ونحو ذلك، كما قال، عليه السلام(٦)، فى الحديث المتفق عليه: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها»(٧).

وقد تقدم فى حديث على وابن مسعود وغيرهما، عند لعن المحلل فى تفسير قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] قوله ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله، وشاهديه وكاتبه». قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر فى صورة عقد شرعى ويكون داخله فاسداً، فالاعتبار بمعناه لا بصورته؛ لأن الأعمال بالنيات، وفى الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٨).

وقد صنف الإمام، العلامة أبو العباس بن تيمية كتاباً فى « إبطال التحليل» (٩)تضمن النهى عن تعاطى الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفى فى ذلك وشفى، فرحمه الله ورضى عنه.

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) سنن ابن ماجة برقم (٢٢٧٤) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١٩٧): «هذا إسناد ضعيف».

(٢) فى أ: «عن سعيد بن جبير». (٣) فى أ: «سعيد بن أبى جرة».

(٤) المسند (٢/ ٤٩٤) وسنن أبى داود برقم (١٣٣١) وسنن النسائى (٧/ ٢٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٧٨).

(٥) المسند (٦/ ٤٦) وصحيح البخارى برقم (٤٥٤٠، ٤٥٤١) وصحيح مسلم برقم (١٥٨٠) وسنن أبى داود برقم (٣٤٩٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٥٥) وسنن ابن ماجة برقم (٣٣٨٢).

(٦) فى و: «ﷺ».

(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٢٢٣) ومسلم فى صحيحه برقم (١٥٨٢) من حديث عمر بن الخطاب، رضى الله عنه.

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٩) وهو كتاب متين طبع حديثاً طبعة محققة.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) ﴾.

يخبر تعالى أنه يمحق الربا، أى: يذهبه، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه، أو يَحْرِمَه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به فى الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقال: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ [الآية](١) [الروم: ٣٩].

وقال ابن جرير: فى قوله: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ وهذا نظير الخبر الذى روى عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ، أنه قال: «الربا وإن كثر فإلى قُلّ».

وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد فى مسنده، فقال: حدثنا حجاج [قال](٢): حدثنا شريك عن الركين بن الربيع [بن عميلة الفزارى](٣) عن أبيه، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل»(٤)وقد رواه ابن ماجة، عن العباس بن جعفر، عن عمرو بن عون، عن يحيى بن أبى زائدة، عن إسرائيل، عن الركين بن الربيع بن عميلة الفزارى، عن أبيه، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة»(٥).

وهذا من باب المعاملة بنقيض المقصود، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو (٦)سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا الهيثم بن رافع الطاطرى، حدثنى أبو يحيى ـ رجل(٧) من أهل مكة ـ عن فروخ مولى عثمان: أن عمر ـ وهو يومئذ أمير المؤمنين ـ خرج إلى المسجد، فرأى طعاماً منثوراً. فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا. قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه. قيل: يا أمير المؤمنين، إنه قد احتكر. قال: ومن احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان، وفلان مولى عمر. فأرسل إليهما فدعاهما فقال: ماحملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالا: يا أمير المؤمنين، نشترى بأموالنا ونبيع!! فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين (٨) طعامهم ضربه الله بالإفلاس أو بجذام(٩)». فقال فروخ عند ذلك: أعاهد الله وأعاهدك ألا أعود فى طعام أبداً. وأما مولى عمر فقال: إنما نشترى بأموالنا ونبيع. قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً.

ورواه ابن ماجة من حديث الهيثم بن رافع، به (١٠). ولفظه: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس».

وقوله: ﴿ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾: قُرِئَ بضم الياء والتخفيف، من «ربا الشىء يربو» و«أرباه يربيه»

---

(١) زيادة من جـ، أ، و. (٢) زيادة من جـ، أ، و. (٣) زيادة من جـ.
(٤) المسند (١/ ٣٩٥).
(٥) سنن ابن ماجة برقم (٢٢٨٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١٩٩): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».
(٦) فى أ: «حدثنا ابن». (٧) فى جـ: «رجل خرج». (٨) فى أ: «على الناس».
(٩) فى جـ: «والجذام».
(١٠) المسند (١/ ٢١) وسنن ابن ماجة برقم (٢١٥٥).

أى: كثّره ونماه ينميه. وقرئ: «ويُرَبِّى» بالضم والتشديد، من التربية، كما قال البخارى: حدثنا عبد الله بن منير، سمع أبا النضر، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولايقبل الله إلا الطيب، وإن الله ليقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه كما يربى أحدكم فَلُوَّه، حتى يكون مثل الجبل».

كذا رواه فى كتاب الزكاة. وقال فى كتاب التوحيد: وقال خالد بن مخلد، عن سليمان بن بلال، عن عبد الله بن دينار، فذكر بإسناده، نحوه (١).

وقد رواه مسلم فى الزكاة عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن خالد بن مخلد، فذكره (٢). قال البخارى: ورواه مسلم بن أبى مريم، وزيد بن أسلم، وسهيل، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ.

قلت: أما رواية مسلم بن أبى مريم: فقد تفرد البخارى بذكرها، وأما طريق زيد بن أسلم: فرواها مسلم فى صحيحه، عن أبى الطاهر بن السرح، عن ابن وهب، عن هشام بن سعد، عن زيد ابن أسلم، به (٣). وأما حديث سهيل فرواه مسلم، عن قتيبة، عن يعقوب بن عبد الرحمن، عن سهيل، به (٤). والله أعلم.

قال البخارى: وقال ورقاء عن ابن دينار، عن سعيد بن يسار (٥)، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ (٦).

وقد أسند هذا الحديث من هذا الوجه الحافظ أبو بكر البيهقى، عن الحاكم وغيره، عن الأصم، عن العباس المروزى (٧)، عن أبى النضر هاشم بن القاسم، عن ورقاء ـ وهو ابن عمر اليشكرى ـ عن عبد الله بن دينار، عن سعيد بن يسار (٨)، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، فيربيها لصاحبها، كما يربى أحدكم فلوه، حتى تكون مثل أحد» (٩).

وهكذا روى هذا الحديث مسلم، والترمذى، والنسائى جميعاً، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، عن سعيد المقبرى. وأخرجه النسائى ـ من رواية مالك، عن يحيى بن سعيد الأنصارى ـ ومن طريق يحيى القطان، عن محمد بن عجلان، ثلاثتهم عن سعيد بن يسار أبى الحباب المدنى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكره (١٠).

وقد روى عن أبى هريرة من وجه آخر، فقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى،

---

(١) صحيح البخارى برقم (١٤١٠) وبرقم (٧٤٣٠).
(٢) صحيح مسلم برقم (١٠١٤).
(٣) صحيح مسلم برقم (١٠١٤).
(٤) صحيح مسلم برقم (١٠١٤).
(٥) فى أ: «ابن بشار».
(٦) صحيح البخارى برقم (٧٤٣٠، ١٤١٠).
(٧) فى أ، و: «الدورى».
(٨) فى أ: «ابن بشار».
(٩) السنن الكبرى للبيهقى (١٧٦/٤).
(١٠) صحيح مسلم برقم (١٠١٤) وسنن الترمذى برقم (٦٦١) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٧٣٥).

حدثنا وكيع، عن عباد بن منصور، حدثنا القاسم بن محمد قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله، عز وجل، يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره ـ أو فلوه ـ حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد». وتصديق ذلك فى كتاب الله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾.

وكذا رواه أحمد، عن وكيع، وهو فى تفسير وكيع. ورواه الترمذى، عن أبى كُرَيْب، عن وكيع، به[(١)] وقال: حسن صحيح، وكذا رواه الثورى عن عباد[(٢)] بن منصور، به. ورواه أحمد أيضا، عن خلف بن الوليد، عن ابن المبارك، عن عبد الواحد بن ضمرة وعباد بن منصور كلاهما عن أبى نضرة، عن القاسم، به[(٣)].

وقد رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الملك بن إسحاق[(٤)]، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن أيوب، عن القاسم بن محمد، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا تصدق من طيب، يقبلها الله منه، فيأخذها بيمينه، ويُرَبِّيها كما يربى أحدكم مُهْره أو فصيله[(٥)]، وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو فى يد الله ـ أو قال: فى كف الله ـ حتى تكون مثل أحد، فتصدقوا»[(٦)].

وهكذا رواه أحمد، عن عبد الرزاق[(٧)]. وهذا طريق غريب صحيح الإسناد، ولكن لفظه عجيب، والمحفوظ ماتقدم. وروى عن عائشة أم المؤمنين، فقال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن ثابت، عن القاسم بن محمد، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة، كما يربى أحدكم فَلُوَّه أو فصيله، حتى يكون مثل أحد». تفرد به أحمد من هذا الوجه[(٨)].

وقال البزار: حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور، حدثنا إسماعيل، حدثنى أبى، عن يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة، عن النبى ﷺ، وعن الضحاك بن عثمان، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الرجل ليتصدق بالصدقة من الكسب الطيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فيتلقاها الرحمن بيده فيربيها، كما يربى أحدكم فلوه ـ أو وَصيفه ـ أو قال: فصيله» ثم قال: لا نعلم أحداً رواه عن يحيى بن سعيد عن عمرة إلا أبو أويس[(٩)].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أى: لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل، ولابد من مناسبة فى ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهى أن المرابى لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولايكتفى بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى فى أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب

(١) المسند (٢/ ٤٧١) وسنن الترمذى برقم (٦٦٢).
(٢) فى جـ، أ: «عن حماد».
(٣) المسند (٢/ ٤٠٤).
(٤) فى أ، و: «عن محمد بن عبد الملك زنجويه».
(٥) فى جـ، أ: «أوفلوه».
(٦) تفسير الطبرى (٦/ ١٩).
(٧) المسند (٢/ ٢٦٨).
(٨) المسند (٦/ ٢٥١).
(٩) مسند البزار برقم (٩٣١) «كشف الأستار» وقال الحافظ ابن حجر: «أبو أويس لينٌ، وقد ذكر البزار أنه تفرد به».
تنبيه: لم يقع فى كشف الأستار: « عن الضحاك، عن أبى هريرة»؛ وذلك لأنه مخرج فى الصحيحين فليس من الزوائد.

الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل.

ثم قال تعالى مادحا للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره، المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه فى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون، فقال: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾**.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾** أى: خافوه وراقبوه فيما تفعلون **﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾** أى: اتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار **﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾** أى: بما شرع الله لكم من تحليل البيع، وتحريم الربا وغير ذلك.

وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جُرَيج، ومقاتل بن حيان، والسدى: أن هذا السياق نزل فى بنى عمرو بن عمير من ثقيف، وبنى المغيرة من بنى مخزوم، كان بينهم ربا فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم، فتشاوروا(١)، وقالت بنو المغيرة: لانؤدى الربا فى الإسلام فكتب فى ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله ﷺ إليه: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾** فقالوا: نتوب إلى الله، ونذر مابقى من الربا، فتركوه كلهم.

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، لمن استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار، قال ابن جريج: قال ابن عباس: **﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ ﴾** أى: استيقنوا بحرب من الله ورسوله. وتقدم من رواية ربيعة بن كلثوم، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب. ثم قرأ: **﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾** .

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: **﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾** : فمن كان مقيماً على الربا لاينزع عنه فحق (٢) على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبدالأعلى، حدثنا هشام ابن حسان، عن الحسن وابن سيرين، أنهما قالا: والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا، وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله، ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم، فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح. وقال قتادة: أوعدهم الله بالقتل كما تسمعون، وجعلهم بهرجاً أينما أتوا(٣)، فإياكم وما خالط هذه البيوع

(١) فى جـ، أ، و: «فتشاجروا». (٢) فى أ: «يحق». (٣) فى جـ، أ، و: «أينما ثقفوا».

من الربا؛ فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه، فلا تلجئنكم إلى معصيته فاقة. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الربيع بن أنس: أوعد الله آكل الربا بالقتل. رواه ابن جرير.

وقال السهيلى: ولهذا قالت عائشة لأم محبة، مولاة زيد بن أرقم، فى مسألة العينة: أخبريه أن جهاده مع رسول الله ﷺ قد بطل، إلا أن يتوب، فخصت الجهاد؛ لأنه ضد قوله: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: وهذا المعنى ذكره كثير [(١)]. قال: ولكن هذا إسناده إلى عائشة ضعيف.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ﴾ أى: بأخذ الزيادة [(٢)] ﴿وَلا تُظْلَمُونَ﴾ أى: بوضع رؤوس الأموال أيضاً، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص [(٣)] منه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن الحسين بن إشكاب، حدثنا عبيد الله بن موسى، عن شيبان، عن شبيب بن غرقدة البارقى، عن سليمان بن الأحوص عن أبيه قال: خطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع فقال: «ألا إن كل ربا كان فى الجاهلية موضوع عنكم كله، لكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبدالمطلب، موضوع كله» كذا وجدته: سليمان بن الأحوص.

وقد قال ابن مردويه: حدثنا الشافعى، حدثنا معاذ بن المثنى، أخبرنا مسدد، أخبرنا أبو الأحوص، حدثنا شبيب بن غرقدة، عن سليمان بن عمرو، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون»[(٤)].

وكذا رواه من حديث حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى حُرَّة [(٥)] الرقاشى، عن عمرو ـ هو ابن خارجة ـ فذكره.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لا يجد وفاء، فقال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [أى]:[(٦)] لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضى وإما أن تربى.

ثم يندب [(٧)] إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين. وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبى ﷺ، بذلك:

فالحديث الأول: عن أبى أمامة أسعد بن زرارة [النقيب]،[(٨)] قال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن محمد بن شعيب الرجانى[(٩)]، حدثنا يحيى بن حكيم المقوم، حدثنا محمد بن بكر البرسانى، حدثنا عبد الله بن أبى زياد، حدثنى عاصم بن عبيد الله، عن أبى أمامة أسعد بن زرارة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فَلْيُيَسِّر على معسر أو ليضع عنه»[(١٠)].

حديث آخر[(١١)]: عن بريدة، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الوارث، حدثنا محمد

---

(١) فى جـ، أ، و: «ذكره ابن بطال». (٢) فى جـ، أ: «بأخذ الربا». (٣) فى جـ، أ: «ولا نقصان».
(٤) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٣٣٣٤) عن مسدد به، ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٠٥٥) من طريق أبى الأحوص به.
(٥) فى جـ: «عن أبى حمزة». (٦) زيادة من جـ، أ، و. (٧) فى جـ: «ثم ندب».
(٨) زيادة من جـ، أ، و. (٩) فى جـ، أ، و: «المرجانى».
(١٠) المعجم الكبير (١/ ٣٠٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٤/ ١٣٤): «عاصم ضعيف ولم يدرك أسعد بن زرارة».
(١١) فى جـ، أ: «الحديث الثانى».

ابن جحادة، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة». قال: ثم سمعته يقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة». قلت: سمعتك ـ يا رسول الله ـ تقول: «من أنظر معسرًا فله بكل يوم مثله صدقة». ثم سمعتك تقول: «من أنظر معسرًا فله بكل يوم مثلاه صدقة»؟! قال: «له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره، فله بكل يوم مثلاه صدقة»[١].

حديث آخر[٢]: عن أبى قتادة الحارث بن ربعى الأنصارى، قال [الإمام][٣] أحمد: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا أبو جعفر الخطمى، عن محمد بن كعب القرظى: أن أبا قتادة كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه، فيختبئ[٤] منه، فجاء ذات يوم فخرج صبى فسأله عنه، فقال: نعم، هو فى البيت يأكل خزيرة فناداه: يافلان، اخرج، فقد أخبرت أنك ههنا فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عنى؟ فقال: إنى معسر، وليس عندى. قال: آلله إنك معسر؟ قال: نعم. فبكى أبو قتادة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نفس عن غريمه ـ أو محا عنه ـ كان فى ظل العرش يوم القيامة». ورواه مسلم فى صحيحه[٥].

حديث آخر[٦]: عن حذيفة بن اليمان، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا الأخنس أحمد بن عمران[٧]، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا أبو مالك الأشجعى، عن رِبْعى بن حراش، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة، قال: ماذا عملت لى فى الدنيا؟ فقال: ماعملت لك يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها، قالها ثلاث مرات، قال العبد عند آخرها: يارب، إنك أعطيتنى فضل مال، وكنت رجلا أبايع الناس وكان من خلقى الجواز، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر. قال: فيقول الله، عز وجل: أنا أحق من ييسر، ادخل الجنة».

وقد أخرجه البخارى، ومسلم، وابن ماجة ـ من طرق ـ عن ربعى بن حراش، عن حذيفة. زاد مسلم: وعقبة بن عامر وأبى مسعود البدرى عن النبى ﷺ[٨]، بنحوه. ولفظ البخارى.

حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا الزهرى، عن عبد الله بن عبد الله أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسرا قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه».

حديث آخر[٩]: عن سهل بن حنيف، قال الحاكم فى مستدركه: حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى، حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد بن الملك، حدثنا عمرو بن ثابت، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عبد الله بن سهل بن حنيف، أن سهلا حدثه، أن رسول الله ﷺ قال: «من أعان مجاهداً فى سبيل الله أوغازيا، أو غارما فى عسرته، أو مكاتباً فى

(١) المسند (٥/ ٣٦٠).

(٢) فى جـ، أ: «الحديث الثالث». (٣) زيادة من جـ، أ، و. (٤) فى جـ، أ: «فيختفى».

(٥) المسند (٥/ ٣٠٨) ولم أقع عليه فى صحيح مسلم من حديث أبى قتادة، والله أعلم.

(٦) فى جـ، أ: «الحديث الرابع».

(٧) هو أحمد بن عمران الأخنسى، والأخنسى نسبة انظر: الجرح والتعديل (٢/ ٦٤).

(٨) صحيح البخارى برقم (٣٤٥١، ٢٣٩١، ٢٧٠٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٦٠).

(٩) فى جـ، أ: «الحديث الخامس».

رقبته، أظله الله [١] يوم لاظل إلا ظله» ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[٢].

حديث آخر[٣]: عن عبد الله بن عمر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، عن يوسف بن صهيب، عن زيد العمى، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن تستجاب دعوته، وأن تكشف كربته، فليفرج عن معسر»، انفرد به أحمد[٤].

حديث آخر[٥]: عن أبى مسعود عقبة بن عمرو، قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا أبو مالك، عن ربعى بن حراش، عن حذيفة، أن رجلا أتى به الله عز وجل، فقال: ماذا عملت فى الدنيا؟ فقال له الرجل: ما عملت مثقال ذرة من خير أرجوك بها، فقالها له ثلاثاً، وقال فى الثالثة: أى رب كنت أعطيتنى فضلا من المال فى الدنيا، فكنت أبايع الناس، فكنت أتيسر على الموسر، وأنظر المعسر. فقال تبارك وتعالى[٦]: نحن أولى بذلك منك، تجاوزوا عن عبدى. فغفر له. قال أبو مسعود: هكذا سمعت من النبى ﷺ، وهكذا رواه مسلم من حديث أبى مالك سعد بن طارق به[٧].

حديث آخر[٨]: عن عمران بن حصين، قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبى داود، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له على رجل حق فأخره[٩]، كان له بكل يوم صدقة»[١٠].

غريب من هذا الوجه، وقد تقدم عن بريدة نحوه.

حديث آخر[١١]: عن أبى اليسر كعب بن عمرو، قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعى، قال: حدثنا أبو اليسر، أن رسول الله ﷺ قال: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله، عز وجل، فى ظله يوم لا ظل إلا ظله»[١٢].

وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من وجه آخر، من حديث عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: خرجت أنا وأبى نطلب العلم فى هذا الحى من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله ﷺ، ومعه غلام له معه ضمامة من صحف، وعلى أبى اليسر بردة ومعافرى، وعلى غلامه بردة ومعافرى فقال له أبى: ياعم، إنى أرى فى وجهك سفعة من غضب؟ قال أجل، كان لى على فلان بن فلان الحرامى[١٣] مال، فأتيت أهله فسلمت، فقلت: أثم هو؟ قالوا: لا، فخرج على ابن له جفر فقلت: أين أبوك؟ فقال: سمع صوتك فدخل أريكة أمى. فقلت: اخرج إلى فقد علمت أين أنت؟ فخرج، فقلت: ما حملك على أن اختبأت منى؟ قال: أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك؛ خشيت[١٤] ـ والله ـ أن أحدثك فأكذبك، وأن أعدك فأخلفك، وكنت

(١) فى جـ، أ، و: «أظله الله فى ظله».
(٢) المستدرك (٢/٢١٧)، وتعقبه الذهبى فى التلخيص. قلت: «بل فيه عمرو بن ثابت وهو رافضى متروك».
(٣) فى جـ، أ: «الحديث السادس».
(٤) المسند (٢/٢٣).
(٥) فى جـ، أ: «الحديث السابع».
(٦) فى جـ: «فقال تعالى وتبارك».
(٧) المسند (٤/١١٨) وصحيح مسلم برقم (١٥٦٠).
(٨) فى جـ، أ: «الحديث الثامن».
(٩) فى جـ: «حق فمن أخره».
(١٠) المسند (٤/٤٤٢).
(١١) فى جـ، أ: «الحديث التاسع».
(١٢) المسند (٣/٤٢٧).
(١٣) فى أ: «الحرانى»، وفى و: «الحزامى».
(١٤) فى جـ: «خفت».

صاحب رسول الله ﷺ، وكنت ـ الله ـ معسراً قال: قلت: آلله؟ قال: قلتُ: آلله؟ قال: الله. قلت: آلله؟ قال: الله. قال: فأتى بصحيفته فمحاها بيده، ثم قال: فإن وجدت قضاء فاقضني، وإلا فأنت فى حل، فأشهد بصر عيني ـ ووضع أصبعيه على عينيه ـ وسمع أذني هاتين، ووعاه قلبي ـ وأشار إلى مناط[1] قلبه ـ رسول الله ﷺ وهو يقول: «من أنظر معسراً، أووضع عنه أظله الله فى ظله». وذكر تمام الحديث[2].

حديث آخر[3]: عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، قال عبد الله بن الإمام أحمد [فى مسند أبيه][4] حدثنى[5] أبو يحيى البزاز محمد بن عبد الرحيم، حدثنا الحسن بن بشر بن سلم الكوفى، حدثنا العباس بن الفضل الأنصارى، عن هشام بن زياد القرشى، عن أبيه، عن محجن مولى عثمان، عن عثمان، قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «أظل الله عينا فى ظله، يوم لا ظل إلا ظله من أنظر معسراً، أو ترك لغارم»[6].

حديث آخر[7]: عن ابن عباس، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا نوح بن جعونة السلمى الخراسانى، عن مقاتل بن حيان، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، وهو يقول بيده هكذا ـ وأومأ عبد الرحمن بيده إلى الأرض ـ: «من أنظر معسراً أو وضع له، وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حزن بربوة ـ ثلاثاً ـ ألا إن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد من وقى الفتن، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً» تفرد به أحمد[8].

طريق أخرى: قال الطبرانى: حدثنا أحمد بن محمد البُورَانى قاضى الحَدِيثَة من ديار ربيعة، حدثنا الحُسَين بن على الصُّدَائى، حدثنا الحكم بن الجارود، حدثنا ابن أبى المتئد ـ خال ابن عيينة ـ عن أبيه، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنظر معسراً إلى ميسرته أنظره الله بذنبه إلى توبته»[9].

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء مافيها من الأموال وغيرها، وإتيان[10] الآخرة والرجوع إليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾.

وقد روى أن هذه الآية آخرُ آية نزلت من القرآن العظيم، فقال ابن لَهِيعة: حدثنى عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: آخر ما نزل من القرآن كله[11]: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾، وعاش النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الإثنين، لليلتين خلتا من ربيع الأول. رواه ابن أبى حاتم.

(١) فى جـ، أ، و: «إلى نياط».
(٢) صحيح مسلم برقم (٣٠٠٦).
(٣) فى جـ، أ: «الحديث العاشر». (٤) زيادة من جـ، أ، و. (٥) فى جـ: «حدثنا».
(٦) زوائد المسند (١/ ٧٣).
(٧) فى جـ، أ: «الحديث الحادى عشر».
(٨) المسند (١/ ٣٢٧).
(٩) المعجم الكبير (١١/ ١٥١)، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/ ١٣٥): «وفيه الحكم بن جارود ضعفه الأزدى، وشيخ الحكم وشيخ شيخه لم أعرفهما».
(١٠) فى جـ، أ: «وإيثار». (١١) فى أ: «من القرآن العظيم».

وقد رواه ابن مَرْدُويه من حديث المسعودى، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾.

وقد رواه النسائى، من حديث يزيد النحوى، عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس، قال: آخر شيء[١] نزل من القرآن: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[٢].

وكذا رواه الضحاك، والعَوْفى، عن ابن عباس، وروى الثورى، عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس، قال: آخر آية أنزلت[٣]: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، فكان بين نزولها [وبين][٤] موت النبى ﷺ واحد وثلاثون يوماً.

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: آخر آية نزلت: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية.

قال ابن جريج: يقولون: إن النبى ﷺ عاش بعدها تسع ليال، وبدئ[٥] يوم السبت ومات يوم الإثنين، رواه ابن جرير.

ورواه عطية عن أبى سعيد، قال: آخر آية أنزلت: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾.

هذه الآية الكريمةُ أطول آية فى القرآن العظيم، وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

حدثنا يونس، أخبرنا[٦] ابن وهب، أخبرنى يونس، عن ابن شهاب قال، حدثنى سعيد بن المسيب: أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدَّين.

---

(١) فى جـ، أ: «آخر ما نزل».
(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٠٥٧).
(٣) فى جـ، أ: «نزلت».
(٤) زيادة من جـ، أ، و.
(٥) فى و: «ومرض».
(٦) فى جـ: «أنبأنا».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم، عليه السلام، أن الله لما خلق آدم، مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذارئ إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلا يَزْهر، فقال: أى ربِّ، من هذا؟ قال: هو ابنك داود. قال: أى رب، كم عمره؟ قال: ستون عاماً، قال: رب زد فى عمره. قال: لا، إلا أن أزيده من عمرك. وكان عمر آدم ألف سنة، فزاده أربعين عاماً، فكتب عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة، فلما احتُضر آدم وأتته الملائكة قال: إنه قد بقى من عمرى أربعون عاماً، فقيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود. قال: ما فعلت. فأبرز الله عليه الكتاب، وأشهد عليه الملائكة».

وحدثنا أسود بن عامر، عن حماد بن سلمة، فذكره، وزاد فيه: «فأتمها الله لداود مائة، وأتمها لآدم ألف سنة»[١].

وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن يونس بن حبيب، عن أبى داود الطيالسى، عن حماد بن سلمة [به][٢].

هذا حديث غريب جداً، وعلى بن زيد بن جُدعان فى أحاديثه نكارة. وقد رواه الحاكم فى مستدركه بنحوه، من حديث الحارث بن عبد الرحمن بن أبى ذباب[٣]، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة. ومن رواية داود بن أبى هند، عن الشعبى، عن أبى هريرة. ومن طريق محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة. ومن حديث هشام[٤] بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكره بنحوه[٥].

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾. هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا فى آخر الآية حيث قال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾.

وقال سفيان الثورى، عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ قال: أنزلت فى السَّلَم إلى أجل معلوم.

وقال قتادة، عن أبى حَسَّان[٦] الأعرج، عن ابن عباس، قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. رواه البخارى.

وثبت فى الصحيحين من رواية سفيان بن عيينة، عن ابن أبى نَجيح، عن عبد الله بن كثير، عن أبى المنْهال، عن ابن عباس، قال: قدم النبى ﷺ المدينة وهم يُسْلفون فى الثمار السنتين والثلاث، فقال رسولَ الله ﷺ: «من أسلف فليسلف فى كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم»[٧].

(١) المسند (١/ ٢٥١، ٢٥٢).
(٢) زيادة من أ، و. (٣) فى أ: «بن أبى ذئاب». (٤) فى جـ، أ: «تمام».
(٥) المستدرك (١/ ٦٤، ٢/ ٥٨٦).
(٦) فى جـ، أ: «أبى حيان».
(٧) صحيح البخارى برقم (٢٢٤٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٠٤).

وقوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾: أمر منه تعالى بالكتابة [والحالة هذه][(١)] للتوثقة والحفظ، فإن قيل: فقد ثبت فى الصحيحين، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أمَّة أمية لا نكتب ولا نحسب»[(٢)]، فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة؟ فالجواب: أن الدّين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلا؛ لأن كتاب الله قد سَهل الله ويسر حفظه على الناس، والسنن أيضاً محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذى أمِر بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمروا أمْر إرشاد لا أمر إيجاب، كما ذهب إليه بعضهم.

قال ابن جريج: من ادّان فليكتب، ومن ابتاع فليُشْهد.

وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشىّ، كان رجلا صحب كعبا، فقال ذات يوم لأصحابه: هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له؟ فقالوا: وكيف [يكون][(٣)] ذلك؟ قال: رجل باع بيعاً إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب، فلما حل ماله جحده صاحبه، فدعا ربه فلم يستجب له؛ لأنه قد عصى ربه.

وقال أبو سعيد، والشعبى، والربيع بن أنس، والحسن، وابن جريج، وابن زيد، وغيرهم: كان ذلك واجباً ثم نسخ بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا ليث، عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن ابن هُرْمُز، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه ذكر «أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يُسْلفه ألف دينار، فقال: ائتنى بشهداء أشهدهم. قال: كفى بالله شهيداً. قال: ائتنى بكفيل. قال: كفى بالله كفيلا. قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج فى البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذى أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زَجج موضعها، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أنى استسلفت فلاناً ألف دينار، فسألنى كفيلا، فقلت: كفى بالله كفيلا. فرضى بذلك، وسألنى شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً. فرضى بذلك، وإنى قد جَهدْتُ أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذى أعطانى فلم أجد مركباً، وإنى استَوْدعْتُكَها. فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو فى ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً تجيئه بماله، فإذا بالخشبة التى فيها المال، فأخذها لأهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذى كان تَسَلَف منه، فأتاه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلى بشىء؟ قال: ألم أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل هذا الذى جئت فيه؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت به فى الخشبة، فانصرف بألفك راشداً».

وهذا إسناد صحيح[(٤)]، وقد رواه البخارى فى سبعة مواضع من طرق صحيحة[(٥)] معلقاً بصيغة

(١) زيادة من جـ، أ، و.
(٢) صحيح البخارى برقم (١٩١٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٨٠).
(٣) زيادة من أ، و.
(٤) المسند (٢/٣٤٨).
(٥) فى جـ، أ، و: «فى صحيحه».

الجزم، فقال: وقال الليث بن سعد، فذكره[١]. ويقال: إنه رواه فى بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث، عنه.

وقوله: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ أى: بالقسط والحق، ولا يَجُرْ فى كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾ أى: ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سُئِل أن يكتبَ للناس، ولا ضرورة عليه فى ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فَلْيتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء فى الحديث: «إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخْرَق»[٢]. وفى الحديث الآخر: «من كتم علماً يَعْلَمه أُلْجِمَ يوم القيامة بلجام من نار»[٣].

وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب.

وقوله: ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾أى: وليملل المدين على الكاتب ما فى ذمته من الدين، وليتق الله فى ذلك، ﴿ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أى: لا يكتم منه شيئاً، ﴿ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه، ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ أى: صغيراً أو مجنوناً ﴿ أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ إما لعى أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه. ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾.

وقوله: ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾، أمرٌ بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة، ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾، وهذا إنما يكون فى الأموال وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما قال مسلم فى صحيحه: حدثنا قتيبة، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبى عَمْرو، عن المَقْبُرى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإنى رأيتكُن أكثر أهل النار»، فقالت امرأة منهن جَزْلَة: وما لنا ـ يا رسول الله ـ أكثر أهل النار[٤]؟ قال: «تُكثرْنَ اللعن، وتكفُرْنَ العشير، ما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لُب منكن». قالت: يا رسول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تَعْدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالى لا تصلى، وتفطر فى رمضان، فهذا نقصان الدين»[٥].

وقوله: ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾: فيه دلالة على اشتراط العدالة فى الشهود، وهذا مقيَّد، حكَم به الشافعى على كل مطلق فى القرآن، من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط. وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلا مرضياً.

وقوله: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ يعنى: المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾أى: يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد، ولهذا قرأ آخرون: «فتُذَكر» بالتشديد من التذكار. ومن قال:

---

(١) صحيح البخارى برقم (١٤٩٨، ٢٢٩١، ٢٤٠٤، ٢٤٣٠، ٢٧٤٤، ٦٢٦١، ٢٠٦٣).
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٥١٨) من حديث أبى ذر رضى الله عنه.
(٣) رواه أحمد فى المسند (٢/ ٣٠٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٤) فى جـ: «يا رسول الله وما لنا أكثر أهل النار».
(٥) صحيح مسلم برقم (٨٠).

إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر[١] فقد أبعد، والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾: قيل: معناه: إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس. وهذا كقوله: ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾، ومن هاهنا استفيد أن تَحَمّل الشهادة فرض كفاية.

وقيل ـ وهو مذهب الجمهور ـ: المراد بقوله: ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾للأداء، لحقيقة قوله: ﴿ الشُّهَدَاءُ ﴾، والشاهد حقيقة فيمن[٢] تحمَّل، فإذا دعى لأدائها[٣] فعليه الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم.

وقال مجاهد وأبو مِجْلَز، وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت[٤] فأجب.

وقد ثبت فى صحيح مسلم والسنن، من طريق مالك، عن عبدالله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو ابن حَزْم، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الرحمن بن أبى عَمْرَة، عن زيد بن خالد: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذى يأتى بشهادته قبل أن يسألها»[٥].

فأما الحديث الآخر فى الصحيحين: «ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يُستَشْهَدوا»، وكذا قوله: «ثم يأتى قوم تسبق أيمانُهم شهادتهم وتسبق شهادتُهم أيمانهم». وفى رواية: «ثم يأتى قوم يَشْهَدُون ولا يُستَشْهَدون»[٦]. فهؤلاء شهود الزور. وقد روى عن ابن عباس والحسن البصرى: أنها تعم الحالين: التحمّل والأداء.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾: هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا ﴾ أى: لا تملوا أن تكتبوا الحق على أى حال كان من القلة والكثرة ﴿ إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أى: هذا الذى أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلا هو ﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أى: أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ﴾ أى: أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾: وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذى كتبتموه، فيفصل بينكم بلا ريبة.

وقوله: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ أى: إذا كان البيع بالحاضر يدا بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور فى تركها.

فأما الإشهاد على البيع، فقد قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنى يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر، حدثنى ابن لَهِيعة، حدثنى عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير

---

(١) فى و: «كشهادة رجل». (٢) فى جـ: «فقد».

(٣) فى جـ: «فإن دعى إلى الإدلاء بها». (٤) فى جـ: «وإذا دعيت».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٧١٩) وسنن أبى داود برقم (٣٥٩٦) وسنن الترمذى برقم (٢٢٩٦، ٢٢٩٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (٦٠٢٩) وسنن ابن ماجة برقم (٢٣٦٤).

(٦) صحيح البخارى برقم (٦٤٢٨) وصحيح مسلم برقم (٢٥٣٥).

فى قول الله: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ يعنى: أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن، فأشهدوا على حقكم على كل حال. قال: وروى عن جابر بن زيد، ومجاهد، وعطاء، والضحاك، نحو ذلك.

وقال الشعبى والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾.

وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب. والدليل على ذلك حديث خزَيمة بن ثابت الأنصارى، وقد رواه الإمام أحمد:

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهرى، حدثنى عمَارة بن خزيمة الأنصارى، أن عمه حدثه ـ وهو من أصحاب النبى ﷺ ـ أن النبى ﷺ ابتاع فرساً من أعرابى، فاستتبعه النبى ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبى ﷺ وأبطأ الأعرابى، فطفق رجال يعترضون الأعرابى فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبى ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابى فى السوم على ثمن الفرس الذى ابتاعه النبى ﷺ، فنادى الأعرابى النبى ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتَعْه، وإلا بعتُه، فقام النبى ﷺ حين سمع نداء الأعرابى، قال: «أوليس قد ابتعته منك؟» قال الأعرابى: لا، والله ما بعتك. فقال النبى ﷺ: «بل[(١)] قد ابتعته منك». فطفق الناس يلوذون بالنبى ﷺ والأعرابى وهما يتراجعان، فطفق الأعرابى يقول: هَلُم شهيداً يشهد أنى بايعتك. فمن جاء من المسلمين قال للأعرابى: ويلك! إن النبى[(٢)] ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً. حتى جاء خزَيمة، فاستمع لمراجعة النبى ﷺ ومراجعة الأعرابى يقول[(٣)]: هلم شهيداً يشهد أنى[(٤)] بايعتك. قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله. فجعل رسولُ الله ﷺ شهادة خزَيمة بشهادة رجلين.

وهكذا رواه أبو داود من حديث شعيب، والنسائى من رواية محمد بن الوليد الزبيرى[(٥)]، كلاهما عن الزهرى، به[(٦)] نحوه.

ولكن الاحتياط هو الإشهاد، لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه والحاكم فى مستدركه من رواية معاذ بن معاذ العنبرى، عن شعبة، عن فراس، عن الشعبى، عن أبى بُردة، عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلا مالا فلم يُشْهِد».

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، قال: ولم يخرجاه، لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبى موسى، وإنما أجمعوا على سند حديث شعبة بهذا الإسناد: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين»[(٧)].

وقوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: قيل: معناه: لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملى، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما.

وقيل: معناه: لا يضر بهما، كما قال ابن أبى حاتم:

---

(١) فى جـ: «بلى». (٢) فى و: «إن رسول الله».

(٣) فى جـ، أ، و: «وطفق الأعرابى يقول». (٤) فى و: «أنى قد». (٥) فى جـ: «الزبيدى».

(٦) المسند (٥/٢١٣) وسنن أبى داود برقم (٣٦٠٧) وسنن النسائى (٧/٣٠١).

(٧) المستدرك (٢/٣٠٢).

حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين ـ يعنى ابن حفص ـ حدثنا سفيان، عن يزيد بن أبى زياد، عن مقسَم، عن ابن عباس فى هذه الآية: ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ﴾ قال: يأتى الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة فيقول: إنكما قد أمرتما أن تجيبا. فليس له أن يضارهما.

ثم قال: وروى عن عكرمة، ومجاهد، وطاوس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعطية، ومقاتل ابن حيَّان، والربيع بن أنس، والسدى، نحو ذلك.

وقوله: ﴿ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أى: إن خالفتم ما أمرتم به، وفعلتم ما نَهِيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أى: لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون منه.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره واتركوا زجره[1] ، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ كقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وكقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى: هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، فلا يخفى عليه شىء من الأشياء، بل علمه محيط بجميع الكائنات.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أى: مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب لكم. قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجد قرطاساً أو دواة أو قلماً فَرُهُن مقبوضة، أى: فَلْيكن بدل الكتابة رِهَان مقبوضة فى يد صاحب الحق.

وقد استدل بقوله: ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾، على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض، كما هو مذهب الشافعى والجمهور، واستدل بها آخرون على أنه لابد أن يكون الرهن مقبوضاً فى يد المرتهن، وهو رواية عن الإمام أحمد، وذهب إليه طائفة.

واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعا إلا فى السفر، قاله مجاهد وغيره.

وقد ثبت فى الصحيحين، عن أنس، أن رسُولَ الله ﷺ تُوفِّى وَدِرْعُه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسْقا من شعير، رهنها قوتاً لأهله[2]. وفى رواية: من يهود المدينة[3]. وفى رواية الشافعى: عند أبى الشحم اليهودى[4]. وتقرير هذه المسائل فى كتاب «الأحكام الكبير»، ولله الحمد والمنة، وبه

(١) فى و: «زواجره».

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٥٠٨) ولم أقع عليه فى صحيح مسلم من حديث أنس وهو فيه من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٣) الرواية فى سنن النسائى (٧/ ٢٨٨).

(٤) مسند الشافعى (ص٢٥١).

المستعان.

وقوله: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾، روى ابنُ أبى حاتم بإسناد جيد، عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: هذه نسخت ما قبلها.

وقال الشعبى: إذا ائتمن بعضكم(١) بعضاً فلا بأس ألا تكتبوا أو لا تُشهدوا.

وقوله: ﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ يعنى: المؤتَمن، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من رواية قتادة، عن الحسن، عن سَمُرة: أن رسول الله ﷺ قال: «على اليد ما أخذت حتى تؤديه»(٢).

وقوله: ﴿ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ أى: لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها. قال ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر، وكتمانها كذلك. ولهذا قال: ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، قال السدى: يعنى: فاجر قلبه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) ﴾.

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيُحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه فى صدورهم كما قال: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وقال: ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، والآيات فى ذلك(٣) كثيرة جداً، وقد أخبر فى هذه بمزيد على العلم، وهو: المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة، رضى الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنى أبو(٤) عبد الرحمن ـ

(١) فى جـ: «بعضهم».

(٢) المسند (٥/ ١٢) وسنن أبى داود برقم (٣٥٦١) وسنن الترمذى برقم (١٢٦٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٧٨٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٤٠٠).

(٣) فى جـ، أ: «فى هذا».

(٤) فى جـ، أ، و: «حدثنى ابن».

يعني العلاء ـ عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: **﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾**، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما أقر بها[١] القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾**. فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل: **﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾**، إلى آخره[٢].

ورواه مسلم متفرداً به، من حديث يزيد بن زريع، عن روح بن القاسم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، فذكر مثله[٣]، ولفظه: «فلما فعلوا [ذلك][٤] نسخها الله، فأنزل: **﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾** قال: نعم، **﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا﴾** قال: نعم، **﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾** قال: نعم، **﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾** قال: نعم.

حديث ابن عباس في ذلك: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن آدم بن سليمان، سمعت سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: **﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾** قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، قال: فقال رسول الله، ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلّمنا». فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾**، إلى قوله: **﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾**.

وهكذا رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، وأبي كريب، وإسحاق بن إبراهيم، ثلاثتهم عن وكيع، به[٥]، وزاد: **﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾** قال: قد فعلت **﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا﴾** قال: قد فعلت، **﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾** قال: قد فعلت **﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا [فانصرنا][٦]﴾** قال: قد فعلت.

طريق أخرى عن ابن عباس: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، قال: دخلت على ابن عباس فقلت: يا أبا عباس، كنت عند ابن عمر فقرأ

---

(١) في أ، و: «فلما اقترأها».

(٢) المسند (٢/ ٤١٢).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٢٥).

(٤) زيادة من صحيح مسلم (١٢٥).

(٥) المسند (١/ ٢٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٢٦).

(٦) زيادة من جـ، أ، و.

هذه الآية فبكى. قال: أيَّة آية؟ قلت: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾. قال ابن عباس، إن هذه الآية حين أنزلت[(١)] غَمَّت أصحاب رسول الله ﷺ غماً شديداً، وغاظتهم غيظاً شديداً، يعنى، وقالوا: يا رسول الله، هلكنا، إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال لهم رسول الله، ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا». قالوا: سمعنا وأطعنا. قال: فنسختها هذه الآية: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، فتَجوز لهم عن حديث النفس وأخذوا بالأعمال[(٢)].

طريق أخرى عنه: قال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن مَرْجانة، سمعه يحدث أنه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية. فقال: والله لئن واخذنا الله بهذا لنهلكن، ثم بكى ابن عمر حتى سُمع نشيجه. قال ابن مَرْجانة: فقمت حتى أتيت ابن عباس، فذكرت له ما قال ابن عمر، وما فعل حين تلاها، فقال عبد الله بن عباس: يغفر الله لأبى عبد الرحمن. لَعَمْرى لقد وَجَد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر، فأنزل الله بعدها: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ إلى آخر السورة، قال ابن عباس: فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر إلى أن قضى الله، عزوجل، أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت فى القول والفعل[(٣)].

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يزيد بن هارون، عن سفيان ابن حسين، عن الزهرى، عن سالم: أن أباه قرأ: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ فدمعت عيناه، فبلغ صنيعه ابن عباس، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، لقد صنع كما صنع أصحاب رسول الله ﷺ حين أنزلت، فنسختها الآية التى بعدها: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[(٤)].

فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس.

قال البخارى: حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن خالد الحذاء، عن مَرْوان الأصفر، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ـ أحسبُه ابن عمر ـ ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال: نسختها الآية التى بعدها[(٥)].

وهكذا رُوى عن على، وابن مسعود، وكعب الأحبار، والشعبى، والنخَعى، ومحمد بن كعب القُرَظى، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وقتادة: أنها منسوخة بالتى بعدها.

وقد ثبت بما رواه الجماعة فى كتبهم الستة من طريق قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها، ما لم تكلّم أو

---

(١) فى جـ: «نزلت».
(٢) المسند (١/ ٣٣٢).
(٣) تفسير الطبرى (٦/ ١٠٦).
(٤) تفسير الطبرى (٦/ ١٠٨).
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥٤٦).

تعمل[١]»[٢].

وفى الصحيحين، من حديث سفيان بن عُيَينة، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: إذا هَم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنَة، فإن عملها فاكتبوها عشراً». لفظ مسلم[٣]، وهو فى أفراده من طريق إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة»[٤].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن هَمام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة، عن محمد رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: إذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة، فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له، ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها». وقال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكة: رب، وإن عبدك يريد أن يعمل سيئة ـ وهو أبصر به ـ فقال: ارقُبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، وإنما تركها من جَراى». وقال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحد[٥] إسلامه، فكل[٦] حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل».

تفرد به مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق بهذا السياق واللفظ[٧]، وبعضه فى صحيح البخارى.

وقال مسلم أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له [عشرا][٨] إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب، وإن عملها كُتِبَت». تفرد به مسلم دون غيره من أصحاب الكتب[٩].

[وقال مسلم][١٠]: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا عبد الوارث، عن الجَعْد أبى عثمان، حدثنا أبو رجاء العُطَاردى، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تعالى قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هَمّ بحسنة فلم يعملها كَتَبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. وإن هم بسيئة فلم

---

(١) فى أ، و: «تعمل به».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٧) وسنن أبى داود برقم (٢٢٠٩) وسنن الترمذى برقم (١١٨٣) وسنن النسائى (٦/ ١٥٦) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٤٠).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٢٨)، ولم أقع عليه من هذا الطريق فى صحيح البخارى.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٢٨).

(٥) فى جـ، أ، و: «أحدكم».

(٦) فى هـ، أ، و: «فإن له بكل» والمثبت من صحيح مسلم.

(٧) صحيح مسلم برقم (١٢٩).

(٨) زيادة من صحيح مسلم (١٣٠).

(٩) صحيح مسلم برقم (١٣٠).

(١٠) زيادة من و.

يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»[١].

ثم رواه مسلم، عن يحيى بن يحيى، عن جعفر بن سليمان، عن الجعد أبى عثمان فى هذا الإسناد بمعنى حديث عبد الوارث[٢]، وزاد: «ومحاها الله، ولا يَهلك على الله إلا هالك».

وفى حديث سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوه: إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان».

لفظ مسلم[٣]، وهو عند مسلم أيضاً من طريق الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ، به. وروى مسلم [أيضاً][٤] من حديث مغيرة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، قال: «تلك صريح[٥] الإيمان»[٦]. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ فإنها لم تُنْسَخ، ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول: إنى أخبركم بما أخفيتم فى أنفسكم، مما لم يطلع عليه ملائكتى، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله: ﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾، يقول: يخبركم، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب وهو قوله: ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾، وهو قوله: ﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥] أى: من الشك والنفاق. وقد روى العوفى والضحاك عنه قريباً من هذا.

وروى ابن جرير، عن مجاهد والضحاك، نحوه. وعن الحسن البصرى أنه قال: هى مُحْكَمة لم تنسخ. واختار ابن جرير ذلك، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى[٧] قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب بالحديث الذى رواه عند هذه الآية، قائلا: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبى عدى، عن سعيد وهشام، (ح) وحدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا هشام، قالا جميعاً فى حديثهما: عن قتادة، عن صفوان بن مُحْرز، قال: بينا نحن نطوف بالبيت مع عبد الله ابن عمر، وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى؟ فقال: سمعت نبى الله[٨] ﷺ يقول: «يدنو المؤمن مِنْ ربه، عزوجل، حتى يضع عليه كَنَفَه، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعْرِف ـ مرتين ـ حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم». قال: «فيعطي صحيفة حسناته ـ أو كتابه ـ بيمينه، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد: ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾»[٩] [هود: ١٨].

(١، ٢) صحيح مسلم برقم (١٣١).

(٣) صحيح مسلم برقم (١٣٢).

(٤) زيادة من و.

(٥) فى أ، و: «تلك محض».

(٦) صحيح مسلم برقم (١٣٣).

(٧) فى جـ: «وأنه سبحانه وتعالى».

(٨) فى جـ: «سمعت رسول الله».

(٩) تفسير الطبرى (٦/ ١١٩، ١٢٠).

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وغيرهما من طرق متعددة، عن قتادة، به[(١)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أمية[(٢)] قالت: سألت عائشة عن هذه الآية: ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ فقالت: ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «هذه مبايعة الله العبد، وما يصيبه من الحمى، والنَّكبة، والبضاعة يضعها فى يد كمه، فيفتقدها فيفزع لها، ثم يجدها فى ضِبْنه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر [من الكير][(٣)]».

وكذا رواه الترمذى، وابن جرير من طريق حماد بن سلمة، به[(٤)]. وقال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

قلت: وشيخه على بن زيد بن جُدْعان ضعيف، يغرب فى رواياته، وهو يروى هذا الحديث عن امرأة أبيه: أم محمد أمية بنت عبد الله، عن عائشة، وليس لها عنها فى الكتب سواه.

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾.

ذكر الأحاديث الواردة
فى فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما

الحديث الأول: قال البخارى: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن، عن أبى مسعود، عن النبى ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين»، وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبى مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كَفَتَاه»[(٥)].

وقد أخرجه بقية الجماعة من طريق سليمان بن مِهْران الأعمش، بإسناده، مثله[(٦)]. وهو فى الصحيحين من طريق الثورى، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن، عنه، به[(٧)]. وهو فى الصحيحين أيضاً عن عبد الرحمن، عن علقمة عن أبى مسعود ـ قال عبد الرحمن: ثم لقيت أبا

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٨).

(٢) فى جـ: «عن آمنة».

(٣) زيادة من تفسير الطبرى (٦/١١٧).

(٤) سنن الترمذى برقم (٢٩٩١).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٨).

(٦) صحيح مسلم برقم (٨٠٨) وسنن أبى داود برقم (١٣٩٧) وسنن الترمذى برقم (٢٨٨١) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠١٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٦٨).

(٧) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٩) و صحيح مسلم برقم (٨٠٧)؛ ولكنه فيه عن زهير، عن منصور به.

مسعود، فحدثني به[١].

وهكذا رواه أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شريك، عن عاصم، عن المسيب بن رافع، عن علقمة، عن أبي مسعود، عن النبي ﷺ، قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلته كفتاه»[٢].

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا شيبان، عن منصور، عن ربعي، عن خَرَشة بن الحُر، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيتُ خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يعطهن نبي قبلي»[٣].

وقد رواه ابن مردويه، من حديث الأشجعي، عن الثوري، عن منصور، عن رِبْعِي، عن زيد ابن ظَبْيان، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش»[٤].

الحديث الثالث: قال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو أسَامة، حدثنا مالك بن مغْول (ح) وحدثنا ابن نُمَير، وزهير بن حرب جميعاً، عن عبد الله بن نُمير ـ وألفاظهم متقاربة ـ قال ابن نمير: حدثنا أبي، حدثنا مالك بن مغْوَل، عن الزبير بن عدي[٥]، عن طلحة، عن مُرَة، عن عبد الله، قال: لما أسْرِىَ برسول الله ﷺ انْتُهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يَعْرج به من الأرض فَيُقْبَض منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فيُقْبَض منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦]، قال: فرَاش من ذهب. قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعْطِيَ الصلوات الخمس، وأعْطِيَ خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المُقْحَمات[٦].

الحديث الرابع: قال أحمد: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الرازي، حدثنا سلمة بن الفضل، حدثني محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن مَرْثَد بن عبد الله اليزني، عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإني أعطيتهما من تحت العرش». هذا إسناد حسن، ولم يخرجوه في كتبهم[٧].

الحديث الخامس: قال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحربي، أخبرنا مُسَدَّد[٨] أخبرنا أبو[٩] عوانة، عن أبي مالك، عن رِبْعي، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث، أوتيت هؤلاء الآيات من آخر سورة البقرة من بيت كنز تحت

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٠٠٨) وصحيح مسلم برقم (٨٠٨).

(٢) المسند (٤/ ١١٨).

(٣) المسند (٥/ ١٥١).

(٤) ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٤٠٤) من طريق الأشجعي به.

(٥) في أ: «بن علي».

(٦) صحيح مسلم برقم (١٧٣).

(٧) المسند (٤/ ١٤٧).

(٨) في أ: «أخبرنا مسروق».

(٩) في جـ، أ: «عن أبي».

العرش، لم يعطها أحد قبلي، ولا يعطاها أحد بعدي»(١).

ثم رواه من حديث نُعَيم بن أبي هند، عن ربعي، عن حذيفة، بنحوه.

الحديث السادس: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقي بن قانع، أنبأنا إسماعيل بن الفضل، أخبرنا محمد بن حاتم بن بزَيع، أخبرنا جعفر بن عون، عن مالك بن مِغْول، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: لا أرى أحداً عَقِل الإسلام ينام حتى يقرأ خواتيم سورة البقرة، فإنها كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش.

ورواه وَكِيع عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمير بن عمرو الخارفي، عن علي قال: ما أرى أحداً يعقل، بلغه الإسلام، ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز تحت العرش(٢).

الحديث السابع: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا بُنْدَار، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن سلمة، عن أشعث بن عبد الرحمن الجَرْمي(٣)، عن أبي قِلابَة، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختما بهما(٤) سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان». ثم قال: هذا حديث غريب. وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث حماد بن سلمة به، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه(٥) (٦).

الحديث الثامن: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن مدين، أخبرنا الحسن بن الجهم، أخبرنا إسماعيل بن عمرو، أخبرنا ابن أبي مريم، حدثني يوسف بن أبي الحجاج، عن سعيد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسي ضحك، وقال: «إنهما من كنز الرحمن تحت العرش». وإذا قرأ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤١]، استرجع واستكان(٧).

الحديث التاسع: قال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن محمد بن كوفي، حدثنا أحمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا محمد بن بكر(٨)، حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن أبي حميد، عن أبي مَلِيح، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، والمُفَصل نافلة»(٩).

---

(١) ورواه النسائي في السنن الكبرى برقم (٨٠٢٢) من طريق آدم بن أبي إياس، عن أبي عوانة به.

(٢) ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن برقم (١٦٩) من طريق أبي إسحاق، عن عمير بن سعيد به، قال النووي: «صحيح على شرط البخاري ومسلم».

(٣) في أ: «الصنعاني».　　　(٤) في جـ: «ختم بها».

(٥) في أ: «ولم يخرجه».

(٦) سنن الترمذي برقم (٢٨٨٢) والمستدرك (١/ ٥٦٢).

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٧) وعزاه لابن مردويه، وفي إسناده مجاهيل.

(٨) في أ: «ابن بكير».

(٩) ورواه الحاكم في المستدرك وصححه (١/ ٥٥٩) من طريق عبيد الله بن أبي حميد به نحوه، وتعقبه الذهبي بقوله: «فيه عبيد الله ابن أبي حميد تركوه».

الحديث العاشر: قد تقدم فى فضائل الفاتحة، من رواية عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل؛ إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فُتح قَط. قال: فنزل منه مَلَك، فأتى النبى ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبى قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته، رواه مسلم والنسائى، وهذا لفظه[١].

[**الحديث الحادى عشر**: قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى فى مسنده: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا أيفع بن عبد الله الكلاعى[٢] قال: قال رجل: يا رسول الله، أى آية فى كتاب الله أعظم؟ قال: «آية الكرسى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» قال: فأى آية فى كتاب الله تحب أن تصيبك وأمتك؟ قال: «آخر سورة البقرة، ولم يترك خيراً فى الدنيا والآخرة إلا اشتملت عليه»[٣]][٤].

فقوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾: إخبار عن النبى ﷺ بذلك.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «ويحق له أن يؤمن»[٥].

وقد روى الحاكم فى مستدركه: حدثنا أبو النضر الفقيه، حدثنا معاذ بن نجدة القرشى، حدثنا خلاد بن يحيى، حدثنا أبو عقيل، عن يحيى بن أبى كثير، عن أنس بن مالك، قال: لما نزلت هذه الآية على النبى ﷺ ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾، قال النبى ﷺ: «حق له أن يؤمن». ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[٦].

وقوله: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ عطف على ﴿ الرَّسُولُ ﴾، ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾، فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مَهْديون هادون إلى سُبُل[٧] الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نُسخ الجميع بشرع محمدٍ ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذى تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين.

وقوله: ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أى: سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه، وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه، ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ سؤال للغَفْر[٨] والرحمة واللطف.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن حرب الموصلى، حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب،

(١) صحيح مسلم برقم (٨٠٦) وسنن النسائى (٢/ ١٣٨).
(٢) فى الإصابة: «أيفع بن عبد الكلاعى».
(٣) سنن الدارمى برقم (٣٣٨٠) وقال الحافظ ابن حجر فى الإصابة (١/ ١٣٩): «هو مرسل أو معضل».
(٤) زيادة من جـ.
(٥) تفسير الطبرى (٦/ ١٢٤).
(٦) المستدرك (٢/ ٢٨٧) وتعقبه الذهبى، قلت: «منقطع»، وذلك لأن يحيى بن أبى كثير رأى أنساً ولم يسمع منه.
(٧) فى أ: «إلى سبيل».
(٨) فى جـ، أ: «بالعفو».

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قول الله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، إلى قوله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ قال: قد غفرت لكم، ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أى: إليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن بيان، عن حكيم بن جابر قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ قال جبريل: إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك، فسل تُعْطه. فسأل: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ إلى آخر الآية[(١)].

وقوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أى: لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هى الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة، فى قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ أى: هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك[(٢)] الشخص دفعه، فأما ما لا يمكن دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان.

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أى: من خير، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أى: من شر، وذلك فى الأعمال التى تدخل تحت التكليف، ثم قال[(٣)] تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن [نَّسِينَا][(٤)]﴾ أى: إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أى: الصوابَ فى العمل، جهلا منا بوجهه الشرعى.

وقد تقدم فى صحيح مسلم لحديث أبى هريرة: «قال الله: نعم» ولحديث[(٥)] ابن عباس، قال الله: «قد فعلت».

وروى ابن ماجة فى سننه، وابن حبان فى صحيحه[(٦)]، من حديث أبى عمرو الأوزاعى، عن عطاء ـ قال ابن ماجة فى روايته: عن ابن عباس. وقال الطبرانى وابن حبان: عن عطاء، عن عبيد بن عُمير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع[(٧)] عن أمتى الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه». وقد روى من طُرُق أخَر وأعله[(٨)] أحمد وأبو حاتم[(٩)]، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبو بكر الهذلى، عن شهر، عن أم الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتى عن ثلاث: عن الخطأ، والنسيان، والاستكراه» قال أبو بكر: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرآناً: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا

---

(١) فى أ، و: «إلى آخر السورة». (٢) فى ا، و: «على ما يملك».
(٣) فى جـ: «وقال». (٤) زيادة من أ، و. (٥) فى جـ: «وبحديث».
(٦) سنن ابن ماجة برقم (٢٠٤٥) وصحيح ابن حبان برقم (١٤٩٨) «موارد».
(٧) فى أ: «إن الله قد وضع». (٨) فى جـ، أ، و: «وعلله».
(٩) العلل لابن أبى حاتم (١/ ٤٣١) والعلل للإمام أحمد (١/ ٢٢٧) وانظر فى تفصيل الكلام على الحديث وعلته: جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب (٢/ ٣٦١) ط. الرسالة، وفتح البارى للحافظ ابن حجر (٥/ ١٦١).

إن نَّسينا أَوْ أَخطَأْنَا﴾[١].

وقوله: ﴿ رَبَّنَا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أى: لا تكلّفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التى كانت عليهم، التى بعثتَ نبيَك محمداً ﷺ نبى الرحمة بوضعه فى شرعه الذى أرسلته به، من الدين الحنيف السهل السمح.

وقد ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: نعم».

وعن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: قد فعلت». وجاء الحديث من طرق، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحَنيفيَّة السَّمْحة»[٢].

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أى: من التكليف والمصائب والبلاء، لاتبتلينا بما لا قبل لنا به.

وقد قال مكحول فى قوله: ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: الغرْبة والغُلْمة، رواه[٣] ابن أبى حاتم، «قال الله: نعم» وفى الحديث الآخر: «قال الله: قد فعلت».

وقوله: ﴿وَاعْفُ عَنَّا ﴾ أى: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أى: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ أى: فيما يُسْتَقبل، فلا توقعنا بتوفيقك فى ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه فى نظيره. وقد تقدم فى الحديث أن الله قال: نعم. وفى الحديث الآخر: «قال الله: قد فعلت».

وقوله: ﴿أَنتَ مَوْلانَا﴾ أى: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك[٤] ، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم فى الدنيا والآخرة، قال الله: نعم. وفى الحديث الذى رواه مسلم، عن ابن عباس: «قال الله: قد فعلت».

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى بن إبراهيم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، أن معاذاً، رضى الله عنه، كان إذا فرغ من هذه السورة[٥] ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: آمين[٦].

ورواه وكيع عن سفيان، عن أبى إسحاق، عن رجل، عن معاذ بن جبل: أنه كان إذا ختم البقرة قال: آمين[٧].

(١) ورواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٢٥) من طريق أبى بكر الهذلى، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبى الدرداء مرفوعاً وليس عنده قول أبى بكر للحسن.

(٢) جاء من حديث أبى أمامة، وابن عباس، وعائشة، وجابر رضى الله عنهم، أصحها حديث ابن عباس رواه الإمام أحمد فى المسند (١/ ٢٣٦) وحسنه الحافظ ابن حجر فى الفتح.

(٣) فى جـ: «ورواه». (٤) فى جـ: «إلا بالله». (٥) فى جـ: «من سورة البقرة».

(٦) تفسير الطبرى (٦/ ١٤٦).

(٧) جاء فى جـ: «آخر تفسير سورة البقرة ولله الحمد والمنة والفضل والثناء الحسن الجميل، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، يتلوه إن شاء الله سورة آل عمران».

الفهرس

الإهداء .... ٥ م

مقدمة التحقيق .... ٧ م

القسم الأول

الدراسة

المبحث الأول: ترجمة الحافظ ابن كثير .... ١٣ م

المبحث الثاني: كتاب تفسير القرآن العظيم .... ١٨ م

القسم الثاني

النص المحقق

مقدمة ابن كثير ٥

كتاب فضائل القرآن ١٧

سورة الفاتحة ١٠١

سورة البقرة ١٤٩